تفسير القرآن الكريم

بوضوح وبيان

د. مجيد الخليفة

الجزء الرابع

تفسير القرآن الكريم

بوضوح وبيان

منشورات

الالكترونية

١٤٤٦هـ/٢٠٢٥

تفسير القرآن الكريم

بوضوح وبيان

د. مجيد الخليفة

الجزء الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةَ الْكَهْفِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ فِي قَوْلِ جَمِيعِ الْمُفَسِّرِينَ، سَمَّاهَا رَسُول الله صلّىٰ الله عَلَيْهِ وَآله وسلّم سُورَةَ الْكَهْفِ ، رَوَىٰ مُسلم، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَن النبيء صلّىٰ الله عَلَيْهِ وَآله وسلّم قَالَ: «**مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ**» ، وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «**مِنْ آخِرِ الْكَهْفِ، عُصِمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ**»[١] ، وَكَذَلِكَ وَرَدَتْ تَسْمِيَتُهَا عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» ، قَالَ: «كَانَ رَجُلٌ يَقْرَأُ سُورَةَ الْكَهْفِ وَإِلَىٰ جَانِبِهِ حِصَانٌ مَرْبُوطٌ بِشَطَنَيْنِ فَتَغَشَّتْهُ سَحَابَةٌ فَجَعَلَتْ تَدْنُو، وَتَدْنُو، وَجَعَلَ فَرَسُهُ يَنْفِرُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَىٰ النبيء صلّىٰ الله عَلَيْهِ وَآله وسلّم فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: **تِلْكَ السَّكِينَةُ تَنَزَّلَتْ بِالْقُرْآنِ**»[٢] .

وَهِيَ مِنَ السُّوَرِ الَّتِي نَزَلَتْ جُمْلَةً وَاحِدَةً ، رَوَىٰ الديلمي فِي مُسْنَد الْفِرْدَوْسِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: «نَزَلَتْ سُورَةُ الْكَهْفِ جُمْلَةً مَعَهَا سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ» ، ذَكَرَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ، وَبَسَطَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي سِيرَتِهِ بِدُونِ سَنَدٍ، وَأَسْنَدَهُ الطَّبَرِيُّ إِلَىٰ ابْنِ عَبَّاسٍ بِسَنَدٍ فِيهِ رَجُلٌ مَجْهُولٌ: أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمَّا

---

(١) مسلم (٨٠٩) .

(٢) البخاري (٥٠١٨) .

أَهَمَّهُمْ أَمر النبيء صلّىٰ الله عَلَيْهِ وَآله وسلّم وَازْدِيَادُ الْمُسْلِمِينَ مَعَهُ وَكَثُرَ تَسَاؤُلُ الْوَافِدِينَ إِلَىٰ مَكَّةَ مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ عَنْ أَمْرِ دَعْوَتِهِ، بَعَثُوا النَّضْرَ بْنَ الْحَارِثِ، وَعُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ إِلَىٰ أَحْبَارِ الْيَهُودِ بِالْمَدِينَةِ (يَثْرِبَ) يَسْأَلُونَهُمْ رَأْيَهُمْ فِي دَعْوَتِهِ، وَهُمْ يَطْمَعُونَ أَنْ يَجِدَ لَهُمُ الْأَحْبَارُ مَا لَمْ يَهْتَدُوا إِلَيْهِ مِمَّا يُوَجِّهُونَ بِهِ تَكْذِيبَهُمْ إِيَّاهُ، قَالُوا: فَإِنَّ الْيَهُودَ أَهْلُ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ وَعِنْدَهُمْ مِنْ عِلْمِ الْأَنْبِيَاءِ (أَيْ صِفَاتِهِمْ وَعَلَامَاتِهِمْ) عِلْمٌ لَيْسَ عِنْدَنَا، فَقَدِمَ النَّضْرُ وَعُقْبَةُ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ وَوَصَفَا لِلْيَهُودِ دَعْوَةَ النبيء صلّىٰ الله عَلَيْهِ وَآله وسلّم

وَأَخْبَرَاهُمْ بِبَعْضِ قَوْلِهِ، فَقَالَ لَهُمْ أَحْبَارُ الْيَهُودِ: سَلُوهُ عَنْ ثَلَاثٍ؟ فَإِنْ أَخْبَرَكُمْ بِهِنَّ فَهُوَ نَبِيٌّ وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَالرَّجُلُ مُتَقَوِّلٌ، سَلُوهُ عَنْ فِتْيَةٍ ذَهَبُوا فِي الدَّهْرِ الْأَوَّلِ مَا كَانَ أَمْرُهُمْ، وَسَلُوهُ عَنْ رَجُلٍ طَوَّافٍ قَدْ بَلَغَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، وَسَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ مَا هِيَ، فَرَجَعَ النَّضْرُ وَعُقْبَةُ فَأَخْبَرَا قُرَيْشًا بِمَا قَالَهُ أَحْبَارُ الْيَهُودِ، فَجَاءَ جَمْعٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِلَىٰ رَسُول الله صلّىٰ الله عَلَيْهِ وَآله وسلّم فَسَأَلُوهُ عَنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ فَقَالَ لَهُمْ رَسُول الله صلّىٰ الله عَلَيْهِ وَآله وسلّم: أُخْبِرُكُمْ بِمَا سَأَلْتُمْ عَنْهُ غَدًا ، وَهُوَ يَنْتَظِرُ وَقْتَ نُزُولِ الْوَحْيِ عَلَيْهِ بِحَسَبِ عَادَةٍ يَعْلَمُهَا، وَلَمْ يَقُلْ: إِنْ شَاءَ اللهُ، فَمَكَثَ رَسُولُ اللهِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَا يُوحَىٰ إِلَيْهِ، وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا، فَأَرْجَفَ أَهْلُ مَكَّةَ وَقَالُوا: وَعَدَنَا مُحَمَّدٌ غَدًا وَقَدْ أَصْبَحْنَا الْيَوْمَ عِدَّةَ أَيَّامٍ لَا يُخْبِرُنَا بِشَيْءٍ مِمَّا سَأَلْنَاهُ عَنْهُ، حَتَّىٰ أَحْزَنَ ذَلِكَ رَسُول الله صلّىٰ الله عَلَيْهِ وَآله وسلّم وَشَقَّ عَلَيْهِ، ثُمَّ جَاءَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

بِسُورَةِ الْكَهْفِ وَفِيهَا جَوَابُهُمْ عَنِ الْفِتْيَةِ وَهُمْ أَهْلُ الْكَهْفِ، وَعَنِ الرَّجُلِ الطَّوَّافِ وَهُوَ ذُو الْقَرْنَيْنِ. وَأُنْزِلَ عَلَيْهِ فِيمَا سَأَلُوهُ مِنْ أَمر الرّوح : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء :٨٥].

وَرُوِيَ فِي فَضْلِهَا مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: « **مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ لَيْلَةَ الْجُمْعَةِ أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ** »(١) ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّ نَبِيَّ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:« **مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ**» ، وَفِي رِوَايَةٍ : « **مِنْ آخِرِ الْكَهْفِ**»(٢) ، وَفِي مُسْلِمٍ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ : « **فَمَنْ أَدْرَكَهُ- يَعْنِي الدَّجَّالَ- فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ**»(٣).

فَائدةٌ : لِوَضْعِ هَذِهِ السُّورَةِ عَلَىٰ هَذَا التَّرْتِيبِ فِي الْمُصْحَفِ مُنَاسَبَةٌ حَسَنَةٌ أَلْهَمَ اللهُ إِلَيْهَا أَصْحَابَ رَسُول الله صلّىٰ الله عَلَيْهِ وَآله وسلّم لَمَّا رَتَّبُوا الْمُصْحَفَ فَإِنَّهَا تُقَارِبُ نِصْفَ الْمُصْحَفِ ، إِذْ كَانَ فِي أَوَائِلِهَا مَوْضِعٌ ، قِيلَ هُوَ نِصْفُ حُرُوفِ الْقُرْآنِ وَهُوَ (التَّاءُ) مِنْ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ [الْكَهْف: ١٩] فَجُعِلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ فِي مَكَانِ قُرَابَةِ نِصْفِ الْمُصْحَفِ، وَهِيَ مُفْتَتَحَةٌ بِالْحَمْدِ حَتَّىٰ يَكُونَ افْتِتَاحُ النِّصْفِ الثَّانِي مِنَ الْقُرْآنِ بِـ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ [الْكَهْف: ١] كَمَا

(١) الدارمي (٣٤٠٧) ، والحاكم (٣٣٩٢) .

(٢) مسلم (٨٠٩) .

(٣) مسلم (٢٩٣٧) .

كَانَ افْتِتَاحُ النِّصْفِ الْأَوَّلِ بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الْفَاتِحَة: ٢]، وَكَمَا كَانَ أَوَّلُ الرُّبُعِ الرَّابِعِ مِنْهُ تَقْرِيبًا بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١].

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ أَثْنَىٰ اللهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بِإِنْعَامِهِ علىٰ خلقه، وخص رَسُولِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالذِّكْرِ، لِأَنَّ إِنْزَالَ الْقُرْآنِ عَلَيْهِ كَانَ نِعْمَةً عَلَيْهِ عَلَىٰ الْخُصُوصِ وَعَلَىٰ سَائِرِ النَّاسِ عَلَىٰ الْعُمُومِ. ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا﴾ الْعِوَجُ حَقِيقَتُهُ: انْحِرَافُ جِسْمٍ مَا عَنِ الشَّكْلِ الْمُسْتَقِيمِ، فَهُوَ ضِدُّ الِاسْتِقَامَةِ، وَيُطْلَقُ مَجَازًا عَلَىٰ الِانْحِرَافِ عَنِ الصَّوَابِ وَالْمَعَانِي الْمَقْبُولَةِ الْمُسْتَحْسَنَةِ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَيِّمًا﴾ أَيْ مُعْتَدِلًا لَا اخْتِلَافَ فِيهِ، قال ابن عباس: أنزل الْكتاب عدلاً قيمًا وَلم يجل لَهُ عوجا ملتبسًا، وَقَالَ قَتَادَةُ: الْكَلَامُ عَلَىٰ سِيَاقِهِ مِنْ غَيْرِ تَقْدِيمٍ وَلَا تَأْخِيرٍ، وَمَعْنَاهُ: وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ قيمًا، وقال الفراء: قَيِّمًا عَلَىٰ الْكُتُبِ كُلِّهَا أَيْ: مُصَدِّقًا لَهَا نَاسِخًا لِشَرَائِعِهَا. الْمَعْنَىٰ: مُسْتَقِيمٌ، أَيْ مُسْتَقِيمُ الْحِكْمَةِ لَا خَطَأَ فِيهِ وَلَا فَسَادَ وَلَا تَنَاقُضَ، وَقِيلَ: ﴿قَيِّمًا﴾ عَلَىٰ الْكُتُبِ السَّابِقَةِ يُصَدِّقُهَا، وَقِيلَ: ﴿قَيِّمًا﴾ بِالْحُجَجِ أَبَدًا، وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ عِوَجٌ، أَيْ عَيْبٌ، أَيْ لَيْسَ مُتَنَاقِضًا مختلفا، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيراً﴾ [النساء: ٨٢]، قَوْلُهُ: ﴿لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ أَيْ لِيُنْذِرَ بِبَأْسٍ شَدِيدٍ،أَيْ لِيُنْذِرَ مُحَمَّدٌ أَوِ الْقُرْآنُ، وَفِيهِ إِضْمَارٌ، أَيْ لِيُنْذِرَ الْكَافِرِينَ عِقَابَ اللهِ، وَهَذَا الْعَذَابُ الشَّدِيدُ قَدْ يَكُونُ فِي الدُّنْيَا وَقَدْ يَكُونُ

فِي الْآخِرَةِ ، ﴿مِنْ لَدُنْهُ﴾ أَيْ مِنْ عِنْدِهِ، تهديد للكافرين بعذاب من عند الله في الدارين، قال ابن إسحاق:عاجل عقوبة في الدنيا وعذابًا في الآخرة، ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ أَيِ الْجَنَّةَ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ أَيْ: مُقِيمِينَ فِيهِ، أَيْ دَارَ الْخُلْدِ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا، الَّذِينَ صَدَّقُوكَ بِمَا جِئْتَ بِهِ مِمَّا كَذَّبَكَ بِهِ غَيْرُهُمْ، وَعَمِلُوا بِمَا أَمَرْتَهُمْ بِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ. وَالْمُكْثُ: الِاسْتِقْرَارُ فِي الْمَكَانِ .

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا﴾ أي: من مشركي قومه وغيرهم ، يَعْنِي قُرَيْشًا فِي قَوْلِهِمْ: إِنَّا نَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ وَهِيَ بَنَاتُ اللهِ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ النَّصَارَىٰ الَّذِينَ قَالُوا بِأَنَّ عِيسَىٰ ابْنُ اللهِ تَعَالَىٰ ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ الْمَكِّيَّ مَا تَعَرَّضَ لِلرَّدِّ عَلَىٰ أَهْلِ الْكِتَابِ مَعَ تَأَهُّلِهِمْ لِلدُّخُولِ فِي الْعُمُومِ لِاتِّحَادِ السَّبَبِ، وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي مُوسَىٰ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَال : « **لَيْسَ أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَىٰ أَذًىٰ سَمِعَهُ مِنَ اللهِ، إِنَّهُمْ لَيَدْعُونَ لَهُ وَلَدًا، وَإِنَّهُ لَيُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ** »(١).

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ أَيْ قَالُوهُ عَنْ جَهْلٍ لَا عن علم، ﴿كَبُرَتْ﴾ أي عظمت، ﴿كَلِمَةً﴾ نُصِبَ عَلَىٰ التَّمْيِيزِ، يُقَالُ: تَقْدِيرُهُ كَبُرَتِ الْكَلِمَةُ كَلِمَةً ، وفي هَذَا تَبْشِيعٌ لِمَقَالَتِهِمْ وَاسْتِعْظَامٌ لِإِفْكِهِمْ، ﴿تَخْرُجُ مِنْ

---

(١) البخاري (٦٠٩٩) .

أَفْوَاهِهِمْ﴾ أَيْ: تَظْهَرُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ، ﴿إِنْ يَقُولُونَ﴾ ما يقولون، ﴿إِلَّا كَذِبًا﴾ أَيْ ما يقولون إلا كذبا ، وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **قَالَ اللهُ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَزَعَمَ أَنِّي لَا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لِي وَلَدٌ، فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا** »(١).

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ﴾ الْبَاخِعُ: قَاتِلٌ نَفْسَهَ، كَذَا فَسَّرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ وَابْنُ جُبَيْرٍ، وَفَسَّرَهُ الْبُخَارِيُّ بِمُهْلِكٍ ، ﴿عَلَىٰ آثَارِهِمْ﴾ مِنْ بَعْدِهِمْ والْمَعْنَىٰ: لَعَلَّكَ مُهْلِكٌ نَفْسَكَ لِأَجْلِ إِعْرَاضِهِمْ عَنْكَ كَمَا يُعْرِضُ السَّائِرُ عَنِ الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ فِيهِ، ﴿إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ أي: القرآن، ﴿أَسَفًا﴾ أَيْ حُزْنًا وَقِيلَ: غَضَبًا، قال ابن عاشور : وَالَّذِي يَبْدُو: أَنَّهَا تَسْلِيَة للنبي صلّىٰ الله عَلَيْهِ وَآله وسلّم عَلَىٰ إِعْرَاضِ الْمُشْرِكِينَ بِأَنَّ اللهَ أمهلهم وَأَعْطَاهُمْ زِينَة الدُّنْيَا لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَهُ، وَأَنَّهُمْ بَطَرُوا النِّعْمَةَ، فَإِنَّ الله يسلب عَنْهُم النِّعْمَةَ فَتَصِيرُ بِلَادُهُمْ قَاحِلَةً.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَىٰ الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا﴾ الزِّينَةُ كُلُّ مَا عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ، فَهُوَ عُمُومٌ لِأَنَّهُ دَالٌّ عَلَىٰ بَارِئِهِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَرَادَ بِهِ الرِّجَالَ خَاصَّةً هم زِينَةُ الْأَرْضِ ، وَقِيلَ: أَرَادَ بِهِمُ الْعُلَمَاءَ وَالصُّلَحَاءَ. وَقِيلَ: الزِّينَةُ

---

(١) البخاري (٤٩٧٤) .

بِالنَّبَاتِ وَالْأَشْجَارِ وَالْأَنْهَارِ، كَمَا قَالَ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ عَن الْحسن البصري فِي قَوْله: ﴿إِنَّا جعلنَا مَا علىٰ الأَرْض زِينَة لَهَا﴾ قَالَ: هم الرِّجَال الْعباد الْعمَّال لله بِالطَّاعَةِ، وفي صحيح مسلم قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَاظِرٌ مَاذَا تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النساء**»(١)، ﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾ لنختبرهم، وَالْبَلْوُ: الِاخْتِبَارُ وَالتَّجْرِبَةُ، ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أَيْ أَصْلَحُ عَمَلًا، وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أَزْهَدُهُمْ فِيهَا، قَالَ عُلَمَاؤُنَا: وَصَدَقَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لان مَنْ قَصُرَ أَمَلُهُ لَمْ يَتَأَنَّقْ فِي الْمَطْعُومَاتِ وَلَا يَتَفَنَّنْ فِي الْمَلْبُوسَاتِ، وَأَخَذَ مِنَ الدُّنْيَا مَا تَيَسَّرَ، وَاجْتَزَأَ مِنْهَا بِمَا يُبَلِّغُ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ فَالصَّعِيدُ وَجْهُ الْأَرْضِ وَقِيلَ هُوَ التراب جرزا يا بسا أَمْلَسَ لَا يُنْبِتُ شَيْئًا. يُقَالُ: جزرت الْأَرْضُ إِذَا أُكِلَ نَبَاتُهَا، وَالْجُرُزُ: الْقَاحِلُ الْأَجْرَدُ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ يَعْنِي أَظَنَنْتَ يَا مُحَمَّدُ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا أَيْ هُمْ عَجَبٌ مِنْ آيَاتِنَا، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِأَعْجَبَ مِنْ آيَاتِنَا فَإِنَّ مَا خَلَقْتُ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ مِنَ الْعَجَائِبِ أَعْجَبُ منهم، وأيضًا إِمَاتَةَ

---

(١) مسلم (٢٧٤٢).

الْأَحْيَاءِ بَعْدَ حَيَاتِهِمْ أَعْظَمُ مِنْ عَجَبِ إِنَامَةِ أَهْلِ الْكَهْفِ. والكهف: هُوَ الْغَارُ فِي الْجَبَلِ وَاخْتَلَفُوا فِي الرَّقِيمِ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: هُوَ لَوْحٌ كُتِبَ فِيهِ أَسْمَاءُ أَصْحَابِ الْكَهْفِ وَقَصَصُهُمْ وَهَذَا أَظْهَرُ الْأَقَاوِيلِ، ثُمَّ وَضَعُوهُ عَلَىٰ بَابِ الْكَهْفِ فَعَلَىٰ هَذَا يَكُونُ الرَّقِيمُ بِمَعْنَىٰ الْمَرْقُومِ، أَيِ: الْمَكْتُوبِ، وَالرَّقْمُ: الْكِتَابَةُ، وَالْخطاب للنبيء صلّىٰ الله عَلَيْهِ وَآله وسلّم ، وَالْمُرَادُ: قَوْمُهُ الَّذِينَ سَأَلُوا عَنِ الْقِصَّةِ، وَأَهْلُ الْكِتَابِ الَّذِينَ أَغْرَوْهُمْ بِالسُّؤَالِ عَنْهَا وَتَطَلُّبِ بَيَانِهَا. وَيُظْهِرُ أَنَّ الَّذِينَ لَقَّنُوا قُرَيْشًا السُّؤَالَ عَنْ أَهْلِ الْكَهْفِ هُمْ بَعْضُ النَّصَارَىٰ .

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ أَوَىٰ الْفِتْيَةُ إِلَىٰ الْكَهْفِ﴾ أي صاروا إليه، يُقَالُ: أَوَىٰ فَلَانٌ إِلَىٰ مَوْضِعِ كَذَا أَيِ: اتَّخَذَهُ مَنْزِلًا ، وَالْفِتْيَةُ: جمع قلّة لفتىٰ، وَهُوَ الشَّابُّ الْمُكْتَمِلُ. وَالْمُرَادُ بِالْفِتْيَةِ: أَصْحَابُ الْكَهْفِ ، ﴿إِلَىٰ الْكَهْفِ﴾ وَهُوَ الغَارُ المعروف ، يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ أُولَئِكَ الْفِتْيَةِ الَّذِينَ فَرُّوا بِدِينِهِمْ مِنْ قَوْمِهِمْ لِئَلَّا يَفْتِنُوهُمْ عنه فهربوا منهم فلجأوا إِلَىٰ غَارٍ فِي جَبَلٍ لِيَخْتَفُوا عَنْ قَوْمِهِمْ، وَقَالَ عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ: فَقَدَهُمْ قَوْمُهُمْ فَطَلَبُوهُمْ فَعَمَّىٰ اللهُ عَلَيْهِمْ أَمْرَهُمْ فَكَتَبُوا أَسْمَاءَهُمْ فِي لَوْحٍ: فُلانٌ وَفُلانٌ أَبْنَاءُ مُلُوكِنَا فَقَدْنَاهُمْ فِي شَهْرِ كَذَا فِي سَنَةِ كَذَا فِي مَمْلَكَةِ فُلانٍ: وَوَضَعُوا اللَّوْحَ فِي خَزَانَةِ الملك، فَقَالُوا حِينَ دَخَلُوا سَائِلِينَ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ رَحْمَتَهُ وَلُطْفَهُ بِهِمْ: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ وَمَعْنَىٰ الرَّحْمَةِ الْهِدَايَةُ فِي الدِّينِ. وقيل: الرزق، ﴿وَهَيِّئْ لَنَا﴾ يَسِّرْ لَنَا، ﴿مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أي: ما نلتمس من خير رِضَاكَ وَمَا فِيهِ رُشْدُنَا، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: رَشَدًا

أَيْ: مَخْرَجًا مِنَ الْغَارِ فِي سَلَامَةٍ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «**وَمَا قَضَيْتَ لَنَا مِنْ قَضَاءٍ فاجعل عاقبته رشداً**»(١)، وَفِي الْمُسْنَدِ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو: «**اللَّهُمَّ أَحْسِنْ عَاقِبَتَنَا فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا، وَأَجِرْنَا مِنْ خِزْيِ النار وَعَذَابِ الْآخِرَةِ**»(٢).

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ﴾ أَيْ أَنَمْنَاهُمْ وَأَلْقَيْنَا عَلَيْهِمُ النَّوْمَ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ مَنَعْنَا نُفُوذَ الْأَصْوَاتِ إِلَىٰ مَسَامِعِهِمْ، فَإِنَّ النَّائِمَ إِذَا سَمِعَ الصَّوْتَ يَنْتَبِهُ، ﴿فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ أَيْ: أَنَمْنَاهُمْ سِنِينَ مَعْدُودَةً وَذِكْرُ الْعَدَدِ عَلَىٰ سَبِيلِ التَّأْكِيدِ، وَقِيلَ: ذِكْرُهُ يَدُلُّ عَلَىٰ الْكَثْرَةِ فَإِنَّ الْقَلِيلَ لَا يُعَدُّ فِي الْعَادَةِ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ يعني من نومهم، ﴿لِنَعْلَمَ﴾ أَيْ: عِلْمَ الْمُشَاهَدَةِ ﴿أَيُّ الْحِزْبَيْنِ﴾ أَيُّ: الطَّائِفَتَيْنِ، وَأَرَادَ بِالْحِزْبَيْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ وَكَانَ قَدْ وَقَعَ بَيْنَهُمْ تَنَازُعٌ فِي مُدَّةِ لبثهم، ﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الْقَرْيَةِ تَنَازَعُوا فِي مُدَّةِ لُبْثِهِمْ فِي الْكَهْفِ وَاخْتَلَفُوا فِي قَوْلِهِ ﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا﴾ حفظ لِمَا مَكَثُوا فِي كَهْفِهِمْ نِيَامًا أَمَدًا أَيْ: غَايَةً. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: عَدَدًا وَنَصْبُهُ عَلَىٰ التَّفْسِيرِ.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ نقرأ عليك ﴿نَبَأَهُمْ﴾ خَبَرُ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، يَقُولُ تَعَالَىٰ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: نَحْنُ يَا مُحَمَّدُ

---

(١) أحمد (٢٥٠١٩).

(٢) أحمد (١٧٦٢٨).

نَقُصُّ عَلَيْكَ خَبَرَ هَؤُلَاءِ الْفِتْيَةِ الَّذِينَ أَوَوْا إِلَىٰ الْكَهْفِ بِالْحَقِّ، يَعْنِي: بِالصِّدْقِ وَالْيَقِينِ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ، ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالصدق ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ شُبَّانٌ، قَالَ أَهْلُ اللِّسَانِ: رَأْسُ الْفُتُوَّةِ الْإِيمَانُ، وَقَالَ الْجُنَيْدُ: الْفُتُوَّةُ بَذْلُ النَّدَىٰ، وَكَفُّ الْأَذَىٰ، وَتَرْكُ الشَّكْوَىٰ، وَقِيلَ: الْفُتُوَّةُ اجْتِنَابُ الْمَحَارِمِ وَاسْتِعْجَالُ الْمَكَارِمِ، ﴿آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًىٰ﴾ أَيْ يَسَّرْنَاهُمْ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ، مِنَ الِانْقِطَاعِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، وَمُبَاعَدَةِ النَّاسِ، وَالزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا. وَهَذِهِ زِيَادَةٌ عَلَىٰ الْإِيمَانِ.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَرَبَطْنَا﴾ شددنا، ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ بِالصَّبْرِ وَالتَّثْبِيتِ وَقَوَّيْنَاهُمْ بِنُورِ الْإِيمَانِ حَتَّىٰ صَبَرُوا عَلَىٰ هِجْرَانِ دَارِ قَوْمِهِمْ وَمُفَارَقَةِ مَا كَانُوا فِيهِ من خفض الْعَيْشِ وَفَرُّوا بِدِينِهِمْ إِلَىٰ الْكَهْفِ، ﴿إِذْ قَامُوا﴾ بَيْنَ يَدَيْ الملك حِينَ عَاتَبَهُمْ عَلَىٰ تَرْكِ عِبَادَةِ الصَّنَمِ، ﴿فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ قَالُوا ذَلِكَ لِأَنَّ قَوْمَهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ، ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ يَعْنِي إِنْ دَعَوْنَا غَيْرَ اللهِ لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا، أَيْ بَاطِلًا وَكَذِبًا وَبُهْتَانًا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: جَوْرًا، وَأَصْلُ الشَّطَطِ وَالْإِشْطَاطِ مُجَاوَزَةُ القدر والإفراط.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا﴾ يَعْنِي أَهْلَ بَلَدِهِمْ، ﴿اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ﴾ أَيْ مِنْ دُونِ اللهِ، ﴿آلِهَةً﴾ يعني الأصنام يعبدونها، ﴿لَوْلَا﴾ أي هلا، ﴿يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ﴾ أَيْ عَلَىٰ عِبَادَتِهِمْ، ﴿بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ بحجة واضحة، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَىٰ اللهِ كَذِبًا﴾ وزعم أَنَّ لَهُ شَرِيكًا أَوْ وَلَدًا، قال قتادة: ومن أشد اعتداءً

وإشراكًا بالله، ممن اختلق، فتخرّص علىٰ الله كذبًا، وأشرك مع الله في سلطانه شريكًا يعبده دونه، ويتخذه إلهًا.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ يعني قومكم، أَيْ إِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَاعْتَزَلْتُمْ مَا يَعْبُدُونَ ، ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ﴾ فَمَعْنَاهَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الله ويعبدون معه الأوثان يقول: إذا اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَجَمِيعَ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا الله فإنكم لم تعتزلوا، عَنْ عَطَاءٍ الْخُرَاسَانِيِّ فِي قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَما يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ﴾ قَالَ: كَانَ فِتْيَةٌ مِنْ قَوْمٍ يَعْبُدُونَ اللهَ وَيَعْبُدُونَ مَعَهُ آلِهَةً ، فَاعْتَزَلَتِ الْفِتْيَةُ عِبَادَةَ تِلْكَ الْآلِهَةِ وَلَمْ تَعْتَزِلْ عِبَادَةَ اللهِ، ﴿فَأْوُوا إِلَىٰ الْكَهْفِ﴾ فَالْجَأُوا إِلَيْهِ، ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ﴾ يَبْسُطْ لَكُمْ، ﴿رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ﴾ يُسَهِّلْ لَكُمْ، ﴿مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا﴾ أَيْ: مَا يَعُودُ إِلَيْهِ يُسْرُكُمْ وَرِفْقُكُمْ، وَهُوَ مَا يَرْتَفِقُ بِهِ الْإِنْسَانُ. وَمُضَمَّنُ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ بَعْضَهُمْ قَالَ لِبَعْضٍ: إِذَا فَارَقْنَا الْكُفَّارَ وَانْفَرَدْنَا بِاللهِ تَعَالَىٰ فَلْنَجْعَلِ الْكَهْفَ مَأْوَىٰ وَنَتَّكِلْ عَلَىٰ اللهِ، فَإِنَّهُ سَيَبْسُطُ لَنَا رَحْمَتَهُ، وَيَنْشُرُهَا عَلَيْنَا، وَيُهَيِّئُ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا مِرْفَقًا. وَهَذَا كُلُّهُ دُعَاءٌ بِحَسَبِ الدُّنْيَا، وَعَلَىٰ ثِقَةٍ كَانُوا مِنَ اللهِ فِي أَمْرِ آخِرَتِهِمْ.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَرَىٰ الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ﴾ أَيْ: تَمِيلُ وَتَعْدِلُ، وتَتَزَاوَرُ مُضَارِعٌ مُشْتَقٌّ مِنَ الزَّوْرِ- بِفَتْحِ الزَّايِ- وَهُوَ الْمَيْلُ، وَالْإِتْيَانُ بِالفِعْلِ الْمُضَارِعَ لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ تَكَرُّرِ ذَلِكَ كُلَّ يَوْمٍ ، ﴿عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ أَيْ: جَانِبِ الْيَمِينِ، ﴿وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ﴾ أَيْ: تَتْرُكُهُمْ وَتَعْدِلُ عَنْهُمْ، وَأَصْلُ

الْقَرْضِ الْقَطْعُ، أَيْ أَنَّهَا لَا تَطَّلِعُ فِي كَهْفِهِمْ ﴿ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ أَيْ يَمِينِ الْكَهْفِ وَشِمَالِهِ، فَيَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ فَمَ الْكَهْفِ كَانَ مَفْتُوحًا إِلَىٰ الشِّمَالِ الشَّرْقِيِّ، فَالشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَطْلُعُ عَلَىٰ جَانِبِ الْكَهْفِ وَلَا تَخْتَرِقُهُ أَشِعَّتُهَا، وَإِذَا غَرَبَتْ كَانَتْ أَشِعَّتُهَا أَبْعَدَ عَنْ فَمِ الْكَهْفِ مِنْهَا حِينَ طُلُوعِهَا، قال ابن كثير: وَبَيَانُهُ أَنَّهُ لَوْ كَانَ بَابُ الْغَارِ مِنْ نَاحِيَةِ الشَّرْقِ لَمَا دَخَلَ إِلَيْهِ مِنْهَا شَيْءٌ عِنْدَ الْغُرُوبِ، وَلَوْ كَانَ مِنْ نَاحِيَةِ الْقِبْلَةِ لَمَا دَخَلَ مِنْهَا شَيْءٌ عِنْدَ الطُّلُوعِ وَلَا عِنْدَ الْغُرُوبِ وَلَا تَزَاوَرَ الْفَيْءُ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا؛ وَلَوْ كَانَ مِنْ جِهَةِ الْغَرْبِ لَمَا دَخَلَتْهُ وَقْتَ الطُّلُوعِ، بَلْ بَعْدَ الزَّوَالِ وَلَمْ تَزَلْ فِيهِ إِلَىٰ الْغُرُوبِ، فَتَعَيَّنَ مَا ذَكَرْنَاهُ ولله الحمد، ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ أَيْ: مُتَّسَعٍ مِنَ الْكَهْفِ وَجَمْعُهَا فَجَوَاتٌ،وَالْفَجْوَةُ: الْمُتَّسَعُ مِنْ دَاخِلِ الْكَهْفِ، بِحَيْثُ لَمْ يَكُونُوا قَرِيبِينَ مِنْ باب الْكَهْفِ، وَفِي تِلْكَ الْفَجْوَةِ عَوْنٌ عَلَىٰ حِفْظِ هَذَا الْكَهْفِ كَمَا هُوَ. وَقَدْ أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَىٰ بِذَلِكَ وَأَرَادَ مِنَّا فَهْمَهُ وَتَدَبُّرَهُ، وَلَمْ يُخْبِرْنَا بِمَكَانِ هَذَا الْكَهْفِ فِي أَيِّ الْبِلَادِ مِنَ الْأَرْضِ، وَلَوْ كَانَ لَنَا فِيهِ مَصْلَحَةٌ دِينِيَّةٌ لَأَرْشَدَنَا الله تعالىٰ ورسوله إليه، فقد قال صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا تَرَكْتُ شَيْئًا يُقَرِّبُكُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ وَيُبَاعِدُكُمْ مِنَ النَّارِ إِلَّا وَقَدْ أَعْلَمْتُكُمْ بِهِ**»(١). ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ﴾ مِنْ عَجَائِبِ صُنْعِ اللهِ وَدَلَالَاتِ قُدْرَتِهِ الَّتِي يُعْتَبَرُ بِهَا، ﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ﴾ أَيْ: مَنْ يُضْلِلْهُ اللهُ وَلَمْ يُرْشِدْهُ، ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُ

---

(١) الطبراني (الكبير: ١٦٤٧) والبيهقي (الكبرى: ٢٠١٠٠).

وَلِيًّا﴾ معينا، ﴿مُرْشِدًا﴾ الْمُرْشِدُ: الَّذِي يُبَيِّنُ لِلْحَيْرَانِ وَجْهَ الرُّشْدِ، وَهُوَ إِصَابَةُ الْمَطْلُوبِ مِنَ الْخَيْرِ، أَيْ هُوَ الَّذِي أَرْشَدَ هَؤُلَاءِ الْفِتْيَةَ إِلَىٰ الْهِدَايَةِ مِنْ بَيْنِ قَوْمِهِمْ فَإِنَّهُ مَنْ هَدَاهُ اللهُ اهْتَدَىٰ، وَمَنْ أَضَلَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا﴾ أي: منتبهين جمع: يقظ، أَنَّهُمْ فِي حَالَةٍ تُشْبِهُ حَالَ الْيَقَظَةِ وَتخَالُفِ حَالَ النَّوْمِ، ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ نِيَامٌ جَمْعُ رَاقِدٍ مِثْلِ قَاعِدٍ وَقُعُودٍ وَإِنَّمَا اشْتَبَهَ حَالُهُمْ لِأَنَّهُمْ كانوا مفتحة أعينهم يَتَنَفَّسُونَ وَلَا يَتَكَلَّمُونَ، ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ مَرَّةً لِلْجَنْبِ الْأَيْمَنِ وَمَرَّةً لِلْجَنْبِ الْأَيْسَرِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانُوا يُقَلَّبُونَ فِي السَّنَةِ مَرَّةً مِنْ جنب إلىٰ جنب لِئَلَّا تَأْكُلَ الْأَرْضُ لُحُومَهُمْ وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: كَانَ لَهُمْ فِي كُلِّ سَنَةٍ تَقَلُّبَانِ،وَالتَّقْلِيبُ: تَغْيِيرُ وَضْعِ الشَّيْءِ مِنْ ظَاهِرِهِ إِلَىٰ بَاطِنِهِ، قَالَ تَعالَىٰ: فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ، وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّ اللهَ أَجْرَىٰ عَلَيْهِمْ حَالَ الْأَحْيَاءِ الْأَيْقَاظِ فَجَعَلَهُمْ تتَغَيَّرُ أَوْضَاعُهُمْ مِنْ أَيْمَانِهِمْ إِلَىٰ شَمَائِلِهِمْ وَالْعَكْسُ، وَذَلِكَ لِحِكْمَةٍ لَعَلَّ لَهَا أَثَرًا فِي بَقَاءِ أَجْسَامِهِمْ بِحَالَةِ سَلَامَةٍ ، ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ وصف الله تعالىٰ جلسة كلبهم علىٰ الهيئة المعروفة له ، وهي هيئة مشاهدة ليوم الناس هذا وفي صحيح البخاري :من حديث أَنسِ بنِ مالكٍ عن النبيِّ صلىٰ الله عليه وسلم قالَ:« **اعتَدِلوا في السُّجودِ، ولا يَبسُطُ أحدُكم ذِراعَيهِ انبساطَ الكلْبِ** »[1] ، قال

---

(١) البخاري (٦٢٢) ومسلم (٤٩٣) .

ابن عاشور : وَعَدَمُ تَقْلِيبِ الْكَلْبِ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ تَقْلِيبَهُمْ لَيْسَ مِنْ أَسْبَابِ سَلَامَتِهِمْ مِنَ الْبِلَىٰ وَإِلَّا لَكَانَ كَلْبُهُمْ مِثْلَهُمْ فِيهِ بَلْ هُوَ كَرَامَةٌ لَهُمْ. وَالْوَصِيدُ: مَدْخَلُ الْكَهْفِ، شُبِّهَ بِالْبَابِ الَّذِي هُوَ الْوَصِيدُ لِأَنَّهُ يُوصَدُ وَيُغْلَقُ ، قِيلَ: مَعْنَاهُ مَوْضِعُ الْبَابِ وَالْعَتَبَةِ كَانَ الْكَلْبُ قَدْ بَسَطَ ذِرَاعَيْهِ وَجَعَلَ وَجْهَهُ عَلَيْهِمْ. ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيهِمْ﴾ يَا مُحَمَّدُ، أَيْ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ أَيُّهَا السَّامِعُ حِينَ كَانُوا فِي تِلْكَ الْحَالَةِ قَبْلَ أَنْ يَبْعَثَهُمُ اللهُ، ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ لما ألبسهم الله من الْهَيْبَةِ حَتَّىٰ لَا يَصِلَ إِلَيْهِمْ أَحَدٌ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ فَيُوقِظُهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ رَقْدَتِهِمْ، ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ خَوْفًا اخْتَلَفُوا فِي أَنَّ الرُّعْبَ كَانَ لِمَاذَا؟ قِيلَ: مِنْ وَحْشَةِ الْمَكَانِ. قال ابن كثير : أَيْ أَنَّهُ تَعَالَىٰ أَلْقَىٰ عَلَيْهِمُ الْمَهَابَةَ بِحَيْثُ لَا يَقَعُ نَظَرُ أَحَدٍ عَلَيْهِمْ إِلَّا هَابَهُمْ لِمَا أُلْبِسُوا مِنَ الْمَهَابَةِ وَالذُّعْرِ، لِئَلَّا يَدْنُوَ مِنْهُمْ أَحَدٌ وَلَا تَمَسَّهُمْ يَدُ لَامِسٍ، حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ، وَالرَّحْمَةِ الواسعة.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أَيْ كَمَا أَنَمْنَاهُمْ فِي الْكَهْفِ وَحَفِظْنَا أَجْسَادَهُمْ مِنَ الْبِلَىٰ عَلَىٰ طُولِ الزَّمَانِ فَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ مِنَ النَّوْمَةِ الَّتِي تُشْبِهُ الْمَوْتَ، ﴿لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ لِيَسْأَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ويستدلوا علىٰ عظيم قدرة الله ويزدادوا يقينًا ويشكروا ما أنعم الله به عليهم ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ وَهُوَ رَئِيسُهُمْ ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ فِي نَوْمِكُمْ وَذَلِكَ أَنَّهُمُ اسْتَنْكَرُوا طُولَ نَوْمِهِمْ، وَيُقَالُ: إِنَّهُمْ رَاعَهُمْ مَا فَاتَهُمْ مِنَ الصَّلَاةِ فَقَالُوا ذلك، ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ دَخَلُوا

الْكَهْفَ غُدْوَةً فَقَالُوا فَانْتَبَهُوا حِينَ انْتَبَهُوا عَشِيَّةً فَقَالُوا: لَبِثْنَا يَوْمًا ثُمَّ نَظَرُوا وَقَدْ بَقِيَتْ مِنَ الشَّمْسِ بَقِيَّةٌ، فقالوا: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ فلما نظروا إلىٰ شُعُورِهِمْ وَأَظْفَارِهِمْ عَلِمُوا أَنَّهُمْ لَبِثُوا أَكْثَرَ مِنْ يَوْمٍ، ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ وَقِيلَ: إِنَّ رَئِيسَهُمْ مَكْسِلْمِينَا لَمَّا سَمِعَ الِاخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ قَالَ : دَعُوا الِاخْتِلَافَ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ، ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ﴾ وَهِيَ الْفِضَّةُ مَضْرُوبَةٌ كَانَتْ أَوْ غَيْرُ مَضْرُوبَةٍ. ﴿إِلَىٰ الْمَدِينَةِ﴾ أَيْ مدينتكم التي خرجتم منها ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أَيْ: أَحَلَّ طَعَامًا حَتَّىٰ لَا يَكُونَ مِنْ غَصْبٍ أَوْ سَبَبٍ حَرَامٍ، وَقِيلَ: أَمَرُوهُ أَنْ يَطْلُبَ ذَبِيحَةَ مُؤْمِنٍ وَلَا يَكُونَ مِنْ ذَبِيحَةِ مَنْ يَذْبَحُ لِغَيْرِ اللهِ وَكَانَ فِيهِمْ مُؤْمِنُونَ يُخْفُونَ إِيمَانَهُمْ، وَقَالَ الضَّحَاكُ: أَطْيَبُ طَعَامًا. وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: أَجْوَدُ طَعَامًا، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: أَكْثَرُ، وَأَصْلُ الزَّكَاةِ الزِّيَادَةُ ، وَالْأَزْكَىٰ: الْأَطْيَبُ وَالْأَحْسَنُ، لِأَنَّ الزَّكْوَ الزِّيَادَةُ فِي الْخَيْرِ وَالنَّفْعِ، ﴿فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾ أَيْ قُوتٍ وَطَعَامٍ تَأْكُلُونَهُ، ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ وَلِيَتَرَفَّقْ فِي الطَّرِيقِ وَفِي الْمَدِينَةِ وَلْيَكُنْ فِي سَتْرٍ وَكِتْمَانٍ، ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ﴾ ولا يعلمن ﴿بِكُمْ أَحَدًا﴾ مِنَ النَّاسِ ، وَالتَّقْدِيرُ: وَلَا يُخْبِرَنَّ بِوُجُودِكُمْ أَحَدًا ، قال الطبري: وليترفق في شرائه ما يشتري، وفي طريقه ودخوله المدينة، يقول: ولا يعلمن بكم أحدًا من الناس.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي: يعلموا بمكانكم، ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ قال ابن جريج: يشتموكم ويؤذوكم بِالْقَوْلِ ، وَقِيلَ: يَقْتُلُوكُمْ، وَقِيلَ: كَانَ من عادتهم الْقَتْلُ بِالْحِجَارَةِ وَهُوَ أَخْبَثُ الْقَتْلِ. وَقِيلَ: يَضْرِبُوكُمْ، قال

القرطبي: وَالرَّجْمُ فِيمَا سَلَفَ هِيَ كَانَتْ عَلَىٰ مَا ذُكِرَ قَبْلَهُ [عُقُوبَةُ مُخَالَفَةِ دِينِ النَّاسِ، إِذْ هِيَ أَشْفَىٰ لِجُمْلَةِ أَهْلِ ذَلِكَ الدين من حيث إنهم يشتركون فيها، ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ أَيْ: إِلَىٰ الْكُفْرِ، أَيْ لَا يَخْلُو أَمْرُهُمْ عَنْ أَحَدِ الْأَمْرَيْنِ إِمَّا إِرْجَاعِكُمْ إِلَىٰ دِينِهِمْ أَوْ قَتْلِكُمْ ، ﴿وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ إن أعادوكم في ملتهم، وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ فِي صَلَاتِهِ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَىٰ الرُّشْدِ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ، وَحُسْنَ عِبَادَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا، وَلِسَانًا صَادِقًا، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ**»(١).

[٢١] قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا﴾ أي: أطلعنا، ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يُقَالُ: عَثَرْتُ عَلَىٰ الشَّيْءِ إِذَا اطَّلَعْتَ عَلَيْهِ وَأَعْثَرْتُ غَيْرِي أَيْ أَطْلَعْتُهُ، ذَكَرُوا أَنَّهُ لَمَّا أَرَادَ أَحَدُهُمُ الْخُرُوجَ لِيَذْهَبَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ فِي شِرَاءِ شَيْءٍ لَهُمْ لِيَأْكُلُوهُ، تَنَكَّرَ وَخَرَجَ يَمْشِي فِي غَيْرِ الجادة حتىٰ انتهىٰ إلىٰ المدينة، وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ قَرِيبُ الْعَهْدِ بِهَا، وَكَانَ النَّاسُ قَدْ تَبَدَّلُوا قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ وَجِيلًا بعد جيل، فجعل لَا يَرَىٰ شَيْئًا مِنْ مَعَالِمِ الْبَلَدِ الَّتِي يَعْرِفُهَا، وَلَا يَعْرِفُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِهَا لَا خَوَاصِّهَا وَلَا عَوَامِّهَا، فَجَعَلَ يَتَحَيَّرُ فِي نفسه، ويقول إن عَهْدِي بِهَذِهِ الْبَلْدَةِ عَشِيَّةَ أَمْسٍ عَلَىٰ غَيْرِ هَذِهِ

(١) النسائي (١٣٠٤) وأحمد (١٧١٣٣).

الصِّفَةِ. ثُمَّ عَمَدَ إِلَىٰ رَجُلٍ مِمَّنْ يَبِيعُ الطَّعَامَ فَدَفَعَ إِلَيْهِ مَا مَعَهُ مِنَ النَّفَقَةِ، وَسَأَلَهُ أَنْ يَبِيعَهُ بِهَا طَعَامًا، فَلَمَّا رَآهَا ذَلِكَ الرَّجُلُ أَنْكَرَهَا وَأَنْكَرَ ضَرْبَهَا، فَدَفَعَهَا إِلَىٰ جَارِهِ، وَجَعَلُوا يَتَدَاوَلُونَهَا بَيْنَهُمْ، وَيَقُولُونَ لَعَلَّ هذا وَجَدَ كَنْزًا، فَسَأَلُوهُ عَنْ أَمْرِهِ وَمِنْ أَيْنَ لَهُ هَذِهِ النَّفَقَةُ، لَعَلَّهُ وَجَدَهَا مِنْ كَنْزٍ، وممن أنت؟ فجعل يقول أنا من هذه البلدة، وَعَهْدِي بِهَا عَشِيَّةَ أَمْسٍ، وَفِيهَا دَقْيَانُوسُ فَنَسَبُوهُ إِلَىٰ الْجُنُونِ، فَحَمَلُوهُ إِلَىٰ وَلِيِّ أَمْرِهِمْ، فَسَأَلَهُ عن شأنه وخبره حتىٰ أخبرهم بأمره، فَلَمَّا أَعْلَمَهُمْ بِذَلِكَ قَامُوا مَعَهُ إِلَىٰ الْكَهْفِ - ملك الْبَلَدِ وَأَهْلُهَا - حَتَّىٰ انْتَهَىٰ بِهِمْ إِلَىٰ الْكَهْفِ، فَقَالَ دَعُونِي حَتَّىٰ أَتَقَدَّمَكُمْ فِي الدُّخُولِ لِأُعْلِمَ أصحابي فدخل، فَيُقَالُ إِنَّهُمْ لَا يَدْرُونَ كَيْفَ ذَهَبَ فِيهِ، وأخفىٰ الله عليهم خبرهم، قوله تعالىٰ ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ يعني أصحاب الملك حين بعثوا الَّذِينَ أَنْكَرُوا الْبَعْثَ، وَقَدْ كَانَ الْحَدِيثُ عَنْ أَهْلِ الْكَهْفِ فِي تِلْكَ الْمَدِينَة يتناقله أَهلهَا فَيَسَّرَ اللهُ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ الْعُثُورَ عَلَيْهِمْ لِلْحِكْمَةِ الَّتِي فِي قَوْلِهِ: ﴿ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ ، ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أَيْ سَاعَةَ الْحَشْرِ، ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَتَنَازَعُونَ فِي الْبُنْيَانِ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: نَبْنِي عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا يُصَلِّي فِيهِ النَّاسُ لِأَنَّهُمْ عَلَىٰ دِينِنَا، وَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: نَبْنِي عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا لِأَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ ديننا، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: تَنَازَعُوا فِي الْبَعْثِ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: الْبَعْثُ لِلْأَجْسَادِ وَالْأَرْوَاحِ، وَقَالَ قَوْمٌ لِلْأَرْوَاحِ دُونَ الْأَجْسَادِ، فَبَعَثَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ وَأَرَاهُمْ أَنَّ الْبَعْثَ لِلْأَجْسَادِ وَالْأَرْوَاحِ ، وَقِيلَ: تَنَازَعُوا فِي مُدَّةِ لُبْثِهِمْ. وَقِيلَ: فِي عَدَدِهِمْ ،

﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ﴾ الْمَلِكُ وَأَصْحَابُهُ، ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ قال ابن عاشور : وَالتَّنَازُعُ: الْجِدَالُ الْقَوِيُّ، أَيْ يَتَنَازَعُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ بَيْنَهُمْ شَأْنَ أَهْلِ الْكَهْفِ، مِثْلَ: أَكَانُوا نِيَامًا أم أَمْوَاتًا، وأ يبقون أَحْيَاءً أم يموتون، وأ يبقون فِي ذَلِكَ الْكَهْفِ أَمْ يَرْجِعُونَ إِلَىٰ سُكْنَىٰ الْمَدِينَةِ، وَفِي مُدَّةِ مُكْثِهِمْ.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ أي ظنـًا وحدسـًا مع غَيْرِ يَقِينٍ، وَلَمْ يَقُلْ هَذَا فِي حَقِّ السَّبْعَةِ، فَقَالَ: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ يَعْنِي: الْمُسْلِمِينَ، ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ اخْتَلَفُوا فِي الْوَاوِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَثَامِنُهُمْ﴾ هَذِهِ وَاوُ الثَّمَانِيَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ تَعُدُّ فَتَقُولُ: وَاحِدٌ اثْنَانِ ثَلَاثَةٌ أَرْبَعَةٌ خَمْسَةٌ سِتَّةٌ سَبْعَةٌ وَثَمَانِيَةٌ، لِأَنَّ الْعَقْدَ كَانَ عِنْدَهُمْ سَبْعَةً ، قَوْلُهُ : ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ﴾ أَيْ: بِعَدَدِهِمْ ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أَيْ: إِلَّا قَلِيلٌ مِنَ النَّاسِ، قال ابن كثير : إِرْشَادٌ إِلَىٰ أَنَّ الْأَحْسَنَ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ رَدُّ الْعِلْمِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، إِذْ لَا احْتِيَاجَ إِلَىٰ الْخَوْضِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ بِلَا عِلْمٍ، لَكِنْ إِذَا أَطْلَعَنَا عَلَىٰ أَمْرٍ قُلْنَا بِهِ وَإِلَّا وَقَفْنَا ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ﴾ أَيْ: لَا تُجَادِلْ وَلَا تَقُلْ فِي عَدَدِهِمْ وَشَأْنِهِمْ، ﴿إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ إِلَّا بِظَاهِرِ مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ، يقول: بحسبك مَا قَصَصْتُ عَلَيْكَ فَلَا تَزِدْ عَلَيْهِ وَقِفْ عِنْدَهُ، وَالْمُرَادُ بِالْمِرَاءِ فِيهِمُ: الْمِرَاءُ فِي عِدَّتِهِمْ كَمَا هُوَ مُقْتَضَىٰ التَّفْرِيعِ. وَالتَّمَارِي: مُشْتَقٌّ مِنَ الْمِرْيَةِ، وَهِيَ الشَّكُّ ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ﴾ من أهل الكتاب، وَالِاسْتِفْتَاءُ: طَلَبُ الْفَتْوَىٰ،

وَهِيَ الْخَبَرُ عَنْ أَمْرٍ عِلْمِيٍّ مِمَّا لَا يَعْلَمُهُ كُلُّ أَحَدٍ، وَمَعْنَىٰ فِيهِمْ أَيْ فِي أَمْرِهِمْ، أَيْ أَمْرِ أَهْلِ الْكَهْفِ ، ﴿أَحَدًا﴾ أَيْ: لَا تَرْجِعْ إِلَىٰ قَوْلِهِمْ بَعْدَ أَنْ أَخْبَرْنَاكَ.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ رشادٌ من الله سُبْحَانَهُ لِرَسُولِهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَأُمَّتِهِ مِنْ بَابِ الْأَوْلَىٰ- الْأَدَبَ فِيمَا يُعْزَمُ عَلَيْهِ مِنَ الْفِعْلِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَذَلِكَ بِرَدِّ الْمَشِيئَةِ دَوْمًا إِلَىٰ عَلَّامِ الْغُيُوبِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ. قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: فَإِنَّهُ إِذَا قَالَ: لَأَفْعَلَنَّ ذَلِكَ وَلَمْ يَفْعَلْ كَانَ كَاذِبًا، وَإِذَا قَالَ: لَأَفْعَلَنَّ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللهُ خَرَجَ عَنْ أَنْ يَكُونَ مُحَقِّقًا لِلْمُخْبَرِ عَنْهُ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ بِمِائَةِ امْرَأَةٍ، تَلِدُ كُلُّ امْرَأَةٍ غُلَامًا يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ. فَقَالَ لَهُ الْمَلَكُ: قُلْ: إِنْ شَاءَ اللهُ، فَلَمْ يَقُلْ وَنَسِيَ، فَأَطَافَ بِهِنَّ، وَلَمْ تَلِدْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةٌ نِصْفَ إِنْسَانٍ. قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَوْ قَالَ: « **إِنْ شَاءَ اللهُ، لَمْ يَحْنَثْ، وَكَانَ أَرْجَىٰ لِحَاجَتِهِ** »(١).

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ يَعْنِي: إِذَا عَزَمْتَ عَلَىٰ أَنْ تَفْعَلَ غَدًا شَيْئًا فَلَا تَقُلْ أَفْعَلُ غَدًا حَتَّىٰ تَقُولَ إِنْ شَاءَ اللهُ، وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ وَعَنْ أَصْحَابِ الْكَهْفِ وَعَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ، فَقَالَ: أُخْبِرُكُمْ غَدًا وَلَمْ يَقُلْ: إِنْ شَاءَ اللهُ، فَلَبِثَ الْوَحْيُ أَيَّامًا ثُمَّ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾

---

(١) البخاري (٥٢٤٢) ومسلم (١٦٥٤) .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ: مَعْنَاهُ إِذَا نَسِيتَ الِاسْتِثْنَاءَ ثُمَّ ذَكَرْتَ فَاسْتَثْنِ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: مَعْنَىٰ الْآيَةِ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا غَضِبْتَ. وَقَالَ وَهْبٌ: مَكْتُوبٌ فِي الْإِنْجِيلِ ابْنَ آدَمَ اذْكُرْنِي حِينَ تَغْضَبُ أَذْكُرُكَ حِينَ أَغْضَبُ ، وَقَالَ الضَّحَاكُ والسدي: هذا في الصلاة، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ نَسْيِ صَلَاةً فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا**»[1] ، ﴿وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ أَيْ يُثَبِّتُنِي عَلَىٰ طَرِيقٍ هُوَ أَقْرَبُ إِلَيْهِ وَأَرْشَدُ، وَقِيلَ: أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ أَنْ يَذْكُرَهُ إِذَا نَسِيَ شَيْئًا وَيَسْأَلَهُ أَنْ يَهْدِيَهُ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ذِكْرِ مَا نَسِيَهُ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ أَيْ إِذَا سُئِلْتَ عَنْ شَيْءٍ لا تعلمه فاسأل الله تعالىٰ فِيهِ، وَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ فِي أَنْ يُوَفِّقَكَ لِلصَّوَابِ والرشد في ذلك.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ﴾ يَعْنِي أَصْحَابَ الْكَهْفِ ، قَالَ بَعْضُهُمْ: هَذَا خَبَرٌ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّهُمْ قَالُوا ذَلِكَ، وَلَوْ كَانَ خَبَرًا مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ قَدْرِ لُبْثِهِمْ لَمْ يَكُنْ لِقَوْلِهِ: ﴿قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ وَجْهٌ، وَهَذَا قَوْلُ قَتَادَةَ، هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ عَنْ قَدْرِ لُبْثِهِمْ فِي الْكَهْفِ، وَهُوَ الْأَصَحُّ، وَأَمَّا وَقَوْلُهُ:

[٢٦] : ﴿قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ أَيْ إِذَا سُئِلْتَ عَنْ لَبْثِهِمْ وَلَيْسَ عندك علي في ذلك وتوقيف من الله تعالىٰ فَلَا تَتَقَدَّمْ فِيهِ بِشَيْءٍ، بَلْ قُلْ فِي مِثْلِ هَذَا ﴿اللهُ

---

(١) البخاري (٥٩٧) ومسلم (٦٨٤) .

أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ إلا هو، ومن أطلعه عليه من خلقه هذا قول جمهور المفسرين مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ، وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ ﴾ أنه قَوْلُ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَدْ رَدَّهُ اللهُ تَعَالَىٰ بقوله: ﴿ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾، والظاهر أنه إخبار من الله لا حكاية عنهم كما قال الطبري : وَقَوْلُهُ: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ أَيْ إِنَّهُ لَبَصِيرٌ بِهِمْ سَمِيعٌ لَهُمْ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَذَلِكَ فِي مَعْنَىٰ الْمُبَالَغَةِ فِي الْمَدْحِ كَأَنَّهُ قِيلَ مَا أَبْصَرَهُ وَأَسْمَعَهُ، وَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ: مَا أَبْصَرَ اللهَ لِكُلِّ مَوْجُودٍ وَأَسْمَعَهُ لِكُلِّ مَسْمُوعٍ، لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ. ثُمَّ رُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾: فَلَا أَحَدَ أَبْصَرُ مِنَ اللهِ وَلَا أَسْمَعُ.

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاتْلُ﴾ أي: وَاقْرَأْ يَا مُحَمَّدُ، ﴿مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ، وَاتَّبِعْ مَا فِيهِ، قِيلَ: هُوَ مِنْ تَمَامِ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، أَيِ اتَّبِعِ الْقُرْآنَ فَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَا خُلْفَ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ قَالَ الْكَلْبِيُّ: لَا مُغَيِّرَ لِلْقُرْآنِ ، وَقَالَ الطَّبَرِيُّ: لَا مُغَيِّرَ لِمَا وعد بِكَلِمَاتِهِ أَهْلَ مَعَاصِيهِ وَالْمُخَالِفِينَ لِكِتَابِهِ ، قَالَ ابن عاشور : وَالْمَعْنَىٰ: لَا تَعْبَأْ بِهِمْ إِنْ كَرِهُوا تِلَاوَةَ بَعْضِ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ وَاتْلُ جَمِيعَ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ فَإِنَّهُ لَا مُبَدِّلَ لَهُ. ﴿وَلَنْ تَجِدَ﴾ أنت، ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ إِنْ لَمْ تَتَّبِعِ الْقُرْآنَ، وَخَالَفْتَهُ ﴿مُلْتَحَدًا﴾ أَيْ مَلْجَأً، وَقِيلَ مَوْئِلًا وَأَصْلُهُ الْمَيْلُ وَمَنْ لَجَأْتَ إِلَيْهِ فَقَدْ مِلْتَ إِلَيْهِ. وقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: حِرْزًا، وَقَالَ الْحَسَنُ: مَدْخَلًا. وَقَالَ

مُجَاهِدٌ: مَلْجَأً، وَقِيلَ: مَعْدَلًا، وَقِيلَ: مَهْرَبًا، وَأَصْلُهُ مِنَ الْمَيْلِ. وَالْمَعْنَىٰ: لَنْ تَجِدَ شَيْئًا يُنْجِيكَ مِنْ عِقَابِهِ.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ نَزَلَتْ فِي عُيَيْنَةَ بْنِ حِصْنٍ الْفَزَارِيِّ أَتَىٰ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ وَعِنْدَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْفُقَرَاءِ فِيهِمْ سَلْمَانُ وَعَلَيْهِ شَمْلَةٌ قَدْ عَرِقَ فِيهَا وَبِيَدِهِ خُوصَةٌ يَشُقُّهَا ثُمَّ يَنْسِجُهَا، فَقَالَ عُيَيْنَةُ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَمَا يُؤْذِيكَ رِيحُ هَؤُلَاءِ وَنَحْنُ سَادَاتُ مُضَرَ وَأَشْرَافُهَا، فَإِنْ أَسْلَمْنَا أَسْلَمَ النَّاسُ وَمَا يَمْنَعُنَا مِنَ اتِّبَاعِكَ إِلَّا هَؤُلَاءِ فَنَحِّهِمْ عَنْكَ حَتَّىٰ نَتْبَعَكَ أَوِ اجْعَلْ لَنَا مَجْلِسًا وَلَهُمْ مَجْلِسًا، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ أَيِ: احْبِسْ يَا مُحَمَّدُ نَفْسَكَ، وَالصَّبْرُ: الشَّدُّ بِالْمَكَانِ بِحَيْثُ لَا يُفَارِقُهُ، ﴿مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ طرفي النهار، والغداة: اسْمُ الْوَقْتِ الَّذِي بَيْنَ الْفَجْرِ وَطُلُوعِ الشَّمْسِ، وَالْعَشِيُّ: الْمَسَاءُ، وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُمْ يَدْعُونَ اللهَ دُعَاءً مُتَخَلِّلًا سَائِرَ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ لَا يُرِيدُونَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا. قَالَ قَتَادَةُ: نَزَلَتْ فِي أَصْحَابِ الصُّفَةِ وَكَانُوا سَبْعَمِائَةِ رَجُلٍ فُقَرَاءَ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَا يَرْجِعُونَ إِلَىٰ تِجَارَةٍ وَلَا إِلَىٰ زَرْعٍ وَلَا ضَرْعٍ يُصَلُّونَ صَلَاةً وَيَنْتَظِرُونَ أُخْرَىٰ، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي أُمَّتِي مَنْ أُمِرْتُ أَنْ أَصْبِرَ نَفْسِي مَعَهُمْ**» ، قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَعْدُ﴾ أَيْ: لَا تَصْرِفْ وَلَا تَتَجَاوَزْ، ﴿عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ إِلَىٰ غَيْرِهِمْ، ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أَيْ طَلَبَ مُجَالَسَةِ الْأَغْنِيَاءِ وَالْأَشْرَافِ وَصُحْبَةِ أَهْلِ

الدُّنْيَا،أَيْ لَا تَكُنْ إِرَادَةُ الزِّينَةِ سَبَبَ الْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ لِأَنَّهُمْ لَا زِينَةَ لَهُمْ مِنْ بَزَّةٍ وَسَمْتٍ، وَلَمْ يُرِدِ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ اللهَ نَهَاهُ عَنْ أَنْ يَفْعَلَهُ، وَلَيْسَ هَذَا بِأَكْثَرَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ أَيْ جَعَلْنَا قَلْبَهُ غَافِلًا عَنْ ذِكْرِنَا يَعْنِي عُيَيْنَةَ بْنَ حِصْنٍ، وَقِيلَ: أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ، ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ أَيْ مُرَادَهُ فِي طَلَبِ الشَّهَوَاتِ، ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ قَالَ قَتَادَةُ وَمُجَاهِدٌ: ضَيَاعًا. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ ضَيَّعَ أَمْرَهُ وَعَطَّلَ أَيَّامَهُ، وقيل: ندمًا، وقال مقاتل ابن حَيَّانَ: سَرَفًا،وَقَالَ الْفَرَّاءُ: مَتْرُوكًا، وَقِيلَ: بَاطِلًا، وَقِيلَ: مُخَالِفًا لِلْحَقِّ، وقال الأخفش: مجاوز لِلْحَدِّ، قِيلَ: مَعْنَىٰ التَّجَاوُزِ فِي الْحَدِّ، هُوَ قَوْلُ عُيَيْنَةَ: إِنْ أَسْلَمْنَا أَسْلَمَ النَّاسُ وَهَذَا إِفْرَاطٌ عَظِيمٌ.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أَيْ مَا ذَكَرَ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ، مَعْنَاهُ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْفَلْنَا قُلُوبَهُمْ عَنْ ذكرنا: أيها الناس الحق من ربكم وَإِلَيْهِ التَّوْفِيقُ وَالْخِذْلَانُ وَبِيَدِهِ الْهُدَىٰ وَالضَّلَالُ، لَيْسَ إِلَيَّ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ هَذَا عَلَىٰ طَرِيقِ التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ وَقِيلَ: مَعْنَىٰ الْآيَةِ: وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَسْتُ بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ لِهَوَاكُمْ، فَإِنْ شِئْتُمْ فَآمِنُوا وَإِنْ شِئْتُمْ فَاكْفُرُوا فَإِنْ كَفَرْتُمْ فَقَدْ أَعَدَّ لَكُمْ رَبُّكُمْ نَارًا أَحَاطَ بِكُمْ سُرَادِقُهَا، وَإِنْ آمَنْتُمْ فَلَكُمْ مَا وَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ، ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ أعددنا وهيأنا من العتاد وهو العدة، ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ لِلْكَافِرِينَ، ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ

سُرَادِقُهَا﴾ وَالسُّرَادِقُ قِيلَ: هُوَ الْفُسْطَاطُ، أَيِ الْخَيْمَة ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ حَائِطٌ مِنْ نَارٍ. وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: هُوَ عُنُقٌ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ فَيُحِيطُ بِالْكُفَّارِ كَالْحَظِيرَةِ. ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا﴾ مِنْ شِدَّةِ الْعَطَشِ، وَالْإِغَاثَةُ: مُسْتَعَارَةٌ لِلزِّيَادَةِ مِمَّا اسْتُغِيثَ مِنْ أَجْلِهِ عَلَىٰ سَبِيلِ التَّهَكُّمِ، وَهُوَ مِنْ تَأْكِيدِ الشَّيْءِ بِمَا يُشْبِهُ ضِدَّهُ. ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ مَاءٌ غَلِيظٌ مِثْلُ الزيت الثخين ، قال ابن كثير : وهو ماءٌ غليظٌ، أسود، حارٌّ، منتنٌ، إذا أراد الكافر أن يشربه وَقَرَّبَهُ من وجهه شواه حتىٰ تسقط جلدة وجهه فيه. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ الْقَيْحُ وَالدَّمُ، وَسُئِلَ ابْنُ مَسْعُودٍ عَنِ الْمُهْلِ؟ فَدَعَا بِذَهَبٍ وَفِضَّةٍ فَأَوْقَدَ عَلَيْهِمَا النَّارَ حَتَّىٰ ذَابَا، ثُمَّ قَالَ: هَذَا أَشْبَهُ شَيْءٍ بِالْمُهْلِ، ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ ينضج الوجوه من حره، ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ﴾ النار، وَالتَّقْدِيرُ: بِئْسَ الشَّرَابُ ذَلِكَ الْمَاءُ، ﴿مُرْتَفَقًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَنْزِلًا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مُجْتَمَعًا. وَقَالَ عَطَاءٌ: مَقَرًّا، والمرتفق: مَحل الارتفاق، وَهُوَ اسْمُ مَكَانٍ مُشْتَقٌّ مِنَ الْمِرْفَقِ وَهُوَ مَجْمَعُ الْعَضُدِ وَالذِّرَاعِ. سُمِّيَ مِرْفَقًا لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يُحَصِّلُ بِهِ الرِّفْقَ إِذَا أَصَابَهُ إعياء فيتكىٰء عَلَيْهِ.

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ ، فِي الْآيَةِ: بَيَانٌ لِحَالِ السُّعَدَاءِ بَعْدَ ذِكْرِ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ، فَالْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ وَعَمِلُوا عَلَىٰ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ أُولَئِكَ يَحْفَظُ اللهُ لَهُمْ أُجُورَ أَعْمَالِهِمْ لِيُوَافِيَهُمْ بِهَا. وَيُرْوَىٰ أَنَّ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ

كَانَ يَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، إِذَا عَمِلْتَ الْحَسَنَةَ فَالْهَ عَنْهَا؛ فَإِنَّهَا عِنْدَ مَنْ لَا يُضِيعُهَا، وَإِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَاجْعَلْهَا نُصْبَ عَيْنَيْك.

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أَيْ: إِقَامَةٌ، يُقَالُ: عَدَنَ فُلَانٌ بِالْمَكَانِ إِذَا أَقَامَ بِهِ، سُمِّيَتْ عَدْنًا لِخُلُودِ الْمُؤْمِنِينَ فِيهَا، ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: يُحَلَّىٰ كل واحد منهم ثلاثة أَسَاوِرَ: وَاحِدٌ مِنْ ذَهَبٍ وَوَاحِدٌ مِنْ فِضَّةٍ، وَوَاحِدٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ وَيَوَاقِيتَ، ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ﴾ وهو مارق من الديباج، وَاللَّوْنُ الْأَخْضَرُ أَعْدَلُ الْأَلْوَانِ وَأَنْفَعُهَا عِنْدَ الْبَصَرِ، وَكَانَ مِنْ شِعَارِ الْمُلُوكِ ، ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ وَهُوَ مَا غَلُظَ مِنْهُ، وَمَعْنَىٰ الْغِلَظِ فِي ثِيَابِ الْجَنَّةِ إِحْكَامُهُ. وَالسُّنْدُسُ: صِنْفٌ مِنَ الثِّيَابِ، وَهُوَ الدِّيبَاجُ الرَّقِيقُ يُلْبَسُ مُبَاشِرًا لِلْجِلْدِ لِيَقِيَهُ غِلَظَ الْإِسْتَبْرَقِ. وَالْإِسْتَبْرَقُ: الدِّيبَاجُ الْغَلِيظُ الْمَنْسُوجُ بِخُيُوطِ الذَّهَبِ، يُلْبَسُ فَوْقَ الثِّيَابِ الْمُبَاشِرَةِ لِلْجِلْدِ. ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا﴾ في الجنان، وَالِاتِّكَاءُ: جِلْسَةُ الرَّاحَةِ وَالتَّرَفِ ، ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ وَهِيَ السُّرُرُ فِي الْحِجَالِ وَاحِدَتُهَا أريكة، ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ﴾ أي نعم الجزاء، ﴿وَحَسُنَتْ﴾ الجنان ﴿مُرْتَفَقًا﴾ أَيْ: مَجْلِسًا وَمَقَرًّا.

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ﴾ اذْكُرْ لَهُمْ خَبَرَ رَجُلَيْنِ، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُمَا أَخَوَانِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَاتَ أَبُوهُمَا وَتَرَكَ لَهُمَا مَالًا فَاشْتَرَىٰ أَحَدُهُمَا أَرْضًا وَجَعَلَ فِيهَا جَنَّتَيْنِ، وَتَصَدَّقَ الْآخَرُ بِمَالِهِ فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمَا فِي الدُّنْيَا مَا قَصَّهُ ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ بُسْتَانَيْنِ، ﴿مِنْ أَعْنَابٍ

وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ أَيْ: أَطَفْنَاهُمَا مِنْ جَوَانِبِهِمَا بِنَخْلٍ وَالْحِفَافُ الْجَانِبُ، يُقَالُ: حَفَّ بِهِ الْقَوْمُ أَيْ طَافُوا بجوانبه، وَمَعْنَىٰ حَفَفْناهُما أَحَطْنَاهُمَا، يُقَالُ: حَفَّهُ بِكَذَا، إِذَا جَعَلَهُ حَافًّا بِهِ، أَيْ مُحِيطًا، قَالَ تَعَالَىٰ: وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ أَيْ جَعَلْنَا حَوْلَ الْأَعْنَابِ النَّخِيلَ وَوَسَطَ الْأَعْنَابِ الزَّرْعَ، وَقِيلَ: بَيْنَهُمَا أَيْ بَيْنَ الْجَنَّتَيْنِ زَرْعًا يَعْنِي لم يكن بين الجنتين موضوع خراب، قال ابن عاشور : وَظَاهِرُ الْكَلَامِ أَنَّ هَذَا الزَّرْعَ كَانَ فَاصِلًا بَيْنَ الْجَنَّتَيْنِ: كَانَتِ الْجَنَّتَانِ تَكْتَنِفَانِ حَقْلَ الزَّرْعِ فَكَانَ الْمَجْمُوعُ ضَيْعَةً وَاحِدَةً.

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ﴾ أَيْ أَعْطَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنَ الجنتين، ﴿أُكُلَهَا﴾ ثمرها تاما، وَالْمَعْنَىٰ: أَثْمَرَتِ الْجَنَّتَانِ إِثْمَارًا كَثِيرًا ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ لَمْ تُنْقِصْ، أَيْ لَمْ تَنْقُصْهُ عَنْ مِقْدَارِ مَا تُعْطِيهِ الْأَشْجَارُ فِي حَالِ الْخِصْبِ، قال ابن عاشور : وَاسْتُعِيرَ الظُّلْمُ لِلنَّقْصِ عَلَىٰ طَرِيقَةِ التَّمْثِيلِيَّةِ بِتَشْبِيهِ هَيْئَةِ صَاحِبِ الْجَنَّتَيْنِ فِي إِتْقَانِ خَبَرِهِمَا وَتَرَقُّبِ إِثْمَارِهِمَا بِهَيْئَةِ مَنْ صَارَ لَهُ حَقٌّ فِي وَفْرَةِ غَلَّتِهَا بِحَيْثُ إِذَا لَمْ تَأْتِ الْجَنَّتَانِ بِمَا هُوَ مُتَرَقَّبٌ مِنْهُمَا أَشْبَهَتَا مَنْ حَرَمَ ذَا حَقٍّ حَقَّهُ فَظَلَمَهُ، فَاسْتُعِيرَ الظُّلْمُ لِإِقْلَالِ الْإِغْلَالِ، وَاسْتُعِيرَ نَفْيُهُ لِلْوَفَاءِ بِحَقِّ الْإِثْمَارِ. وَفَجَّرْنَا ﴿خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ يَعْنِي شَقَقْنَا وَأَخْرَجْنَا وَسَطَهُمَا نَهْرًا.

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ لَهُ﴾ لصاحب البستان، ﴿ثَمَرٌ﴾ هُوَ جَمْعُ ثَمَرَةٍ وَهُوَ مَا تُخْرِجُهُ الشَّجَرَةُ مِنَ الثِّمَارِ الْمَأْكُولَةِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ذَهَبٌ وَفِضَّةٌ، وَقِيلَ: جَمِيعُ الثَّمَرَاتِ، قَالَ الْأَزْهَرِيُّ: الثَّمَرَةُ تُجْمَعُ عَلَىٰ ثَمَرٍ، وَيُجْمَعُ الثَّمَرُ عَلَىٰ

ثِمَارٍ، ثُمَّ تُجْمَعُ الثِّمَارُ علىٰ ثمر، ﴿فَقَالَ﴾ يعني صاحب البستان، ﴿لِصَاحِبِهِ﴾ المؤمن، وَالْمُرَادُ بِالصَّاحِبِ هُنَا الرَّجُلُ الْآخَرُ مِنَ الرَّجُلَيْنِ، أَيْ فَقَالَ: مَنْ لَيْسَ لَهُ جَنَّاتٌ فِي حِوَارٍ بَيْنَهُمَا، ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ يُخَاطِبُهُ وَيُجَاوِبُهُ، ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أَيْ: عَشِيرَةً وَرَهْطًا، وَقَالَ قَتَادَةُ: خَدَمًا وَحَشَمًا، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: وَلَدًا، وَالنَّفَرُ: عَشِيرَةُ الرَّجُلِ الَّذِينَ يَنْفِرُونَ مَعَهُ، وَأَرَادَ بِهِمْ هُنَا وَلَدُهُ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ مُقَابَلَتُهُ فِي جَوَابِ صَاحِبِهِ بقوله: إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالا وَوَلَداً.

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾ يَعْنِي الْكَافِرُ، أَخَذَ بِيَدِ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ يَطُوفُ بِهِ فِيهَا وَيُرِيهِ أثمارها، ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ بِكَفْرِهِ، وَمَنْ أَدْخَلَ نَفْسَهُ النَّارَ بِكُفْرِهِ فَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ. ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ﴾ تهلك، ﴿هَذِهِ أَبَدًا﴾ أَنْكَرَ فَنَاءَ الدَّارِ، قال ابن كثير: ذَلِكَ اغْتِرَارٌ مِنْهُ، لَمَّا رَأَىٰ فِيهَا مِنَ الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ وَالْأَشْجَارِ وَالْأَنْهَارِ الْمُطَّرِدَةِ فِي جَوَانِبِهَا وَأَرْجَائِهَا ظَنَّ أَنَّهَا لَا تَفْنَىٰ وَلَا تَفْرَغُ وَلَا تَهْلَكُ وَلَا تُتْلَفُ، وَذَلِكَ لِقِلَّةِ عَقْلِهِ وَضَعْفِ يَقِينِهِ بِاللهِ وَإِعْجَابِهِ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا، وَكُفْرِهِ بِالْآخِرَةِ، فَقَالَ:

[٣٦]: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أَيْ لَا أَحْسِبُ الْبَعْثَ كَائِنًا، ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي﴾ أَيْ، وَإِنْ كَانَ بَعْثٌ فَكَمَا أَعْطَانِي هَذِهِ النِّعَمَ فِي الدنيا فسيعطيني أفضل منه لكرامتي عليه، وهو معنىٰ قوله: ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَبًا﴾، وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ لَمَّا دَعَاهُ أَخُوهُ إِلَىٰ الْإِيمَانِ بِالْحَشْرِ وَالنَّشْرِ، وَالْمُنْقَلَبُ: الْمَكَانُ الَّذِي يُنْقَلَبُ إِلَيْهِ، أَيْ يُرْجَعُ، قِيلَ: مَعْنَاهُ وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ

رَبِّي عَلَىٰ مَا تَزْعُمُ أَنْتَ يُعْطِينِي هُنَالِكَ خَيْرًا مِنْهَا فَإِنَّهُ لَمْ يُعْطِنِي هَذِهِ الْجَنَّةَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا لِيُعْطِيَنِي فِي الْآخِرَةِ أَفْضَلَ مِنْهَا.

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ﴾ الْمُسْلِمُ، ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ﴾ أَيْ خَلَقَ أَصْلَكَ مِنْ تُرَابٍ، وَعَظَهُ وَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ مَا اعْتَرَفَ بِهِ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَا يُنْكِرُهَا أَحَدٌ أبدع من الإعادة ، ﴿ثُمَّ﴾ خَلَقَكَ، ﴿مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ أَيْ جَعَلَكَ مُعْتَدِلَ الْقَامَةِ وَالْخَلْقِ، صَحِيحَ الْأَعْضَاءِ ذَكَرًا.

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي﴾ أَصْلُهُ (لَكِنَّ أَنَا) فَحُذِفَتِ الْهَمْزَةُ طَلَبًا لِلتَّخْفِيفِ لِكَثْرَةِ اسْتِعْمَالِهَا ثُمَّ أُدْغِمَتْ إِحْدَىٰ النُّونَيْنِ فِي الْأُخْرَىٰ، قَالَ الْكِسَائِيُّ: فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ مَجَازُهُ: لَكِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي ، هُوَ قَوْلُ ذَلِكَ الصَّاحِبِ الْمُؤْمِنِ يَعْتَرِفُ لِرَبِّهِ تَعَالَىٰ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَلَا يُشْرِكُ بِهِ فِي الْأُلُوهِيَّةِ، بَلْ يَعْبُدُهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيْ: أَنَا لَا أَقُولُ بِمَقَالَتِكَ، بَلْ أَعْتَرِفُ للهِ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَالْوَحْدَانِيَّةِ ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ أَيْ بَلْ هُوَ اللهُ الْمَعْبُودُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ أَيْ هَلَّا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ، ﴿قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ﴾ أَيِ: الْأَمْرُ مَا شَاءَ اللهُ ، وَقِيلَ: جَوَابُهُ مُضْمَرٌ أَيْ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وقال الطبري: يقول عز ذكره: وهلا إذ دخلت بستانك، فأعجبك ما رأيت منه، قلت ما شاء الله ، وَقَوْلُهُ: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ﴾ أَيْ لَا أَقْدِرُ عَلَىٰ حِفْظِ مَالِي أَوْ دَفْعِ شَيْءٍ عَنْهُ إلا بالله، وَرُوِيَ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ كَانَ إِذَا رَأَىٰ مِنْ

مَالِهِ شَيْئًا يُعْجِبُهُ أَوْ دَخَلَ حَائِطًا مَنْ حِيطَانِهِ، قَالَ: مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، وعن أبي هريرة أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال لي: « **أَلَا أَدُلُّكَ عَلَىٰ كَلِمَةٍ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ مِنْ كَنْزِ الْجَنَّةِ؟ تَقُولُ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، فَيَقُولُ اللهُ: أَسْلَمَ عَبْدِي وَاسْتَسْلَمَ** »(١) ، ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنْ تَرَنِي أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ ، أَيْ هَلَّا إِذَا أَعْجَبَتْكَ حِينَ دَخَلْتَهَا وَنَظَرْتَ إِلَيْهَا حَمِدْتَ اللهَ عَلَىٰ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكَ، وَأَعْطَاكَ مِنَ الْمَالِ وَالْوَلَدِ مَا لَمْ يُعْطَهُ غَيْرُكَ، وَقُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْضَ السَّلَفِ مَنْ أَعْجَبَهُ شَيْءٌ مِنْ حاله أو ماله أو ولده فَلْيَقُلْ: مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، وَهَذَا مَأْخُوذٌ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ.

[٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي﴾ فلعل ربي، ﴿أَنْ يُؤْتِيَنِي﴾ يُعْطِيَنِي فِي الْآخِرَةِ، قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: هَذَا التَّرَجِّي بِـ (عَسَىٰ) يَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ فِي الدُّنْيَا، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ فِي الْآخِرَةِ، وَتَمَنِّي ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ أَشْرَفُ مَقْطَعًا، وَأَذْهَبُ مَعَ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ، وَأَنْ يَكُونَ ذَلِكَ يُرَادُ بِهِ الدُّنْيَا أَذْهَبُ فِي نِكَايَةِ الْمُخَاطَبِ، وَأَشَدُّ إِيلَامًا لِنَفْسِهِ ، ﴿خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ أي علىٰ جنتك، ﴿حُسْبَانًا﴾ قال قتادة: عَذَابًا ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: نَارًا، وَالْحُسْبَانُ: أَيْ وهو العذاب كالبرد والريح الشديدة البرد ، وقيل : هَلَاكًا حُسْبَانًا، أَيْ مُقَدَّرًا مِنَ اللهِ، كَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿عَطاءً حِساباً﴾ [النبأ: ٣٦] ، ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ وَهِيَ مِثْلُ

---

(١) النسائي (الكبرى ، رقم ١٠٣٠٩) والحاكم (١٩٨٢) .

صَاعِقَةٍ أَوْ شَيْءٍ يُهْلِكُهَا، وَاحِدَتُهَا حُسْبَانَةٌ، ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أَيْ أَرْضًا جَرْدَاءَ مَلْسَاءَ لَا نَبَاتَ فِيهَا، وَقِيلَ: تَزْلَقُ فِيهَا الْأَقْدَامُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: رَمْلًا هَائِلًا، قال ابن عطية: يعني أنه تذهب أشجاره ونباته، ويبقىٰ أرضا قد ذهبت منافعها، حتىٰ منفعة المشي فيها، فهي وحل لا تنبت ولا تثبت فيه قدم، عَنِ اللَّيْثِ: يُقَالُ لِلْحَدِيقَةِ، إِذَا خَرِبَتْ وَذَهَبَ شَجْرَاؤُهَا: قَدْ صَارَتْ صَعِيدًا، أَيْ أَرْضًا مُسْتَوِيَةً لَا شجر فِيهَا.

[٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا﴾ أَيْ: غَائِرًا مُنْقَطِعًا ذَاهِبًا لَا تناله الأيدي، ولا الدلاء، والغور مَصْدَرٌ وُضِعَ مَوْضِعَ الِاسْمِ، مِثْلُ زَوْرٍ وَعَدْلٍ، وَقَالَ الْكِسَائِيُّ: مَاءٌ غَوْرٌ، وقد غار الماء يغور غورا وغئورا، أَيْ سَفُلَ فِي الْأَرْضِ، وغارت عينه ، دَخَلَتْ فِي الرَّأْسِ، ﴿فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ أَيْ لَنْ تَسْتَطِيعَ رَدَّ الْمَاءِ الْغَائِرِ، وَلَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ بِحِيلَةٍ، وَقِيلَ: فَلَنْ تَسْتَطِيعَ طَلَبَ غَيْرِهِ بَدَلًا مِنْهُ. وَإِلَىٰ هَذَا الْحَدِيثِ انتهت مناظرة أخيه وإنذاره.

[٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ أَيْ أَحَاطَ الْعَذَابُ بِثَمَرِ جَنَّتِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَرْسَلَ عَلَيْهَا نَارًا فَأَهْلَكَتْهَا وَغَارَ مَاؤُهَا، ﴿فَأَصْبَحَ﴾ صاحبها الكافر ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ أَيْ يُصَفِّقُ بِيَدِهِ عَلَىٰ الْأُخْرَىٰ وَيُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ظَهْرًا لِبَطْنٍ تَأَسُّفًا وَتَلَهُّفًا، وَقِيلَ: يُقَلِّبُ مِلْكَهُ فَلَا يَرَىٰ فِيهِ عِوَضَ مَا أَنْفَقَ، وَهَذَا لِأَنَّ الْمِلْكَ قَدْ يُعَبَّرُ عَنْهُ بِالْيَدِ، مِنْ قَوْلِهِمْ: فِي يده مال، أي فملكه مَالٌ ، ﴿عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ أي ساقطة، أَيْ وَهِيَ خَالِيَةٌ مِنَ الشَّجَرِ وَالزَّرْعِ، ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾

سُقُوفِهَا، ﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ أَيْ يَا لَيْتَنِي عَرَفْتُ نِعَمَ اللهِ عَلَيَّ، وَعَرَفْتُ أَنَّهَا كَانَتْ بِقُدْرَةِ اللهِ وَلَمْ أَكْفُرْ بِهِ. وَهَذَا نَدَمٌ مِنْهُ حِينَ لَا يَنْفَعُهُ الندم.

[٤٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ﴾ جَمَاعَةٌ، ﴿يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ يَمْنَعُونَهُ مِنْ عَذَابِ اللهِ ﴿وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا﴾ ممتنعا منتقما لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ الِانْتِصَارِ لِنَفْسِهِ. وَقِيلَ: لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ رَدِّ مَا ذَهَبَ عَنْهُ. أَيْ لَمْ تَكُنْ لَهُ عَشِيرَةٌ يَمْنَعُونَهُ مِنْ عَذَابِ اللهِ، وَضَلَّ عَنْهُ من افتخر بهم من الخدم والولد.

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ يَعْنِي فِي الْقِيَامَةِ، مِنَ الْمُوَالَاةِ وَالنَّصْرِ، أي هنالك كل أحد مُؤْمِنٍ أَوْ كَافِرٍ يَرْجِعُ إِلَىٰ اللهِ وَإِلَىٰ مولاته وَالْخُضُوعِ لَهُ إِذَا وَقَعَ الْعَذَابُ، لِأَنَّ الْوَلَايَةَ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَبْعَثَ عَلَىٰ نَصْرِ الْمَوْلَىٰ وَأَنْ تُطْمِعَ الْمَوْلَىٰ فِي أَنَّ وَلِيَّهُ يَنْصُرُهُ. ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أَفْضَلُ جَزَاءً لِأَهْلِ طَاعَتِهِ لَوْ كَانَ غَيْرُهُ يُثِيبُ، ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أَيْ عَاقِبَةُ طَاعَتِهِ خَيْرٌ مِنْ عَاقِبَةِ طَاعَةِ غَيْرِهِ، فَهُوَ خَيْرٌ إثابة، وعاقبة: طَاعَةٌ.

[٤٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ﴾ يَا مُحَمَّدُ أَيْ لِقَوْمِكَ: ﴿مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ يَعْنِي الْمَطَرَ، ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ خَرَجَ مِنْهُ كُلُّ لَوْنٍ وَزَهْرَةٍ، ﴿فَأَصْبَحَ﴾ عن قريب ﴿هَشِيمًا﴾ يابسًا ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَسِيرًا، وَالْهَشِيمُ: مَا يَبِسَ وَتَفَتَّتَ مِنَ النَّبَاتَاتِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا، وَالْهَشْمُ: كَسْرُ الشَّيْءِ الْيَابِسِ ، وَالْهَشِيمُ مِنَ النَّبَاتِ الْيَابِسُ الْمُتَكَسِّرُ، ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ قال ابن

عباس: تفرقه الرياح ، ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ أَيْ هُوَ قَادِرٌ عَلَىٰ هَذِهِ الْحَالِ وَهَذِهِ الْحَالِ، قَالَتِ الْحُكَمَاءُ: إِنَّمَا شَبَّهَ تَعَالَىٰ الدُّنْيَا بِالْمَاءِ ؛ لِأَنَّ الْمَاءَ لَا يَسْتَقِرُّ فِي مَوْضِعٍ، كَذَلِكَ الدُّنْيَا لَا تَبْقَىٰ عَلَىٰ وَاحِدٍ، وَلِأَنَّ الْمَاءَ لَا يَسْتَقِيمُ عَلَىٰ حَالَةٍ وَاحِدَةٍ كَذَلِكَ الدُّنْيَا، وَلِأَنَّ الْمَاءَ لَا يَبْقَىٰ وَيَذْهَبُ كَذَلِكَ الدُّنْيَا تَفْنَىٰ، وَلِأَنَّ الْمَاءَ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَدْخُلَهُ وَلَا يَبْتَلَّ كَذَلِكَ الدُّنْيَا لَا يَسْلَمُ أَحَدٌ دَخَلَهَا مِنْ فِتْنَتِهَا وَآفَتِهَا، وَلِأَنَّ الْمَاءَ إِذَا كَانَ بِقَدْرٍ كَانَ نَافِعًا مُنْبِتًا، وَإِذَا جَاوَزَ الْمِقْدَارَ كَانَ ضَارًّا مُهْلِكًا، وَكَذَلِكَ الدُّنْيَا الْكَفَافُ مِنْهَا يَنْفَعُ وَفُضُولُهَا يَضُرُّ، ومنه قول هلال بن العلاء :

وَمَنْ يَأْمَنِ الدُّنْيَا يَكُنْ مِثْلَ قَابِضٍ عَلَىٰ الْمَاءِ خَانَتْهُ فُرُوجُ الأَصَابِعِ

[٤٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ﴾ الَّتِي يَفْتَخِرُ بِهَا عُتْبَةُ وَأَصْحَابُهُ الأغنياء، وعَن سُفْيَان الثَّوْرِيّ قَالَ: كَانَ يُقَال إِنَّمَا سمي المَال لِأَنَّهُ يمِيل بِالنَّاسِ وَإِنَّمَا سميت الدُّنْيَا لِأَنَّهَا دنت ﴿زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لَيْسَتْ مِنْ زَادِ الْآخِرَةِ، قَالَ عَلِيّ ابنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: الْمَالُ وَالْبَنُونَ حَرْثُ الدُّنْيَا وَالْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ حَرْثُ الْآخِرَةِ، وَقَدْ يَجْمَعُهَا اللهُ لِأَقْوَامٍ، ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ أَيِ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَاتُ الْبَاقِيَاتُ، أَيِ الَّتِي لَا زَوَالَ لَهَا، أَيْ لَا زَوَالَ لِخَيْرِهَا، وَهُوَ ثَوَابُهَا الْخَالِدُ، فَهِيَ خَيْرٌ مِنْ زِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الَّتِي هِيَ غَيْرُ بَاقِيَةٍ ، وقد اخْتَلَفُوا فِيهَا، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةُ وَمُجَاهِدٌ: هِيَ قَوْلُ سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ. وقد جاء في الحديث عَن أبي سعيد الْخُدْرِيّ: أَن رَسُول

الله صلىٰ الله عَلَيْهِ وَسلم قَالَ: استكثروا من الْبَاقِيَات الصَّالِحَات قيل: وَمَا هن يَا رَسُول الله قَالَ: التَّكْبِير والتهليل وَالتَّسْبِيح والتحميد وَلَا حول وَلَا قُوَّة إِلَّا بِالله ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمَسْرُوقٌ وإبراهيم: الباقيات الصَّالِحَاتُ هِيَ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي أفضل ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أي أفضل أملًا من ذي المال والبنين دون عمل صالح، وليس في زينة الدنيا خير ، وقال قتادة : إِن لكل عَامل أملاً يؤمله وَإِن الْمُؤمن من خير النَّاس أملاً.

[٤٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ قَالَ بَعْضُ النَّحْوِيِّينَ: التَّقْدِيرُ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ. قَالَ النَّحَّاسُ: وَهَذَا غَلَطٌ مِنْ أَجْلِ الْوَاوِ وَقِيلَ: الْمَعْنَىٰ وَاذْكُرْ يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ، أَيْ نُزِيلُهَا مِنْ أَمَاكِنِهَا مِنْ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ، وَنُسَيِّرُهَا كَمَا نُسَيِّرُ السَّحَابَ، ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ الْبَارِزَةُ: الظَّاهِرَةُ، أَيِ الظَّاهِرُ سَطْحُهَا، إِذْ لَيْسَ عَلَيْهَا شَيْءٌ يَسْتُرُ وَجْهَهَا مِنْ شَجَرٍ وَنَبَاتٍ أَوْ حَيَوَانٍ، قَالَ عطَاءٌ: هُوَ بُرُوزُ مَا فِي بَاطِنِهَا مِنَ الْمَوْتَىٰ وَغَيْرِهِمْ، فَتَرَىٰ بَاطِنَ الْأَرْضِ ظَاهِرًا، ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ جَمِيعًا إِلَىٰ الْمَوْقِفِ وَالْحِسَابِ، ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي نترك منهم، أَيْ تَرَكْتُهُ. وَالْمُغَادَرَةُ التَّرْكُ، وَمِنْهُ الْغَدْرُ، لأنه ترل الْوَفَاءِ ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ الْغَدِيرُ مِنَ الْمَاءِ غَدِيرًا لِأَنَّ الْمَاءَ ذَهَبَ وَتَرَكَهُ.

[٤٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ عَرْضُ الشَّيْءِ: إِحْضَارُهُ لِيُرَىٰ حَالُهُ وَمَا يَحْتَاجُهُ، وَمِنْهُ عَرْضُ الْجَيْشِ عَلَىٰ الْأَمِيرِ لِيَرَىٰ حَالَهُمْ وَعِدَّتَهُمْ ، وَفِي الْحَدِيثِ « **عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ ...** »(١) ، ﴿صَفًّا﴾ أَيْ صَفًّا صَفًّا فَوْجًا فَوْجًا، لَا أَنَّهُمْ صَفٌّ وَاحِدٌ. قَالَ مُقَاتِلٌ: يُعْرَضُونَ صَفًّا بَعْدَ صَفٍّ كَالصُّفُوفِ فِي الصَّلَاةِ، كُلُّ أُمَّةٍ وَزُمْرَةٍ صَفًّا، لَا أَنَّهُمْ صَفٌّ وَاحِدٌ. ثُمَّ يُقَالُ لَهُمْ يَعْنِي الْكُفَّارَ: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يَعْنِي أَحْيَاءً، وَقِيلَ: فُرَادَىٰ وَقِيلَ: غُرْلًا (غير مختونين) هَذَا تَقْرِيعٌ لِلْمُنْكِرِينَ لِلْمَعَادِ، وَتَوْبِيخٌ لَهُمْ عَلَىٰ رؤوس الأشهاد، ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُهُ لِمُنْكِرِي الْبَعْثِ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: « **يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ جَمِيعًا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ؟ فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ، الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ** »(٢) .

[٤٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ يَعْنِي الْكِتَابَ الَّذِي كُتِبَتْ بِهِ أَعْمَالُ الْعِبَادِ يُوضَعُ فِي أَيْدِي النَّاسِ فِي أَيْمَانِهِمْ وشمائلهم ، وقيل: معناه يوضع بَيْنَ يَدَيِ اللهِ تَعَالَىٰ، ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ خائفين، وَالْإِشْفَاقُ: الْخَوْفُ مِنْ

---

(١) البخاري (٥٧٠٥) ومسلم (٢٢٠) .

(٢) مسلم (٢٨٥٩) .

أَمْرٍ يَحْصُلُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، ﴿مِمَّا فِيهِ﴾ من الأعمال السيئة، ﴿وَيَقُولُونَ﴾ إذا رأوها، ﴿يا وَيْلَتَنَا﴾ يا هلاكنا، والويل والويلة الهلكة، وكان مَنْ وَقَعَ فِي هَلَكَةٍ دَعَا بِالْوَيْلِ، وَنِدَاءُ الْوَيْلِ: نُدْبَةٌ لِلتَّوَجُّعِ مِنَ الْوَيْلِ، ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ مِنْ ذُنُوبِنَا، وَالْمُرَادُ بِالصِّغَرِ وَالْكِبَرِ هُنَا الْأَفْعَالُ الْعَظِيمَةُ وَالْأَفْعَالُ الْحَقِيرَةُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الصغيرة: التبسم، والكبيرة: الْقَهْقَهَةُ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: الصغيرة: اللمم واللمس والقبلة، والكبيرة: الزنا، ﴿إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ عددها، قال السدي: كتبها أثبتها، قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: حَفِظَهَا ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ مَكْتُوبًا مُثْبَتًا فِي كِتَابِهِمْ، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ أَيْ لَا يَأْخُذُ أَحَدًا بِجُرْمِ أَحَدٍ، وَلَا يأخذوه بما لم يعمله، قال الضَّحَّاكُ، وَقِيلَ: لَا يَنْقُصُ طَائِعًا مِنْ ثَوَابِهِ ولا يزيد عاصيا في عقابه.

[٥٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ يَقُولُ: وَاذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ، لِأَنَّ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ تَذْكِيرًا بِأَنَّ الشَّيْطَانَ هُوَ أَصْلُ الضَّلَالِ، وَأَنَّ خُسْرَانَ الْخَاسِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سببه اتِّبَاعِهِمْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَأَوْلِيَائِهِ، ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ قال النسفي: سجود تحية أو سجود انقياد، وقد كان هذا السجود فيما احتج به موسىٰ علىٰ آدم عليهما السلام ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ مِنْ حَيٍّ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يُقَالُ لَهُمُ الْجِنُّ خُلِقُوا مِنْ نَارِ السَّمُومِ، وَقَالَ الْحَسَنُ: كَانَ مِنَ الْجِنِّ وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَهُوَ أَصْلُ الْجِنِّ كَمَا أَنَّ آدَمَ أصل الإنس ﴿فَفَسَقَ﴾ أَيْ خَرَجَ وَأَصْلُهُ قَوْلُهُمْ: فَسَقَتِ

الرُّطَبَةُ، إِذَا خَرَجَتْ مِنْ قِشْرِهَا فَاسْتُعْمِلَ مَجَازًا فِي التَّجَاوُزِ، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ. وَالْفِسْقُ بِمَعْنَىٰ التَّجَاوُزِ عَنِ الطَّاعَةِ، ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ عن طاعة ربه ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ﴾ يَعْنِي يَا بَنِي آدَمَ ﴿وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ أي أعداء عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَىٰ الْمَاءِ ثُمَّ يَبْعَثُ سراياه يفتنون الناس، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ. فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا، قَالَ: ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّىٰ فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، قَالَ: فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ: نَعَمْ أَنْتَ أنت**»[1] ، قَوْلُهُ : ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ قَالَ قَتَادَةُ: بِئْسَ مَا اسْتَبْدَلُوا طَاعَةَ إِبْلِيسَ وَذُرِّيَّتِهِ بِعِبَادَةِ رَبِّهِمْ.

[٥١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ﴾ مَا أَحْضَرْتُهُمْ، أَيْ أَحْضَرْنَاهُمْ يَعْنِي إِبْلِيسَ وَذُرِّيَّتَهُ. وَقِيلَ: الْكُفَّارُ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: يَعْنِي الْمَلَائِكَةَ، قال ابن عاشور : وَالْمَرَاد ب الْمُضِلِّينَ الشَّيَاطِينُ، لِأَنَّهُمْ أَضَلُّوا النَّاسَ بِإِلْقَاءِ خَوَاطِرِ الضَّلَالَةِ وَالْفَسَادِ فِي النُّفُوسِ، ﴿خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ يَقُولُ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقًا فَأَسْتَعِينُ بِهِمْ عَلَىٰ خَلْقِهَا وَأُشَاوِرُهُمْ فِيهَا، ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ أَيِ الشَّيَاطِينَ الَّذِينَ يُضِلُّونَ النَّاسَ عضدا أي: أنصارا

---

(١) مسلم (٢٨١٣) .

وأعوانا.والعضد : وَهُوَ: الْعَظْمُ الَّذِي بَيْنَ الْمِرْفَقِ وَالْكَتِفِ، وَهُوَ يُطْلَقُ مَجَازًا عَلَىٰ الْمُعِينِ عَلَىٰ الْعَمَلِ، يُقَالُ: فُلَانٌ عَضُدِي وَاعْتَضَدْتُ بِهِ.

[٥٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ أَيْ: يَقُولُ اللهُ لَهُمْ يَوْمَ القيامة، ﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ﴾ يعني الأوثان ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنهم شركائي، أيِ اذْكُرُوا يَوْمَ يَقُولُ اللهُ: أَيْنَ شُرَكَائِي؟ أَيِ ادْعُوا الَّذِينَ أَشْرَكْتُمُوهُمْ بِي فَلْيَمْنَعُوكُمْ مِنْ عَذَابِي، وَإِنَّمَا يَقُولُ ذَلِكَ لِعَبَدَةِ الْأَصنام ، ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ فَاسْتَغَاثُوا بِهِمْ، ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ أَيْ لَمْ يُجِيبُوهُمْ وَلَمْ يَنْصُرُوهُمْ ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ يَعْنِي بَيْنَ الْأَوْثَانِ وَعَبَدَتِهَا وَقِيلَ: بين أهل الهدىٰ وأهل الضلال، ﴿مَوْبِقًا﴾ مَهْلِكًا وَالْمَوْبِقُ: مَكَانُ الْوُبُوقِ، أَيِ الْهَلَاكِ ، وَالْمَوْبِقُ هُنَا أُرِيدَ بِهِ جَهَنَّمُ، أَيْ حِينَ دَعَوْا أَصْنَامَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ كَوَّنَ اللهُ فِيمَا بَيْنَ مَكَانِهِمْ وَمَكَانِ أَصْنَامِهِمْ فُوَّهَاتِ جَهَنَّمَ، قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: وَكُلُّ حَاجِزٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ فَهُوَ مَوْبِقٌ، وَأَصْلُهُ الْهَلَاكُ يُقَالُ: أَوْبَقَهُ أَيْ أَهْلَكَهُ، قَالَ الْفَرَّاءُ: وَجَعَلْنَا تَوَاصُلَهُمْ فِي الدُّنْيَا مُهْلِكًا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَالْبَيْنُ عَلَىٰ هَذَا الْقَوْلِ التَّوَاصُلُ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ وَادٍ فِي النَّارِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: وَادٍ فِي جَهَنَّمَ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: هُوَ نَهْرٌ فِي النَّارِ يَسِيلُ نَارًا عَلَىٰ حَافَّتِهِ حَيَّاتٌ مِثْلُ الْبِغَالِ الدُّهْمِ.

[٥٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَرَأَىٰ الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾ أي المشركون، ﴿فَظَنُّوا﴾ أيقنوا، ﴿أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ دَاخِلُوهَا وَوَاقِعُونَ فِيهَا، وَالْمُوَاقَعَةُ مُلَابَسَةُ الشَّيْءِ بِشِدَّةٍ. ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أَيْ مَهْرَبًا لِإِحَاطَتِهَا بِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، قال ابن كثير : أَيْ إِنَّهُمْ لَمَّا عَايَنُوا جَهَنَّمَ حِينَ جِيءَ بِهَا تُقَادُ بِسَبْعِينَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ

كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، فَإِذَا رَأَىٰ الْمُجْرِمُونَ النَّارَ تَحَقَّقُوا لَا مَحَالَةَ أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا لِيَكُونَ ذَلِكَ مِنْ بَابِ تَعْجِيلِ الْهَمِّ وَالْحُزْنِ لَهُمْ، فَإِنَّ تَوَقُّعَ الْعَذَابِ والخوف منه قبل وقوعه عذاب ناجز.

[٥٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ بَيَّنَّا، وَالتَّصْرِيفُ: أَصْلُهُ تَعَدُّدُ الصَّرْفِ، وَهُوَ النَّقْلُ مِنْ جِهَةٍ إِلَىٰ أُخْرَىٰ. وَمِنْهُ تَصْرِيفُ الرِّيَاحِ، وَهُوَ هُنَا كِنَايَةٌ عَنِ التَّبْيِينِ بِمُخْتَلِفِ الْبَيَانِ وَمُتَنَوِّعِهِ ، ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أَيْ لِيَتَذَكَّرُوا وَيَتَّعِظُوا، ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ قَالَ: الجدل الْخُصُومَة ، خُصُومَة الْقَوْم لأنبيائهم وردهم عَلَيْهِم مَا جاؤوا بِهِ وكل شَيْء فِي الْقُرْآن من ذكر الجدل فَهُوَ من ذَلِك الْوَجْه فِيمَا يخاصمونهم من دينهم يردون عَلَيْهِم مَا جاؤوا بِهِ والْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ الْكُفَّارُ، لِقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾ ، وجاء فِي الحديث عن أمير المؤمنين عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةً، فَقَالَ: «**أَلَا تُصَلِّيَانِ**، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّمَا أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللهِ، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا، فَانْصَرَفَ حِينَ قُلْتُ ذَلِكَ، وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مولٍّ يَضْرِبُ فَخِذَهُ وَيَقُولُ: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جدلا﴾ »(١).

---

(١) البخاري (١١٢٧) ومسلم (٧٧٥) .

[٥٥] قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ الْقُرْآنُ وَالْإِسْلَامُ وَالْبَيَانُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَقِيلَ: إِنَّهُ الرَّسُولُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ يَعْنِي سُنَّتَنَا فِي إِهْلَاكِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا. وَقِيلَ: إِلَّا طَلَبَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ مِنْ مُعَايَنَةِ الْعَذَابِ، كَمَا قَالُوا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الْأَنْفَالِ: ٣٢]، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ: عَيَانًا مِنَ الْمُقَابَلَةِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: فَجْأَةً، و ﴿قُبُلًا﴾ جَمْعُ قَبِيلٍ أَيْ: أَصْنَافُ الْعَذَابِ نَوْعًا نَوْعًا.

[٥٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾ وَمُجَادَلَتُهُمْ قَوْلُهُمْ: ﴿أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]، وقوله: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزُّخْرُفِ: ٣١] وما أشبهه، ﴿لِيُدْحِضُوا﴾ ليبطلوا، ﴿بِهِ الْحَقَّ﴾ وَأَصْلُ الدَّحْضِ الزَّلَقُ يُرِيدُ لِيُزِيلُوا بِهِ الْحَقَّ، قال الرازي: دَحَضَتْ رِجْله: زَلِقَتْ، فاستعير ذلك المفهوم من زلل القدم إلىٰ زلل العقل والمنهج والتفكير، وَالْإِدْحَاضُ الْإِزْلَاقُ، وَفِي وَصْفِ الصِّرَاطِ: «**وَيُضْرَبُ الْجِسْرُ عَلَىٰ جهنم، وتحل الشفاعة فيقولون اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ**، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الْجِسْرُ؟ قَالَ: **دَحْضٌ مَزْلَقَةٌ**»[1] أَيْ

(١) البخاري (٧٤٣٩) ومسلم (١٨٣).

تَزْلَقُ فِيهِ الْقَدَمُ ، ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا﴾ ، أَيِ اتَّخَذُوا الْقُرْآنَ وَالَّذِي أُنْذِرُوا بِهِ مِنَ الْوَعِيدِ هُزُوًا أَيْ لَعِبًا وَبَاطِلًا، وَقِيلَ: هُوَ قَوْلُهُمْ فِي الْقُرْآنِ هُوَ سِحْرٌ وَأَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ، قال ابن عاشور : وَالِاسْتِهْزَاءُ بِالْآيَاتِ هُوَ الِاسْتِهْزَاءُ عِنْدَ سَمَاعِهَا، كَمَا يَفْعَلُونَ عِنْدَ سَمَاعِ آيَاتِ الْإِخْبَارِ بِالْبَعْثِ وَعِنْدَ سَمَاعِ آيَاتِ الْوَعِيدِ وَالْإِنْذَارِ بِالْعَذَابِ.

[٥٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ﴾ وُعِظَ، ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ تَوَلَّىٰ عَنْهَا وَتَرَكَهَا وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهَا، قال ابن كثير : وَأَيُّ عِبَادِ اللهِ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ اللهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا، أَيْ تَنَاسَاهَا وَأَعْرَضَ عَنْهَا وَلَمْ يَصْغَ لَهَا، وَلَا أَلْقَىٰ إِلَيْهَا بَالًا ، ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أَيْ مِنَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ وَالْأَفْعَالِ الْقَبِيحَةِ، فالنسيان هنا بمعنىٰ الترك وقيل: الْمَعْنَىٰ نَسِيَ مَا قَدَّمَ لِنَفْسِهِ وَحَصَّلَ مِنَ الْعَذَابِ، وَالْمَعْنَىٰ مُتَقَارِبٌ. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية، ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أَيْ يَفْهَمُوهُ يُرِيدُ لِئَلَّا يَفْهَمُوهُ، ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أَيْ صَمَمًا وَثِقَلًا، أَيْ نَحْنُ مَنَعْنَا الْإِيمَانَ مِنْ أَنْ يَدْخُلَ قُلُوبَهُمْ وَأَسْمَاعَهُمْ. ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ﴾ يا محمد ﴿إِلَىٰ الْهُدَىٰ﴾ إِلَىٰ الدِّينِ، ﴿فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ وَهَذَا فِي أَقْوَامٍ عَلِمَ اللهُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ.

[٥٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ ذُو النِّعْمَةِ، أَيْ: وَرَبُّكَ -يَا مُحَمَّدُ- غَفُورٌ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ، لَوْ أَخَذَ هَؤُلَاءِ الْمُسْرِفِينَ الْمُسْتَكْبِرِينَ الْمُعْرِضِينَ عَنِ الْحَقِّ وَعَاجَلَهُمْ بِنِقْمَتِهِ وَعِقَابِهِ لَمَا تَرَكَ لَهُمْ مِنْ أَثَرٍ، وَلَكِنَّهُ يَحْلُمُ

عَلَىٰ عِبَادِهِ وَيَسْتُرُ وَيَغْفِرُ. وَقَالَ الْفَيْرُوزُ آبَادِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: «الرَّحْمَةُ سَبَبٌ وَاصِلٌ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ عِبَادِهِ، بِهَا أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ كُتُبَهُ، وَبِهَا هَدَاهُمْ، وَبِهَا أَسْكَنَهُمْ دَارَ ثَوَابِهِ، وَبِهَا رَزَقَهُمْ وَعَافَاهُمْ ، ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ﴾ يعاقب الكفار، ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ مِنَ الذُّنُوبِ ﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ فِي الدُّنْيَا، ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ﴾ يَعْنِي الْبَعْثَ وَالْحِسَابَ، ﴿لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ ملجأ ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: لَا وَأَلَتْ نَفْسُهُ أَيْ لَا نَجَتْ.

[٥٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ يَعْنِي قَوْمَ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمَ لُوطٍ وَغَيْرَهُمْ، ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ كفروا، وَالظُّلْمُ هنا : الشِّرْكُ وَتَكْذِيبُ الرُّسُلِ. ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ أَيْ جَعَلْنَا لِإِهْلَاكِنَا إِيَّاهُمْ وَقْتًا مُعَيَّنًا فِي عِلْمِنَا إِذَا جَاءَ حَلَّ بِهِمُ الْهَلَاكُ ، والمعنىٰ : وَكَذَلِكَ أنتم أيها المشركون احذروا أن يصيبكم مَا أَصَابَهُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ أَشْرَفَ رَسُولٍ وَأَعْظَمَ نَبِيٍّ، وَلَسْتُمْ بِأَعَزَّ عَلَيْنَا مِنْهُمْ فَخَافُوا عَذَابِي ونذري.

[٦٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ عَامَّةُ أَهْلِ الْعِلْمِ قَالُوا: إِنَّهُ مُوسَىٰ بْنُ عِمْرَانَ. قال ابن عاشور: وَلِأَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ نَزَلَتْ بِسَبَبِ مَا سَأَلَ الْمُشْرِكُونَ وَالَّذِينَ أَمْلَوْا عَلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ عَنْ قِصَّتَيْنِ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ وَقِصَّةِ ذِي الْقَرْنَيْنِ، وَقَدْ تَقَضَّىٰ الْجَوَابُ عَنِ الْقِصَّةِ الْأُوْلَىٰ وَمَا ذُيِّلَتْ بِهِ، وَآنَ أَنْ يَنْتَقِلَ إِلَىٰ الْجَوَابِ عَنِ الْقِصَّةِ الثَّانِيَةِ فَتُخْتَمَ بِذَلِكَ هَذِهِ السُّورَةُ الَّتِي أُنْزِلَتْ لِبَيَانِ الْقِصَّتَيْنِ ، قُدِّمَتْ لِهَذِهِ الْقِصَّةِ

الثَّانِيَةِ قِصَّةٌ لَهَا شَبَهٌ بِهَا فِي أَنَّهَا تَطْوَافٌ فِي الْأَرْضِ لِطَلَبِ نَفْعٍ صَالِحٍ، وَهِيَ قِصَّةُ سَفَرِ مُوسَىٰ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – لِطَلَبِ لِقَاءِ مَنْ هُوَ عَلَىٰ عِلْمٍ لَا يَعْلَمُهُ مُوسَىٰ ، ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ﴾ يُوشَعَ بْنِ نُونَ، وَالْفَتَىٰ: الذَّكَرُ الشَّابُّ ، وَفَتَىٰ مُوسَىٰ: خَادِمُهُ وَتَابِعُهُ، ﴿لَا أَبْرَحُ﴾ أَيْ لَا أَزَالُ أَسِيرُ ﴿حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ أي وَإِنْ كَانَ حُقُبًا أَيْ دَهْرًا طَوِيلًا وَزَمَانًا، وَجَمْعُهُ أَحْقَابٌ، وَالْحِقَبُ: جَمْعُ الْحِقْبِ، فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ قَدْ أُمِرَ بِحَمْلِ حُوتٍ مَمْلُوحٍ مَعَهُ وَقِيلَ لَهُ مَتَىٰ فَقَدْتَ الْحُوتَ فَهُوَ ثَمَّةَ، فَسَارَا حَتَّىٰ بَلَغَا مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ، وَكَانَ فِي مِكْتَلٍ مَعَ يُوشَعَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَطَفَرَ مِنَ الْمِكْتَلِ إِلَىٰ الْبَحْرِ، فَاسْتَيْقَظَ يُوشَعُ عليه السلام وسقط الحوت في البحر فجعل يسير في الماء وَالْمَاءُ لَهُ مِثْلُ الطَّاقِ لَا يَلْتَئِمُ بَعْدَهُ، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ أَيْ مِثْلَ السرب في الأرض، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: صَارَ أَثَرُهُ كَأَنَّهُ حَجَرٌ، وقال قتادة: سرب من البحر حَتَّىٰ أَفْضَىٰ إِلَىٰ الْبَحْرِ، ثُمَّ سَلَكَ فِيهِ فجعل لا يسلك فيه طريقًا إلاّ صار مَاءً جَامِدًا.

[٦١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾: أَيِ الْمَكَانَ الذي نسيا الحوت فيه، ﴿قَالَ﴾ مُوسَىٰ ﴿لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هذا﴾ أي المكان الذي جاوزا فيه المكان ﴿نَصبًا﴾ أي تَعَبًا، ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَىٰ الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ، وَمَآ أَنْسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ﴾ أَيْ طَرِيقَهُ ﴿فِي البحر عَجَبًا قَالَ ذَلِكَ ما كنا نبغي﴾ أي هذا هو الَّذِي

نَطْلُبُ ﴿فَارْتَدَّا﴾ أَيْ رَجَعَا ﴿عَلَىٰ آثَارِهِمَا﴾ أي طريقهما ﴿قَصَصاً﴾ أي يقصان آثار مَشْيِهِمَا، وَيَقْفُوَانِ أَثَرَهُمَا ﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَآ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾، وَهَذَا هُوَ الْخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَمَا دلت الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، روىٰ البخاري، عَنْ أُبَي بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسلم يقول: «إن موسىٰ قاك خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ قَالَ: أَنَا، فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ إِنَّ لِي عَبْدًا بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ، هُوَ أَعْلَمُ منك، قال موسىٰ: يا رب كيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتًا فتجعله بِمِكْتَلٍ فَحَيْثُمَا فَقَدْتَ الْحُوتَ فَهُوَ ثَمَّ، فَأَخَذَ حوتًا فجعله بمكتل وانطلق معه فتاه يوشع بن نون عليه السلام، حتىٰ إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فَنَامَا، وَاضْطَرَبَ الْحُوتُ فِي الْمِكْتَلِ فَخَرَجَ مِنْهُ فسقط في البحر، فاتخذ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا، وَأَمْسَكَ اللهُ عَنِ الْحُوتِ جِرْيَةَ الْمَاءِ، فَصَارَ عَلَيْهِ مِثْلَ الطَّاقِ. فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نَسِيَ صَاحِبُهُ أَنْ يُخْبِرَهُ بِالْحُوتِ، فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتِهِمَا، حَتَّىٰ إِذَا كَانَ مِنَ الْغَدِ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً﴾»[1].

[٦٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ يَعْنِي ذَلِكَ الْمَوْضِعَ وَهُوَ مَجْمَعُ البحرين، ﴿قَالَ﴾ موسىٰ ﴿لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا﴾ أَيْ طَعَامَنَا، وَالْغَدَاءُ مَا يُعَدُّ لِلْأَكْلِ

---

(١) البخاري (١٢٢) ومسلم (٢٣٨٠).

غُدْوَةً، وَالْعَشَاءُ مَا يُعَدُّ لِلْأَكْلِ عَشِيَّةً، ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ أَيْ تَعَبًا وَشِدَّةً وَذَلِكَ أَنَّهُ أُلْقِيَ عَلَىٰ مُوسَىٰ الْجُوعُ بَعْدَ مُجَاوَزَةِ الصَّخْرَةِ، لِيَتَذَكَّرَ الْحُوتَ وَيَرْجِعَ إِلىٰ مطلبه.

[٦٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ له فتاه يذكر ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَىٰ الصَّخْرَةِ﴾ وَهِيَ صَخْرَةٌ كَانَتْ بِالْمَوْضِعِ الْمَوْعُودِ ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾ أَيْ تَرَكْتُهُ وَفَقَدْتُهُ، وَذَلِكَ أَنَّ يُوشَعَ حِينَ رَأَىٰ ذَلِكَ مِنَ الْحُوتِ قَامَ لِيُدْرِكَ مُوسَىٰ فَيُخْبِرَهُ، فَنَسِيَ أَنْ يُخْبِرَهُ فَمَكَثَا يَوْمَهُمَا حَتَّىٰ صَلَّيَا الظُّهْرَ مِنَ الْغَدِ، قِيلَ: فِي الْآيَةِ إِضْمَارٌ مَعْنَاهُ: نَسِيتُ أَنْ أَذْكُرَ لَكَ أَمْرَ الْحُوتِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ أَيْ وَمَا أَنْسَانِي أَنْ أَذْكُرَ لَكَ أَمْرَ الْحُوتِ إِلَّا الشَّيْطَانُ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَنْسَانِيهُ لِئَلَّا أَذْكُرَهُ، ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ قِيلَ: هَذَا مِنْ قَوْلِ يُوشَعَ، وَيَقُولُ أَيْ سَبَحَ فِي الْبَحْرِ بَعْدَ أَنْ كَانَ مَيِّتًا زَمَنًا طَوِيلًا، فَعَجِبْتُ مِنْ ذَلِكَ عَجَبًا.

[٦٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ مُوسَىٰ عليه السلام ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أَيْ نَطْلُبُ، ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ أَيْ: رَجَعَا يَقُصَّانِ الْأَثَرَ الَّذِي جاءا منه يبتغيانه، وَالْقَصَصُ: مَصْدَرُ قَصَّ الْأَثَرَ، إِذَا تَوَخَّىٰ مُتَابَعَتَهُ كَيْلَا يُخْطِئَا الطَّرِيقَ الْأَوَّلَ، فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا، وَوُصِفَ بِأَنَّهُ مِنْ عِبَادِ اللهِ تَشْرِيفًا لَهُ، قِيلَ: كَانَ مَلَكًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَالصَّحِيحُ الَّذِي جَاءَ فِي التَّوَارِيخِ، وَثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «أَنَّهُ الْخَضِرُ» ، قِيلَ: كَانَ مِنْ نَسْلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَقِيلَ: كَانَ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُلُوكِ الَّذِينَ تَزَهَّدُوا فِي الدُّنْيَا، وَالْخَضِرُ لَقَبٌ لَهُ.

[٦٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً﴾ أَيْ نِعْمَةً، ﴿مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ أي إِلْهَامًا وَلَمْ يَكُنِ الْخَضِرُ نَبِيًّا عند أكثر أهل العلم، يقول: جئت لأتبعك، قال ابْنُ عَطِيَّةَ: كَانَ عِلْمُ الْخَضِرِ عِلْمُ مَعْرِفَةِ بَوَاطِنَ قَدْ أُوحِيَتْ إِلَيْهِ، لَا تُعْطِي ظَوَاهِرَ الْأَحْكَامِ أَفْعَالَهُ بِحَسَبِهَا، وَكَانَ عِلْمُ مُوسَىٰ عِلْمُ الْأَحْكَامِ وَالْفُتْيَا بِظَاهِرِ أَقْوَالِ الناس وأفعالهم، وقال ابن عاشور : وَإِيتَاءُ الرَّحْمَةِ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: أَنَّهُ جَعَلَ مَرْحُومًا، وَذَلِكَ بِأَنْ رَفَقَ اللهُ بِهِ فِي أَحْوَالِهِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ جَعَلْنَاهُ سَبَبَ رَحْمَةٍ بِأَنْ صَرَّفَهُ تَصَرُّفًا يَجْلِبُ الرَّحْمَةَ الْعَامَّةَ.

[٦٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ وَأَصْحَبَكَ، ﴿عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ أَيْ صَوَابًا ، أَيْ مِمَّا عَلَّمَكَ اللهُ شَيْئًا أَسْتَرْشِدُ بِهِ فِي أَمْرِي مِنْ عِلْمٍ نَافِعٍ، وَعَمَلٍ صَالِحٍ، وَفِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ أَنَّهُ لَمَّا قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَذَا قَالَ لَهُ الْخَضِرُ: كَفَىٰ بِالتَّوْرَاةِ عِلْمًا وبني إِسْرَائِيلَ شُغْلًا فَقَالَ لَهُ مُوسَىٰ: إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِهَذَا فَحِينَئِذٍ.

[٦٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ لَهُ الْخَضِرُ، ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أي إنك لا تقدر علىٰ مصاحبتي لِمَا تَرَىٰ مِنِّي مِنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي تُخَالِفُ شَرِيعَتَكَ، لِأَنِّي عَلَىٰ عِلْمٍ مَنْ عِلْمِ اللهِ مَا عَلَّمَكَهُ اللهُ، وَأَنْتَ عَلَىٰ عِلْمٍ مَنْ عِلْمِ اللهِ مَا عَلَّمَنِيهِ اللهُ، فَكُلٌّ مِنَّا مُكَلَّفٌ بِأُمُورٍ مِنَ اللهِ دُونَ صَاحِبِهِ، وَأَنْتَ لَا تَقْدِرُ عَلَىٰ صُحْبَتِي .

[٦٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً﴾ فَأَنَا أَعْرِفُ أَنَّكَ سَتُنْكِرُ عليَّ مَا أَنْتَ مَعْذُورٌ فِيهِ، وَلَكِنْ مَا اطَّلَعَتْ عَلَىٰ حِكْمَتِهِ وَمَصْلَحَتِهِ الْبَاطِنَةِ، التي اطلعت أنا عليها دونك.

[٦٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ مُوسَىٰ، عليه السلام ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا﴾ إِنَّمَا اسْتَثْنَىٰ لِأَنَّهُ لَمْ يَثِقْ مِنْ نَفْسِهِ بِالصَّبْرِ ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ أي لا أخالفك فيما تأمرني، فَأَكَّدَ لَهُ مُوسَىٰ أَنَّهُ يَصْبِرُ وَيُطِيعُ أَمْرَهُ إِذَا أَمَرَهُ. وَالْتِزَامُ مُوسَىٰ ذَلِكَ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ ثِقَتِهِ بِعِصْمَةِ مَتْبُوعِهِ لِأَنَّ اللهَ أَخْبَرَهُ بِأَنَّهُ آتَاهُ علماً.

[٧٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾الخضر، ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي﴾ فَإِنْ صَحِبْتَنِي وَلَمْ يَقُلْ اتَّبِعْنِي وَلَكِنْ جَعَلَ الِاخْتِيَارَ إِلَيْهِ إِلَّا أَنَّهُ شَرَطَ عَلَيْهِ شَرْطًا فقَالَ، ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ﴾ أعمله فيما تنكره وتعترض عليه، عن شيء، حتىٰ ابتدأ لَكَ بِذِكْرِهِ فَأُبَيِّنُ لَكَ شَأْنَهُ.

[٧١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَانْطَلَقَا﴾ يَمْشِيَانِ عَلَىٰ السَّاحِلِ يَطْلُبَانِ سَفِينَةً يركبانها فوجدا سفينة فركباها، وَرُوِّينَا عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسلم قال: «مَرَّتْ بِهِمْ سَفِينَةٌ فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمْ فَعَرَفُوا الْخَضِرَ فَحَمَلُوهُمْ بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَلَمَّا لَجَّجُوا الْبَحْرَ أَخَذَ الْخَضِرُ فَأْسًا فَخَرَقَ لَوْحًا مِنَ السفينة» فذلك قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ﴾ لَهُ مُوسَىٰ، أَصْلُ الْكَلَامِ: حَتَّىٰ اسْتَأْجَرَا سَفِينَةً فَرَكِبَاهَا فَلَمَّا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا. ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ وَهَذِهِ اللَّامُ لَامُ الْعَاقِبَةِ. وَالْخَرْقُ: الثَّقْبُ وَالشَّقُّ، ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ أَيْ

مُنْكَرًا، وَالْإِمْرُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الدَّاهِيَةُ، وَأَصْلُهُ كُلُّ شَيْءٍ شَدِيدٌ كَثِيرٌ، يُقَالُ: أَمِرَ الْقَوْمُ إِذَا كَثُرُوا وَاشْتَدَّ أَمْرُهُمْ. قال مجاهد: منكرا، وَقَالَ قَتَادَةُ: عَجَبًا، فَعِنْدَهَا قَالَ لَهُ الْخَضِرُ مُذَكِّرًا بِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الشَّرْطِ.

[٧٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾، يَعْنِي وَهَذَا الصَّنِيعُ فَعَلْتُهُ قَصْدًا، وَهُوَ مِنَ الأمور التي اشترطت معك أن لا تُنْكِرَ عَلَيَّ فِيهَا، لِأَنَّكَ لَمْ تُحِطْ بِهَا خبراً، ولها دخل هُوَ مَصْلَحَةٌ وَلَمْ تَعْلَمْهُ أَنْتَ.

[٧٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ مُوسَىٰ عليه السلام ، ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ أَيْ لَا تُضَيِّقْ عَلَيَّ ولا تشدد عَلَيَّ، وَلِهَذَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**كَانَتِ الْأُولَىٰ مِنْ مُوسَىٰ نِسْيَانًا**»[١] ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّهُ لَمْ يَنْسَ وَلَكِنَّهُ مِنْ مَعَارِيضِ الْكَلَامِ، فَكَأَنَّهُ نَسِيَ شَيْئًا آخَرَ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ بِمَا تَرَكْتُ مِنْ عَهْدِكَ ، وَالنِّسْيَانُ : التَّرْكُ ، وَقَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كَانَتِ الْأُولَىٰ مِنْ مُوسَىٰ نِسْيَانًا وَالْوُسْطَىٰ شَرْطًا وَالثَّالِثَةُ عمداً**» ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي﴾ وَلَا تَغْشَنِي، ﴿مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ وَقِيلَ: لَا تُكَلِّفْنِي مَشَقَّةً، يُقَالُ: أَرْهَقْتُهُ عُسْرًا أَيْ كَلَّفْتُهُ ذَلِكَ، يَقُولُ لَا تُضَيِّقْ عَلَيَّ أَمْرِي وَعَامِلْنِي بِالْيُسْرِ وَلَا تُعَامِلْنِي بِالْعُسْرِ. قال ابن عاشور : الْمُرَادُ هُنَا: عُسْرُ الْمُعَامَلَةِ، أَيْ عَدَمُ التَّسَامُحِ مَعَهُ فِيمَا فَعَلَهُ فَهُوَ يَسْأَلُهُ الْإِغْضَاءَ وَالصَّفْحَ.

---

(١) البخاري (١٢٢) ومسلم (٢٣٨٠) .

[٧٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ فِي الْقِصَّةِ أَنَّهُمَا خَرَجَا مِنَ الْبَحْرِ يَمْشِيَانِ فَمَرَّا بِغِلْمَانٍ يَلْعَبُونَ فَأَخَذَ الْخَضِرُ غُلَامًا ظَرِيفًا وَضِيءَ الْوَجْهِ فَأَضْجَعَهُ ثُمَّ ذَبَحَهُ بِالسِّكِّينِ قال الضَّحاكُ: كَانَ غُلَامًا يَعْمَلُ بِالْفَسَادِ وتأذىٰ منه أبواه، عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ الْغُلَامَ الَّذِي قَتَلَهُ الْخَضِرُ طُبِعَ كَافِرًا وَلَوْ عَاشَ لَأَرْهَقَ أَبَوَيْهِ طُغْيَانًا وَكُفْرًا**»(١) ﴿قَالَ﴾ موسىٰ عليه السلا ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ أَيْ صَغِيرَةً، لَمْ تعمل الحنث، ولا عملت إِثْمًا بَعْدُ، وَالزَّكَاةُ: الطَّهَارَةُ، ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أَيْ لَمْ تَقْتُلْ نَفْسًا بِشَيْءٍ وَجَبَ بِهِ عَلَيْهَا الْقَتْلُ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ ، فَبَيْنَمَا هُمَا يَمْشِيَانِ عَلَىٰ السَّاحِلِ إِذْ أَبْصَرَ الْخَضِرَ غُلَامًا يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَ الْخَضِرُ رَأْسَهُ بِيَدِهِ فَاقْتَلَعَهُ بِيَدِهِ فَقَتَلَهُ، قَالَ لَهُ مُوسَىٰ: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ أَيْ مُنْكَرًا، قَالَ قَتَادَةُ: النُّكْرُ أَعْظَمُ مِنَ الْإِمْرِ لِأَنَّهُ حَقِيقَةُ الْهَلَاكِ، وَفِي خَرْقِ السَّفِينَةِ كَانَ خَوْفُ الْهَلَاكِ، وَقِيلَ: الْإِمْرُ أَعْظَمُ لِأَنَّهُ كَانَ فِيهِ تَغْرِيقُ جَمْعٍ كَثِيرٍ(٢).

[٧٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ يَعْنِي الْخَضِرَ ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ قيل: زاد هنا لِأَنَّهُ نَقَضَ الْعَهْدَ مَرَّتَيْنِ، وَفِي الْقِصَّةِ أَنَّ يُوشَعَ كَانَ يَقُولُ لِمُوسَىٰ يَا نَبِيَّ اللهِ اذْكُرِ الْعَهْدَ الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ، وَفِي الْحَدِيثِ عَن النبيء صلّىٰ الله عَلَيْهِ وَآله وسلّم: «**كَانَتِ الْأُولَىٰ مِنْ مُوسَىٰ نِسْيَانًا، وَالثَّانِيَةُ شَرْطًا**».

---

(١) مسلم (٢٦٦١).

(٢) البخاري (٤٧٢٥) ومسلم (٢٣٨٠).

[٧٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ مُوسَىٰ عليه السلام ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ بَعْدَ هَذِهِ الْمَرَّةِ، ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ وَفَارِقْنِي، قَالَ الْكِسَائِيُّ: مَعْنَاهُ فَلَا تَتْرُكْنِي أَصْحَبُكَ. ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ أَيْ بَلَغْتَ مَبْلَغًا تُعْذَرُ بِهِ فِي تَرْكِ مُصَاحَبَتِي، قَالَ ابْنُ عباس: أي قد أُعْذِرْتَ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَقِيلَ: قد حَذَّرْتَنِي أَنِّي لَا أَسْتَطِيعُ مَعَكَ صَبْرًا، وَقِيلَ: اتَّضَحَ لَكَ الْعُذْرُ في مفارقتي، وعَنْ أُبَيٍّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْنَا وعلىٰ موسىٰ لَوْلَا أَنَّهُ عَجَّلَ لَرَأَىٰ الْعَجَبَ**» ، ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ فَلَوْ صَبَرَ لَرَأَىٰ الْعَجَبَ.

[٧٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي أَنْطَاكِيَةَ. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: بَلْدَةٌ بِالْأَنْدَلُسِ، ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾ الِاسْتِطْعَامُ: طَلَبُ الطَّعَامِ. قَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ لِئَامًا فَطَافَا فِي الْمَجَالِسِ فَاسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا**» ، وَرُوِيَ أنهما طافا في القوم فَاسْتَطْعَمَاهُمْ فَلَمْ يُطْعِمُوهُمَا وَاسْتَضَافُوهُمْ فَلَمْ يُضَيِّفُوهُمَا، قَالَ قَتَادَةُ: شَرُّ الْقُرَىٰ التي لا تضيف الضيف. قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ أَيْ يَسْقُطَ، وَهَذَا مِنْ مَجَازِ كَلَامِ الْعَرَبِ، لِأَنَّ الْجِدَارَ لَا إِرَادَةَ لَهُ وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ قَرُبَ وَدَنَا مِنَ السُّقُوطِ، كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ: دَارِي تَنْظُرُ إِلَىٰ دَارِ فُلَانٍ إِذَا كَانَتْ تُقَابِلُهَا ، ﴿فَأَقَامَهُ﴾ أي سواه ﴿قَالَ﴾ مُوسَىٰ عليه السلام ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ يَعْنِي علىٰ إصلاح

الجدار، ﴿أَجْرًا﴾ يَعْنِي جُعْلًا، مَعْنَاهُ: إِنَّكَ قَدْ علمت وإننا جِيَاعٌ وَأَنَّ أَهْلَ الْقَرْيَةِ لَمْ يُطْعِمُونَا فَلَوْ أَخَذْتَ عَلَىٰ عَمَلِكَ أجراً، وَقِيلَ: لَمَّا كَانَ هَذَا سَفَرَ تَأْدِيبٍ وُكِلَ إِلَىٰ تَكَلُّفِ الْمَشَقَّةِ، وَكَانَ ذَلِكَ سَفَرَ هِجْرَةٍ فَوُكِلَ إِلَىٰ الْعَوْنِ وَالنُّصْرَةِ بِالْقُوتِ، وقال ابن عاشور: أَيْ كَانَ فِي مُكْنَتِكَ أَنْ تَجْعَلَ لِنَفْسِكَ أَجْرًا عَلَىٰ إِقَامَةِ الْجِدَارِ تَأْخُذُهُ مِمَّنْ يَمْلِكُهُ مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ وَلَا تُقِيمُهُ مَجَّانًا لِأَنَّهُمْ لَمْ يَقُومُوا بِحَقِّ الضِّيَافَةِ وَنَحْنُ بِحَاجَةٍ إِلَىٰ مَا نُنْفِقُهُ عَلَىٰ أَنْفُسِنَا، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّ نَفَقَةَ الْأَتْبَاعِ عَلَىٰ الْمَتْبُوعِ.

[٧٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ الْخَضِرُ، ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ يَعْنِي هَذَا وَقْتُ فِرَاقِ بَيْنِي وَبَيْنِكَ، بِحُكْمِ مَا شَرَطْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ، وَقِيلَ: هَذَا الْإِنْكَارُ عَلَىٰ تَرْكِ الْأَجْرِ هُوَ الْمُفَرِّقُ بَيْنَنَا، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: مَعْنَاهُ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِنَا أَيْ فِرَاقُ اتِّصَالِنَا وَكَرَّرَ بين تأكيدا ﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ أَيْ سَوْفَ أُخْبِرُكَ ﴿بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ تَأْوِيلُ الشَّيْءِ مَآلُهُ أَيْ قَالَ لَهُ: إِنِّي أُخْبِرُكَ لِمَ فَعَلْتُ مَا فَعَلْتُ. وَفِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ أَنَّ مُوسَىٰ أَخَذَ بِثَوْبِهِ، فقَالَ. أَخْبِرْنِي بِمَعْنَىٰ مَا عَمِلْتَ قَبْلَ أَنْ تُفَارِقَنِي. وَقِيلَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي وَقَعَتْ لِمُوسَىٰ مَعَ الخضر: إنها حجة علىٰ موسىٰ لا عجبا لَهُ. وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا أَنْكَرَ أَمْرَ خَرْقِ السَّفِينَةِ نُودِيَ: يَا مُوسَىٰ أَيْنَ كَانَ تَدْبِيرُكَ هَذَا وَأَنْتَ فِي التَّابُوتِ مَطْرُوحًا فِي الْيَمِّ! فَلَمَّا أَنْكَرَ أَمْرَ الْغُلَامِ قِيلَ لَهُ: أَيْنَ إِنْكَارُكَ هَذَا مِنْ وَكْزِكَ الْقِبْطِيَّ وَقَضَائِكَ عَلَيْهِ! فَلَمَّا أَنْكَرَ إِقَامَةَ الْجِدَارِ نُودِيَ: أَيْنَ هَذَا مِنْ رَفْعِكَ حَجَرَ الْبِئْرِ لِبَنَاتِ شُعَيْبٍ دُونَ أجر!.

[٧٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ أَيْ: يُؤَاجِرُونَ وَيَكْتَسِبُونَ بِهَا، هذا تفسير ما أشكل أمره علىٰ موسىٰ عليه السلام وما كان أنكر ظاهره، وقد أظهر الله الخضر عليه السلام علىٰ حكمة باطنة، فقال: إن السفينة إنما خرقتها لأعيبها، لأنهم كانوا يمرون بها علىٰ ملك من الظلمة ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أَجْعَلُهَا ذَاتَ عَيْبٍ، لأرده عنها لعيبها، **يُقَالُ: عِبْتُ الشَّيْءَ فَعَابَ إِذَا صَارَ ذَا عَيْبٍ، فَهُوَ مَعِيبٌ وَعَائِبٌ.** فينتفع بها أصحابها المساكين الذين لم يكن لهم شيء ينتفعون به غيرها، وقد قيل إنهم أيتام، ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ﴾ أَيْ أَمَامَهُمْ، مَلِكٌ ظالم ، كَقَوْلِهِ: ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ وَقِيلَ: وَرَاءَهُمْ خَلْفَهُمْ، وَكَانَ رُجُوعُهُمْ فِي طَرِيقِهِمْ عَلَيْهِ، ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ أَيْ: كل سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَصْبًا وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقْرَأُ كَذَلِكَ فَخَرَقَهَا وَعَيَّبَهَا الْخَضِرُ حَتَّىٰ لَا يأخذها الملك الغاصب.

[٨٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا﴾ أَيْ فَعَلِمْنَا، وجاء فِي صَحِيحِ الْحَدِيثِ: «**أَنَّهُ طُبِعَ يَوْمَ طُبِعَ كَافِرًا**»(١) ، قَوْلُهُ : ﴿أَنْ يُرْهِقَهُمَا﴾ يُغْشِيَهُمَا، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: يُكَلِّفَهُمَا، قِيلَ: هُوَ مِنْ كَلَامِ الْخَضِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ الَّذِي يَشْهَدُ لَهُ سِيَاقُ الْكَلَامِ، وَهُوَ قَوْلُ كَثِيرٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ، أَيْ خِفْنَا : ﴿أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْيانـاً وَكُفْراً﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: فَخَشِينَا أَنْ يَحْمِلَهُمَا حُبُّهُ عَلَىٰ أَنْ

---

(١) مسلم (٢٦٦١) .

يُتَابِعَاهُ عَلَىٰ دِينِهِ، وقال القرطبي : وَالْمَعْنَىٰ أَنْ يُلْقِيَهُمَا حُبُّهُ فِي اتِّبَاعِهِ فَيَضِلَّا وَيَتَدَيَّنَا بِدِينِهِ.

[٨١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾ أَيْ وَلَدًا أَزْكَىٰ مِنْ هَذَا، وهما أرحم به منه، وقال قتادة: أبر بوالديه، وَقِيلَ لَمَّا قَتَلَهُ الْخَضِرُ كَانَتْ أُمُّهُ حَامِلًا بغلام مسلم ﴿ خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً﴾ أَيْ صَلَاحًا وَتَقْوَىٰ، ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أَيْ: عَطْفًا مِنَ الرَّحْمَةِ. وَقِيلَ: هُوَ مِنَ الرَّحِمِ وَالْقَرَابَةِ، قَالَ قَتَادَةُ: أَيْ أَوْصَلُ لِلرَّحِمِ وَأَبَرُّ بوالديه، قال مطرف: شرح بِهِ أَبَوَاهُ حِينَ وُلِدَ وَحَزِنَا عَلَيْهِ حِينَ قُتِلَ، وَلَوْ بَقِيَ لَكَانَ فِيهِ هَلَاكُهُمَا، فَلْيَرْضَ امْرُؤٌ بِقَضَاءِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَإِنَّ قَضَاءَ اللهِ لِلْمُؤْمِنِ فِيمَا يَكْرَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ قَضَائِهِ فِيمَا يُحِبُّ.

[٨٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ هَذَانِ الْغُلَامَانِ صَغِيرَانِ بِقَرِينَةِ وَصْفِهِمَا بِالْيُتْمِ، وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: « **لَا يُتْمَ بَعْدَ بُلُوغٍ**»[١] ، هَذَا هُوَ الظَّاهِرُ، وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَبْقَىٰ عَلَيْهِمَا اسْمُ الْيُتْمِ بَعْدَ الْبُلُوغِ إِنْ كَانَا يَتِيمَيْنِ، عَلَىٰ مَعْنَىٰ الشَّفَقَةِ عَلَيْهِمَا ، ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ اخْتَلَفُوا فِي ذَلِكَ الْكَنْزِ، رُوِيَ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**كَانَ ذَهَبًا وَفِضَّةً**»[٢] ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: كَانَ مَالًا، وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: كَانَ الْكَنْزُ صُحُفًا فيها علم ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ قيل: كان اسمه كاشح وَكَانَ

---

(١) أبو داود (٢٨٧٣) .

(٢) أحمد (٨٤٩٥) والترمذي (٢٥٢٦) .

مِنَ الْأَتْقِيَاءِ، قَالَ ابْنُ عباس: حفظا بصلاح أبيهما، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْكَدِرِ: إِنَّ اللهَ يَحْفَظُ بِصَلَاحِ الْعَبْدِ وَلَدَهُ وَوَلَدَ وَلَدِهِ، وَعِتْرَتَهُ وَعَشِيرَتَهُ وَأَهْلَ دُوَيْرَاتٍ حَوْلَهُ، فَمَا يَزَالُونَ فِي حِفْظِ اللهِ مَا دَامَ فِيهِمْ. قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: إِنِّي لَأُصَلِّي فَأَذْكُرُ وَلَدِي فَأَزِيدُ فِي صَلَاتِي، قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ أَيْ يَبْلُغَا وَيَعْقِلَا ، وَقِيلَ: أَنْ يدركا شدتهما وقوتهما، وقيل: ثمان عشرة سنة، ﴿وَيَسْتَخْرِجَا﴾ حينئذ و ها هنا أسند الإرادة إلىٰ الله تعالىٰ، لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله، ﴿كَنْزَهُمَا رَحْمَةً﴾ نِعْمَةً، ﴿مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ أَيْ بِاخْتِيَارِي وَرَأْيِي، بَلْ فَعَلْتُهُ بِأَمْرِ اللهِ وَإِلْهَامِهِ، ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ أَيْ لَمْ تُطِقْ عَلَيْهِ صَبْرًا، واستطاع واسطاع بمعنىٰ واحد ، وَالتَّأْوِيلُ: تَفْسِيرٌ لِشَيْءٍ غَيْرِ وَاضِحٍ، وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الْأَوَّلِ وَهُوَ الرُّجُوعُ.

[٨٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ خَبَرًا، وَاخْتَلَفُوا فِي نُبُوَّتِهِ وَالْأَكْثَرُونَ عَلَىٰ أَنَّهُ كَانَ مَلِكًا عَادِلًا صَالِحًا، فِي هَذِهِ الْآيَاتِ: يَسْأَلُكَ يَا مُحَمَّدُ بَعْضُ مُشْرِكِي قَوْمِكَ عَنْ خَبَرِ ذِي الْقَرْنَيْنِ فَقُلْ سَأَقُصُّ عَلَيْكُمْ مِنْ أَمْرِهِ خَبَرًا مَوْثُوقًا، إِنَّهُ رَجُلٌ صَالِحٌ مِنْ عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ، دَانَتْ لَهُ الْبِلَادُ، وَخَضَعَتْ لَهُ مُلُوكُ الْعِبَادِ، وَتَحَرَّكَ بِأَمْرِ اللهِ فِي أَرْجَاءِ هَذِهِ الْمَعْمُورَةِ، شَرْقًا وَغَرْبًا .

[٨٤] قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أوطأنا، والتمكين: تمهيد الأسباب ، وَالتَّمْكِينُ: جَعْلُ الشَّيْءِ مُتَمَكِّنًا، أَيْ رَاسِخًا، وَهُوَ تَمْثِيلٌ لِقُوَّةِ التَّصَرُّفِ بِحَيْثُ لَا يُزَعْزِعُ قُوَّتَهُ أَحَدٌ. فَمَعْنَىٰ التَّمْكِينِ فِي الْأَرْضِ إِعْطَاءُ الْمَقْدِرَةِ

عَلَىٰ التَّصَرُّفِ، وَالْمُرَادُ بِالْأَرْضِ أَهْلُ الْأَرْضِ، وَالْمُرَادُ بِالْأَرْضِ أَرْضٌ مُعَيَّنَةٌ وَهِيَ أَرْضُ مُلْكِهِ، ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْخَلْقُ، وَقِيلَ: مِنْ كُلِّ مَا يَسْتَعِينُ بِهِ الْمُلُوكُ عَلَىٰ فَتْحِ المدن ومحاربة الأعداء، ﴿سَبَبًا﴾ أَيْ: عِلْمًا يَتَسَبَّبُ بِهِ إِلَىٰ كُلِّ مَا يُرِيدُ، وَيَسِيرُ بِهِ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ، وَالسَّبَبُ: مَا يوصل به إِلَىٰ الشَّيْءِ، وَقَالَ الْحَسَنُ: بَلَاغًا إِلَىٰ حَيْثُ أَرَادَ. وَقِيلَ: قَرَّبْنَا إليه أقطار الأرض.

[٨٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي: سلك وسار طريقا، وَقَوْلُهُ: سَبَبًا أَيْ طَرِيقًا. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَنْزِلًا. قال ابن عاشور: السَّبَبُ: الْوَسِيلَةُ. وَالْمرَاد هُنَا مَعْنًىٰ مَجَازِيٌّ وَهُوَ الطَّرِيقُ، لِأَنَّ الطَّرِيقَ وَسِيلَةٌ إِلَىٰ الْمَكَانِ الْمَقْصُودِ.

[٨٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ وَالْمُرَادُ بِ مَغْرِبَ الشَّمْسِ مَكَانُ مَغْرِبِ الشَّمْسِ مِنْ حَيْثُ يَلُوحُ الْغُرُوبُ مِنْ جِهَاتِ الْمَعْمُورِ مِنْ طَرِيقِ غَزْوَتِهِ أَوْ مَمْلَكَتِهِ، قال ابن عاشور وَالْأَشْبَهُ أَنْ يَكُونَ ذُو الْقَرْنَيْنِ قَدْ بَلَغَ بَحْرَ الْخَزَرِ وَهُوَ بُحَيْرَةُ قَزْوِينَ فَإِنَّهَا غَرْبُ بِلَادِ الصِّينِ، ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ وَالْعَيْنُ: مَنْبَعُ مَاءٍ، وَقَرَأَ حَفْصٌ: ﴿فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ مَهْمُوزًا مُشْتَقًّا مِنَ الْحَمْأَةِ، وَهُوَ الطِّينُ الْأَسْوَدُ، وَالْمَعْنَىٰ: عَيْنٌ مُخْتَلِطٌ مَاؤُهَا بِالْحَمْأَةِ فَهُوَ غَيْرُ صَافٍ. ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا﴾ أي: إنه رأىٰ عندها أمة من الأمم. قال القاسمي: ثم أشار تعالىٰ إلىٰ أنه مكَّنَهُ منهم، وأظهره بهم، وحكَّمَهُ فيهم، وجعل له الخيرة في شأنهم، بقوله ﴿قُلْنَا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ يَسْتَدِلُّ بِهَذَا مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ كَانَ نَبِيًّا فَإِنَّ اللهَ

تَعَالَىٰ خاطَبَهُ، وَالْأَصَحُّ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا وَالْمُرَادُ مِنْهُ الْإِلْهَامُ، ﴿إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ﴾ يَعْنِي إِمَّا أَنْ تَقْتُلَهُمْ إِنْ لَمْ يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ، ﴿وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ يَعْنِي تَعْفُو وَتَصْفَحُ، وَقِيلَ: تَأْسِرُهُمْ فَتُعَلِّمُهُمُ الْهُدَىٰ، خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ السَّرِيِّ: خَيَّرَهُ بَيْنَ هَذَيْنِ كَمَا خَيَّرَ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: ﴿فَإِنْ جاؤُكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة : ٤٢] .

[٨٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ أي أَقَامَ عَلَىٰ الْكُفْرِ مِنْكُمْ، ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ أَيْ بِالْقَتْلِ ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا﴾ أَيْ: مُنْكَرًا يَعْنِي بِالنَّارِ، وَالنَّارُ أَنْكَرُ مِنَ الْقَتْلِ.

[٨٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ﴾ قَالَ الْفَرَّاءُ: الْحُسْنَىٰ الْجَنَّةُ وَأُضِيفَ الْجَزَاءُ إِلَيْهَا. وَهِيَ الْجَزَاءُ كَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ اليقين﴾ ﴿ولدار الآخرة﴾ قَالَ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارِسِيُّ: الْمَعْنَىٰ فَلَهُ جَزَاءُ الخلال الْحُسْنَىٰ وَقِيلَ: الْمُرَادُ بالحسنىٰ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ ، ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ أَيْ نُلِينُ لَهُ الْقَوْلَ وَنُعَامِلُهُ بِالْيُسْرِ مِنْ أَمْرِنَا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يُسْرًا أَيْ مَعْرُوفًا.

[٨٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أيْ طَرِيقًا آخَرَ تُوَصِّلُهُ إِلَىٰ الْمَشْرِقِ. قَالَ قَتَادَةُ: مَضَىٰ يَفْتَحُ الْمَدَائِنَ وَيَجْمَعُ الْكُنُوزَ وَيَقْتُلُ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ حَتَّىٰ أَتَىٰ مَطْلِعَ الشَّمْسِ .

[٩٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ أَيْ مَوْضِعَ طُلُوعِهَا، وَمَطْلِعُ الشَّمْسِ: جِهَةُ الْمَشْرِقِ مِنْ سُلْطَانِهِ وَمَمْلَكَتِهِ، بَلَغَ جِهَةً قَاصِيَةً مِنَ الشَّرْقِ حَيْثُ يُخَالُ أَنْ لَا عُمْرَانَ وَرَاءَهَا، فَالْمَطْلِعُ مَكَانُ الطُّلُوعِ ، ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ قَالَ الحسن البصري : لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الشَّمْسِ سِتْرٌ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي مَكَانٍ لَا يَسْتَقِرُّ عَلَيْهِ بِنَاءٌ، فَكَانُوا يَكُونُونَ فِي أَسْرَابٍ لَهُمْ حَتَّىٰ إِذَا زَالَتِ الشَّمْسُ عَنْهُمْ خَرَجُوا إِلَىٰ معايشهم وحروثهم، وقال الجوهري: المعنىٰ أنه انتهىٰ إلىٰ موضع قوم لم يكن بينهم وبين مطلع الشمس أحد من الناس، والشمس تطلع وراء ذلك بمسافة بعيدة، وَقال ابن عاشور : يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَىٰ أَنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عُرَاةً فَكَانُوا يَتَّقُونَ شُعَاعَ الشَّمْسِ فِي الْكُهُوفِ أَوْ فِي أَسْرَابٍ يَتَّخِذُونَهَا فِي التُّرَابِ. فَالْمُرَادُ بِالسِّتْرِ مَا يَسْتُرُ الْجَسَدَ.

[٩١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَذَلِكَ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ كَمَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ كَذَلِكَ بَلَغَ مَطْلِعَهَا، وَالصَّحِيحُ أَنَّ مَعْنَاهُ كَمَا حَكَمَ فِي الْقَوْمِ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ غروب الشَّمْسِ كَذَلِكَ حَكَمَ فِي الَّذِينَ هم عند طلوع الشَّمْسِ، ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ يَعْنِي بِمَا عِنْدَهُ وَمَعَهُ مِنَ الْجُنْدِ وَالْعُدَّةِ وَالْآلَاتِ خُبْرًا أَيْ علما، قَالَ مُجَاهِدٌ: عِلْمًا، أَيْ نَحْنُ مُطَّلِعُونَ عَلَىٰ جَمِيعِ أَحْوَالِهِ، وَأَحْوَالِ جَيْشِهِ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْنَا مِنْهَا شَيْءٌ، وَإِنْ تَفَرَّقَتْ أُمَمُهُمْ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ.

[٩٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أَيْ ثُمَّ سَلَكَ طَرِيقًا مِنْ مَشَارِقِ الْأَرْضِ.

[٩٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ السُّدُّ: الْجَبَلُ، وَيُطْلَقُ أَيْضًا عَلَىٰ الْجِدَارِ الْفَاصِلِ، لِأَنَّهُ يُسَدُّ بِهِ الْفَضَاءُ، وَالْمُرَادُ بِالسَّدَّيْنِ هُنَا الْجَبَلَانِ، وَبِالسَّدِّ الْمُفْرَدِ الْجِدَارُ الْفَاصِلُ، ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا﴾ يَعْنِي: أَمَامَ السَّدَّيْنِ. ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ أي لا يفهمون كَلَامَ غَيْرِهِمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لا يفهمون كَلَامَ أَحَدٍ وَلَا يَفْهَمُ النَّاسُ كَلَامَهُمْ.

[٩٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ قَالُوا ذَلِكَ وهم لا يفهمون؟ قِيلَ: كَلَّمَ عَنْهُمْ مُتَرْجِمٌ، ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ قَالَ الْكَلْبِيُّ: فَسَادُهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَخْرُجُونَ أَيَّامَ الرَّبِيعِ إِلَىٰ أَرْضِهِمْ فَلَا يَدَعُونَ فِيهَا شَيْئًا أَخْضَرَ إلا أكلوه ولا يا بسا إلا احتملوه، وَأَدْخَلُوهُ أَرْضَهُمْ، وَقَدْ لَقُوا مِنْهُمْ أَذًىٰ شَدِيدًا وَقَتْلًا. وَقِيلَ: فَسَادُهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَأْكُلُونَ النَّاسَ ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ سَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ عِنْدَ خُرُوجِهِمْ. ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ أَيْ جُعْلًا وَأَجْرًا مِنْ أَمْوَالِنَا. وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو: الْخَرْجُ مَا تَبَرَّعْتَ به، والخراج مَا لَزِمَكَ أَدَاؤُهُ. وَقِيلَ: الْخَرَاجُ علىٰ الأرض والخرج عَلَىٰ الرِّقَابِ، يُقَالُ: أَدِّ خَرْجَ رَأْسِكَ وَخَرَاجَ مَدِينَتِكَ. ﴿عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ أَيْ حَاجِزًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْنَا.

[٩٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ ذُو الْقَرْنَيْنِ: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ﴾ أَيْ مَا قواني عليه، ﴿رَبِّي خَيْرٌ﴾ من أجركم ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ مَعْنَاهُ إِنِّي لَا أُرِيدُ الْمَالَ بَلْ أَعِينُونِي بِأَبْدَانِكُمْ وَقُوَّتِكُمْ، ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ أَيْ سَدًّا، قَالُوا: وَمَا

تِلْكَ الْقُوَّةُ؟ قَالَ: فَعَلَةٌ وَصُنَّاعٌ يُحْسِنُونَ الْبِنَاءَ وَالْعَمَلَ، وَالْآلَةُ. قَالُوا وَمَا تلك الآلة؟ قال:

[٩٦] : ﴿آتُونِي﴾ أَعْطُوْنِي ﴿زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ أَيْ قِطَعَ الْحَدِيدِ وَاحِدَتُهَا زُبْرَةٌ، فَآتَوْهُ بِهَا وَبِالْحطَبِ وَجَعَلَ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَلَمْ يَزَلْ يَجْعَلُ الْحَدِيدَ عَلَىٰ الْحَطَبِ وَالْحَطَبَ عَلَىٰ الْحَدِيدِ، ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ وَهُمَا الْجَبَلَانِ، وَالصَّدَفُ: جَانِبُ الْجَبَلِ، وَعَنْ أَبِي عِيسَىٰ: الصَّدَفُ كُلُّ بِنَاءٍ عَظِيمٍ مُرْتَفِعٍ. أَيْ وَضَعَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ مِنَ الْأَسَاسِ، حَتَّىٰ إِذَا حَاذَىٰ بِهِ رؤوس الجبلين طولاً وعرضاً ﴿قَالَ انْفُخُوا﴾ وَفِي الْقِصَّةِ أَنَّهُ جَعَلَ الْفَحْمَ وَالْحَطَبَ فِي خِلَالِ زُبَرِ الْحَدِيدِ ثُمَّ قَالَ انْفُخُوا يَعْنِي فِي النَّارِ، ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾ أَيْ صَارَ الْحَدِيدُ نَارًا، ﴿قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أَيْ آتَوْنِي قِطْرًا أُفْرِغْ عَلَيْهِ، والإفراغ الصب والقطر هُوَ النُّحَاسُ الْمُذَابُ، فَجَعَلَتِ النَّارُ تَأْكُلُ الْحَطَبَ وَيَصِيرُ النُّحَاسُ مَكَانَ الْحَطَبِ حَتَّىٰ لَزِمَ الْحَدِيدُ النُّحَاسَ.

[٩٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ أَنْ يَعْلُوهُ مِنْ فَوْقِهِ لِطُولِهِ وَمَلَاسَتِهِ، ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ وَالنَّقْبُ: كَسْرُ الرَّدْمِ، وَعَدَمُ اسْتِطَاعَتِهِمْ ذَلِكَ لِارْتِفَاعِهِ وَصَلَابَتِهِ. قال ابن عاشور : واسْطاعُوا تَخْفِيفُ اسْتَطاعُوا، وَالْجمع فبينهما تَفَنُّنٌ فِي فَصَاحَةِ الْكَلَامِ كَرَاهِيَةَ إِعَادَةِ الْكَلِمَةِ. وَابْتُدِئَ بِالْأَخَفِّ مِنْهُمَا لِأَنَّهُ وَلِيَهُ الْهَمْزُ وَهُوَ حَرْفٌ ثَقِيلٌ لِكَوْنِهِ مِنَ الْحَلْقِ، بِخِلَافِ الثَّانِي إِذْ وَلِيَهُ اللَّامُ وَهُوَ خَفِيفٌ.

[٩٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ يعني ذا القرنين، ﴿هَذَا﴾ أي السد، ﴿رَحْمَةٌ﴾ نِعْمَةٌ، ﴿مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ قيل: الْقِيَامَةِ، وَقِيلَ: وَقْتُ خُرُوجِهِمْ. ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ أَيْ مُسْتَوِيًا بِالْأَرْضِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا﴾ [الفجر: ٢١] ، قَالَ ابْنُ عَرَفَةَ: أَيْ جُعِلَتْ مُسْتَوِيَةً لَا شجر فِيهَا، ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي الَّذِي وَعَدَ خَلْقَهُ فِي دَكِّ هَذَا الرَّدْمِ، وَخُرُوجِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ عَلَىٰ النَّاسِ، وَعَيْثِهِمْ فِيهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ وَعْدِهِ حَقًّا، لِأَنَّهُ لَا يَخْلُفُ الْمِيعَادَ فَلَا يَقَعُ غَيْرَ مَا وَعَدَ أَنَّهُ كَائِنٌ.

[٩٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ قِيلَ: هَذَا عِنْدَ فَتْحِ السَّدِّ، يَقُولُ: تَرَكْنَا يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ يَمُوجُ أَيْ يَدْخُلُ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ، كَمَوْجِ الْمَاءِ وَيَخْتَلِطُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لِكَثْرَتِهِمْ، وَقِيلَ: هَذَا عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ يَدْخُلُ الْخَلْقُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، وَيَخْتَلِطُ إِنْسِيُّهُمْ بِجِنِّيِّهِمْ حَيَارَىٰ، ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ لِأَنَّ خُرُوجَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِنْ عَلَامَاتِ قُرْبِ السَّاعَةِ، وَالصُّورُ كَمَا جَاءَ فِي الحديث، قون يُنْفَخُ فِيهِ، وَالَّذِي يَنْفُخُ فِيهِ إِسْرَافِيلُ عَلَيْهِ السلام، وفي الحديث عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي سَعِيدٍ مَرْفُوعًا: «**كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ وَحَنَىٰ جَبْهَتَهُ، وَاسْتَمَعَ مَتَىٰ يُؤْمَرُ**»، قَالُوا: كَيْفَ نَقُولُ؟ قَالَ: «**قُولُوا**

حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَىٰ اللهِ تَوَكَّلْنَا»(١) ، ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ في صعيد واحد.

[١٠٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَرَضْنَا﴾ أَيْ أَبْرَزْنَاهَا لَهُمْ ، ﴿جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ حَتَّىٰ يُشَاهِدُوهَا عِيَانًا ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يُؤْتَىٰ بِجَهَنَّمَ تُقَادُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِسَبْعِينَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ ملك**»(٢).

[١٠١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ﴾ أي غشاء والغطاء مَا يُغَطَّىٰ بِهِ الشَّيْءُ وَيَسْتُرُهُ، ﴿عَنْ ذِكْرِي﴾ يَعْنِي عَنِ الْإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ. وَعَنِ الْهُدَىٰ وَالْبَيَانِ. وَقِيلَ : عَنْ رُؤْيَةِ الدَّلَائِلِ، ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ أَيْ سَمْعَ الْقَبُولِ، وَالْإِيمَانِ لِغَلَبَةِ الشَّقَاوَةِ عَلَيْهِمْ. وَقِيلَ: لَا يَعْقِلُونَ وَقِيلَ: كَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ أَيْ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَسْمَعُوا مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ لِشِدَّةِ عداوتهم، كَقَوْلِ الرَّجُلِ: لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَسْمَعَ مِنْ فُلَانٍ شَيْئًا لِعَدَاوَتِهِ.

[١٠٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَحَسِبَ﴾ أَفَظَنَّ، ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ أَرْبَابًا يُرِيدُ بِالْعِبَادِ عِيسَىٰ وَالْمَلَائِكَةَ، كَلَّا بَلْ هُمْ لَهُمْ أَعْدَاءٌ وَيَتَبَرَّءُونَ مِنْهُمْ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي الشَّيَاطِينَ أَطَاعُوهُمْ مِنْ دُونِ الله، وقال

---

(١) أحمد (١١٠٣٩) والترمذي ٢٤٣١) .

(٢) مسلم (٢٨٤٢) .

مقاتل: الأصنام سماها عِبَادًا، وَجَوَابُ هَذَا الِاسْتِفْهَامِ مَحْذُوفٌ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ إِنِّي لَأَغْضَبُ لِنَفْسِي، يَقُولُ أَفَظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا غَيْرِي أَوْلِيَاءَ وَأَنِّي لَا أَغْضَبُ لِنَفْسِي وَلَا أُعَاقِبُهُمْ؟! ، وَقِيلَ: أَفَظَنُّوا أَنَّهُمْ يَنْفَعُهُمْ أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ، ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ أَيْ: مَنْزِلًا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هِيَ مَثْوَاهُمْ ، وَقِيلَ: النُّزُلُ مَا يُهَيَّأُ لِلضَّيْفِ، يُرِيدُ هِيَ مُعَدَّةٌ لَهُمْ عِنْدَنَا كالنُّزُلِ لِلضَّيْفِ.

[١٠٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ يعني الذين اتبعوا أَنْفُسَهُمْ فِي عَمَلٍ يَرْجُونَ بِهِ فَضْلًا وَنَوَالًا فَنَالُوا هَلَاكًا وَبَوَارًا، كَمَنْ يَشْتَرِي سِلْعَةً يَرْجُو عَلَيْهَا رِبْحًا فَخَسِرَ وَخَابَ سَعْيُهُ، وَالْآيَةُ مَعْنَاهَا التَّوْبِيخُ، أَيْ قُلْ لِهَؤُلَاءِ الْكَفَرَةِ الَّذِينَ عَبَدُوا غَيْرِي: يَخِيبُ سَعْيُهُمْ وَآمَالُهُمْ غَدًا، فَهُمُ الْأَخْسَرُونَ أَعْمَالًا وَهُمُ ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤] فِي عِبَادَةِ مَنْ سِوَايَ ، وَاخْتَلَفُوا فِيهِمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعْدُ ابنُ أَبِي وَقَّاصٍ: هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ.

[١٠٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ﴾ حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ فِي الصَّوَامِعِ، وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: هُمْ أهل حروراء، ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾ بَطَلَ عَمَلُهُمْ وَاجْتِهَادُهُمْ، ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ أَيْ عَمَلًا.

[١٠٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ﴾ بَطَلَتْ، ﴿أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ أَيْ لَا نَجْعَلُ لَهُمْ حظًا

وَقَدْرًا، تَقُولُ الْعَرَبُ: مَا لِفُلَانٍ عِنْدِي وَزْنٌ أَيْ قَدْرٌ لِخِسَّتِهِ، وقد في الصحيحين من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: « **إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ** ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْنًا﴾ »(١) ، قال أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ: يَأْتِي أُنَاسٌ بِأَعْمَالٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هِيَ عِنْدَهُمْ فِي الْعِظَمِ كَجِبَالِ تِهَامَةَ، فَإِذَا وَزَنُوهَا لَمْ تَزِنْ شَيْئًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: يُحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ أَنَّهُ لَا حَسَنَةَ لَهُمْ تُوزَنُ فِي مَوَازِينِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَا حَسَنَةَ لَهُ فَهُوَ فِي النَّارِ لَا مَحَالَةَ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ الْمَجَازَ وَالِاسْتِعَارَةَ، كَأَنَّهُ قَالَ فَلَا قَدْرَ لَهُمْ عِنْدَنَا يَوْمَئِذٍ، فَهَذَا مَعْنَىٰ الْآيَةِ عِنْدِي.

[١٠٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذَلِكَ﴾ الَّذِي ذَكَرْتُ مِنْ حُبُوطِ أَعْمَالِهِمْ وَخِسَّةِ أَقْدَارِهِمْ، ثُمَّ ابْتَدَأَ فَقَالَ: ﴿جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي﴾ يعني القرآن، ﴿وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ أَيْ سُخْرِيَةً وَمَهْزُوءًا بِهِمْ ، قال ابن كثير : أَيْ إنما جازيناهم بهذا الجزاء بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ، وَاتِّخَاذِهِمْ آيَاتِ اللهِ وَرُسُلَهُ هُزُوًا استهزأوا بِهِمْ وَكَذَّبُوهُمْ أَشَدَّ التَّكْذِيبِ.

[١٠٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ عِبَادِهِ السُّعَدَاءِ، وهم الذين آمنوا بالله ورسوله

---

(١) البخاري (٤٧٢٩) ومسلم (٢٧٨٥) .

وصدقوا المرسلين فيما جاءوا به، أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ الفردوس، قَالَ قَتَادَةُ: الْفِرْدَوْسُ رَبْوَةُ الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُهَا وَأَفْضَلُهَا، وَقَدْ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «**إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ الْجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَعْلَىٰ الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تفجَّر أَنْهَارُ الجنة**»[1]، ﴿نُزُلًا﴾ قِيلَ أَيْ مَنْزِلًا ، وَقِيلَ: مَا يُهَيَّأُ لِلنَّازِلِ عَلَىٰ مَعْنَىٰ كَانَتْ لَهُمْ ثِمَارُ جَنَّاتِ الْفِرْدَوْسِ وَنَعِيمُهَا نُزُلًا، وَمَعْنَىٰ كَانَتْ لَهُمْ أَيْ فِي عِلْمِ اللهِ قَبْلَ أَنْ يُخْلَقُوا.

[١٠٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ﴾ لا يطلبون، ﴿عَنْهَا حِوَلًا﴾ أَيْ تَحَوُّلًا إِلَىٰ غَيْرِهَا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَوَّلُوا عَنْهَا كَمَا يَنْتَقِلُ الرَّجُلُ من دار إلىٰ دار إذا توافقه إلىٰ دار أخرىٰ.

[١٠٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَتِ الْيَهُودُ يَا مُحَمَّدُ تَزْعُمُ أَنَّا قَدْ أُوتِينَا الْحِكْمَةَ وَفِي كِتَابِكَ ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] ثم نقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا﴾ وسمي المداد مدادا لإمداد الكتاب وَأَصْلُهُ مِنَ الزِّيَادَةِ وَمَجِيءُ الشَّيْءِ بَعْدَ الشَّيْءِ، قَالَ مُجَاهِدٌ: لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِلْقَلَمِ وَالْقَلَمُ يكتب ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾ أَيْ مَاؤُهُ ﴿قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ﴾ نَفِدَ الشَّيْءُ إِذَا تَمَّ وَفَرَغَ، ﴿كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ أَيْ عِلْمُهُ وَحُكْمُهُ ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ

---

(١) البخاري (٢٧٩٠) ومسلم (٧٤٢٣) .

مَدَدًا﴾ مَعْنَاهُ لَوْ كَانَ الْخَلَائِقُ يَكْتُبُونَ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُمْ لَنَفِدَ الْبَحْرُ وَلَمْ تنفد كلمات الله، ولو جئنا بمثله مددا بِمِثْلِ مَاءِ الْبَحْرِ فِي كَثْرَتِهِ مدادا وزيادة.

[١١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عَلَّمَ اللهُ رَسُولَهُ التَّوَاضُعَ لِئَلَّا يَزْهُوَ عَلَىٰ خلقه، فأمره الله أن يقر فيقول: أنا آدَمِيٌّ مِثْلُكُمْ إِلَّا أَنِّي خُصِّصْتُ بِالْوَحْيِ وَأَكْرَمَنِي اللهُ بِهِ، يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ، ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ أَيْ يَخَافُ الْمَصِيرَ إِلَيْهِ، وَقِيلَ: يَأْمُلُ رُؤْيَةَ رَبِّهِ، فَالرَّجَاءُ يَكُونُ بمعنىٰ الخوف والأمل جميعا فجمع به الْمَعْنَيَيْنِ، ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ أي لا يرائي بعمله، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللهُ بِهِ**»(١)، وفي الحديث الصحيح عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكَ الْأَصْغَرَ**، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ؟ قَالَ: **الرياء**»(٢).

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْكَهْفِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

---

(١) البخاري (٦٤٩٩) ومسلم (٢٩٨٧).

(٢) أحمد (٢٣٦٣٠).

سُورَةُ مَرْيَمَ

اسْمُ هَذِهِ السُّورَةِ فِي الْمَصَاحِفِ وَكُتُبِ التَّفْسِيرِ وَأَكْثَرِ كُتُبِ السُّنَّةِ سُورَةُ مَرْيَمَ. وَهِيَ مَكِّيَّةٌ عِنْدَ الْجُمْهُورِ، وَهِيَ السُّورَةُ الرَّابِعَةُ وَالْأَرْبَعُونَ فِي تَرْتِيبِ النُّزُولِ نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ فَاطِرٍ وَقَبْلَ سُورَةِ طه، وَكَانَ نُزُولُ سُورَةِ طه قَبْلَ إِسْلَامِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ كَمَا يُؤْخَذُ مِنْ قِصَّةِ إِسْلَامِهِ ، فَيَكُونُ نُزُولُ هَذِهِ السُّورَةِ أَثْنَاءَ سَنَةِ أَرْبَعٍ مِنَ الْبَعْثَةِ مَعَ أَنَّ السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿كهيعص﴾ هُوَ عَلَىٰ مَفْهُومِ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ السَّابِقَةِ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ ، وَمَفَادُهُ الْإِعْجَازُ لِهَذَا الْكِتَابِ الْعَظِيمِ، الْمُؤَلَّفِ مِنْ هَذِهِ الْحُرُوفِ الْمَعْرُوفَةِ، وَالتَّحَدِّي قَائِمٌ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدٌ بِمِثْلِ هَذَا النَّظْمِ الْكَرِيمِ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذِكْرُ﴾ أي هذا ذكر رحمة الله عبده زكريا، ﴿رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ وَفِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ مَعْنَاهُ: ذِكْرُ ربك، ﴿عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ برحمته ، وَهُوَ زَكَرِيَّا الثَّانِي زَوْجُ خَالَةِ مَرْيَمَ، وَكَانَ نَبِيًّا عَظِيمًا مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَفِي الصَّحِيحِ : أنه كان نجاراً يأكل من عمل يده فِي النِّجَارَةِ(١).

---

(١) مسلم (٢٣٧٩) .

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ دعا ﴿رَبَّهُ﴾ في محرابه، ﴿نِدَاءً خَفِيًّا﴾ دَعَا سِرًّا مِنْ قَوْمِهِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ ، وَالنِّدَاءُ الدُّعَاءُ وَالرَّغْبَةُ، أَيْ نَاجَىٰ رَبَّهُ بِذَلِكَ فِي مِحْرَابِهِ. قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: إِنَّمَا أَخْفَىٰ دُعَاءَهُ لِئَلَّا يُنْسَبَ فِي طَلَبِ الْوَلَدِ إِلَىٰ الرُّعُونَةِ لكبره، حكاه الماوردي، وقال الآخرون: إِنَّمَا أَخْفَاهُ لِأَنَّهُ أَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾: أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ الْقَلْبَ التَّقِيَّ، وَيَسْمَعُ الصَّوْتَ الْخَفِيَّ، وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: قَامَ مِنَ اللَّيْلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَدْ نَامَ أَصْحَابُهُ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ يَقُولُ خُفْيَةً: يَا رَبِّ يَا رَبِّ يَا رَبِّ، فَقَالَ اللهُ له: لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ .

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ﴾ ضعف ورق، ﴿الْعَظْمُ مِنِّي﴾ مِنَ الْكِبَرِ. قَالَ قَتَادَةُ: اشْتَكَىٰ سقوط الأضراس، ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أَيْ ابْيَضَّ شَعْرُ الرَّأْسِ، قال ابن عاشور : وَأُسْنِدَ الِاشْتِعَالُ إِلَىٰ الرَّأْسِ، وَهُوَ مَكَانُ الشَّعْرِ الَّذِي عَمَّهَ الشَّيْبُ، لِأَنَّ الرَّأْسَ لَا يَعُمُّهُ الشَّيْبُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَعُمَّ اللِّحْيَةَ غَالِبًا، فَعُمُومُ الشَّيْبِ فِي الرَّأْسِ أَمَارَةُ التَّوَغُّلِ فِي كِبَرِ السِّنِّ ، ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ الشَّقِيُّ: الَّذِي أَصَابَتْهُ الشِّقْوَةُ، وَهِيَ ضِدُّ السَّعَادَةِ، أَيْ هِيَ الْحِرْمَانُ مِنَ الْمَأْمُولِ وَضَلَالُ السَّعْيِ، وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيءِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ فِي شَأْنِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ وَمَنْ جَالَسَهُمْ «**هُمُ**

الْجُلَسَاءُ لَا يَشْقَىٰ بِهِمْ جَلِيسُهُمْ»[1] ، يَقُولُ عَوَّدْتَنِي الْإِجَابَةَ فِيمَا مَضَىٰ وَلَمْ تُخَيِّبْنِي، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ لَمَّا دَعَوْتَنِي إِلَىٰ الْإِيمَانِ آمَنْتُ وَلَمْ أَشْقَ بِتَرْكِ الْإِيمَانِ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ﴾ والموالىٰ: بَنُو الْعَمِّ. قَالَ مُجَاهِدٌ: الْعَصَبَةُ ، وَالْمَوَالِي: الْعُصْبَةُ وَأَقْرَبُ الْقَرَابَةِ، جَمْعُ مَوْلًىٰ بِمَعْنَىٰ الْوَلِيِّ ، ﴿مِنْ وَرَائِي﴾ مِنْ بَعْدِ مَوْتِي، ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ لَا تَلِدُ، ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ﴾ أعطني من عندك ﴿وَلِيًّا﴾ .

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ قِيلَ: أَرَادَ مِيرَاثَ النُّبُوَّةِ وَالْعِلْمِ. وَقِيلَ: أَرَادَ إِرْثَ الْحُبُورَةِ، لِأَنَّ زَكَرِيَّا كَانَ رَأْسَ الأحبار، وقال الزَّجَّاجُ: وَالْأَوْلَىٰ أَنْ يُحْمَلَ عَلَىٰ مِيرَاثِ غَيْرِ الْمَالِ لِأَنَّهُ يَبْعُدُ أَنْ يُشْفِقَ زَكَرِيَّا وَهُوَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أَنْ يَرِثَهُ بَنُو عَمِّهِ مَالَهُ، وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّهُ خَافَ تَضْيِيعَ بَنِي عَمِّهِ دِينَ اللهِ وَتَغْيِيرَ أَحْكَامِهِ عَلَىٰ مَا كَانَ شَاهَدَهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ تَبْدِيلِ الدِّينِ وَقَتْلِ الْأَنْبِيَاءِ، فَسَأَلَ ربه ولدا صَالِحًا يَأْمَنُهُ عَلَىٰ أُمَّتِهِ، وَيَرِثُ نبوته وعمله لِئَلَّا يَضِيعَ الدِّينُ. قال القرطبي : إِنَّمَا كَانَ مَوَالِي زكريا مُهْمِلِينَ لِلدِّينِ فَخَافَ بِمَوْتِهِ أَنْ يَضِيعَ الدِّينُ، فَطَلَبَ وَلِيًّا يَقُومُ بِالدِّينِ بَعْدَهُ، وَعَلَيْهِ فَلَمْ يَسَلْ مَنْ يَرِثُ مَالَهُ، لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا تُورَثُ. وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ مِنَ الْقَوْلَيْنِ فِي تَأْوِيلِ الْآيَةِ، وَأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَرَادَ وِرَاثَةَ الْعِلْمِ وَالنُّبُوَّةِ لَا وِرَاثَةَ الْمَالِ، لِمَا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ

---

(١) البخاري (٦٤٠٨) ومسلم (٢٦٨٩) .

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّا مَعْشَرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ»(١) ، ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ أَيْ مَرْضِيًّا عِنْدَكَ وَعِنْدَ خَلْقِكِ، تُحِبُّهُ وَتُحَبِّبُهُ إِلَىٰ خَلْقِكَ فِي دينه وخلقه.

[٧] قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ وَفِيهِ اخْتِصَارٌ، مَعْنَاهُ فَاسْتَجَابَ اللهُ دُعَاءَهُ، فَقَالَ: يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ، ﴿بِغُلَامٍ﴾ بِوَلَدٍ ذَكَرٍ، ﴿اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ قال ابن عَبَّاسٍ: لَمْ يُسَمَّ يَحْيَىٰ قَبْلَهُ فَشَرُفَ بِأَنْ سَمَّاهُ اللهُ تَعَالَىٰ وَلَمْ يَكِلْ تَسْمِيَتَهُ إِلَىٰ أَبَوَيْهِ ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعَطَاءٌ: لَمْ نَجْعَلْ لَهُ شَبَهًا وَمِثْلًا، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم : ٦٥] أَيْ مِثْلًا، وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِثْلٌ لِأَنَّهُ لَمْ يَعْصِ وَلَمْ يَهُمَّ بِمَعْصِيَةٍ قَطُّ ، وقيل: لم يكن له ميل فِي أَمْرِ النِّسَاءِ، لِأَنَّهُ كَانَ سَيِّدًا وَحَصُورًا ، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَيْ لَمْ تَلِدِ الْعَوَاقِرُ مِثْلَهُ وَلَدًا ، وَقِيلَ: لَمْ يُرِدِ اللهُ بِهِ اجْتِمَاعَ الْفَضَائِلِ كُلِّهَا لِيَحْيَىٰ إِنَّمَا أَرَادَ بَعْضَهَا لِأَنَّ الْخَلِيلَ وَالْكَلِيمَ كَانَا قَبْلَهُ وَهُمَا أَفْضَلُ مِنْهُ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ﴾ مِنْ أَيْنَ، ﴿يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ أي يبسًا، وقال قتادة: يريد تحول الْعَظْمِ، يُقَالُ: عَتَا الشَّيْخُ يَعْتُو عِتِيًّا ، إِذَا انْتَهَىٰ سِنُّهُ وَكَبِرَ، وَشَيْخٌ عَاتٍ وَعَاسٍ إِذَا صَارَ إِلَىٰ حَالَةِ الْيَبَسِ وَالْجَفَافِ.

---

(١) البخاري (٣٠٩٣) ومسلم (١٧٥٨) .

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ كَذَلِكَ﴾ أَيِ الأَمْرُ كَمَا قِيلَ لَكَ مِنْ هِبَةِ الْوَلَدِ عَلَىٰ الْكِبَرِ ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هين﴾ أَيْ خَلْقُ يَحْيَىٰ عَلَيَّ سَهْلٌ ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ﴾ أَيْ مِنْ قَبْلِ يَحْيَىٰ وَإِيجَادِهِ، ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ أَيْ كَمَا خَلَقَكَ اللهُ تَعَالَىٰ بَعْدَ الْعَدَمِ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا مَوْجُودًا، فَهُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ خَلْقِ يَحْيَىٰ وَإِيجَادِهِ.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ دَلَالَةً عَلَىٰ حَمْلِ امْرَأَتِي، أَيْ عَلَامَةً وَدَلِيلًا عَلَىٰ وُجُودِ مَا وَعَدْتَنِي، لِتَسْتَقِرَّ نَفْسِي وَيَطْمَئِنَّ قَلْبِي بِمَا وَعَدْتَنِي، ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أي أن يُحبس لِسَانَكَ عَنِ الْكَلَامِ ثَلَاثَ لَيَالٍ، وَأَنْتَ صَحِيحٌ سَوِيٌّ، مِنْ غَيْرِ مَرَضٍ وَلَا عِلَّةٍ، قَالَ مُجَاهِدٌ: أَيْ لَا يَمْنَعُكَ مِنَ الْكَلَامِ مَرَضٌ. وَقِيلَ: ثَلَاثَ لَيَالٍ سويا أي متتابعا، وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ. وَفِي الْقِصَّةِ: أَنَّهُ لَمْ يَقْدِرْ فِيهَا أَنْ يَتَكَلَّمَ مَعَ النَّاسِ فَإِذَا أَرَادَ ذِكْرَ الله تعالىٰ انطلق لسانه، وَفُسِّرَ أَيْضًا سَوِيًّا بِأَنَّهُ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ الْمُخَاطَبِ، أَيْ حَالَ كَوْنِكَ سَوِيًّا، أَيْ بِدُونِ عَاهَةِ الْخَرَسِ وَالْبَكَمِ، وَلَكِنَّهَا آيَةٌ لَكَ اقْتَضَتْهَا حكمة الله تعالىٰ.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ الْمِحْرَابُ: بَيْتٌ أَوْ مُحْتَجَرٌ يُخَصَّصُ لِلْعِبَادَةِ الْخَاصَّةِ ، وَالْمِحْرَابُ أَرْفَعُ الْمَوَاضِعِ، وَأَشْرَفُ الْمَجَالِسِ، وَكَانُوا يَتَّخِذُونَ الْمَحَارِيبَ فِيمَا ارْتَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ ، وقيل أنه هو مأخوذ من الحرب كأن من يلازمه ، يُحَارِبُ الشَّيْطَانَ وَالشَّهَوَاتِ ، وَكَانَ النَّاسُ مِنْ وَرَاءِ الْمِحْرَابِ يَنْتَظِرُونَهُ أَنْ يَفْتَحَ لَهُمُ الْبَابَ فَيَدْخُلُونَ وَيُصَلُّونَ إِذْ خَرَجَ عَلَيْهِمْ زكريا متغيرا لونه فأنكروه، فقالوا: مالك يا زكريا؟ ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ﴾ أَيْ

أَشَارَ، إِشَارَةً خَفِيَّةً سَرِيعَةً قال مجاهد: كتب لهم بالأرض، ﴿أَنْ سَبِّحُوا﴾ أَيْ مُوَافَقَةً لَهُ فِيمَا أُمِرَ بِهِ فِي هذه الأيام الثلاثة زيادة علىٰ أعماله، شكراً لِلَّهِ عَلَىٰ مَا أَوْلَاهُ، ﴿بُكْرَةً﴾ غدوة، ﴿وَعَشِيًّا﴾ أَنَّهُ كَانَ يَخْرُجُ عَلَىٰ قَوْمِهِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا فَيَأْمُرُهُمْ بِالصَّلَاةِ، فَلَمَّا كَانَ وَقْتُ حَمْلِ امْرَأَتِهِ وَمَنَعَ الكلام خَرَجَ إِلَيْهِمْ فَأَمَرَهُمْ بِالصَّلَاةِ إِشَارَةً. قال ابن عاشور: وَإِنَّمَا أَمَرَهُمْ بِالتَّسْبِيحِ لِئَلَّا يَحْسَبُوا أَنَّ زَكَرِيَّاءَ لَمَّا لَمْ يُكَلِّمْهُمْ قَدْ نَذَرَ صَمْتًا فَيَقْتَدُوا بِهِ فَيَصْمُتُوا، وَكَانَ الصَّمْتُ مِنْ صُنُوفِ عِبَادَةٍ فِي الْأُمَمِ السَّالِفَةِ، كَمَا سَيَأْتِي فِي قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ فَأَوْمَأَ إِلَيْهِمْ أَنْ يَشْرَعُوا فِيمَا اعْتَادُوهُ مِنَ التَّسْبِيحِ أَوْ أَرَادَ أَنْ يُسَبِّحُوا اللهَ تَسْبِيحَ شُكْرٍ عَلَىٰ أَنْ وَهَبَ نَبِيئَهُمُ ابْنًا يَرِثُ عِلْمَهُ، وَلَعَلَّهُمْ كَانُوا عَلِمُوا تَرَقُّبَهُ اسْتِجَابَةَ دَعْوَتِهِ، أَوْ أَنَّهُ أَمَرَهُمْ بِذَلِكَ أَمْرًا مُبْهما يفسره عِنْدَ مَا تَزُولُ حبسة لِسَانه.

[١٢] قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا يَحْيَىٰ﴾ قيل: فيه حذف معناه: وهبنا لَهُ يَحْيَىٰ وَقُلْنَا لَهُ: يا يحيىٰ، ﴿خُذِ الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة، ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أَيْ بِجِدٍّ وَاجْتِهَادٍ وقال زيد بن أسلم: الْعِلْمُ بِهِ، وَالْحِفْظُ لَهُ وَالْعَمَلُ بِهِ، وَهُوَ الِالْتِزَامُ لِأَوَامِرِهِ، وَالْكَفُّ عَنْ نَوَاهِيهِ، ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: النبوة، ﴿صَبِيًّا﴾ أَيِ الْفَهْمَ وَالْعِلْمَ وَالْجِدَّ وَالْعَزْمَ، وَالْإِقْبَالَ عَلَىٰ الْخَيْرِ وَالْإِكْبَابَ عَلَيْهِ وَالِاجْتِهَادَ فِيهِ، وَهُوَ صَغِيرٌ حدث. قال عبد الله بن المبارك، قَالَ الصِّبْيَانُ لِيَحْيَىٰ بْنِ زَكَرِيَّا: اذْهَبْ بِنَا نلعب، فقال: ما للعب خلقنا، وَقِيلَ: أَرَادَ بِالْحُكْمِ فَهْمَ الْكِتَابِ، فَقَرَأَ

التَّوْرَاةَ وَهُوَ صَغِيرٌ. وَعَنْ بَعْضِ السلف قال: مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ فَهُوَ مِمَّنْ أُوتِيَ الْحُكْمَ صبياً.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا﴾ رحمة من عندنا وَقَالَ جُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ: الْحَنَانُ الشَّفَقَةُ وَالرَّحْمَةُ وَالْمَحَبَّةُ، وَأَصْلُهُ مِنْ حَنِينِ النَّاقَةِ عَلَىٰ وَلَدِهَا. وَحَنَّ الرَّجُلُ إِلَىٰ وَطَنِهِ، وَمِنْهُ التَّعَطُّفُ وَالرَّحْمَةُ، ﴿وَزَكَاةً﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: يَعْنِي بِالزَّكَاةِ الطَّاعَةَ وَالْإِخْلَاصَ. وَالزَّكَاةُ: زَكَاةُ النَّفْسِ وَنَقَاؤُهَا مِنَ الْخَبَائِثِ، وَقَالَ قَتَادَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: هِيَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ، قال البغوي: وَمَعْنَىٰ الْآيَةِ وَآتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَتَحَنُّنًا عَلَىٰ الْعِبَادِ، لِيَدْعُوَهُمْ إِلَىٰ طَاعَةِ رَبِّهِمْ وَيَعْمَلَ عَمَلًا صَالِحًا فِي إِخْلَاصٍ. ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ طاهراً فلم يذنب مُسْلِمًا وَمُخْلِصًا مُطِيعًا، وَكَانَ مِنْ تَقْوَاهُ أَنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَطِيئَةً وَلَا هَمَّ بِهَا.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ أَيْ بَارًّا لَطِيفًا بِهِمَا مُحْسِنًا إِلَيْهِمَا. وَالْبُرُورُ: الْإِكْرَامُ وَالسَّعْيُ فِي الطَّاعَةِ ، ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ، وَقِيلَ: الْجَبَّارُ الَّذِي يضرب، ويقتل علىٰ الغضب، والعصي : شَدِيدُ الْعِصْيَانِ.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ﴾ أي: سلام لَهُ، ﴿يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: أَوْحَشُ مَا يَكُونُ الْإِنْسَانُ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ يَوْمَ وُلِدَ فَيَخْرُجُ مِمَّا كَانَ فِيهِ، وَيَوْمَ يَمُوتُ فَيَرَىٰ قَوْمًا لَمْ يَكُنْ عَايَنَهُمْ،

وَيَوْمَ يبعث حيا فَيَرَىٰ نَفْسَهُ فِي مَحْشَرٍ لَمْ ير مثله، فخصر يَحْيَىٰ بِالسَّلَامَةِ فِي هَذِهِ الْمَوَاطِنِ.

[١٦] قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ﴾ فِي الْقُرْآنِ، ﴿مَرْيَمَ﴾ هِيَ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، مِنْ سُلَالَةِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَتْ مِنْ بَيْتٍ طَاهِرٍ طَيِّبٍ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَىٰ قصة ولادة أمها لها في سورة آلِ عِمْرَانَ، وَأَنَّهَا نَذَرَتْهَا مُحَرَّرَةً أَيْ تَخْدُمُ مسجد بيت المقدس، وكانوا يتقربون بذلك ونشأت في بني إسرئيل نَشْأَةً عَظِيمَةً، فَكَانَتْ إِحْدَىٰ الْعَابِدَاتِ النَّاسِكَاتِ، الْمَشْهُورَاتِ بالعبادة العظيمة والتبتل والدؤوب، وكانت في كفالة زوج أختها زكريا نبيّ بني إسرئيل إِذْ ذَاكَ وَعَظِيمِهِمُ الَّذِي يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فِي دِينِهِمْ، ﴿إِذِ انْتَبَذَتْ﴾ : تنحت واعتزلت، قال القرطبي : لِتَعْبُدَ اللهَ، وَذَلِكَ أَنَّ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ كَانَتْ وَقْفًا عَلَىٰ سِدَانَةِ الْمَعْبَدِ وَخِدْمَتِهِ وَالْعِبَادَةِ فِيهِ، فَتَنَحَّتْ مِنَ النَّاسِ لِذَلِكَ، ودخلت الْمَسْجِدِ إِلَىٰ جَانِبِ الْمِحْرَابِ فِي شَرْقِيِّهِ لِتَخْلُوَ لِلْعِبَادَةِ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ. ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ من قومها، ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أَيْ مَكَانًا فِي الدَّارِ مِمَّا يَلِي الْمَشْرِقَ، وَكَانَ يَوْمًا شَاتِيًا شَدِيدَ الْبَرْدِ فَجَلَسَتْ فِي مَشْرُقَةٍ تَفْلِي رَأْسَهَا. وَقِيلَ: كَانَتْ طَهُرَتْ من الحيض، فَذَهَبَتْ لِتَغْتَسِلَ.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَاتَّخَذَتْ﴾ فضربت، ﴿مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ اتِّخَاذُ الْحِجَابِ: جَعْلُ شَيْءٍ يُحْجَبُ عَنِ النَّاسِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: سِتْرًا. وَقِيلَ: جَلَسَتْ وَرَاءَ جِدَارٍ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: وَرَاءَ جَبَلٍ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: إِنَّ

مَرْيَمَ كَانَتْ تَكُونُ فِي الْمَسْجِدِ فَإِذَا حَاضَتْ تَحَوَّلَتْ إِلَىٰ بَيْتِ خَالَتِهَا حَتَّىٰ إِذَا طَهُرَتْ عَادَتْ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ، فبينما هي تغتسل من الحيض قَدْ تَجَرَّدَتْ إِذْ عَرَضَ لَهَا جِبْرِيلُ فِي صُورَةِ شَابٍّ فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ يَعْنِي جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ السَّوِيُّ: الْمُسَوَّىٰ، أَيِ التَّامُّ الْخَلْقِ.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ مُؤْمِنًا مُطِيعًا، فَإِنْ قِيلَ: إِنَّمَا يُسْتَعَاذُ مِنَ الْفَاجِرِ فَكَيْفَ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا؟ قِيلَ: هَذَا كَقَوْلِ الْقَائِلِ: إِنْ كُنْتَ مُؤْمِنًا فَلَا تَظْلِمْنِي أَيْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ إِيمَانُكَ مَانِعًا مِنَ الظُّلْمِ، وَكَذَلِكَ هاهنا معناه: وينبغي أن يكون تَقْوَاكَ مَانِعًا لَكَ مِنَ الْفُجُورِ.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ لَهَا جِبْرِيلُ عليه السلام ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ﴾ أَسْنَدَ الْفِعْلَ إِلَىٰ الرَّسُولِ، وَإِنْ كَانَتِ الْهِبَةُ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، لِأَنَّهُ أَرْسَلَ بِهِ، ﴿غُلَامًا زَكِيًّا﴾ وَلَدًا صَالِحًا طَاهِرًا مِنَ الذُّنُوبِ.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَتْ﴾ مريم ﴿أَنَّىٰ﴾ مِنْ أَيْنَ، ﴿يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ [لَمْ يَقْرَبْنِي زَوْجٌ، ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ فاجرة، تريد أن الولد إنما يَكُونُ مِنْ نِكَاحٍ أَوْ سِفَاحٍ، وَلَمْ يَكُنْ هُنَا وَاحِدٌ مِنْهُمَا.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ جبريل عليه السلام ﴿كَذَلِكِ﴾ قيل: معنا، كَمَا قُلْتِ يَا مَرْيَمُ وَلَكِنْ، ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ وَقِيلَ: هَكَذَا قَالَ رَبُّكِ ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أَيْ

خَلْقُ وَلَدٍ بِلَا أَبٍ ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً﴾ علامة ﴿لِلنَّاسِ﴾ دلالة علىٰ قدرتنا، ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ وَنِعْمَةً لِمَنْ تَبِعَهُ عَلَىٰ دِينِهِ، ﴿وَكَانَ﴾ ذلك، ﴿أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ مَحْكُومًا مَفْرُوغًا عَنْهُ لَا يُرَدُّ وَلَا يُبَدَّلُ.

[٢٢] قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ قيل: إن جبريل رفع عنها درعها فنفخ في جيبها فحملت حين أصبحت ، وَقِيلَ: فِي فِيهَا، وَقِيلَ : نَفَخَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَفْخًا مِنْ بَعِيدٍ فَوَصَلَ الرِّيحُ إِلَيْهَا فَحَمَلَتْ بِعِيسَىٰ في الحال، ﴿فَانْتَبَذَتْ بِهِ﴾ أي تنحت بالحمل فلما حملته انتبذت به أي وانفردت، ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ أي بَعِيدًا مِنْ أَهْلِهَا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَقْصَىٰ الْوَادِي، وَهُوَ وَادِي بَيْتِ لَحْمٍ، فِرَارًا مَنْ قَوْمِهَا أَنْ يُعَيِّرُوهَا بِوِلَادَتِهَا مِنْ غَيْرِ زَوْجٍ،

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَجَاءَهَا﴾ أَيْ فَاضْطَرَّهَا وألجأها إلىٰ جذع النخلة، فِي الْمَكَانِ الَّذِي تَنَحَّتْ إِلَيْهِ، ﴿الْمَخَاضُ﴾ وَهُوَ وَجَعُ الْوِلَادَةِ، ﴿إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ وكانت نخلة يا بسة فِي الصَّحْرَاءِ، فِي شِدَّةِ الشِّتَاءِ، لَمْ يَكُنْ لَهَا سَعَفٌ، وَقِيلَ: الْتَجَأَتْ إِلَيْهَا لِتَسْتَنِدَ إِلَيْهَا وَتَتَمَسَّكَ بِهَا عَلَىٰ وَجَعِ الْوِلَادَةِ، ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ تَمَنَّتِ الْمَوْتَ اسْتِحْيَاءً مِنَ النَّاسِ وخوف الفضيحة، ﴿وَكُنْتُ نَسْيًا﴾ هو الشيء المنسي، والنسي فِي اللُّغَةِ كُلُّ مَا أُلْقِيَ وَنُسِيَ وَلَمْ يُذْكَرْ لِحَقَارَتِهِ، ﴿مَنْسِيًّا﴾ أَيْ مَتْرُوكًا، قَالَ قَتَادَةُ: شَيْءٌ لَا يُعْرَفُ وَلَا يُذْكَرُ.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ يَعْنِي جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَتْ مَرْيَمُ عَلَىٰ أَكَمَةٍ وَجِبْرِيلُ وَرَاءَ الْأَكَمَةِ تَحْتَهَا فنَادَاهَا، ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ أَيْ نَادَاهَا

قَائِلًا لَا تَحْزَنِي ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ والسري: النَّهْرُ الصَّغِيرُ ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري : تَحْتَكِ سَرِيًّا يَعْنِي عِيسَىٰ وَكَانَ وَاللهِ عَبْدًا سَرِيًّا يَعْنِي رَفِيعًا، السَّرِيُّ في اللغة : الْجَدْوَلُ مِنَ الْمَاءِ كَالسَّاقِيَةِ، كَثِيرُ الْمَاءِ الْجَارِي ،

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ﴾ يَعْنِي قِيلَ لِمَرْيَمَ: حَرِّكِي ﴿بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ أَيْ وَخُذِي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ، قِيلَ: كَانَتْ يَابِسَةً ، تَقُولُ الْعَرَبُ: هَزَّهُ وَهَزَّ بِهِ، كَمَا يَقُولُ حَزَّ رَأْسَهُ وَحَزَّ برأسه، وأمدد الجبل وأمدد به، قال ابن كثير : وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا كَانَتْ شَجَرَةً، وَلَكِنْ لَمْ تَكُنْ فِي إِبَّانِ ثَمَرِهَا، قَالَهُ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ ، ولهذا امتن عليها بذلك بأن جَعَلَ عِنْدَهَا طَعَامًا وَشَرَابًا ﴿تُسَاقِطْ عَلَيْكِ﴾ يعني تُسْقِطُ عَلَيْكِ النَّخْلَةُ رُطَبًا، ﴿رُطَبًا جَنِيًّا﴾ مَجْنِيًّا. وَقِيلَ: الْجَنِيُّ هُوَ الَّذِي بَلَغَ الْغَايَةَ، وَجَاءَ أَوَانَ اجْتِنَائِهِ. قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ: مَا لِلنُّفَسَاءِ عِنْدِي خَيْرٌ مِنَ الرُّطَبِ، وَلَا لِلْمَرِيضِ خَيْرٌ مِنَ الْعَسَلِ.

[٢٦] قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي﴾ يعني فَكُلِي يَا مَرْيَمُ مِنَ الرُّطَبِ وَاشْرَبِي مِنْ مَاءِ النَّهْرِ، ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ يعني طِيبِي نَفْسًا وَقِيلَ: قَرِّي عَيْنَكِ بِوَلَدِكِ عِيسَىٰ. يُقَالُ: أَقَرَّ اللهُ عينك يعني صَادَفَ فُؤَادَكَ مَا يُرْضِيكَ، فَتَقَرُّ عينك من النظر إليه. وَقِيلَ: أَقَرَّ اللهُ عَيْنَهُ يَعْنِي أَنَامَهَا، يُقَالُ: قَرَّ يَقِرُّ إِذَا سَكَنَ ، وَقِيلَ: إِنَّ الْعَيْنَ إِذَا بَكَتْ مِنَ السُّرُورِ فَالدَّمْعُ بَارِدٌ وَإِذَا بَكَتْ مِنَ الْحُزْنِ فَالدَّمْعُ يَكُونُ حَارًّا، فَمِنْ هَذَا قِيلَ: أَقَرَّ اللهُ عَيْنَهُ وَأَسْخَنَ اللهُ عَيْنَهُ، ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ يعني تشاهدين ، مَعْنَاهُ: فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَيَسْأَلُكِ عَنْ وَلَدِكِ

﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ يعني: صَمْتًا، وَالصَّوْمُ فِي اللُّغَةِ: الْإِمْسَاكُ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالْكَلَامِ. قَالَ السُّدِّيُّ: كَانَ فِي بني إسرائيل من إذا أَرَادَ أَنْ يَجْتَهِدَ صَامَ عَنِ الْكَلَامِ كَمَا يَصُومُ عَنِ الطَّعَامِ فَلَا يَتَكَلَّمُ حَتَّىٰ يُمْسِيَ ، وَقِيلَ: إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَمَرَهَا أَنْ تَقُولَ هَذَا إِشَارَةً ، وَلِذَلِكَ قَالَ مَالِكٌ فِي «الْمُوَطَّأِ» عَقِبَ حَدِيثِ الرَّجُلِ الَّذِي نَذَرَ أَنْ لَا يَسْتَظِلَّ وَلَا يَتَكَلَّمَ وَلَا يَجْلِسَ: «قَالَ مَالِكٌ: قَدْ أَمَرَهُ رَسُولُ اللهِ أَنْ يُتِمَّ مَا كَانَ لِلَّهِ طَاعَةً وَيَتْرُكَ مَا كَانَ لِلَّهِ مَعْصِيَةٌ» ، وَرُوِيَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَىٰ امْرَأَةٍ قَدْ نَذَرَتْ أَنْ لَا تَتَكَلَّمَ، فَقَالَ لَهَا: «إِنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ هَدَمَ هَذَا فَتَكَلَّمِي» ، ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ يُقَالُ كَانَتْ تُكَلِّمُ الْمَلَائِكَةَ وَلَا تُكَلِّمُ الْإِنْسَ.

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ وقيل: إنه وَلَدَتْهُ ثُمَّ حَمَلَتْهُ فِي الْحَالِ إِلَىٰ قَوْمِهَا، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: مكثت أَرْبَعِينَ يَوْمًا حَتَّىٰ طَهُرَتْ مِنْ نِفَاسِهَا، ثُمَّ حَمَلَتْهُ مَرْيَمُ عَلَيْهَا السَّلَامُ إِلَىٰ قَوْمِهَا. فَكَلَّمَهَا عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الطَّرِيقِ فَقَالَ: يَا أُمَّاهُ أَبْشِرِي فَإِنِّي عَبْدُ اللهِ وَمَسِيحُهُ، فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَىٰ أَهْلِهَا وَمَعَهَا الصَّبِيُّ بَكَوْا وَحَزِنُوا وَكَانُوا أَهْلَ بَيْتٍ صَالِحِينَ، ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ عَظِيمًا مُنْكَرًا، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: كُلُّ أَمْرٍ فَائِقٍ مِنْ عَجَبٍ أَوْ عَمَلٍ فَهُوَ فَرِيٌّ، وقيل : جَاءَ مِنْ مَادَّةِ افْتَرَىٰ إِذَا كُذِّبَ لِأَنَّ الْمَرْأَةَ تَنْسِبُ وَلَدَهَا الَّذِي حَمَلَتْ بِهِ مِنْ زِنًىٰ إِلَىٰ زَوْجِهَا كَذِبًا، قال ابن كثير : أَيْ أَنْتِ مِنْ بَيْتٍ طَيِّبٍ طَاهِرٍ مَعْرُوفٍ بِالصَّلَاحِ وَالْعِبَادَةِ والزهادة، فكيف صدر هذا منك؟.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يا أُخْتَ هَارُونَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ: كَانَ هَارُونُ رَجُلًا صَالِحًا عَابِدًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: كَانَ هَارُونُ أَخَا مَرْيَمَ مِنْ أَبِيهَا كَانَ صَالِحًا فِي قَوْمِهِ ، وَكَانَ أَمْثَلَ رَجُلٍ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ. فخَاطَبُوهَا بِالْإِضَافَةِ إِلَيْهِ زِيَادَةً فِي التَّوْبِيخِ، أَيْ مَا كَانَ لِأُخْتِ مِثْلِهِ أَنْ تَفْعَلَ فِعْلَتَكَ، وَهَذَا أَظْهَرُ الْوَجْهَيْنِ كذا قال ابن عاشور ، قَالَ ابن كثير : وَقَدْ كَانُوا يُسَمُّوْنَ بِأَسْمَاءِ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ، فعَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ نَجْرَانَ، فقالوا: أرأيت ما تقرأون ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ وَمُوسَىٰ قَبْلَ عِيسَىٰ بِكَذَا وَكَذَا؟ قَالَ: فَرَجَعْتُ فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «**أَلَا أَخْبَرْتَهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ بِأَنْبِيَائِهِمْ وَالصَّالِحِينَ قَبْلَهُمْ**»(١) ، ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ﴾ عمران، ﴿امْرَأَ سَوْءٍ﴾ ما كانَ أبوك رجل سوء يأتي الفواحش ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: زَانِيًا، ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ﴾ حنة، ﴿بَغِيًّا﴾ الْبَغِيُّ: اسْمٌ لِلْمَرْأَةِ الزَّانِيَةِ، أَيْ زَانِيَةً فَمِنْ أَيْنَ لَكِ هذا الولد؟ وَالْمَعْنَىٰ: مَا كَانَ أَبُوكِ وَلَا أُمُّكِ أَهْلًا لِهَذِهِ الْفَعْلَةِ فَكَيْفَ جِئْتِ أَنْتِ بِهَا؟!.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَشَارَتْ﴾ مريم ﴿إِلَيْهِ﴾ أَيْ إِلَىٰ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أن كلموه، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، لَمَّا لَمْ تَكُنْ لَهَا حُجَّةٌ أَشَارَتْ إِلَيْهِ لِيَكُونَ كَلَامُهُ حُجَّةً لَهَا، وَفِي الْقِصَّةِ: لَمَّا أَشَارَتْ إِلَيْهِ غَضِبَ الْقَوْمُ، وَقَالُوا مَعَ

(١) مسلم (٢٨٥٨) .

ما فعلت أتسخرين بنا؟ ثم، ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ أَيْ: مَنْ هُوَ فِي الْمَهْدِ، وَهُوَ حِجْرُهَا. وَقِيلَ: هُوَ الْمَهْدُ بعينه، يعني الكاروك كما نسميه بالعراقي ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: أَيْ كَيْفَ نُكَلِّمُ صَبِيًّا فِي الْمَهْدِ، قَالَ السُّدِّيُّ: فَلَمَّا سَمِعَ عِيسَىٰ كَلَامَهُمْ تَرَكَ الرِّضَاعَ وَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ. وَقِيلَ: لَمَّا أَشَارَتْ إِلَيْهِ تَرَكَ الثَّدْيَ وَاتَّكَأَ عَلَىٰ يَسَارِهِ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ وَجَعَلَ يُشِيرُ بِيَمِينِهِ.

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ﴾ وَقَالَ وَهْبٌ: أَتَاهَا زَكَرِيَّا عِنْدَ مُنَاظَرَتِهَا الْيَهُودَ فَقَالَ لِعِيسَىٰ: انْطِقْ بِحُجَّتِكَ إِنْ كُنْتَ أُمِرْتَ بِهَا، فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: بَلْ هُوَ يَوْمَ وُلِدَ: إِنِّي عَبْدُ اللهِ، أَقَرَّ عَلَىٰ نَفْسِهِ بِالْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَوَّلَ مَا تَكَلَّمَ لِئَلَّا يُتَّخَذَ إِلَهًا، ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ سَيُؤْتِينِي الْكِتَابَ وَيَجْعَلُنِي نَبِيًّا، وَقَالَ الْأَكْثَرُونَ: أُوتِيَ الْإِنْجِيلَ وَهُوَ صَغِيرٌ طِفْلٌ، وَكَانَ يَعْقِلُ عَقْلَ الرِّجَالِ، وَعَنِ الْحَسَنِ البصري أَنَّهُ قَالَ: أُلْهِمَ التَّوْرَاةَ وَهُوَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ.

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ أَيْ نَفَّاعًا حَيْثُ مَا تَوَجَّهْتُ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مُعَلِّمًا لِلْخَيْرِ، وَقَالَ عَطَاءٌ: أَدْعُو إِلَىٰ اللهِ وَإِلَىٰ تَوْحِيدِهِ وَعِبَادَتِهِ، وَقِيلَ: مُبَارَكًا عَلَىٰ مَنْ تَبِعَنِي: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ أَيْ أَمَرَنِي بِهِمَا، فَإِنْ قِيلَ: لَمْ يَكُنْ لِعِيسَىٰ مَالٌ فَكَيْفَ يُؤْمَرُ بِالزَّكَاةِ؟ قِيلَ: مَعْنَاهُ بِالزَّكَاةِ لَوْ كَانَ لِي مَالٌ ، وَقِيلَ: أوصاني بالزكاة أي أمرني أن أوصيكم بالزكاة ،

وَقِيلَ: بِالِاسْتِكْثَارِ مِنَ الْخَيْرِ، ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ هذا كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ لِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿واعبد رَبَّكَ حتىٰ يأتيك اليقين﴾.

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ أَيْ وَأَمَرَنِي بِبِرِّ وَالِدَتِي، ذكره بعد طاعة رَبِّهِ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ كَثِيرًا مَا يُقْرِنُ بَيْنَ الْأَمْرِ بِعِبَادَتِهِ وَطَاعَةِ الْوَالِدَيْنِ، ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ أي عاصيا لربه، وقيل: الشَّقِيُّ الَّذِي يُذْنِبُ وَلَا يَتُوبُ، قَالَ سُفْيَانُ الثوري: الجبار الشقي الذي يقتل عَلَىٰ الْغَضَبِ، وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: لَا تُجِدُ أَحَدًا عَاقًّا لِوَالِدَيْهِ إِلَّا وَجَدْتَهُ جَبَّارًا شَقِيًّا.

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ﴾ أي السلام عِنْدَ الْوِلَادَةِ مِنْ طَعْنِ الشَّيْطَانِ، ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ أَيْ عِنْدَ الْمَوْتِ مِنَ الشِّرْكِ، ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ من الأهوال، فلما كَلَّمَهُمْ عِيسَىٰ بِهَذَا عَلِمُوا بَرَاءَةَ مَرْيَمَ ثُمَّ سَكَتَ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلَمْ يَتَكَلَّمْ بَعْدَ ذَلِكَ حَتَّىٰ بَلَغَ الْمُدَّةَ الَّتِي يَتَكَلَّمُ فِيهَا الصِّبْيَانُ. قال ابن كثير : وهذا إِثْبَاتٌ مِنْهُ لِعُبُودِيَّتِهِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ يَحْيَا وَيَمُوتُ وَيُبْعَثُ كَسَائِرِ الْخَلَائِقِ، وَلَكِنْ لَهُ السَّلَامَةَ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ الَّتِي هِيَ أَشَقُّ مَا يَكُونُ عَلَىٰ الْعِبَادِ، صَلَوَاتُ اللهِ وسلامه عليه.

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذَلِكَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ قَالَ الزَّجَّاجُ: أَيْ ذَلِكَ الَّذِي قَالَ: إِنِّي عَبْدُ اللهِ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ، ﴿قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾يَخْتَلِفُونَ، فَقَائِلٌ يَقُولُ: هُوَ ابْنُ اللهِ، وَقَائِلٌ يَقُولُ: هُوَ اللهُ، وَقَائِلٌ يَقُولُ: هُوَ سَاحِرٌ كَذَّابٌ وَقِيلَ: هُوَ نَعْتٌ لِعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ، يَعْنِي ذَلِكَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ كَلِمَةُ اللهِ الْحَقُّ هُوَ

اللهُ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ وَيَشُكُّونَ وَيَخْتَلِفُونَ وَيَقُولُونَ غَيْرَ الْحَقِّ، ثُمَّ نَفَىٰ عَنْ نَفْسِهِ الْوَلَدَ، ثم عظم نفسه فَقَالَ:

[٣٥] : ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ أَيْ مَا كَانَ مِنْ صِفَتِهِ اتِّخَاذُ الْوَلَدِ ﴿سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُحْدِثَ أَمْرًا، ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، أَيْ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا، فَإِنَّمَا يَأْمُرُ به فيصير كما يشاء، كما قال: إِنَّ مَثَلَ عِيسىٰ عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ [آلِ عِمْرَانَ: ٥٩- ٦٠] .

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أَيْ ومما أمر به عيسىٰ قَوْمَهُ وَهُوَ فِي مَهْدِهِ أَنْ أَخْبَرَهُمْ إِذْ ذاك أن الله ربه وربهم، وَأَمَرَهُمْ بِعِبَادَتِهِ فَقَالَ ﴿فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أَيْ هَذَا الَّذِي جِئْتُكُمْ بِهِ عَنِ اللهِ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ أَيْ قَوِيمٌ مَنِ اتَّبَعَهُ رَشَدَ وَهَدَىٰ وَمَنْ خَالَفَهُ ضَلَّ وَغَوَىٰ.

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ يَعْنِي النَّصَارَىٰ سُمُّوا أَحْزَابًا لِأَنَّهُمْ تَحَزَّبُوا ثَلَاثَ فِرَقٍ فِي أَمْرِ عِيسَىٰ، فَقَائِلٌ يَقُولُ: هُوَ ابْنُ اللهِ، وَقَائِلٌ يَقُولُ: هُوَ اللهُ، وَقَائِلٌ يَقُولُ: هُوَ سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ أَيْ مَا أَسْمَعَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ لَا يَنْفَعُهُمُ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ، أَخْبَرَ أَنَّهُمْ يَسْمَعُونَ وَيُبْصِرُونَ فِي الْآخِرَةِ مَا لَمْ يَسْمَعُوا وَلَمْ يُبْصِرُوا فِي الدُّنْيَا، ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ،

﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ اليوم﴾ أي في الدينا ﴿فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾ أَيْ: لَا يَسْمَعُونَ وَلَا يُبْصِرُونَ وَلَا يَعْقِلُونَ، فَحَيْثُ يُطْلَبُ مِنْهُمُ الْهُدَىٰ لَا يَهْتَدُونَ، وَيَكُونُونَ مُطِيعِينَ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ.

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ قال ابن عباس: ﴿يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، عظَّمه اللهُ وَحذَّرَهُ عِبادَهُ، رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ: مَا مِنْ أَحَدٍ يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا وَلَهُ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ فَيَتَحَسَّرُ عَلَيْهِ، وَقِيلَ: تَقَعُ الْحَسْرَةُ إِذَا أُعْطِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أَيْ فُرِغَ مِنَ الْحِسَابِ، وَأُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ ، قال البغوي : وهذا لما فُرِغَ مِنَ الْحِسَابِ وَأُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، وذبح الموت، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يُؤْتَىٰ بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيُشْرِفُونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ ينادي: يا أهل النار فيشرقون وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا فَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ فَيُذْبَحُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ**» ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(١) ، ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ أَيْ عَمَّا يُفْعَلُ بِهِمْ فِي الآخرة، ﴿وَهُمْ لَا

(١) البخاري (٤٧٣٠) ومسلم (٢٨٤٩) .

يُؤْمِنُونَ﴾ لا يصدقون ، وَالْغَفْلَةُ انْصِرَافُ الْعَقْلِ وَالذِّهْنِ عَنْ تَذَكُّرِ شَيْءٍ بِقَصْدٍ أَوْ بِغَيْرِ قَصْدٍ، وَأَكْثَرُ اسْتِعْمَالِهِ فِي الْقُرْآنِ فِيمَا كَانَ عَنْ قَصْدٍ بِإِعْرَاضٍ وَتَشَاغُلٍ، وَالْمَذْمُومُ مِنْهَا مَا كَانَ عَنْ قَصْدٍ، وَهُوَ مَنَاطُ التَّكْلِيفِ وَالْمُؤَاخَذَةِ.

[٤٠] قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ أَيْ نُمِيتُ سُكَّانَ الْأَرْضِ وَنُهْلِكُهُمْ جَمِيعًا، وَيَبْقَىٰ الرَّبُّ وَحْدَهُ فَيَرِثُهُمْ، ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ فنجزيهم بأعمالهم، قَالَ ابن كثير : يُخْبِرُ تَعَالَىٰ أَنَّهُ الْخَالِقُ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ، وَأَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ يَهْلَكُونَ وَيَبْقَىٰ هُوَ تَعَالَىٰ وَتَقَدَّسَ، وَلَا أَحَدَ يَدَّعِي مُلْكًا وَلَا تَصَرُّفًا، بَلْ هُوَ الْوَارِثُ لِجَمِيعِ خَلْقِهِ الْبَاقِي بَعْدَهُمْ، الْحَاكِمُ فِيهِمْ، فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ولا جناح بعوضة ولا مثقال ذرة.

[٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ الْمَعْنَىٰ: وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْكَ وَهُوَ الْقُرْآنُ قِصَّةَ إِبْرَاهِيمَ وَخَبَرَهُ ، ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ الصِّدِّيقُ الْكَثِيرُ الصِّدْقِ الْقَائِمُ عَلَيْهِ، وَقِيلَ: مَنْ صَدَّقَ اللهَ فِي وَحْدَانِيَّتِهِ، وَصَدَّقَ أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ، وَصَدَّقَ بِالْبَعْثِ، وَقَامَ بِالْأَوَامِرِ فَعَمِلَ بِهَا، فهو الصديق. والنبي الْعَالِي فِي الرُّتْبَةِ بِإِرْسَالِ اللهِ تعالىٰ إياه، قال القرطبي : وَمَعْنَىٰ الْآيَةِ: اقْرَأْ عَلَيْهِمْ يَا مُحَمَّدُ فِي الْقُرْآنِ أَمْرَ إِبْرَاهِيمَ فَقَدْ عَرَفُوا أَنَّهُمْ مِنْ وَلَدِهِ، فَإِنَّهُ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ يَتَّخِذُ الْأَنْدَادَ، فَهَؤُلَاءِ لِمَ يَتَّخِذُونَ الْأَنْدَادَ؟.

[٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿لِأَبِيهِ﴾ آزَرَ وَهُوَ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ﴾ صوتا، ﴿وَلَا يُبْصِرُ﴾ شيئا، ﴿وَلَا يُغْنِي

عَنْكَ﴾ أي لا يكفيك، ﴿شَيْئًا﴾ يعني الْأَصْنَامَ ، قال الطبري : ما تصنع بعبادة ما هذه صفته؟ اعبد الذي إذا دعوته سمع دعاءكَ، وإذا أحيط بك أبصركَ فنصرك، وإذا نزل بك ضرّ دفع عنك.

[٤٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ﴾ بِاللهِ وَالْمَعْرِفَةِ، فيكون المعنىٰ: يا أبتِ إني أعلم أنكَ إن متّ علىٰ عبادة الشيطان أنه يمسكَ عذاب من عذاب الله فتكون وليًا للشيطان دون الله فتهلك. ﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي﴾ عَلَىٰ دِينِي، قال القرطبي : أَيْ مِنَ الْيَقِينِ وَالْمَعْرِفَةِ بِاللهِ وَمَا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ، وأن من عبد غير الله عذب إِلَىٰ مَا أَدْعُوكَ إِلَيْهِ ﴿أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ أَيْ أُرْشِدُكَ إِلَىٰ دِينٍ مُسْتَقِيمٍ فِيهِ النَّجَاةُ. قال الزمخشري : ثُمَّ ثَنَّىٰ بِدَعْوَتِهِ إِلَىٰ الْحَقِّ مُتَرَفِّقًا بِهِ مُتَلَطِّفًا، فَلَمْ يُسَمِّ أَبَاهُ بِالْجَهْلِ الْمُفْرِطِ وَلَا نَفْسَهُ بِالْعِلْمِ الْفَائِقِ وَلَكِنَّهُ قَالَ: إِنَّ مَعِي طَائِفَةً مِنَ الْعِلْمِ لَيْسَتْ مَعَكَ، وَذَلِكَ عِلْمُ الدَّلَالَةِ عَلَىٰ الطَّرِيقِ السَّوِيِّ، فَلَا تَسْتَنْكِفْ، وَهَبْ أَنِّي وَإِيَّاكَ فِي مَسِيرٍ وَعِنْدِي مَعْرِفَةٌ بِالْهِدَايَةِ دُونَكَ فَاتَّبِعْنِي أُنْجِكَ مِنْ أَنْ تَضِلَّ وَتَتِيهَ.

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ لَا تُطِعْهُ فِيمَا يُزَيِّنُ لَكَ مِنَ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ، ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ عَاصِيًا، أَيْ عَلَىٰ شِرْكِكَ وَعِصْيَانِكَ لِمَا آمُرُكَ بِهِ ، وَالْمُرَادُ بِعِبَادَةِ الشَّيْطَانِ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ عَبَّرَ عَنْهَا بِعِبَادَةِ الشَّيْطَانِ إِفْصَاحًا عَنْ فَسَادِهَا وَضَلَالِهَا، فَإِنَّ نِسْبَةَ الضَّلَالِ وَالْفَسَادِ إِلَىٰ الشَّيْطَانِ

مُقَرَّرَةٌ فِي نُفُوسِ الْبَشَرِ، وَلَكِنِ الَّذِينَ يَتْبَعُونَهُ لَا يَفْطِنُونَ إِلَىٰ حَالِهِمْ وَيَتَّبِعُونَ وَسَاوِسَهُ تَحْتَ سِتَارِ التَّمْوِيهِ.

[٤٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ﴾ أي أعلم، ﴿أَنْ يَمَسَّكَ﴾ يصيبك، ﴿عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ إِنْ أَقَمْتَ عَلَىٰ الْكُفْرِ، ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ قرينا في النار، يَعْنِي فَلَا يَكُونُ لَكَ مَوْلًىٰ وَلَا نَاصِرًا وَلَا مُغِيثًا إِلَّا إِبْلِيسُ، وَلَيْسَ إِلَيْهِ وَلَا إِلَىٰ غَيْرِهِ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، بَلِ اتِّبَاعُكَ لَهُ مُوجِبٌ لإحاطة العذاب بك.

[٤٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ أَبُوهُ مُجِيبًا لَهُ، ﴿أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ﴾ لَئِنْ لَمْ تَسْكُتْ وَتَرْجِعْ عَنْ عَيْبِكَ آلِهَتَنَا وَشَتْمِكَ إِيَّاهَا، قَالَ ابنُ كَثِيرٍ: يَعْنِي إِنْ كُنْتَ لَا تُرِيدُ عِبَادَتَهَا وَلَا تَرْضَاهَا؛ فَانْتَهِ عَنْ سَبِّهَا وَشَتْمِهَا وَعَيْبِهَا، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَنْتَهِ عَنْ ذَلِكَ اقْتَصَصْتُ مِنْكَ وَشَتَمْتُكَ وَسَبَبْتُكَ، ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾: لَأَشْتُمَنَّكَ وَلَأُبْعِدَنَّكَ عَنِّي بِالْقَوْلِ الْقَبِيحِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَأَضْرِبَنَّكَ، وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: لَأَقْتُلَنَّكَ بِالْحِجَارَةِ، ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ قَالَ الْكَلْبِيُّ: اجْتَنِبْنِي طَوِيلًا، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ: حِينًا، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: دَهْرًا. أَصْلُهُ الْمُكْثُ، وَمِنْهُ يُقَالُ: تَمَلَّيْتُ حِينًا، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: اعْتَزِلْنِي سَالِمًا لَا تُصِيبُكَ مِنِّي مَعَرَّةٌ، يُقَالُ: فُلَانٌ مَلِيٌّ بِأَمْرِ كَذَا إِذَا كَانَ كَافِيًا.

[٤٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ إبراهيم، ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ أَيْ سَلِمْتَ مِنِّي لَا أُصِيبُكَ بِمَكْرُوهٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يُؤْمَرْ بِقِتَالِهِ عَلَىٰ كُفْرِهِ، وَقِيلَ: هَذَا سَلَامُ هِجْرَانٍ وَمُفَارَقَةٍ، وَالْجُمْهُورُ عَلَىٰ أَنَّ الْمُرَادَ بِسَلَامِهِ الْمُسَالَمَةُ الَّتِي هِيَ الْمُتَارَكَةُ لَا

التَّحِيَّةُ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: مَعْنَاهُ أَمَنَةٌ مِنِّي لَكَ. وَعَلَىٰ هَذَا لَا يُبْدَأُ الْكَافِرُ بِالسَّلَامِ، وَقَالَ النَّقَّاشُ: حَلِيمٌ خَاطَبَ سَفِيهًا، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ قِيلَ: إِنَّهُ لَمَّا أَعْيَاهُ أَمْرُهُ وَوَعَدَهُ أَنْ يُرَاجِعَ اللهَ فِيهِ، فَيَسْأَلَهُ أَنْ يَرْزُقَهُ التَّوْحِيدَ وَيَغْفِرَ لَهُ، مَعْنَاهُ سَأَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ لَكَ تَوْبَةً تَنَالُ بِهَا الْمَغْفِرَةَ، ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ بَرًّا لَطِيفًا، قَالَ الْكَلْبِيُّ: عَالِمًا يَسْتَجِيبُ لِي إِذَا دَعَوْتُهُ، قَالَ مُجَاهِدٌ: عَوَّدَنِي الْإِجَابَةَ لِدُعَائِي. والْحَفِيُّ الْمُبَالِغُ فِي الْبِرِّ وَالْإِلْطَافِ، يُقَالُ: حَفِيَ بِهِ وَتَحَفَّىٰ إِذَا بَرَّهُ.

[٤٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أَيْ: أَعْتَزِلُ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ، قَالَ مُقَاتِلٌ: كَانَ اعْتِزَالُهُ إِيَّاهُمْ أَنَّهُ فَارَقَهُمْ مِنْ كُوثَىٰ، فَهَاجَرَ مِنْهَا إِلَىٰ الْأَرْضِ المقدسة، ﴿وَأَدْعُو رَبِّي﴾ أَيْ أَعْبُدُ رَبِّي، ﴿عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ أي عسىٰ ألا أشقىٰ بدعائه وعبادته، كما أنتم تشقون بِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ. وَقِيلَ: عَسَىٰ أَنْ يُجِيبَنِي إِذَا دَعَوْتُهُ وَلَا يُخَيِّبَنِي، وعسىٰ هَذِهِ مُوجِبَةٌ لَا مَحَالَةَ، فَإِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَيِّدُ الْأَنْبِيَاءِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسلم.

[٤٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ فذهب مهاجرا، فَلَمَّا اعْتَزَلَ الْخَلِيلُ أَبَاهُ وَقَوْمَهُ فِي اللهِ، أَبْدَلَهُ اللهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُمْ، وَوَهَبَ لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، يَعْنِي ابْنَهُ وَابْنَ إِسْحَاقَ.

[٥٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ أي: نعمتنا. قَالَ الْكَلْبِيُّ: الْمَالُ وَالْوَلَدُ، وَهُوَ قول الأكثرين، قالوا معناه: مَا بُسِطَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنْ سَعَةِ

الرِّزْقِ. وَقِيلَ: الْكِتَابُ وَالنُّبُوَّةُ، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ يَعْنِي ثَنَاءً حَسَنًا رَفِيعًا ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: إِنَّمَا قَالَ ﴿عَلِيّـًا﴾ لِأَنَّ جَمِيعَ الْمِلَلِ وَالْأَدْيَانِ يُثْنُونَ عَلَيْهِمْ وَيَمْدَحُونَهُمْ، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.

[٥١] قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ أَيْ مُخْتَارًا اخْتَارَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وقيل : غَيْرَ مُرَاءٍ أَخْلَصَ الْعِبَادَةَ وَالطَّاعَةَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَقِيلَ: أَخْلَصَهُ اللهُ مِنَ الدَّنَسِ ﴿وَكَانَ رسولا نبيا﴾ جمع الله لَهُ بَيْنَ الْوَصْفَيْنِ، فَإِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ الْكِبَارِ، أُولِي الْعَزْمِ الْخَمْسَةِ، وَهُمْ : نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمُحَمَّدٌ ، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ وَعَلَىٰ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ أَجْمَعِينَ.

[٥٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ يَعْنِي يَمِينَ مُوسَىٰ، وَالطُّورُ: الْجَبَلُ الْوَاقِعُ بَيْنَ بِلَادِ الشَّامِ وَمِصْرَ، وَيُقَالُ لَهُ: طُورُ سَيْنَاءَ ، وَذَلِكَ حِينَ أَقْبَلَ مِنْ مدين ورأىٰ النار ﴿أَنْ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ قوله تعالىٰ : ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ أَيْ: مُنَاجِيًا، فَالنَّجِيُّ الْمُنَاجِي، كَمَا يُقَالُ: جَلِيسٌ وَنَدِيمٌ، والْمُنَاجَاةِ : هِيَ الْمُحَادَثَةُ السِّرِّيَّةُ شُبِّهَ الْكَلَامُ الَّذِي لَمْ يُكَلِّمْ بِمِثْلِهِ أَحَدًا وَلَا أَطْلَعَ عَلَيْهِ أَحَدًا بِالْمُنَاجَاةِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَعْنَاهُ قَرَّبَهُ فَكَلَّمَهُ، وَمَعْنَىٰ التَّقْرِيبِ إِسْمَاعُهُ كَلَامَهُ. وَقِيلَ: رَفَعَهُ عَلَىٰ الْحَجْبِ حَتَّىٰ سَمِعَ صَرِيرَ الْقَلَمِ.

[٥٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ وَذَلِكَ حِينَ دَعَا مُوسَىٰ فَقَالَ: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي . هَارُونَ أَخِي﴾ [طه:٢٩-٣٠]

فَأَجَابَ اللهُ دعاءه وأرسل إلىٰ هَارُونَ، وَمَعْنَىٰ هِبَةِ أَخِيهِ لَهُ: أَنَّ اللهَ عَزَّزَهُ بِهِ وَأَعَانَهُ بِهِ، إِذْ جَعَلَهُ نَبِيئًا وَأَمَرَهُ أَنْ يُرَافِقَهُ فِي الدَّعْوَةِ، لِأَنَّ فِي لِسَانِ مُوسَىٰ حُبْسَةً، وَكَانَ هَارُونُ فَصِيحُ اللِّسَانِ، فَكَانَ يَتَكَلَّمُ عَنْ مُوسَىٰ بِمَا يُرِيدُ إِبْلَاغَهُ، وَكَانَ يَسْتَخْلِفُهُ فِي الأمور المهمة .

[٥٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾ وَهُوَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ جَدُّ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: لَمْ يَعِدْ شَيْئًا إلا وفىٰ به ، وقيل : خَصَّهُ بِوَصْفِ صِدْقِ الْوَعْدِ لِأَنَّهُ اشْتَهَرَ بِهِ وَتَرَكَهُ خُلُقًا فِي ذُرِّيَتِهِ. قال ابن كثير : هَذَا ثَنَاءٌ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَهُوَ وَالِدُ عَرَبِ الْحِجَازِ كُلِّهِمْ بِأَنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ. فصدقُ الْوَعْدِ مِنَ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ، كَمَا أَنَّ خُلْفَهُ مِنَ الصِّفَاتِ الذَّمِيمَةِ، وفي الحديث الشريف : « **آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حدَّث كَذَبَ، وَإِذَا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان** » ، ﴿وَكَانَ رَسُولًا﴾ إلىٰ قبيلة جرهم، ﴿نَبِيًّا﴾ مُخْبِرًا عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

[٥٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ﴾ أَيْ: قَوْمَهُ ، وَقِيلَ: أَهْلَهُ وَجَمِيعَ أمته، ﴿بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ الَّتِي افْتَرَضَهَا اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ، وَهِيَ الْحَنِيفِيَّةُ الَّتِي افْتُرِضَتْ عَلَيْنَا، ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ قائما لله بطاعته، وقيل: رَضِيَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِنُبُوَّتِهِ ورسالته.

[٥٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ﴾ هو جَدُّ أَبِي نُوحٍ، وَاسْمُهُ: أَخْنُوخُ، سُمِّيَ إِدْرِيسَ لِكَثْرَةِ دَرْسِهِ الْكُتُبَ ، وعن ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ إِدْرِيسَ كَانَ خَيَّاطًا فَكَانَ لَا يَغْرِزُ إِبْرَةً إِلَّا قَالَ سُبْحَانَ اللهِ، فَكَانَ يُمْسِي حِينَ يُمْسِي وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ أحد أفضل عملاً منه، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ خَطَّ بِالْقَلَمِ، وَأَوَّلُ مَنْ خَاطَ الثياب، ولبس الثياب المخيطة، وَكَانُوا مِنْ قَبْلِهِ يَلْبَسُونَ الْجُلُودَ، وَأَوَّلُ مَنِ اتَّخَذَ السِّلَاحَ وَقَاتَلَ الْكُفَّارَ، وَأَوَّلُ مَنْ نَظَرَ فِي عِلْمِ النُّجُومِ وَالْحِسَابِ، ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ .

[٥٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ قيل: هي الْجَنَّةَ ، وَقِيلَ: هِيَ الرِّفْعَةُ بِعُلُوِّ الرتبة في الدنيا، وقيل: أَنَّهُ رُفِعَ إِلَىٰ السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ -حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ- قَالَ رَسُولُ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم: « **ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:** ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[1] .

[٥٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ أَيْ إِدْرِيسَ وَنُوحًا، ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أَيْ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ

---

(١) مسلم (١٦٢) .

فِي السَّفِينَةِ، يُرِيدُ إبراهيم لأنه ولد سَامِ بْنِ نُوحٍ، ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ يُرِيدُ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، قَوْلُهُ: ﴿وَإِسْرَائِيلَ﴾ أَيْ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْرَائِيلَ وَهُمْ موسىٰ وهارون وزكريا ويحيىٰ، ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ هَؤُلَاءِ كَانُوا مِمَّنْ أَرْشَدْنَا وَاصْطَفَيْنَا، ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ سُجَّدًا جَمْعُ سَاجِدٍ وَبُكِيًّا جَمْعُ بَاكٍ، أَخْبَرَ اللهُ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ كَانُوا إِذَا سَمِعُوا بِآيَاتِ اللهِ سجدوا وبكوا، قال ابن كثير: أجمع العلماء علىٰ مشروعية السجود هاهنا، اقتداء بهم، واتباعًا لمنوالهم، قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: قَرَأَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سُورَةَ مَرْيَمَ فَسَجَدَ، وَقَالَ هَذَا السُّجُودُ، فَأَيْنَ الْبُكِيُّ؟ يُرِيدُ الْبُكَاءَ؟!.

[٥٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ أَيْ: مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّينَ الْمَذْكُورِينَ خَلْفٌ وَهُمْ قَوْمُ سُوءٍ وَالْخَلَفُ بِالْفَتْحِ الصَّالِحُ وَبِالْجَزْمِ الطَّالِحُ قَالَ السُّدِّيُّ: أَرَادَ بِهِمُ الْيَهُودَ وَمَنْ لَحِقَ بِهِمْ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: هم قوم فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ تَرَكُوا الصَّلَاةَ الْمَفْرُوضَةَ. وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَإِبْرَاهِيمُ: أَخَّرُوهَا عَنْ وَقْتِهَا وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: هُوَ أَنْ لَا يُصَلِّيَ الظُّهْرَ حَتَّىٰ يَأْتِيَ الْعَصْرُ وَلَا الْعَصْرَ حَتَّىٰ تغرب الشمس، ﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ أي المعاصي وشرب الخمر، أي آثَرُوا شَهَوَاتِ أَنْفُسِهِمْ عَلَىٰ طَاعَةِ اللهِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هَؤُلَاءِ قَوْمٌ يظهرون في آخر الزمان ينزوا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَسْوَاقِ والأزقة. ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ قال ابن وَهْبٌ: الْغَيُّ نَهْرٌ فِي جَهَنَّمَ بَعِيدٌ قَعْرُهُ خَبِيثٌ طَعْمُهُ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْغَيُّ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ، وَإِنَّ أَوْدِيَةَ جَهَنَّمَ

لَتَسْتَعِيذُ مِنْ حَرِّهِ أُعِدَّ لِلزَّانِي الْمُصِرِّ عَلَيْهِ، وَلِشَارِبِ الْخَمْرِ الْمُدْمِنِ عَلَيْهَا، وَلِآكِلِ الرِّبَا الَّذِي لَا يَنْزِعُ عَنْهُ، وَلِأَهْلِ الْعُقُوقِ وَلِشَاهِدِ الزُّورِ، ولا مرأة أدخلت علىٰ زوجها ولدا، وَقَالَ عَطَاءٌ: الْغَيُّ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ يَسِيلُ قَيْحًا وَدَمًا.

[٦٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وآمن وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ أَيْ إِلَّا مَنْ رَجَعَ عَنْ تَرْكِ الصَّلَوَاتِ وَاتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ، فَإِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَتَهُ وَيُحْسِنُ عَاقِبَتَهُ وَيَجْعَلُهُ مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئاً﴾ ذلك لأَنَّ التَّوْبَةَ تجبُّ مَا قَبْلَهَا، وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ «**التَّائِبَ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ**»(١).

[٦١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ هي الْجَنَّاتُ الَّتِي يدخلها التائبون هِيَ ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أَيْ إِقَامَةٍ ﴿الَّتِي وَعَدَ الرحمن عِبَادَهُ﴾ بظهر الْغَيْبِ الَّذِي يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَا رَأَوْهُ، وَذَلِكَ لِشِدَّةِ إِيقَانِهِمْ وَقُوَّةِ إِيمَانِهِمْ. ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ أي: كائن لا محالة. أي: العباد صائرون إليه، وسيأتونه، وقيل: مأتيًا أي آتيًا، وكلا المعنيين حق.

[٦٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ في الجنة ﴿لَغْوًا﴾ بَاطِلًا وَفُحْشًا وَفُضُولًا مِنَ الْكَلَامِ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: هُوَ الْيَمِينُ الْكَاذِبَةُ، ﴿إِلَّا سَلَامًا﴾ يَعْنِي بَلْ يَسْمَعُونَ فِيهَا سَلَامًا أَيْ قَوْلًا يَسْلَمُونَ مِنْهُ، وَالسَّلَامُ اسْمٌ جَامِعٌ لِلْخَيْرِ لِأَنَّهُ

---

(١) ابن ماجه (٤٢٥٠).

يَتَضَمَّنُ السَّلَامَةَ، مَعْنَاهُ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَا يَسْمَعُونَ مَا يُؤَثِّمُهُمْ إِنَّمَا يَسْمَعُونَ مَا يُسَلِّمُهُمْ. وَقِيلَ: هُوَ تَسْلِيمُ بَعْضِهِمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَتَسْلِيمُ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمْ. وَقِيلَ: هُوَ تَسْلِيمُ اللهِ عَلَيْهِمْ، ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قَالَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ: لَيْسَ فِي الْجَنَّةِ لَيْلٌ يُعْرَفُ بِهِ الْبُكْرَةُ وَالْعَشِيُّ، بَلْ هُمْ فِي نُورٍ أبدا ولكنهم يؤتون بِأَرْزَاقِهِمْ عَلَىٰ مِقْدَارِ طَرَفَيِ النَّهَار ، وَقِيلَ: إِنَّهُمْ يَعْرِفُونَ وَقْتَ النَّهَارِ بِرَفْعِ الْحُجُبِ، وَوَقْتَ اللَّيْلِ بِإِرْخَاءِ الْحُجُبِ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ مِنْهُ رَفَاهِيَةُ الْعَيْشِ وَسَعَةُ الرِّزْقِ مِنْ غَيْرِ تَضْيِيقٍ، وَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ يَقُولُ: كَانَتِ الْعَرَبُ لَا تَعْرِفُ مِنَ الْعَيْشِ أَفْضَلَ مِنَ الرِّزْقِ بِالْبُكْرَةِ وَالْعَشِيِّ، فَوَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أهل جَنَّتَهَ بِذَلِكَ.

[٦٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أَيْ: نُعْطِي ونُنْزِلُ. وَقِيلَ: يُورِثُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ الْمَسَاكِنَ الَّتِي كَانَتْ لِأَهْلِ النَّارِ لَوْ آمَنُوا، ﴿مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ أَيْ هَذِهِ الْجَنَّةُ الَّتِي وَصَفْنَا بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْعَظِيمَةِ هِيَ الَّتِي نُورِثُهَا عِبَادَنَا المتقين، وهم الميطعون لِلَّهِ عزَّ وجلَّ فِي السَّرَّآءِ وَالضَّرَّاءِ.

[٦٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**يَا جِبْرِيلُ ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تَزُورَنَا**؟ ، فَنَزَلَتْ : ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾»(١)،

(١) البخاري (٤٧٣١) .

قَالَ: كَانَ هَذَا الْجَوَابُ لِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،وقال العوفي عن ابن عباس: احتبس جبرائيل عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَوَجَدَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك وحزن، فأتاه جبرائيل وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ الآية ، وَقَوْلُهُ: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾، قِيلَ: الْمُرَادُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا أَمْرُ الدُّنْيَا، وَمَا خَلْفَنَا أَمْرُ الْآخِرَةِ ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ ما بين النفختين، وهذا قول عكرمة ومجاهد والسدي، وقيل ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾: ما يستقبل مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ، ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ أَيْ مَا مَضَىٰ مِنَ الدُّنْيَا، ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي ما بين الدنيا والآخرة، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾، قال مجاهد: مَا نَسِيَكَ رَبُّكَ.

[٦٥] قَوْلُهُ تعالىٰ : ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أَيْ خَالِقُ ذَلِكَ وَمُدَبِّرُهُ، وَالْحَاكِمُ فِيهِ وَالْمُتَصَرِّفُ الَّذِي لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ أَيِ اصْبِرْ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ قال ابْنِ عَبَّاسٍ: هَلْ تَعْلَمُ لِلرَّبِّ مَثَلًا أَوْ شبيهـًا ، وقال سعيد بن جبير: عدلا، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: هَلْ تَعْلَمُ أَحَدًا يسمىٰ الله غيره؟! ، وقال ابن جريج: لا شريكَ لهُ ولا مثل.

[٦٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ﴾ يَعْنِي أُبَيَّ بْنَ خَلَفٍ كَانَ مُنْكِرًا لِلْبَعْثِ، وَالْإِنْسَانُ هَاهُنَا الْكَافِرُ. قَالَ: ﴿أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ من القبر، قاله استهزاء وتكذيبا للبعث، وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة، قال رسول الله – صلىٰ الله عليه وسلم : « **فَيَلْقَىٰ الْعَبْدَ -أَيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ- فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ -مَعْنَاهُ يَا فُلَانُ-! أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ**

وَالْإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَىٰ أَيْ رَبِّ. قَالَ: فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا. فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي »(١).

[٦٧] قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ﴾ أَيْ يَتَذَكَّرُ وَيَتَفَكَّرُ، يَعْنِي أُبَيَّ بْنَ خَلَفٍ، وقيل ك أو لا يَذْكُرُ هَذَا الْقَائِلُ ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل سؤاله وقول هَذَا الْقَوْلَ ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ لَا يَتَفَكَّرُ هَذَا الْجَاحِدُ فِي بَدْءِ خَلْقِهِ فَيَسْتَدِلَّ بِهِ عَلَىٰ الْإِعَادَةِ، ثُمَّ أَقْسَمَ بِنَفْسِهِ، وَفِي الصَّحِيحِ: « يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يُكَذِّبَنِي، وَآذَانِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يُؤْذِيَنِي، أَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عليَّ مِنْ آخِرِهِ، وَأَمَّا أَذَاهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: إِنَّ لِي وَلَدًا وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ»(٢) .

[٦٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ أي لَنَجْمَعَنَّهُمْ فِي الْمَعَادِ يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ المنكرين للبعث، أَقْسَمَ رب العالمين بِنَفْسِهِ بَعْدَ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ بِأَنَّهُ يَحْشُرُهُمْ مِنْ قُبُورِهِمْ إِلَىٰ الْمَعَادِ كَمَا يَحْشُرُ الْمُؤْمِنِينَ ، ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ مَعَ الشَّيَاطِينِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يَحْشُرُ كُلَّ كَافِرٍ مَعَ شَيْطَانِهِ فِي سِلْسِلَةٍ، ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ﴾ قيل: في جهنم، ﴿جِثِيًّا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: جَمَاعَاتٍ، جَمْعُ جَثْوَةٍ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: جَمْعُ جَاثٍ أَيْ جَاثِينَ عَلَىٰ الرُّكَبِ، وَهِيَ

---

(١) مسلم (٢٩٦٨) .

(٢) البخاري (٤٤٨٢) .

هَيْئَةُ الْخَاضِعِ الذَّلِيلِ، قَالَ السُّدِّيُّ: قَائِمِينَ عَلَىٰ الرُّكَبِ لِضِيقِ الْمَكَانِ ، قال ابن عاشور : وَهَذَا الْجُثُوُّ هُوَ غَيْرُ جُثُوِّ النَّاسِ فِي الْحَشْرِ الْمَحْكِيِّ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَرىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ ﴾ فَإِن ذَلِكَ جُثُوُّ خُضُوعٍ لِلَّهِ، وَهَذَا الْجُثُوُّ حَوْلَ جَهَنَّمَ جُثُوُّ مَذَلَّةٍ.

[٦٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ﴾ لنخرجن، وَالنَّزْعُ: إِخْرَاجُ شَيْءٍ مِنْ غَيْرِهِ، وَمِنْهُ نَزْعُ الْمَاءِ مِنَ الْبِئْرِ. ﴿مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ﴾ أَيْ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ وَأَهْلِ دِينٍ مِنَ الْكُفَّارِ. وَالشِّيعَةُ: الطَّائِفَة الَّتِي شاعت أَحَدًا، أَيِ اتَّبَعَتْهُ، فَهِيَ عَلَىٰ رَأْيٍ وَاحِدٍ ، ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَىٰ الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ عُتُوًّا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: يَعْنِي جَرْأَةً ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: فُجُورًا يُرِيدُ الْأَعْتَىٰ فَالْأَعْتَىٰ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: قَائِدُهُمْ وَرَأْسُهُمْ فِي الشَّرِّ يُرِيدُ أَنَّهُ يُقَدَّمُ فِي إدخال النار مَنْ هُوَ أَكْبَرُ جُرْمًا وَأَشَدُّ كفراً ، وَالْعُتِيُّ في اللغة : الْعِصْيَانُ وَالتَّجَبُّرُ ، وَالْمَعْنَىٰ: لِنُمَيِّزَنَّ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ تَجْمَعُهَا مَحَلَّةٌ خَاصَّةً مِنْ دِينِ الضَّلَالِ مَنْ هُوَ مِنْ تِلْكَ الشِّيعَةِ أَشَدُّ عِصْيَانًا لِلَّهِ وَتَجَبُّرًا عَلَيْهِ. وَهَذَا تَهْدِيدٌ لِعُظَمَاءِ الْمُشْرِكِينَ مِثْلِ أَبِي جَهْلٍ وَأُمَيَّةَ بْنِ خلف ونظرائهم.

[٧٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ أَيْ أَحَقُّ بِدُخُولِ النَّارِ، يُقَالُ: صَلِي يَصْلَىٰ صِلِيًّا مِثْلُ لَقِيَ يلقىٰ ، إِذَا دَخَلَ النَّارَ وَقَاسَىٰ حرها.

[٧١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ أي وَمَا مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا وَقِيلَ: القسم فِي مُضْمَرٌ أَيْ وَاللهِ مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَارِدُهَا وَالْوُرُودُ هُوَ مُوَافَاةُ الْمَكَانِ

وَاخْتَلَفُوا فِي الْوُرُودِ هَاهُنَا وَفِيمَا تَنْصَرِفُ إِلَيْهِ الكناية في قوله: ﴿وَارِدُهَا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنه وَهُوَ قَوْلُ الْأَكْثَرِينَ مَعْنَىٰ الْوُرُودِ هَاهُنَا هُوَ الدُّخُولُ، وَالْوُرُودُ: حَقِيقَتُهُ الْوُصُولُ إِلَىٰ الْمَاءِ لِلِاسْتِقَاءِ. وَالْكِنَايَةُ رَاجِعَةٌ إِلَىٰ النَّارِ، وعن عبد الله بن مَسْعُودٍ ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **يَرِدُ النَّاسُ كُلُّهُمْ، ثُمَّ يَصْدُرُونَ عَنْهَا بِأَعْمَالِهِمْ** »[1]، وعن قتادة: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال: هو المرّ عليها، أي المرور علىٰ الصراط، وعن بَكْرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الْمُزَنِيُّ قَالَ: لمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ ذَهَبَ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ إِلَىٰ بَيْتِهِ فَبَكَىٰ، فَجَاءَتِ امْرَأَتُهُ فَبَكَتْ، فَجَاءَتِ الْخَادِمُ فَبَكَتْ، وَجَاءَ أَهْلُ الْبَيْتِ فَجَعَلُوا يَبْكُونَ، فَلَمَّا انْقَطَعَتْ عَبْرَتُهُ، قَالَ: «يَا أَهْلَاهُ، مَا الَّذِي أَبْكَاكُمْ؟» قَالُوا: لَا نَدْرِي، وَلَكِنْ رَأَيْنَاكَ بَكَيْتَ فَبَكَيْنَا، قَالَ: «إِنَّهُ أُنْزِلَتْ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ آيَةٌ يُنَبِّئُنِي فِيهَا رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنِّي وَارِدُ النَّارَ، وَلَمْ يُنَبِّئْنِي أَنِّي صَادِرٌ عَنْهَا، فَذَلِكَ الَّذِي أَبْكَانِي»، وعن الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ قَالَ، قَالَ رَجُلٌ لِأَخِيهِ: هَلْ أَتَاكَ أَنَّكَ وَارِدُ النَّارَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَهَلْ أَتَاكَ أَنَّكَ صَادِرٌ عَنْهَا؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَفِيمَ الضَّحِكُ، قَالَ: فَمَا رُئِيَ ضَاحِكًا حتىٰ لحق بالله، ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أَيِ اتَّقَوُا الشِّرْكَ، وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ. وَالنَّجَاةُ إِنَّمَا تَكُونُ مِمَّا دَخَلْتَ فيه لا ما وردت والدليل علىٰ هذا ما ورد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ

(١) أحمد (١٤٥٢٠).

وَسَلَّمَ: «**لَا يَمُوتُ لِمُسْلِمٍ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ فَيَلِجُ النَّارَ إِلَّا تَحِلَّةَ الْقَسَمِ**» وَأَرَادَ بِالْقَسَمِ قَوْلَهُ: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ وعَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَفِي قَلْبِهِ وَزْنَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ**»(١)، ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ أَيْ كَانَ وُرُودُكُمْ جَهَنَّمَ حَتْمًا لَازِمًا مَقْضِيًّا قَضَاهُ اللهُ عَلَيْكُمْ، وقال ابن مسعود: قسمًا واجبًا.

[٧٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أَيْ إِذَا مر الخلائق كلهم إلىٰ النار، وسقط من سقط من الكفار، والعصاة، نَجَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ مِنْهَا بِحَسْبِ أَعْمَالِهِمْ، فَجَوَازُهُمْ عَلَىٰ الصِّرَاطِ وَسُرْعَتُهُمْ بِقَدْرِ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي كَانَتْ فِي الدُّنْيَا، ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ جَمِيعًا، وَقِيلَ: جَاثِينَ عَلَىٰ الرُّكَبِ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ الْكُلَّ دَخَلُوهَا ثُمَّ أَخْرَجَ اللهُ مِنْهَا الْمُتَّقِينَ، وَتَرَكَ فِيهَا الظَّالِمِينَ، وَهُمُ المشركون.

[٧٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات، ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يَعْنِي النَّضْرَ بْنَ الْحَارِثِ وأصحابه من كفار قريش، ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يَعْنِي فُقَرَاءَ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكانوا فقراء معدومين وَفِي

---

(١) البخاري (٤٤) ومسلم (١٩٣).

عَيْشِهِمْ خُشُونَةٌ وَفِي ثِيَابِهِمْ رَثَاثَةٌ، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يُرَجِّلُونَ أشعارهم ويدهنون رءوسهم ويلبسون ثِيَابِهِمْ، فَقَالُوا لِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا﴾ مَنْزِلًا وَمَسْكَنًا، وَهُوَ مَوْضِعُ الْإِقَامَةِ، وَقِيلَ: الْمُقَامُ الْمَوْضِعُ الَّذِي يُقَامُ فِيهِ بِالْأُمُورِ الْجَلِيلَةِ، أَيْ أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَكْثَرُ جَاهًا وَأَنْصَارًا، ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ قال ابن عباس: الْمَنْظَرُ وَهُوَ الْمَجْلِسُ فِي اللُّغَةِ وَهُوَ النَّادِي، وَمِنْهُ دَارُ النَّدْوَةِ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَتَشَاوَرُونَ فِيهَا فِي أُمُورِهِمْ. وَنَادَاهُ جَالَسَهُ فِي النَّادِي.

[٧٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا﴾ أَيْ مَتَاعًا وَأَمْوَالًا، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: لباسًا وثيابًا، ﴿وَرِئْيًا﴾ أَيْ مَنْظَرًا مِنَ الرُّؤْيَةِ، أَيْ أَحْسَنُ مَنْظَرًا وَهَيْئَةً، وعن الحسن البصري: مَن أكثر متاعًا وأحسن منزلة ومستقرًا، فأهلك الله أموالهم، وأفسد صورهم عليهم تبارك وتعالىٰ.

[٧٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِرَبِّهِمُ، الْمُدَّعِينَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ الْحَقِّ وَأَنَّكُمْ عَلَىٰ الْبَاطِلِ ﴿مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ﴾ أَيْ مِنَّا وَمِنْكُمْ ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرحمن مَدًّا﴾ أي فليمهله الرَّحْمَنُ فِيمَا هُوَ فِيهِ، حَتَّىٰ يَلْقَىٰ رَبَّهُ وينقضي أجله، ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ﴾ وَهُوَ الْأَسْرُ وَالْقَتْلُ فِي الدُّنْيَا، ﴿وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ يَعْنِي الْقِيَامَةَ فَيَدْخُلُونَ النَّارَ، ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ عِنْدَ ذَلِكَ ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ منزلا، ﴿وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ أَقَلُّ نَاصِرًا أَهُمْ أَمِ الْمُؤْمِنُونَ؟ لِأَنَّهُمْ فِي النَّارِ وَالْمُؤْمِنُونَ فِي الْجَنَّةِ.

[٧٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًىٰ﴾ أَيْ إِيمَانًا وَإِيقَانًا عَلَىٰ يَقِينِهِمْ، ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ الْأَذْكَارُ وَالْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ الَّتِي تَبْقَىٰ لِصَاحِبِهَا، ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ أَيْ عَاقِبَةً وَمَرَدًّا علىٰ صاحبها.

عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، قَالَ: جَلَسَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَخَذَ عُودًا يَابِسًا فَحَطَّ وَرَقَهُ، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ قَوْلَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَحُطُّ الْخَطَايَا كَمَا تَحُطُّ وَرَقَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الرِّيحُ، خُذْهُنَّ يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ قَبْلَ أَنْ يُحَالَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُنَّ، هُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ وَهُنَّ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ**»[١]، قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: فَكَانَ أَبُو الدَّرْدَاءِ إِذَا ذَكَرَ هَذَا الْحَدِيثَ، قَالَ: لَأُهَلِّلَنَّ اللهَ وَلَأُكَبِّرَنَّ اللهَ وَلَأُسَبِّحَنَّ اللهَ، حَتَّىٰ إذا رآني الجاهل حسب أني مجنون..!

[٧٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾، جاء في الصحيحين عَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ قَالَ: كُنْتُ رَجُلًا قَيْنًا، وَكَانَ لِي عَلَىٰ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ دين فأتيته أتقاضاه منه، فَقَالَ: لَا وَاللهِ لَا أَقْضِيكَ حَتَّىٰ تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ، فَقُلْتُ: لَا وَاللهِ لَا أَكْفُرُ بِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّىٰ تَمُوتَ ثُمَّ تُبْعَثَ، قَالَ: فَإِنِّي إِذَا مُتُّ ثُمَّ بُعِثْتُ جئتني ولي ثمَّ مال وولد فأعطيك، فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ ﴿وَيَأْتِينَا

---

(١) أحمد (١٢٥٣٦).

فَرْدًا﴾[1]، قال ابن عاشور : وَالْخِطَابُ لِكُلِّ مَنْ يَصْلُحُ لِلْخِطَابِ فَلَمْ يُرَدْ بِهِ مُعَيَّنٌ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ خِطَابًا لِلنَّبِي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالْآيَاتُ: الْقُرْآنُ، أَيْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنَ الْآيَاتِ وَكَذَّبَ بِهَا، وَمِنْ جُمْلَتِهَا آيَاتُ الْبَعْثِ.

[٧٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَنَظَرَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ؟ وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَعَلِمَ الغيب حتىٰ يعلم في الجنة هو أم لا؟ ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ يَعْنِي قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله ، وقال قتادة: يعني أعمل عَمَلًا صَالِحًا قَدَّمَهُ؟ وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: أَعُهِدَ إِلَيْهِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ.

[٧٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا﴾ رَدَّ عَلَيْهِ يَعْنِي لَمْ يَفْعَلْ ذلك، ﴿سَنَكْتُبُ﴾ سنحفظ عليه، (سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ) أَيْ سَنَحْفَظُ عَلَيْهِ قَوْلَهُ فَنُجَازِيهِ بِهِ فِي الْآخِرَةِ، ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ أَيْ سَنَزِيدُهُ عَذَابًا فَوْقَ عَذَابٍ. وَقِيلَ: نُطِيلُ مُدَّةَ عَذَابِهِ.

[٨٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ أَيْ نَسْلُبُهُ مَا أَعْطَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا مِنْ مَالٍ وَوَلَدٍ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ نَرِثُهُ الْمَالَ وَالْوَلَدَ بَعْدَ إِهْلَاكِنَا إِيَّاهُ، وَقِيلَ: نَحْرِمُهُ مَا تَمَنَّاهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ مَالٍ وَوَلَدٍ وَنَجْعَلُهُ لِغَيْرِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ أَيْ مُنْفَرِدًا لَا مَالَ لَهُ وَلَا وَلَدَ ولا عشيرة تنصره.

---

(١) البخاري (٢٢٧٥) ومسلم (٤٧٣٢) .

[٨١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً﴾ يَعْنِي مُشْرِكِي قُرَيْشٍ اتَّخَذُوا الْأَصْنَامَ آلِهَةً يَعْبُدُونَهَا، ﴿لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ أي منعة، يعني يكونون لَهُمْ شُفَعَاءَ يَمْنَعُونَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ، قال القرطبي : وَظَاهِرُ الْكَلَامِ أَنَّ ﴿عِزًّا﴾ رَاجِعٌ إِلَىٰ الْآلِهَةِ الَّتِي عَبَدُوهَا مِنْ دُونِ اللهِ ، وَوَحَّدَ لِأَنَّهُ بِمَعْنَىٰ الْمَصْدَرِ أَيْ لِيَنَالُوا بِهَا الْعِزَّ وَيَمْتَنِعُونَ بِهَا مِنْ عَذَابِ اللهِ فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ:

[٨٢] : ﴿كَلَّا﴾ أَيْ لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا ظَنُّوا وَتَوَهَّمُوا بَلْ يَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ أَيْ يُنْكِرُونَ أَنَّهُمْ عَبَدُوا الْأَصْنَامَ أَوْ تَجْحَدُ الْآلِهَةُ عِبَادَةَ الْمُشْرِكِينَ لَهَا ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي يجحد الْأَصْنَامُ وَالْآلِهَةُ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا من دون الله عزوجل ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أَيْ أَعْدَاءً لَهُمْ، وَكَانُوا أَوْلِيَاءَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَذَلِكَ أَنَّ الْأَصْنَامَ جَمَادَاتٌ لَا تَعْلَمُ الْعِبَادَةَ ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أَيْ أَعْوَانًا فِي خُصُومَتِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ عَنْ مُجَاهِدٍ: يَكُونُونَ لَهُمْ أَعْدَاءً.

[٨٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ﴾ أَيْ سَلَّطْنَاهُمْ عَلَيْهِمْ وَذَلِكَ حِينَ قَالَ لِإِبْلِيسَ: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤] الآية ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ تُزْعِجُهُمْ إِزْعَاجًا مِنَ الطَّاعَةِ إِلَىٰ الْمَعْصِيَةِ، وَالْأَزُّ وَالْهَزُّ التَّحْرِيكُ أَيْ تحركهم وتحثهم علىٰ المعاصي. وَالْأَزُّ التَّهْيِيجُ وَالْإِغْرَاءُ ، قال ابن عباس : تُغْرِيهِمْ إِغْرَاءً بِالشَّرِّ: امْضِ امْضِ فِي هَذَا الْأَمْرِ حَتَّىٰ تُوقِعَهُمْ فِي النَّارِ.

[٨٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ أَيْ تَطْلُبِ الْعَذَابَ لَهُمْ. ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ قَالَ الْكَلْبِيُّ: يَعْنِي اللَّيَالِيَ وَالْأَيَّامَ وَالشُّهُورَ وَالْأَعْوَامَ ، وَقِيلَ: الْأَنْفَاسَ الَّتِي يَتَنَفَّسُونَ بِهَا فِي الدُّنْيَا إِلَىٰ الْأَجَلِ الَّذِي أُجِّلَ لِعَذَابِهِمْ، وقال ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ نَعُدُّ أَنْفَاسَهُمْ فِي الدُّنْيَا كَمَا نَعُدُّ سِنِيَّهُمْ ، رُوِيَ: أَنَّ الْمَأْمُونَ قَرَأَ هَذِهِ السُّورَةَ فَمَرَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَعِنْدَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ ، فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ إِلَىٰ ابْنِ السِّمَاكِ أَنْ يَعِظَهُ فَقَالَ: إِذَا كَانَتِ الْأَنْفَاسُ بِالْعَدَدِ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا مَدَدٌ فَمَا أَسْرَعَ مَا تَنْفَدُ.

[٨٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَىٰ الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ أَيْ اذْكُرْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ اليوم الذي يجتمع فِيهِ مَنِ اتَّقَىٰ اللهَ فِي الدنيا بطاعته ﴿إِلَىٰ الرَّحْمَنِ﴾ أي إِلَىٰ جَنَّتِهِ وَفْدًا أَيْ جَمَاعَاتٍ جَمْعُ وَافِدٍ، مِثْلُ رَاكِبٍ وَرَكْبٍ، وَصَاحِبٍ وَصَحْبٍ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: رُكْبَانًا ، وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: عَلَىٰ الْإِبِلِ، قال ابن مرزوق: يَسْتَقْبِلُ الْمُؤْمِنَ عِنْدَ خُرُوجِهِ مِنْ قَبْرِهِ أَحْسَنُ صُورَةٍ رَآهَا وَأَطْيَبُهَا رِيحًا، فَيَقُولُ: أَمَا تَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ: لَا، إِلَّا أَنَّ اللهَ قَدْ طَيَّبَ رِيحَكَ وَحَسَّنَ وَجْهَكَ. فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ وَهَكَذَا كُنْتَ فِي الدُّنْيَا حَسَنَ الْعَمَلِ طَيِّبَهُ، فَطَالَمَا رَكِبْتُكَ فِي الدُّنْيَا، فَهَلُمَّ ارْكَبْنِي فَيَرْكَبُهُ.

[٨٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين الكاذبين، و السَّوْقُ الْحَثُّ عَلَىٰ السَّيْرِ. ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ أَيْ مُشَاةً. وَقِيلَ: عِطَاشًا قَدْ تَقَطَّعَتْ أَعْنَاقُهُمْ مِنَ الْعَطَشِ، وَالْوِرْدُ- بِكَسْرِ الْوَاوِ-: أَصْلُهُ السَّيْرُ إِلَىٰ الْمَاءِ، الْمَاءَ وَلَا

يَرِدُ أَحَدٌ الْمَاءَ إِلَّا بَعْدَ عَطَشٍ.، قَالَ الْأَزْهَرِيُّ: أَيْ مُشَاةً عِطَاشًا كَالْإِبِلِ تَرِدُ الْمَاءَ فَيُقَالُ جَاءَ وِرْدُ بَنِي فُلَانٍ.

[٨٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾ أَيْ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ لِأَحَدٍ ، وَالشَّفَاعَةُ: الْوَسَاطَةُ فِي إِيصَالِ خَيْرٍ أَوْ دَفْعِ شَرٍّ، سَوَاءٌ كَانَتْ بِطَلَبٍ مِنَ الْمُنْتَفِعِ أَمْ لَا، ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً﴾ يَعْنِي : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ لَا يَشْفَعُ الشَّافِعُونَ إِلَّا لِمَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عهدا يعني المؤمنين، كقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ ، وَقِيلَ: لَا يَشْفَعُ إِلَّا مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ أَيْ لَا يَشْفَعُ إلا المؤمن، و قال ابن كثير: أي: ليس لهم من يشفع لهم كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض، كما قال تعالىٰ مخبراً عنهم: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ . وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء : ١٠٠-١٠١] .

[٨٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ يَعْنِي الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ، لَمَّا قَرَّرَ تَعَالَىٰ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الشَّرِيفَةِ عُبُودِيَّةَ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَذَكَرَ خَلْقَهُ مِنْ مَرْيَمَ بِلَا أَبٍ، شَرَعَ فِي مَقَامِ الْإِنْكَارِ عَلَىٰ مَنْ زَعَمَ أَنَّ لَهُ وَلَدًا، تَعَالَىٰ وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

[٨٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مُنْكَرًا. وَقَالَ قَتَادَةُ وَمُجَاهِدٌ: عَظِيمًا. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: لَقَدْ قُلْتُمْ قَوْلًا عَظِيمًا. وَالْإِدُّ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ أَعْظَمُ الدَّوَاهِي.

[٩٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ أَيْ يَتَشَقَّقْنَ فَرَقًا مِنْ عَظَمَةِ اللهِ، وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بن زيد ﴿وَتَنشَقُّ الأرض﴾ أي غضبـًا له عزَّ وجلَّ، ﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هَدْمًا، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: هَدًّا ينكسر بَعْضَهَا علىٰ بَعْضٍ متتابعات، عَنْ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ: قَالَ إِنَّ الجبل لينادي بِاسْمِهِ: يَا فُلَانُ هَلْ مَرَّ بِكَ الْيَوْمَ ذكر اللهَ عزَّ وجلَّ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ وَيَسْتَبْشِرُ، قَالَ عَوْنٌ: لَهِيَ لِلْخَيْرِ أَسْمَعُ، أَفَيَسْمَعْنَ الزُّورَ وَالْبَاطِلَ، إِذَا قِيلَ وَلَا يَسْمَعْنَ غَيْرَهُ؟ ثُمَّ قَرَأَ ﴿تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ ، وقيل: تنشق الْأَرْضُ أَيْ تَنْخَسِفُ بِهِمْ، وَالِانْفِطَارُ فِي السَّمَاءِ أَنْ تُسْقَطَ عَلَيْهِمْ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَيْ تَنْطَبِقُ عليهم.

[٩١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَنْ دَعَوْا﴾ أَيْ مِنْ أَجْلِ أَنْ جَعَلُوا ﴿لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ ،قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَزِعَتِ من هذا القول العظيم : السماوات وَالْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَجَمِيعُ الْخَلَائِقِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ، وَكَادَتْ أَنْ تَزُولَ وَغَضِبَتِ الْمَلَائِكَةُ وَاسْتَعَرَتْ جَهَنَّمُ حِينَ قَالُوا: اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا، ثُمَّ نَفَىٰ اللهُ عَنْ نَفْسِهِ الْوَلَدَ فَقَالَ:

[٩٢] : ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ قال القرطبي : أَيْ لَا يَلِيقُ بِهِ ذَلِكَ وَلَا يُوصَفُ بِهِ وَلَا يَجُوزُ فِي حَقِّهِ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ وَلَدٌ إِلَّا مِنْ وَالِدٍ يَكُونُ لَهُ وَالِدٌ وَأَصْلٌ وَاللهُ سُبْحَانَهُ يَتَعَالَىٰ عَنْ ذَلِكَ وَيَتَقَدَّسُ.

[٩٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ﴾ أَيْ إِلَّا آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿عَبْدًا﴾ ذليلا خاضعا يعني الْخَلْقَ كُلَّهُمْ عَبِيدُهُ.

[٩٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ أَيْ قَدْ عَلِمَ عَدَدَهُمْ، مُنْذُ خَلْقَهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ذَكَرَهُمْ وَأُنْثَاهُمْ وَصَغِيرَهُمْ وَكَبِيرَهُمْ فَلَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ.

[٩٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ أي لا ناصر وَلَا مُجِيرَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ له، فيحكم في خلقه بما يشاء، هو الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَلَا يظلم أحداً.

[٩٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ أَيْ حُبًّا فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ ، قَالَ مُجَاهِدٌ: يُحِبُّهُمُ اللهُ وَيُحَبِّبُهُمْ إِلَىٰ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ **اللهَ تَعَالَىٰ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ- قَالَ- ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السلام فَيَقُولُ إِنِّي أُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ [قَالَ : فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ- قَالَ- فَيُبْغِضُونَهُ ثُمَّ توضع له البغضاء في الأرض** »[١] ، وَكَانَ هَرِمُ بْنُ حَيَّانَ يَقُولُ: مَا أَقْبَلَ أَحَدٌ بِقَلْبِهِ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ إِلَّا أَقْبَلَ اللهُ تَعَالَىٰ بِقُلُوبِ أَهْلِ الْإِيمَانِ إِلَيْهِ حَتَّىٰ يَرْزُقَهُ مَوَدَّتَهُمْ وَرَحْمَتَهُمْ. وَقِيلَ:

---

(١) البخاري (٣٢٠٩) ومسلم (٢٦٣٧) .

يَجْعَلُ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُمْ مَوَدَّةً فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. قُلْتُ: إِذَا كَانَ مَحْبُوبًا فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَا يُحِبُّ إِلَّا مُؤْمِنًا تَقِيًّا وَلَا يَرْضَىٰ إِلَّا خَالِصًا نَقِيًّا جَعَلَنَا اللهُ تَعَالَىٰ مِنْهُمْ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

[٩٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ أَيِ الْقُرْآنَ يَعْنِي بَيَّنَّاهُ بِلِسَانِكَ الْعَرَبِيِّ وَجَعَلْنَاهُ سَهْلًا عَلَىٰ مَنْ تَدَبَّرَهُ وَتَأَمَّلَهُ. وَقِيلَ: أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ بِلِسَانِ الْعَرَبِ لِيَسْهُلَ عَلَيْهِمْ فَهْمُهُ. ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ يَعْنِي الْمُؤْمِنِينَ، ﴿وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ شِدَادًا فِي الْخُصُومَةِ، جَمْعُ الْأَلَدِّ، وَقَالَ الْحَسَنُ: صُمًّا عَنِ الْحَقِّ، قَالَ مُجَاهِدٌ: الْأَلَدُّ الظَّالِمُ الَّذِي لَا يَسْتَقِيمُ وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: الْأَلَدُّ الَّذِي لَا يَقْبَلُ الْحَقَّ وَيَدَّعِي الْبَاطِلَ.

[٩٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ﴾ أَيْ مِنْ أُمَّةٍ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ، وَالْمَعْنَىٰ: أَيْ: كَمْ مَضَىٰ مِنْ سُنَّتِنَا فِي إِهْلَاكِ أُمَمِ الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ، لَمَّا كَذَّبُوا اللهَ وَالرُّسُلَ الْكِرَامَ -عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-؛ هَلْ تَرَىٰ مِنْهُمْ أَحَدًا يَا مُحَمَّدُ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ صَوْتًا؟! أَمْ إِنَّهُمْ بَادُوا جَمِيعًا وَأُهْلِكُوا، وَخَلَتْ دِيَارُهُمْ وَأَوْحَشَتْ مَنَازِلُهُمْ، وَصَارُوا عِبْرَةً لِمَنْ يَعْتَبِرُ، ﴿مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ أَيْ صَوْتًا، وَالرِّكْزُ: الصَّوْتُ الْخَفِيُّ، قال الحسن البصري: أي بَادُوا جَمِيعًا فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ عَيْنٌ وَلَا أَثَرٌ، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ اضْمِحْلَالِهِمْ، كُنِّيَ بِاضْمِحْلَالِ لَوَازِمِ الْوُجُودِ عَنِ اضْمِحْلَالِ وُجُودِهِمْ. وَقِيلَ: الرِّكْزُ مَا لَا يُفْهَمُ مِنْ صَوْتٍ أَوْ حَرَكَةٍ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ مَرْيَمَ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ طه

وَهِيَ سورة مَكِّيَّةٌ كُلُّهَا عَلَىٰ قَوْلِ الْجُمْهُورِ، وَهَذِهِ السُّورَةُ هِيَ الْخَامِسَةُ وَالْأَرْبَعُونَ فِي تَرْتِيبِ النُّزُولِ، نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ مَرْيَمَ وَقَبْلَ سُورَةِ الْوَاقِعَةِ، وَنَزَلَتْ قَبْلَ إِسْلَامِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ لِمَا رَوَىٰ الدَّارَقُطْنِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَابْنِ إِسْحَاقَ فِي «سِيرَتِهِ» عَنْهُ قَالَ: «خَرَجَ عُمَرُ مُتَقَلِّدًا بِسَيْفٍ، فَقِيلَ لَهُ: أَنَّ خَتَنَكَ وَأُخْتَكَ قَدْ صَبَوْا، فَأَتَاهُمَا عُمَرُ وَعِنْدَهُمَا خَبَّابُ بْنُ الْأَرَتِّ يُقْرِئُهُمَا سُورَةُ (طَاهَا) ، فَقَالَ: أَعْطُوْنِي الْكِتَابَ الَّذِي عِنْدَكُمْ فَأَقْرَأَهُ؟ فَقَالَتْ لَهُ أُخْتُهُ: إِنَّكَ رِجْسٌ، وَلَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ فَقُمْ فَاغْتَسِلْ أَوْ تَوَضَّأَ. فَقَامَ عُمَرُ وَتَوَضَّأَ وَأَخَذَ الْكِتَابَ فَقَرَأَ طَهَ، فَلَمَّا قَرَأَ صَدْرًا مِنْهَا قَالَ: مَا أَحْسَنَ هَذَا الْكَلَامِ وَأَكْرَمَهُ» فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ خَبَّابٌ خَرَجَ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُ: يَا عُمَرُ وَاللهِ إني لأرجو أن يكون الله قد خَصَّكَ بِدَعْوَةِ نَبِيِّهِ فَإِنِّي سَمِعْتُهُ أَمْسِ وَهُوَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَيِّدِ الْإِسْلَامَ بِأَبِي الْحَكَمِ بْنِ هِشَامٍ أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ» ، فَاللهَ اللهَ يَا عُمَرُ، فَقَالَ لَهُ عِنْدَ ذَلِكَ: فَدُلَّنِي يَا خَبَّابُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ حَتَّىٰ آتِيَهُ فَأُسْلِمَ وَذَكَرَ الْحَدِيثَ.

[٩٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿طه﴾ قَالَ السَّعْدِيُّ: مِنْ جُمْلَةِ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ، الْمُفْتَتَحِ بِهَا كَثِيرٌ مِنَ السُّوَرِ، وَلَيْسَتِ اسْمًا لِلنَّبِيِّ صلىٰ الله عليه وسلم ، قال

الْكَلْبِيُّ: لَمَّا نَزَلَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْوَحْيُ بِمَكَّةَ اجْتَهَدَ فِي الْعِبَادَةِ حَتَّىٰ كَانَ يُرَاوِحُ بَيْنَ قَدَمَيْهِ فِي الصَّلَاةِ لِطُولِ قِيَامِهِ وَكَانَ يُصَلِّي اللَّيْلَ كُلَّهُ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَلَىٰ نَفْسِهِ فَقَالَ:

[٢] : ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ قِيلَ: لَمَّا رَأَىٰ الْمُشْرِكُونَ اجْتِهَادَهُ فِي الْعِبَادَةِ قَالُوا: مَا أُنْزِلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنُ يَا مُحَمَّدُ إِلَّا لِشَقَائِكَ، فَنَزَلَتْ ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ أي لتعني وَتَتْعَبَ، وَالشَّقَاءُ: فَرْطُ التَّعَبِ بِعَمَلٍ أَوْ غَمٍّ فِي النَّفْسِ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ﴾ أَيْ لَكِنْ أَنْزَلْنَاهُ عِظَةً لِمَنْ يخشىٰ. وَقَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ: فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ مَجَازُهُ: مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ وَلِئَلَّا تَشْقَىٰ، قال ابن كثير : إِنَّ اللهَ أَنْزَلَ كِتَابَهُ وَبَعَثَ رسوله رحمة رحم بها عباده لِيَتَذَكَّرَ ذَاكِرٌ، وَيَنْتَفِعَ رَجُلٌ بِمَا سَمِعَ مِنْ كِتَابِ اللهِ، وَهُوَ ذِكْرٌ أَنزَلَ اللهُ فِيهِ حَلَالَهُ وَحَرَامَهُ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَنْزِيلًا﴾ أَيْ هَذَا الْقُرْآنُ الَّذِي جَاءَكَ يَا مُحَمَّدُ هو تنزيل من رَبِّكَ، ﴿مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ﴾، أَيْ مِنَ اللهِ الَّذِي خَلَقَ الأرض، ﴿وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا﴾ يَعْنِي الْعَالِيَةَ الرَّفِيعَةَ وَهِيَ جَمْعُ العليا كقولهم كبرىٰ وَصُغْرَىٰ وَصُغَرُ. قَالَ الْقَاسِمِيُّ: بَيَانٌ لِشُمُولِ قَهْرِهِ وَمَلَكَتِهِ لِلْكُلِّ. أَيْ كُلُّهَا تَحْتَ مَلَكَتِهِ وَقَهْرِهِ وَسُلْطَنَتِهِ وَتَأْثِيرِهِ، لَا تُوجَدُ وَلَا تَتَحَرَّكُ وَلَا تَسْكُنُ وَلَا تَتَغَيَّرُ وَلَا تَثْبُتُ إِلَّا بِأَمْرِهِ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَىٰ الْعَرْشِ﴾ الذي هو أرفع المخلوقات وأعظمها وأوسعها ﴿اسْتَوَىٰ﴾ استواء يليق بجلاله ويناسب عظمته وجماله فاستوىٰ علىٰ العرش واحتوىٰ علىٰ الملك، عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ أَنَّهُ قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ مَالِكًا فَقَالَ: الرَّحْمَانُ عَلَىٰ الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ. كَيْفَ اسْتَوَىٰ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ ، فَقَالَ مالك: «الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ وَالسُّؤَالُ عَنْ هَذَا بِدْعَةٌ وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ وَإِنِّي لَأَظُنَّكَ ضَالًّا».

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ يَعْنِي الْهَوَاءَ، ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾ وَالثَّرَىٰ: التُّرَابُ ، وَمَا تَحْتَهُ: هُوَ بَاطِنُ الْأَرْضِ كُلُّهُ، قَالَ الْقَاسِمِيُّ: فِي الْآيَةِ بَيَانٌ لِشُمُولِ قَهْرِهِ وَمَلَكَتِهِ لِلْكُلِّ ، أَيْ كُلُّهَا تَحْتَ مَلَكَتِهِ وَقَهْرِهِ وَسُلْطَنَتِهِ وَتَأْثِيرِهِ ، لَا تُوجَدُ وَلَا تَتَحَرَّكُ وَلَا تَسْكُنُ وَلَا تَتَغَيَّرُ وَلَا تَثْبُتُ إِلَّا بِأَمْرِهِ ، وعن سُلَيْمَانَ بْنِ بِلالٍ؛ قَالَ بَعَثَ بَعْضُ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ إِلَىٰ أَبِي حَازِمٍ بِمَالٍ، فَرَدَّهُ، فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا حَازِمٍ! خُذْ فَإِنَّكَ مِسْكِينٌ ، قَالَ: كَيْفَ أَكُونُ مِسْكِينًا وَمَوْلَايَ ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ﴾ أَيْ تُعْلِنْ بِهِ ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ﴾ قال الحسن البصري: السر ما أسره الرَّجُلُ إِلَىٰ غَيْرِهِ، وَأَخْفَىٰ مِنْ ذَلِكَ مَا أَسَرَّ مِنْ نَفْسِهِ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: السِّرُّ مَا تُسِرُّ فِي نَفْسِكَ وَأَخْفَىٰ مِنَ السِّرِّ مَا يُلْقِيهِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي قَلْبِكَ مِنْ بَعْدُ وَلَا تَعْلَمُ أَنَّكَ سَتُحَدِّثُ بِهِ نَفْسَكَ لِأَنَّكَ تَعْلَمُ مَا تُسِرُّ بِهِ الْيَوْمَ وما تَعْلَمُ مَا تُسِرُّ بِهِ غَدًا، وَاللهُ يَعْلَمُ مَا أَسْرَرْتَ الْيَوْمَ وما

تسر به غدا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: السِّرُّ: الْعَمَلُ الَّذِي تسره مِنَ النَّاسِ، وَأَخْفَىٰ: الْوَسْوَسَةُ. وَقِيلَ: السِّرُّ هُوَ الْعَزِيمَةُ وَأَخفَىٰ مَا يَخْطُرُ عَلَىٰ الْقَلْبِ وَلَمْ يَعْزِمْ عَلَيْهِ. وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ أَيْ يَعْلَمُ أَسْرَارَ الْعِبَادِ، وَأَخفَىٰ سِرَّهُ مِنْ عِبَادِهِ فَلَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ، ثُمَّ وَحَّدَ نَفْسَهُ، فَقَالَ:

[٨] : ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ أَيِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ القرآن هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ذو الأسماء الحسنىٰ، والصفات العلىٰ، وثبت في الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ».

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ أَيْ قَدْ أَتَاكَ اسْتِفْهَامٌ بِمَعْنَىٰ التقرير. من ههنا شَرَعَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي ذِكْرِ قِصَّةِ مُوسَىٰ، وَكَيْفَ كَانَ ابْتِدَاءُ الْوَحْيِ إِلَيْهِ، وَتَكْلِيمُهُ إِيَّاهُ، وَذَلِكَ بَعْدَ مَا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ صِهْرِهِ فِي رِعَايَةِ الْغَنَمِ، وسار بأهله: قيل قاصداً بلاد مصر بعد ما طَالَتِ الْغَيْبَةُ عَنْهَا أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِ سِنِينَ، وَمَعَهُ زَوْجَتُهُ، فَأَضَلَّ الطَّرِيقَ وَكَانَتْ لَيْلَةً شَاتِيَةً، وَنَزَلَ مَنْزِلًا بَيْنَ شِعَابٍ وَجِبَالٍ فِي بَرْدٍ وَشِتَاءٍ، وَسَحَابٍ وَظَلَامٍ وَضَبَابٍ، وَجَعَلَ يَقْدَحُ بِزَنْدٍ مَعَهُ لِيُوَرِّيَ نَارًا كَمَا جَرَتْ لَهُ الْعَادَةُ بِهِ، فَجَعَلَ لَا يَقْدَحُ شَيْئًا وَلَا يَخْرُجُ منه شرر ولا شيء، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّوْرِ نَارًا، أَيْ ظَهَرَتْ لَهُ نَارٌ مِنْ جَانِبِ الْجَبَلِ الَّذِي هُنَاكَ عَنْ يَمِينِهِ، فَقَالَ لِأَهْلِهِ يُبَشِّرُهُمْ:

[١٠] : ﴿إِذْ رَأَىٰ نَارًا﴾ وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَىٰ اسْتَأْذَنَ شُعَيْبًا فِي الرُّجُوعِ مِنْ مَدْيَنَ إِلَىٰ مِصْرَ لِزِيَارَةِ وَالِدَتِهِ وَأُخْتِهِ، فَأَذِنَ لَهُ فَخَرَجَ بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ، وَكَانَتْ أيام الشتاء فَسَارَ فِي الْبَرِيَّةِ غَيْرَ عَارِفٍ بِطُرُقِهَا، فَأَلْجَأَهُ الْمَسِيرُ إِلَىٰ جَانِبِ الطُّورِ الْغَرْبِيِّ الْأَيْمَنِ فِي لَيْلَةٍ مظلمة مثلجة شديدة البرد فَأَبْصَرَ نَارًا مِنْ بَعِيدٍ عَنْ يَسَارِ الطَّرِيقِ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ أَقِيمُوا، ﴿إِنِّي آنَسْتُ﴾ أَيْ أَبْصَرْتُ، ﴿نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ﴾ قطعة مِنْ نَارٍ، وَالْقَبَسُ قِطْعَةٌ مِنَ نار يأخذها في طرف عمود ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَىٰ النَّارِ هُدًىٰ﴾ أَيْ أَجِدُ عِنْدَ النَّارِ مَنْ يَدُلُّنِي عَلَىٰ الطَّرِيقِ، قِيلَ: كَانَ مُوسَىٰ قَدْ خَفِيَ عَلَيْهِ الطَّرِيقُ مِنْ شِدَّةِ الظُّلْمَةِ وَكَانَ يُحِبُّ أَنْ يَسِيرَ لَيْلًا.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ قَالَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ: لَمْ يَكُنِ الَّذِي رَآهُ مُوسَىٰ نَارًا بَلْ كَانَ نُورًا ذُكِرَ بِلَفْظِ النَّارِ لِأَنَّ مُوسَىٰ حَسِبَهُ نَارًا. وَقَالَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ: إِنَّهُ نُورُ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: هِيَ النَّارُ بِعَيْنِهَا وَهِيَ إِحْدَىٰ حُجُبِ اللهِ تَعَالَىٰ، يَدُلُّ عَلَيْهِ مَا رُوِّينَا عَنْ أَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**حجابه النار لو كشفها الله لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَىٰ إليه بصره من خلقه**»(١) ، ﴿نُودِيَ يا مُوسَىٰ﴾ .

(١) مسلم (١٧٩) .

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ أَيِ الَّذِي يُكَلِّمُكَ وَيُخَاطِبُكَ ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ أي المطهر، قِيلَ إِنَّمَا أَمَرَهُ بِخَلْعِ نَعْلَيْهِ تَعْظِيمًا لِلْبُقْعَةِ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: كَمَا يُؤْمَرُ الرَّجُلُ أَنْ يَخْلَعَ نَعْلَيْهِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ الْكَعْبَةَ، وَقِيلَ لِيَطَأَ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ بِقَدَمَيْهِ حَافِيًا غَيْرَ مُنْتَعِلٍ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ، وَاللهُ أَعْلَمُ. ﴿طُوًى﴾ وطوىٰ اسم الوادي وَقَالَ الضَّحَّاكُ: طُوًى وَادٍ مُسْتَدِيرٌ عَمِيقٌ مِثْلُ الطَّوِيِّ فِي اسْتِدَارَتِهِ.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ اصْطَفَيْتُكَ بِرِسَالَاتِي، أَيْ عَلَىٰ جَمِيعِ النَّاسِ مِنَ الْمَوْجُودِينَ فِي زمانه، وقد قِيلَ: إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَالَ: يَا مُوسَىٰ أتدري لم اختصصتك بِالتَّكْلِيمِ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: لأني لم يتواضع إليَّ أَحَدٌ تَوَاضُعَكَ، ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ أَيِ واستمع الْآنَ مَا أَقُولُ لَكَ، وَأُوحِيهِ إِلَيْكَ.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ وَلَا تَعْبُدْ غَيْرِي، هَذَا أَوَّلُ وَاجِبٍ عَلَىٰ العبيد أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ أَيْ وَحِّدْنِي وَقُمْ بِعِبَادَتِي مِنْ غَيْرِ شَرِيكٍ، ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: أَقِمِ الصَّلَاةَ لِتَذْكُرَنِي بها، وقال مقاتل: إذا تركت صلاة ثم ذكرتها، فأقمها، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَس قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَنْ نَامَ عَنْ صَلَاةٍ أَوْ نَسِيَهَا فَكَفَّارَتُهَا أَنْ يُصَلِّيَهَا إِذَا ذَكَرَهَا، لَا كَفَّارَةَ لَهَا إِلَّا**

ذَلِكَ»[(١)]، قَالَ السَّعْدِيُّ: اللَّامُ فِي ﴿لِذِكْرِي﴾ لِلتَّعْلِيلِ؛ أَيْ: أَقِمِ الصَّلَاةَ لِأَجْلِ ذِكْرِكَ إِيَّايَ، لِأَنَّ ذِكْرَهُ تَعَالَىٰ أَجَلُّ الْمَقَاصِدِ، وَهُوَ عُبُودِيَّةُ الْقَلْبِ، وَبِهِ سَعَادَتُهُ، فَالْقَلْبُ الْمُعَطَّلُ عَنْ ذِكْرِ اللهِ، مُعَطَّلٌ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ، وَقَدْ خَرِبَ كُلَّ الْخَرَابِ، فَشَرَعَ اللهُ لِلْعِبَادِ أَنْوَاعَ الْعِبَادَاتِ، الَّتِي الْمَقْصُودُ مِنْهَا إِقَامَةُ ذِكْرِهِ، وَخُصُوصًا الصَّلَاةَ.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾: أَيْ قَائِمَةٌ لَا مَحَالَةَ وَكَائِنَةٌ لَا بُدَّ مِنْهَا. وَقَوْلُهُ ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ قال ابن عباس: أي لَا أُطْلِعُ عَلَيْهَا أَحَدًا غَيْرِي، وَقَالَ السُّدِّيُّ: لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلاَّ قد أخفىٰ الله تعالىٰ عَنْهُ عِلْمَ السَّاعَةِ؛ وَهِيَ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: إِنِّي أَكَادُ أُخْفِيهَا مِنْ نَفْسِي، يَقُولُ: كتمتها من الْخَلَائِقِ، حَتَّىٰ لَوِ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَكْتُمَهَا مِنْ نفسي لفعلت، قال قتادة: لَقَدْ أَخْفَاهَا اللهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ وَمِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، قال البغوي: وَأَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ قَالُوا: مَعْنَاهُ أكاد أخفيها من نفسي وذكر ذَلِكَ عَلَىٰ عَادَةِ الْعَرَبِ إِذَا بَالَغُوا فِي كِتْمَانِ الشَّيْءِ يَقُولُونَ: كَتَمْتُ سِرَّكَ مِنْ نَفْسِي أَيْ أخفيته غاية الإخفاء والله تعالىٰ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَقَالَ: أَكَادُ أَيْ أُرِيدُ، وَمَعْنَىٰ الْآيَةِ: أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أُرِيدُ أُخْفِيهَا، وَالْمَعْنَىٰ فِي إِخْفَائِهَا التَّهْوِيلُ وَالتَّخْوِيفُ لِأَنَّهُمْ إِذَا لَمْ يَعْلَمُوا

(١) البخاري (٥٩٧) ومسلم (٦٨٧).

مَتَىٰ تَقُومُ السَّاعَةُ كَانُوا عَلَىٰ حَذَرٍ مِنْهَا كُلَّ وَقْتٍ، وقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ أي تَعْمَلُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ أَيْ لَا يَصْرِفَنَّكَ عَنِ الْإِيمَانِ بِهَا وَالتَّصْدِيقِ لَهَا. ﴿مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ مُرَادُهُ خَالَفَ أَمْرَ اللهِ عَن الشّعبيّ قَالَ: إِنَّمَا سمي هوىٰ لِأَنَّهُ يهوي بِصَاحِبِهِ إِلَىٰ النَّار ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ أي: تهلك وتشقىٰ، إن اتبعت طريق من يصد عنها، ومنه الْمُتَرَدِّيَةُ وهِيَ الدابة الَّتِي تَتَرَدَّىٰ مِنَ الْعُلُوِّ إِلَىٰ السُّفْلِ فَتَمُوتُ، كَانَ ذَلِكَ مِنْ جَبَلٍ أَوْ فِي بِئْرٍ وَنَحْوِهِ، مِنَ الرَّدَىٰ وَهُوَ الْهَلَاكُ.

[١٧] قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ سُؤَالُ تَقْرِيرٍ وَالْحِكْمَةُ فِي هَذَا السُّؤَالِ تَنْبِيهُهُ وَتَوْقِيفُهُ عَلَىٰ أَنَّهَا عَصًا حَتَّىٰ إِذَا قَلَبَهَا حَيَّةً عَلِمَ أَنَّهُ مُعْجِزَةٌ عَظِيمَةٌ، وَهَذَا عَلَىٰ عَادَةِ الْعَرَبِ يَقُولُ الرَّجُلُ لِغَيْرِهِ: هَلْ تَعْرِفُ هَذَا؟ وَهُوَ لَا يَشُكُّ أَنَّهُ يَعْرِفُهُ، وَيُرِيدُ أَنْ يَنْضَمَّ إِقْرَارُهُ بِلِسَانِهِ إِلَىٰ مَعْرِفَتِهِ بِقَلْبِهِ، لِذَلِكَ لَمَّا قَالَ النَّبِيءُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي خُطْبَةِ حَجَّةِ الْوَدَاعِ: «**أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟**» سَكَتَ النَّاسُ وَظَنُّوا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّهُمْ ، قَالُوا: «اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَقَالَ: «**أَلَيْسَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ؟**»[١].

(١) البخاري (٦٧) ومسلم (١٦٧٩) .

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ قِيلَ: وَكَانَتْ لَهَا شُعْبَتَانِ وَفِي أسفلها سنان ولها محجن ﴿أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا﴾ أَعْتَمِدُ عَلَيْهَا إِذَا مَشَيْتُ وَإِذَا عييت وَعِنْدَ الْوَثْبَةِ، ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ أَضْرِبُ بِهَا الشَّجَرَةَ الْيَابِسَةَ لِيَسْقُطَ وَرَقُهَا فَتَرْعَاهُ الْغَنَمُ، وَقَرَأَ عِكْرِمَةُ (وَأَهُسُّ) بِالسِّينِ غَيْرِ الْمُعْجَمَةِ، أَيْ أزجر بها الغنم، والهس زَجْرُ الْغَنَمِ، ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ حَاجَاتٌ وَمَنَافِعُ أُخْرَىٰ، جَمْعُ مَأْرَبَةٍ بفتح الراء ، وهي الْحَاجَةُ، أَيْ أُمُورٌ أَحْتَاجُ إِلَيْهَا، وَأَرَادَ بِالْمَآرِبِ مَا يُسْتَعْمَلُ فيه العصا في السفر، فكان يَحْمِلُ بِهَا الزَّادَ وَيَشُدُّ بِهَا الْحَبْلَ فَيَسْتَقِي الْمَاءَ مِنَ الْبِئْرِ، وَيَقْتُلُ بِهَا الْحَيَّاتِ وَيُحَارِبُ بِهَا السِّبَاعَ، وَيَسْتَظِلُّ بِهَا إِذَا قَعَدَ وغير ذلك.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ﴾ أَيْ هَذِهِ الْعَصَا الَّتِي فِي يَدِكَ يَا مُوسَىٰ أَلْقِهَا، قال القرطبي : لَمَّا أَرَادَ اللهُ تَعَالَىٰ أَنْ يُدَرِّبَهُ فِي تَلَقِّي النُّبُوَّةِ وَتَكَالِيفِهَا أَمَرَهُ بِإِلْقَاءِ الْعَصَا، فَقَلَبَ اللهُ أَوْصَافَهَا وَأَعْرَاضَهَا.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ أَيْ صَارَتْ فِي الْحَالِ حَيَّةً عَظِيمَةً، ثُعْبَانًا طَوِيلًا يَتَحَرَّكُ حَرَكَةً سَرِيعَةً، فَإِذَا هِيَ تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ، وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَيَّاتِ حَرَكَةً، وَلَكِنَّهُ صَغِيرٌ، فَهَذِهِ فِي غَايَةِ الْكِبْرِ، وَفِي غَايَةِ سُرْعَةِ الْحَرَكَةِ، ﴿تَسْعَىٰ﴾ أَيْ تمشي وتضطرب ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾، وَلَمْ تَكُنْ قَبْلَ ذَلِكَ حَيَّةً، فَمَرَّتْ بِشَجَرَةٍ فَأَكَلَتْهَا، وَمَرَّتْ بِصَخْرَةٍ فَابْتَلَعَتْهَا، فَجَعَلَ مُوسَىٰ يَسْمَعُ وَقْعَ الصَّخْرَةِ فِي جَوْفِهَا، فَوَلَّىٰ مُدْبِرًا، ونودي

أن يا موسىٰ خذها، ثُمَّ نُودِيَ الثَّانِيَةَ أَنْ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ، فَقِيلَ لَهُ فِي الثَّالِثَةِ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ، فأخذها. وَالسَّعْيُ الْمَشْيُ بِسُرْعَةٍ وَخِفَّةٍ. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: نَظَرَ مُوسَىٰ فَإِذَا الْعَصَا حَيَّةٌ مِنْ أَعْظَمِ مَا يكون من الحيات ، فَلَمَّا عَايَنَ ذَلِكَ مُوسَىٰ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَهَرَبَ، ثُمَّ ذَكَرَ رَبَّهُ فَوَقَفَ اسْتِحْيَاءً مِنْهُ، ثُمَّ نُودِيَ أَنْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَارْجِعْ حَيْثُ كُنْتَ، فَرَجَعَ وَهُوَ شَدِيدُ الْخَوْفِ.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ خُذْهَا﴾ بِيَمِينِكَ، ﴿وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾ هَيْئَتَهَا الْأُولَىٰ أَيْ نَرُدُّهَا عَصًا كما كانت، قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: أَرَادَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُرِيَ مُوسَىٰ مَا أَعْطَاهُ مِنَ الْآيَةِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا مَخْلُوقٌ لِئَلَّا يَفْزَعَ مِنْهَا إِذَا أَلْقَاهَا عِنْدَ فِرْعَوْنَ.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ يعني إِبْطِكَ، قَالَ مُجَاهِدٌ: تَحْتَ عَضُدِكَ، وَجَنَاحُ الْإِنْسَانِ عَضُدُهُ إِلَىٰ أَصْلِ إبطه، وَقِيلَ: إِلَىٰ جَنْبِكَ فَعَبَّرَ عَنِ الْجَنْبِ بِالْجَنَاحِ. لِأَنَّهُ مَائِلٌ فِي مَحَلِّ الْجَنَاحِ. وَقِيلَ إِلَىٰ عِنْدِكَ. ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ﴾ نَيِّرَةً مُشْرِقَةً، ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ من غير عيب، والسوء ههنا بِمَعْنَىٰ الْبَرَصِ، كَمَا تَقُولُ: ابْيَضَّتْ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ لِيَدِهِ نُورٌ سَاطِعٌ يُضِيءُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ كَضَوْءِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، ﴿آيَةً أُخْرَىٰ﴾ وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: أَخْرَجَهَا وَاللهِ كَأَنَّهَا مِصْبَاحٌ، فَعَلِمَ مُوسَىٰ أَنَّهُ قَدْ لَقِيَ رَبَّهُ عزَّ وجلَّ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ:

[٢٣] : ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ﴾ يُرِيدُ الْعُظْمَىٰ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: كَيْ نُرِيَكَ مِنْ أَدِلَّتِنَا الْكُبْرَىٰ عَلَىٰ عَظِيمِ سُلْطَانِنَا وَقُدْرَتِنَا. وَقَالَ السَّعْدِيُّ: أَجَلْ؛ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ الدَّالَّةِ عَلَىٰ صِحَّةِ رِسَالَتِكَ، وَحَقِيقَةِ مَا جِئْتَ بِهِ، فَيَطْمَئِنَّ قَلْبُكَ، وَيَزْدَادَ عِلْمُكَ، وَتَثِقَ بِوَعْدِ اللهِ لَكَ بِالْحِفْظِ وَالنُّصْرَةِ، وَلِتَكُونَ حُجَّةً وَبُرْهَانًا لِمَنْ أُرْسِلْتَ إِلَيْهِمْ.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ مَعْنَاهُ عَصَىٰ وَتَكَبَّرَ وَكَفَرَ وَتَجَبَّرَ ، يعني جَاوَزَ الْحَدَّ فِي الْعِصْيَانِ وَالتَّمَرُّدِ، فادعه إلىٰ عبادتي ، قال ابن كثير: أَيِ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ مَلِكِ مِصْرَ، الَّذِي خَرَجْتَ فَارًّا مِنْهُ وَهَارِبًا، فَادْعُهُ إِلَىٰ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ مُوسَىٰ، عليه السلام ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ وَسِّعْهُ لِلْحَقِّ، أَيْ إِنْ لَمْ تَكُنْ أَنْتَ عَوْنِي وَنَصِيرِي وَعَضُدِي وَظَهِيرِي وَإِلَّا فَلَا طَاقَةَ لِي بِذَلِكَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ حَتَّىٰ لَا أَخَافَ غَيْرَكَ، وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَىٰ كَانَ يَخَافُ فِرْعَوْنَ خَوْفًا شَدِيدًا لِشِدَّةِ شَوْكَتِهِ وَكَثْرَةِ جُنُودِهِ، وَكَانَ يَضِيقُ صَدْرًا بِمَا كُلِّفَ مِنْ مُقَاوَمَةِ فِرْعَوْنَ وجنده فَسَأَلَ اللهَ أَنْ يُوَسِّعَ قَلْبَهُ لِلْحَقِّ حَتَّىٰ يَعْلَمَ أَنَّ أَحَدًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ مَضَرَّتِهِ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ، وَإِذَا عَلِمَ ذَلِكَ لم يخف من فِرْعَوْنَ وَشَدَّةَ شَوْكَتِهِ وَكَثْرَةَ جُنُودِهِ.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ يعني سَهِّلْ عَلَيَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ مِنْ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ.

[٢٧، ٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي . يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ يَقُولُ: احْلُلِ الْعُقْدَةَ كَيْ يَفْقَهُوا كَلَامِي، أَيْ أَزِلِ الْعُجْمَةَ الَّتِي فِي لِسَانِي يَفْقَهُوا عَنِّي مَا أُخَاطِبُهُمْ بِهِ بِالْكَلَامِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَتْ فِي لِسَانِهِ رُتَّةٌ، قِيلَ: يَعْنِي الْعُجْمَةَ الَّتِي كَانَتْ فِيهِ مِنْ جَمْرَةِ النَّارِ الَّتِي أَطْفَأَهَا فِرْعَوْنُ فِي فَمِهِ وَهُوَ طِفْلٌ.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴾ ظهيرًا أعتمد عليه، من الوزر الثقل، لأنه يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنته، أو من الوزر الملجأ.

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هَارُونَ أَخِي﴾ وَكَانَ هَارُونُ أَكْبَرَ مِنْ مُوسَىٰ بِأَرْبَعِ سِنِينَ وَكَانَ أَفْصَحَ مِنْهُ لسانًا وأجمل وأوسم، أبيض اللَّوْنِ، وَكَانَ مُوسَىٰ آدَمَ أَقْنَىٰ أجعد.

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ قوِّ بِهِ ظَهْرِي، وَالْأَزْرُ الظَّهْرُ مِنْ مَوْضِعِ الحوض للرجل، وَمَعْنَاهُ تَقْوَىٰ بِهِ نَفْسِي.

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ يعني فِي النُّبُوَّةِ وَتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ، قال الطبري : يقول: واجعله نبيًّا مثل ما جعلتني نبيًّا، وأرسله معي إلىٰ فرعون قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: كَانَ هَارُونُ يَوْمَئِذٍ بِمِصْرَ، فَأَمَرَ اللهُ مُوسَىٰ أَنْ يَأْتِيَ هرون، وأوحىٰ إلىٰ هرون وَهُوَ بِمِصْرَ أَنْ يَتَلَقَّىٰ مُوسَىٰ، فَتَلَقَّاهُ إِلَىٰ مَرْحَلَةٍ وَأَخْبَرَهُ بِمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ مُوسَىٰ: إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ آتِيَ فِرْعَوْنَ فَسَأَلْتُ رَبِّي أَنْ يَجْعَلَكَ مَعِي رَسُولًا.

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ قِيلَ: مَعْنَىٰ نُسَبِّحَكَ نُصَلِّي لَكَ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ التَّسْبِيحُ بِاللِّسَانِ، أَيْ نُنَزِّهَكَ عَمَّا لا يليق بجلالك.

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ نَحْمَدُكَ وَنُثْنِي عَلَيْكَ بِمَا أَوْلَيْتَنَا مِنْ نِعَمِكَ. قَالَ مُجَاهِدٌ: لَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنَ الذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا حَتَّىٰ يذكر الله قائمـًا ومضطجعـًا.

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ خبيرًا عليمًا، قَالَ الْخَطَّابِيُّ: الْبَصِيرُ الْمُبْصِرُ، وَالْبَصِيرُ الْعَالِمُ بِخَفِيَّاتِ الْأُمُورِ، فَالْمَعْنَىٰ، أَيْ عَالِمًا بِنَا، وَمُدْرِكًا لَنَا فِي صِغَرِنَا فَأَحْسَنْتَ إِلَيْنَا، فِي اصطفائك لنا وإعطائك إيانا النبوة وبعثك لَنَا إِلَىٰ عَدُوِّكَ فِرْعَوْنَ، فَلَكَ الْحَمْدُ عَلَىٰ ذلك.

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ ﴿قَدْ أُوتِيتَ﴾ أعطيت، ﴿سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ جَمِيعَ مَا سَأَلْتَهُ، لَمَّا سَأَلَهُ شَرْحَ الصَّدْرِ، وَتَيْسِيرَ الْأَمْرِ إِلَىٰ مَا ذَكَرَ، أَجَابَ سُؤْلَهُ، وَأَتَاهُ طِلْبَتَهُ وَمَرْغُوبَهُ، وَالسُّؤْلُ الطِّلْبَةُ، فُعْلٌ بِمَعْنَىٰ مَفْعُولٍ، كَقَوْلِكَ خُبْزٌ بِمَعْنَىٰ مَخْبُوزٍ وَأُكْلٌ بِمَعْنَىٰ مَأْكُولٍ.

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ﴾ أنعمنا عليك، ﴿مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ أَيْ قَبْلَ هَذِهِ، وَهِيَ حِفْظُهُ سُبْحَانَهُ لَهُ مِنْ شَرِّ الْأَعْدَاءِ فِي الِابْتِدَاءِ، وَذَلِكَ حِينَ الذَّبْحِ. وَاللهُ أَعْلَمُ، وَالْمَنُّ الْإِحْسَانُ وَالْإِفْضَالُ. يَعْنِي قَبْلَ هَذِهِ الْمَرَّةِ وَهِيَ:

[٣٨]: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ﴾ وحي إلهام، ﴿مَا يُوحَىٰ﴾ مَا يُلْهَمُ. ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ الإلهام وعدد نعمه عليك فقال:

[٣٩] ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾ يعني أَلْهَمْنَاهَا أَنِ اجْعَلِيهِ فِي التَّابُوتِ، ﴿فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ يَعْنِي نَهْرَ النِّيلِ، ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ يَعْنِي شَاطِئَ النَّهْرِ، لَفْظُهُ أَمْرٌ ومعناه خبر، ومجازه حَتَّىٰ يُلْقِيَهُ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ، ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾ يعني فرعون، فاتخذت تابوتًا ووضعت فيه موسىٰ ثُمَّ أَلْقَتْهُ فِي النِّيلِ، وَكَانَ يَشْرَعُ مِنْهُ نَهْرٌ كَبِيرٌ فِي دَارِ فِرْعَوْنَ، فَبَيْنَمَا فِرْعَوْنُ جَالِسٌ عَلَىٰ رَأْسِ الْبِرْكَةِ مَعَ امْرَأَتِهِ آسية إذ تابوت يَجِيءُ بِهِ الْمَاءُ فَأَمَرَ الْغِلْمَانَ وَالْجَوَارِيَ بِإِخْرَاجِهِ، فَأَخْرَجُوهُ وَفَتَحُوا رَأْسَهُ فَإِذَا صَبِيٌّ مِنْ أَصْبَحِ النَّاسِ وَجْهًا، فَلَمَّا رَآهُ فِرْعَوْنُ أَحَبَّهُ بِحَيْثُ لَمْ يَتَمَالَكْ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَحَبَّهُ وَحَبَّبَهُ إِلَىٰ خَلْقِهِ. قَالَ عِكْرِمَةُ: مَا رَآهُ أَحَدٌ إِلَّا أَحَبَّهُ ، قَالَ قَتَادَةُ: مَلَاحَةٌ كَانَتْ فِي عَيْنَيْ مُوسَىٰ، مَا رَآهُ أَحَدٌ إِلَّا عشقه ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ يَعْنِي: لِتُرَبَّىٰ بِمَرْآيَ وَمَخْطَرٍ مِنِّي. قَالَ السَّعْدِيُّ: وَلِتَتَرَبَّىٰ عَلَىٰ نَظَرِي وَفِي حِفْظِي وَكِلَاءَتِي، وَأَيُّ نَظَرٍ وَكَفَالَةٍ أَجَلُّ وَأَكْمَلُ، مِنْ وِلَايَةِ الْبَرِّ الرَّحِيمِ، الْقَادِرِ عَلَىٰ إِيصَالِ مَصَالِحِ عَبْدِهِ، وَدَفْعِ الْمَضَارِّ عَنْهُ؟! فَلَا يَنْتَقِلُ مِنْ حَالَةٍ إِلَىٰ حَالَةٍ، إِلَّا وَاللهُ تَعَالَىٰ هُوَ الَّذِي دَبَّرَ ذَلِكَ لِمَصْلَحَةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام.

[٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ﴾ وَاسْمُهَا مَرْيَمُ مُتَعَرِّفَةً خَبَرَهُ، ﴿فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَنْ يَكْفُلُهُ﴾ يعني عَلَىٰ امْرَأَةٍ، تُرْضِعُهُ وَتَضُمُّهُ إِلَيْهَا، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ لَا يَقْبَلُ ثَدْيَ امْرَأَةٍ، فَلَمَّا قَالَتْ ذَلِكَ لَهُمْ أُخْتُهُ، قَالُوا: نَعَمْ، فَجَاءَتْ بِالْأُمِّ فَقَبِلَ ثَدْيَهَا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بلقائك،

﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي ليذهب عنها الحزن، ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: كَانَ قَتَلَ قِبْطِيًّا كَافِرًا، قَالَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ: كَانَ إِذْ ذَاكَ ابْنَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ أَيْ مِنْ غَمِّ الْقَتْلِ وَكَرْبِهِ ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. اخْتَبَرْنَاكَ اخْتِبَارًا، وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَمُقَاتِلٌ: ابْتَلَيْنَاكَ ابْتِلَاءً، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَخْلَصْنَاكَ إِخْلَاصًا، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي رِوَايَةِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: أَنَّ الْفُتُونَ وُقُوعُهُ فِي مِحْنَةٍ بَعْدَ مِحْنَةٍ خَلَّصَهُ اللهُ مِنْهَا، أَوَّلُهَا أَنَّ أُمَّهُ حَمَلَتْهُ فِي السَّنَةِ الَّتِي كَانَ فِرْعَوْنُ يَذْبَحُ فيها الْأَطْفَالَ، ثُمَّ إِلْقَاؤُهُ فِي الْبَحْرِ فِي التَّابُوتِ، ثُمَّ مَنْعُهُ الرِّضَاعَ إِلَّا مِنْ ثَدْيِ أُمِّهِ، ثُمَّ أخذ بِلِحْيَةِ فِرْعَوْنَ حَتَّىٰ هَمَّ بِقَتْلِهِ، ثُمَّ تَنَاوُلُهُ الْجَمْرَةَ بَدَلَ الدُّرَّةِ، ثُمَّ قَتْلُهُ الْقِبْطِيَّ، وَخُرُوجُهُ إِلَىٰ مَدْيَنَ خَائِفًا، فَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُصُّ الْقِصَّةَ عَلَىٰ سَعِيدِ بْنِ جبير، فعلىٰ هذا معنىٰ فتناك: خَلَّصْنَاكَ مِنْ تِلْكَ الْمِحَنِ كَمَا يفتن الذهب من النار فَيُخَلَّصُ مَنْ كُلِّ خَبَثٍ فِيهِ، والفتون مصدر ﴿فَلَبِثْتَ﴾ فمكثت أي فخرجت من أرض مصر إلىٰ مدين فَلَبِثْتَ، ﴿سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ يَعْنِي تَرْعَىٰ الْأَغْنَامَ عَشْرَ سِنِينَ، وَمَدْيَنُ بَلْدَةُ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ ثَمَانِ مَرَاحِلَ مِنْ مِصْرَ، هرب إليها موسىٰ ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يا مُوسَىٰ﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ: عَلَىٰ مَوْعِدٍ وَلَمْ يَكُنْ هَذَا الْمَوْعِدُ مَعَ مُوسَىٰ وَإِنَّمَا كَانَ مَوْعِدًا فِي تَقْدِيرِ اللهِ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: جِئْتَ عَلَىٰ الْقَدْرِ الَّذِي قَدَّرْتُ لك أنك تجيء إلي فيه. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ كَيْسَانَ: عَلَىٰ رَأْسِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَهُوَ الْقَدْرُ الَّذِي

يُوحَىٰ فِيهِ إِلَىٰ الْأَنْبِيَاءِ، وَهَذَا مَعْنَىٰ قَوْلِ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ، أَيْ عَلَىٰ الْمَوْعِدِ الَّذِي وَعَدَهُ اللهُ وَقَدَّرَهُ أَنَّهُ يُوحَىٰ إِلَيْهِ بِالرِّسَالَةِ، وَهُوَ أَرْبَعُونَ سَنَةً.

[٤١] قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ أَيِ اصْطَفَيْتُكَ وَاجْتَبَيْتُكَ رَسُولًا لِنَفْسِي، يعني لتتصرف عَلَىٰ إِرَادَتِي وَمَحَبَّتِي وَذَلِكَ أَنَّ قِيَامَهُ بِأَدَاءِ الرِّسَالَةِ تَصَرُّفٌ عَلَىٰ إِرَادَةِ اللهِ وَمَحَبَّتِهِ، قَالَ الزَّجَّاجُ: اخْتَرْتُكَ لِأَمْرِي وَجَعَلْتُكَ الْقَائِمَ بِحُجَّتِي وَالْمُخَاطَبَ بَيْنِي وَبَيْنَ خَلْقِي، كَأَنِّي الَّذِي أَقَمْتُ بِكَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ وَخَاطَبْتُهُمْ.

[٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي﴾ بدلالاتي، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي الْآيَاتِ التِّسْعَ الَّتِي بَعَثَ بِهَا مُوسَىٰ ﴿وَلَا تَنِيَا﴾ ولا تَضْعُفَا، وَقَالَ السُّدِّيُّ: لَا تَفْتُرَا، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: لَا تقصرا، والونىٰ: الضعف والفتور، وَيُقَالُ: وَنَيْتُ فِي الْأَمْرِ أَيْ ضَعُفْتُ ﴿فِي ذِكْرِي﴾ قال ابن كثير: وَالْمُرَادُ أَنَّهُمَا لَا يَفْتُرَانِ فِي ذِكْرِ اللهِ، بَلْ يَذْكُرَانِ اللهَ فِي حَالِ مُوَاجَهَةِ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ ذِكْرُ اللهِ عَوْنًا لَهُمَا عَلَيْهِ، وَقُوَّةً لَهُمَا وَسُلْطَانًا كَاسِرًا لَهُ.

[٤٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ أَيْ تَمَرَّدَ وعتا، وتجبر عَلَىٰ اللهِ وَعَصَاهُ.

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾ يقول دارياه وارفقا بِهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عنه: لَا تُعَنِّفَا فِي قَوْلِكُمَا، وَقَالَ السُّدِّيُّ: كَنِّيَاهُ فَقُولَا يَا أَبَا الْعَبَّاسِ، وَقِيلَ: يَا أَبَا الوليد، قَالَ ابن كثير: وَالْحَاصِلُ مِنْ أَقْوَالِهِمْ أَنَّ دَعْوَتَهُمَا

لَهُ تَكُونُ بكلام رقيق، لين سهل رفيق، لِيَكُونَ أَوْقَعَ فِي النُّفُوسِ وَأَبْلَغَ وَأَنْجَح و عَن الْفضل بن عِيسَىٰ الرقاشِي أَنه تَلا هَذِه الْآيَة ﴿ فَقُولَا لَهُ قولا لينًا﴾ فَقَالَ: يَا من يتحبب إِلَىٰ من يعاديه فَكيف بِمن يتَوَلَّىٰ ويناديه ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ أَي يتعظ ويخاف ويسلم، فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ قَالَ ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ﴾ وقد سَبَقَ فِي عِلْمِهِ أَنَّهُ لَا يَتَذَكَّرُ وَلَا يُسْلِمُ؟ قِيلَ: مَعْنَاهُ اذْهَبَا عَلَىٰ رَجَاءٍ مِنْكُمَا وَطَمَعٍ وَقَضَاءُ اللهِ وَرَاءَ أَمْرِكُمَا. وَقَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ: هُوَ يَنْصَرِفُ إِلَىٰ غَيْرِ فِرْعَوْنَ مَجَازُهُ لَعَلَّهُ يتذكر وَيَخْشَىٰ خَاشٍ إِذَا رَأَىٰ بِرِّي وَأَلْطَافِي بِمَنْ خَلَقْتُهُ وَأَنْعَمْتُ عَلَيْهِ ثم ادعىٰ الربوبية.

[٤٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَا﴾ يَعْنِي مُوسَىٰ وَهَارُونَ، ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: يَعْجَلُ عَلَيْنَا بِالْقَتْلِ وَالْعُقُوبَةِ،**وقال مجاهد: يتسلط علينا،** يُقَالُ: فَرَطَ عَلَيْهِ فُلَانٌ إِذَا عَجِلَ بِمَكْرُوهٍ، وَفَرَطَ مِنْهُ أَمْرٌ أَيْ بَدَرَ وَسَبَقَ، ﴿أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ﴾ أَيْ يُجَاوِزُ الْحَدَّ فِي الْإِسَاءَةِ إِلَيْنَا.

[٤٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَسْمَعُ دُعَاءَكُمَا فَأُجِيبُهُ وَأَرَىٰ مَا يُرَادُ بِكُمَا فَأَمْنَعُهُ لَسْتُ بِغَافِلٍ عَنْكُمَا فَلَا تَهْتَمَّا، وقال ابنكثير : لَا تَخَافَا مِنْهُ فَإِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ كَلَامَكُمَا وَكَلَامَهُ، وَأَرَىٰ مَكَانَكُمَا وَمَكَانَهُ، لَا يَخْفَىٰ عَلَيَّ مِنْ أَمْرِكُمْ شَيْءٌ، وَاعْلَمَا أَنَّ نَاصِيَتَهُ بِيَدِي فَلَا يَتَكَلَّمُ وَلَا يَتَنَفَّسُ وَلَا يَبْطِشُ إِلَّا بإذني، وأنا معكم بحفظي ونصري، وتأييدي.

[٤٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ أَرْسَلَنَا إِلَيْكَ، ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أَيْ خلِّ عَنْهُمْ وَأَطْلِقْهُمْ مِنْ أعمالك، ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ لَا تُتْعِبْهُمْ فِي الْعَمَلِ، وَكَانَ فِرْعَوْنُ يَسْتَعْمِلُهُمْ فِي الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ، ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ: وَمَا هِيَ؟ فَأَخْرَجَ يَدَهُ لَهَا شُعَاعٌ كَشُعَاعِ الشَّمْسِ، ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ قَالَ الزَّجَّاجُ: أَيْ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ سَلِمَ مِنْ سَخَطِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَذَابِهِ.

[٤٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذابَ﴾ يَعْنِي الْهَلَاكَ وَالدَّمَارَ فِي الدُّنْيَا وَالْخُلُودَ فِي جَهَنَّمَ فِي الْآخِرَةِ، ﴿عَلىٰ مَنْ كَذَّبَ﴾ أَنْبِيَاءَ اللهِ ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أَعْرَضَ عَنِ الْإِيمَانِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هَذِهِ أَرْجَىٰ آيَةٍ لِلْمُوَحِّدِينَ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُكَذِّبُوا وَلَمْ يَتَوَلَّوْا.

[٤٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يا مُوسَىٰ﴾ مَنْ إِلَهُكُمَا الَّذِي أَرْسَلَكُمَا.

[٥٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ قَالَ الْحَسَنُ البصري: أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ صَلَاحَهُ وَهُدَاهُ لِمَا يُصْلِحُهُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ صُورَتَهُ لَمْ يَجْعَلْ خَلْقَ الْإِنْسَانِ كَخَلْقِ الْبَهَائِمِ، وَلَا خَلْقَ الْبَهَائِمِ كَخَلْقِ الْإِنْسَانِ ثُمَّ هَدَاهُ إِلَىٰ مَنَافِعِهِ مِنَ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ وَالْمَنْكَحِ. وقد أجاب موسىٰ بجواب شاف كاف واضح، فقال: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ أَيْ: رَبُّنَا الَّذِي خَلَقَ جَمِيعَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَأَعْطَىٰ كُلَّ مَخْلُوقٍ خَلْقَهُ

اللَّائِقَ بِهِ، الدَّالَّ عَلَىٰ حُسْنِ صُنْعِهِ مِنْ خَلْقِهِ، ثُمَّ هَدَاهُمْ لِمَا يُصْلِحُهُمْ فِي مَعَايِشِهِمْ.

[٥١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ فِرْعَوْنُ، ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ وَمَعْنَىٰ الْبَالِ الْحَالُ، أَيْ مَا حَالُ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ وَالْأُمَمِ الْخَالِيَةِ مِثْلَ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ فِيمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ فَإِنَّهَا كَانَتْ تَعْبُدُ الْأَوْثَانَ وَتُنْكِرُ الْبَعْثَ، أَيْ فما بالهم إذا كان الأمر كذلك، لَمْ يَعْبُدُوا رَبَّكَ بَلْ عَبَدُوا غَيْرَهُ، فَقَالَ لَهُ مُوسَىٰ فِي جَوَابِ ذَلِكَ: هُمْ وَإِنْ لم يعبدوا فَإِنَّ عَمَلَهُمْ عِنْدَ اللهِ مَضْبُوطٌ عَلَيْهِمْ، وَسَيَجْزِيهِمْ بِعَمَلِهِمْ فِي كِتَابِ اللهِ وَهُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ وكتاب الأعمار.

[٥٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ موسىٰ عليه السلام ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ أَيْ أَعْمَالُهُمْ مَحْفُوظَةٌ عِنْدَ اللهِ يُجَازِي بِهَا، وَقِيلَ: إِنَّمَا رَدَّ مُوسَىٰ عِلْمَ ذَلِكَ إِلَىٰ اللهِ لِأَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ ذَلِكَ، فإن التوراة أنزلت إليه بَعْدَ هَلَاكِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ. ﴿فِي كِتَابٍ﴾ يَعْنِي فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي﴾ أيْ لَا يَشِذُّ عَنْهُ شَيْءٌ وَلَا يَفُوتُهُ صَغِيرٌ وَلَا كَبِيرٌ وَلَا يَنْسَىٰ شَيْئًا،وَقِيلَ: لَا يغيب عَنْهُ شَيْءٌ وَلَا يَغِيبُ عَنْ شيء، ﴿وَلَا يَنْسَىٰ﴾ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ حَتَّىٰ يُجَازِيَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ وَقِيلَ: لَا يَنْسَىٰ أي لا يترك الانتقام فينتقم من الكفار وَيُجَازِي الْمُؤْمِنَ.

[٥٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أَيْ مَهَدَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا، تَسْتَقِرُّونَ عَلَيْهَا وَتَقُومُونَ وَتَنَامُونَ عَلَيْهَا، وَتُسَافِرُونَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا، ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أَيْ طُرُقًا، والسَّلْكُ إِدْخَالُ الشَّيْءِ فِي الشَّيْءِ

وَالْمَعْنَىٰ: أَدْخَلَ فِي الْأَرْضِ لِأَجْلِكُمْ طُرُقًا تَسْلُكُونَهَا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: سلك لَكُمْ فِيهَا طُرُقًا تَسْلُكُونَهَا، ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يَعْنِي الْمَطَرَ، تَمَّ الْإِخْبَارُ عَنْ مُوسَىٰ. ثُمَّ أَخْبَرَ اللهُ عَنْ نفسه بقوله. ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ بذلك الماء لِأَنَّ الْمَاءَ المنزل سبب خروج النبات ﴿أَزْوَاجًا﴾ أصنافا مِنَ النَّبَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ الْأَزْوَاجِ وَالْأَلْوَانِ. ﴿مِنْ نَبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ مُخْتَلِفِ الْأَلْوَانِ وَالطُّعُومِ وَالْمَنَافِعِ مِنْ أَبْيَضَ وَأَحْمَرَ وَأَخْضَرَ وَأَصْفَرَ، فَكُلُّ صِنْفٍ مِنْهَا زَوْجٌ، فَمِنْهَا لِلنَّاسِ ومنها للدواب. وَقَالَ الْأَخْفَشُ: التَّقْدِيرُ أَزْوَاجًا شَتَّىٰ مِنْ نَبَاتٍ.

[٥٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا﴾ أي وارتعوا، من رعت الماشية الكلأ، ورعاها صاحبها رعاية، ﴿أَنْعَامَكُمْ﴾ تَقُولُ الْعَرَبُ: رَعَيْتُ الْغَنَمَ فَرَعَتْ أَيْ أَسِيمُوا أَنْعَامَكُمْ تَرْعَىٰ، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ الذي ذكرت، ﴿لِأُولِي النُّهَىٰ﴾ لِذَوِي الْعُقُولِ، وَاحِدَتُهَا نُهْيَةٌ سُمِّيَتْ نُهْيَةً لِأَنَّهَا تَنْهَىٰ صَاحِبَهَا عَنِ الْقَبَائِحِ وَالْمَعَاصِي. قَالَ الضَّحَّاكُ: لِأُولِي النهىٰ الذي ينتهون عما حرم الله عَلَيْهِمْ، قَالَ قَتَادَةُ: لِذَوِي الْوَرَعِ.

[٥٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مِنْهَا﴾ أي من الأرض، ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ يعني أباكم آدم ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ أَيْ عِنْدَ الْمَوْتِ وَالدَّفْنِ، ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ أَيْ مِنَ الْأَرْضِ مَبْدَؤُكُمْ، فَإِنَّ أَبَاكُمْ آدَمَ مَخْلُوقٌ مِنْ تُرَابٍ مِنْ أَدِيمِ الْأَرْضِ، وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ أَيْ وَإِلَيْهَا تَصِيرُونَ إِذَا مُتُّمْ وَبَلِيتُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ.

[٥٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ﴾ يعني فرعون، ﴿آيَاتِنَا كُلَّهَا﴾ يَعْنِي الْآيَاتِ التِّسْعَ الَّتِي أَعْطَاهَا الله موسىٰ، ﴿فَكَذَّبَ﴾ بِهَا ولَمْ يُؤْمِنْ ، وَزَعَمَ أَنَّهَا سِحْرٌ، ﴿وَأَبَىٰ﴾ أن يسلم عِنَادًا وَبَغْيًا.

[٥٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ يَعْنِي فِرْعَوْنَ ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا﴾ يعني أرض مصر، ﴿بِسِحْرِكَ يا مُوسَىٰ﴾ أَيْ تُرِيدُ أَنْ تَغْلِبَ عَلَىٰ دِيَارِنَا فَيَكُونَ لَكَ الْمُلْكُ وَتُخْرِجَنَا مِنْهَا، قال النسفي: فيه دليل علىٰ أنه خاف منه خوفًا شديدًا، وقوله: ﴿بِسِحْرِكَ﴾ تعلل، وإلا فأي ساحر يقدر أن يخرج ملكًا من أرضه؟ ! .

[٥٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ أَيْ يَوْمًا نَجْتَمِعُ نَحْنُ وَأَنْتَ فِيهِ، فَنُعَارِضُ مَا جِئْتَ به بما عندنا مِنَ السِّحْرِ، فِي مَكَانٍ مُعَيَّنٍ وَوَقْتٍ مُعَيَّنٍ، فَعِنْدَ ذَلِكَ ﴿لَا نُخْلِفُهُ﴾ أَيْ لَا نُخْلِفُ ذَلِكَ الْوَعْدَ، وَالْإِخْلَافُ أَنْ يَعِدَ شَيْئًا وَلَا يُنْجِزَهُ ، ﴿نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ وَقَتَادَةُ: مَكَانًا عَدْلًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: نَصَفًا، وَمَعْنَاهُ تَسْتَوِي مَسَافَةُ الْفَرِيقَيْنِ إِلَيْهِ، وقال النَّحَّاسُ: وَأَهْلُ التَّفْسِيرِ عَلَىٰ أَنَّ مَعْنَىٰ ﴿سُوًى﴾ نَصَفٌ وَعَدْلٌ وَهُوَ قَوْلٌ حَسَنٌ، وَأَصْلُهُ مِنْ قَوْلِكَ: جَلَسَ فِي سَوَاءِ الدَّارِ بِالْمَدِّ أَيْ فِي وسطها، ووسط كل شي أَعْدَلُهُ.

[٥٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ مُوسَىٰ ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزينة﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَمُقَاتِلٌ وَالسُّدِّيُّ: كَانَ يَوْمَ عِيدٍ لَهُمْ يَتَزَيَّنُونَ فِيهِ وَيَجْتَمِعُونَ فِي كُلِّ سَنَةٍ. وَقِيلَ: هُوَ يَوْمُ النَّيْرُوزِ. وَقَالَ ابْنِ عَبَّاسٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: يَوْمُ عَاشُورَاءَ، ﴿وَأَن

يُحْشَرَ النَّاسُ﴾ أَيْ جَمِيعُهُمْ ﴿ضُحًى﴾ أَيْ ضَحْوَةً مِنَ النَّهَارِ لِيَكُونَ أَظْهَرَ وَأَجْلَىٰ وَأَبْيَنَ وَأَوْضَحَ، وَهَكَذَا شَأْنُ الأنبياء، كل أمرهم بيّن واضح لَيْسَ فِيهِ خَفَاءٌ وَلَا تَرْوِيجٌ، وَلِهَذَا لَمْ يَقُلْ: لَيْلًا، وَلَكِنْ نَهَارًا، ضُحًى.

[٦٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ مَكْرَهُ وَحِيلَتَهُ وَسَحَرَتَهُ، أَيْ: جَمِيعَ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، مِمَّا يَكِيدُ بِهِ مُوسَىٰ، فَأَرْسَلَ فِي مَدَائِنِهِ مَنْ يَحْشُرُ السَّحَرَةَ الْمَاهِرِينَ فِي سِحْرِهِمْ، وَكَانَ السِّحْرُ إِذْ ذَاكَ مُتَوَفِّرًا، وَعِلْمُهُ عِلْمًا مَرْغُوبًا فِيهِ، فَجَمَعَ خَلْقًا كَثِيرًا مِنَ السَّحَرَةِ، ثُمَّ أَتَىٰ كُلٌّ مِنْهُمَا لِلْمَوْعِدِ، وَاجْتَمَعَ النَّاسُ لِلْمَوْعِدِ ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ أي الميعاد.

[٦١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ﴾ يَعْنِي لِلسَّحَرَةِ الَّذِينَ جَمَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَكَانُوا اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ سَاحِرًا مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ حَبْلٌ وَعَصًا، ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَىٰ اللهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾ أَيْ يُهْلِكَكُمْ بِعُقُوبَةٍ هَلَاكًا لَا بَقِيَّةَ لَهُ، وَقَالَ قَتَادَةُ. فَيَسْتَأْصِلَكُمْ، وَالسُّحْتُ فِي اللُّغَةِ أَصْلُهُ الْهَلَاكُ وَالشِّدَّةُ، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾ أَيْ خَسِرَ وَهَلَكَ، وَخَابَ مِنَ الرَّحْمَةِ وَالثَّوَابِ مَنِ ادَّعَىٰ عَلَىٰ اللهِ مَا لَمْ يَأْذَنْ به.

[٦٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أَيْ تَنَاظَرُوا وَتَشَاوَرُوا، يَعْنِي السَّحَرَةَ فِي أَمْرِ مُوسَىٰ سِرًّا مِنْ فِرْعَوْنَ. قَالَ الْكَلْبِيُّ: قَالُوا سِرًّا: إِنْ غَلَبَنَا مُوسَىٰ اتَّبَعْنَاهُ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: لَمَّا قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ: لَا تَفْتَرُوا عَلَىٰ اللهِ كَذِبًا،

قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ما هذا بقول السحر. ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾ أَيِ الْمُنَاجَاةَ يَكُونُ مَصْدَرًا وَاسْمًا.

[٦٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا﴾ يعني السحرة وَأَسَرَّ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ يَتَنَاجَوْنَ، ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ يعني موسىٰ وهارون، ساحِرَانِ عَالِمَانِ خَبِيرَانِ بِصِنَاعَةِ السِّحْرِ، يُرِيدَانِ فِي هَذَا الْيَوْمِ أَنْ يَغْلِبَاكُمْ وَقَوْمَكُمْ وَيَسْتَوْلِيَا عَلَىٰ الناس، وتتبعهما العامة ويقاتلا فرعون وجنوده فينصرا عَلَيْهِ، ﴿يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ مِصْرَ، ﴿بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ أَيْ وَيَسْتَبِدَّا بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ وَهِيَ السِّحْرُ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا مُعَظَّمِينَ بِسَبَبِهَا، لَهُمْ أَمْوَالٌ وَأَرْزَاقٌ عليها قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي بِسَرَاةِ قَوْمِكُمْ وَأَشْرَافِكُمْ، يُقَالُ هَؤُلَاءِ طَرِيقَةُ قومهم أي أشرافهم، والمثلىٰ تَأْنِيثُ الْأَمْثَلِ، وَهُوَ الْأَفْضَلُ، حَدِيثُ الشَّعْبِيِّ عَنْ عَلِيٍّ، قَالَ: يَصْرِفَانِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِمَا. قَالَ قَتَادَةُ: طريقتهم المثلىٰ كان بنو إسرائيل يومئذ أَكْثَرَ الْقَوْمِ عَدَدًا وَأَمْوَالًا، وَقِيلَ: بطريقتكم المثلىٰ أن بِسُنَّتِكُمْ وَدِينِكُمُ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ، والمثلىٰ نعت الطريق، تَقُولُ الْعَرَبُ: فُلَانٌ عَلَىٰ الطَّرِيقَةِ المثلىٰ، يَعْنُونَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ الْمُسْتَقِيمِ.

[٦٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ أَيِ اعْزِمُوا كُلُّكُمْ عَلَىٰ كَيْدِهِ مجتمعين له لا تَخْتَلِفُوا فَيَخْتَلَّ أَمْرُكُمْ، ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ أَيِ اجْتَمِعُوا كُلُّكُمْ صَفًّا وَاحِدًا، وَأَلْقُوا مَا فِي أَيْدِيكُمْ مَرَّةً وَاحِدَةً، لِتَبْهَرُوا الْأَبْصَارَ وَتَغْلِبُوا هَذَا وَأَخَاهُ، وَقَالَ قَوْمٌ: أَيْ مُصْطَفِّينَ مُجْتَمِعِينَ لِيَكُونَ أَشَدَّ لِهَيْبَتِكُمْ، وَقَالَ أَبُو عبدة: الصف

المجتمع، وَيُسَمَّىٰ الْمُصَلَّىٰ صَفًّا مَعْنَاهُ ثُمَّ ائتوا المكان الموعد صَفًّا، ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾ أَيْ مَنْ غَلَبَ. وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ قَوْلِ السَّحَرَةِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ. وَقِيلَ: من قول فرعون لهم.

[٦٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ﴾ يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنِ السَّحَرَةِ حِينَ تَوَافَقُوا هُمْ وَمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُمْ قَالُوا لِمُوسَىٰ ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ﴾: أَيْ أنت أولاً، ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ أَيْ: اخْتَرْ إِلْقَاءَكَ أَوَّلًا أَوْ إِلْقَاءَنَا، أَوِ الْأَمْرُ: إِلْقَاؤُكَ أَوْ إِلْقَاؤُنَا .

[٦٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُواْ﴾: أي أنتم أولاً لنرىٰ مَاذَا تَصْنَعُونَ مِنَ السِّحْرِ، وَلِيَظْهَرَ لِلنَّاسِ جَلِيَّةً أَمْرُهُمْ، ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾، وَفِي الْآيَةِ الأُخْرىٰ أَنَّهُمْ لما ألقوا ﴿قالوا بِعِزَّةِ فِرْعَونَ إِنَّا لغالبون﴾،وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾، وقال ههنا: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾، حَتَّىٰ تَظُنَّ أَنَّهَا تَسْعَىٰ؛ أَيْ تَمْشِي، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا لَطَخُوا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ بِالزِّئْبَقِ، فَلَمَّا أَصَابَهُ حَرُّ الشَّمْسِ انْهَمَسَتْ وَاهْتَازَتْ، فَظَنَّ مُوسَىٰ أَنَّهَا تَقْصِدُهُ ، وَفِي الْقِصَّةِ أَنَّهُمْ لَمَّا أَلْقَوُا الْحِبَالَ وَالْعِصِيَّ أَخَذُوا أَعْيُنَ النَّاسِ فَرَأَىٰ مُوسَىٰ وَالْقَوْمُ كَأَنَّ الْأَرْضَ امْتَلَأَتْ حَيَّاتٍ، وَكَانَتْ قَدْ أَخَذَتْ مَيْلًا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَرَأَوْا أَنَّهَا تَسْعَىٰ.

[٦٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ﴾ أَيْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ نَظِيرُهُ عِنْدَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿نكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ وَقِيلَ: أَضْمَرَ فِي نَفْسِهِ خَوْفًا، وَأَصْلُ ﴿خِيفَةً﴾ خِوْفَةً، فَانْقَلَبَتِ الْوَاوُ يَاءً لِانْكِسَارِ الْخَاءِ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: أَيْ خَافَ علىٰ الناس أن يفتنوا بِسِحْرِهِمْ، وَيَغْتَرُّوا بِهِمْ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَ مَا في يمنيه.

[٦٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْنَا﴾ لِمُوسَىٰ عليه السلام ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ﴾ أَيِ الْغَالِبُ، أي: ستعلو عليهم وتقهرهم، ويذلوا لك ويخضعوا، فلَا تُبَالِ بِكَثْرَةِ حِبَالِهِمْ وَعِصِيِّهِمْ.

[٦٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ يَعْنِي الْعَصَا، فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا صَنَعُوا، وَذَلِكَ أَنَّهَا صَارَتْ ثُعْبَانًا عَظِيمًا هَائِلًا ذَا عُيُونٍ وَقَوَائِمَ وَعُنُقٍ وَرَأْسٍ وَأَضْرَاسٍ، فَجَعَلَتْ تَتْبَعُ تِلْكَ الْحِبَالَ وَالْعِصِيَّ حَتَّىٰ لَمْ تُبْقِ مِنْهَا شَيْئًا إِلَّا تَلَقَّفَتْهُ وَابْتَلَعَتْهُ، وَالسَّحَرَةُ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَىٰ ذَلِكَ عِيَانًا جَهْرَةً، نَهَارًا ضَحْوَةً. فَقَامَتِ الْمُعْجِزَةُ، وَاتَّضَحَ الْبُرْهَانُ، وَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ السِّحْرُ ﴿تَلْقَفْ﴾ تلتقم وتبتلع، وَاللَّقْفُ الْأَخْذُ بِسُرْعَةٍ، يُقَالُ: لَقِفْتُ الشَّيْءَ (بِالْكَسْرِ) أَلْقَفُهُ لَقْفًا، وَتَلَقَّفْتُهُ أَيْضًا أَيْ تَنَاوَلْتُهُ بِسُرْعَةٍ ، عَنْ يَعْقُوبَ: يُقَالُ رَجُلٌ لَقِفٌ ثَقِفٌ أَيْ خَفِيفٌ حَاذِقٌ، ﴿مَا صَنَعُوا﴾ أَيِ الَّذِي صَنَعُوهُ. ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا﴾ أي الذي صنعوا، (كَيْدُ ساحر﴾ أي حيلة ساحر ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ أَيْ لَا يَفُوزُ وَلَا يَنْجُو حَيْثُ أَتَىٰ مِنَ الْأَرْضِ وقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا يَسْعَدُ حَيْثُ كَانَ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ حَيْثُ احْتَالَ.

[٧٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً﴾ لَمَّا رَأَوْا مِنْ عَظِيمِ الْأَمْرِ وَخَرْقِ الْعَادَةِ فِي الْعَصَا، فَإِنَّهَا ابْتَلَعَتْ جَمِيعَ مَا احْتَالُوا بِهِ مِنَ الْحِبَالِ وَالْعِصِيِّ، ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾ .

[٧١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ﴾ إِنْكَارٌ مِنْهُ عَلَيْهِمْ، أَيْ تَعَدَّيْتُمْ وَفَعَلْتُمْ مَا لَمْ آمُرْكُمْ بِهِ، ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ أَيْ رَئِيسُكُمْ فِي التَّعْلِيمِ، وَإِنَّمَا غَلَبَكُمْ لِأَنَّهُ أَحْذَقُ بِهِ منكم ، وإنما أراد فرعون بقول هَذَا لِيُشْبِهَ عَلَىٰ النَّاسِ حَتَّىٰ لَا يَتَّبِعُوهُمْ فَيُؤْمِنُوا كَإِيمَانِهِمْ، وَإِلَّا فَقَدْ عَلِمَ فِرْعَوْنُ أَنَّهُمْ لَمْ يَتَعَلَّمُوا مِنْ مُوسَىٰ، بَلْ قَدْ عَلِمُوا السِّحْرَ قَبْلَ قُدُومِ مُوسَىٰ وَوِلَادَتِهِ ، ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ يعني عَلَىٰ جُذُوعِ النَّخْلِ، زعم فرعون أنهم مفسدون في الأرض، وسيصنع بهم ما يصنع بالمفسدين، من تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، أي: اليد اليمنىٰ والرجل اليسرىٰ، ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا﴾ يعني علىٰ إيمانكم به أنا أَوْ رَبُّ مُوسَىٰ عَلَىٰ تَرْكِ الإيمان به، ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ يعني أدوم.

[٧٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا﴾ يعني السحرة، ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ﴾ لَنْ نَخْتَارَكَ، ﴿عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ يَعْنِي الدَّلَالَاتِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ مِنَ الْيَقِينِ وَالْعِلْمِ، وقَالَ مُقَاتِلٌ: يَعْنِي الْيَدَ الْبَيْضَاءَ وَالْعَصَا، وَقَالَ عِكْرِمَةُ وَغَيْرُهُ: لَمَّا سَجَدُوا أَرَاهُمُ اللهُ فِي سُجُودِهِمْ مَنَازِلَهُمْ فِي الْجَنَّةِ، وَقِيلَ: كَانَ اسْتِدْلَالُهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا لَوْ كَانَ هَذَا سِحْرًا فَأَيْنَ حِبَالُنَا وَعِصِيُّنَا، وَقِيلَ: مِنَ الْبَيِّنَاتِ يَعْنِي مِنَ اليقين

والعلم ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ يعني لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ اللهِ الَّذِي فَطَرَنَا، أَيْ خَلَقَنَا ، وَقِيلَ: هُوَ قَسَمٌ أَيْ وَاللهِ لَنْ نُؤْثِرَكَ، ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ يعني فَاصْنَعْ مَا أَنْتَ صَانِعٌ، وَقِيلَ: فَاحْكُمْ مَا أَنْتَ حَاكِمٌ، أَيْ مِنَ الْقَطْعِ وَالصَّلْبِ ، ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ يعني أَمْرُكَ وَسُلْطَانُكَ فِي الدُّنْيَا وَسَيَزُولُ عَنْ قَرِيبٍ، قال القرطبي : وَالْمَعْنَىٰ: إِنَّمَا تَقْضِي فِي مَتَاعِ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، أَوْ وَقْتَ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

[٧٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا﴾ أَيْ صَدَّقْنَا بِاللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَمَا جَاءَنَا بِهِ مُوسَىٰ، ﴿لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا﴾ يُرِيدُونَ الشِّرْكَ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ، ﴿وَما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ ، أَيْ لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا مِنَ السِّحْرِ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ، فَإِنْ قِيلَ كَيْفَ قَالُوا هَذَا وَقَدْ جَاءُوا مُخْتَارِينَ يَحْلِفُونَ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ أَنَّ لَهُمُ الْغَلَبَةَ، قِيلَ: رُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ: كَانَ فِرْعَونُ يُكْرِهُ قَوْمًا عَلَىٰ تَعَلُّمِ السِّحْرِ لِكَيْلَا يَذْهَبَ أَصْلُهُ وَقَدْ كَانَ أَكْرَهَهُمْ فِي الِابْتِدَاءِ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: كَانَتِ السَّحَرَةُ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ، اثْنَانِ مِنَ الْقِبْطِ، وَسَبْعُونَ مِنْ بَنِي إسرائيل، كان عدو الله فِرْعَوْنُ أَكْرَهَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ تَعَلُّمِ السِّحْرِ، فذلك قوله: ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ قال عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبَانَ: قَالَتِ السَّحَرَةُ لِفِرْعَوْنَ: أَرِنَا مُوسَىٰ إِذَا نَامَ، فَأَرَاهُمْ مُوسَىٰ نَائِمًا وَعَصَاهُ تَحْرُسُهُ، فَقَالُوا لِفِرْعَوْنَ: إِنَّ هَذَا لَيْسَ بِسَاحِرٍ إِنَّ السَّاحِرَ إِذَا نَامَ بَطَلَ سِحْرُهُ، فَأَبَىٰ عَلَيْهِمْ إِلَّا أَنْ يَتَعَلَّمُوا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ ، قوله : ﴿وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أَيْ ثَوَابُهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: خَيْرٌ منك ثوابًا وأبقىٰ عذابًا، وَقِيلَ: اللهُ خَيْرٌ

لَنَا إِنْ أَطَعْنَاهُ، وَأَبْقَىٰ عَذَابًا مِنْكَ إِنْ عَصَيْنَاهُ، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: خَيْرٌ مِنْكَ ثَوَابًا إِنْ أُطِيعَ وَأَبْقَىٰ مِنْكَ عَذَابًا إِنْ عُصِيَ وَهَذَا جَوَابٌ لِقَوْلِهِ: قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ﴾: أَيْ لَنَا مِنْكَ إِنْ أُطِيعَ ﴿وَأَبْقَىٰ﴾: أَيْ منك عذاباً إن عصي، وَالظَّاهِرُ أَنَّ فِرْعَوْنَ لَعَنَهُ اللهُ صَمَّمَ عَلَىٰ ذلك وفعله بهم رحمة لَهُم مِّنَ اللهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ مِنَ السلف: أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء بررة، ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ يَعْنِي بِزَعْمِهِ هُوَ أَوِ اللهِ، وَأَنَّهُ أَشَدُّ عَذَابًا مِنَ اللهِ وَأَبْقَىٰ، قَلْبًا لِلْحَقَائِقِ وَتَرْهِيبًا لِمَنْ لَا عَقْلَ لَهُ؛ وَلِهَذَا لَمَّا عَرَفَ السَّحَرَةُ الْحَقَّ وَرَزَقَهُمُ اللهُ مِنَ الْعَقْلِ مَا يُدْرِكُونَ بِهِ الْحَقَائِقَ، أَجَابُوهُ بِقَوْلِهِمْ:

[٧٤] : ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ :الظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّ هَذَا مِنْ تَمَامِ مَا وَعَظَ بِهِ السَّحَرَةُ لِفِرْعَوْنَ، يُحَذِّرُونَهُ مِنْ نِقْمَةِ اللهِ وَعَذَابِهِ الدَّائِمِ السَّرْمَدِيِّ، وَيُرَغِّبُونَهُ فِي ثَوَابِهِ الْأَبَدِيِّ الْمُخَلَّدِ، فَقَالُوا: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾، أَيْ: يَلْقَىٰ اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ مُجْرِمٌ ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريح، ﴿وَلَا يَحْيَا﴾ حَيَاةً يَنْتَفِعُ بِهَا.

[٧٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ أَيْ وَمَنْ لَقِيَ رَبَّهُ يَوْمَ الْمَعَادِ، مُؤْمِنَ الْقَلْبِ قَدْ صَدَقَ ضَمِيرَهُ بِقَوْلِهِ وَعَمَلِهِ، ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدرجات العلىٰ﴾ أَيِ الْجَنَّةُ ذَاتُ الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَاتِ، وَالْغُرَفِ الْآمِنَاتِ والمساكن الطيبات، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**الْجَنَّةُ مِائَةُ دَرَجَةٍ، مَا**

بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَالْفِرْدَوْسُ أَعْلَاهَا دَرَجَةً، وَمِنْهَا تَخْرُجُ الْأَنْهَارُ الْأَرْبَعَةُ، وَالْعَرْشُ فَوْقَهَا، فَإِذَا سأَلتم الله فسألوه الفردوس»[1].

[٧٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي إقامة وهي بَدَلٌ مِنَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَىٰ ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَيْ مَاكِثِينَ أَبَدًا ﴿وَذَلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أَيْ طَهَّرَ نَفْسَهُ مِنَ الدَّنَسِ وَالْخَبَثِ وَالشِّرْكِ وَعَبَدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا شريك له، واتبع المرسلين فيما جاؤوا به منخير وطلب.

[٧٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾ يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا: أَنَّهُ أَمَرَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أَبَىٰ فِرْعَوْنُ أَنْ يُرْسِلَ مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَسْرِيَ بِهِمْ فِي اللَّيْلِ، وَيَذْهَبَ بِهِمْ مِنْ قَبْضَةِ فرعون، وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَىٰ لَمَّا خَرَجَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَصْبَحُوا وَلَيْسَ مِنْهُمْ بِمِصْرَ لَا دَاعٍ وَلَا مجيب، فغضب فرعون غضبـًا شديداً، وأرسل من يجمعون له الجند من بلدانه، ثُمَّ لَمَّا جَمَعَ جُنْدَهُ وَاسْتَوْثَقَ لَهُ جَيْشُهُ، ساق في طلبهم فاتبعوهم مشرقين، أَيْ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ يعني أسر بِهِمْ لَيْلًا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ﴾ يعني اجْعَلْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ بالضرب بالعصا، ﴿يَبَسًا﴾ لَيْسَ فِيهِ مَاءٌ وَلَا طِينٌ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ أَيْبَسَ لَهُمُ الطَّرِيقَ فِي الْبَحْرِ، ﴿لَا تَخَافُ دَرَكًا﴾ الدَّرْكِ- اسْمُ مَصْدَرِ الْإِدْرَاكِ،

---

(١) البخاري (٢٧٩٠).

أَيْ لَا تَخَافُ أَنْ يُدْرِكَكَ فِرْعَوْنُ. قِيلَ: لَا تَخَافُ أَنْ يُدْرِكَكَ فِرْعَوْنُ مِنْ وَرَائِكَ وَلَا تَخْشَىٰ أَنْ يُغْرِقَكَ الْبَحْرُ أَمَامَكَ.

[٧٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ فلحقهم، ﴿فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ﴾ وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَمَرَ فِرْعَوْنُ جُنُودَهُ أَنْ يَتْبَعُوا مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ، وَالْبَاءُ فِيهِ زَائِدَةٌ وَكَانَ هُوَ فِيهِمْ، ﴿فَغَشِيَهُمْ﴾ أَصَابَهُمْ، ﴿مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ أَيْ أَصَابَهُمْ مِنَ الْبَحْرِ مَا غَرَّقَهُمْ، وَكَرَّرَ عَلَىٰ مَعْنَىٰ التَّعْظِيمِ وَالْمَعْرِفَةِ بِالْأَمْرِ، وَقِيلَ: غَشِيَهُمْ عَلَاهُمْ وسترهم من اليم ما غشيهم يريد غشيهم بَعْضُ مَاءِ الْيَمِّ لَا كُلُّهُ، وَقِيلَ: غَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غشيهم قوم موسىٰ فغرقهم وَنَجَا مُوسَىٰ وَقَوْمُهُ.

[٧٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ أي أوردهم الهلاك، بعتوّه وعناده في الدنيا والآخرة ، وما هداهم سبيل الرشاد، وَهَذَا تَكْذِيبٌ لِفِرْعَوْنَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر : ٢٩].

[٧٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ﴾ لَمَّا أَنْجَاهُمْ الله تعالىٰ مِنْ فِرْعَوْنَ قَالَ لهم هذا ليشكروه ، ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ﴾ قَالَ النَّحَّاسُ: أَيْ أَمَرْنَا مُوسَىٰ أَنْ يَأْمُرَكُمْ بِالْخُرُوجِ مَعَهُ لِيُكَلِّمَهُ بِحَضْرَتِكُمْ فَتَسْمَعُوا الْكَلَامَ ، وَقِيلَ: وَعَدَ مُوسَىٰ بَعْدَ إِغْرَاقِ فِرْعَوْنَ أَنْ يَأْتِيَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ فَيُؤْتِيهِ التَّوْرَاةَ، فَالْوَعْدُ كَانَ لِمُوسَىٰ وَلَكِنْ خُوطِبُوا بِهِ لِأَنَّ الْوَعْدَ كَانَ لِأَجْلِهِمْ ، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ فالمن حلوىٰ كانت

تتنزل عليهم مِنَ السَّمَاءِ، وَالسَّلْوَىٰ طَائِرٌ يَسْقُطُ عَلَيْهِمْ، فَيَأْخُذُونَ مِنْ كُلٍّ قَدْرَ الْحَاجَةِ إِلَىٰ الْغَدِ لُطْفًا مِنَ اللهِ وَرَحْمَةً بِهِمْ وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ:

[٨١] : ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أَيْ كُلُوا مِنْ هَذَا الرِّزْقِ الَّذِي رَزَقْتُكُمْ ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ وَلَا تَطْغَوْا فِي رِزْقِي، فَتَأْخُذُوهُ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ، وتخالفوا ما أمرتكم بِهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا تَظْلِمُوا، وقال الْكَلْبِيُّ: لَا تَكْفُرُوا النِّعْمَةَ فَتَكُونُوا ظالمين طَاغِينَ. وَقِيلَ: لَا تُنْفِقُوا فِي معصيتي، وقيل: لا تتقووا بنعمتي علىٰ معاصي ، وقيل: لا تدخروا فادخروا فتدود، ﴿فَيَحِلَّ﴾ يعني يَجِبُ، ﴿عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ هَلَكَ وَتَرَدَّىٰ فِي النَّارِ.

[٨٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾ أي: كثير المغفرة والرحمة، لمن تاب ﴿لِمَنْ تَابَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تَابَ مِنَ الشرك، ﴿وَآمَنَ﴾ من الكفر والبدعة والفسوق، وَوَحَّدَ اللهَ وَصَدَّقَهُ، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أدىٰ الفرائض، ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ قَالَ عَطَاءٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ تَوْفِيقٌ مِنَ اللهِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: يَعْنِي لَزِمَ الْإِسْلَامَ حَتَّىٰ مَاتَ عَلَيْهِ ، قَالَ الشَّعْبِيُّ: علم أن ذلك ثَوَابًا، وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: تَعَلَّمَ الْعِلْمَ لِيَهْتَدِيَ بِهِ كَيْفَ يَعْمَلُ.

[٨٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ﴾ أَيْ مَا حَمَلَكَ عَلَىٰ أَنْ تَسْبِقَهُمْ ﴿عَنْ قَوْمِكَ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَىٰ عليه السلام اخْتَارَ مِنْ قَوْمِهِ سَبْعِينَ رَجُلًا حَتَّىٰ يَذْهَبُوا معه إلىٰ الجبل ؛ لِيَأْخُذُوا التَّوْرَاةَ ، فَسَارَ بِهِمْ ثُمَّ عَجَّلَ مُوسَىٰ مِنْ بَيْنِهِمْ شَوْقًا

إِلَىٰ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَخَلَّفَ السَّبْعِينَ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَتْبَعُوهُ إِلَىٰ الجبل فقال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسَىٰ﴾.

[٨٤] : ﴿قَالَ﴾ موسىٰ عليه السلام مُجِيبًا لِرَبِّهِ تَعَالَىٰ: ﴿هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي﴾ يعني هُمْ بِالْقُرْبِ مِنِّي يَأْتُونَ مِنْ بَعْدِي ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ لِتَزْدَادَ رِضًا.

[٨٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ أَيِ اخْتَبَرْنَاهُمْ وَامْتَحَنَّاهُمْ بِأَنْ يَسْتَدِلُّوا عَلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، أَخْبَرَ تَعَالَىٰ نَبِيَّهُ مُوسَىٰ بِمَا كَانَ بَعْدَهُ مِنَ الْحَدَثِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَعِبَادَتِهِمُ الْعَجَلَ الذي عمله لهم ذلك السامري،مِنْ بَعْدِكَ: أَيْ مِنْ بَعْدِ انْطِلَاقِكَ إِلَىٰ الْجَبَلِ، ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ أَيْ دَعَاهُمْ إِلَىٰ الضَّلَالَةِ أَوْ هُوَ سَبَبُهَا، وَقِيلَ: فَتَنَّاهُمْ أَلْقَيْنَاهُمْ فِي الْفِتْنَةِ: أَيْ زَيَّنَّا لَهُمْ عِبَادَةَ الْعِجْلِ، وَأَضَافَهُ إِلَىٰ السَّامِرِيِّ لِأَنَّهُمْ ضَلُّوا بِسَبَبِهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: كَانَ السَّامِرِيُّ مِنْ قَوْمٍ يَعْبُدُونَ الْبَقَرَ، فَوَقَعَ بِأَرْضِ مِصْرَ فَدَخَلَ فِي دِينِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِظَاهِرِهِ، وَفِي قَلْبِهِ مَا فِيهِ مِنْ عِبَادَةِ الْبَقَرِ.

[٨٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ أي: يجمع بين الغضب والحزن علىٰ ما صدر، والاسيف الحزين ومنه قَوْلُ عَائِشَةَ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ، فَالأَسِيفُ: سَرِيعُ الْحُزْنِ وَالْبُكَاءِ، وَيُقَالُ: الأَسِيفُ: الْمَحْزُونُ كَالْمَقْهُورِ، وَمِنْهُ سُمِّيَ الْعَبْدُ أَسِيفًا، ﴿قَالَ يا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ وَعَدَهُمْ عَزَّ وَجَلَّ الْجَنَّةَ إِذَا أَقَامُوا عَلَىٰ طَاعَتِهِ، وَوَعَدَهُمْ أَنَّهُ يُسْمِعُهُمْ كَلَامَهُ فِي

التَّوْرَاةِ عَلَىٰ لِسَانِ مُوسَىٰ، لِيَعْمَلُوا بِمَا فِيهَا فَيَسْتَحِقُّوا ثَوَابَ عَمَلِهِمْ. ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ مُدَّةُ مُفَارَقَتِي إِيَّاكُمْ، ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أَيْ يَجِبُ وَيَنْزِلُ. وَالْغَضَبُ الْعُقُوبَةُ وَالنِّقْمَةُ. قال القرطبي : أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَفْعَلُوا فِعْلًا يَكُونُ سَبَبَ حُلُولِ غَضَبِ اللهِ بِكُمْ، لِأَنَّ أَحَدًا لَا يَطْلُبُ غَضَبَ اللهِ، بَلْ قَدْ يَرْتَكِبُ مَا يَكُونُ سَبَبًا لِلْغَضَبِ، ﴿فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ وَكَانَ إِخْلَافُهُمْ مَوْعِدَهُ عُكُوفَهُمْ عَلَىٰ الْعِجْلِ، وَتَرْكَهُمُ السَّيْرَ عَلَىٰ أَثَرِ مُوسَىٰ لِلْمَوْعِدِ الَّذِي كَانَ اللهُ وَعَدَهُمْ، وَقَوْلَهُمْ لِهَارُونَ إِذْ نَهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ.

[٨٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ أَيْ: وَنَحْنُ نَمْلِكُ أَمْرَنَا، وَقِيلَ: بِاخْتِيَارِنَا، وقال ابن عباس: بأمرنا، وقال قتادة: بطاقتنا ، والمقصود: اعتراف منهم بالضعف وحصول الخطأ، والوقوع في الفتنة ، ﴿وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا﴾ أَيْ جَعَلُونَا نَحْمِلُهَا وَكُلِّفْنَا حَمْلَهَا، ﴿أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ مِنْ حُلِي قَوْمِ فِرْعَوْنَ، سَمَّاهَا أَوْزَارًا لِأَنَّهُمْ أَخَذُوهَا عَلَىٰ وَجْهِ الاستارة فلم يردها، وَذَلِكَ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانُوا قَدِ اسْتَعَارُوا حُلِيًّا مِنَ الْقِبْطِ وَكَانَ ذَلِكَ مَعَهُمْ حِينَ خَرَجُوا مِنْ مِصْرَ. وَقِيلَ: إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَمَّا أَغْرَقَ فِرْعَوْنَ نَبَذَ الْبَحْرُ حُلِيَّهُمْ فَأَخَذُوهَا وَكَانَتْ غَنِيمَةً ، ولما تَكُنِ الْغَنِيمَةُ حَلَالًا لَهُمْ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، فَسَمَّاهَا أَوْزَارًا لِذَلِكَ، ﴿فَقَذَفْنَاهَا﴾ قِيلَ: إِنَّ السَّامِرِيَّ قَالَ لَهُمُ احْفِرُوا حُفَيْرَةً فَأَلْقُوهَا فِيهَا حَتَّىٰ يَرْجِعَ مُوسَىٰ، قَالَ السُّدِّيُّ: قَالَ لَهُمْ هَارُونُ: إِنَّ تِلْكَ غَنِيمَةٌ لَا تَحِلُّ فَاحْفِرُوا حُفَيْرَةً فَأَلْقُوهَا فِيهَا حَتَّىٰ يَرْجِعَ مُوسَىٰ، فَيَرَىٰ رَأْيَهُ فِيهَا،

فَفَعَلُوا. قَوْلُهُ: ﴿فَقَذَفْنَاهَا﴾ وَسُمِّيَتْ أَوْزَارًا بِسَبَبِ أَنَّهَا كَانَتْ آثَامًا، أَيْ لَمْ يَحِلَّ لَهُمْ أَخْذُهَا وَلَمْ تَحِلَّ لَهُمُ الْغَنَائِمُ، وَأَيْضًا فَالْأَوْزَارُ هِيَ الْأَثْقَالُ فِي اللُّغَةِ ، ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ مَا مَعَهُ مِنَ الْحُلِيِّ فِيهَا، قَالَ قَتَادَةُ: إِنَّ السَّامِرِيَّ قَالَ لَهُمْ حِينَ اسْتَبْطَأَ الْقَوْمُ مُوسَىٰ عليه السلام : إِنَّمَا احْتَبَسَ عَلَيْكُمْ مِنْ أَجْلِ مَا عِنْدَكُمْ مِنَ الْحُلِيِّ، فَجَمَعُوهُ وَدَفَعُوهُ إِلَىٰ السَّامِرِيِّ فَرَمَىٰ بِهِ فِي النَّارِ وَصَاغَ لَهُمْ مِنْهُ عِجْلًا، ثُمَّ أَلْقَىٰ عَلَيْهِ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ فَرَسِ الرَّسُولِ وَهُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ. فَلَمَّا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ الْقَبْضَةَ صَارَ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ. وَالْخُوَارُ صَوْتُ الْبَقَرِ.

[٨٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ﴾ الْخُوَارُ: صَوْتُ الْبَقَرِ ، أَيْ: أَخْرَجَ لَهُمْ مِنْ تِلْكَ الْحُلِيِّ الْمُذَابَةِ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ -أَيْ صَوْتُ عِجْلٍ-، وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ صَنَعَ مِنْهُ شَكْلَ عِجْلٍ يَخُورُ كَمَا يَخُورُ الْعِجْلُ، وَجَعَلَ فِيهِ مَنَافِذَ وَمَخَارِقَ، بِحَيْثُ تَدْخُلُ فِيهَا الرِّيَاحُ فَيَخْرُجُ مِنْ جَرَّاءِ ذَلِكَ صَوْتٌ يُشْبِهُ صَوْتَ الْعِجْلِ ، ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ أَيْ نَسِيَ أَنْ يُذَكِّرَكُمْ أن هذا إلهكم، فَعَكَفُوا عَلَيْهِ وَأَحَبُّوهُ حُبًّا لَمْ يُحِبُّوا شَيْئًا قط، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ رَدًّا عَلَيْهِمْ وَتَقْرِيعًا لَهُمْ وبيانـًا لفضحيتهم وَسَخَافَةِ عُقُولِهِمْ فِيمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ.

[٨٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ أي العجل، فلا يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُجِيبُهُمْ إِذَا سَأَلُوهُ، وَلَا إِذَا خَاطَبُوهُ، ولا يعطيهم إذا دَعَوْهُ، ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي في دنياهم ولا في أخراهم ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا وَاللهِ مَا كَانَ خُوَارُهُ إِلَّا أَنْ يَدْخُلَ الرِّيحُ فِي دُبُرِهِ فيخرج من فمه فيسمع له صوت، قال

ابن عباس : وَحَاصِلُ مَا اعْتَذَرَ بِهِ هَؤُلَاءِ الْجَهَلَةُ أَنَّهُمْ تَوَرَّعُوا عَنْ زِينَةِ الْقِبْطِ فَأَلْقَوْهَا عَنْهُمْ، وَعَبَدُوا الْعِجْلَ فَتَوَرَّعُوا عَنِ الْحَقِيرِ وَفَعَلُوا الْأَمْرَ الْكَبِيرَ.

[٩٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل رجوع موسىٰ، ﴿يا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾ ابْتُلِيتُمْ بِالْعِجْلِ، يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَمَّا كَانَ مِنْ نَهْيِ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لهم عن عبادتهم الْعِجْلِ، وَإِخْبَارِهِ إِيَّاهُمْ إِنَّمَا هَذَا فِتْنَةٌ لَكُمْ، وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ، ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي﴾ عَلَىٰ دِينِي فِي عِبَادَةِ اللهِ، ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ فِي تَرْكِ عِبَادَةِ الْعِجْلِ.

[٩١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ﴾ أَيْ لَنْ نَزَالَ مُقِيمِينَ عَلَىٰ عِبَادَةِ الْعِجْلِ ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ أَيْ لَا نَتْرُكَ عِبَادَتَهُ حَتَّىٰ نَسْمَعَ كَلَامَ مُوسَىٰ فِيهِ وَخَالَفُوا هَارُونَ فِي ذَلِكَ، وَحَارَبُوهُ وَكَادُوا أَنْ يَقْتُلُوهُ.

[٩٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ﴾ موسىٰ عليه السلام لأخيه ﴿يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ أَيْ أَخْطَئُوا الطَّرِيقَ وَكَفَرُوا .

[٩٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِي﴾ أَيْ: أَنْ تَتَّبِعَنِي وَ (لَا) صِلَةٌ أَيْ تَتَّبِعَ أَمْرِي وَوَصِيَّتِي، يَعْنِي: هَلَّا قَاتَلْتَهُمْ وَقَدْ عَلِمْتَ أَنِّي لَوْ كُنْتُ فِيهِمْ لِقَاتَلْتُهُمْ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ، وَقِيلَ: أَنْ لَا تَتَّبِعَنِي، أَيْ: مَا مَنَعَكَ مِنَ اللُّحُوقِ بِي وَإِخْبَارِي بِضَلَالَتِهِمْ، فَتكُونَ مفارقتك إياهم تقريعًا وزجرًا لَهُمْ عَمَّا أَتَوْهُ، ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ أي خالفت أمري.

[٩٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ﴾ ترفَّق له بذكر الأمِّ، مع أنه شقيقُه لأبوَيه، لأنّ ذكر الأم هاهنا أرَو وأبلَغ في الحنوِّ والعَطْف ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي﴾ أَيْ بِشَعْرِ رَأْسِي ، قال ابْنُ عَبَّاسٍ: أَخَذَ شَعْرَهُ بِيَمِينِهِ وَلِحْيَتَهُ بِيَسَارِهِ، لِأَنَّ الْغَيْرَةَ فِي اللهِ مَلَكَتْهُ، ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾ لَوْ أَنْكَرْتُ عَلَيْهِمْ لَصَارُوا حِزْبَيْنِ يَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، ﴿أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أَيْ خَشِيتُ إِنْ فَارَقْتُهُمْ وَاتَّبَعْتُكَ صَارُوا أَحْزَابًا يَتَقَاتَلُونَ، فَتَقُولُ أَنْتَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ وَلَمْ تَحْفَظْ وَصِيَّتِي حِينَ قُلْتُ لَكَ: اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي، وَأَصْلِحْ أَيِ ارْفُقْ بِهِمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَكَانَ هَارُونُ هائبًا لموسىٰ مطيعًا له ، ثُمَّ أَقْبَلَ مُوسَىٰ عَلَىٰ السَّامِرِيِّ.

[٩٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ﴾ أي مَا أَمْرُكَ وَشَأْنُكَ؟ وَمَا الَّذِي حملك علىٰ ما صنعت؟ قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: وَهِيَ كَلِمَةٌ أَكْثَرُ مَا تُسْتَعْمَلُ فِي الْمَكَارِهِ، لِأَنَّ الْخَطْبَ هُوَ الشَّأْنُ الْمَكْرُوهُ ، فَالْمَعْنَىٰ: مَا هِيَ مُصِيبَتُكَ الَّتِي أَصَبْتَ بِهَا الْقَوْمَ وَمَا غَرَضُكَ مِمَّا فَعَلْتَ ، ﴿يا سَامِرِيُّ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: كَانَ السَّامِرِيُّ عَظِيمًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ قَبِيلَةٍ يُقَالُ لَهَا سَامِرَةُ وَلَكِنَّ عَدُوَّ اللهِ نَافَقَ بَعْدَ مَا قَطَعَ الْبَحْرَ مَعَ مُوسَىٰ، فَلَمَّا مَرَّتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِالْعَمَالِقَةِ وَهُمْ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ: ﴿قالُوا يَا مُوسَىٰ اجْعَلْ لَنا إِلهًا كَما لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] فَاغْتَنَمَهَا السَّامِرِيُّ وَعَلِمَ أَنَّهُمْ يَمِيلُونَ إِلَىٰ عِبَادَةِ الْعِجْلِ فَاتَّخَذَ الْعَجِلَ.

[٩٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ رَأَيْتُ مَا لَمْ يَرَوْا وَعَرَفْتُ مَا لَمْ يَعْرِفُوا، قَالَ أمير المؤمنين عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لَمَّا نَزَلَ جِبْرِيلُ لِيَصْعَدَ بِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلىٰ السماء، أبصره السَّامِرِيُّ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ فَقَبَضَ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الْفَرَسِ ، ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ أَيْ مِنْ تُرَابِ أَثَرِ فَرَسِ جبريل، ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أَيْ أَلْقَيْتُهَا فِي فَمِ الْعِجْلِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا خَارَ لِهَذَا لِأَنَّ التُّرَابَ كَانَ مَأْخُوذًا مِنْ تَحْتِ حَافِرِ فَرَسِ جِبْرِيلَ، فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ عَرَفَهُ وَرَأَىٰ جِبْرِيلَ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ النَّاسِ؟ قِيلَ: لِأَنَّ أُمَّهُ لَمَّا وَلَدَتْهُ فِي السَّنَةِ الَّتِي يُقْتَلُ فِيهَا الْبَنُونَ وَضَعَتْهُ فِي الْكَهْفِ حَذَرًا عَلَيْهِ فَبَعَثَ اللهُ جِبْرِيلَ لِيُرَبِّيَهُ لِمَا قَضَىٰ عَلَىٰ يَدَيْهِ مِنَ الْفِتْنَةِ، ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ﴾ أي زينت، وَالتَّسْوِيلُ: تَزْيِينُ مَا لَيْسَ بِزَيْنٍ. ﴿لِي نَفْسِي﴾ الْمَعْنَىٰ: أَنَّهُ اعْتَرَفَ أَمَامَ مُوسَىٰ بِصُنْعِهِ الْعِجْلَ وَاعْتَرَفَ بِأَنَّهُ جَهِلَ فَضَلَّ، وَاعْتَذَرَ بِأَنَّ ذَلِكَ سَوَّلَتْهُ لَهُ نَفْسُهُ.

[٩٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ﴾ أَيْ مَا دُمْتَ حَيًّا، ﴿أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أَيْ لَا تُخَالِطْ أَحَدًا وَلَا يُخَالِطْكَ أَحَدٌ وَأَمَرَ مُوسَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ لَا يُخَالِطُوهُ وَلَا يَقْرَبُوهُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا مساس لك ولولدك، والمساس مِنَ الْمُمَاسَّةِ مَعْنَاهُ لَا يَمَسُّ بَعْضُنَا بَعْضًا، فَصَارَ السَّامِرِيُّ يَهِيمُ فِي الْبَرِّيَّةِ مَعَ الْوُحُوشِ وَالسِّبَاعِ لَا يَمَسُّ أَحَدًا وَلَا يَمَسُّهُ أحد، فعاقبه اللهُ بِذَلِكَ، وَكَانَ إِذَا لَقِيَ أَحَدًا يَقُولُ: لَا مِسَاسَ، أَيْ لَا تَقْرَبْنِي وَلَا تَمَسَّنِي، وَقِيلَ: كَانَ إِذَا مَسَّ أَحَدًا أَوْ مَسَّهُ أَحَدٌ حُمَّا جَمِيعًا حَتَّىٰ أَنَّ بَقَايَاهُمُ الْيَوْمَ يَقُولُونَ ذَلِكَ، وَإِذَا

مَسَّ أَحَدٌ مِنْ غَيْرِهِمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حُمَّا جَمِيعًا فِي الوقت، قال ابن عاشور : لَمْ يَزِدْ مُوسَىٰ فِي عِقَابِ السَّامِرِيِّ عَلَىٰ أَنْ طرده مِنَ الْأُمَّةِ، إِمَّا لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ فَلَمْ يَكُنْ بِالَّذِي تَجْرِي عَلَيْهِ أَحْكَامُ الشَّرِيعَةِ، وَإِمَّا لِأَنَّ مُوسَىٰ أَعْلَمُ بِأَنَّ السَّامِرِيَّ لَا يُرْجَىٰ صَلَاحُهُ، فَيَكُونُ مِمَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ، ﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ يا سامري، ﴿مَوْعِدًا﴾ لعذابك، ﴿لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ وَمَعْنَاهُ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُكَافِئُكَ عَلَىٰ فِعْلِكَ وَلَا تفوته، ﴿وَانْظُرْ إِلَىٰ إِلَهِكَ﴾ بِزَعْمِكَ، ﴿الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أَيْ ظَلْتَ وَدُمْتَ عَلَيْهِ مُقِيمًا تَعْبُدُهُ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: ظَلْتُ أَفْعَلُ كَذَا بِمَعْنَىٰ ظَلَلْتُ ومستُ بِمَعْنَىٰ مسستُ، وَالْعُكُوفُ: مُلَازَمَةُ الْعِبَادَةِ ﴿ لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾ أي نحرقه بالنار ، وَالتَّحْرِيقُ: الْإِحْرَاقُ الشَّدِيدُ، أَيْ لَنُحَرِّقَنَّهُ إِحْرَاقًا لَا يَدَعُ لَهُ شَكْلًا. وَأَرَادَ بِهِ أَنْ يُذِيبَهُ بِالنَّارِ ﴿ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ﴾ لننشره وَالنَّسْفُ نَفْضُ الشَّيْءِ لِيَذْهَبَ بِهِ الرِّيحُ وَهُوَ التَّذْرِيَةُ، وَالْمِنْسَفُ ما ينسف به الطعام، ﴿فِي الْيَمِّ﴾ في البحر، ﴿نَسْفًا﴾ أَيْ: وَانْظُرْ إِلَىٰ ذَلِكَ الْعِجْلِ الَّذِي أَقَمْتَ عَلَىٰ عِبَادَتِهِ لَنُحَرِّقَنَّهُ بِالنَّارِ قِطْعَةً قِطْعَةً، ثُمَّ لَنَذْرِيَنَّهُ فِي الْبَحْرِ تَذْرِيَةً يَغِيبُ مَعَهَا ذَلِكَ الْوَثَنُ.

[٩٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَآ إِلَهُكُمُ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمـًا﴾ يَقُولُ لَهُمْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَيْسَ هَذَا إِلَهَكُمْ إِنَّمَا إلهكم الله الذي لَا يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ عَلَىٰ الْعِبَادِ إِلَّا هُوَ، وَلَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ، فَإِنَّ كُلَّ شيء فقير إليه عبد له، وقوله: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمـًا﴾ أَيْ هُوَ عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، أَحَاطَ بِكُلِّ شيء علمـًا وأحصىٰ كُلَّ شَيْءٍ عدداً، فلا يغرب عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ، قال قتادة:

﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ، يَقُولُ: مَلَأَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَقَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: لَا مَعْبُودَ إِلَّا وَجْهُهُ الْكَرِيمُ، فَلَا يُؤْلَهُ، وَلَا يُحَبُّ، وَلَا يُرْجَىٰ وَلَا يُخَافُ، وَلَا يُدْعَىٰ إِلَّا هُوَ، لِأَنَّهُ الْكَامِلُ الَّذِي لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ، وَالصِّفَاتُ الْعُلَىٰ، الْمُحِيطُ عِلْمُهُ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، الَّذِي مَا مِنْ نِعْمَةٍ بِالْعِبَادِ إِلَّا مِنْهُ، وَلَا يَدْفَعُ السُّوءَ إِلَّا هُوَ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَلَا مَعْبُودَ سِوَاهُ .

[٩٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ أَيْ كَمَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ خَبَرَ مُوسَىٰ، ﴿كَذلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ قَصَصًا كَذَلِكَ مِنْ أَخْبَارِ مَا قَدْ سَبَقَ، لِيَكُونَ تَسْلِيَةً لَكَ، وَلِيَدُلَّ عَلَىٰ صِدْقِكَ، ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ، وَسُمِّيَ الْقُرْآنُ ذِكْرًا، لِمَا فِيهِ من الذكر كما سمي الرسول ذكرا، لان الذِّكْرُ كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ، وَقِيلَ: ﴿آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً ﴾ أَيْ شَرَفًا.

[١٠٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أَيْ عَنِ الْقُرْآنِ فَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ وَلَمْ يَعْمَلْ بِمَا فِيهِ، ﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ أَيْ إِثْمًا عَظِيمًا وَحِمْلًا ثَقِيلًا، وَالْوِزْرُ: الْإِثْمُ. وَجعل مَحْمُولا تَمْثِيل لِمُلَاقَاةِ الْمَشَقَّةِ مِنْ جَرَّاءِ الْإِثْمِ، أَيْ مِنَ الْعِقَابِ عَنْهُ.

[١٠١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿خَالِدِينَ فِيهِ﴾ مُقِيمِينَ فِي عَذَابِ الْوِزْرِ، ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ أَيْ بِئْسَ مَا حَمَلُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْإِثْمِ كُفْرًا بِالْقُرْآنِ.

[١٠٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ أي: إذا نفخ في الصور وخرج الناس من قبورهم، كل علىٰ حسب حاله، ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ﴾ المشركين،

﴿يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ وَالزُّرْقَةُ هِيَ الْخُضْرَةُ فِي سَوَادِ الْعَيْنِ فَيُحْشَرُونَ زُرْقَ الْعُيُونِ سُودَ الْوُجُوهِ، وَقِيلَ: زُرْقًا أَيْ عُمْيًا، وقيل: عطاشًا، وَالْعَرَبُ تَتَشَاءَمُ بِزَرَقِ الْعُيُونِ وَتَذُمُّهُ، أَيْ تُشَوَّهُ خِلْقَتُهُمْ بِزُرْقَةِ عُيُونِهِمْ وَسَوَادِ وُجُوهِهِمْ.

[١٠٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أَيْ يَتَشَاوَرُونَ بَيْنَهُمْ وَيَتَكَلَّمُونَ خُفْيَةً، وَالتَّخَافُتُ: الْكَلَامُ الْخَفِيُّ مِنْ خَوْفٍ وَنَحْوِهُ. ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ﴾ أَيْ مَا مَكَثْتُمْ فِي الدُّنْيَا، وَقِيلَ: فِي الْقُبُورِ ﴿إِلَّا عَشْرًا﴾ أَيْ عَشْرَ لَيَالٍ، وَقِيلَ: فِي القبور: بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ، وَهُوَ أَرْبَعُونَ سَنَةً، لِأَنَّ الْعَذَابَ يُرْفَعُ عَنْهُمْ بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ اسْتَقْصَرُوا مُدَّةَ لَبْثِهِمْ لِهَوْلِ مَا عَايَنُوا، قال القرطبي : وَقِيلَ: أَرَادَ مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ وَهُوَ أَرْبَعُونَ سَنَةً، يُرْفَعُ الْعَذَابُ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ عَنِ الْكُفَّارِ - فِي قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ- فَيَسْتَقْصِرُونَ تِلْكَ الْمُدَّةَ، أَوْ مُدَّةَ مَقَامِهِمْ فِي الدُّنْيَا لِشِدَّةِ مَا يَرَوْنَ مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيُخَيَّلُ إِلَىٰ أَمْثَلِهِمْ أَيْ أَعْدَلِهِمْ قَوْلًا وَأَعْقَلِهِمْ وَأَعْلَمِهِمْ عِنْدَ نَفْسِهِ أَنَّهُمْ مَا لَبِثُوا إِلَّا يَوْمًا وَاحِدًا يَعْنِي لُبْثَهُمْ فِي الدُّنْيَا، عَنْ قَتَادَةَ، فَالتَّقْدِيرُ: إِلَّا مِثْلَ يَوْمٍ.

[١٠٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي يتشاورون بَيْنَهُمْ، ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أَوْفَاهُمْ عَقْلًا وَأَعْدَلُهُمْ قَوْلًا، ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ أَيْ لِقِصَرِ مُدَّةِ الدُّنْيَا فِي أَنْفُسِهِمْ يَوْمَ الْمَعَادِ، لِأَنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا وَإِنْ تَكَرَّرَتْ أَوْقَاتُهَا وَتَعَاقَبَتْ لياليها وأيامها وساعاتها كأنها يوم واحد، وَقِيلَ: نَسُوا مِقْدَارَ لَبْثِهِمْ لِشِدَّةِ مَا دَهَمَهُمْ.

[١٠٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: سَأَلَ رَجُلٌ مِنْ ثَقِيفٍ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: كَيْفَ تَكُونُ الْجِبَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآية، والنسف هو القلع يعني يَقْلَعُهَا مِنْ أَصْلِهَا وَيَجْعَلُهَا هَبَاءً منثوراً.

[١٠٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَيَذَرُهَا﴾ يعني فَيَدَعُ أَمَاكِنَ الْجِبَالِ مِنَ الْأَرْضِ، ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ يعني أَرْضًا مَلْسَاءَ مُسْتَوِيَةً لَا نَبَاتَ فيها، والقاع ما انبسط من الأرض والصفصف الْأَمْلَسُ، وقيل : الصَّفْصَفُ: الْأَرْضُ الْمُسْتَوِيَةُ الَّتِي لَا نُتُوءَ فِيهَا.

[١٠٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: انْخِفَاضًا وَارْتِفَاعًا. وَقَالَ الْحَسَنُ: الْعِوَجُ مَا انْخَفَضَ مِنَ الأرض، والأمت ما نشز من الروابي، يعني لَا تَرَىٰ وَادِيًا وَلَا رَابِيَةً. قَالَ قَتَادَةُ: لَا تَرَىٰ فِيهَا صَدْعًا وَلَا أَكَمَةً، وَالْأَمْتُ: النُّتُوءُ الْيَسِيرُ، أَيْ لَا تَرَىٰ فِيهَا وَهْدَةً وَلَا نُتُوءًا مَا. وَالْمَعْنَىٰ: لَا تَرَىٰ فِي مَكَان فسقها عِوَجًا وَلَا أمتا.

[١٠٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ أَيْ صَوْتَ الدَّاعِي الَّذِي يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ مَوْقِفِ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ إِسْرَافِيلُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يَضَعُ الصُّورَ فِي فِيهِ، أَيْ لَا مَعْدِلَ لَهُمْ عَنْهُ، أَيْ عَنْ دُعَائِهِ لَا يَزِيغُونَ وَلَا ينحرفون بل يسرعون إليه ولا يحيدون عَنْهُ ، ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ ، وَالْعِوَجُ : ضِدُّ الِاسْتِقَامَةِ يعني لدعائه، وهو من

المقلوب يعني لا عوج لهم من دُعَاءِ الدَّاعِي لَا يَزِيغُونَ عَنْهُ يمينًا ولا شمالا وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ بَلْ يَتَّبِعُونَهُ سراعًا.

[١٠٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ أَيْ: يَوْمَ يَرَوْنَ هَذِهِ الْأَحْوَالَ وَالْأَهْوَالَ، يَسْتَجِيبُونَ مُسَارِعِينَ إِلَىٰ الدَّاعِي، حَيْثُمَا أُمِرُوا بَادَرُوا إِلَيْهِ، وَلَوْ كَانَ هَذَا فِي الدُّنْيَا لَكَانَ أَنْفَعَ لَهُمْ، وَلَكِنْ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمْ، ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ يعني سكتت وذلت وخضعت، وصف الْأَصْوَاتَ بِالْخُشُوعِ وَالْمُرَادُ أَهْلُهَا، ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ يَعْنِي صَوْتَ وَطْءِ الْأَقْدَامِ إِلَىٰ المحشر، والهمس الصَّوْتُ الْخَفِيُّ كَصَوْتِ أَخْفَافِ الْإِبِلِ فِي الْمَشْيِ، والهمس: صَوْتَ أَخْفَافِ الْإِبِلِ فِي سَيْرِهَا، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ تَخَافُتُ الْكَلَامِ وَخَفْضُ الصَّوْتِ، وَرَوَىٰ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: تَحْرِيكُ الشِّفَاهِ مِنْ غير منطق.

[١٠٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ﴾ يَعْنِي لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ، ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ يعني إلا من أذن الله لَهُ أَنْ يَشْفَعَ، ﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ يَعْنِي وَرَضِيَ قَوْلَهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا يَشْفَعُ غَيْرُ الْمُؤْمِنِ.

[١١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الْكِنَايَةُ رَاجِعَةٌ إِلَىٰ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ، أَيْ يَعْلَمُ اللهُ مَا بين أيديهم وَمَا خَلْفَهُمْ وَمَا خَلَّفُوا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا. وَقِيلَ: مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مِنَ الْآخِرَةِ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ

بِهِ عِلْمًا﴾ قِيلَ: الْكِنَايَةُ تَرْجِعُ إِلَىٰ (مَا) أَيْ: هُوَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ، وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَهُ، وَقِيلَ: الْكِنَايَةُ رَاجِعَةٌ إِلَىٰ (اللهِ) لِأَنَّ عِبَادَهُ لَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا.

[١١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ﴾ أي ذَلَّتْ وَخَضَعَتْ، وَالْعَنَاءُ: الذِّلَّةُ، وَأَصْلُهُ الْأَسْرُ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلْأَسِيرِ: العَانِي، وَقَالَ طَلْقُ بْنُ حَبِيبٍ: هُوَ السُّجُودُ عَلَىٰ الْجَبْهَةِ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ، ﴿لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ قَالَ السَّعْدِيُّ: الْحَيُّ مَنْ لَهُ الْحَيَاةُ الْكَامِلَةُ الْمُسْتَلْزِمَةُ لِجَمِيعِ صِفَاتِ الذَّاتِ، كَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَالْقَيُّومُ: هُوَ الَّذِي قَامَ بِنَفْسِهِ وَقَامَ بِغَيْرِهِ، وَذَلِكَ مُسْتَلْزِمٌ لِجَمِيعِ الْأَفْعَالِ الَّتِي اتَّصَفَ بِهَا رَبُّ الْعَالَمِينَ مِنْ فِعْلِهِ مَا يَشَاءُ ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: خَسِرَ مَنْ أَشْرَكَ بِاللهِ، وَالظُّلْمُ هُوَ الشِّرْكُ، قَالَ أيضًا: خَضَعَتْ وَذَلَّتْ وَاسْتَسْلَمَتِ الْخَلَائِقُ لِجَبَّارِهَا الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، الْقَيُّومُ الَّذِي لَا يَنَامُ، وَهُوَ قَيِّمٌ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، يُدَبِّرُهُ وَيَحْفَظُهُ، فَهُوَ الْكَامِلُ فِي نَفْسِهِ، الَّذِي كُلُّ شَيْءٍ فَقِيرٌ إِلَيْهِ لَا قِوَامَ لَهُ إِلَّا بِهِ.

[١١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا يَخَافُ أن يزداد علىٰ سيئاته لا أن يُنْقَصُ مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: لَا يُنْقَصُ مِنْ ثَوَابِ حَسَنَاتِهِ وَلَا يُحْمَلُ عَلَيْهِ ذَنْبُ مُسِيْءٍ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: لَا يُؤْخَذُ بِذَنْبٍ لم يعمله وتبطل حَسَنَةٌ عَمِلَهَا، ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ أَصِلُ الْهَضْمِ النَّقْصُ وَمِنْهُ هَضْمُ الطَّعَامِ، قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: وَرَجُلٌ هَضِيمٌ

وَمُهْتَضَمٌ أَيْ مَظْلُومٌ، وَتَهَضَّمَهُ أَيْ ظَلَمَهُ، وقال الْمَاوَرْدِيُّ: وَالْفَرْقُ بَيْنَ الظُّلْمِ وَالْهَضْمِ أَنَّ الظُّلْمَ الْمَنْعَ مِنَ الْحَقِّ كُلِّهِ، وَالْهَضْمُ الْمَنْعُ مِنْ بَعْضِهِ.

[١١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أَيْ كَمَا بَيَّنَّا فِي هَذِهِ السورة، ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ يَعْنِي أَنْزَلْنَا هَذَا الْكِتَابَ، ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ يعني بلسان العرب، ﴿وَصَرَّفْنَا﴾ يعني بينا ﴿فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ أَيْ صَرَّفْنَا الْقَوْلَ فِيهِ بِذِكْرِ الوعيد، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أَيْ يَخَافُونَ اللهَ فَيَجْتَنِبُونَ مَعَاصِيَهِ، وَيَحْذَرُونَ عِقَابَهُ. ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ يْ مَوْعِظَةً، وَقَالَ قَتَادَةُ: حَذَرًا وَوَرَعًا، وَقِيلَ: شَرَفًا، فَالذِّكْرُ هَاهُنَا بِمَعْنَىٰ الشرف، كقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف:٤٤].

[١١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَتَعَالَىٰ اللهُ﴾ جَلَّ اللهُ عَنْ إِلْحَادِ الْمُلْحِدِينَ وَعَمَّا يَقُولُهُ الْمُشْرِكُونَ،وتقدس عن كل نقص وآفة، ﴿الْمَلِكُ﴾ الذي الملك وصفه، والخلق كلهم مماليك له، وأحكام الملك القدرية والشرعية، نافذة فيهم. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**يَقْبِضُ الله تعالىٰ الْأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الملك أين ملوك الأرض؟**»(١)، قوله: ﴿الْحَقُّ﴾ أَيْ: وُجُودُهُ وَمُلْكُهُ وَكَمَالُهُ حَقٌّ، فَصِفَاتُ الْكَمَالِ، لَا تَكُونُ حَقِيقَةً إِلَّا لِذِي الْجَلَالِ، وَمِنْ ذَلِكَ: الْمُلْكُ، فَإِنَّ غَيْرَهُ مِنَ الْخَلْقِ، وَإِنْ كَانَ لَهُ مُلْكٌ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ، عَلَىٰ بَعْضِ الْأَشْيَاءِ، فَإِنَّهُ مُلْكٌ

---

(١) البخاري (٤٨١٢).

قَاصِرٌ بَاطِلٌ يَزُولُ، وَأَمَّا الرَّبُّ، فَلَا يَزَالُ وَلَا يَزُولُ مَلِكًا حَيًّا قَيُّومًا جَلِيلًا ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ﴾ أَرَادَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ جبريل بالقرآن يبدر فَيَقْرَأُ مَعَهُ قَبْلَ أَنْ يَفْرَغَ جِبْرِيلُ مِمَّا يُرِيدُ مِنَ التِّلَاوَةِ، وَمَخَافَةَ الِانْفِلَاتِ وَالنِّسْيَانِ، فَنَهَاهُ اللهُ عَنْ ذَلِكَ، وَقَالَ: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ﴾ أَيْ لَا تَعْجَلْ بِقِرَاءَتِهِ، ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ أَيْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَفْرَغَ جِبْرِيلُ مِنَ الْإِبْلَاغِ، وقال مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: مَعْنَاهُ لَا تُقْرِئْهُ أَصْحَابَكَ وَلَا تُمْلِهِ عَلَيْهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ مَعَانِيهِ، ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ يَعْنِي بِالْقُرْآنِ وَمَعَانِيهِ. وَقِيلَ عِلْمًا إِلَىٰ مَا عَلِمْتُ. وَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ إِذَا قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ قال: اللهم زدني إيمانًا وَيَقِينًا.

[١١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني أمرناه وأوحينا إليه ألا يَأْكُلَ مِنَ الشَّجَرَةِ مِنْ قَبْلِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ نَقَضُوا عَهْدَكَ وَتَرَكُوا الْإِيمَانَ بِي، ﴿فَنَسِيَ﴾ فَتَرَكَ الْأَمْرَ، وَالْمَعْنَىٰ أَنَّهُمْ نَقَضُوا الْعَهْدَ فَإِنَّ آدَمَ أَيْضًا عَهِدْنَا إِلَيْهِ فَنَسِيَ، ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ قَالَ الْحَسَنُ البصري : لَمْ نَجِدْ لَهُ صَبْرًا عَمَّا نُهِيَ عَنْهُ وَقَالَ عَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ: حِفْظًا لِمَا أُمِرَ به. وقال قُتَيْبَةَ: رَأْيًا مَعْزُومًا حَيْثُ أَطَاعَ عَدُوَّهُ إِبْلِيسَ الَّذِي حَسَدَهُ وَأَبَىٰ أن يسجد له، والعزم فِي اللُّغَةِ هُوَ تَوْطِينُ النَّفْسِ عَلَىٰ الْفِعْلِ، قَالَ أَبُو أُمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ: لَوْ وُزِنَ حِلْمُ آدَمَ بِحِلْمِ جَمِيعِ وَلَدِهِ لَرَجَحَ حِلْمُهُ، وَقَدْ قَالَ اللهُ: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ فَإِنْ قِيلَ: أَتَقُولُونَ إِنَّ آدَمَ كَانَ نَاسِيًا لِأَمْرِ اللهِ حِينَ أَكَلَ مِنَ الشَّجَرَةِ؟ قِيلَ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ نَسِيَ أَمْرَهُ، وَلَمْ يَكُنِ النِّسْيَانُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مَرْفُوعًا عَنِ الْإِنْسَانِ بَلْ كَانَ مُؤَاخَذًا بِهِ، وَإِنَّمَا رُفِعَ عَنَّا،

وَقِيلَ: نَسِيَ عُقُوبَةَ اللهِ وَظَنَّ أنه نهاه تنزيها، قَالَ السَّعْدِيُّ: فَصَارَ عِبْرَةً لِذُرِّيَّتِهِ، وَصَارَتْ طَبَائِعُهُمْ مِثْلَ طَبِيعَتِهِ، نَسِيَ آدَمُ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَخطِئَ فَخَطِئُوا، وَلَمْ يَثْبُتْ عَلَىٰ الْعَزْمِ الْمُؤَكَّدِ، وَهُمْ كَذَلِكَ، وَبَادَرَ بِالتَّوْبَةِ مِنْ خَطِيئَتِهِ، وَأَقَرَّ بِهَا وَاعْتَرَفَ، فَغُفِرَتْ لَهُ، وَمَنْ يُشَابِهْ أَبَاهُ فَمَا ظَلَمَ.

[١١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لأَدَمَ﴾ يَذْكُرُ تَعَالَىٰ تَشْرِيفَ آدَمَ وَتَكْرِيمَهُ وَمَا فَضَّلَهُ بِهِ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خلق تفضيلاً، ﴿فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ أَيِ امْتَنَعَ وَاسْتَكْبَرَ، وَكَانَ ذَلِكَ الْأَمْرُ مِنَ اللهِ لِمَلَائِكَتِهِ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ تَشْرِيفًا لَهُ وَتَكْرِيمًا -كَمَا مَضَىٰ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ- وَإِنَّمَا اعْتَزَّ إِبْلِيسُ بِخِلْقَةِ النَّارِ، وَاسْتَوْهَنَ خَلْقَ الصَّلْصَالِ، وَاعْتَرَتْهُ الْحَمِيَّةُ، وَغَلَبَتْ عَلَيْهِ الشِّقْوَةُ.

[١١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَقُلْنَا يا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ حَوَّاءَ، ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ يَعْنِي تَتْعَبُ وَتَنْصَبُ، وَيَكُونُ عَيْشُكَ مِنْ كَدِّ يَمِينِكَ بِعَرَقِ جَبِينِكَ، قَالَ السُّدِّيُّ: يَعْنِي الْحَرْثَ وَالزَّرْعَ والحصيد والطحن والخبز، قَالَ القرطبي: وَإِنَّمَا خَصَّهُ بِذِكْرِ الشَّقَاءِ وَلَمْ يَقُلْ فَتَشْقَيَانِ: يُعَلِّمُنَا أَنَّ نَفَقَةَ الزَّوْجَةِ عَلَىٰ الزَّوْجِ، فَمِنْ يَوْمِئِذٍ جَرَتْ نَفَقَةُ النِّسَاءِ عَلَىٰ الْأَزْوَاجِ، فَلَمَّا كَانَتْ نَفَقَةُ حَوَّاءَ عَلَىٰ آدَمَ كَذَلِكَ نَفَقَاتُ بَنَاتِهَا عَلَىٰ بَنِي آدَمَ بِحَقِّ الزَّوْجِيَّةِ، وقال الْحَسَنُ الْمُرَادُ: فَتَشْقَىٰ شَقَاءَ الدُّنْيَا، لَا يُرَىٰ ابْنُ آدَمَ إِلَّا نَاصِبًا، وَقَالَ الْفَرَّاءُ: هُوَ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ كَدِّ يَدَيْهِ.

[١١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا﴾ أَيْ فِي الْجَنَّةِ ﴿وَلَا تَعْرَىٰ﴾ إِنَّمَا قَرَنَ بَيْنَ الْجُوعِ وَالْعُرْيِ لِأَنَّ الْجُوعَ ذُلُّ الْبَاطِنِ وَالْعُرْيَ ذُلُّ الظَّاهِرِ.

[١١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فيها﴾ لَا تَعْطَشُ، ﴿فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ يَعْنِي لَا تَبْرُزُ لِلشَّمْسِ فَيُؤْذِيكَ حرها، وتَضْحىٰ في اللغة: إِذَا أَصَابَ الإنسان حَرُّ الشَّمْسِ فِي وَقْتِ الضُّحَىٰ، وقال عكرمة: لَا تُصِيبُكَ الشَّمْسُ وَأَذَاهَا، لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْجَنَّةِ شَمْسٌ، وَأَهْلُهَا فِي ظِلٍّ مَمْدُودٍ، وهذا مُتَقَابِلَانِ، فَالظَّمَأُ حَرُّ الْبَاطِنِ وَهُوَ الْعَطَشُ، وَالضُّحَىٰ حَرُّ الظَّاهِرِ.

[١٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ الْوَسْوَسَةُ إِنَّمَا هِيَ إِدْخَالُهُمَا فِي الزَّلَلِ بِالْمَعْصِيَةِ، وَلَيْسَ لِلشَّيْطَانِ قُدْرَةٌ عَلَىٰ زَوَالِ أَحَدٍ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ إِنَّمَا قُدْرَتُهُ عَلَىٰ إِدْخَالِهِ فِي الزَّلَلِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبًا إِلَىٰ زَوَالِهِ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ يذنبه، ﴿قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ يَعْنِي عَلَىٰ شَجَرَةٍ إِنْ أَكَلْتَ منها بقيت مخلدًا، يَعْنِي عَلَىٰ شَجَرَةٍ إِنْ أَكَلْتَ مِنْهَا بَقِيتَ مُخَلَّدًا، ﴿وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ﴾ لَا يَبِيدُ وَلَا يَفْنَىٰ، قال قتادة: فألقىٰ إلىٰ آدم الشيطان وحدّثه، قال له: هل أدلك علىٰ شجرة إن أكلت منها خلدت فلم تمت، وملكت ملكًا لا ينقضي فيبلىٰ.

[١٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَكَلَا﴾ يَعْنِي آدَمُ وَحَوَّاءُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، ﴿مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا﴾ طفق: لزم، وطفق يفعل كذا، وَالْمَعْنَىٰ: أي أقبلا يَقْطَعَانِ الْوَرَقَ وَيَلْزَقَانِهِ لِيَسْتَتِرَا بِهِ، وَمِنْهُ خَصْفُ النَّعْلِ.

وَالْخَصْفُ حَقِيقَتُهُ تَقْوِيَةُ الطَّبَقَةِ مِنَ النَّعْلِ بِطَبَقَةٍ أُخْرَىٰ لِتَشْتَدَّ، ﴿مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ﴾ بأكل الشجرة، ﴿فَغَوَىٰ﴾ يَعْنِي فَعَلَ مَا لَمْ يَكُنْ لَهُ فِعْلُهُ. وَقِيلَ: أَخْطَأَ طَرِيقَ الحق وَضَلَّ حَيْثُ طَلَبَ الْخُلْدَ بِأَكْلِ ما نهي عنه أكله، فخاب ولم لم ينل مراده. وقال ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: أَيْ فَسَدَ عَلَيْهِ عَيْشُهُ وَصَارَ مِنَ الْعِزِّ إِلَىٰ الذُّلِّ، وَمِنَ الرَّاحَةِ إِلَىٰ التَّعَبِ، قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ عَصَىٰ آدَمُ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ آدَمُ عَاصٍ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُقَالُ عَاصٍ لِمَنِ اعْتَادَ فِعْلَ الْمَعْصِيَةِ، كَالرَّجُلِ يَخِيطُ ثَوْبَهُ يُقَالُ خَاطَ ثَوْبَهُ وَلَا يُقَالُ هُوَ خَيَّاطٌ حَتَّىٰ يُعَاوِدَ ذَلِكَ ويعتاده.

[١٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ اختاره واصطفاه، وَالِاجْتِبَاءُ: الِاصْطِفَاءُ، ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ بالعفو، ﴿وَهَدَىٰ﴾ هداه إلىٰ التوبة حتىٰ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ [الأعراف:٢٣]، قَالَ الطَّبَرِيُّ: اصْطَفَاهُ رَبُّهُ مِنْ بَعْدِ مَعْصِيَتِهِ إِيَّاهُ، فَرَزَقَهُ الرُّجُوعَ إِلَىٰ مَا يُرْضَىٰ عَنْهُ، وَالْعَمَلَ بِطَاعَتِهِ، وَذَلِكَ هُوَ كَانَتْ تَوْبَتُهُ الَّتِي تَابَهَا عَلَيْهِ، وَقَوْلُهُ ﴿وَهَدَىٰ﴾ يقول: وهداه للتوبة، فوفَّقَهُ لها.

[١٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ يَقُولُ تَعَالَىٰ لِآدَمَ وَحَوَّاءَ وَإِبْلِيسَ اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا: أَيْ مِنَ الْجَنَّةِ كُلُّكُمْ ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ آدَمُ وَذُرِّيَّتُهُ، وَإِبْلِيسُ وَذُرِّيَّتُهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًىٰ﴾ قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ وَالْبَيَانُ، ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا يَضِلُّ فِي الدينا وَلَا يَشْقَىٰ فِي الْآخِرَةِ ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ أَيْ خَالَفَ أَمْرِي وَمَا أَنْزَلْتُهُ عَلَىٰ رَسُولِي، أَعْرَضَ عَنْهُ وَتَنَاسَاهُ وَأَخَذَ مِنْ غَيْرِهِ هداه،

﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي ضنكًا فِي الدُّنْيَا فَلَا طُمَأْنِينَةَ لَهُ وَلَا انْشِرَاحَ لِصَدْرِهِ، بَلْ صَدْرُهُ ضَيِّقٌ حَرَجٌ لِضَلَالِهِ وَإِنْ تَنَعَّمَ ظَاهِرُهُ، وَلَبِسَ مَا شَاءَ وَأَكَلَ مَا شَاءَ وَسَكَنَ حَيْثُ شَاءَ، فَإِنَّ قَلْبَهُ مَا لَمْ يَخْلُصْ إِلَىٰ الْيَقِينِ وَالْهُدَىٰ فَهُوَ فِي قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد، فهذا من ضنك المعيشة ، والضَّنْكُ في اللغة : الضِّيقُ، يُقَالُ: مَكَانٌ ضَنْكٌ، أَيْ ضَيِّقٌ ، قَوْلُهُ : ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَعْمَىٰ الْبَصَرِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَعْمَىٰ عَنِ الْحُجَّةِ.

[١٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ ﴾ أَيْ فِي الدُّنْيَا، وَكَأَنَّهُ يَظُنُّ أَنَّهُ لَا ذَنْبَ لَهُ، ﴿بَصِيرًا﴾ بِالْعَيْنِ أَوْ بَصِيرًا بِالْحُجَّةِ، قَالَ مُجَاهِدٌ: لَا حُجَّةَ لَهُ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: عُمِّيَ عَلَيْهِ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا جَهَنَّمَ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يكون المراد أن يبعث أو يحشر إِلَىٰ النَّارِ أَعْمَىٰ الْبَصَرِ وَالْبَصِيرَةِ.

[١٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا﴾ أَيْ دَلَالَاتُنَا عَلَىٰ وَحْدَانِيَّتِنَا وَقُدْرَتِنَا. ﴿فَنَسِيتَهَا﴾ فَتَرَكْتَهَا وَأَعْرَضْتَ عَنْهَا، ﴿وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ﴾ تُتْرَكُ فِي النَّارِ ، قَالَ قَتَادَةُ: نسُوا مِنَ الْخَيْرِ وَلَمْ يُنْسَوْا مِنَ الْعَذَابِ، وَالْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، فَكَمَا عَمِيتَ عَنْ ذِكْرِ رَبِّكَ، وَعَشِيتَ عَنْهُ وَنَسِيتَهُ وَنَسِيتَ حَظَّكَ مِنْهُ، أَعْمَىٰ اللهُ بَصَرَكَ فِي الْآخِرَةِ، فَحُشِرْتَ إِلَىٰ النَّارِ أَعْمَىٰ، أَصَمَّ، أَبْكَمَ، وَأَعْرَضَ عَنْكَ، وَنَسِيَكَ فِي الْعَذَابِ.

[١٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أَيْ وَكَمَا جَزَيْنَا مَنْ أَعْرَضَ عَنِ الْقُرْآنِ كَذَلِكَ، ﴿نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾ أَشْرَكَ، أَيْ وَكَمَا جَزَيْنَا مَنْ أَعْرَضَ عَنِ الْقُرْآنِ،

وَعَنِ النَّظَرِ فِي الْمَصْنُوعَاتِ، وَالتَّفْكِيرِ فِيهَا، وَجَاوَزَ الْحَدَّ فِي الْمَعْصِيَةِ. ﴿وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ﴾ مِمَّا يُعَذِّبُهُمْ بِهِ فِي الدُّنْيَا والقبر، ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ وأدوم.

[١٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ رِيدُ أَهْلَ مَكَّةَ، ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ دِيَارِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ إِذَا سَافَرُوا، وَالْخِطَابُ لِقُرَيْشٍ أَيْ أَفَلَمْ يَتَبَيَّنْ لَهُمْ خَبَرُ مَنْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِذَا سَافَرُوا وَخَرَجُوا فِي التِّجَارَةِ طَلَبَ الْمَعِيشَةِ، فَيَرَوْنَ بِلَادَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ خَاوِيَةً، أَيْ أَفَلَا يَخَافُونَ أَنْ يَحِلَّ بِهِمْ مِثْلُ مَا حَلَّ بِالْكُفَّارِ قَبْلَهُمْ، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ﴾ لِذَوِي الْعُقُولِ الصَّحِيحَةِ وَالْأَلْبَابِ الْمُسْتَقِيمَةِ.

[١٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّىٰ﴾ فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، تَقْدِيرُهُ: وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لزامًا وأجلا مُسَمًّىٰ، وَالْكَلِمَةُ الْحُكْمُ بِتَأْخِيرِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ، أَيْ وَلَوْلَا حُكْمٌ سَبَقَ بِتَأْخِيرِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ وَأَجَلٌ مُسَمًّىٰ وَهُوَ الْقِيَامَةُ لَكَانَ لِزَامًا، أَيْ لَكَانَ الْعَذَابُ لَازِمًا لَهُمْ كَمَا لَزِمَ الْقُرُونَ الْمَاضِيَةَ الْكَافِرَةَ.

[١٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أَمَرَهُ تَعَالَىٰ بِالصَّبْرِ عَلَىٰ أَقْوَالِهِمْ: إِنَّهُ سَاحِرٌ، إِنَّهُ كَاهِنٌ، إِنَّهُ كَذَّابٌ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ ، وَالْمَعْنَىٰ: لَا تَحْفِلْ بِهِمْ، فَإِنَّ لِعَذَابِهِمْ وَقْتًا مَضْرُوبًا لَا يَتَقَدَّمُ وَلَا يَتَأَخَّرُ، وقيل : نَسَخَتْهَا آيَةُ الْقِتَالِ،

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أَيْ صَلِّ بِأَمْرِ رَبِّكَ، وَقِيلَ: صلِّ لله بالحمدلة وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ يَعْنِي صَلَاةَ الصُّبْحِ، ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ صَلَاةَ الْعَصْرِ، ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ﴾ ساعاتها واحدها أنىٰ، ﴿فَسَبِّحْ﴾ يَعْنِي صَلَاةَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ أَوَّلَ اللَّيْلِ، ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ يَعْنِي صَلَاةَ الظُّهْرِ، وَسَمَّىٰ وَقْتَ الظُّهْرِ أَطْرَافَ النَّهَارِ لِأَنَّ وَقْتَهُ عند الزوال، وَقِيلَ: الْمُرَادُ مِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ صَلَاةُ الْعِشَاءِ وَمِنْ أَطْرَافِ النَّهَارِ صَلَاةُ الظُّهْرِ وَالْمَغْرِبِ، لِأَنَّ الظُّهْرَ فِي آخِرِ الطَّرَفِ الْأَوَّلِ مِنَ النَّهَارِ، وَفِي أَوَّلِ الطرف الآخر من النهار، فَهُوَ فِي طَرَفَيْنِ مِنْهُ وَالطَّرَفُ الثَّالِثُ غُرُوبُ الشَّمْسِ، وَعِنْدَ ذَلِكَ يصلي المغرب، ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ أَيْ تَرْضَىٰ ثَوَابَهُ فِي الْمَعَادِ، وَقِيلَ: تَرْضَىٰ أَيْ يَرْضَاكَ اللهُ تَعَالَىٰ، كَمَا قَالَ: ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مَرْيَمَ: ٥٥] وَقِيلَ: مَعْنَىٰ الْآيَةِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ بِالشَّفَاعَةِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾، وفي الصحيح: « **يقول الله تعالىٰ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ربنا وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَىٰ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ؟ فَيَقُولُ: إِنِّي أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، فَيَقُولُونَ: وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا**»(١).

---

(١) البخاري (٦٥٤٩) ومسلم (٢٨٢٩).

[١٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ لَا تَنْظُرْ، وَمَدُّ الْعَيْنَيْنِ: مُسْتَعْمَلٌ فِي إِطَالَةِ النَّظَرِ لِلتَّعْجِيبِ لَا لِلْإِعْجَابِ، شُبِّهَ ذَلِكَ بِمَدِّ الْيَدِ لِتَنَاوُلِ شَيْءٍ مُشْتَهًىٰ. قال القرطبي : وَلا تَمُدَّنَّ أَبْلَغُ مِنْ لَا تَنْظُرَنَّ، لِأَنَّ الَّذِي يَمُدُّ بَصَرَهُ، إِنَّمَا يَحْمِلُهُ عَلَىٰ ذَلِكَ حِرْصٌ مُقْتَرِنٌ، وَالَّذِي يَنْظُرُ قَدْ لَا يَكُونُ ذَلِكَ مَعَهُ ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ﴾ أعطينا، ﴿أَزْوَاجًا﴾ أَصْنَافًا، ﴿مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أَيْ زِينَتَهَا وَبَهْجَتَهَا، ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أَيْ لِنَجْعَلَ ذَلِكَ فِتْنَةً لَهُمْ بِأَنْ أُزِيدَ لَهُمُ النِّعْمَةَ فَيَزِيدُوا كفرًا وطغيانًا، وَمَعْنَىٰ الْآيَةِ: لَا تَجْعَلْ يَا مُحَمَّدُ لِزَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزْنًا، فَإِنَّهُ لَا بَقَاءَ لَهَا ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ في المعاد يعني في الجنة، ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ قال أبي ابن كعب: من لم يستعز بعز اللهِ تَقَطَّعَتْ نَفْسُهُ حَسَرَاتٍ، وَمَنْ يتبع بصره فيما في أيدي النَّاسِ بَطَلَ حُزْنُهُ، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ نِعْمَةَ اللهِ فِي مَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ وَمَلْبَسِهِ فَقَدْ قَلَّ عَمَلُهُ وَحَضَرَ عَذَابُهُ.

[١٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ أَيْ قَوْمَكَ، وهذا الخطاب لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَدْخُلُ فِي عُمُومِهِ جَمِيعُ أُمَّتِهِ، وَأَهْلُ بَيْتِهِ عَلَىٰ التَّخْصِيصِ ، ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أَيِ اصْبِرْ عَلَىٰ الصَّلَاةِ، فَإِنَّهَا تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَالِاصْطِبَارُ: شِدَّةُ الصَّبْرِ عَلَىٰ الْأَمْرِ الشَّاقِّ، وَيُرْوَىٰ أَنَّ عُرْوَةَ بْنَ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : كَانَ إِذَا رَأَىٰ شَيْئًا مِنْ أَخْبَارِ السَّلَاطِينِ وَأَحْوَالِهِمْ بَادَرَ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ فَدَخَلَهُ، وَهُوَ يَقْرَأُ ﴿ وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ الْآيَةَ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَأَبْقَىٰ ثُمَّ يُنَادِي بِالصَّلَاةِ﴾ ، الصَّلَاةَ يَرْحَمُكُمُ اللهُ ، قَوْلُهُ : ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾ لَا نُكَلِّفُكَ أَنْ تَرْزُقَ

أَحَدًا مِنْ خَلْقِنَا، وَلَا أَنْ تَرْزُقَ نَفْسَكَ وَإِنَّمَا نُكَلِّفُكَ عَمَلًا، وَقَالَ الثَّوْرِيُّ: لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا: أَيْ لَا نكلفك الطلب ، ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ﴾ الخاتمة الجميلة المحمودة، ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾ أَيْ وَحُسْنُ الْعَاقِبَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهِيَ الْجَنَّةُ لِمَنِ اتَّقَىٰ اللهَ، قَالَ ابْنُ عباس: يعني الَّذِينَ صَدَّقُوكَ وَاتَّبَعُوكَ وَاتَّقَوْنِي ، وعن زيد بن ثابت قَالَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ فَرَّقَ اللهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ كَانَتِ الْآخِرَةُ نِيَّتَهُ جَمَعَ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وهي راغمة**»(١).

[١٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا﴾ يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ، ﴿لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي الآية الْمُقْتَرَحَةُ ، فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ أَتَاهُمْ بِآيَاتٍ كَثِيرَةٍ، ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ﴾ المقصود: أولم يأتهم في هذا القرآن العظيم أخبار القرون قبلهم والأمم التي سلفتهم من أهل الكتاب وغيرهم، ﴿مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ يعني بَيَانُ مَا فِيهَا، وَهُوَ الْقُرْآنُ أَقْوَىٰ دَلَالَةٍ وَأَوْضَحُ آيَةٍ ، وَقِيلَ: أو لم يأتهم مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ وَغَيْرُهُمَا مِنْ أَنْبَاءِ الْأُمَمِ أَنَّهُمُ اقْتَرَحُوا الْآيَاتِ، فَلَمَّا أَتَتْهُمْ وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهَا، كَيْفَ عَجَّلْنَا لَهُمُ الْعَذَابَ وَالْهَلَاكَ، فَمَا يُؤَمِّنُهُمْ إِنْ أَتَتْهُمُ الْآيَةُ أَنْ يَكُونَ حَالُهُمْ كَحَالِ أُولَئِكَ.

---

(١) أحمد (٢١٥٩٠).

[١٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أَيْ مِنْ قَبْلِ بَعْثَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنُزُولِ الْقُرْآنِ ﴿لَقالُوا﴾ أَيْ يَوْمَ القيامة ﴿رَبَّنا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا﴾ أَيْ هَلَّا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا يَدْعُونَا، أَيْ لَقَالُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ بِالْعَذَابِ وَالذُّلِّ وَالْهَوَانِ وَالْخِزْيِ وَالِافْتِضَاحِ والمقصود يوم القيامة.

[١٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ﴾ مُنْتَظِرٌ دَوَائِرَ الزَّمَانِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا: نَتَرَبَّصُ بِمُحَمَّدٍ حَوَادِثَ الدَّهْرِ، فَإِذَا مَاتَ تَخَلَّصْنَا، قَالَ الله تعالىٰ: ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ فانتظروا، ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ إِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ وَقَامَتِ الْقِيَامَةُ، ﴿مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ المستقيم، ﴿وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ يُرِيدُ الدِّينَ الْمُسْتَقِيمَ وَالْهُدَىٰ وَالْمَعْنَىٰ: فَسَتَعْلَمُونَ بِالنَّصْرِ مَنِ اهْتَدَىٰ إِلَىٰ دِينِ الْحَقِّ. وَفِي هَذَا ضَرْبٌ مِنَ الْوَعِيدِ وَالتَّخْوِيفِ والتهديد ختم به السورة.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ طه بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

وَوَجْهُ تَسْمِيَتِهَا سُورَةَ الْأَنْبِيَاءِ أَنَّهَا ذُكِرَ فِيهَا أَسْمَاءُ سِتَّةَ عَشَرَ نَبِيئًا وَمَرْيَمَ وَلَمْ يَأْتِ فِي سُوَرِ الْقُرْآنِ مِثْلُ هَذَا الْعَدَدِ مِنْ أَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ فِي سُورَةٍ مِنْ سُوَرِ الْقُرْآنِ عَدَا مَا فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ ، فَقَدْ ذُكِرَ فِيهَا أَسْمَاءُ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ نَبِيئًا وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِالِاتِّفَاقِ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ﴾ قيل: اللام بمعنىٰ من، يعني اقترب من الناس ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْمُرَادُ بِالنَّاسِ هُنَا الْمُشْرِكُونَ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ ، وَقِيلَ: النَّاسُ عُمُومٌ وَإِنْ كَانَ الْمُشَارُ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ كُفَّارَ قُرَيْشٍ، يَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ مَا بَعْدُ مِنَ الْآيَاتِ، وَمَنْ عَلِمَ اقْتِرَابَ السَّاعَةِ قَصُرَ أَمَلُهُ، وَطَابَتْ نَفْسُهُ بِالتَّوْبَةِ، وَلَمْ يَرْكَنْ إِلَىٰ الدُّنْيَا، فَكَأَنَّ مَا كَانَ لَمْ يَكُنْ إِذَا ذَهَبَ، وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ، وَالْمَوْتُ لَا مَحَالَةَ آتٍ، وَمَوْتُ كُلِّ إِنْسَانٍ قِيَامُ سَاعَتِهِ، وَالْقِيَامَةُ أَيْضًا قَرِيبَةٌ بِالْإِضَافَةِ إِلَىٰ مَا مَضَىٰ مِنَ الزَّمَانِ، فَمَا بَقِيَ مِنَ الدُّنْيَا أَقَلُّ مِمَّا مَضَىٰ ، ﴿حِسَابُهُمْ﴾ يعني وَقْتُ مُحَاسَبَةِ اللهِ إِيَّاهُمْ عَلَىٰ أَعْمَالِهِمْ، يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَزَلَتْ فِي مُنْكِرِي الْبَعْثِ، ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ عَنِ التَّأَهُّبِ لَهُ ، وقيل : ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ يَعْنِي بِالدُّنْيَا عَنِ الْآخِرَةِ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ﴾ يَعْنِي مَا يُحْدِثُ اللهُ مِنْ تَنْزِيلِ شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ يُذَكِّرُهُمْ وَيَعِظُهُمْ بِهِ. وَالْمُحْدَثُ: الْجَدِيدُ قَالَ مُقَاتِلٌ: يُحْدِثُ الله الأمر بعد الأمر، وقيل: الذِّكْرُ الْمُحْدَثُ مَا قَالَهُ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَيَّنَهُ من السنن والمواعظ سوىٰ الْقُرْآنِ، وَأَضَافَهُ إِلَىٰ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ لِأَنَّهُ قَالَ بِأَمْرِ الرَّبِّ، ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يعني اسْتَمَعُوهُ لَاعِبِينَ لَا يَعْتَبِرُونَ وَلَا يتعظون.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَاهِيَةً﴾ ساهية غافلة، مُعْرِضَةً عَنْ ذِكْرِ اللهِ، مُتَشَاغِلَةً عَنِ التَّأَمُّلِ وَالتَّفَهُّمِ، مِنْ قَوْلِ الْعَرَبِ: لَهَيْتُ عَنْ ذِكْرِ الشَّيْءِ إِذَا تَرَكْتُهُ وَسَلَوْتُ عَنْهُ أَلْهَىٰ لِهِيًّا وَلِهْيَانًا ، ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ مُعْرِضَةً عَنْ ذِكْرِ اللهِ، ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أَيْ الذين أشركوا تَنَاجَوْا فِيمَا بَيْنَهُمْ بِالتَّكْذِيبِ، وَالنَّجْوَىٰ: الْمُحَادَثَةُ الْخَفِيَّةُ، قَالَ الْكِسَائِيُّ: فِيهِ تَقْدِيمٌ وتأخير، أراد: الذين ظَلَمُوا أَسَرُّوا النَّجْوَىٰ، قَائِلِينَ فِيمَا بَيْنَهُمْ خُفْيَةً : ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ يَعْنُونَ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَبْعِدُونَ كَوْنَهُ نَبِيًّا لِأَنَّهُ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ فَكَيْفَ اخْتُصَّ بِالْوَحْيِ دُونَهُمْ، ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ﴾ أَيْ أَفَتَتْبَعُونَهُ فَتَكُونُونَ كمن يأتي السِّحْرَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ سِحْرٌ، فَقَالَ تَعَالَىٰ مجيبًا لهم عما اقترفوه وَاخْتَلَقُوهُ مِنَ الْكَذِبِ ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ تعلمون أنه سحر.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ لهم مُحَمَّدٌ، ﴿رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيِ الَّذِي يَعْلَمُ ذَلِكَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ خَافِيَةٌ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ

الْمُشْتَمِلَ عَلَىٰ خَبَرِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخَرِينَ، الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهِ إِلَّا الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أَيِ السَّمِيعُ لِأَقْوَالِكُمْ الْعَلِيمُ بأحوالكم، وفي هذا تهديد لكم وَوَعِيدٌ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ أَبَاطِيلُهَا وَأَقَاوِيلُهَا وَأَهَاوِيلُهَا رَآهَا فِي النوم، وَالْأَضْغَاثُ: جَمْعُ ضِغْثٍ، وَهُوَ الْحِزْمَةُ مِنْ أَعْوَادٍ أَوْ عُشْبٍ أَوْ حَشِيشٍ مُخْتَلِطٍ ثُمَّ أُطْلِقَ عَلَىٰ الْأَخْلَاطِ مُطْلَقًا كَمَا فِي سُورَةِ يُوسُفَ ﴿قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ﴾ [الآية : ٤٤]، أَرَادُوا أَنَّ مَا يُخْبِرُكُمْ بِهِ مِنْ أَنَّهُ أُوحِيَ إِلَيْهِ وَمِنْ أَخْبَارِ الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ وَيَوْمِ الْقِيَامَةِ هُوَ أَحْلَامٌ يَرَاهَا، ﴿بَلِ افْتَرَاهُ﴾ أختلقه، ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ يَعْنِي أَنَّ الْمُشْرِكِينَ اقْتَسَمُوا الْقَوْلَ فِيهِ وَفِيمَا يَقُولُهُ، قَالَ بَعْضُهُمْ: أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ هُوَ فِرْيَةٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ مُحَمَّدٌ شَاعِرٌ وَمَا جَاءَكُمْ بِهِ شعر، ﴿فَلْيَأْتِنَا﴾ محمد، ﴿بِآيَةٍ﴾ إن كان صادقًا ماله ﴿كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ مِنَ الرُّسُلِ بِالْآيَاتِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ مُجِيبًا لَهُمْ:

[٦] : ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي قَبْلَ مُشْرِكِي مَكَّةَ، ﴿مِنْ قَرْيَةٍ﴾ أَيْ مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ أَتَتْهُمُ الآيات، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ قَوْمَ صَالِحٍ وَقَوْمَ فِرْعَوْنَ، ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ أهلكناهم بالتكذيب، ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ إن جاءتهم آية، معناه: أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِالْآيَاتِ لَمَّا أَتَتْهُمْ أَفَيُؤْمِنُ هَؤُلَاءِ، قال السعدي : وهذا الاستفهام بمعنىٰ النفي، أي: لا يكون ذلك منهم أبداً.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ هَذَا جَوَابٌ لِقَوْلِهِمْ: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ يَعْنِي إِنَّا لَمْ نُرْسِلِ الْمَلَائِكَةَ إِلَىٰ الْأَوَّلِينَ إِنَّمَا أَرْسَلْنَا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ، وَتَأْنِيسٌ لِنَبِيِّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَيْ لم يرسل قبلك إلا رجالا. ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ يَعْنِي أَهْلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يُرِيدُ عُلَمَاءَ أَهْلِ الْكِتَابِ فَإِنَّهُمْ لَا يُنْكِرُونَ أَنَّ الرُّسُلَ كَانُوا بَشَرًا، وَإِنْ أَنْكَرُوا نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَمَرَ الْمُشْرِكِينَ بِمَسْأَلَتِهِمْ لِأَنَّهُمْ إِلَىٰ تَصْدِيقِ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقْرَبُ مِنْهُمْ إِلَىٰ تَصْدِيقِ مَنْ آمَنَ بِهِ. قال سفيان الثوري : وَسَمَّاهُمْ أَهْلَ الذِّكْرِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَذْكُرُونَ خَبَرَ الْأَنْبِيَاءِ مِمَّا لَمْ تَعْرِفْهُ الْعَرَبُ: وَكَانَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ يُرَاجِعُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ فِي أَمْرِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَوَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: أَرَادَ بِالذِّكْرِ الْقُرْآنَ فَاسْأَلُوا الْمُؤْمِنِينَ الْعَالِمِينَ مِنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ، ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ﴾ أي الرسل، ﴿جَسَدًا﴾ وَلَمْ يَقُلْ أَجْسَادًا لِأَنَّهُ أَرَادَ وَمَا جَعَلْنَا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ جَسَدًا، قال الضحاك: يقول: لم أجعلهم جَسدًا ليس فيهم أرواح لا يأكلون الطعام، ولكن جعلناهم جسدًا فيها أرواح يأكلون الطعام ﴿لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ هَذَا رَدٌّ لِقَوْلِهِمْ: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ يَقُولُ: لَمْ نَجْعَلِ الرُّسُلَ مَلَائِكَةً بَلْ جَعَلْنَاهُمْ بَشَرًا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ، ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ فِي الدُّنْيَا، بَلْ كَانُوا يَعِيشُونَ ثُمَّ يَمُوتُونَ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ بِإِهْلَاكِ أَعْدَائِهِمْ، ﴿فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ﴾ يعني أَنْجَيْنَا الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ صَدَّقُوهُمْ، ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ يعني الْمُشْرِكِينَ الْمُكَذِّبِينَ، وَكُلُّ مُشْرِكٍ مُسْرِفٌ عَلَىٰ نَفْسِهِ.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ. (﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ يعني شَرَفُكُمْ، كَمَا قَالَ: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ وَهُوَ شَرَفٌ لمن آمن به، وقال مُجَاهِدٌ: فِيهِ حَدِيثُكُمْ ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري : فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَيْ ذِكْرُ مَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دِينِكُمْ، وَقِيلَ: مَكَارِمُ أَخْلَاقِكُمْ، وَمَحَاسِنُ أَعْمَالِكُمْ. وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: الْعَمَلُ بِمَا فِيهِ حَيَاتُكُمْ، وَقِيلَ: فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَيْ ذِكْرُ أَمْرِ دِينِكُمْ، وَأَحْكَامِ شَرْعِكُمْ وَمَا تَصِيرُونَ إِلَيْهِ مِنْ ثَوَابٍ وَعِقَابٍ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا؟! ، قال القرطبي: وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ بِمَعْنًىٰ وَالْأَوَّلُ يَعُمُّهَا، إِذْ هِيَ شَرَفٌ كُلُّهَا، وَالْكِتَابُ شرف لنبينا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِأَنَّهُ مُعْجِزَتُهُ، وَهُوَ شَرَفٌ لَنَا إِنْ عَمِلْنَا بِمَا فِيهِ، دَلِيلُهُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصلاة والسَّلَامُ: « **الْقُرْآنُ حجة لك أو عليك**»(١)، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ،أي: هذه النعمة وتتلقّونها بالقبول.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ أَهْلَكْنَا، وَالْقَصْمُ: الْكَسْرُ الشَّدِيدُ الَّذِي لَا يُرْجَىٰ بَعْدَهُ الْتِئَامٌ وَلَا انْتِفَاع، واستعير للاستيصال وَالْإِهْلَاكِ الْقَوِيِّ كَإِهْلَاكِ عَادٍ وَثَمُودَ وَسَبَأٍ، ﴿مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ أَيْ كَافِرَةً، يَعْنِي أَهْلَهَا، وَالظُّلْمُ

---

(١) مسلم (٢٢٣) .

وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، وَهُمْ وَضِعُوا الْكُفْرَ مَوْضِعَ الْإِيمَانِ. ﴿وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا﴾ يعني: أَحْدَثْنَا بَعْدَ هَلَاكِ أَهْلِهَا، ﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾ أَيْ أُمَّةً أُخْرَىٰ بَعْدَهُمْ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا﴾ يعني رَأَوْا عَذَابَنَا بِحَاسَّةِ الْبَصَرِ، يُقَالُ: أَحْسَسْتُ مِنْهُ ضَعْفًا، ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ أَيْ يَهْرُبُونَ وَيَفِرُّونَ، وَالرَّكْضُ العدو بشدة.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا تَرْكُضُوا﴾ يعني قِيلَ لَهُمْ لَا تَرْكُضُوا، قِيلَ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ نَادَتْهُمْ لَمَّا انْهَزَمُوا اسْتِهْزَاءً بِهِمْ وَقَالَتْ: ﴿لَا تَرْكُضُوا﴾ ، وقوله: ﴿وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ ﴾ أَيْ إِلَىٰ نِعَمِكُمُ الَّتِي كَانَتْ سَبَبَ بَطَرِكُمْ، وَالْمُتْرَفُ الْمُتَنَعِّمُ، يُقَالُ: أُتْرِفَ عَلَىٰ فُلَانٍ أَيْ وُسِّعَ عَلَيْهِ فِي مَعَاشِهِ، وَالْإِتْرَافُ: إِعْطَاءُ التَّرَفِ، وَهُوَ النَّعِيمُ وَرَفَهِ الْعَيْشِ، أَيِ ارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُعْطِيتُمْ مِنَ الرَّفَاهِيَةِ وَإِلَىٰ مَسَاكِنِكُمْ ، ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عَنْ قَتْلِ نبيكم وقيل: من دنياكم شيئًا، وَقِيلَ: الْمَعْنَىٰ ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ﴾ أَيْ تُؤْمِنُوا كَمَا كُنْتُمْ تُسْأَلُونَ ذَلِكَ قَبْلَ نُزُولِ الْبَأْسِ بِكُمْ، قِيلَ لَهُمْ ذَلِكَ اسْتِهْزَاءً وَتَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا يا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ حِينَ لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ، وَالْوَيْلُ لَفْظٌ دَالٌّ عَلَىٰ الشَّرِّ أَوِ الْهَلَاكِ ، والويلة: الْبَلِيَّةُ، وَهِيَ

مُؤَنَّثُ الْوَيْلِ، وفي الحديث قَالَ رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ**»(١) .

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾ أَيْ تِلْكَ الْكَلِمَةُ وَهِيَ قَوْلُهُمْ يَا وَيْلَنَا، دُعَاؤُهُمْ يَدْعُونَ بِهَا ويرددونها؟ ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا﴾ كما يحصد الزرع، بِالْمِنْجَلِ ﴿خَامِدِينَ﴾ ميتين ، وَالْخُمُودُ الْهُمُودُ كَخُمُودِ النَّارِ إِذَا طُفِئَتْ فَشَبَّهَ خُمُودَ الْحَيَاةِ بِخُمُودِ النَّارِ كَمَا يُقَالُ لِمَنْ مات قد طفئ تشبيها بانطفاء النار.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ أَيْ عَبَثًا وَبَاطِلًا، وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْعَدْلِ وَالْقِسْطِ، وَخَلَقَ الْعِبَادَ لِتَعْظِيمِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَإِفْرَادِهِ بِالْعُبُودِيَّةِ.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا﴾ اخْتَلَفُوا فِي اللَّهْوِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : اللَّهْوُ ههنا الْمَرْأَةُ، وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ وَقَتَادَةَ، قَالَ مجاهد: يَعْنِي مِنْ عِنْدِنَا، يَقُولُ: وَمَا خَلَقْنَا جَنَّةً وَلَا نَارًا وَلَا مَوْتًا وَلَا بَعْثًا وَلَا حساباً ، ﴿لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ يعني من عندنا من حور الْعَيْنِ لَا مِنْ عِنْدِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ لَوْ كَانَ جَائِزًا ذَلِكَ فِي صِفَتِهِ لَمْ يَتَّخِذْهُ بِحَيْثُ يَظْهَرُ لَهُمْ بل يستر ذَلِكَ حَتَّىٰ لَا يَطَّلِعُوا عَلَيْهِ، وَتَأْوِيلُ الْآيَةِ أَنَّ النَّصَارَىٰ لَمَّا قَالُوا فِي الْمَسِيحِ وَأُمِّهِ مَا قَالُوا رَدَّ

---

(١) البخاري (٣٣٤٦) ومسلم (٢٨٨٠) .

اللهُ عَلَيْهِمْ بِهَذَا ، وقال: ﴿لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ لِأَنَّكُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ وَلَدَ الرَّجُلِ وَزَوْجَتَهُ يَكُونَانِ عِنْدَهُ، لَا عِنْدَ غيره، ﴿إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ وَمُقَاتِلٌ وَابْنُ جُرَيْجٍ: (إن) للنفي، معناه: مَا كُنَّا فَاعِلِينَ، مِثْلَ: ﴿ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر : ٢٣] أي ما أنت إلا نذير.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿بَلْ﴾ يعني دَعْ ذَلِكَ الَّذِي قَالُوا فَإِنَّهُ كذب وباطل، ﴿نَقْذِفُ﴾ الْقَذْفُ الرَّمْيُ، أَيْ نَرْمِي بِالْحَقِّ عَلَىٰ الْبَاطِلِ ، ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالإيمان، ﴿عَلَىٰ الْبَاطِلِ﴾ عَلَىٰ الْكُفْرِ، وَقِيلَ: الْحَقُّ قَوْلُ الله، فإنه لَا وَلَدَ لَهُ، وَالْبَاطِلُ قَوْلُهُمُ أتخذ الله ولدا، ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ يعني يهلكه، وَأَصْلُ الدَّمْغِ شَجُّ الرَّأْسِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الدِّمَاغَ، وَالْحَقُّ هُنَا الْقُرْآنُ، وَالْبَاطِلُ الشَّيْطَانُ ، قال مجاهد: وَكُلُّ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْبَاطِلِ فَهُوَ الشَّيْطَانُ ، وَقِيلَ: الْبَاطِلُ كَذِبُهُمْ وَوَصْفُهُمُ الله عَزَّ وَجَلَّ بِغَيْرِ صِفَاتِهِ مِنَ الْوَلَدِ وَغَيْرِهِ. ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ ذاهب، والمعنىٰ: أنا نبطل كذبهم بما تبين مِنَ الْحَقِّ حَتَّىٰ يَضْمَحِلَّ وَيَذْهَبَ، وَالزَّاهِقُ: الْمُنْفَلِتُ مِنْ مَوْضِعِهِ وَالْهَالِكُ، ثُمَّ أَوْعَدَهَمْ عَلَىٰ كَذِبِهِمْ فَقَالَ: ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ﴾ يا مَعْشَرَ الْكُفَّارِ. ﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾ اللهَ بِمَا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مِمَّا تَكْذِبُونَ.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ مُلْكًا وَخَلْقًا فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ مَا هُوَ عَبْدُهُ وَخَلْقُهُ، ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ يَعْنِي الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ ذَكَرْتُمْ أَنَّهُمْ بَنَاتُ اللهِ، ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أَيْ لَا يَأْنَفُونَ ﴿عَنْ عِبادَتِهِ﴾

وَالتَّذَلُّلِ لَهُ، ﴿وَلا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أَيْ يَعْيَوْنَ، يُقَالُ: حَسِرَ وَاسْتَحْسَرَ إِذَا تَعِبَ وَأَعْيَا ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: لا ينقطعون عَنِ الْعِبَادَةِ.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ﴾ أَيْ يُصَلُّونَ وَيَذْكُرُونَ اللهَ وَيُنَزِّهُونَهُ دَائِمًا، ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ لا يضعفون، قَالَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ: يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّقْدِيسَ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفَسَ.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً﴾ اسْتِفْهَامٌ بِمَعْنَىٰ الْجَحْدِ، ، أَيْ لَمْ يَتَّخِذُوا آلِهَةً تَقْدِرُ عَلَىٰ الْإِحْيَاءِ، وَقِيلَ: (أَمِ) بِمَعْنَىٰ (هَلْ) أَيْ هَلِ اتَّخَذَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ يُحْيُونَ الْمَوْتَىٰ ، ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ يَعْنِي الْأَصْنَامَ مِنَ الْخَشَبِ وَالْحِجَارَةِ وَهُمَا مِنَ الْأَرْضِ، ﴿هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ أي يُحْيُونَ الْمَوْتَىٰ وَيَنْشُرُونَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ؟ أَيْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَكَيْفَ جَعَلُوهَا لِلَّهِ نِدًّا وَعَبَدُوهَا مَعَهُ؟ مِنْ أَنْشَرَ اللهُ الْمَيِّتَ فَنُشِرَ أَيْ أَحْيَاهُ فَحَيِيَ ، وَلَا يَسْتَحِقُّ الألوهية إِلَّا مَنْ يَقْدِرُ عَلَىٰ الْإِحْيَاءِ وَالْإِيجَادِ مِنَ الْعَدَمِ وَالْإِنْعَامِ بِأَبْلَغِ وُجُوهِ النِّعَمِ.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا﴾ يعني فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، ﴿آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ﴾ يعني غير الله، قَالَ الْكِسَائِيُّ وَسِيبَوَيْهِ: (إِلَّا) بِمَعْنَىٰ غَيْرَ فَلَمَّا جُعِلَتْ إِلَّا فِي مَوْضِعِ غَيْرَ أُعْرِبَ الِاسْمُ الَّذِي بَعْدَهَا بِإِعْرَابِ غَيْرَ، كَمَا قَالَ:

وَكُلُّ أَخٍ مُفَارِقُهُ أَخُوهُ ... لَعَمْرِ أَبِيكَ إِلَّا الْفَرْقَدَانِ

قَوْلُهُ: ﴿لَفَسَدَتَا﴾ لَخَرِبَتَا وَهَلَكَ مَنْ فِيهِمَا بِوُقُوعِ التَّنَازُعِ بِالِاخْتِلَافِ الْوَاقِعِ بَيْنَ الشُّرَكَاءِ؛ لِأَنَّ كُلَّ أَمْرٍ صَدَرَ عَنِ اثْنَيْنِ فَأَكْثَرَ لَمْ يَجْرِ عَلَىٰ النِّظَامِ، ثُمَّ نَزَّهَ نَفْسَهُ فَقَالَ: ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ يعني يصمه بِهِ الْمُشْرِكُونَ مِنَ الشَّرِيكِ وَالْوَلَدِ.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ أَيْ هُوَ الْحَاكِمُ الَّذِي لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا يَعْتَرِضُ عَلَيْهِ أَحَدٌ لِعَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وَكِبْرِيَائِهِ، وعدله ﴿وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ أَيْ وَهُوَ سَائِلٌ خَلْقَهُ عَمَّا يَعْمَلُونَ.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ وَتَوْبِيخٍ، ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ [يعني حُجَّتَكُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ مستأنفا، ﴿هَذَا﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ، ﴿ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ﴾ فِيهِ خَبَرُ مَنْ مَعِيَ عَلَىٰ ديني ومن تبعني إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِمَا لَهُمْ مِنَ الثَّوَابِ عَلَىٰ الطَّاعَةِ وَالْعِقَابِ علىٰ المعصية، ﴿وَذِكْرُ﴾ خبر، ﴿مَنْ قَبْلِي﴾ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ مَا فَعَلَ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَمَا يُفْعَلُ بِهِمْ فِي الْآخِرَةِ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي رِوَايَةِ عَطَاءٍ: ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ: الْقُرْآنُ، وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي: التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ، وَمَعْنَاهُ: رَاجِعُوا الْقُرْآنَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَسَائِرَ الْكُتُبِ هَلْ تَجِدُونَ فِيهَا أَنَّ اللهَ اتَّخَذَ وَلَدًا، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾، أَيْ عَنِ الْحَقِّ وَهُوَ الْقُرْآنُ، فلا يتأملون حجة التوحيد.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ﴾ قَالَ ابْنُ الْمُلَقِّنِ: وَالرُّسُلُ: جَمْعُ رَسُولٍ وَهُوَ: الْمَأْمُورُ بِتَبْلِيغِ الْوَحْيِ إِلَىٰ الْعِبَادِ، وَهُوَ أَخَصُّ مِنَ

النَّبِيِّ؛ فَإِنَّهُ: الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْهِ الْعَمَلُ وَالتَّبْلِيغُ، بِخِلَافِ النَّبِيِّ، فَإِنَّهُ: أُوحِيَ إِلَيْهِ الْعَمَلُ فَقَطْ، فَالرُّسُلُ وَالْكُتُبُ، كُلُّهَا مُتَّفِقَةٌ عَلَىٰ الْأَمْرِ بِإِخْلَاصِ الدِّينِ لِلَّهِ تَعَالَىٰ ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ وحدون ، قَالَ قَتَادَةُ: لَمْ يُرْسَلْ نَبِيٌّ إِلَّا بِالتَّوْحِيدِ، وَالشَّرَائِعُ مُخْتَلِفَةٌ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ والقرآن، وكل ذلك هو الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وبيان أنه الإله الحق المعبود، وأن عبادة ما سواه باطلة.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ نزلت في قبيلة خزاعة حيث قال: الملائكة بنات الله ﴿سُبْحَانَهُ﴾ نَزَّهَ نَفْسَهُ عَمَّا قَالُوا، ﴿بَلْ عِبَادٌ﴾ أَيْ هُمْ عِبَادٌ، يَعْنِي الْمَلَائِكَةَ، ﴿مُكْرَمُونَ﴾ أَيِ الْمَلَائِكَةُ عِبَادُ اللهِ مُكْرَمُونَ عِنْدَهُ، قَالَ السَّعْدِيُّ: وَإِنَّمَا هُمْ مُكْرَمُونَ عِنْدَ اللهِ، قَدْ أَكْرَمَهُمُ اللهُ، وَصَيَّرَهُمْ مِنْ عَبِيدِ كَرَامَتِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَذَلِكَ لِمَا خَصَّهُمْ بِهِ مِنَ الْفَضَائِلِ وَالتَّطْهِيرِ عَنِ الرَّذَائِلِ، وَأَنَّهُمْ فِي غَايَةِ الْأَدَبِ مَعَ اللهِ، وَالِامْتِثَالِ لِأَوَامِرِهِ.

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ أَيْ لَا يَتَقَدَّمُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِأَمْرٍ وَلَا يُخَالِفُونَهُ فيما أمرهم بِهِ بَلْ يُبَادِرُونَ إِلَىٰ فِعْلِهِ، وَهُوَ تَعَالَىٰ عِلْمُهُ مُحِيطٌ بِهِمْ فَلَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ، ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ لَا يُخَالِفُونَهُ قَوْلًا وَلَا عَمَلًا.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أَيْ مَا عَمِلُوا وَمَا هُمْ عَامِلُونَ. وَقِيلَ: مَا كَانَ قَبْلَ خَلْقِهِمْ وَمَا يَكُونُ بَعْدَ خَلْقِهِمْ، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ قال ابن عباس: أي إلا لِمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَيْ

لِمَنْ رَضِيَ عَنْهُ، (وَهُمْ) يَعْنِي الْمَلَائِكَةَ (مِنْ خَشْيَتِهِ) يَعْنِي مِنْ خَوْفِهِ (مُشْفِقُونَ) أَيْ خَائِفُونَ لَا يَأْمَنُونَ مَكْرَهُ.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ﴾ قال مقاتل: عَنَىٰ بِهِ إِبْلِيسَ حِينَ دَعَا إِلَىٰ عِبَادَةِ نَفْسِهِ وَأَمَرَ بِطَاعَةِ نَفْسِهِ، فَإِنَّ أَحَدًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَمْ يَقُلْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِ اللهِ ، ﴿فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ الْوَاضِعِينَ الْإِلَهِيَّةَ وَالْعِبَادَةَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا.

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مَعْنَاهُ: أَلَمْ يَعْلَمِ الَّذِينَ كَفَرُوا، ﴿أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما والضحاك وَعَطَاءٌ وَقَتَادَةُ: كَانَتَا شَيْئًا وَاحِدًا ملتزقتين، ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ فَصَلْنَا بَيْنَهُمَا بِالْهَوَاءِ، وَالرَّتْقُ في اللغة : الِاتِّصَالُ وَالتَّلَاصُقُ بَيْنَ أَجْزَاءِ الشَّيْءِ. وَالْفَتْقُ: ضِدُّهُ، وَهُوَ الِانْفِصَالُ وَالتَّبَاعُدُ بَيْنَ الْأَجْزَاءِ ، قَالَ كَعْبٌ: خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ، ثُمَّ خَلَقَ رِيحًا فَوَسَّطَهَا فَفَتَقَهُمَا بِهَا، قَالَ مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ: كَانَتِ السَّمَاوَاتُ مُرْتَقَةً طَبَقَةً وَاحِدَةً فَفَتَقَهَا وَجَعَلَهَا سَبْعَ سَمَاوَاتٍ، وَكَذَلِكَ الْأَرْضُ كَانَتْ مُرْتَقَةً طَبَقَةً وَاحِدَةً فَفَتَقَهَا فَجَعَلَهَا سَبْعَ أَرَضِينَ ، قَالَ عِكْرِمَةُ وَعَطِيَّةُ: كَانَتِ السَّمَاءُ رَتْقًا لَا تُمْطِرُ وَالْأَرْضُ رَتْقًا لَا تُنْبِتُ، فَفَتَقَ السَّمَاءَ بِالْمَطَرِ وَالْأَرْضَ بِالنَّبَاتِ، ﴿وَجَعَلْنَا﴾ وَخَلَقْنَا، ﴿مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أي أحيينا بِالْمَاءِ الَّذِي يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَيْ مِنَ الْحَيَوَانِ وَيَدْخُلُ فِيهِ النَّبَاتُ وَالشَّجَرُ، يَعْنِي أَنَّهُ سَبَبٌ لِحَيَاةِ كُلِّ شَيْءٍ. وَالْمُفَسِّرُونَ يَقُولُونَ: يَعْنِي أَنَّ كُلَّ

شَيْءٍ حَيٍّ فَهُوَ مَخْلُوقٌ من الماء. لقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾ قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: يَعْنِي النُّطْفَةَ، فَإِنْ قِيلَ: قَدْ خَلَقَ اللهُ بَعْضَ مَا هُوَ حَيٌّ مِنْ غَيْرِ الْمَاءِ؟ قِيلَ: هَذَا عَلَىٰ وَجْهِ التَّكْثِيرِ، يَعْنِي أَنَّ أَكْثَرَ الْأَحْيَاءِ فِي الأرض مخلوق مِنَ الْمَاءِ أَوْ بَقَاؤُهُ بِالْمَاءِ، ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ أي جِبَالًا ثَوَابِتَ، وَالرَّوَاسِي: الْجِبَالُ، لِأَنَّهَا رَسَتْ فِي الْأَرْضِ، أَيْ رَسَخَتْ فِيهَا، ﴿أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ لئلا تميد بهم،وَالْمَيْدُ: الِاضْطِرَابُ ، ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ في الرواسي، ﴿فِجَاجًا﴾ طُرُقًا وَمَسَالِكَ، وَالْفَجُّ الطَّرِيقُ الْوَاسِعُ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ، وقيل الْفَجُّ: الطَّرِيقُ الْوَاسِعُ، أَيْ: جَعَلْنَا بَيْنَ الجبال طرقا كي يهتدوا إلىٰ مقاصدهم، ﴿سُبُلًا﴾ تفسير للفجاج، وَالسُّبُلُ: جَمْعُ سَبِيلٍ، وَهُوَ: الطَّرِيقُ مُطْلَقًا. ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ .

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ مِنْ أَنْ تَسْقُطَ، دَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَىٰ الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وَقِيلَ: مَحْفُوظًا مِنَ الشَّيَاطِينِ بِالشُّهُبِ، دَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ [الحِجْرِ: ١٧] ، قال ابن عاشور : وَالسَّقْفُ، حَقِيقَتُهُ: غِطَاءُ فَضَاءِ الْبَيْتِ الْمَوْضُوعُ عَلَىٰ جُدْرَانِهِ، وَلَا يُقَالُ السَّقْفُ عَلَىٰ غِطَاءِ الْخِبَاءِ وَالْخَيْمَةِ، وَأُطْلِقَ السَّقْفُ عَلَىٰ السَّمَاءِ عَلَىٰ طَرِيقَةِ التَّشْبِيهِ الْبَلِيغِ، أَيْ جَعَلْنَاهَا كَالسَّقْفِ لِأَنَّ السَّمَاءَ لَيْسَتْ مَوْضُوعَةً عَلَىٰ عَمَدٍ مِنَ الْأَرْضِ، قَالَ تَعَالَىٰ: اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ﴿وَهُمْ﴾ يعني الكفار، ﴿عَنْ آيَاتِهَا﴾ أي عن مَا

خَلْقَ اللهُ فِيهَا مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ وَغَيْرِهَا، ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لَا يَتَفَكَّرُونَ فِيهَا وَلَا يَعْتَبِرُونَ بِهَا، قال القرطبي : بَيَّنَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ غَفَلُوا عن النظر في السموات وَآيَاتِهَا، مِنْ لَيْلِهَا وَنَهَارِهَا، وَشَمْسِهَا وَقَمَرِهَا، وَأَفْلَاكِهَا وَرِيَاحِهَا وَسَحَابِهَا، وَمَا فِيهَا مِنْ قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَىٰ، إِذْ لَوْ نَظَرُوا وَاعْتَبَرُوا لَعَلِمُوا أَنَّ لها صانعا قادرا واحدا فيستحيل أن يكون له شريك.

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أَيْ هَذَا فِي ظَلَامِهِ وَسُكُونِهِ، وَهَذَا بِضِيَائِهِ وَأُنْسِهِ، يَطُولُ هَذَا تَارَةً ثُمَّ يَقْصُرُ أُخْرَىٰ وَعَكْسُهُ الْآخَرُ، ﴿وَالشَّمْسَ والقمر﴾ هذه لها نور يخصها وحركة وسير خاص، وهذا بنور آخَرَ وَفَلَكٍ آخَرَ وَسَيْرٍ آخَرَ وَتَقْدِيرٍ آخَرَ، ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أَيْ يَدُورُونَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَدُورُونَ كَمَا يدرو المغزل في الفلكة، قَالَ مُجَاهِدٌ: فَلَا يَدُورُ الْمِغْزَلُ إِلَّا بِالْفَلْكَةِ وَلَا الْفَلْكَةُ إِلَّا بِالْمِغْزَلِ، كَذَلِكَ النُّجُومُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا يَدُورُونَ إِلَّا بِهِ وَلَا يَدُورُ إِلَّا بِهِنَّ، وَالسَّبْحُ: مُسْتَعَارٌ لِلسَّيْرِ فِي مُتَّسَعٍ لَا طرق فِيهِ مُتَلَاقِيَةً كَطَرق الْأَرْضِ، وَهُوَ تَقْرِيبٌ لِسِيَرِ الْكَوَاكِبِ فِي الْفَضَاءِ الْعَظِيمِ.

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ دَوَامَ الْبَقَاءِ فِي الدُّنْيَا، بَلْ كَانُوا يَعِيشُونَ ثُمَّ يَمُوتُونَ قال القرطبي: فقال الله تعالىٰ: قد مات الأنبياء من قبلك، وتولىٰ الله دينه بالنصر والحياطة، فهكذا نحفظ دينك وشرعك، ﴿أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ أَيْ يُؤَمِّلُونَ أَنْ يَعِيشُوا بَعْدَكَ! لَا يكون هذا بل كلٍّ إلىٰ الفناء،قَالَ الْفَرَّاءُ: جَاءَ بِالْفَاءِ لِيَدُلَّ عَلَىٰ الشَّرْطِ، لِأَنَّهُ جَوَابُ

قَوْلِهِمْ سَيَمُوتُ، ويجوز أن يكون جئ بِهَا، لِأَنَّ التَّقْدِيرَ فِيهَا: أَفَهُمُ الْخَالِدُونَ إِنْ مِتَّ! وَقَدْ عَرَضَ لِبَعْضِ الْمُسْلِمِينَ عَارِضٌ مِنْ ذَلِكَ، وَمِنْهُمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَقَدْ قَالَ يَوْمَ انْتِقَالِ النَّبِيءِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ الرَّفِيقِ الْأَعْلَىٰ: «لِيَرْجِعَنَّ رَسُولُ اللهِ فَيُقَطِّعَ أَيْدِيَ قَوْمٍ وَأَرْجُلَهُمْ» حَتَّىٰ حضَرَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَثَبَّتَهُ اللهُ فِي ذَلِكَ الْهَوْلِ فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِ النَّبِيءِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَبَّلَهُ وَقَالَ: «طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا وَاللهِ لَا يَجْمَعُ اللهُ عَلَيْكَ مَوْتَتَيْنِ»(١) .

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ مِنَ الذَّوْقِ، وَهَذَا مِمَّا لَا مَحِيصَ عَنْهُ لِلْإِنْسَانِ، أَيْ أَنْتُمْ صَائِرُونَ إِلَىٰ الْمَوْتِ لا محالة وَلاَ ينجوا مِنْهُ أَحَدٌ مِنْكُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ وَلِلنَّاسِ أَجَلٌ مَحْتُومٌ، وَوَقْتٌ مَعْلُومٌ، لاَ يَتَقَدَّمُونَ عَنْهُ وَلاَ يَتَأَخَّرُونَ ﴿وَنَبْلُوكُمْ﴾ نختبركم في هذه الدنيا ﴿بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ﴾ بِالشِّدَّةِ وَالرَّخَاءِ وَالصِّحَّةِ وَالسَّقَمِ وَالْغِنَىٰ وَالْفَقْرِ، وَقِيلَ: بِمَا تُحِبُّونَ وَمَا تكرهون، ﴿فِتْنَةً﴾ ابتلاء لننظر كيف شكرتم فِيمَا تُحِبُّونَ، وَصَبْرُكُمْ فِيمَا تَكْرَهُونَ، ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾أَيْ فَنُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ.

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يَعْنِي كُفَّارَ قُرَيْشٍ كَأَبِي جَهْلٍ وَأَشْبَاهِهِ ﴿إِنْ يَتَّخِذُونَكَ﴾ ما يتخذونك، ﴿إِلَّا هُزُوًا﴾ سُخْرِيًّا، قَالَ السُّدِّيُّ: نَزَلَتْ فِي أَبِي جَهْلٍ مَرَّ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضَحِكَ، وَقَالَ: هَذَا نَبِيُّ

---

(١) البخاري (١٢٤١) .

بَنِي عَبْدِ مناف، ﴿أَهَذَا الَّذِي﴾ أَيْ يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَهَذَا الذي، ﴿يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ أَيْ يَعِيبُهَا، يُقَالُ: فُلَانٌ يَذْكُرُ فُلَانًا أَيْ يَعِيبُهُ، وَفُلَانٌ يَذْكُرُ الله أي يعظمه ويبجله، ﴿وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ لَا نعرف الرحمن إلا مسيلمة، و ﴿هُمْ كافرون﴾ هَذَا وَصْفٌ آخَرُ لِمَا يُؤْذِي بِهِ الْمُشْرِكُونَ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ يَرَوْنَهُ فَهُوَ أَخَصُّ مِنْ أَذَاهُمْ إِيَّاهُ فِي مَغِيبِهِ، فَإِذَا رَأَوْهُ يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَهذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ، قَالَ السَّعْدِيُّ: «وَفِي ذِكْرِ اسْمِهِ ﴿الرَّحْمَنِ﴾ هُنَا، بَيَانٌ لِقَبَاحَةِ حَالِهِمْ، وَأَنَّهُمْ كَيْفَ قَابَلُوا الرَّحْمَنَ - مُسْدِيَ النِّعَمِ كُلِّهَا، وَدَافِعَ النِّقَمِ الَّذِي مَا بِالْعِبَادِ مِنْ نِعْمَةٍ إِلَّا مِنْهُ، وَلَا يَدْفَعُ السُّوءَ إِلَّا إِيَّاهُ - بِالْكُفْرِ وَالشِّرْكِ.

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ اخْتَلَفُوا فِيهِ، فَقَالَ قَوْمٌ. مَعْنَاهُ أَنْ بِنْيَتَهُ وَخِلْقَتَهُ مِنَ الْعَجَلَةِ وعليها طبع، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ وَالْمُرَادُ بِالْإِنْسَانِ آدَمُ، وَأُورِثَ أَوْلَادُهُ الْعَجَلَةَ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِلَّذِي يُكْثُرُ مِنْهُ الشَّيْءُ: خُلِقْتَ مِنْهُ، كَمَا يقول: خلقت من تعب وخلقت من غضب، تريد الْمُبَالَغَةُ فِي وَصْفِهِ بِذَلِكَ، يَدُلُّ عَلَىٰ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْإِنْسَانِ النَّاسُ كُلُّهُمْ. ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ هذا خطاب للمشركين، نَزَلَ هَذَا فِي الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يستعجلون بالعذاب وَيَقُولُونَ أَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ: وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي النَّضِرِ بْنِ الْحَارِثِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي﴾ أَيْ مَوَاعِيدِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ، أَيْ فلا

تطلبوا العذاب من وَقْتِهِ، فَأَرَاهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ، الْمُرَادُ بِالْآيَاتِ مَا دَلَّ عَلَىٰ صِدْقِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ، وَمَا جَعَلَهُ لَهُ مِنَ الْعَاقِبَةِ الْمَحْمُودَةِ. وَقِيلَ: مَا طَلَبُوهُ مِنَ الْعَذَابِ، فَأَرَادُوا الاستعجال وقالوا: ﴿ مَتىٰ هذَا الْوَعْدُ ﴾ وما علموا أن لكل شي أجلا مضروبا.

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ أَيِ الْمَوْعُودُ، وَقِيلَ: مَعْنَىٰ الْوَعْدُ : هُنَا الْوَعِيدُ، أَيِ الَّذِي يَعِدُنَا مِنَ الْعَذَابِ، وَقِيلَ: الْقِيَامَةُ ، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ يا معشر المؤمنين.

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ﴾ لَا يَدْفَعُونَ قال القرطبي : لَمُ هُنَا بِمَعْنَىٰ الْمَعْرِفَةِ فَلَا يَقْتَضِي مَفْعُولًا ثَانِيًا مثل : ﴿ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال : ٦٠] ، وَقَالَ الْكِسَائِيُّ: هُوَ تَنْبِيهٌ عَلَىٰ تَحْقِيقِ وُقُوعِ السَّاعَةِ، أَيْ لَوْ عَلِمُوهُ عِلْمَ يَقِينٍ لَعَلِمُوا أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ ﴿عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ فَالْعَذَابُ مُحِيطٌ بِهِمْ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِمْ وقِيلَ: وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمُ السِّيَاطَ، ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ يُمْنَعُونَ مِنَ الْعَذَابِ، وَجَوَابُ لَوْ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ﴾ مَحْذُوفٌ مَعْنَاهُ: وَلَوْ عَلِمُوا لَمَا أَقَامُوا عَلَىٰ كُفْرِهِمْ، وَلَمَا اسْتَعْجَلُوا، وَلَا قَالُوا مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ.

[٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ﴾ يعني الساعة ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة، ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ أَيْ تُحَيِّرُهُمْ، يُقَالُ: فُلَانٌ مَبْهُوتٌ أَيْ مُتَحَيِّرٌ،أَيْ تَذْعَرُهُمْ فَيَسْتَسْلِمُونَ لَهَا، حَائِرِينَ لَا يَدْرُونَ مَا يَصْنَعُونَ ﴿فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أَيْ لَيْسَ لَهُمْ حِيلَةٌ فِي

ذَلِكَ، ﴿وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أَيْ وَلَا يُؤَخَّرُ عَنْهُمْ ذَلِكَ سَاعَةً وَاحِدَةً. وقال القرطبي: أي: لا يمهلون ويؤخرون لتوبة واعتذار.

[٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ هَذَا تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَعْزِيَةٌ لَهُ، يَقُولُ: إِنِ اسْتَهْزَأَ بِكَ هَؤُلَاءِ، فَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ، فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرُوا، ثُمَّ وَعَدَهُ النَّصْرَ فَقَالَ: ﴿فحاقَ﴾ أَيْ أَحَاطَ وَدَارَ ﴿بِالَّذِينَ﴾ كَفَرُوا وَ ﴿سَخِرُوا مِنْهُمْ﴾ وهزءوا بهم ﴿ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ أي جزاء استهزائهم.

[٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ﴾ يَحْرُسُكُمْ وَيَحْفَظُكُمْ. وَالْكَلَاءَةُ الْحِرَاسَةُ وَالْحِفْظُ، قِيلَ: مَخْرَجُ اللَّفْظِ مَخْرَجُ الِاسْتِفْهَامِ وَالْمُرَادُ بِهِ النَّفْيُ. وَتَقْدِيرُهُ: قُلْ لَا حَافِظَ لكم ﴿بِاللَّيْلِ﴾ إذا نمتم ﴿وَ﴾ بـ ﴿النَّهارِ﴾ إِذَا قُمْتُمْ وَتَصَرَّفْتُمْ فِي أُمُورِكُمْ، ﴿مِنَ الرَّحْمنِ﴾ أَيْ مِنْ عَذَابِهِ وَبَأْسِهِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَنْ يَمْنَعُكُمْ مِنْ عَذَابِ الرَّحْمَنِ، ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ﴾ عَنِ الْقُرْآنِ وَمَوَاعِظِ اللهِ، ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لَاهُونَ غَافِلُونَ، وَالْخِطَابُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْمُسْتَعْجِلِينَ الْعَذَابَ، أَيْ: قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ، مَنْ يَحْفَظُكُمْ وَيَحْرُسُكُمْ بِاللَّيْلِ إِذَا نُمْتُمْ، وَبِالنَّهَارِ إِذَا انْتَشَرْتُمْ مِنْ أَمْرِ الرَّحْمَنِ إِنْ نَزَلَ بِكُمْ، وَمِنْ عَذَابِهِ إِنْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ.

[٤٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ الْمَعْنَىٰ: أَلَهُمْ وَالْمِيمُ صِلَةٌ، ﴿تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا﴾ أَيْ مِنْ عَذَابِنَا، فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، تَقْدِيرُهُ: أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ مِنْ دُونِنَا تَمْنَعُهُمْ، ثُمَّ وَصَفَ الْآلِهَةَ بِالضَّعْفِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ﴾ مَنْعَ

أَنْفُسِهِمْ، فَكَيْفَ يَنْصُرُونَ عَابِدِيهِمْ، ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُمْنَعُونَ ، وَعَنْهُ: يُجَارُونَ، وَهُوَ اخْتِيَارُ الطَّبَرِيِّ ، تَقُولُ الْعَرَبُ: أَنَا لَكَ جَارٌ وَصَاحِبٌ مِنْ فُلَانٍ، أَيْ مُجِيرٌ مِنْهُ، وقال قَتَادَةُ: أَيْ لَا يَصْحَبُهُمُ اللهُ بِخَيْرٍ، وَلَا يَجْعَلُ رَحْمَتَهُ صَاحِبًا لَهُمْ.

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ﴾ الكفار، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ أَهْلَ مَكَّةَ. أي بسطنا لهم ولآبائهم في نعيمها ﴿وَآبَاءَهُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا أَيْ أَمْهَلْنَاهُمْ. وَقِيلَ: أَعْطَيْنَاهُمُ النِّعْمَةَ، وَلِهَذَا لَمَّا قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ رآه علىٰ رمال الحصير، قَدْ أَثَّرَ بِجَنْبِهِ، فَابْتَدَرَتْ عَيْنَاهُ بِالْبُكَاءِ، وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! هَذَا كِسْرَىٰ وَقَيْصَرُ فِيمَا هم فِيهِ، وَأَنْتَ صَفْوَةُ اللهِ مِنْ خَلْقِهِ؟ وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَّكِئًا فجلس وقال: «**أَو فِي شَكٍّ أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟**» ، ثُمَّ قَالَ صلىٰ الله عليه وسلم: «**أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «**أَمَا تَرْضَىٰ أَنْ تَكُونَ لهم الدنيا ولنا الآخرة**»(١)، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لَا تَشْرَبُوا فِي آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَلاَ تَأْكُلُوا فِي صِحَافِهَا، فَإِنَّهَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَنَا فِي الْآخِرَةِ**»(٢) ، وَإِنَّمَا خوَّلهم الله تعالىٰ في الدنيا لحقارتها، قَالَ رَسُولُ اللهِ

---

(١) البخاري (٤٩١٣) ومسلم (١٤٧٩) .

(٢) البخاري (٥٤٢٦) ومسلم (١٨٧٨) .

صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَىٰ مِنْهَا كَافِرًا شَرْبَةَ مَاءٍ أبداً**»(١) .

قَوْلُهُ: ﴿حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ أَيِ امْتَدَّ بِهِمُ الزَّمَانُ فَاغْتَرُّوا، فيَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّمَا غَرَّهُمْ وَحَمَلَهُمْ عَلَىٰ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ: أَنَّهُمْ مُتِّعُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنُعِّمُوا، وَطَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ فِيمَا هُمْ فِيهِ، فَاعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ؛ ثُمَّ قَالَ وَاعِظًا لَهُمْ: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أي مَا نَنْقُصُ مِنْ أَطْرَافِ الْمُشْرِكِينَ وَنَزِيدُ فِي أَطْرَافِ الْمُؤْمِنِينَ، يُرِيدُ ظُهُورَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفَتْحَهُ دِيَارَ الشِّرْكِ أَرْضًا فأرضا، عَن ابْن عَبَّاس – رَضِي الله عَنْهُمَا – فِي قَوْله ﴿ننقصها من أطرافها﴾ قَالَ: موت علمائها وفقهائها وَذَهَاب خِيَار أَهلهَا وقال عِكْرِمَةُ وَالشَّعْبِيُّ: هُوَ النُّقْصَانُ وَقَبْضُ الْأَنْفُسِ ، وَقِيلَ: نَقْصُهَا بِجَوْرِ وُلَاتِهَا ، قال القرطبي : وَهَذَا صَحِيحٌ مَعْنًىٰ، فَإِنَّ الْجَوْرَ وَالظُّلْمَ يُخَرِّبُ الْبِلَادَ، بِقَتْلِ أَهْلِهَا وَانْجِلَائِهِمْ عَنْهَا، وَتُرْفَعُ مِنَ الْأَرْضِ الْبَرَكَةُ، وَاللهُ أَعْلَمُ ، ﴿أَفَهُمُ الغالِبُونَ﴾ يَعْنِي كُفَّارَ مَكَّةَ بَعْدَ أَنْ نَقَصْنَا مِنْ أطرافهم، بل أنت تغلبهم وتظهر عليهم.

[٤٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ أَيْ أُخَوِّفُكُمْ وَأُحَذِّرُكُمْ بِالْقُرْآنِ، ﴿وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ إِذا ما يُنْذَرُونَ﴾ أَيْ مَنْ أَصَمَّ اللهُ قَلْبَهُ، وَخَتَمَ

---

(١) الترمذي (٢٣٢٠) وابن ماجه (٤١١٠) .

عَلَىٰ سَمْعِهِ، وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً، عَنْ فَهْمِ الْآيَاتِ وَسَمَاعِ الْحَقِّ، قال قتادة: إن الكافر قد صمَّ عن كتاب الله لا يسمعه، ولا ينتفع به ولا يعقله، كما يسمعه المؤمن وأهل الإيمان.

[٤٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ﴾ أصابتهم ﴿نَفْحَةٌ﴾ وَالْمَسُّ: اتِّصَالٌ بِظَاهِرِ الْجِسْمِ. وَالنَّفْحَةُ: الْمَرَّةُ مِنَ الرَّضْخِ فِي الْعَطِيَّةِ، يُقَالُ نَفَحَهُ بِشَيْءٍ إِذَا أَعْطَاهُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما طرف ، وقيل: قليل، وقال ابْنُ جُرَيْجٍ: نَصِيبٌ، مِنْ قَوْلِهِمْ نَفَحَ فُلَانٌ لِفُلَانٍ مِنْ مَالِهِ أي أعطاه حظا ونصيبا مِنْهُ. وقال ابن كيسان: قليل وأدنىٰ شي، مأخوذة من نفح المسك، وَقِيلَ: ضَرْبَةٌ مِنْ قَوْلِهِمْ نَفَحَتِ الدَّابَّةُ بِرِجْلِهَا إِذَا ضَرَبَتْ بها، ﴿مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أَيْ بِإِهْلَاكِنَا إِنَّا كُنَّا مُشْرِكِينَ، دَعَوْا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْوَيْلِ بَعْدَمَا أَقَرُّوا بِالشِّرْكِ.

[٤٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ أَيْ ذَوَاتِ الْقِسْطِ وَالْقِسْطُ: الْعَدْلُ، الموازِينُ جَمْعُ مِيزَانٍ ، و يَدُلُّ بِظَاهِرِهِ عَلَىٰ أَنَّ لِكُلِّ مُكَلَّفٍ مِيزَانًا تُوزَنُ بِهِ أَعْمَالُهُ، فَتُوضَعُ الْحَسَنَاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالسَّيِّئَاتُ فِي كِفَّةٍ. و(القسط) الْعَدْلُ أَيْ لَيْسَ فِيهَا بَخْسٌ وَلَا ظُلْمٌ كما يكون في وزن الدنيا، ﴿لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أي: لا تنقص من ثواب حسناتها ولا يزاد علىٰ سيئاتها ، وَقِيلَ: الْمَعْنَىٰ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ. ﴿فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أَيْ لَا يُنْقَصُ مِنْ إِحْسَانِ مُحْسِنٍ وَلَا يزاد في إساءة مسي. ﴿وَإِنْ كَانَ﴾ الشيء، ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ أي زنة مثقال حبة،

وَمِثْقَالُ الشَّيْءِ مِيزَانُهُ مِنْ مِثْلِهِ ، ﴿مِنْ خَرْدَلٍ﴾ أي وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ الشَّيْءُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ من خردل، ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ أَحْضَرْنَاهَا لِنُجَازِيَ بِهَا، ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ أي مجازين عَلَىٰ مَا قَدَّمُوهُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، قَالَ السُّدِّيُّ: مُحْصِينَ، وَالْحَسْبُ مَعْنَاهُ: الْعَدُّ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: عَالِمِينَ حَافِظِينَ، لِأَنَّ مَنْ حَسَبَ شَيْئًا عَلِمَهُ وَحَفِظَهُ.

[٤٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ يَعْنِي الْكِتَابَ الْمُفَرِّقَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَهُوَ التَّوْرَاةُ ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: الْفَرْقَانُ النَّصْرُ عَلَىٰ الْأَعْدَاءِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ [الْأَنْفَالِ: ٤١] يَعْنِي يَوْمَ بَدْرٍ لِأَنَّهُ قال ﴿وَضِيَاءً﴾ أَدْخَلَ الْوَاوَ فِيهِ أَيْ آتَيْنَا مُوسَىٰ النَّصْرَ وَالضِّيَاءَ، وَهُوَ التَّوْرَاةُ. وقيل: معنىٰ الآية: ولقد آتينا موسىٰ وهرون النَّصْرَ وَالتَّوْرَاةَ الَّتِي هِيَ الضِّيَاءُ وَالذِّكْرُ. وَقِيلَ: هُوَ صِفَةٌ أُخْرَىٰ للتوراة، ﴿وَذِكْرًا﴾ تذكيرا، ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾.

[٤٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ أَيْ يَخَافُونَهُ وَلَمْ يَرَوْهُ، قال القرطبي : أَيْ غَائِبِينَ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا اللهَ تَعَالَىٰ، بَلْ عَرَفُوا بِالنَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ أَنَّ لَهُمْ رَبًّا قَادِرًا، يُجَازِي عَلَىٰ الْأَعْمَالِ فَهُمْ يَخْشَوْنَهُ فِي سَرَائِرِهِمْ، وَخَلْوَاتِهِمُ الَّتِي يَغِيبُونَ فِيهَا عَنِ النَّاسِ، ﴿وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ﴾ أَيْ مِنْ قِيَامِهَا قَبْلَ التَّوْبَةِ، ﴿مُشْفِقُونَ﴾ أَيْ خَائِفُونَ وَجِلُونَ ، كَمَالُ مَعْرِفَتِهِمْ بِرَبِّهِمْ، فَجَمَعُوا بَيْنَ

الْإِحْسَانِ وَالْخَوْفِ، وَالْعَطْفُ هُنَا مِنْ بَابِ عَطْفِ الصِّفَاتِ الْمُتَغَايِرَاتِ، الْوَارِدَةِ عَلَىٰ شَيْءٍ وَاحِدٍ وَمَوْصُوفٍ وَاحِدٍ.

[٥٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ وَهُوَ ذِكْرٌ لِمَنْ تذكر به، مبارك لمن يَتَبَرَّكُ بِهِ وَيَطْلُبُ مِنْهُ الْخَيْرَ، قَالَ السَّعْدِيُّ: وَلَا شَيْءَ أَعْظَمُ بَرَكَةً مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ، فَإِنَّ كُلَّ خَيْرٍ وَنِعْمَةٍ، وَزِيَادَةٍ دِينِيَّةٍ أَوْ دُنْيَوِيَّةٍ، أَوْ أُخْرَوِيَّةٍ، فَإِنَّهَا بِسَبَبِهِ، وَأَثَرٌ عَنِ الْعَمَلِ بِهِ، فَإِذَا كَانَ ذِكْرًا مُبَارَكًا، وَجَبَ تَلَقِّيهِ بِالْقَبُولِ وَالِانْقِيَادِ، وَالتَّسْلِيمِ، وَشُكْرُ اللهِ عَلَىٰ هَذِهِ الْمِنْحَةِ الْجَلِيلَةِ، وَالْقِيَامُ بِهَا، وَاسْتِخْرَاجُ بَرَكَتِهِ، بِتَعَلُّمِ أَلْفَاظِهِ وَمَعَانِيهِ، وَأَمَّا مُقَابَلَتُهُ بِضِدِّ هَذِهِ الْحَالَةِ، مِنَ الْإِعْرَاضِ عَنْهُ، وَالْإِضْرَابِ عَنْهُ صَفْحًا وَإِنْكَارِهِ، وَعَدَمِ الْإِيمَانِ بِهِ فَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْكُفْرِ وَأَشَدِّ الْجَهْلِ وَالظُّلْمِ يَا أَهْلَ مَكَّةَ، ﴿أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ جاحدون، وهذا اسْتِفْهَامُ تَوْبِيخٍ وَتَقريع.

[٥١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: أَيْ صَلَاحَهُ، ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ يعني مِنْ قَبْلِ مُوسَىٰ وَهَارُونَ، وقيل: أَيْ مِنْ قَبْلِ النُّبُوَّةِ، أَيْ وَفَّقْنَاهُ لِلنَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ، لَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ فَرَأَىٰ النَّجْمَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ أَنَّهُ أَهْلٌ لِلْهِدَايَةِ وَصَالِحٌ لِلنُّبُوَّةِ، وقال الطبري: وكنا عالمين به أنه ذو يقين وإيمان بالله وتوحيد له، لا يشرك به شيئًا.

[٥٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ قالَ لِأَبِيهِ﴾ أَيِ اذْكُرْ حِينَ قَالَ لِأَبِيهِ، وَهُوَ آزَرُ وَقَوْمِهِ، نُمْرُودُ وَمَنِ اتَّبَعَهُ، ﴿مَا هذِهِ التَّماثِيلُ﴾ أَيِ الْأَصْنَامُ ، وَالتِّمْثَالُ اسْمٌ مَوْضُوعٌ

لِلشَّيْءِ الْمَصْنُوعِ مُشَبَّهًا بِخَلْقٍ مِنْ خَلْقِ اللهِ تَعَالَىٰ. يُقَالُ: مَثَّلْتُ الشَّيْءَ بِالشَّيْءِ أَيْ شَبَّهْتُهُ بِهِ، وَاسْمُ ذَلِكَ الْمُمَثَّلِ تِمْثَالٌ، ﴿الَّتِي أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ﴾ يعني عَلَىٰ عِبَادَتِهَا مُقِيمُونَ، قال ابن كثير: هذا هو الرُّشد الذي أوتيه من صِغره، الإنكارُ علىٰ قومه عبادةَ الأصنام من دون الله عز وجل، فقال: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾، أي: مُعْتكِفون علىٰ عِبادتها، وعَن عَليّ بن أبي طَالب أَنه مر علىٰ قوم يَلْعَبُونَ بالشطرنج فَقَالَ: مَا هَذِه التماثيل الَّتِي أَنْتُم لَهَا عاكفون لِأَن يمس أحدكُم جمراً حَتَّىٰ يطفأ خير لَهُ من أَن يَمَسهَا.

[٥٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ أَيْ نَعْبُدُهَا تَقْلِيدًا لِأَسْلَافِنَا، فلَمْ يَكُنْ لَهُمْ حُجَّةٌ سِوَىٰ صَنِيعِ آبَائِهِمُ الضُّلَّالِ، وَلِهَذَا قَالَ:

[٥٤] : ﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أَيْ فِي خُسْرَانٍ بعِبَادَتِهَا، إِذْ هِيَ جَمَادَاتٌ لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ وَلَا تَعْلَمُ. فَأَنْتُمْ وَهُمْ فِي ضَلَالٍ عَلَىٰ غَيْرِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ، فَلَمَّا سَفَّهَ أَحْلَامَهُمْ وَضَلَّلَ آبَاءَهُمْ وَاحْتَقَرَ آلِهَتَهُمْ.

[٥٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قالُوا أَجِئْتَنا بِالْحَقِّ﴾ أَيْ أَجَاءٍ أَنْتَ بِحَقٍّ فِيمَا تَقُولُ؟ ﴿أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ أَيْ لَاعِبٌ مَازِحٌ، يَعْنُونَ أَجَادٌّ أَنْتَ فِيمَا تَقُولُ ؟!.

[٥٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ أَيْ خَلَقَهُنَّ وَأَبْدَعَهُنَّ ، ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ يعني عَلَىٰ أَنَّهُ الْإِلَهُ الَّذِي لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ غَيْرُهُ ، وَقِيلَ: مِنَ الشاهدين علىٰ أنه خالق السماوات والأرض، قال ابن عاشور : وأَنَا عَلىٰ ذلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ إِعْلَامٌ لَهُمْ بِأَنَّهُ مُرْسَلٌ

مِنَ اللهِ لِإِقَامَةِ دِينِ التَّوْحِيدِ ؛ لِأَنَّ رَسُولَ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدٌ عَلَيْهَا كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنا بِكَ عَلىٰ هؤُلاءِ شَهِيداً﴾ [النِّسَاء: ٤١] وَلَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ فِي قَوْمِهِ مَنْ يَشْهَدُ بِبُطْلَانِ إِلَهِيَّةِ أَصْنَامِهِمْ.

[٥٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ لَأَمْكُرَنَّ بِهَا، وَالتَّاءُ تَخْتَصُّ بِقَسَمٍ عَلَىٰ أَمْرٍ مُتَعَجَّبٍ مِنْهُ وَتَخْتَصُّ بِاسْمِ الْجَلَالَةِ وحده ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ وَحُرْمَةُ اللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ، أَيْ لَأَمْكُرَنَّ بِهَا ، وَالْكَيْدُ : الْمَكْرُ ، ﴿بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ يعني بَعْدَ أَنْ تُدْبِرُوا مُنْطَلِقِينَ إِلَىٰ عيدكم، وَكَانَ لَهُمْ فِي كُلِّ سَنَةٍ عِيدٌ يَجْتَمِعُونَ فِيهِ، فَقَالُوا لِإِبْرَاهِيمَ: لَوْ خَرَجْتَ مَعَنَا إِلَىٰ عِيدِنَا أَعْجَبَكَ دِينُنَا والكيد: احتيال الكائد في ضر الكيد وَأَرَادَ لأَكْسِرَنَّهَا، فَسَمِعَ الْكَلِمَةَ رَجُلٌ مِنْهُمْ فَأَفْشَاهَا عَلَيْهِ. فَدَخَلَ بَيْتَ الأَصْنَامِ وَكَانَتِ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ صَنَمًا مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ وَنُحَاسٍ وَحَدِيدٍ وَخَشَبٍ فكسرها وجعلهم جُذَاذًا أَيْ فُتَاتًا.

[٥٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ أَيْ فُتَاتًا. وَالْجَذُّ الْكَسْرُ وَالْقَطْعُ، جَذَذْتُ الشَّيْءَ كَسَرْتُهُ وَقَطَّعْتُهُ، وَهَذَا هُوَ الْكَيْدُ الَّذِي أَقْسَمَ بِهِ لَيَفْعَلَنَّهُ بِهَا ، ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ﴾ فَإِنَّهُ لَمْ يَكْسِرْهُ وَوَضَعَ الْفَأْسَ فِي عُنُقِهِ، وَقِيلَ: رَبَطَهُ بِيَدِهِ وَكَانَتِ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ صَنَمًا بَعْضُهَا مِنْ ذَهَبٍ وَبَعْضُهَا مِنْ فِضَّةٍ وبعضها من حديد وبعضها من رصاص وَشَبَّةٍ وَخَشَبٍ وَحَجَرٍ، وَكَانَ الصَّنَمُ الْكَبِيرُ مِنَ الذَّهَبِ مُكَلَّلًا بِالْجَوَاهِرِ في عينيه يا قوتتان تَتَّقِدَانِ ، قَوْلُهُ : ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ إِلَىٰ دِينِهِ وَإِلَىٰ مَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ إِذَا عَلِمُوا ضَعْفَ الْآلِهَةِ

وَعَجْزِهَا، وَقِيلَ: لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ فَيَسْأَلُونَهُ، فَلَمَّا رَجَعَ الْقَوْمُ مِنْ عِيدِهِمْ إِلَىٰ بَيْتِ آلِهَتِهِمْ وَرَأَوْا أَصْنَامَهُمْ جُذَاذًا.

[٥٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا﴾ الْمَعْنَىٰ لَمَّا رَجَعُوا مِنْ عِيدِهِمْ وَرَأَوْا مَا أُحْدِثَ بِآلِهَتِهِمْ، قَالُوا عَلَىٰ جِهَةِ الْبَحْثِ وَالإِنْكَارِ: ﴿ مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني من المجرمين.

[٦٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا﴾ يَعْنِي الَّذِينَ سَمِعُوا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ، ﴿سَمِعْنَا فَتًىٰ يَذْكُرُهُمْ﴾ يَعِيبُهُمْ وَيَسُبُّهُمْ، فَلَعَلَّهُ الَّذِي صَنَعَ هَذَا. وَالْفَتَىٰ الشَّابُّ وَالْفَتَاةُ الشَّابَّةُ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا أَرْسَلَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا شَابًّا، وَلَا أُوتِيَ الْعَلَمَ عَالِمٌ إِلَّا وَهُوَ شَابٌّ، وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًىٰ يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ ، قوله : ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ وهو الذي نظن أنه صَنَعَ هَذَا، فَبَلَغَ ذَلِكَ نَمْرُودَ الْجَبَّارَ وَأَشْرَافَ قَوْمِهِ.

[٦١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ قاله نَمْرُودُ يَقُولُ: جِيئُوا بِهِ ظَاهِرًا بِمَرْأَىٰ مِنَ النَّاسِ، أي علىٰ رؤوس الْأَشْهَادِ فِي الْمَلَإِ الْأَكْبَرِ بِحَضْرَةِ النَّاسِ كُلِّهِمْ، هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام، إن يبين فِي هَذَا الْمَحْفِلِ الْعَظِيمِ كَثْرَةُ جَهْلِهِمْ وَقِلَّةُ عقلهم، في عبادة الْأَصْنَامِ الَّتِي لَا تَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهَا ضَرًّا وَلَا تَمْلِكُ لَهَا نَصْرًا، فَكَيْفَ يُطْلَبُ مِنْهَا شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ؟ ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ عَلَيْهِ أَنَّهُ الَّذِي فَعَلَهُ، كَرِهُوا أن يأخذوه بغير بينة، وَقَالَ

مُحَمَّدُ ابن إسحاق: ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ أَيْ يَحْضُرُونَ عِقَابَهُ وَمَا يُصْنَعُ به فلما أتوا به.

[٦٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يا إِبْرَاهِيمُ﴾ أي: سألوه في مشهد الناس أحقًّا أنت الذي فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟ ! ، وإنما أرادوا إقامة البينة عليه ثم عقوبته أمام الملأ ليكون عبرة لمن يعتبر.

[٦٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ غضب من أن يعبد معه الصِّغَارَ وَهُوَ أَكْبَرُ مِنْهَا فَكَسَّرَهُنَّ، وَأَرَادَ بِذَلِكَ إِبْرَاهِيمُ إِقَامَةَ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ حَتَّىٰ يُخْبِرُوا مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ. فَعَلَّقَ فِعْلَ الْكَبِيرِ بِنُطْقِ الْآخَرِينَ، تَنْبِيهًا لَهُمْ عَلَىٰ فَسَادِ اعْتِقَادِهِمْ ، قَالَ الْقُتَيْبِيُّ: مَعْنَاهُ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ عَلَىٰ سَبِيلِ الشَّرْطِ فَجَعَلَ النُّطْقَ شَرْطًا لِلْفِعْلِ أَيْ إِنْ قَدَرُوا عَلَىٰ النُّطْقِ قَدَرُوا عَلَىٰ الْفِعْلِ، فَأَرَاهُمْ عَجْزَهُمْ عَنِ النُّطْقِ، وَفِي ضميره أنا فعلت، وعَن أبي هُرَيْرَة قَالَ: قَالَ رَسُول الله صلىٰ الله عَلَيْهِ وَسلم: « **لم يكذب إِبْرَاهِيم فِي شَيْء قطّ إِلَّا فِي ثَلَاث كُلهنَّ فِي الله: قَوْله :** ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ **وَلم يكن سقيماً ، وَقَوله لسارة أُخْتِي ، وَقَوله:** ﴿بل فعله كَبِيرهمْ هَذَا﴾ »[1].

(١) البخاري (٣٣٥٨) ومسلم (٢٣٧١) .

[٦٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي تفكروا بِقُلُوبِهِمْ وَرَجَعُوا إِلَىٰ عُقُولِهِمْ، ﴿فَقَالُوا﴾ مَا نَرَاهُ إِلَّا كَمَا قَالَ، ﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ يَعْنِي بِعِبَادَتِكُمْ مَنْ لَا يَتَكَلَّمُ. وَقِيلَ: أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ هَذَا الرَّجُلَ سُؤَالِكُمْ إِيَّاهُ وَهَذِهِ آلِهَتُكُمْ حَاضِرَةٌ فَاسْأَلُوهَا ، وَكَيْفَ يَنْفَعُ عَابِدِيهِ وَيَدْفَعُ عَنْهُمُ الْبَأْسَ، مَنْ لَا يَرُدُّ عَنْ رَأْسِهِ الْفَأْسَ.

[٦٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ قَالَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ: أَجْرَىٰ اللهُ الْحَقَّ عَلَىٰ لِسَانِهِمْ فِي الْقَوْلِ الْأَوَّلِ ثُمَّ أَدْرَكَتْهُمُ الشَّقَاوَةُ، فَهُوَ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أَيْ رُدُّوا إِلَىٰ الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَقَرُّوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالظُّلْمِ، وقيل: أطرقوا في الأرض وأصابتهم حيرة من أمرهم، يُقَالُ: نُكِسَ الْمَرِيضُ إِذَا رَجَعَ إلىٰ حالته الأولىٰ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ: أدركهم الشقاء فعادوا إلىٰ كفرهم. وَقَالُوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾فَكَيْفَ نَسْأَلُهُمْ؟ فَلَمَّا اتَّجَهَتِ الْحُجَّةُ لإبراهيم عليه السلام.

[٦٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ إبراهيم عليه السلام ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا﴾ إن عبدتموه، ﴿وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ إِنْ تَرَكْتُمْ عِبَادَتَهُ. أَيْ إذا كانت لا تنطق وهي لا تنفع ولا تضر فَلِمَ تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ؟.

[٦٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أُفٍّ لَكُمْ﴾ يعني تَبًّا وَقَذَرًا لَكُمْ، وأُفٍّ اسْمُ فِعْلٍ دَالٌّ عَلَىٰ الضَّجَرِ، وَهُوَ مَنْقُولٌ مِنْ صُورَةِ تَنَفُّسِ الْمُتَضَجِّرِ لِضِيقِ نَفْسِهِ مِنَ الْغَضَبِ. وَتَنْوِينُ أُفٍّ يُسَمَّىٰ تَنْوِينَ التَّنْكِيرِ وَالْمُرَادُ بِهِ التَّعْظِيمُ، أَيْ ضَجَرًا قَوِيًّا لَكُمْ ،

﴿وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يعني أليس لكم عقل تعرفون به هَذَا، فَلَمَّا لَزِمَتْهُمُ الْحُجَّةُ وَعَجَزُوا عَنِ الْجَوَابِ، إن كنتم تعقلون عرفتم هذه الحال، فلما عدمتم العقل، وارتكبتم الجهل والضلال علىٰ بصيرة، صارت البهائم، أحسن حالا منكم.

[٦٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ يعني إِنْ كُنْتُمْ نَاصِرِينَ لَهَا، لَمَّا انْقَطَعُوا بِالْحُجَّةِ أَخَذَتْهُمْ عِزَّةٌ بِإِثْمٍ ، وَانْصَرَفُوا إِلَىٰ طَرِيقِ الْغَشْمِ وَالْغَلَبَةِ وَقَالُوا حَرِّقُوهُ ، رُوِيَ أَنَّ قَائِلَ هَذِهِ الْمَقَالَةِ هُوَ رَجُلٌ مِنَ الْأَكْرَادِ مِنْ أَعْرَابِ فارس، أي من باديتها، وَقِيلَ: بَلْ قَالَهُ مَلِكُهُمْ نُمْرُودُ ، قَالَ السُّدِّيُّ: حَتَّىٰ إِنْ كَانَتِ الْمَرْأَةُ تَمْرَضُ فَتَنْذُرُ إِنْ عُوفِيَتْ أَنْ تَحْمِلَ حَطَبًا لِحَرِيقِ إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ جَعَلُوهُ فِي جَوبَة (حفرة من من الأرض) مِنَ الْأَرْضِ وَأَضْرَمُوهَا نَارًا فَكَانَ لَهَا شَرَرٌ عظيم ولهب مرتفع لم توقد نار قط مِثْلُهَا، وَجَعَلُوا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي كِفَّةِ الْمَنْجَنِيقِ بِإِشَارَةِ رَجُلٍ مِنْ أَعْرَابِ فَارِسَ مِنَ الأكراد، فَلَمَّا أَلْقَوْهُ قَالَ: حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، روىٰ الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ : « ﴿حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النار، وقالها محمد عليهما السلام حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانـًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوكيل﴾ [آل عمران : ١٧٣] »[١] .

---

(١) البخاري (٤٥٦٣) .

[٦٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْنَا يا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ وَقَالَ ابن عباس: لَوْلَا أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قَالَ: ﴿وَسَلَامًا﴾ لآذىٰ إبراهيم بردها.

[٧٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ أَيِ الْمَغْلُوبِينَ الْأَسْفَلِينَ ؛ لِأَنَّهُمْ أَرَادُوا بِنَبِيِّ اللهِ كَيْدًا، فَكَادَهُمُ اللهُ وَنَجَّاهُ مِنَ النَّارِ، فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَقِيلَ: مَعْنَاهُ إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أرسل علىٰ نمرود وأهله الْبَعُوضَ ، فَأَكَلَتْ لُحُومَهُمْ وَشَرِبَتْ دِمَاءَهُمْ وَدَخَلَتْ وَاحِدَةٌ فِي دِمَاغِهِ فَأَهْلَكَتْهُ.

[٧١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا﴾ مِنْ نَمْرُودَ وَقَوْمِهِ مِنْ أَرْضِ الْعِرَاقِ، ﴿إِلَىٰ الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ يَعْنِي الشَّامَ بَارَكَ اللهُ فِيهَا بِالْخِصْبِ وَكَثْرَةِ الْأَشْجَارِ وَالثِّمَارِ وَالْأَنْهَارِ، ومنها بعث أكثر الأنبياء ، خرج مِنْ أَرْضِ الْعِرَاقِ مُهَاجِرًا إِلَىٰ رَبِّهِ، وَمَعَهُ لُوطٌ وَسَارَةُ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [العنكبوت : ٢٦] فَخَرَجَ يَلْتَمِسُ الْفِرَارَ بِدِينِهِ وَالْأَمَانَ عَلَىٰ عبادة ربه.

[٧٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ مَعْنَىٰ النَّافِلَةِ: الْعَطِيَّةُ وَهُمَا جَمِيعًا مِنْ عَطَاءِ الله نافعة يَعْنِي عَطَاءً، قَالَ الْحَسَنُ وَالضَّحَّاكُ. فَضْلًا. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ: النَّافِلَةُ هُوَ يَعْقُوبُ لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَعْطَاهُ إِسْحَاقَ بِدُعَائِهِ حَيْثُ قَالَ: ﴿هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصَّافَّاتِ: ١٠٠] وزاد يعقوب وهو وِلْدُ الْوَلَدِ، وَالنَّافِلَةُ الزِّيَادَةُ، ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ يعني إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

[٧٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أَيْ رُؤَسَاءَ يُقْتَدَىٰ بِهِمْ فِي الْخَيْرَاتِ وَأَعْمَالِ الطَّاعَاتِ ، وَمَعْنَىٰ ﴿ بِأَمْرِنَا﴾ أَيْ بِمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ الْوَحْيِ وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، فَكَأَنَّهُ قَالَ يَهْدُونَ بِكِتَابِنَا وَقِيلَ: الْمَعْنَىٰ يَهْدُونَ النَّاسَ إِلَىٰ دِينِنَا بِأَمْرِنَا إِيَّاهُمْ بِإِرْشَادِ الْخَلْقِ، وَدُعَائِهِمْ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ ، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ أَيْ أَنْ يَفْعَلُوا الطَّاعَاتِ ﴿وَإِقَامَ الصَّلَاةِ﴾ يَعْنِي الْمُحَافَظَةَ عَلَيْهَا، ﴿وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ إعطاءها، ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ موحدين.

[٧٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ﴾ يعني وَآتَيْنَا لُوطًا، ﴿حُكْمًا وعلماً ﴾ وَالْحُكْمُ النُّبُوَّةُ، وَالْعِلْمُ الْمَعْرِفَةُ بِأَمْرِ الدِّينِ وَمَا يَقَعُ بِهِ الْحُكْمُ بَيْنَ الْخُصُومِ. ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾ يُرِيدُ سَدُومَ. ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَتْ سَبْعَ قُرَىٰ، قَلَبَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ سِتَّةً وَأَبْقَىٰ وَاحِدَةً لِلُوطٍ وَعِيَالِهِ، وَالْخَبَائِثُ: جَمْعُ خَبِيثَةٍ بِتَأْوِيلِ الْفِعْلَةِ، أَيِ الشَّنِيعَةِ. وَكَانَ أَهْلُهَا يَأْتُونَ الذُّكْرَانَ فِي أَدْبَارِهِمْ وَيَتَضَارَطُونَ فِي أَنْدِيَتِهِمْ مَعَ أشياء أخر، كانوا يعملونها مِنَ الْمُنْكَرَاتِ، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ أَيْ خَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ، وَالْفُسُوقُ الْخُرُوجُ.

[٧٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنا﴾ أي فِي النُّبُوَّةِ ، وَقِيلَ: فِي الْإِسْلَامِ ، وَقِيلَ: عَنَىٰ بِالرَّحْمَةِ نجاته مِنْ قَوْمِهِ : ﴿إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، قَالَ السَّعْدِيُّ: وَهَذَا ثَنَاءٌ مِنَ اللهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ (لُوطٍ) عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ،

وَالْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ، بِالصَّوَابِ وَالسَّدَادِ، وَأَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ إِلَىٰ قَوْمِهِ، يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عِبَادَةِ اللهِ، وَيَنْهَاهُمْ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْفَوَاحِشِ.

[٧٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ﴾ أي: واذكر عبدنا ورسولنا : نوح ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ يعني مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَلُوطٍ عليما السلام ، وَقَدْ لَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ، إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عِبَادَةِ اللهِ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الشِّرْكِ بِهِ، وَيُبْدِي فِيهِمْ وَيُعِيدُ، وَيَدْعُوهُمْ سِرًّا وَجِهَارًا، وَلَيْلًا وَنَهَارًا، فَلَمَّا رَآهُمْ لَا يَنْجَعُ فِيهِمُ الْوَعْظُ، وَلَا يُفِيدُ لَدَيْهِمُ الزَّجْرُ، نَادَىٰ رَبَّهُ ، وَقَالَ: ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَىٰ الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً ﴾ [نوح : ٢٦] ، قوله : ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مِنَ الْغَرَقِ وَتَكْذِيبِ قَوْمِهِ. وَقِيلَ: لِأَنَّهُ كَانَ أَطْوَلَ الْأَنْبِيَاءِ عُمْرًا وَأَشَدَّهُمْ بَلَاءً والكرب أشد الغم. وَالْكَرْبُ: شِدَّةُ حُزْنِ النَّفْسِ بِسَبَبِ خَوْفٍ أَوْ حُزْنٍ.

[٧٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَصَرْنَاهُ﴾ مَنَعْنَاهُ، ﴿مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أَنْ يَصِلُوا إِلَيْهِ بِسُوءٍ. وَقَالَ أبو عبيدة: يعني عَلَىٰ الْقَوْمِ، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أَيِ الصَّغِيرَ مِنْهُمْ وَالْكَبِيرَ.

[٧٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ اخْتَلَفُوا فِي الْحَرْثِ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَأَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ: كَانَ الْحَرْثُ كَرْمًا قَدْ تَدَلَّتْ عَنَاقِيدُهُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: كَانَ زَرْعًا، ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ يعني رَعَتْهُ لَيْلًا فَأَفْسَدَتْهُ، فَمَعْنَىٰ نَفَشَتْ فِيهِ دَخَلَتْهُ لَيْلًا، قَالُوا: وَالنَّفْشُ

الِانْفِلَاتُ لِلرَّعْيِ لَيْلًا. وَأُضِيفَ الْغَنَمُ إِلَىٰ الْقَوْمِ لِأَنَّهَا كَانَتْ لِجَمَاعَةٍ مِنَ النَّاسِ كَمَا يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ غَنَمُ الْقَوْمِ ، ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ يعني كان ذلك بعلمنا وبمرأىٰ مِنَّا لَا يَخْفَىٰ عَلَيْنَا عِلْمُهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَالزُّهْرِيُّ: وَذَلِكَ أَنَّ رَجُلَيْنِ دَخَلَا عَلَىٰ داود أحدهما صاحب زرع وَالْآخَرُ صَاحِبُ غَنَمٍ، فَقَالَ صَاحِبُ الزَّرْعِ إِنَّ هَذَا انْفَلَتَتْ غَنَمُهُ لَيْلًا وَوَقَعَتْ فِي حَرْثِي فَأَفْسَدَتْهُ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ شَيْءٌ، فَأَعْطَاهُ دَاوُدُ رِقَابَ الْغَنَمِ بِالْحَرْثِ، فَخَرَجَا فَمَرَّا عَلَىٰ سُلَيْمَانَ فَقَالَ: كَيْفَ قَضَىٰ بَيْنَكُمَا؟ فَأَخْبَرَاهُ، فَقَالَ سُلَيْمَانُ: لَوْ وُلِّيتُ أَمْرَهُمَا لَقَضَيْتُ بِغَيْرِ هذا فَأُخْبِرَ بِذَلِكَ دَاوُدُ فَدَعَاهُ فَقَالَ: كيف تقضي؟ قَالَ: ادْفَعِ الْغَنَمَ إِلَىٰ صَاحِبِ الْحَرْثِ يَنْتَفِعُ بِدَرِّهَا وَنَسْلِهَا وَصُوفِهَا وَمَنَافِعِهَا وَيَبْذُرُ صَاحِبُ الْغَنَمِ لِصَاحِبِ الْحَرْثِ مِثْلَ حَرْثِهِ، فَإِذَا صَارَ الحرث كهيئة يَوْمَ أُكِلَ دُفِعَ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَأَخَذَ صَاحِبُ الْغَنَمِ غَنَمَهُ، فَقَالَ دَاوُدُ: الْقَضَاءُ مَا قَضَيْتَ وَحَكَمَ بذلك.

[٧٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ أَيْ عَلَّمْنَاهُ الْقَضِيَّةَ وَأَلْهَمْنَاهَا سُلَيْمَانَ، ﴿وَكُلًّا﴾ يَعْنِي دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عليهما السلام ﴿آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ قَالَ الْحَسَنُ البصري : لَوْلَا هَذِهِ الْآيَةُ لرأيت الحكام قد أهلكوا وَلَكِنَّ اللهَ حَمِدَ هَذَا بِصَوَابِهِ وأثنىٰ علىٰ هذا باجتهاده، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسلم يقول: «كَانَتِ امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا فَجَاءَ الذِّئْبُ فَذَهَبَ بِابْنِ إِحْدَاهُمَا فَقَالَتْ صَاحِبَتُهَا: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكَ؟ وَقَالَتِ الْأُخْرَىٰ: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ فَتَحَاكَمَتَا إِلَىٰ دَاوُدَ فَقَضَىٰ بِهِ لِلْكُبْرَىٰ، فَخَرَجَتَا عَلَىٰ سُلَيْمَانَ وَأَخْبَرَتَاهُ

فَقَالَ: ائتوني بالسكين أشقه بينهما، ففالت الصُّغْرَىٰ: لَا تَفْعَلْ يَرْحَمُكَ اللهُ فَهُوَ ابْنُهَا فَقَضَىٰ بِهِ لِلصُّغْرَىٰ»، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ أَيْ وَسَخَّرْنَا الْجِبَالَ وَالطَّيْرَ يُسَبِّحْنَ مَعَ دَاوُدَ إِذَا سَبَّحَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ يَفْهَمُ تَسْبِيحَ الحجر والشجر ، وقال وَهْبٌ: كَانَتِ الْجِبَالُ تُجَاوِبُهُ بِالتَّسْبِيحِ وَكَذَلِكَ الطَّيْرُ. وَقَالَ قَتَادَةُ. يُسَبِّحْنَ أَيْ يُصَلِّينَ مَعَهُ إِذَا صَلَّىٰ ، وقيل: كان داود إذ فَتَرَ يُسْمِعُهُ اللهُ تَسْبِيحَ الْجِبَالِ وَالطَّيْرِ لِيَنْشَطَ فِي التَّسْبِيحِ وَيَشْتَاقَ إليه ، ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ مَا ذَكَرَ مِنَ التَّفْهِيمِ وَإِيتَاءِ الْحُكْمِ وَالتَّسْخِيرِ.

[٨٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾ المراد بِاللَّبُوسِ هُنَا الدُّرُوعُ لِأَنَّهَا تُلْبَسُ وَهُوَ فِي اللُّغَةِ اسْمٌ لِكُلِّ مَا يُلْبَسُ وَيُسْتَعْمَلُ فِي الْأَسْلِحَةِ كُلِّهَا، وَهُوَ بِمَعْنَىٰ الْمَلْبُوسِ كَالْجُلُوسِ وَالرُّكُوبِ، واللبوس أَصْلُهُ اسْمٌ لِكُلِّ مَا يُلْبَسُ، وَغَلَبَ إِطْلَاقُهُ عَلَىٰ مَا يُلْبَسُ مِنْ لَامَةِ الْحَرْبِ مِنَ الْحَدِيدِ، وَهُوَ الدِّرْعُ، قَالَ قَتَادَةُ: أَوَّلُ مَنْ صَنَعَ الدُّرُوعَ وَسَرَدَهَا وَحَلَّقَهَا دَاوُدُ وَكَانَتْ مِنْ قَبْلُ صَفَائِحَ وَالدِّرْعُ يجمع الخفة والحصانة، ﴿لِتُحْصِنَكُمْ﴾ لتحرزكم وتمنعكم، ﴿مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ أي من حَرْبِ عَدُوِّكُمْ، قَالَ السُّدِّيُّ: مِنْ وقع السلاح فيكم وقيل: ليحصنكم الله ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ يَقُولُ لِدَاوُدَ وَأَهْلِ بَيْتِهِ، وَقِيلَ: يَقُولُ لِأَهْلِ مَكَّةَ. فَهَلْ أَنْتُمْ شاكرون نعمي بطاعة الرسول.

[٨١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ أَيْ وَسَخَّرْنَا لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ، وَالرِّيحُ يُذَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ، عَاصِفَةٌ شَدِيدَةُ الْهُبُوبِ، يُقَالُ مِنْهُ: عَصَفَتِ الرِّيحُ

أَيِ اشْتَدَّتْ فَهِيَ رِيحٌ عَاصِفٌ ، قِيلَ: كَانَتِ الرِّيحُ تَحْتَ أَمْرِهِ إِنْ أَرَادَ أَنْ تَشْتَدَّ اشْتَدَّتْ، وَإِنْ أَرَادَ أَنْ تَلِينَ لَانَتْ، عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " إِذَا أَفَادَ أَحَدُكُمُ امْرَأَةً، أَوْ خَادِمًا، أَوْ دَابَّةً، فَلْيَأْخُذْ بِنَاصِيَتِهَا، وَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِهَا، وَخَيْرِ مَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا، وَشَرِّ مَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَىٰ الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ يَعْنِي الشَّامَ وَذَلِكَ أَنَّهَا كَانَتْ تَجْرِي لِسُلَيْمَانَ وَأَصْحَابِهِ حَيْثُ شَاءَ سليمان ثم يعود إِلَىٰ مَنْزِلِهِ بِالشَّامِ ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ علمناه، ﴿عَالِمِينَ﴾ بصحة التدبير فيه أي عَلِمْنَا أَنَّ مَا يُعْطَىٰ سُلَيْمَانُ من تَسْخِيرِ الرِّيحِ وَغَيْرِهِ يَدْعُوهُ إِلَىٰ الخضوع لربه عَزَّ وَجَلَّ.

[٨٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ﴾ يعني وَسَخَّرْنَا لَهُ مِنَ الشَّيَاطِينِ، ﴿مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ﴾ يعني يَدْخُلُونَ تَحْتَ الْمَاءِ فَيُخْرِجُونَ لَهُ مِنْ قَعْرِ الْبَحْرِ الْجَوَاهِرَ، ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾ يعني دُونَ الْغَوْصِ وَهُوَ مَا ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ﴾ ، قوله : ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ حَتَّىٰ لَا يَخْرُجُوا مِنْ أَمْرِهِ. وَقَالَ الزَّجَّاجُ: مَعْنَاهُ حَفِظْنَاهُمْ مِنْ أن يفسدوا ما عملوا، وَمَعْنَىٰ وَكُنَّا لَهُمْ حافِظِينَ أَنَّ اللهَ بِقُدْرَتِهِ سَخَّرَهُمْ لِسُلَيْمَانَ وَمَنَعَهُمْ عَنْ أَنْ يَنْفَلِتُوا عَنْهُ أَوْ أَنْ يَعْصُوهُ، وَجَعَلَهُمْ يَعْمَلُونَ فِي خَفَاءٍ وَلَا يُؤْذُوا أَحَدًا مِنَ النَّاسِ فَجَمَعَ اللهُ بِحِكْمَتِهِ بَيْنَ تَسْخِيرِهِمْ لِسُلَيْمَانَ وَعِلْمِهِ كَيْفَ يَحْكُمُهُمْ وَيَسْتَخْدِمُهُمْ

وَيُطَوِّعُهُمْ، وَجَعَلَهُمْ مُنْقَادِينَ لَهُ وَقَائِمِينَ بِخِدْمَتِهِ دُونَ عَنَاءٍ لَهُ، وَحَالَ دُونَهُمْ وَدُونَ النَّاسِ لِئَلَّا يُؤْذُوهُمْ.

[٨٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ يعني دعا ربه، أَنَّهُ كَانَ نَبِيًّا وَذَا ثَرْوَةٍ وَاسِعَةٍ وَعَائِلَةٍ صَالِحَةٍ مُتَوَاصِلَةٍ، ثُمَّ ابْتُلِيَ بِإِصَابَاتٍ لَحِقَتْ أَمْوَالَهُ مُتَتَابِعَةً فَأَتَتْ عَلَيْهَا، وَفَقَدَ أَبْنَاءَهُ السَّبْعَةَ وَبَنَاتِهِ الثَّلَاثَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ، فَتَلَقَّىٰ ذَلِكَ بِالصَّبْرِ وَالتَّسْلِيمِ. ثُمَّ ابْتُلِيَ بِإِصَابَةِ قُرُوحٍ فِي جَسَدِهِ وَتَلَقَّىٰ ذَلِكَ كُلَّهُ بِصَبْرٍ وَحِكْمَةٍ وَهُوَ يَبْتَهِلُ إِلَىٰ اللهِ بِالتَّمْجِيدِ وَالدُّعَاءِ بِكَشْفِ الضُّرِّ، وَتَلَقَّىٰ رِثَاءَ أَصْحَابِهِ لِحَالِهِ بِكَلَامٍ عَزِيزِ الْحِكْمَةِ وَالْمَعْرِفَةِ بِاللهِ، وَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ بِمَوَاعِظَ، ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِ صِحَّتَهُ وَأَخْلَفَهُ مَالًا أَكْثَرَ مِنْ مَالِهِ وَوَلَدَتْ لَهُ زَوْجُهُ أَوْلَادًا وَبَنَاتٍ بِعَدَدِ مَنْ هَلَكُوا لَهُ مِنْ قَبْلُ.

قَوْلُهُ ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾، وَالْمَسُّ: الْإِصَابَةُ الْخَفِيفَةُ ، وَالتَّعْبِيرُ بِهِ حِكَايَةً لِمَا سَلَكَهُ أَيُّوبُ فِي دُعَائِهِ مِنَ الْأَدَبِ مَعَ اللهِ إِذْ جَعَلَ مَا حَلَّ بِهِ مِنَ الضُّرِّ كَالْمَسِّ الْخَفِيفِ. وَالضُّرُّ: مَا يَتَضَرَّرُ بِهِ الْمَرْءُ فِي جَسَدِهِ مِنْ مرض أَو هزال، أَوْ فِي مَالِهِ مِنْ نَقْصٍ وَنَحْوِهِ ، ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فتوسل إلىٰ الله بالإخبار عن حال نفسه، وأنه بلغ الضر منه كل مبلغ، وبرحمة ربه الواسعة العامة فاستجاب الله له.

[٨٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ جاء في الحديث عن أَنَس بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

قَالَ: إِنَّ نَبِيَّ اللهِ أَيُّوبَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَبِثَ فِي بَلائِهِ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً فَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ إِلاَّ رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِهِ كَانَا مِنْ أَخَصِّ إِخْوَانِهِ كَانَا يَغْدُوَانِ إِلَيْهِ وَيَرُوحَانِ فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: تَعْلَمُ وَاللهِ لَقَدْ أَذْنَبَ ذَنْبًا مَا أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: قَدْ أَصَابَهُ مُنْذُ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَرْحَمْهُ اللهُ فَيَكْشِفُ مَا بِهِ فَلَمَّا رَأَىٰ حَالَهُ لَمْ يَصْبِرِ الرَّجُلُ حَتَّىٰ ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ أَيُّوبُ: لا أَدْرِي مَا تَقُولُ غَيْرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مِنِّي أَنِّي كُنْتُ أَمُرُّ عَلَىٰ الرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ فَيَذْكُرَانِ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فَأَرْجِعُ إِلَىٰ بَيْتِي فَأُكَفِّرُ عَنْهُمَا كَرَاهَةَ أن يذكران اللهَ إلاَّ فِي حَقٍّ، وَكان يَخْرُجُ إِلَىٰ الْحَاجَةِ فَإِذَا قَضَاهَا أَمْسَكَتِ امْرَأَتُهُ بِيَدِهِ حَتَّىٰ يبلغ فلما ذَاتَ يَوْمٍ أَبْطَأَتْ عَلَيْهِ وَأُوحِيَ إِلَىٰ أَيُّوبَ فِي مَكَانِهِ أَنْ ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بارد وشراب﴾ قَالَ: فَاسْتَبْطَأَتْهُ فَتَلَقَّتْهُ تَنْظُرُ وَأَقْبَلَ عَلَيْهَا قَدْ أَذْهَبَ اللهُ مَا بِهِ مِنَ الْبَلاءِ، وهُو أَحْسَنُ مَا كَانَ فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ: أَيْ بَارَكَ اللهُ فِيكَ هَلْ رَأَيْتَ نَبِيَّ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذَا الْمُبْتَلَىٰ وَاللهِ عَلَىٰ ذَلِكَ مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَشْبَهَ بِهِ مِنْكَ إِذَا كَانَ صَحِيحًا قَالَ: فَإِنِّي أَنَا هُوَ قَالَ: وَكان لَهُ أَنْدَرَانِ: أَنْدَرٌ لِلْقَمْحِ وَأَنْدَرٌ لِلشَّعِيرِ ، فَبَعَثَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ سَحَابَتَيْنِ ، فلما كانت أحدهما عَلَىٰ أَنْدَرِ الْقَمْحِ أَفْرَغَتْ فِيهِ الذَّهَبَ حَتَّىٰ فَاضَ ، وَأَفْرَغَتِ الأُخْرَىٰ فِي أَنْدَرِ الشَّعِيرِ الْوَرِقَ حَتَّىٰ فَاضَ[1].

---

(١) ابن حبان (٥٦٣٢) والحاكم (٤١١٥) .

[٨٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ﴾ يعني ابن إبراهيم، ﴿وَإِدْرِيسَ﴾ يقل أن اسمه : (أُخْنُوخ) ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ صَبْرَهُ كَانَ عَلَىٰ تَتَبُّعِ الْحِكْمَةِ وَالْعُلُومِ وَمَا لَقِيَ فِي رَحَلَاتِهِ مِنَ الْمَتَاعِبِ ، ﴿وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ وَأَمَّا ذُو الْكِفْلِ فَهُوَ نَبِي اخْتُلِفَ فِي تَعْيِينِهِ، فَقِيلَ هُوَ إِلْيَاسُ الْمُسَمَّىٰ فِي كُتُبِ الْيَهُودِ (إِيلِيَا) ، وَقِيلَ: هُوَ خَلِيفَةُ اليسع فِي نبوءة بَنِي إِسْرَائِيلَ.عَلَىٰ أَمْرِ اللهِ، قال ابن كثير :الظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّهُ مَا قُرِنَ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَهُوَ نَبِيٌّ، وَقَالَ آخَرُونَ: إِنَّمَا كَانَ رَجُلًا صَالِحًا وَكَانَ مَلِكًا عَادِلًا وَحَكَمًا مُقْسِطًا؛ وَتَوَقَّفَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي ذَلِكَ فَاللهُ أَعْلَمُ.

[٨٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا﴾ يعني ما أنعم به عليهم في الدنيا مِنَ النُّبُوَّةِ وَصَيَّرَهُمْ إِلَيْهِ فِي الْجَنَّةِ مِنَ الثَّوَابِ، ﴿إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ .

[٨٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَذَا النُّونِ﴾ أَيْ اذْكُرْ صَاحِبَ الْحُوتِ وَهُوَ يُونُسُ بْنُ مَتَّىٰ، ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا﴾ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ مُغَاضِبًا أَيْ غضبان. فَالْمُغَاضَبَةُ هي الْمُبَالَغَةِ فِي الْغَضَبِ لِأَنَّهُ غَضَبٌ غَرِيبٌ ، قَالَ الْحَسَنُ وَالشَّعْبِيُّ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: مُغَاضِبًا لِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، قال النحاس: وربما أنكره هَذَا مَنْ لَا يَعْرِفُ اللُّغَةَ وَهُوَ قَوْلٌ صَحِيحٌ. وَالْمَعْنَىٰ: مُغَاضِبًا مِنْ أَجْلِ رَبِّهِ، كَمَا تَقُولُ: غَضِبْتُ لَكَ أَيْ مِنْ أَجْلِكَ. وَالْمُؤْمِنُ يَغْضَبُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا عُصِيَ ، وقال الحسن البصري : إنما غاضب رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ أَمَرَهُ بِالْمَسِيرِ إِلَىٰ قَوْمِهِ لِيُنْذِرَهُمْ بَأْسَهُ وَيَدْعُوَهُمْ إِلَيْهِ فَسَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يُنْظِرَهُ لِيَتَأَهَّبَ لِلشُّخُوصِ إِلَيْهِمْ، فَقِيلَ لَهُ إِنَّ الْأَمْرَ أَسْرَعُ مِنْ ذَلِكَ حَتَّىٰ سَأَلَ أن ينظر إِلىٰ أَنْ يَأْخُذَ نَعْلًا يَلْبَسُهَا فَلَمْ يُنْظَرْ، وَكَانَ فِي

خُلُقِهِ ضِيقٌ فَذَهَبَ مُغَاضِبًا ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: أَتَىٰ جِبْرِيلُ يُونُسَ فَقَالَ: انْطَلِقْ إِلَىٰ أَهْلِ نِينَوَىٰ فَأَنْذِرْهُمْ، فقال: أَلْتَمِسُ دَابَّةً، قَالَ: الْأَمْرُ أَعْجَلُ مِنْ ذَلِكَ فَغَضِبَ فَانْطَلَقَ إِلَىٰ السفينة ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي لن نقضي عليه العقوبة، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ يُقَالُ: قَدَّرَ اللهُ الشَّيْءَ تَقْدِيرًا وَقَدَرَ يَقْدِرُ قَدْرًا بِمَعْنًىٰ وَاحِدٍ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾ ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ قَالَ عَطَاءٌ وَكَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ: مَعْنَاهُ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نضيق عليه الحبس. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: هُوَ اسْتِفْهَامٌ معناه فظن أَنَّهُ يُعْجِزُ رَبَّهُ، فَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ حِينَ بَعَثَ اللهُ يُونُسَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَىٰ أَهْلِ (نِيْنَوىٰ) بِالْمَوْصِلِ، فَدَعَاهُمْ إِلَىٰ اللهِ، فَأَبَوْا وَتَمَادَوْا عَلَىٰ كُفْرِهِمْ، فَخَرَجَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ مُغَاضِبًا لَهُمْ مُتَوَعِّدًا بِالْعَذَابِ بَعْدَ ثَلَاثٍ، فَخَافُوا بَعْدَ خُرُوجِهِ وَعَلِمُوا أَنَّ دَعْوَةَ النَّبِيِّ حَقٌّ، فَخَرَجُوا بِذَرَارِيِّهِمْ وَأَنْعَامِهِمْ إِلَىٰ الصَّحْرَاءِ يَسْتَغْفِرُونَ وَيَجْأَرُونَ فَرَفَعَ اللهُ عَنْهُمُ الْعَذَابَ، وَامْتُحِنَ يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي رُكُوبِ السَّفِينَةِ وَنُزُولِ الْقُرْعَةِ بِهِ لِيَلْتَقِمَهُ الْحُوتُ، قوله : ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: ظُلْمَةُ بَطْنِ الْحُوتِ، وَظُلْمَةُ البحر، وظلمة الليل، وَذَلِكَ أَنَّهُ ذَهَبَ بِهِ الْحُوتُ فِي الْبِحَارِ يَشُقُّهَا حَتَّىٰ انْتَهَىٰ بِهِ إِلَىٰ قَرَارِ الْبَحْرِ، فَسَمِعَ يُونُسُ تَسْبِيحَ الْحَصَىٰ فِي قَرَارِهِ، فَعِنْدَ ذلك قَالَ: ﴿لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين﴾ وعَنْ أَبِيهِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **دَعْوَةُ ذِي النُّونِ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: لَا**

إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، وَمَا دَعَا بِهَا مُسْلِمٌ قَطُّ، وَهُوَ مَكْرُوبٌ إِلَّا اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ»(١)، وقيل: مكث في بطن الحوت أربعين يومـًا، فذلك قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ:

[٨٨] : ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ أي أجبناه، ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ أَخْرَجْنَاهُ مِنْ بَطْنِ الْحُوتِ وَتِلْكَ الظُّلُمَاتِ : ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ إِذَا دَعَوْنَا واستغاثوا بنا ، وَفِي الحديث: «**مَنْ دَعَا بِدُعَاءِ يُونُسَ اسْتُجِيبَ لَهُ**»(٢)، وعن عَلِيِّ بْنِ سُلَيْمَانَ، قَالَ: الْأَصْلُ نُنْجِي فَحُذِفَ إِحْدَىٰ النُّونَيْنِ، لِاجْتِمَاعِهِمَا كَمَا تُحْذَفُ إِحْدَىٰ التَّاءَيْنِ، لِاجْتِمَاعِهِمَا نَحْوَ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وَالْأَصْلُ تَتَفَرَّقُوا.

[٨٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ أي دَعَا رَبَّهُ، ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ وَحِيدًا لَا وَلَدَ لِي وَارْزُقْنِي وارثا، وَأُطْلِقَ الْفَرْدُ عَلَىٰ مَنْ لَا وَلَدَ لَهُ تَشْبِيهًا لَهُ بِالْمُنْفَرِدِ الَّذِي لَا قَرِينَ لَهُ ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً ﴾ [مَرْيَم: ٩٥] ، قوله : ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ أثنىٰ عَلَىٰ اللهِ بِأَنَّهُ الْبَاقِي بَعْدَ فَنَاءِ الْخَلْقِ وَأَنَّهُ أَفْضَلُ مَنْ بَقِيَ حَيًّا.

[٩٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ﴾ ولداً ، ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ أَيْ جَعَلْنَاهَا وَلُودًا بَعْدَ مَا كَانَتْ عَقِيمًا، وقيل: كَانَتْ سَيِّئَةَ الْخُلُقِ

---

(١) الترمذي (٣٥٠٥) .

(٢) الطبري في التفسير ، وورد بلفظ قريب عند الترمذي (٣٥٠٥) .

فأصلحها الله لَهُ بِأَنْ رَزْقَهَا حُسْنَ الْخُلُقِ. ﴿إِنَّهُمْ﴾ الأنبياء، يَعْنِي الْأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ سَمَّاهُمْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ ﴿كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا﴾ طمعا ﴿وَرَهَبًا﴾ خوفا، قَالَ الثَّوْرِيُّ: رَغَبًا فِيمَا عِنْدَنَا (الجنة)، وَرَهَبًا مِمَّا عِنْدَنَا (النار) ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ أَيْ مُتَوَاضِعِينَ، قَالَ قَتَادَةُ: ذُلَّلًا لِأَمْرِ اللهِ. قَالَ مُجَاهِدٌ: الْخُشُوعُ هُوَ الْخَوْفُ اللَّازِمُ فِي الْقَلْبِ.

[٩١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ حَفِظَتْ مِنَ الْحَرَامِ وَأَرَادَ مَرْيَمَ بِنْتَ عِمْرَانَ، قِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِالْفَرْجِ فَرْجُ الْقَمِيصِ، أَيْ لَمْ تَعْلَقْ بِثَوْبِهَا رِيبَةٌ، أَيْ إِنَّهَا طَاهِرَةُ الْأَثْوَابِ، وَفُرُوجُ الْقَمِيصِ أَرْبَعَةٌ: الْكُمَّانِ وَالْأَعْلَىٰ وَالْأَسْفَلُ. قَالَ السُّهَيْلِيُّ: فَلَا يَذْهَبَنَّ وَهَمُكَ إِلَىٰ غَيْرِ هَذَا، فَإِنَّهُ مِنْ لَطِيفِ الْكِنَايَةِ لِأَنَّ الْقُرْآنَ أَنْزَهُ مَعْنًى، وَأَوْزَنُ لَفْظًا، وَأَلْطَفُ إِشَارَةً، وَأَحْسَنُ عِبَارَةً مِنْ أَنْ يُرِيدَ مَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ وَهَمُ الْجَاهِلِ، لَا سِيَّمَا وَالنَّفْخُ مِنْ رُوحِ الْقُدُسِ بِأَمْرِ الْقُدُّوسِ، فَأَضِفِ الْقُدُسَ إِلَىٰ الْقُدُّوسِ، وَنَزِّهِ الْمُقَدَّسَةَ الْمُطَهَّرَةَ عَنِ الظَّنِّ الْكَاذِبِ وَالْحَدْسِ، ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ أَيْ أَمَرْنَا جِبْرَائِيلَ حَتَّىٰ نَفَخَ فِي جَيْبِ دِرْعِهَا، وَأَحْدَثْنَا بِذَلِكَ النَّفْخَ الْمَسِيحَ فِي بَطْنِهَا، وَأَضَافَ الرُّوحَ إِلَيْهِ تَشْرِيفًا لِعِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ أَيْ دَلَالَةً عَلَىٰ كَمَالِ قُدْرَتِنَا عَلَىٰ خَلْقِ وَلَدٍ مِنْ غَيْرِ أَبٍ وَلَمْ يَقُلْ آيَتَيْنِ وَهُمَا آيَتَانِ لِأَنَّ مَعْنَىٰ الْكَلَامِ وَجَعَلْنَا شَأْنَهُمَا وَأَمْرَهُمَا آيَةً وَلِأَنَّ الْآيَةَ كَانَتْ فِيهِمَا وَاحِدَةً، وَهِيَ أَنَّهَا أَتَتْ بِهِ مِنْ غَيْرِ فَحْلٍ.

[٩٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ﴾ أَيْ مِلَّتُكُمْ وَدِينُكُمْ ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أَيْ دِينًا وَاحِدًا وَهُوَ الْإِسْلَامُ، قال قتادة: دينكُمْ دين وَاحِد وربكم وَاحِد والشريعة مُخْتَلفَة، فَأُبْطِلُ مَا سِوَىٰ الْإِسْلَامِ مِنَ الْأَدْيَانِ، وَأَصْلُ الْأُمَّةِ الْجَمَاعَةُ الَّتِي هِيَ عَلَىٰ مَقْصِدٍ وَاحِدٍ فَجُعِلَتِ الشَّرِيعَةُ أُمَّةً وَاحِدَةً لِاجْتِمَاعِ أَهْلِهَا عَلَىٰ مَقْصِدٍ وَاحِدٍ وَنَصَبَ أُمَّةً عَلَىٰ الْقَطْعِ، ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ أي أفردوني بالعبادة والتعظيم.

[٩٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أَيِ اخْتَلَفُوا فِي الدِّينِ فَصَارُوا فِرَقًا وَأَحْزَابًا، قَالَ الْكَلْبِيُّ: فَرَّقُوا دِينَهُمْ بَيْنَهُمْ يَلْعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَيَتَبَرَّأُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، وَالتَّقَطُّعُ ههنا بِمَعْنَىٰ التَّقْطِيعِ، أَيْ تَفَرَّقُوا، وَأَسْنَدَ التَّقَطُّعَ إِلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ جَعَلُوا أَنْفُسَهُمْ فِرَقًا فَعَبَدُوا آلِهَةً مُتَعَدِّدَةً وَاتَّخَذَتْ كُلُّ قَبِيلَةٍ لِنَفْسِهَا إِلَهًا مِنَ الْأَصْنَامِ مَعَ اللهِ، فَشَبَّهَ فِعْلَهُمْ ذَلِكَ بِالتَّقَطُّعِ، ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ أَيْ إِلَىٰ حُكْمِنَا فَنُجَازِيَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ.

[٩٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ قال القرطبي: مِنَ لِلتَّبْعِيضِ لَا لِلْجِنْسِ إِذْ لَا قُدْرَةَ لِلْمُكَلَّفِ أَنْ يَأْتِيَ بجميع الطاعات كلها فَرْضِهَا وَنَفْلِهَا، فَالْمَعْنَىٰ: مَنْ يَعْمَلْ شَيْئًا مِنَ الطَّاعَاتِ فَرْضًا أَوْ نَفْلًا وَهُوَ مُوَحِّدٌ مُسْلِمٌ، ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ لا يجحد ولا يبطل عمله سَعْيُهُ بَلْ يُشْكَرُ وَيُثَابُ عَلَيْهِ، ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ لِعَمَلِهِ حَافِظُونَ، وَقِيلَ: مَعْنَىٰ الشُّكْرِ من الله المجازاة، ومعنىٰ الكفران ترك المجازاة. أَيْ لَا يُكْفَرُ سَعْيُهُ وَهُوَ عَمَلُهُ، بَلْ يُشْكَرُ فَلَا يُظْلَمُ

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ أَيْ يُكْتَبُ جَمِيعُ عَمَلِهِ فَلَا يَضِيعُ عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ.

[٩٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَعْنَىٰ الْآيَةِ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَيْ أَهْلِ قرية، ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ أَنْ يَرْجِعُوا بَعْدَ الْهَلَاكِ، وَالْحَرَامُ: الشَّيْءُ الْمَمْنُوعُ، أَيْ مَمْنُوعٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ قَدَّرْنَا إِهْلَاكَهَا أَنْ لَا يَرْجِعُوا، ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ إِلَىٰ الدُّنْيَا، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: مَعْنَاهُ حرام عَلَىٰ أَهْلِ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهُمْ أَيْ حكمنا بهلاكهم أن يتقبل أَعْمَالُهُمْ لِأَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ أَيْ لَا يَتُوبُونَ، وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ هَذَا المعنىٰ أنه قال الْآيَةِ الَّتِي قَبْلَهَا: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ أَيْ يُتَقَبَّلُ عَمَلُهُ ثُمَّ ذَكَرَ هَذِهِ الْآيَةَ عَقِيبَهُ وَبَيَّنَ أَنَّ الْكَافِرَ لَا يُتَقَبَّلُ عَمَلُهُ، وقَالَ النَّحَّاسُ: وَالْآيَةُ مُشْكِلَةٌ وَمِنْ أَحْسَنِ مَا قِيلَ فِيهَا وَأَجَلِّهِ روي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أنه قَالَ: وَجَبَ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ، قَالَ: لَا يَتُوبُونَ.

[٩٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ يُرِيدُ فُتِحَ السَّدُّ عَنْ يَأْجُوجَ، رَوَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ أَنَّ النَّبِيءَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَيْهَا فَزِعًا يَقُولُ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ هَكَذَا**»(١) ، وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الْإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا. ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ أَيْ نَشَزٍ وَتَلٍّ، وَالْحَدَبُ الْمَكَانُ المرتفع، ﴿يَنسِلُونَ﴾ يُسْرِعُونَ

---

(١) البخاري (٣٣٤٦) ومسلم (٢٨٨٠) .

النُّزُولَ مِنَ الْآكَامِ وَالتِّلَالِ كَنَسَلَانِ الذِّئْبِ، يَنْسِلُونَ يَمْشُونَ النَّسَلَانَ وَهُوَ سُرْعَةُ مَشْيِهِ، لِأَنَّ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ لَمَّا انْتَشَرُوا فِي الْأَرْضِ انْتَشَرُوا كَالذِّئَابِ جِيَاعًا مُفْسِدِينَ.

[٩٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ يَعْنِي الْقِيَامَةَ، إذا حصلت هَذِهِ الْأَهْوَالُ وَالزَّلَازِلُ وَالْبَلَابِلُ أَزِفَتِ السَّاعَةُ وَاقْتَرَبَتْ، فَإِذَا كَانَتْ وَوَقَعَتْ، قَالَ الْكَافِرُونَ: هَذَا يَوْمٌ عسر، وَقَالَ الطَّبَرِيُّ: حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ، وَذَلِكَ وَعْدُ اللهِ الَّذِي وَعَدَ عِبَادَهُ أَنْ يَبْعَثَهُمْ مِنْ قُبُورِهِمْ لِلْجَزَاءِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ خُرُوجَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ عَلَامَةُ اقْتِرَابِ يَوْمِ النُّشُورِ وَالْحِسَابِ، قَوْلُهُ: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وَفِي قَوْلِهِ هِيَ ثَلَاثَةُ أَوْجُهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهَا كِنَايَةٌ عَنِ الْأَبْصَارِ، ثُمَّ أَظْهَرَ الْأَبْصَارَ بَيَانًا مَعْنَاهُ: فَإِذَا الْأَبْصَارُ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا.

الثَّانِي: أَنَّ هِيَ تَكُونُ عمدا كَقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ [الحَجِّ: ٤٦].

الثَّالِثُ: أَنْ يَكُونَ تَمَامُ الكلام عند قوله: ﴿هِيَ﴾ عَلَىٰ مَعْنَىٰ فَإِذَا هِيَ بَارِزَةٌ يَعْنِي مِنْ قُرْبِهَا كَأَنَّهَا حَاضِرَةٌ، ثُمَّ ابْتَدَأَ: ﴿شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عَلَىٰ تَقْدِيمِ الْخَبَرِ عَلَىٰ الِابْتِدَاءِ، مَجَازُهَا: أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا شَاخِصَةٌ، وَالشُّخُوصُ: إِحْدَادُ الْبَصَرِ دُونَ تَحَرُّكٍ كَمَا يَقَعُ لِلْمَبْهُوتِ، قَالَ الْكَلْبِيُّ شَخَصَتْ أَبْصَارُ

الْكُفَّارِ فَلَا تَكَادُ تَطْرُفُ مِنْ شِدَّةِ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَهَوْلِهِ، يَقُولُونَ: ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ اليوم، ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ بِوَضْعِنَا الْعِبَادَةَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا.

[٩٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّكُمْ﴾ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ يعني الأصنام، ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ يعني وَقُودُهَا ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: حَطَبُهَا، وَالْحَصَبُ فِي لُغَةِ أَهْلِ الْيَمَنِ الحطب ، وقال عكرمة: هذا الْحَطَبُ بِلُغَةِ الْحَبَشَةِ، قَالَ الضَّحَّاكُ: يَعْنِي يَرْمُونَ بِهِمْ فِي النَّارِ كما يرمىٰ بالحصب ، وأصل الحصب المرمي، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ [الْقَمَرِ: ٣٤] أَيْ رِيحًا تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ، وَالْحَصَبُ: اسْمٌ بِمَعْنَىٰ الْمَحْصُوبِ بِهِ، أَيِ الْمَرْمِيِّ بِهِ، وَمِنْهُ سُمِّيَتِ الْحَصْبَاءَ لِأَنَّهَا حِجَارَةٌ يُرْمَىٰ بِهَا، أَيْ يُرْمَوْنَ فِي جَهَنَّمَ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٤] أَيِ الْكُفَّارُ وَأَصْنَامُهُمْ ، قوله: ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ أَيْ فِيهَا دَاخِلُونَ، وَالْخِطَابُ لِلْمُشْرِكِينَ عَبَدَةِ الْأَصْنَامِ، أَيْ أنتم وأردؤها مَعَ الْأَصْنَامِ.

[٩٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ﴾ يعني الأصنام، ﴿آلِهَةً﴾ علىٰ الحقيقة، ﴿مَا وَرَدُوهَا﴾ أَيْ مَا دَخَلَ عَابِدُوهَا النَّارَ، ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يَعْنِي الْعَابِدَ وَالْمَعْبُودِينَ. والمعنىٰ: لو كان هؤلاء آلهة كما زعمتم ما دخلوا النار، وكل من العابد والمعبود في النار خالدون.

[١٠٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ الزَّفِيرُ: النَّفَسُ يَخْرُجُ مِنْ أَقْصَىٰ الرِّئَتَيْنِ لِضَغْطِ الْهَوَاءِ مِنَ التَّأَثُّرِ بِالْغَمِّ ، وَهُوَ هُنَا مِنْ أَحْوَالِ

الْمُشْرِكِينَ دُونَ الْأَصْنَامِ. ﴿وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ﴾، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: إِذَا بَقِيَ مَنْ يَخْلُدُ فِي النَّارِ جُعِلُوا فِي تَوَابِيتَ مِنْ نَارٍ فِيهَا مَسَامِيرُ مِنْ نَارٍ، فَلَا يَرَىٰ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنَّهُ يُعَذَّبُ فِي النَّارِ غَيْرُهُ، ثُمَّ تَلَا عَبْدُ اللهِ: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ﴾.

[١٠١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: إِنَّ ههنا بمعنىٰ إلا معناه: إِلَّا الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ، يَعْنِي السَّعَادَةَ وَالْعِدَّةَ الْجَمِيلَةَ بالجنة، ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ قِيلَ: الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَنْ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللهِ السَّعَادَةُ. وَقَالَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ: عَنِيَ بِذَلِكَ كُلَّ مَنْ عُبِدَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهُوَ لِلَّهِ طَائِعٌ ولعبادة من يعبده كاره،عن عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنىٰ﴾ فَقَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِنَّ عُثْمَانَ مِنْهُمْ**»، قال ابن كثير: لما ذَكَرَ تَعَالَىٰ أَهْلَ النَّارِ وَعَذَابَهُمْ بِسَبَبِ شِرْكِهِمْ بِاللهِ، عَطَفَ بِذِكْرِ السُّعَدَاءِ من المؤمنين بالله ورسوله، وَهُمُ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَ اللهِ السَّعَادَةُ وَأَسْلَفُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ فِي الدُّنْيَا.

[١٠٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ يَعْنِي صَوْتَهَا وَحَرَكَةَ تَلَهُّبِهَا إِذَا نَزَلُوا مَنَازِلَهُمْ فِي الْجَنَّةِ، وَالْحَسِيسُ: الصَّوْتُ الَّذِي يَبْلُغُ الْحِسَّ، أَيِ الصَّوْتُ الَّذِي يُسْمَعُ مِنْ بَعِيدٍ، أَيْ لَا يَقْرُبُونَ مِنَ النَّارِ وَلَا تَبْلُغُ أَسْمَاعَهُمْ أَصْوَاتُهَا، فَهُمْ سَالِمُونَ مِنَ الْفَزَعِ مِنْ أَصْوَاتِهَا فَلَا يَقْرَعُ أَسْمَاعَهُمْ مَا يُؤْلِمُهَا،

﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ مُقِيمُونَ ، دَائِمُونَ وَهُمْ فِيمَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ. وَلَقَدْ كَانَ مِنْ دُعَاءِ مَنْ مَضَىٰ: اللَّهُمَّ أَخْرِجْنِي مِنَ النَّارِ سَالِمًا، وَأَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ فَائِزًا.

[١٠٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ النَّفْخَةُ الْأَخِيرَةُ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ وجل: ﴿يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النَّمْلِ: ٨٧] ، قَالَ الْحَسَنُ البصري: حِينَ يُؤْمَرُ بِالْعَبْدِ إِلَىٰ النَّارِ. وقال سعيد بن جبير: النارُ إذا أطبقت علىٰ أهلها، قال ابن عاشور : وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا فَزَعُ الْحَشْرِ حِينَ لَا يَعْرِفُ أَحَدٌ مَا سَيَؤُولُ إِلَيْهِ أَمْرُهُ، فَيَكُونُونَ فِي أَمْنٍ مِنْ ذَلِكَ بِطَمْأَنَةِ الْمَلَائِكَةِ إِيَّاهُمْ ، ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أَيْ تَسْتَقْبِلُهُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَىٰ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يُهَنِّئُونَهُمْ، وَيَقُولُونَ: ﴿هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ قِيلَ: تَسْتَقْبِلُهُمْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ عِنْدَ خُرُوجِهِمْ مِنَ الْقُبُورِ فليهنكم ما وعدكم الله، وليعظم استبشاركم، بما أمامكم من الكرامة، وليكثر فرحكم وسروركم، بما أمنكم الله من المخاوف والمكاره.

[١٠٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ اختلفوا فِي السِّجِلِّ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالْأَكْثَرُونَ: السِّجِلُّ الصَّحِيفَةُ لِلْكُتُبِ أَيْ لِأَجْلِ مَا كُتِبَ، مَعْنَاهُ: كَطَيِّ الصَّحِيفَةِ عَلَىٰ مَكْتُوبِهَا، وَالسِّجِلُّ اسْمٌ مُشْتَقٌّ مِنَ الْمُسَاجَلَةِ وَهِيَ المكاتبة، والطي الدَّرْجُ الَّذِي هُوَ ضِدُّ النَّشْرِ، قَالَ السَّعْدِيُّ: يُخْبِرُ تَعَالَىٰ أَنَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَطْوِي السَّمَاوَاتِ - عَلَىٰ عِظَمِهَا وَاتِّسَاعِهَا - كَمَا

يَطْوِي الْكَاتِبُ لِلسِّجِلِّ أَيِ: الْوَرَقَةِ الْمَكْتُوبِ فِيهَا، فَتُنْثَرُ نُجُومُهَا، وَيُكَوَّرُ شَمْسُهَا وَقَمَرُهَا، وَتَزُولُ عَنْ أَمَاكِنِهَا ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ أَيْ كَمَا بَدَأْنَاهُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا كَذَلِكَ نُعِيدُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ يَقْبِضُ يوم القيامة الأرضين وتكون السماوات بيمينه**»(1).

[١٠٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ الزَّبُورُ وَالْكِتَابُ وَاحِدٌ، وَلِذَلِكَ جَازَ أَنْ يُقَالَ لِلتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ زَبُورٌ، زَبَرْتُ أَيْ كَتَبْتُ وَجَمْعُهُ زُبُرٌ ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٌ: الزَّبُورُ جَمِيعُ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ، وَالذِّكْرُ أُمُّ الْكِتَابِ الَّذِي عِنْدَهُ، وَالْمَعْنَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا كَتَبَ ذِكْرَهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الزَّبُورُ التَّوْرَاةُ وَالذِّكْرُ الْكُتُبُ الْمُنَزَّلَةُ مِنْ بَعْدِ التَّوْرَاةِ، وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: الزَّبُورُ كِتَابُ دَاوُدَ، وَالذِّكْرُ التَّوْرَاةُ، وَقِيلَ: الزَّبُورُ زَبُورُ دَاوُدَ وَالذِّكْرُ الْقُرْآنُ، وَبَعْدُ بِمَعْنَىٰ قَبْلَ، كَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ [الكهف : ٧٩] أي أمامهم ﴿أَنَّ الْأَرْضَ﴾ يَعْنِي أَرْضَ الْجَنَّةِ، ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي أُمَّةَ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ﴾ [الزمر : ٧٤] وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَنَّهَا أَرْضُ الْأُمَمِ الْكَافِرَةِ تَرِثُهَا أُمَّةُ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْفُتُوحِ، بِإِظْهَارِ

---

(١) البخاري (٤٨١٢) ومسلم (٢٧٨٧) .

الدِّينِ وَإِعْزَازِ الْمُسْلِمِينَ، وَقِيلَ: أَرَادَ بِالْأَرْضِ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ ، وقال أبو الدرداء: نحن الصالحون.

[١٠٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّ فِي هَذَا﴾ أَيْ فِي هَذَا الْقُرْآنِ، وثيل : فِيمَا جَرَىٰ ذِكْرُهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مِنَ الْوَعْظِ وَالتَّنْبِيهِ ، ﴿لَبَلَاغًا﴾ وُصُولًا إِلَىٰ الْبُغْيَةِ أَيْ مَنِ اتَّبَعَ الْقُرْآنَ وَعَمِلَ بِهِ وَصَلَ إِلَىٰ مَا يَرْجُوهُ مِنَ الثَّوَابِ، وَقِيلَ: يتبلغون به في الوصول إلىٰ ربهم،، وَالْقُرْآنُ زَادُ الْجَنَّةِ كبلاغ المسافر، ﴿لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ أَيِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ اللهَ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عَالِمِينَ ، وَقَالَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ: هُمْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَهْلُ الصلوات الخمس وصوم شهر رَمَضَانَ. وَالْعَابِدُ الْمُتَذَلِّلُ الْخَاضِعُ ، قال ابن عاشور : فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمُ الْوَعْدَ فَاجْتَهِدُوا فِي نَوَالِهِ، وَالْقَوْمُ الْعَابِدُونَ هُمْ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الموجودون يَوْمَئِذٍ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ.

[١٠٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: يَعْنِي رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً فَهُوَ رَحْمَةٌ لَهُمْ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ مُحَمَّدٌ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَحْمَةً لِجَمِيعِ النَّاسِ ، فَمَنْ آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَ بِهِ سَعِدَ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ سَلِمَ مِمَّا لَحِقَ الْأُمَمَ مِنَ الْخَسْفِ وَالْغَرَقِ. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قِيلَ

يَا رَسُولَ اللهِ ادْعُ عَلَىٰ الْمُشْرِكِينَ، قَالَ: «**إِنِّي لَمْ أبعث لعانـًا وإنما بعثت رحمة**»(١).

[١٠٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿قُلْ إِنَّما يُوحىٰ إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ﴾ فَلَا يَجُوزُ الْإِشْرَاكُ بِهِ، والذي لا يستحق العبادة إلا هو، ولهذا قال: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: منقادون لعبوديته مستسلمون لألوهيته، فإن فعلوا فليحمدوا ربهم علىٰ ما منَّ عليهم بهذه النعمة التي فاقت المنن.

[١٠٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ﴾ أَيْ أَعْلَمْتُكُمْ بِالْحَرْبِ وَأَنْ لَا صلح بيننا، ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ يعني إنذارا بينا نستوي فِي عِلْمِهِ لَا اسْتِيذَانًا بِهِ دُونَكُمْ لِتَتَأَهَّبُوا لِمَا يُرَادُ بِكُمْ، يعني آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ وَجْهٍ نَسْتَوِي نَحْنُ وَأَنْتُمْ فِي الْعِلْمِ بِهِ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: الْمَعْنَىٰ أَعْلَمْتُكُمْ بِمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ عَلَىٰ اسْتِوَاءٍ فِي الْعِلْمِ بِهِ، وَلَمْ أُظْهِرْ لِأَحَدٍ شَيْئًا كَتَمْتُهُ عَنْ غَيْرِهِ. ﴿وَإِنْ أَدْرِي﴾ يعني وَمَا أَعْلَمُ. ﴿أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ يَعْنِي الْقِيَامَةَ. لَا يَدْرِيهِ أَحَدٌ لَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَلَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ.

[١١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ أَيْ مِنَ الشِّرْكِ وَهُوَ الْمُجَازِي عَلَيْهِ، وقال ابن كثير : أَيْ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ الْغَيْبَ جَمِيعَهُ، وَيَعْلَمُ مَا يُظْهِرُهُ الْعِبَادُ وَمَا يُسِرُّونَ، يَعْلَمُ الظَّوَاهِرَ وَالضَّمَائِرَ، وَيَعْلَمُ السِّرَّ

---

(١) مسلم (٢٥٩٩) .

وَأَخْفَىٰ، وَيَعْلَمُ مَا الْعِبَادُ عَامِلُونَ فِي أَجْهَارِهِمْ وَأَسْرَارِهِمْ، وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَىٰ ذَلِكَ الْقَلِيلِ وَالْجَلِيلِ.

[١١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ﴾ أَيْ وَمَا أَدْرِي لَعَلَّ هَذَا فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ، ﴿فِتْنَةٌ﴾ اختبار، قَالَ الطبري: لَعَلَّ تَأْخِيرَ ذَلِكَ عَنْكُمْ فتنة لكم ومتاع إلىٰ أجل مسمىٰ ﴿لَكُمْ﴾ لِيَرَىٰ كَيْفَ صَنِيعُكُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ، ﴿وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ يعني تَتَمَتَّعُونَ إِلَىٰ انْقِضَاءِ آجَالِكُمْ.

[١١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ قال أَهْلُ الْمَعَانِي: مَعْنَاهُ رَبِّ احْكُمْ بِحُكْمِكَ الْحَقِّ فَحُذِفَ الْحُكْمُ وَأُقِيمَ الْحَقُّ مَقَامَهُ وَاللهُ تَعَالَىٰ يَحْكُمُ بالحق طلب منه أَوْ لَمْ يَطْلُبْ، وَمَعْنَىٰ الطَّلَبِ ظُهُورُ الرَّغْبَةِ مِنَ الطَّالِبِ فِي حكمه من الْحَقِّ، وقال القرطبي: خَتَمَ السُّورَةَ بِأَنْ أَمَرَ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِتَفْوِيضِ الْأَمْرِ إِلَيْهِ وَتَوَقُّعِ الْفَرَجِ مِنْ عِنْدِهِ، أَيِ احْكُمْ بَيْنِي وَبَيْنَ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ وَانْصُرْنِي عَلَيْهِمْ، ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أَيْ تَصِفُونَهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ، وَمَعْنَىٰ مَا تَصِفُونَ وَمَا تَصَدَّرُ بِهِ أَقْوَالُكُمْ مِنَ الْأَذَىٰ لَنَا، هُمْ قد وَصَفُوا النَّبِيءَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِصِفَاتِ ذَمٍّ كَقَوْلِهِمْ: مَجْنُونٌ وَسَاحِرٌ، وَوَصَفُوا الْقُرْآنَ بِأَنَّهُ شِعْرٌ وَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ، وَشَهَرُوا ذَلِكَ فِي دَهْمَائِهِمْ لِتَأْلِيبِ النَّاسِ عَلَيْهِ، وفي الصحيحين عَنْ أَبِي مُوسَىٰ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَىٰ قَوْمَهُ فَقَالَ: يَا قَوْمُ إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنَيَّ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ فَالنَّجَاءَ النَّجَاءَ، فَأَطَاعَهُ**

طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَدْلَجُوا وَانْطَلَقُوا عَلَىٰ مَهْلِهِمْ فَنَجَوْا، وَكَذَّبَهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي واتبع مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ» ، قَالَ السَّعْدِيُّ: نَسْأَلُ رَبَّنَا الرَّحْمَنَ، وَنَسْتَعِينُ بِهِ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ، مِنْ قَوْلِكُمْ سَنَظْهَرُ عَلَيْكُمْ، وَسَيَضْمَحِلُّ دِينُكُمْ، فَنَحْنُ فِي هَذَا، لَا نَعْجَبُ بِأَنْفُسِنَا، وَلَا نَتَّكِلُ عَلَىٰ حَوْلِنَا وَقُوَّتِنَا، وَإِنَّمَا نَسْتَعِينُ بِالرَّحْمَنِ، الَّذِي نَاصِيَةُ كُلِّ مَخْلُوقٍ بِيَدِهِ، وَنَرْجُوهُ أَنْ يُتِمَّ مَا اسْتَعَنَّاهُ بِهِ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَقَدْ فَعَلَ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ الْحَجِّ

سُمِّيَتْ هَذِه السُّورَة سُورَة الْحَجِّ فِي زَمَنِ النَّبِيءِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَفُضِّلَتْ سُورَةُ الْحَجِّ عَلَىٰ سَائِرِ الْقُرْآنِ بِسَجْدَتَيْنِ؟ قَالَ: نَعَمْ»[1]، اخْتُلِفَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ هَلْ هِيَ مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ، أَوْ كَثِيرٌ مِنْهَا مَكِّيٌّ وَكَثِيرٌ مِنْهَا مَدَنِيٌّ. فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ: هِيَ مَكِّيَّةٌ إِلَّا ثَلَاثَ آيَاتٍ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿هذانِ خَصْمانِ﴾ إِلَىٰ ﴿وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ﴾.

وَوَجْهُ تَسْمِيَتِهَا سُورَةَ الْحَجِّ أَنَّ اللهَ ذَكَرَ فِيهَا كَيْفَ أَمَرَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالدَّعْوَةِ إِلَىٰ حَجِّ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، وَذَكَرَ مَا شَرَعَ لِلنَّاسِ يَوْمَئِذٍ مِنَ النُّسُكِ تَنْوِيهًا بِالْحَجِّ وَمَا فِيهِ مِنْ فَضَائِلَ وَمَنَافِعَ، وَتَقْرِيعًا لِلَّذِينِ يَصُدُّونَ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنْ كَانَ نُزُولُهَا قبل أَن يفرض الْحَجُّ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ بِالِاتِّفَاقِ، وَإِنَّمَا فُرِضَ الْحَجُّ بِالْآيَاتِ الَّتِي فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَفِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ أَيْ: احْذَرُوا عِقَابَهُ بِطَاعَتِهِ، وَالِاتِّقَاءُ: الِاحْتِرَاسُ مِنَ الْمَكْرُوهِ، وَالْمَعْنَىٰ: احْتَرِسُوا بِطَاعَتِهِ عَنْ عُقُوبَتِهِ، ﴿إِنَّ

---

(١) أبو داود (١٤٠٢).

زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ أَيْ أمر عظيم وخطب جليل، وَالزَّلْزَلَةُ وَالزِّلْزَالُ شِدَّةُ الْحَرَكَةِ عَلَىٰ الْحَالَةِ الْهَائِلَةِ، وَاخْتَلَفُوا فِي هَذِهِ الزَّلْزَلَةِ فَقَالَ عَلْقَمَةُ وَالشَّعْبِيُّ: هِيَ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ. وَقِيلَ: قِيَامُ الساعة، وقال الحسن البصري: هده الزَّلْزَلَةُ تَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: زَلْزَلَةُ السَّاعَةِ قِيَامُهَا فتكون معها، عَنْ صَفِيَّةَ قَالَتْ: زُلْزِلَتِ الْمَدِينَةُ عَلَىٰ عَهْدِ عُمَرَ، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَا هَذَا؟ مَا أَسْرَعَ مَا أَحْدَثْتُمْ! لَئِنْ عَادَتْ لَا أُسَاكِنُكُمْ فِيهَا. وَقَالَ كَعْبٌ: إِنَّمَا تُزَلْزَلُ الْأَرْضُ إِذَا عُمِلَ فِيهَا بِالْمَعَاصِي، فَتُرْعَدُ خَوْفًا مِنَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهَا .

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ يَعْنِي السَّاعَةَ، وَقِيلَ: الزَّلْزَلَةُ، ﴿تَذْهَلُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تُشْغَلُ، وَقِيلَ: تَنْسَىٰ، يقال ذهلت عن كذا إذا تركته واشتغلت بغيره عنه، وعَنْ أم المؤمنين عَائِشَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسلم قال: «**إنكم تحشرون إلىٰ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا**»، قَالَتْ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ؟! قَالَ: «**يَا عَائِشَةُ إِنَّ الْأَمْرَ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكَ**» ، ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أَيْ: كُلُّ امْرَأَةٍ مَعَهَا وَلَدٌ تُرْضِعُهُ، يُقَالُ: امْرَأَةٌ مُرْضِعٌ بِلَا هَاءٍ إِذَا أُرِيدَ بِهِ الصِّفَةُ مِثْلَ حَائِضٍ وَحَامِلٍ، فَإِذَا أَرَادُوا الْفِعْلَ أَدْخَلُوا الْهَاءَ. ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ أَيْ: تُسْقِطُ وَلَدَهَا مِنْ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، قَالَ الْحَسَنُ البصري: تَذْهَلُ الْمُرْضِعَةُ عَنْ وَلَدِهَا بِغَيْرِ فِطَامٍ وَتَضَعُ الْحَامِلُ مَا فِي بَطْنِهَا بِغَيْرِ تَمَامٍ، وَشَفَقَةُ الْأُمِّ عَلَىٰ الِابْنِ أَشَدُّ مِنْ شَفَقَةِ

الْأَبِ، فَشَفَقَتُهَا عَلَىٰ الرَّضِيعِ أَشَدُّ مِنْ شَفَقَتِهَا عَلَىٰ غَيْرِهِ. قال البغوي : وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ هَذِهِ الزَّلْزَلَةَ تَكُونُ فِي الدُّنْيَا ؛ لِأَنَّ بَعْدَ الْبَعْثِ لَا يَكُونُ حَمْلٌ، وَمَنْ قَالَ. تَكُونُ فِي الْقِيَامَةِ قَالَ: هَذَا عَلَىٰ وَجْهِ تَعْظِيمِ الْأَمْرِ لَا عَلَىٰ حقيقته كقولهم أصابني أمر يشيب منه الوليد يريد به شِدَّتَهُ ، ﴿وَتَرَىٰ النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ﴾ أَيْ مِنْ شِدَّةِ الْأَمْرِ الَّذِي قَدْ صَارُوا فِيهِ قَدْ دَهِشَتْ عُقُولُهُمْ، وَغَابَتْ أَذْهَانُهُمْ فَمَنْ رَآهُمْ حَسَبَ أَنَّهُمْ سُكَارَىٰ قَالَ الْحَسَنُ البصري : مَعْنَاهُ وَتَرَىٰ النَّاسَ سُكَارَىٰ مِنَ الْخَوْفِ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ مِنَ الشَّرَابِ، ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾ .

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نَزَلَتْ فِي النَّضْرِ ابنِ الْحَارِثِ، وكان كَثِيرَ الْجَدَلِ وَكَانَ يَقُولُ: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللهِ، وَالْقُرْآنُ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ، وَكَانَ يُنْكِرُ الْبَعْثَ وَإِحْيَاءَ مَنْ صَارَ تُرَابًا ، وَالْمُجَادَلَةُ: الْمُخَاصَمَةُ وَالْمُحَاجَّةُ، قَوْلُهُ: ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ أَيْ: يَتَّبِعُ فِي جِدَالِهِ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، ﴿كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ والمريد المتمرد الغالي العاتي الْمُسْتَمِرُّ فِي الشَّرِّ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ قُضِيَ عَلَىٰ الشَّيْطَانِ، عْنِي كُتِبَ عَلَيْهِ كِتَابَةً قَدَرِيَّةً ﴿أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ﴾ اتبعه وَقَلَّدَهُ ﴿فَأَنَّهُ﴾ يعني الشيطان ﴿يُضِلُّهُ﴾ أَيْ: يَضِلُّ مَنْ تَوَلَّاهُ، ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ ثم ألزم الحجة، مُنْكِرِي الْبَعْثِ، أَيْ يُضِلُّهُ فِي الدُّنْيَا وَيَقُودُهُ فِي الْآخِرَةِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ، وَهُوَ الحار المؤلم المزعج.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ﴾ يعني: فِي شَكٍّ، قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: شَكٌّ وَاشْتِبَاهٌ، وَعَدَمُ عِلْمٍ بِوُقُوعِهِ، مَعَ أَنَّ الْوَاجِبَ عَلَيْكُمْ أَنْ تُصَدِّقُوا رَبَّكُمْ، وَتُصَدِّقُوا رُسُلَهُ فِي ذَلِكَ، وَلَكِنْ إِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الرَّيْبَ، فَهَاكُمْ دَلِيلَيْنِ عَقْلِيَّيْنِ تُشَاهِدُونَهُمَا، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَدُلُّ دَلَالَةً قَطْعِيَّةً عَلَىٰ مَا شَكَكْتُمْ فِيهِ، وَيُزِيلُ عَنْ قُلُوبِكُمُ الرَّيْبَ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ﴾ يَعْنِي: أَبَاكُمْ آدَمَ الَّذِي هُوَ أَصْلُ النَّسْلِ، ﴿مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ يَعْنِي ذُرِّيَّتَهُ وَالنُّطْفَةُ: اسْمٌ لِمَنِيِّ الرَّجُلِ وَأَصْلُهَا الْمَاءُ الْقَلِيلُ وَجَمْعُهَا نِطَافٌ، ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ وَالْعَلَقَةُ: الْقِطْعَةُ مِنَ الدَّمِ الْجَامِدِ اللِّينِ، وَجَمْعُهَا عِلَقٌ وَذَلِكَ أَنَّ النُّطْفَةَ تَصِيرُ دَمًا غَلِيظًا ثُمَّ تَصِيرُ لحما، ﴿ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ﴾ وَالْمُضْغَةُ: الْقِطْعَةُ مِنَ اللَّحْمِ بِقَدْرِ مَا يُمْضَغُ مِثْلُهُ، ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ: مُخَلَّقَةٍ أي تامة وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ غَيْرِ تَامَّةٍ أَيْ نَاقِصَةِ الْخَلْقِ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مُصَوَّرَةٍ وَغَيْرِ مُصَوَّرَةٍ يَعْنِي السَّقْطَ ، وَقِيلَ: الْمُخَلَّقَةُ الْوَلَدُ الَّذِي تَأْتِي بِهِ الْمَرْأَةُ لِوَقْتِهِ، وَغَيْرُ الْمُخَلَّقَةِ السَّقْطُ. وَالتَّخْلِيقُ فِي اللغة : صِيغَةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ تَكْرِيرِ الْفِعْلِ، أَيْ خَلْقًا بَعْدَ خَلْقٍ، أَيْ شَكْلًا بَعْدَ شَكْلٍ، ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ كما قُدْرَتِنَا وَحِكْمَتَنَا فِي تَصْرِيفِ أَطْوَارِ خَلْقِكُمْ وَلِتَسْتَدِلُّوا بِقُدْرَتِهِ فِي ابْتِدَاءِ الْخَلْقِ عَلَىٰ قُدْرَتِهِ عَلَىٰ الْإِعَادَةِ ، وَقِيلَ : لِنُبَيِّنَ لَكُمْ مَا تَأْتُونَ وما تذرون وَمَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي الْعِبَادَةِ، ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ فَلَا تَمُجُّهُ وَلَا تُسْقِطُهُ، ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ إِلىٰ وَقْتِ خُرُوجِهَا مِنَ الرَّحِمِ تَامَّةَ الخلق والمدة، ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ﴾ من بطون أمهاتكم ﴿طِفْلًا﴾ أَيْ: صِغَارًا وَلَمْ

يَقُلْ أَطْفَالًا لِأَنَّ الْعَرَبَ تَذْكُرُ الْجَمْعَ بِاسْمِ الْوَاحِدِ. وَقِيلَ : تَشْبِيهًا بِالْمَصْدَرِ مِثْلَ عَدْلٍ وَزُورٍ، وفي الصحيح عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: « **إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ. فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهلِ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا** »(١) ، قوله ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ يَعْنِي: الْكَمَالَ وَالْقُوَّةَ، وَالْأَشُدُّ: سِنُّ الْفُتُوَّةِ وَاسْتِجْمَاعِ الْقُوَىٰ. ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ﴾ مِنْ قَبْلِ بُلُوغِ الْكِبَرِ، ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ أَيِ: الْهَرَمِ وَالْخَرَفِ، وَقِيلَ: الَّذِي يُنْقِصُ قُوَّتَهُ وَعَقْلَهُ وَيُصَيِّرُهُ إِلَىٰ الْخَرَفِ وَنَحْوِهِ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي إِلَىٰ أَسْفَلِ الْعُمُرِ، يَصِيرُ كَالصَّبِيِّ الَّذِي لَا عَقْلَ لَهُ، وَالْمَعْنَىٰ مُتَقَارِبٌ ، وَفِي صحيح البخاري عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم كان يتعوّذ دُبُرَ الصلاة بهؤلاء الكلماتِ: « **اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الجُبْنِ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أُرَدَّ إِلىٰ أَرْذَلِ العمُرِ، وأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ**

(١) البخاري (٣٢٠٨) ومسلم (٢٦٤٣) .

الدُّنْيا وأعُوذُ بِكَ منْ عَذَابِ القَبْرِ »[1] ، قوله : ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ أَيْ: يَبْلُغَ مِنَ السِّنِّ مَا يَتَغَيَّرُ عَقْلُهُ فَلَا يَعْقِلُ شَيْئًا، وَقِيلَ: الْمَعْنَىٰ لِكَيْلَا يَعْمَلَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا، فَعَبَّرَ عَنِ الْعَمَلِ بِالْعِلْمِ لِافْتِقَارِهِ إِلَيْهِ، لِأَنَّ تَأْثِيرَ الْكِبَرِ فِي عَمَلِهِ أَبْلَغُ مِنْ تَأْثِيرِهِ فِي عِلْمِهِ. ثُمَّ ذَكَرَ دَلِيلًا آخَرَ عَلَىٰ الْبَعْثِ فَقَالَ: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ أي يا بسة لَا نَبَاتَ فِيهَا، وَالْهُمُودُ الدُّرُوسُ، يُقَالُ: هَمَدَ شَجَرُ الْأَرْضِ إِذَا بَلِيَ وَذَهَبَ ، وَهَمَدَتْ أَصْوَاتُهُمْ إِذَا سَكَنَتْ ، وَهُمُودُ الْأَرْضِ أَلَّا يَكُونَ فِيهَا حَيَاةٌ وَلَا نَبْتٌ وَلَا عُودٌ وَلَمْ يُصِبْهَا مَطَرٌ، ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ المطر، ﴿اهْتَزَّتْ﴾ تَحَرَّكَتْ بِالنَّبَاتِ وَذَلِكَ أَنَّ الْأَرْضَ تَرْتَفِعُ بِالنَّبَاتِ فَذَلِكَ تَحَرُّكُهَا، وَالِاهْتِزَازُ: شِدَّةُ الْحَرَكَةِ، يُقَالُ: هَزَزْتُ الشَّيْءَ فَاهْتَزَّ، أَيْ حَرَّكْتُهُ فَتَحَرَّكَ. قال القرطبي : فالْأَرْضُ تَهْتَزُّ بِالنَّبَاتِ، لِأَنَّ النَّبَاتَ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا حَتَّىٰ يُزِيلَ بَعْضَهَا مِنْ بَعْضٍ إِزَالَةً خَفِيَّةً، فَسَمَّاهُ اهْتِزَازًا مَجَازًا ، ﴿وَرَبَتْ﴾ أي: ارتفعت وزادتوَأَصْلُهُ الزِّيَادَةُ، رَبَا الشَّيْءُ يَرْبُو رُبُوًّا أَيْ زَادَ، وَمِنْهُ الرُّبَا وَالرَّبْوَةُ، وَقِيلَ : فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ مَعْنَاهُ: ربت واهتزت، ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أَيْ: صِنْفٍ حَسَنٍ يُبْهَجُ بِهِ مَنْ رَآهُ أَيْ: يُسَرُّ، وعَنْ قَتَادَةَ. أَيْ يُبْهِجُ مَنْ يَرَاهُ. وَالْبَهْجَةُ الْحُسْنُ، يُقَالُ: رَجُلٌ ذُو بَهْجَةٍ. فَهَذَا دَلِيلٌ آخَرُ عَلَىٰ الْبَعْثِ.

---

(١) البخاري (٢٨٨٢) .

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أَيْ ذُو الْحَقِّ، فَدِينُهُ الْحَقُّ وَعِبَادَتُهُ حَقٌّ. وَالْمُؤْمِنُونَ يَسْتَحِقُّونَ مِنْهُ النَّصْرَ بِحُكْمِ وَعْدِهِ الْحَقُّ، ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ كما ابتدأ الخلق، وكما أحيا الأرض بعد موتها، ﴿وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كما أشهدكم من بديع قدرته وعظيم صنعته ما أشهدكم.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: قادمة لا شك في ذلك ولا ريب، وقوله: ﴿وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ أَيْ يُعِيدُهُمْ بَعْدَ مَا صَارُوا فِي قُبُورِهِمْ رِمَمًا وَيُوجِدُهُمْ بعد العدم، عَن أبي رزين الْعُقيلِيّ قَالَ: « قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ يُعِيدُ الله الْخلق؟ مَا آيَةُ ذَلِكَ فِي خَلْقِهِ؟ قَالَ: «**أَمَا مَرَرْتَ بِوَادِي قَوْمِكَ جَدْبًا ثُمَّ مَرَرْتَ بِهِ يَهْتَزُّ خَضِرًا؟**» قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: **فَتِلْكَ آيَةُ اللهِ فِي خلقه** كَذَلِك يحيي اللهُ الْمَوْتَىٰ»[١]، وعَن معَاذ بن جبل قَالَ: من علم أَن الله عز وَجل حق وَأَن السَّاعَة آتِيَة لَا ريب فِيهَا وَأَن الله يبْعَث من فِي الْقُبُور دخل الْجنَّة.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يَعْنِي: النَّضْرَ ابنَ الْحَارِثِ، ﴿وَلَا هُدًىٰ﴾ بيان ﴿وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ أَيْ نَيِّرٍ بَيِّنِ الْحُجَّةِ. قال القرطبي: وَالتَّكْرِيرُ لِلْمُبَالَغَةِ فِي الذَّمِّ، كَمَا تَقُولُ لِلرَّجُلِ تَذُمُّهُ وَتُوَبِّخُهُ: أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا! أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا!، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ التَّكْرِيرُ لِأَنَّهُ وَصَفَهُ فِي كُلِّ آيَةٍ بِزِيَادَةٍ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: إِنَّ النَّضْرَ بْنَ الْحَارِثِ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ

---

(١) أحمد (١٦٢٠٦).

شَيْطَانٍ مَرِيدٍ، وَالنَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ يُجَادِلُ فِي اللهِ مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ وَمِنْ غَيْرِ هُدًىٰ وَكِتَابٍ مُنِيرٍ، لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، وَهُوَ كَقَوْلِكَ: زَيْدٌ يشتمني وزيد يضربني، وهو تكرار مفيد.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ مُتَبَخْتِرًا لِتكَبُّرِهِ ، وَالثَّنْيُ: لَيُّ الشَّيْءِ، يُقَالُ: ثَنَىٰ عِنَانَ فَرَسِهِ، إِذَا لَوَاهُ لِيُدِيرَ رَأْسَ فَرَسِهِ إِلَىٰ الْجِهَةِ الَّتِي يُرِيدُ أَنْ يُوَجِّهَهُ إِلَيْهَا، وَيُطْلَقُ أَيْضًا الثَّنْيُ عَلَىٰ الإِمَالَةِ، وَالْعِطْفُ: الْمَنْكِبُ وَالْجَانِبُ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: أي لَاوِيَ عُنُقِهِ، قَالَ عَطِيَّةُ وَابْنُ زَيْدٍ: مُعْرِضًا عَمَّا يُدْعَىٰ إِلَيْهِ تكَبُّرًا. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: يُعْرِضُ عَنِ الْحَقِّ تكَبُّرًا. وَالْعِطْفُ: الْجَانِبُ، وَعِطْفَا الرَّجُلِ: جَانِبَاهُ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ وَهُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي يَعْطِفُهُ الْإِنْسَانُ أَيْ يَلْوِيهِ وَيُمِيلُهُ عِنْدَ الْإِعْرَاضِ عَنِ الشَّيْءِ، وثانِي عِطْفِهِ تَمْثِيلٌ لِلتَّكَبُّرِ وَالْخُيَلَاءِ. وَيُقَالُ: لَوَىٰ جِيدَهُ، إِذَا أَعْرَضَ تكَبُّرًا. وَهَذِهِ الصِّفَةُ تنطبق علىٰ حَالَة أَبِي جَهْلٍ فَلِذَلِكَ قِيلَ إِنَّهُ الْمُرَادُ هُنَا. مثل قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ [لُقْمَانُ: ٧] وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ [الْمُنَافِقُونَ: ٥] ، قوله : ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ عَنْ دِينِ اللهِ، ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ وَهُوَ الْإِهَانَةُ وَالذُّلُّ كَمَا أَنَّهُ لَمَّا اسْتَكْبَرَ عَنِ آيَاتِ اللهِ لَقَّاهُ اللهُ الْمَذَلَّةَ فِي الدُّنْيَا وَعَاقَبَهُ فِيهَا قَبْلَ الْآخِرَةِ، لِأَنَّهَا أَكْبَرُ هَمِّهِ وَمَبْلَغُ عِلْمِهِ وقيل : هو الْقَتْلُ بِبَدْرٍ، فَقُتِلَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ وَعُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ يَوْمَ بَدْرٍ صَبْرًا. ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾أَيْ نَارَ جَهَنَّمَ، وَيُقَالُ لَهُ:

[١٠] : ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ ، (قَدَّمَتْ) بِمَعْنَىٰ: أَسْلَفَتْ، جَعَلَ كُفْرَهُ كَالشَّيْءِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ إِلَىٰ دَار الْجَزَاء قبل أَنْ يَصِلَ هُوَ إِلَيْهَا فوحده يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَاضِرًا يَنْتَظِرُهُ قَالَ تَعَالَىٰ: وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حاضِراً ﴿وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ فَيُعَذِّبُهُمْ بِغَيْرِ ذَنْبٍ وَهُوَ جَلَّ ذِكْرُهُ عَلَىٰ أَيِّ وَجْهٍ شَاءَ تَصَرَّفَ فِي عَبْدِهِ فَحُكْمُهُ عَدْلٌ وهو غير ظالم. قال السعدي : فإنه منزه عن ذلك، وإنما ذلك بما قدمت أيديهم من المخازي والقبائح، التي أوجبت استحقاقهم العذاب، وحرمانهم الثواب.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنَ الْأَعْرَابِ ، فَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلىٰ حَرْفٍ﴾ ، قَالَ: « كَانَ الرَّجُلُ يَقْدَمُ الْمَدِينَةَ ، فَإِنْ وَلَدَتِ امْرَأَتُهُ غُلَامًا وَنَتَجَتْ خَيْلُهُ قَالَ: هَذَا دِينٌ صَالِحٌ، وَإِنْ لَمْ تَلِدِ امْرَأَتُهُ وَلَمْ تُنْتِجْ خَيْلُهُ قَالَ: هَذَا دِينُ سُوءٍ »(١) ، قوله : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ وَمَعْنَىٰ ﴿عَلىٰ حَرْفٍ﴾ عَلَىٰ شَكٍّ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ ، وَحَقِيقَتُهُ : أَنَّهُ عَلَىٰ ضَعْفٍ فِي عِبَادَتِهِ، كَضَعْفِ الْقَائِمِ عَلَىٰ حرف مضطرب فيه، وحرف كل شي طَرَفُهُ وَشَفِيرُهُ وَحَدُّهُ، وَمِنْهُ حَرْفُ الْجَبَلِ، وَهُوَ أَعْلَاهُ الْمُحَدَّدُ. فَقِيلَ لِلشَّاكِّ فِي الدِّين إِنَّهُ يَعْبُدُ اللهَ عَلَىٰ حَرْفٍ لِأَنَّهُ عَلَىٰ طَرَفٍ وَجَانِبٍ مِنَ الدِّين لَمْ يَدْخُلْ فِيهِ

---

(١) البخاري (٤٧٤٢) .

عَلَىٰ الثَّبَاتِ والتمكن كَالْقَائِمِ عَلَىٰ حَرْفِ الْجَبَلِ مُضْطَرِبٌ غَيْرُ مُسْتَقِرٍّ يَعْرِضُ أَنْ يَقَعَ فِي أَحَدِ جَانِبَي الطَّرَفِ لِضَعْفِ قِيَامِهِ، وَلَوْ عَبَدُوا اللهَ فِي الشُّكْرِ عَلَىٰ السَّرَّاءِ وَالصَّبْرِ عَلَىٰ الضَّرَّاءِ لَمْ يَكُونُوا عَلَىٰ حَرْفٍ، قَالَ الْحَسَنُ البصري : هُوَ الْمُنَافِقُ يَعْبُدُهُ بِلِسَانِهِ دُونَ قَلْبِهِ ، ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ﴾ صِحَّةٌ فِي جِسْمِهِ وَسِعَةٌ فِي معيشته، ﴿اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ أَيْ: رَضِيَ بِهِ وَسَكَنَ إِلَيْهِ، ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ بَلَاءٌ فِي جَسَدِهِ وَضِيقٌ فِي معيشته، ﴿انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ ارْتَدَّ وَرَجَعَ عَلَىٰ عَقِبِهِ إِلَىٰ الْوَجْهِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الكفر، ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا﴾ يَعْنِي هَذَا الشَّاكُّ خَسِرَ الدُّنْيَا بفوات ما كان يؤمله، ﴿وَالْآخِرَةَ﴾ بِذَهَابِ الدِّينِ وَالْخُلُودِ فِي النَّارِ ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ الظَّاهِرُ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُ﴾ أَيْ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ يَسْتَغِيثُ بِهَا وَيَسْتَنْصِرُهَا وَيَسْتَرْزِقُهَا وَهِيَ لَا تَنْفَعُهُ وَلَا تَضُرُّهُ ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ عَنِ الْحَقِّ وَالرُّشْدِ.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ أَيْ: ضَرُّ عِبَادَتِهِ، فَإِنْ قِيلَ: قَدْ قَالَ لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ وَلَا نَفْعَ فِي عِبَادَةِ الصَّنَمِ أَصْلًا؟ قِيلَ: هَذَا عَلَىٰ عَادَةِ الْعَرَبِ فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ لِمَا لَا يَكُونُ أَصْلًا بَعِيدٌ، كقوله: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣] أَيْ: لَا رَجْعَ أَصْلًا فَلَمَّا كَانَ نَفْعُ الصَّنَمِ بَعِيدًا عَلَىٰ مَعْنَىٰ أَنَّهُ لَا نَفْعَ فِيهِ أَصْلًا قيل: ضره أقرب من نفعه لأنه كائن. ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ﴾ أَيِ:

النَّاصِرُ. وَقِيلَ: الْمَعْبُودُ. ﴿وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ أَيِ: الصَّاحِبُ وَالْمُخَالِطُ يَعْنِي الْوَثَنَ، والعرب تسمي الزوج العشير لِأَجْلِ الْمُخَالَطَةِ.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ لَمَّا ذَكَرَ حَالَ الْمُشْرِكِينَ وَحَالَ الْمُنَافِقِينَ وَالشَّيَاطِينِ ذَكَرَ حَالَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْآخِرَةِ أَيْضًا، قوله : ﴿إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أَيْ يُثِيبُ مَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ، فَلِلْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةُ بِحُكْمِ وَعْدِهِ الصِّدْقِ وَبِفَضْلِهِ، وَلِلْكَافِرِينَ النَّارُ بِمَا سَبَقَ مِنْ عَدْلِهِ لَا أَنَّ فِعْلَ الرَّبِّ مُعَلَّلٌ بِفِعْلِ الْعَبِيدِ ، قَالَ الْإِمَامُ الطَّحَاوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: وَقَدْ عَلِمَ اللهُ تَعَالَىٰ فِيمَا لَمْ يَزَلْ عَدَدَ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَعَدَدَ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ، جُمْلَةً وَاحِدَةً، فَلَا يُزَادُ فِي ذَلِكَ الْعَدَدِ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُ، وَكَذَلِكَ أَفْعَالُهُمْ فِيمَا عَلِمَ مِنْهُمْ أَنْ يَفْعَلُوهُ، وَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، وَالْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ، وَالسَّعِيدُ مَنْ سَعِدَ بِقَضَاءِ اللهِ، وَالشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ بِقَضَاءِ اللهِ .

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ يَعْنِي نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَّهُ يَتَهَيَّأُ لَهُ أَنْ يَقْطَعَ النَّصْرَ الَّذِي أُوتِيَهُ، ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ أي: بحبل ﴿إِلَىٰ السَّمَاءِ﴾ أَرَادَ بِالسَّمَاءِ سَقْفَ الْبَيْتِ عَلَىٰ قَوْلِ الْأَكْثَرِينَ أَيْ: لِيَشْدُدْ حَبْلًا فِي سَقْفِ بَيْتِهِ فَلْيَخْتَنِقْ بِهِ حتىٰ يموت، ﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ الْحَبْلَ بَعْدَ الِاخْتِنَاقِ ، وَقِيلَ: ثُمَّ لْيَقْطَعْ أَيْ لِيَمُدَّ الْحَبْلَ حَتَّىٰ يَنْقَطِعَ فَيَمُوتُ مُخْتَنِقًا، ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ﴾ صنعه وحيلته، ﴿مَا يَغِيظُ﴾ أَيْ: هَلْ

يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ وَحِيلَتُهُ غَيْظَهُ مَعْنَاهُ فَلْيَخْتَنِقْ غَيْظًا حَتَّىٰ يَمُوتَ، وَقَالَ عَطَاءٌ الْخُرَاسَانِيُّ: فَلْيَنْظُرْ هَلْ يَشْفِي ذَلِكَ مَا يَجِدُ فِي صَدْرِهِ مِنَ الْغَيْظِ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: الْمُرَادُ مِنَ السَّمَاءِ السَّمَاءُ الْمَعْرُوفَةُ وَمَعْنَىٰ الْآيَةِ: مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَ اللهُ نَبِيَّهُ وَيَكِيدَ فِي أَمْرِهِ لِيَقْطَعَهُ عَنْهُ فَلْيَقْطَعْهُ مِنْ أَصْلِهِ فَإِنَّ أَصْلَهُ مِنَ السَّمَاءِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَىٰ السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْوَحْيَ الَّذِي يأتيه من السماء فَلْيَنْظُرْ هَلْ يَقْدِرُ عَلَىٰ إِذْهَابِ غيظه بهذا الفعل ، وَخُلَاصَةُ الْمَعْنَىٰ: مَنْ ظَنَّ أَنَّ اللهَ سَيَخْذُلُ مُحَمَّدًا وَكِتَابَهُ وَدِينَهُ فَلْيَذْهَبْ فَلْيَقْتُلْ نَفْسَهُ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ تَكَفَّلَ بِنَصْرِهِ وَتَأْيِيدِهِ وَإِظْهَارِهِ عَلَىٰ عَدُوِّهِ، فَمَنْ لَمْ يُعْجِبْهُ ذَلِكَ فَلْيَخْنُقْ نَفْسَهُ وَلِيَحْتَرِقْ غَيْظًا. فَهُوَ كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَ اللهُ مُحَمَّدًا، فَلْيَرْبِطْ حَبْلًا فِي سَقْفٍ، ثُمَّ لِيَخْتَنِقْ بِهِ حَتَّىٰ يَمُوتَ.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ﴾ أَيِ الْقُرْآنَ ﴿آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ أَيْ وَاضِحَاتٍ فِي لَفْظِهَا وَمَعْنَاهَا حُجَّةً مِنَ اللهِ عَلَىٰ النَّاسِ، ﴿وَأَنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾ أَيْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ التَّامَّةُ وَالْحُجَّةُ الْقَاطِعَةُ فِي ذَلِكَ.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ﴾ الصَّابِئُونَ جمع صابىء من صَبَأَ أَيْ ظَهَرَ وَطَلَعَ، يُقَالُ صَبَأَ النَّجْمُ أَيْ طَلَعَ وَلَيْسَ هُوَ مِنْ صَبَا يَصْبُو إِذَا مَال ، قَالَ ابْنُ حَزْمٍ فِي كِتَابِ «الْفِصَلِ» : كَانَ الَّذِي يَنْتَحِلُهُ الصَّابِئُونَ أَقْدَمَ الْأَدْيَانِ عَلَىٰ وَجْهِ الدَّهْرِ وَالْغَالِبَ عَلَىٰ الدُّنْيَا إِلَىٰ أَنْ أَحْدَثُوا فِيهِ

الْحَوَادِث فَبَعَثَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْحَنِيفِيَّةِ ، ﴿وَالْمَجُوسَ﴾ الْمَجُوسُ أهل دين يثبت إِلَهَيْنِ: إِلَهًا لِلْخَيْرِ، وَإِلَهًا لِلشَّرِّ، وَهُمْ أَهْلُ فَارِسَ. وأَصْلُ الْمَجُوسِيَّةِ هُمْ أَهْلُ الدِّيَانَةِ الْمُسَمَّاةِ: الزرادشتية وَهِيَ تُثْبِتُ إِلَهَيْنِ هُمَا (يَزْدَان) وَ (أَهْرُمُن) وَلِلْمَجُوسِيَّةِ شِبْهٌ فِي الْأَصْلِ بِالْإِشْرَاكِ إِلَّا أَنَّهَا تُخَالِفُهُ بِمَنْعِ عِبَادَةِ الْأَحْجَارِ، وبَأَنَّ لَهَا كِتَابًا، فَأَشْبَهُوا بِذَلِكَ أَهْلَ الْكِتَابِ. وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيءُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِمْ: «**سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ**»[1] ، ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ يَعْنِي: عَبَدَةَ الْأَوْثَانِ، ﴿إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ، وَالْفَصْلُ: الْحُكْمُ، أَيْ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ تَصْحِيحِ الدِّيَانَةِ. ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ .

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ، وَقِيلَ: أَلَمْ ﴿تَرَ﴾ بِقَلْبِكَ ﴿أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ أَيْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فِي أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ، وَالْحَيَوَانَاتِ فِي جَمِيعِ الْجِهَاتِ، مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالدَّوَابِّ وَالطَّيْرِ، قَالَ مُجَاهِدٌ: سُجُودُهَا تَحَوُّلُ ظِلَالِهَا، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: مَا فِي السَّمَاءِ نَجْمٌ وَلَا شَمْسٌ وَلَا قَمَرٌ إِلَّا يَقَعُ سَاجِدًا حِينَ يَغِيبُ ثُمَّ لَا يَنْصَرِفُ حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَهُ، فَيَأْخُذَ ذَاتَ الْيَمِينِ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَىٰ مَطْلَعِهِ، وَقِيلَ: سُجُودُهَا بِمَعْنَىٰ الطَّاعَةِ فَإِنَّهُ مَا مِنْ جَمَادٍ إِلَّا وَهُوَ مُطِيعٌ لله

---

(١) مالك (٦١٧) .

خاشع لله مسبح له كما أخبرنا الله تعالىٰ عن السماوات وَالْأَرْضِ ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فُصِّلَتْ: ١١] وَقَالَ فِي وَصْفِ الْحِجَارَةِ ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ [الْبَقَرَةُ: ٧٤]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي رَأَيْتُنِي اللَّيْلَةَ وَأَنَا نَائِمٌ كَأَنِّي أُصَلِّي خَلْفَ شَجَرَةٍ فسجدتُ، فَسَجَدَتِ الشَّجَرَةُ لِسُجُودِي فَسَمِعْتُهَا وَهِيَ تَقُولُ: اللَّهُمَّ اكْتُبْ لِي بِهَا عِنْدَكَ أَجْرًا، وَضَعْ عَنِي بِهَا وِزْرًا، وَاجْعَلْهَا لِي عِنْدَكَ ذُخْرًا، وَتَقَبَّلْهَا مِنِّي كَمَا تَقَبَّلْتَهَا مِنْ عَبْدِكَ دَاوُدَ، قال ابن عباس: فَقَرَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَجْدَةً، ثُمَّ سَجَدَ فَسَمِعْتُهُ وَهُوَ يَقُولُ مِثْلَ مَا أَخْبَرَهُ الرَّجُلُ عَنْ قَوْلِ الشَّجَرَةِ»[1]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَالدَّوَابُّ﴾ أَيِ الْحَيَوَانَاتُ، كُلُّهَا، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَىٰ عَنِ اتِّخَاذِ ظُهُورِ الدَّوَابِّ مَنَابِرَ، فَرُبَّ مَرْكُوبَةٍ خَيْرٌ وأكثر ذكراً لله تعالىٰ مِنْ رَاكِبِهَا، وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ أَيْ يَسْجُدُ لِلَّهِ طَوْعًا مُخْتَارًا مُتَعَبِّدًا بِذَلِكَ، ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ أَيْ مِمَّنِ امْتَنَعَ وَأَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ، وَهُمُ الْكُفَّارُ لِكُفْرِهِمْ وَتَرْكِهِمُ السُّجُودَ وَهُمْ مَعَ كُفْرِهِمْ تَسْجُدُ ظِلَالُهُمْ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْوَاوُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ وَاوُ الِاسْتِئْنَافِ، ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللهُ﴾ أَيْ: يُهِنْهُ اللهُ ﴿فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ أَيْ: مَنْ يُذِلُّهُ اللهُ

---

(١) الترمذي (٥٧٩) وابن ماجه (١٠٥٣).

فَلَا يُكْرِمُهُ أَحَدٌ، ﴿إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ أَيْ: يُكْرِمُ وَيُهِينُ فَالسَّعَادَةُ وَالشَّقَاوَةُ بإرادته ومشيئته.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ أَيْ: جَادَلُوا فِي دِينِهِ وَأَمْرِهِ وَالْخَصْمُ اسْمٌ شَبِيهٌ بِالْمَصْدَرِ، فَلِذَلِكَ قال: ﴿اخْتَصَمُوا﴾ بِلَفْظِ الْجَمْعِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢١] وَاخْتَلَفُوا فِي هَذَيْنَ الْخَصْمَيْنِ ، فقيل: هُمُ الَّذِينَ بَارَزُوا يَوْمَ بَدْرٍ علي وحمزة وعبيدة وشيبة ابن رَبِيعَةَ وَعُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَالْوَلِيدُ بن عتبة، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَزَلَتِ الْآيَةُ فِي الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ فَقَالَ أَهْلُ الْكِتَابِ: نَحْنُ أَوْلَىٰ بالله منكم وَأَقْدَمُ مِنْكُمْ كِتَابًا، وَنَبِيُّنَا قَبْلَ نَبِيِّكُمْ، وَقَالَ الْمُؤْمِنُونَ: نَحْنُ أَحَقُّ بِاللهِ آمَنَّا بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَبِيِّكُمْ وَبِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ وَأَنْتُمْ تَعْرِفُونَ نَبِيَّنَا وَكِتَابَنَا وَكَفَرْتُمْ بِهِ حَسَدًا، فَهَذِهِ خُصُومَتُهُمْ فِي رَبِّهِمْ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَعَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ وَالْكَلْبِيُّ: هُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَالْكَافِرُونَ كُلُّهُمْ مِنْ أَيِّ مِلَّةٍ كَانُوا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ جَعَلَ الْأَدْيَانَ سِتَّةً فِي قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ [البقرة: ٦٢] الْآيَةَ ، فَجَعَلَ خَمْسَةً لِلنَّارِ وَوَاحِدًا لِلْجَنَّةِ ، فَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ يَنْصَرِفُ إِلَيْهِمْ فَالْمُؤْمِنُونَ خَصْمٌ وَسَائِرُ الخمسة خصم ، ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا لِلْخَصْمَيْنِ فَقَالَ: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: ثِيَابٌ مِنْ نُحَاسٍ مُذَابٍ وَلَيْسَ مِنَ الْآنِيَةِ شَيْءٌ إِذَا حَمِيَ أَشَدَّ حَرًّا مِنْهُ وَسُمِّيَ بِاسْمِ الثِّيَابِ لِأَنَّهَا تُحِيطُ بِهِمْ كَإِحَاطَةِ الثِّيَابِ،

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَلْبَسُ أَهْلُ النَّارِ مُقَطَّعَاتٍ مِنَ النَّارِ، وَالتَّقْطِيعُ: مُبَالَغَةُ الْقَطْعِ، وَهُوَ فَصْلُ بَعْضِ أَجْزَاءِ شَيْءٍ عَنْ بَقِيَّتِهِ. وَالْمُرَادُ: قَطْعُ شُقَّةِ الثَّوْبِ، ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ الْحَمِيمُ: هُوَ الْمَاءُ الْحَارُّ الَّذِي انتهت حرارته.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُصْهَرُ بِهِ﴾ أَيْ: يُذَابُ بِالْحَمِيمِ، وَالْإِصْهَارُ: الْإِذَابَةُ بِالنَّارِ أَوْ بِحَرَارَةِ الشَّمْسِ ﴿مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ يُقَالُ: صَهَرْتُ الْأَلْيَةَ وَالشَّحْمَ بِالنَّارِ إِذَا أَذَبْتَهُمَا أَصْهَرُهَا صَهْرًا مَعْنَاهُ يُذَابُ بِالْحَمِيمِ الَّذِي يُصَبُّ مِنْ فوق رؤوسهم حَتَّىٰ يَسْقُطَ مَا فِي بُطُونِهِمْ من الشحوم والأحشاء، وقيل : وَمَا فِي بُطُونِهِمْ: أَمْعَاؤُهُمْ، أَيْ هُوَ شَدِيدٌ فِي النَّفَاذِ إِلَىٰ بَاطِنِهِمْ. ﴿وَالْجُلُودُ﴾ أَيْ: يَشْوِي حَرُّهَا جُلُودَهُمْ فَتَتَسَاقَطُ. قال القرطبي : وَقِيلَ: الْمَعْنَىٰ أَنَّ النَّارَ قَدْ أَحَاطَتْ بِهِمْ كَإِحَاطَةِ الثِّيَابِ الْمَقْطُوعَةِ إِذَا لَبِسُوهَا عَلَيْهِمْ، فَصَارَتْ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ ثِيَابًا لِأَنَّهَا بِالْإِحَاطَةِ كَالثِّيَابِ، مِثْلُ: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباسًا﴾ [النبأ: ١٠] .

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ سِيَاطٌ مِنْ حَدِيدٍ وَاحِدَتُهَا مِقْمَعَةٌ، قال الليث: المقمعة شبه الجزر مِنَ الْحَدِيدِ، مِنْ قَوْلِهِمْ: قَمَعْتُ رَأْسَهُ إِذَا ضَرَبْتَهُ ضَرْبًا عَنِيفًا، وَالْقَمْعُ: الْكَفُّ عَنْ شَيْءٍ بِعُنْفٍ، وَالْمِقْمَعَةُ: السَّوْطُ، أَيْ يُضْرَبُونَ بِسِيَاطٍ مِنْ حَدِيدٍ. قال سلمان: النَّارُ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ لَا يُضِيءُ لَهَبُهَا وَلَا جَمْرُهَا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوا أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾، وَقَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ: وَاللهِ مَا طَمِعُوا فِي الْخُرُوجِ، إِنَّ الْأَرْجُلَ لَمُقَيَّدَةٌ وَإِنَّ الْأَيْدِيَ لَمُوثَقَةٌ، وَلَكِنْ يَرْفَعُهُمْ لَهَبُهَا وَتَرُدُّهُمْ مَقَامِعُهَا.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ﴾ يعني: كُلَّمَا حَاوَلُوا الْخُرُوجَ مِنَ النَّارِ لِمَا يَلْحَقُهُمْ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ الَّذِي يَأْخُذُ بِأَنْفَاسِهِمْ ﴿أُعِيدُوا فِيهَا﴾ يعني: رُدُّوا إِلَيْهَا بِالْمَقَامِعِ، وَفِي التَّفْسِيرِ: إِنَّ جَهَنَّمَ لَتَجِيشُ بِهِمْ فَتُلْقِيهِمْ إِلَىٰ أَعْلَاهَا فَيُرِيدُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا فتضربهم الزبانية بمقامع الْحَدِيدِ فَيَهْوُونَ فِيهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا، ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أَيْ: تَقُولُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ: ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ، أَيِ: الْمُحْرِقِ مِثْلُ الْأَلِيمِ وَالْوَجِيعِ، قَالَ الزَّجَّاجُ: هَؤُلَاءِ أَحَدُ الْخَصْمَيْنِ، وَقَالَ فِي الْآخَرِ وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ لَمَّا ذَكَرَ أَحَدَ الْخَصْمَيْنِ وَهُوَ الْكَافِرُ ذَكَرَ حَالَ الْخَصْمِ الْآخَرِ وَهُوَ الْمُؤْمِنُ، ﴿يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ وَالْأَسَاوِرُ جَمْعُ أَسْوِرَةٍ، وَأَسْوِرَةٌ وَاحِدُهَا سِوَارٌ، لَمَّا كَانَتِ الْمُلُوكُ تَلْبَسُ فِي الدُّنْيَا الْأَسَاوِرَ وَالتِّيجَانَ جَعَلَ اللهُ ذَلِكَ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ، فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ سَمِعْتُ خَلِيلِي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: « **تَبْلُغُ الْحِلْيَةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءُ**»[١] ، قوله : ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ أَيْ وَجَمِيعُ مَا يَلْبَسُونَهُ مِنْ فُرُشِهِمْ وَلِبَاسِهِمْ وَسُتُورِهِمْ حَرِيرٌ، وَهُوَ أَعْلَىٰ مِمَّا فِي الدُّنْيَا بِكَثِيرٍ. رَوَىٰ النَّسَائِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: « **مَنْ لَبِسَ الْحَرِيرَ فِي**

---

(١) مسلم (٢٥٠) .

الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ ، وَمَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَشْرَبْهَا فِي الْآخِرَةِ، وَمَنْ شَرِبَ فِي آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ لَمْ يَشْرَبْ فِيهَا فِي الْآخِرَةِ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **لِبَاسُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَشَرَابُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَآنِيَةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ، نسأل الله تعالىٰ أن نكون من أهلها** »[1] .

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ الخطاب لأهل الجنة، أَيْ إِلَىٰ الْمَكَانِ الَّذِي يَحْمَدُونَ فِيهِ رَبَّهُمْ عَلَىٰ مَا أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ، وَأَنْعَمَ بِهِ وَأَسْدَاهُ إليهم، كما جاء في الحديث الصَّحِيحِ: «**إِنَّهُمْ يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفَسَ**»[2]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَسُبْحَانَ اللهِ ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: أَيِ الْقُرْآنِ، وَقِيلَ: هُوَ قَوْلُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صدقنا وعده ، ﴿وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ إِلَىٰ دِينِ اللهِ وَهُوَ الْإِسْلَامُ وَالْحَمِيدُ هُوَ اللهُ الْمَحْمُودُ فِي أفعاله، وَقِيلَ: هُدُوا فِي الْآخِرَةِ إِلَىٰ الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ، وَهُوَ الْحَمْدُ لِلَّهِ، لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ غَدًا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَن، فَلَيْسَ فِي الْجَنَّةِ لَغْوٌ وَلَا كَذِبٌ فَمَا يَقُولُونَهُ فَهُوَ طَيِّبُ الْقَوْلِ.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ أي ومن صفتهم أنهم مع كفرهم يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، أَيْ وَيَصُدُّونَ

---

(١) البخاري (٥٨٣٠) ومسلم (٥٥٧٥) .

(٢) مسلم (٢٨٣٥) .

عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ مَنْ أَرَادَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، الَّذِينَ هُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ فِي نفس الأمر، ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ﴾ قِبْلَةً لِصَلَاتِهِمْ وَمَنْسَكًا وَمُتَعَبَّدًا ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ الْعَاكِفُ: الْمُقِيمُ الْمُلَازِمُ، وَالْبَادِي: أَهْلُ الْبَادِيَةِ وَمَنْ يَقْدَمُ عَلَيْهِمْ، يَقُولُ: سَوَاءٌ فِي تَعْظِيمِ حُرْمَتِهِ وَقَضَاءِ النُّسُكِ فِيهِ الْحَاضِرُ وَالَّذِي يَأْتِيهِ مِنَ الْبِلَادِ، فَلَيْسَ أَهْلُ مَكَّةَ أَحَقَّ مِنَ النَّازِحِ إِلَيْهِ، وَمَعْنَىٰ التَّسْوِيَةِ هُوَ التَّسْوِيَةُ فِي تَعْظِيمِ الْكَعْبَةِ فِي فَضْلِ الصَّلَاةِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ والطواف بالبيت، ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: في المسجد الحرام وهو الميل إلىٰ الظلم، وَالْإِلْحَادُ فِي اللُّغَةِ: الْمَيْلُ، إِلَّا أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ بَيَّنَ أَنَّ الْمَيْلَ بِالظُّلْمِ هُوَ الْمُرَادُ، والباء في قوله ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ زَائِدَةٌ كَقَوْلِهِ: ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: ٢٠] وَمَعْنَاهُ مَنْ يُرِدْ فِيهِ إِلْحَادًا بظلم، وَأَنْكَرَ الْمُبَرِّدُ أَنْ تَكُونَ الْبَاءُ زَائِدَةً وَقَالَ: مَعْنَىٰ الْآيَةِ مَنْ تَكُنْ إِرَادَتُهُ فِيهِ بِأَنْ يُلْحِدَ بِظُلْمٍ، وَاخْتَلَفُوا فِي هَذَا الْإِلْحَادِ فَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: هُوَ الشِّرْكُ وهو عبادة غَيْرِ اللهِ، وَقَالَ قَوْمٌ: هُوَ كُلُّ شَيْءٍ كَانَ مَنْهِيًّا عَنْهُ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ حَتَّىٰ شَتْمِ الْخَادِمِ، وَقَالَ عَطَاءٌ: هُوَ دُخُولُ الْحَرَمِ غَيْرَ مُحْرِمٍ أَوِ ارْتِكَابُ شَيْءٍ مِنْ مَحْظُورَاتِ الْحَرَمِ مِنْ قَتْلِ صَيْدٍ أَوْ قَطْعِ شَجَرٍ، وَعَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ قَالَ: تُضَاعَفُ السَّيِّئَاتُ بِمَكَّةَ كَمَا تُضَاعَفُ الْحَسَنَاتُ، وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مسعود: لَوْ أَنَّ رَجُلًا هَمَّ بِخَطِيئَةٍ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ مَا لَمْ يَعْمَلْهَا، وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا هَمَّ بِقَتْلِ رَجُلٍ بِمَكَّةَ وَهُوَ بِعَدَنِ أَبْيَنَ أَوْ بِبَلَدٍ آخَرَ أَذَاقَهُ اللهُ من عذاب أليم. قال السدي: إلا أن يتوب.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ أَيْ: وَطَّأْنَا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: جَعَلْنَا، وَقِيلَ: بَيَّنَّا، وَالتَّبْوِئَةُ في اللغة: الْإِسْكَانُ، وَتَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا﴾ [يوسف: ٥٦]، قَالَ الزَّجَّاجُ. جعلنا مكان البيت مبوأ لِإِبْرَاهِيمَ، وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: هيئنا، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ أَيْ: عَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَقُلْنَا لَهُ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا، وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ قال مجاهد: مِّن الشِّرْكِ ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أَيِ اجْعَلْهُ خَالِصًا لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَالطَّائِفُ بِهِ مَعْرُوفٌ، وَهُوَ أَخَصُّ الْعِبَادَاتِ عِنْدَ الْبَيْتِ، فَإِنَّهُ لَا يُفْعَلُ بِبُقْعَةٍ مِنَ الْأَرْضِ سِوَاهَا ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ أَيْ فِي الصَّلَاةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ فَقَرَنَ الطَّوَافَ بِالصَّلَاةِ لِأَنَّهُمَا لَا يُشْرَعَانِ إِلَّا مُخْتَصَّيْنِ بِالْبَيْتِ.

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ﴾ أي: أعلم ونادىٰ في الناس، ﴿بِالْحَجِّ﴾ فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ وَمَا يَبْلُغُ صَوْتِي؟ فقال: عليك الأذان وعلينا البلاغ، فقام إبراهيم وَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إن ربكم قد بنىٰ لكم بَيْتًا وَكَتَبَ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ إِلَىٰ الْبَيْتِ فَأَجِيبُوا رَبَّكُمْ فَأَجَابَهُ كُلُّ مَنْ كَانَ يَحُجُّ مِنْ أَصْلَابِ الْآبَاءِ وَأَرْحَامِ الْأُمَّهَاتِ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لبيك، قال ابن عباس وَزَعَمَ الْحَسَنُ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ وَأَنَّ الْمَأْمُورَ بِهَذَا التَّأْذِينِ مُحَمَّدٌ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمِرَ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ فِي حِجَّةِ الْوَدَاعِ. وَرَوَىٰ أَبُو هريرة قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمُ الْحَجُّ**

فَحُجُّوا»[1]، قَوْلُهُ: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ أي: مُشَاةً عَلَىٰ أَرْجُلِهِمْ جَمْعُ رَاجِلٍ، مِثْلُ: قَائِمٍ وَقِيَامٍ وَصَائِمٍ وَصِيَامٍ، ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أَيْ: رُكْبَانًا عَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ، وَالضَّامِرُ: الْبَعِيرُ الْمَهْزُولُ الضعيف من كثرة المشي، ﴿يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ من كل طريق بعيد.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِيَشْهَدُوا﴾ ليحضروا، ﴿مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ قَالَ ابن عباس: مَنَافِعُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَمَّا مَنَافِعُ الْآخِرَةِ فَرِضْوَانُ الله تعالىٰ، وَأَمَّا مَنَافِعُ الدُّنْيَا فَمَا يُصِيبُونَ مِنْ مَنَافِعِ البدن والذبائح وَالتِّجَارَاتِ،قال سعيد بن المسيب: العفو والمغفرة، ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ يَعْنِي عَشْرَ ذِي الْحِجَّةِ فِي قَوْلِ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ، قِيلَ لَهَا: مَعْلُومَاتٍ لِلْحِرْصِ عَلَىٰ عِلْمِهَا بِحِسَابِهَا مِنْ أَجْلِ وَقْتِ الْحَجِّ فِي آخِرِهَا، ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ يَعْنِي الْهَدَايَا وَالضَّحَايَا تَكُونُ مِنَ النَّعَمِ، وَهِيَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ. وَالْبَهِيمَةُ اسْمٌ لِكُلِّ ذِي أَرْبَعٍ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِإِبْهَامِهَا مِنْ جِهَةِ نَقْصِ نُطْقِهَا وَفَهْمِهَا وَعَدَمِ تَمْيِيزِهَا وَعَقْلِهَا، والْأَنْعامِ: الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِلِينِ مَشْيِهَا ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ أَمْرُ إِبَاحَةٍ وَلَيْسَ بِوَاجِبٍ، وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ لِأَنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا لَا يَأْكُلُونَ مِنْ لُحُومِ هَدَايَاهُمْ شَيْئًا وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَىٰ أَنَّ الْهَدْيَ إِذَا كَانَ تَطَوُّعًا يَجُوزُ لِلْمُهْدِي أَنْ يَأْكُلَ مِنْهُ وكذلك أضحية التطوع، وَاخْتَلَفُوا فِي الْهَدْيِ

---

(١) مسلم (١٣٣٧).

الْوَاجِبِ بِالشَّرْعِ هَلْ يَجُوزُ لِلْمُهْدِي أَنْ يَأْكُلَ مِنْهُ شَيْئًا مِثْلَ دَمِ التَّمَتُّعِ وَالْقِرَانِ وَالدَّمِ الْوَاجِبِ بِإِفْسَادِ الْحَجِّ وَفَوَاتِهِ وَجَزَاءِ الصَّيْدِ، فَذَهَبَ قَوْمٌ إِلَىٰ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهُ شَيْئًا وَبِهِ قَالَ الشَّافِعِيُّ، وَكَذَلِكَ مَا أَوْجَبَهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بِالنَّذْرِ، وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: لَا يَأْكُلُ مِنْ جَزَاءِ الصَّيْدِ وَالنَّذْرِ، وَيَأْكُلُ مِمَّا سِوَىٰ ذَلِكَ، وَبِهِ قَالَ أَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ، وَقَالَ مَالِكٌ: يَأْكُلُ مِنْ هَدْيِ التَّمَتُّعِ وَمِنْ كُلِّ هَدْيٍ وَجَبَ عَلَيْهِ إِلَّا مِنْ فِدْيَةِ الْأَذَىٰ وَجَزَاءِ الصَّيْدِ وَالْمَنْذُورِ، وَعِنْدَ أَصْحَابِ الرَّأْيِ يَأْكُلُ مِنْ دَمِ التَّمَتُّعِ وَالْقِرَانِ وَلَا يَأْكُلُ مِنْ وَاجِبٍ سِوَاهُمَا. قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ الْبَائِسُ: الَّذِي أَصَابَهُ الْبُؤْسُ، وَهُوَ ضِيقُ الْمَالِ، وَهُوَ الْفَقِيرُ، ، وَالْبُؤْسُ شِدَّةُ الفقر، قال ابن عاشور : وَإِنَّمَا ذُكِرَ الْبَائِسُ مَعَ أَنَّ الْفَقِيرَ مُغْنٍ عَنْهُ لِتَرْقِيقِ أَفْئِدَةِ النَّاسِ عَلَىٰ الْفَقِيرِ بِتَذْكِيرِهِمْ أَنَّهُ فِي بُؤْسٍ لِأَنَّ وَصْفَ فَقِيرٍ لِشُيُوعِ تَدَاوُلِهِ عَلَىٰ الْأَلْسُنِ صَارَ كَاللَّقَبِ ، غَيْرَ مُشْعِرٍ بِمَعْنَىٰ الْحَاجَةِ وَقَدْ حَصَلَ مِنْ ذِكْرِ الْوَصْفَيْنِ التَّأْكِيدُ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْبَائِسُ الَّذِي ظَهَرَ بُؤْسُهُ فِي ثِيَابِهِ وَفِي وَجْهِهِ، وَالْفَقِيرُ: الَّذِي تَكُونُ ثِيَابُهُ نَقِيَّةً وَوَجْهُهُ وَجْهَ غَنِيٍّ.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ التَّفَثُ الْوَسَخُ وَالْقَذَارَةُ مِنْ طُولِ الشعر والأظفار وَالشَّعَثِ، تَقُولُ الْعَرَبُ لِمَنْ تَسْتَقْذِرُهُ: مَا أَتْفَثَكَ أَيْ مَا أَوْسَخَكَ. والحاج أشعث أغبر أي: لَمْ يَحْلِقْ شَعْرَهُ وَلَمْ يُقَلِّمْ ظُفْرَهُ فَقَضَاءُ التَّفَثِ إِزَالَةُ هَذِهِ الأشياء ليقضوا تَفَثَهُمْ، أَيْ: لِيُزِيلُوا أَدْرَانَهُمْ، وَالْمُرَادُ مِنْهُ الْخُرُوجُ عَنِ الْإِحْرَامِ بِالْحَلْقِ وَقَصِّ الشَّارِبِ وَنَتْفِ الْإِبِطِ وَالِاسْتِحْدَادِ وَقَلْمِ

الْأَظْفَارِ وَلُبْسِ الثِّيَابِ، قَالَ ابْنُ عُمَرَ وَابْنُ عَبَّاسٍ: قَضَاءُ التَّفَثِ مَنَاسِكُ الْحَجِّ كُلُّهَا، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ مَنَاسِكُ الْحَجِّ وَأَخْذُ الشَّارِبِ وَنَتْفُ الْإِبِطِ وَحَلْقُ الْعَانَةِ وقلم الأظفار، وقيل: التفث ههنا رَمْيُ الْجِمَارِ، قَالَ الزَّجَّاجُ: لَا نَعْرِفُ التَّفَثَ وَمَعْنَاهُ إِلَّا مِنَ الْقُرْآنِ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: أَرَادَ نَذْرَ الْحَجِّ وَالْهَدْيِ وَمَا يُنْذِرُ الْإِنْسَانُ مِنْ شَيْءٍ يَكُونُ فِي الْحَجِّ أَيْ: لِيُتِمُّوهَا بِقَضَائِهَا. وَقِيلَ: الْمُرَادُ مِنْهُ الْوَفَاءُ بِمَا نَذَرَ عَلَىٰ ظَاهِرِهِ. وَقِيلَ: أَرَادَ بِهِ الْخُرُوجَ عَمَّا وجب عليه نذرا ولم يَنْذِرْ. ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أَرَادَ بِهِ الطَّوَافَ الْوَاجِبَ عَلَيْهِ وَهُوَ طَوَافُ الْإِفَاضَةِ يَوْمَ النَّحْرِ بَعْدَ الرَّمْيِ وَالْحَلْقِ، قوله: ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ واختلفوا في معنىٰ العتيق، فقال ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ الزُّبَيْرِ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: سُمِّيَ عَتِيقًا لِأَنَّ اللهَ أَعْتَقَهُ مِنْ أَيْدِي الْجَبَابِرَةِ أَنْ يَصِلُوا إِلَىٰ تَخْرِيبِهِ، فَلَمْ يَظْهَرْ عليه جبار قط وقال الحسن البصري: لأنه أول بيت وضع للناس.

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذَلِكَ﴾ أَي: الْأَمْرُ ذَلِكَ يَعْنِي مَا ذُكِرَ مِنْ أَعْمَالِ الْحَجِّ، ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ﴾ أَيْ مَعَاصِي اللهِ وَمَا نَهَىٰ عَنْهُ وَتَعْظِيمُهَا تَرْكُ مُلَابَسَتِهَا. قَالَ اللَّيْثُ: حُرُمَاتُ اللهِ مَا لَا يَحِلُّ انْتِهَاكُهَا، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: الْحُرْمَةُ مَا وَجَبَ الْقِيَامُ بِهِ وَحَرُمَ التَّفْرِيطُ فِيهِ، وَذَهَبَ قَوْمٌ إِلَىٰ أن معنىٰ الحرمات ههنا المناسك بدليل مَا يَتَّصِلُ بِهَا مِنَ الْآيَاتِ. وقال ابن زيد: الحرمات ههنا الْبَيْتُ الْحَرَامُ، وَالْبَلَدُ الْحَرَامُ وَالشَّهْرُ الْحَرَامُ وَالْمَسْجِدُ الْحَرَامُ وَالْإِحْرَامُ، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ

لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أَيْ: تَعْظِيمُ الْحُرُمَاتِ، خَيْرٌ لَهُ عند الله في الآخرة، ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ﴾ أَنْ تَأْكُلُوهَا إِذَا ذَبَحْتُمُوهَا وَهِيَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ، ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ تَحْرِيمُهُ وَهُوَ قَوْلُهُ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ﴾ الْآيَةَ، ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ أَيْ: عِبَادَتَهَا، يَقُولُ: كُونُوا عَلَىٰ جَانِبٍ مِنْهَا فَإِنَّهَا رِجْسٌ، أَيْ: سَبَبُ الرِّجْسِ، وَهُوَ الْعَذَابُ وَالرِّجْسُ: بِمَعْنَىٰ الرِّجْزِ وَقَالَ الزَّجَّاجُ: (مِنْ) ههنا لِلتَّجْنِيسِ أَيْ: اجْتَنِبُوا الْأَوْثَانَ الَّتِي هِيَ رِجْسٌ، ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ يَعْنِي: الْكَذِبَ وَالْبُهْتَانَ، وَقَالَ ابْنُ مسعود: شهادة الزور، وَقِيلَ: هُوَ قَوْلُ الْمُشْرِكِينَ فِي تَلْبِيَتِهِمْ: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ تملكه وما ملك.

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ أَيْ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ مُنْحَرِفِينَ عَنِ الْبَاطِلِ قَصْدًا إِلَىٰ الْحَقِّ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾، قَالَ قَتَادَةُ: كَانُوا فِي الشِّرْكِ يَحُجُّونَ وَيُحَرِّمُونَ الْبَنَاتِ وَالْأُمَّهَاتِ وَالْأَخَوَاتِ وَكَانُوا يُسَمَّوْنَ حُنَفَاءَ، فَنَزَلَتْ: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ أي: لا تدعون مع الله إلهًا غيره ، فله العبادة وله الكبرياء وحده لا شريك له، ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ﴾ أي: سقط، ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ إلىٰ الأرض، ﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ أَيْ: تَسْتَلِبُهُ الطَّيْرُ وَتَذْهَبُ بِهِ، وَالْخَطْفُ وَالِاخْتِطَافُ تَنَاوُلُ الشَّيْءِ بِسُرْعَةٍ، أَيْ تَقْطَعُهُ بِمَخَالِبِهَا، وَقِيلَ: هَذَا عِنْدَ خُرُوجِ رُوحِهِ وَصُعُودِ الْمَلَائِكَةِ بِهَا إِلَىٰ سَمَاءِ الدُّنْيَا، فَلَا يُفْتَحُ لَهَا فَيُرْمَىٰ بِهَا إِلَىٰ الْأَرْضِ، قال قتادة: هذا مثل ضربه الله لمن أشرك بالله في بُعده

من الهدىٰ وهلاكه، ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ﴾ أَيْ: تَمِيلُ وَتَذْهَبُ بِهِ، ﴿فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ أي: بعيد معناه أن بعد من أشرك بالحق كَبُعْدِ مَنْ سَقَطَ مِنَ السَّمَاءِ فَذَهَبَتْ بِهِ الطَّيْرُ، أَوْ هَوَتْ به الريح، فلا يصل بِحَالٍ، وَقِيلَ: شَبَّهَ حَالَ الْمُشْرِكِ بِحَالِ الْهَاوِي مِنَ السَّمَاءِ فِي أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ حِيلَةً حَتَّىٰ يَقَعَ بِحَيْثُ تُسْقِطُهُ الرِّيحُ، فَهُوَ هَالِكٌ لَا مَحَالَةَ إِمَّا بِاسْتِلَابِ الطَّيْرِ لَحْمَهُ وَإِمَّا بِسُقُوطِهِ إِلَىٰ الْمَكَانِ السَّحِيقِ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: شَبَّهَ أَعْمَالَ الْكَفَّارِ بِهَذِهِ الْحَالِ فِي أَنَّهَا تَذْهَبُ وَتَبْطُلُ فَلَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْهَا، وجاءَ فِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ: « **إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا تَوَفَّتْهُ مَلَائِكَةُ الْمَوْتِ وَصَعِدُوا بِرُوحِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ، فَلَا تُفْتَحُ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، بَلْ تُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا مِنْ هناك**، ثم قرأ هذه الآية: ﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ »(١).

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذَلِكَ﴾ يَعْنِي: الَّذِي ذَكَرْتُ مِنَ اجْتِنَابِ الرِّجْسِ وَقَوْلِ الزُّورِ، ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَىٰ الْقُلُوبِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: شَعَائِرُ اللهِ الْبُدْنُ وَالْهَدْيُ وَأَصْلُهَا مِنَ الْإِشْعَارِ وهو إعلامها ليعلم أَنَّهَا هَدْيٌ وَتَعْظِيمُهَا تسمينها وَاسْتِحْسَانُهَا، قال أبو أمامة عن سَهْلٍ: كنَّا نسمِّن الْأُضْحِيَّةَ بِالْمَدِينَةِ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يسمِّنون ، وَقِيلَ: شَعَائِرُ اللهِ أَعْلَامُ دِينِهِ، فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَىٰ الْقُلُوبِ، أَيْ: فَإِنَّ تَعْظِيمَهَا مِنْ تَقْوَىٰ الْقُلُوبِ، وَأَضَافَ التَّقْوَىٰ إِلَىٰ الْقُلُوبِ لِأَنَّ

---

(١) أحمد (١٨٥٣٤) .

حَقِيقَةَ التَّقْوَىٰ فِي الْقَلْبِ، وَلِهَذَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي صَحِيحِ الْحَدِيثِ: (التَّقْوَىٰ هَاهُنَا) وَأَشَارَ إِلَىٰ صَدْرِهِ.

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أَيْ: فِي الْبُدْنِ قَبْلَ تَسْمِيَتِهَا للهدىٰ، ﴿مَنَافِعُ﴾ فِي حليبها وَنَسْلِهَا وَأَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَرُكُوبِ ظُهُورِهَا، ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّىٰ﴾ وَهُوَ أَنْ يُسَمِّيَهَا وَيُوجِبَهَا هَدْيًا فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَيْءٌ مِنْ مَنَافِعِهَا، هَذَا قَوْلُ مُجَاهِدٍ، وَقَوْلُ قَتَادَةَ وَالضَّحَّاكِ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ لَكُمْ فِي الْهَدَايَا مَنَافِعُ بَعْدَ إِيجَابِهَا وَتَسْمِيَتِهَا هَدْيًا بِأَنْ تَرْكَبُوهَا وَتَشْرَبُوا أَلْبَانَهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّىٰ، يَعْنِي إِلَىٰ أَنْ تَنْحَرُوهَا وَهُوَ قَوْلُ عطاء ابن أبي رباح، وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « رَأَىٰ رَجُلًا يَسُوقُ بَدَنَةً فَقَالَ: **ارْكَبْهَا** فَقَالَ: إِنَّهَا بَدَنَةٌ ، فَقَالَ: **ارْكَبْهَا** قَالَ: إِنَّهَا بَدَنَةٌ، قَالَ: **ارْكَبْهَا وَيْلَكَ**، فِي الثَّانِيَةِ أَوِ الثَّالِثَةِ »[١]،قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ يُرِيدُ أَنَّهَا تَنْتَهِي إِلَىٰ الْبَيْتِ، وَهُوَ الطَّوَافُ ، فَقَوْلُهُ: ﴿مَحِلُّهَا﴾ مَأْخُوذٌ مِنْ إِحْلَالِ الْمُحْرِمِ، وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّ شَعَائِرَ الْحَجِّ كُلَّهَا مِنَ الْوُقُوفِ بِعَرَفَةَ وَرَمْيِ الْجِمَارِ وَالسَّعْيِ يَنْتَهِي إِلَىٰ طَوَافِ الْإِفَاضَةِ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ.

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكـًا﴾ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَىٰ الذَّبَائِحَ بَيَّنَ أَنَّهُ لَمْ يَخْلُ مِنْهَا أُمَّةٌ، وَالْأُمَّةُ الْقَوْمُ الْمُجْتَمِعُونَ عَلَىٰ مَذْهَبٍ وَاحِدٍ، أَيْ وَلِكُلِّ

---

(١) البخاري (١٦٨٩) .

جَمَاعَةٍ مُؤْمِنَةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا، وَالْمَنْسَكُ الذَّبْحُ وَإِرَاقَةُ الدَّمِ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ ، يُقَالُ: نَسَكَ إِذَا ذَبَحَ يَنْسُكُ نَسْكًا ، وَالذَّبِيحَةُ نَسِيكَةٌ، وَجَمْعُهَا نُسُكٌ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة : ١٩٦] ، وَقَالَ ابْنُ عَرَفَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً﴾: أَيْ مَذْهَبًا مِنْ طَاعَةِ اللهِ تَعَالَىٰ، يُقَالُ: نَسَكَ نَسْكَ قَوْمِهِ إِذَا سَلَكَ مَذْهَبَهُمْ، وَقِيلَ: مَنْسَكًا عِيدًا، قال القرطبي وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَظْهَرُ ، قوله : ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ عِنْدَ نَحْرِهَا وَذَبْحِهَا وَسَمَّاهَا بَهِيمَةً لِأَنَّهَا لَا تَتَكَلَّمُ، ﴿فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أَيْ: سَمُّوا عَلَىٰ الذَّبَائِحِ اسْمَ اللهِ وَحْدَهُ فَإِنَّ إِلَهَكُمْ إِلَهٌ واحد، ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ انقادوا وأطيعوا، ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ: الْمُتَوَاضِعِينَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْمُطْمَئِنِّينَ إِلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْخَبْتُ الْمَكَانُ الْمُطْمَئِنُّ مِنَ الْأَرْضِ ، وَقَالَ الْأَخْفَشُ: الْخَاشِعِينَ، وَقَالَ النَّخَعِيُّ: الْمُخْلِصِينَ ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: هم الرقيقة قلوبهم، وقال عمر بْنُ أَوْسٍ: هُمُ الَّذِينَ لَا يَظْلِمُونَ وَإِذَا ظُلِمُوا لَمْ يَنْتَصِرُوا ، قَالَ السَّعْدِيُّ: الْمُخْبِتُ: الْخَاضِعُ لِرَبِّهِ، الْمُسْتَسْلِمُ لِأَمْرِهِ، الْمُتَوَاضِعُ لِعِبَادِهِ.

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أَيْ خَافَتْ وَحَذِرَتْ مُخَالَفَتَهُ ، فَوَصَفَهُمْ بِالْخَوْفِ وَالْوَجَلِ عِنْدَ ذِكْرِهِ، وَذَلِكَ لِقُوَّةِ يَقِينِهِمْ وَمُرَاعَاتِهِمْ لِرَبِّهِمْ، وَكَأَنَّهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَوَصَفَهُمْ بِالصَّبْرِ وَإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِدَامَتِهَا ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْمَصَائِبِ، قال الحسن البصري:

والله لنصبرن أو لنهلكن، ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ أَيِ: الْمُقِيمِينَ لِلصَّلَاةِ فِي أَوْقَاتِهَا، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ أي: يتصدقون.

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالْبُدْنَ﴾ جَمْعُ بَدَنَةٍ سُمِّيَتْ بَدَنَةً لِعِظَمِهَا وَضَخَامَتِهَا يُرِيدُ الْإِبِلَ الْعِظَامَ الصِّحَاحَ الْأَجْسَامِ، يُقَالُ: بَدُنَ الرَّجُلُ بُدْنًا وَبَدَانَةً إِذَا صار سميناً، الَ مُجَاهِدٌ: إنما البدن من الإبل، وَاخْتَلَفُوا فِي صِحَّةِ إِطْلَاقِ الْبَدَنَةِ عَلَىٰ الْبَقَرَةِ عَلَىٰ قَوْلَيْنِ: أَصَحُّهُمَا أَنَّهُ يُطْلَقُ عَلَيْهَا ذَلِكَ شرعاً كما صح الْحَدِيثِ، ثُمَّ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ عَلَىٰ أَنَّهُ تُجْزِئُ الْبَدَنَةُ عَنْ سَبْعَةٍ وَالْبَقَرَةُ عَنْ سَبْعَةٍ، كَمَا ثبت عن جابر بن عبد الله قَالَ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ نَشْتَرِكَ فِي الْأَضَاحِيِّ: الْبَدَنَةُ عَنْ سبعة، والبقرة عن سبعة، ﴿جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ﴾ مِنْ أَعْلَامِ دِينِهِ، سُمِّيَتْ شَعَائِرَ لِأَنَّهَا تُشْعِرُ، وَهُوَ أَنْ تُطعن بِحَدِيدَةٍ فِي سَنَامِهَا فَيُعْلَمَ أَنَّهَا هدي، ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ النَّفْعُ فِي الدُّنْيَا وَالْأَجْرُ فِي الأخرة ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا﴾ أي: عند نحرها،عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِيدَ الْأَضْحَىٰ، فَلَمَّا انصَرَفَ أَتَىٰ بِكَبْشٍ فَذَبَحَهُ، فَقَالَ: «**بِسْمِ اللهِ وَاللهِ أَكْبَرُ، اللَّهُمَّ هَذَا عَنِّي وَعَمَّنْ لَمَّ يُضَحِّ مِنْ أُمَّتِي**»[١]، ﴿صَوَافَّ﴾ أَيْ قَدْ صُفَّتْ قَوَائِمُهَا، قِيَامًا عَلَىٰ ثَلَاثِ قَوَائِمَ قد صفت رجلها وَإِحْدَىٰ يَدَيْهَا وَيَدُهَا الْيُسْرَىٰ مَعْقُولَةٌ فينحرها كذلك، ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ يعني: سَقَطَتْ

---

(١) أبو داود (٢٨١٠) والترمذي (١٥٢١).

بَعْدَ النَّحْرِ فَوَقَعَتْ جُنُوبُهَا عَلَىٰ الْأَرْضِ، وَأَصِلُ الْوُجُوبِ: الْوُقُوعُ ، يُقَالُ: وَجَبَتِ الشَّمْسُ إِذَا سَقَطَتْ للمغيب، ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ أَمْرُ إِبَاحَةٍ، ﴿وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَاهُمَا، فَقَالَ عِكْرِمَةُ وَإِبْرَاهِيمُ وَقَتَادَةُ: الْقَانِعُ الْجَالِسُ فِي بَيْتِهِ الْمُتَعَفِّفُ يَقْنَعُ بِمَا يُعطىٰ ولا يسأل، والمعترّ الَّذِي يَسْأَلُ يُقَالُ: اعْتَرَّ، إِذَا تَعَرَّضَ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْقَانِعُ الَّذِي لَا يعترض وَلَا يَسْأَلُ، فَعَلَىٰ هَذَيْنَ التَّأْوِيلَيْنِ يَكُونُ الْقَانِعُ مِنَ الْقَنَاعَةِ ، يُقَالُ: قنع قانعة إِذَا رَضِيَ بِمَا قُسم لَهُ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: الْقَانِعُ الْمِسْكِينُ، وَالْمُعْتَرُّ الَّذِي لَيْسَ بِمِسْكِينٍ، وَلَا يَكُونُ لَهُ ذَبِيحَةٌ يَجِيءُ إِلَىٰ الْقَوْمِ فَيَتَعَرَّضُ لَهُمْ لِأَجْلِ لَحْمِهِمْ ، ﴿كَذَلِكَ﴾ يعني: مِثْلُ مَا وَصَفْنَا مِنْ نَحْرِهَا قيامًا ﴿سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ﴾ نِعْمَةً مِنَّا لِتَتَمَكَّنُوا مِنْ نَحْرِهَا، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لكي تشكروا إنعامي عَلَيْكُمْ.

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾ وذلك أن الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا إِذَا نَحَرُوا الْبُدْنَ لَطَّخُوا الْكَعْبَةَ بِدِمَائِهَا قُرْبَةً إِلَىٰ اللهِ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ: لَنْ يُرفع إِلَىٰ اللهِ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا، ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ وَلَكِنْ تُرْفَعُ إِلَيْهِ مِنْكُمُ الْأَعْمَالُ الصالحة والتقوىٰ، والإخلاص وما أُرِيدَ بِهِ وَجْهُ اللهِ، ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ منَّ سُبْحَانَهُ عَلَيْنَا بِتَذْلِيلِهَا وَتَمْكِينِنَا مِنْ تَصْرِيفِهَا وَهِيَ أَعْظَمُ مِنَّا أَبَدَانًا وَأَقْوَىٰ مِنَّا أَعْضَاءً، ذَلِكَ لِيَعْلَمَ الْعَبْدُ أَنَّ الْأُمُورَ لَيْسَتْ عَلَىٰ مَا يظهر إِلَىٰ الْعَبْدِ مِنَ التَّدْبِيرِ، وَإِنَّمَا هِيَ بِحَسَبِ مَا يُرِيدُهَا الْعَزِيزُ الْقَدِيرُ، ﴿لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ أَرْشَدَكُمْ لِمَعَالِمِ

دِينِهِ وَمَنَاسِكِ حَجِّهِ، وَهُوَ أَنْ يَقُولَ: اللهُ أَكْبَرُ عَلَىٰ مَا هَدَانَا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَىٰ مَا أَبْلَانَا وَأَوْلَانَا، ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ قال ابن عباس: الموحدين.

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يُخْبِرُ تَعَالَىٰ: أَنَّهُ يَدْفَعُ عَنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ تَوَكَّلُوا عَلَيْهِ وَأَنَابُوا إِلَيْهِ، شَرَّ الْأَشْرَارِ وَكَيْدَ الْفُجَّارِ، وَيَحْفَظُهُمْ وَيَكْلَؤُهُمْ وَيَنْصُرُهُمْ، ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ يعني: خَوَّانٍ فِي أَمَانَةِ اللهِ كَفُورٍ لِنِعْمَتِهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: خَانُوا اللهَ فَجَعَلُوا مَعَهُ شَرِيكًا وَكَفَرُوا نِعَمَهُ، قَالَ الزَّجَّاجُ: مَنْ تَقَرَّبَ إِلَىٰ الْأَصْنَامِ بِذَبِيحَتِهِ وَذَكَرَ عَلَيْهَا اسم غَيْرَ اللهِ فَهُوَ خَوَّانٌ كَفُورٌ.

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أُذِنَ﴾ أَيْ: أَذِنَ اللهُ تعالىٰ ﴿لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾ المُرَاد بِهِمُ الْمُؤْمِنُونَ عَلَىٰ كِلْتَا لِأَنَّهُمْ إِذَا قُوتِلُوا فَقَدْ قَاتَلُوا ، قَالَ السَّعْدِيُّ: يُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّهُمْ كَانُوا قَبْلُ مَمْنُوعِينَ، فَأَذِنَ اللهُ لَهُمْ بِقِتَالِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ، وَإِنَّمَا أُذِنَ لَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا، بِمَنْعِهِمْ مِنْ دِينِهِمْ، وَأَذِيَّتِهِمْ عَلَيْهِ، وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْ دِيَارِهِمْ ، وقَالَ الْمُفَسِّرُونَ: كَانَ مُشْرِكُو أَهْلِ مَكَّةَ يُؤْذُونَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَا يَزَالُونَ مَحْزُونِينَ مِنْ بَيْنِ مَضْرُوبٍ وَمَشْجُوجٍ، وَيَشْكُونَ ذَلِكَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولُ لَهُمُ: اصبروا فإني لم أومر بِالْقِتَالِ حَتَّىٰ هَاجَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْآيَةَ، وَهِيَ أَوَّلُ آيَةٍ أَذِنَ اللهُ فِيهَا بِالْقِتَالِ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بالمدينة وَقَالَ مُقَاتِلٌ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي قَوْمٍ بِأَعْيَانِهِمْ خَرَجُوا مُهَاجِرِينَ مِنْ مَكَّةَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ، فَكَانُوا يُمْنَعُونَ فَأَذِنَ

اللهُ لَهُمْ فِي قِتَالِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ يَمْنَعُونَهُمْ مِنَ الهجرة، ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ يعني: بسبب تعرضهم للظلم والاعتداء والايذاء من قبل المشركين، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا أُخْرِجَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَكَّةَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرَجُوا نَبِيَّهُمْ لَيَهْلِكُنَّ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ فقَالَ أَبُو بَكْرٍ: لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ سَيَكُونُ قِتَالٌ، ﴿وَإِنَّ اللهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾.

[٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ قال ابْنِ عَبَّاسٍ: أُخْرِجُوا مِنْ مَكَّةَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ بِغَيْرِ حَقٍّ يَعْنِي مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ، ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ﴾ أَيْ مَا كَانَ لَهُمْ إساءة ولا ذنب، إِلَّا لِقَوْلِهِمْ رَبُّنَا اللهُ وَحْدَهُ، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ بالجهاد وإقامة الحدود، قال القرطبي: أَيْ لَوْلَا مَا شَرَعَهُ اللهُ تَعَالَىٰ لِلْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ مِنْ قِتَالِ الْأَعْدَاءِ، لَاسْتَوْلَىٰ أَهْلُ الشِّرْكِ وَعَطَّلُوا مَا بَيَّنَتْهُ أَرْبَابُ الدِّيَانَاتِ مِنْ مَوَاضِعِ الْعِبَادَاتِ، وَلَكِنَّهُ دَفَعَ بِأَنْ أَوْجَبَ الْقِتَالَ لِيَتَفَرَّغَ أَهْلُ الدِّينِ لِلْعِبَادَةِ، فَالْجِهَادُ أَمْرٌ مُتَقَدِّمٌ فِي الْأُمَمِ، وَبِهِ صَلَحَتِ الشَّرَائِعُ وَاجْتَمَعَتِ الْمُتَعَبَّدَاتُ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: أُذِنَ فِي الْقِتَالِ، فَلْيُقَاتِلِ الْمُؤْمِنُونَ. ﴿لَهُدِّمَتْ﴾ مِنْ هَدَّمْتُ الْبِنَاءَ أَيْ نَقَضْتُهُ فَانْهَدَمَ. وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: لَوْلَا أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَدْفَعُ بِمَنْ فِي الْمَسَاجِدِ عَمَّنْ لَيْسَ فِي الْمَسَاجِدِ، وَبِمَنْ يَغْزُو عَمَّنْ لَا يَغْزُو، لَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ، ﴿صَوامِعُ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ: يَعْنِي: صَوَامِعُ الرُّهْبَانِ. وَالصَّوَامِعُ: جَمْعُ صَوْمَعَةٍ وَهِيَ بِنَاءٌ مُسْتَطِيلٌ مُرْتَفِعٌ يُصْعَدُ إِلَيْهِ بِدَرَجٍ

وَبِأَعْلَاهُ بَيْتٌ، كَانَ الرُّهْبَانُ يَتَّخِذُونَهُ لِلْعِبَادَةِ لِيَكُونُوا بُعَدَاءَ عَنْ مُشَاغَلَةِ النَّاسِ إِيَّاهُمْ، ﴿وَبِيَعٌ﴾ يعني بِيَعُ جَمْعُ بَيْعَةٍ ، مَكَانُ عِبَادَةِ النَّصَارَىٰ ، قال قتادة : وَكَانَتْ قَبْلَ الْإِسْلَامِ مختصة برهبان النصارىٰ وبعباد الصابئين ﴿وَصَلَوَاتٌ﴾ يعني كنائس اليهود ويسمونها بالعبرية صَلُوثا، ﴿وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا﴾ يَعْنِي مَسَاجِدَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَذَهَبَ خُصَيْفٌ إِلَىٰ أَنَّ الْقَصْدَ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ تَقْسِيمُ مُتَعَبَّدَاتِ الْأُمَمِ ، فَالصَّوَامِعُ لِلرُّهْبَانِ، وَالْبِيَعُ لِلنَّصَارَىٰ، وَالصَّلَوَاتُ لِلْيَهُودِ، وَالْمَسَاجِدُ لِلْمُسْلِمِينَ، قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: وَالْأَظْهَرُ أَنَّهَا قُصِدَ بِهَا الْمُبَالَغَةُ فِي ذِكْرِ الْمُتَعَبَّدَاتِ ، قال البغوي : وَمَعْنَىٰ الْآيَةِ: وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِمَ فِي شَرِيعَةِ كُلِّ نَبِيٍّ مَكَانُ صَلَاتِهِمْ، لَهُدِمَ فِي زَمَنِ مُوسَىٰ الْكَنَائِسُ، وَفِي زَمَنِ عِيسَىٰ الْبِيَعُ وَالصَّوَامِعُ، وَفِي زَمَنِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَسَاجِدُ وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: أَرَادَ بِالصَّلَوَاتِ صَلَوَاتِ أَهْلِ الإسلام فإنها لا تَنْقَطِعُ إِذَا دَخَلَ الْعَدُوُّ عَلَيْهِمْ ، ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ يعني: يَنْصُرُ دِينَهُ وَنَبِيَّهُ، ﴿إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ قَالَ الْخَطَّابِيُّ: الْقَوِيُّ يَكُونُ بمعنىٰ القادر، ومن قوىٰ علىٰ شي فَقَدْ قَدَرَ عَلَيْهِ، وقال ابن كثير : وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْقُوَّةِ وَالْعِزَّةِ؛ فَبِقُوَّتِهِ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا وَبِعِزَّتِهِ لَا يَقْهَرُهُ قَاهِرٌ، وَلَا يَغْلِبُهُ غَالِبٌ، بَلْ كُلُّ شَيْءٍ ذَلِيلٌ لَدَيْهِ فَقِيرٌ إِلَيْهِ، وَمَنْ كَانَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ نَاصِرَهُ فَهُوَ الْمَنْصُورُ، وَعَدُوُّهُ هُوَ الْمَقْهُورُ.

[٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ قَالَ الزَّجَّاجُ: هَذَا مِنْ صِفَةِ ناصريه ومعنىٰ مكناهم نَصَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ حَتَّىٰ يَتَمَكَّنُوا في البلاد قال: هُمْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عليه وسلم ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (الْمُرَادُ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ وَالتَّابِعُونَ بِإِحْسَانٍ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: هُمْ أَهْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ. قال الحسن البصري: هَذِهِ الْأُمَّةُ ، قوله : ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ فِي أَوْقَاتِهَا، وَحُدُودِهَا، وَأَرْكَانِهَا، وَشُرُوطِهَا، فِي الْجُمُعَةِ وَالْجَمَاعَاتِ، ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ الَّتِي عَلَيْهِمْ خُصُوصًا، وَعَلَىٰ رَعِيَّتِهِمْ عُمُومًا، آتُوهَا أَهْلَهَا، الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، ﴿وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ﴾ وَهَذَا يَشْمَلُ كُلَّ مَعْرُوفٍ حَسُنَهُ شَرْعًا وَعَقْلًا مِنْ حُقُوقِ اللهِ، وَحُقُوقِ الْآدَمِيِّينَ، وَعَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ فِي الْآيَةِ قَالَ: كَانَ أَمْرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ أَنَّهُمْ دَعَوْا إِلَىٰ اللهِ وَحْدَهُ وَعِبَادَتِهِ لَا شَرِيكَ لَهُ وَكَانَ نَهْيُهُمْ أَنَّهُمْ نَهَوْا عَنْ عِبَادَةِ الشَّيْطَانِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، وَإِلَّا كُنْتُمْ أَنْتُمُ الْمَوْعِظَاتِ ، يَعْنِي تَصْبِحُونَ عِظَةً لِغَيْرِكُمْ عِنْدَمَا يَحُلُّ بِكُمْ سَخَطُ اللهِ تَعَالَىٰ، ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ يَعْنِي: آخِرُ أُمُورِ الْخَلْقِ وَمَصِيرُهُمْ إِلَيْهِ يَعْنِي يُبْطَلُ كُلُّ مُلْكٍ سِوَىٰ مُلْكِهِ فَتَصِيرُ الْأُمُورُ إِلَيْهِ بِلَا مُنَازِعٍ وَلَا مُدَّعٍ.

[٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ هَذَا تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَعْزِيَةٌ، أَيْ كَانَ قَبْلَكَ أَنْبِيَاءُ كُذِّبُوا فَصَبَرُوا إِلَىٰ أَنْ أَهْلَكَ اللهُ الْمُكَذِّبِينَ، فَاقْتَدِ بِهِمْ وَاصْبِرْ، ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾ .

[٤٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ ، قال القرطبي : هَذَا تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَعْزِيَةٌ، أَيْ كَانَ قَبْلَكَ أَنْبِيَاءُ كُذِّبُوا فَصَبَرُوا إِلَىٰ أَنْ أَهْلَكَ اللهُ الْمُكَذِّبِينَ، فَاقْتَدِ بِهِمْ وَاصْبِرْ.

[٤٤] : ﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ﴾ هُمْ قَوْمُ شُعَيْبٍ ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ يعني: أَمْهَلْتُهُمْ وَأَخَّرْتُ عُقُوبَتَهُمْ، لِأَنَّ مُكَذِّبِيهِ هُمُ الْقِبْطُ قَوْمُ فِرْعَوْنَ وَلَمْ يُكَذِّبْهُ قَوْمُهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴿وَكُذِّبَ مُوسىٰ﴾ أَيْ كَذَّبَهُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ، فَأَمَّا بَنُو إِسْرَائِيلَ فَمَا كَذَّبُوهُ، فَلِهَذَا لَمْ يَعْطِفْهُ عَلَىٰ مَا قَبْلَهُ فَيَكُونَ وَقَوْمُ مُوسَىٰ ، ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرِينَ﴾ أَيْ أَخَّرْتُ عَنْهُمُ الْعُقُوبَةَ، وَالْإِمْلَاءُ: تَرْكُ الْمُتَلَبِّسِ بِالْعِصْيَانِ دُونَ تَعْجِيلِ عُقُوبَتِهِ وَتَأْخِيرِهَا إِلَىٰ وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ حَتَّىٰ يَحْسَبَ أَنَّهُ قَدْ نَجَا ثُمَّ يُؤْخَذَ بِالْعُقُوبَةِ، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ فَعَاقَبْتُهُمْ، ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ يعني: إِنْكَارِي، أَيْ: كَيْفَ أَنْكَرْتُ عَلَيْهِمْ مَا فَعَلُوا مِنَ التَّكْذِيبِ بِالْعَذَابِ وَالْهَلَاكِ يُخَوِّفُ بِهِ مَنْ يُخَالِفُ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويكذبه.

[٤٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَكَأَيِّنْ﴾ فكم كَلِمَةٌ بِمَعْنَىٰ التَّكْثِيرِ، قَالَ الْخَلِيلُ وَسِيبَوَيْهِ: هِيَ أَيُّ دَخَلَتْ ، عَلَيْهَا كَافُ التَّشْبِيهِ وَبُنِيَتْ مَعَهَا فَصَارَ فِي الْكَلَامِ مَعْنَىٰ وَكَمْ وَصُوِّرَتْ فِي الْمُصْحَفِ نُونًا، لِأَنَّهَا كَلِمَةٌ ، ﴿مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ بِالنُّونِ وَالْأَلِفِ عَلَىٰ التَّعْظِيمِ، ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ يعني: وأهلها ظالمون، ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ الْفَارِغَةُ مِنَ السُّكَّانِ وَالْبِنَاءِ. ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ علىٰ سقوفها، وَمَعْنَىٰ خاوِيَةٌ عَلىٰ عُرُوشِها أَنَّهَا لَمْ يَبْقَ فِيهَا سَقْفٌ وَلَا جِدَارٌ، وَهذا أَشَدُّ الْخَرَابِ

﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ﴾ يعني وَكَمْ مِنْ بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ مَتْرُوكَةٍ مُخْلَاةٍ عَنْ أَهْلِهَا ، أَيْ هِيَ نَابِعَةٌ بِالْمَاءِ وَحَوْلَهَا وَسَائِلُ السَّقْيِ وَلَكِنَّهَا لَا يُسْتَقَىٰ مِنْهَا لِأَنَّ أَهْلَهَا هَلَكُوا ، ﴿وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ وَالْمَشِيدُ: الْمَبْنِيُّ بِالشِّيدِ وَهُوَ الْجِصُّ: وَإِنَّمَا يُبْنَىٰ بِهِ الْبِنَاءُ مِنَ الْحَجَرِ لِأَنَّ الْجِصَّ أَشَدُّ مِنَ التُّرَابِ فَبِشِدَّةِ مَسْكِهِ يَطُولُ بَقَاءُ الْحَجَرِ الَّذِي رُصَّ بِهِ.مِنْ قَوْلِهِمْ: شَادَ بِنَاءَهُ إِذَا رَفَعَهُ ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ: مُجَصَّصٌ مِنَ مشيد، وهو الجص.

[٤٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يَعْنِي: كَفَّارَ مَكَّةَ فَيَنْظُرُوا إِلَىٰ مَصَارِعِ الْمُكَذِّبِينَ مِنَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ، ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أَضَافَ الْعَقْلَ إِلَىٰ الْقَلْبِ لِأَنَّهُ مَحَلُّهُ كَمَا أَنَّ السَّمْعَ مَحَلُّهُ الْأُذُنُ يَعْنِي: مَا يُذْكَرُ لَهُمْ مِنْ أَخْبَارِ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ فَيَعْتَبِرُونَ بِهَا، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَىٰ الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَىٰ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ أَيْ لَيْسَ الْعَمَىٰ عَمَىٰ الْبَصَرِ، وَإِنَّمَا الْعَمَىٰ عَمَىٰ الْبَصِيرَةِ، وَإِنْ كَانَتِ الْقُوَّةُ الْبَاصِرَةُ سَلِيمَةً ، فَإِنَّهَا لَا تَنْفُذُ إِلَىٰ الْعِبَرِ وَلَا تدري ما الخبر، وقال ابن عباس رضي الله عنها لمن عيَّره بفقدان البصر: إنا نصاب في أبصارنا وأنتم تصابون في بصائركم.

[٤٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ نَزَلَتْ فِي النَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ حَيْثُ قَالَ: إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ، ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ﴾ أَيْ فِي إِنْزَالِ الْعَذَابِ، قَالَ الزَّجَّاجُ: اسْتَعْجَلُوا الْعَذَابَ فَأَعْلَمَهُمُ اللهُ أنه لا يفوته شي، وَقَدْ نَزَلَ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا يَوْمَ بَدْرٍ، ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ

رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مِنَ الْأَيَّامِ الَّتِي خَلَقَ اللهُ فِيهَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَقَالَ النَّسَفِيُّ: أَيْ كَيْفَ يَسْتَعْجِلُونَ بِعَذَابٍ مِنْ يَوْمٍ وَاحِدٍ مِنْ أَيَّامِ عَذَابِهِ فِي طُولِ أَلْفِ سَنَةٍ مِنْ سِنِيكُمْ؛ لِأَنَّ أَيَّامَ الشَّدَائِدِ طِوَالٌ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيْ: هُوَ تَعَالَىٰ لَا يَعْجَلُ، فَإِنَّ مِقْدَارَ أَلْفِ سَنَةٍ عِنْدَ خَلْقِهِ كَيَوْمٍ وَاحِدٍ عِنْدَهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ حُكْمِهِ، لِعِلْمِهِ بِأَنَّهُ عَلَىٰ الِانْتِقَامِ قَادِرٌ، وَأَنَّهُ لَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ، وَإِنْ أَجَّلَ وَأَنْظَرَ وَأَمْلَىٰ، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ لَا تَعْجِزَ أُمَّتِي عِنْدَ رَبِّهَا أَنْ يُؤَخِّرَهُمْ نِصْفَ يَوْمٍ**، قِيلَ لِسَعْدٍ: وَكَمْ نِصْفُ ذَلِكَ الْيَوْمِ؟ قَالَ: خَمْسُ مِئَةِ سَنَةٍ»[1]، وقال سعيد بن جُبَيرَ: إِنَّمَا الدُّنْيَا جُمُعَة من جمع الْآخِرَة وَقِيلَ: مَعْنَاهُ إن يَوْمًا مِنْ أَيَّامِ الْعَذَابِ الَّذِي اسْتَعْجَلُوهُ فِي الثِّقَلِ وَالِاسْتِطَالَةِ وَالشِّدَّةِ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ، فَكَيْفَ تَسْتَعْجِلُونَهُ هَذَا كَمَا يُقَالُ: أَيَّامُ الْهُمُومِ طِوَالٌ، وَأَيَّامُ السُّرُورِ قِصَارٌ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ إِنَّ يَوْمًا عِنْدَهُ وَأَلْفَ سَنَةٍ فِي الْإِمْهَالِ سَوَاءٌ لِأَنَّهُ قَادِرٌ مَتَىٰ شَاءَ أَخَذَهُمْ لَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ بِالتَّأْخِيرِ فَيَسْتَوِي فِي قُدْرَتِهِ وُقُوعُ مَا يَسْتَعْجِلُونَ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ وَتَأَخُّرِهِ.

[٤٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا﴾ أي: أمهلتها مدة طويلة ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي: مع ظلمهم، فلم يكن مبادرتهم بالظلم، موجبًا لمبادرتنا

---

(١) أبو دواد (٤٣٥٠).

بالعقوبة، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعذاب ﴿وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ مَعَ عَذَابِهَا فِي الدُّنْيَا، سَتَرْجِعُ إِلَىٰ اللهِ، فَيُعَذِّبُهَا بِذُنُوبِهَا، فَلْيَحْذَرْ هَؤُلَاءِ الظَّالِمُونَ مِنْ حُلُولِ عِقَابِ اللهِ، وَلَا يَغْتَرُّوا بِالْإِمْهَالِ.

[٤٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ النَّذِيرُ: الْمُحَذِّرُ مِنْ شَرٍّ يُتَوَقَّعُ ، وَالْمُبِينُ: الْمُفْصِحُ الْمُوَضِّحُ، أَيْ مُبِينٌ لِلْإِنْذَارِ بِمَا لَا إِيهَامَ فِيهِ وَلَا **مُصَانَعَةَ**.يَقُولُ تَعَالَىٰ لِنَبِيِّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ طَلَبَ مِنْهُ الْكَفَّارُ وُقُوعَ الْعَذَابِ وَاسْتَعْجَلُوهُ بِهِ :إِنَّمَا أَرْسَلَنِي اللهُ إِلَيْكُمْ نَذِيرًا لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ، وَلَيْسَ إِلَيَّ مِنْ حِسَابِكُمْ مِنْ شَيْءٍ، أَمْرُكُمْ إِلَىٰ اللهِ إِنْ شَاءَ عَجَّلَ لَكُمُ الْعَذَابَ وَإِنْ شَاءَ أَخَّرَهُ عَنْكُمْ، وَإِنْ شَاءَ تَابَ عَلَىٰ مَنْ يَتُوبُ إِلَيْهِ، وَإِنْ شَاءَ أَضَلَّ مَنْ كَتَبَ.

[٥٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ الْمَغْفِرَةُ: غُفْرَانُ مَا قَدَّمُوهُ مِنَ الشِّرْكِ وَمَا يَتْبَعُهُ مِنْ شَرَائِعِ الشِّرْكِ وَضَلَالَاتِهِ وَمَفَاسِدِهِ ، وَهَذِهِ الْمَغْفِرَةُ تُفْضِي إِلَىٰ نَعِيمِ الْآخِرَةِ، فَالْمَعْنَىٰ: أَنَّهُمْ فَازُوا فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، وَالرِّزْقُ الْكَرِيمُ الَّذِي لَا يَنْقَطِعُ أَبَدًا، وَالرِّزْقُ: الْعَطَاءُ. وَوَصْفُهُ بِالْكَرِيمِ يَجْمَعُ وَفْرَتَهُ وَصَفَاءَهُ مِنَ الْمُكَدِّرَاتِ كَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ [فصلت: ٨] ذَلِكَ هُوَ الْجَنَّةُ.

[٥١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا﴾ يعني عَمِلُوا فِي إِبْطَالِ آيَاتِنَا، وَالسَّعْيُ: الْمَشْيُ الشَّدِيدُ ، وَيُطْلَقُ عَلَىٰ شِدَّةِ الْحِرْصِ فِي الْعَمَلِ تَشْبِيهًا لِلْعَامِلِ

الْحَرِيصِ بالماشي الشَّديد ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ يعني مُعَانِدِينَ مُشَاقِّينَ ، وَالْمُعَاجِزُ فِي اللغة : الْمُسَابِقُ الطَّالِبُ عَجْزَ صاحبه عَنِ الْوُصُولِ إِلَىٰ غَايَتِهِ وَعَنِ اللِّحَاقِ بِهِ، وَقَالَ قَتَادَةُ. مَعْنَاهُ ظَانِّينَ وَمُقَدِّرِينَ أَنَّهُمْ يُعْجِزُونَنَا بِزَعْمِهِمْ ألا بَعْثَ وَلَا نُشُورَ وَلَا جَنَّةَ وَلَا نَارَ، وَمَعْنَىٰ يُعْجِزُونَنَا أَيْ يفوتوننا فلا نقدر عليهم، وقال الزَّجَّاجُ: أَيْ ظَانِّينَ أَنَّهُمْ يُعْجِزُونَنَا لِأَنَّهُمْ ظَنُّوا أَنْ لَا بَعْثَ، وَظَنُّوا أَنَّ اللهَ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِمْ، وقال ابن عاشور : وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّهُمْ بِعَمَلِهِمْ يُغَالِبُونَ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ أَنَّهُمْ يُحَاوِلُونَ أَنْ يَغْلِبُوا اللهَ وَقَدْ ظَنُّوا أَنَّهُمْ نَالُوا مُرَادَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَمْ يَعْلَمُوا مَا لَهُمْ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ. ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ وَقِيلَ: مُعَاجِزِينَ مُغَالِبِينَ يُرِيدُ كُلُّ وَاحِدٍ أَنْ يُظْهِرَ عَجْزَ صَاحِبِهِ.

[٥٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ﴾ وَهُوَ الَّذِي يَأْتِيهِ جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ عيانًا، ﴿وَلَا نَبِيٍّ﴾ وهو الذي يكون نُبُوَّتُهُ إِلْهَامًا أَوْ مَنَامًا، وَكُلُّ رَسُولٍ نَبِيٌّ، وَلَيْسَ كُلُّ نَبِيٍّ رسولا ، وقيل : الرَّسُولُ: هُوَ الرَّجُلُ الْمَبْعُوثُ مِنَ اللهِ إِلَىٰ النَّاسِ بِشَرِيعَةٍ، وَالنَّبِي: مَنْ أَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ بِإِصْلَاحِ أَمْرِ قَوْمٍ بِحَمْلِهِمْ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ سَابِقَةٍ أَوْ بِإِرْشَادِهِمْ إِلَىٰ مَا هُوَ مُسْتَقِرٌّ فِي الشَّرَائِعِ كُلِّهَا فَالنَّبِيءُ أَعَمُّ مِنَ الرَّسُولِ، ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ﴾ يَعْنِي إِذَا قَالَ ، وقَالَ بَعْضُهُمْ : أَيْ: أَحَبَّ شَيْئًا واشتهاه وحدث به نفسه مما لَمْ يُؤْمَرْ بِهِ ﴿أَلْقَىٰ الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ يعني مُرَادِهِ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِذَا حَدَّثَ أَلْقَىٰ الشَّيْطَانُ فِي حديثه ما وجد إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا تَمَنَّىٰ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ قَوْمُهُ وَلَمْ يَتَمَنَّ ذَلِكَ نَبِيٌّ إِلَّا أَلْقَىٰ الشَّيْطَانُ عَلَيْهِ مَا

يَرْضَىٰ بِهِ قَوْمُهُ فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ. وَأَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ قالوا: معنىٰ قوله ﴿تَمَنَّىٰ﴾ يعني تَلَا وَقَرَأَ كِتَابَ اللهِ تَعَالَىٰ أَلقىٰ الشيطان في أمنيته يعني في تلاوته، ﴿فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ أَيْ: يُبْطِلُهُ وَيُذْهِبُهُ، و حَقِيقَةُ النَّسْخِ لغة الإزالة والرفع ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ﴾ فَيُثْبِتُهَا، ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (عَلِيمٌ) بِمَا أَوْحَىٰ إِلَىٰ نَبِيِّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (حَكِيمٌ) في خلقه.

[٥٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً﴾ أَيْ ضَلَالَةً، ﴿لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أَيْ شِرْكٌ وَنِفَاقٌ ، ﴿وَالْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ الجافية فَلَا تَلِينُ لِأَمْرِ اللهِ تَعَالَىٰ. عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ وَهُمُ الْمُشْرِكُونَ، وقال ابن جريج : وللذين قست قلوبهم عن الإيمان بالله، فلا تلين ولا ترعوي، وهم المشركون بالله ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ﴾ أَيِ الْكَافِرِينَ لَفِي خِلَافٍ وَعِصْيَانٍ وَمُشَاقَّةٍ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[٥٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ التَّوْحِيدَ وَالْقُرْآنَ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: التَّصْدِيقَ بنسخ الله تعالىٰ، ﴿أَنَّهُ﴾ يعني: الَّذِي أَحْكَمَ اللهُ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ هُوَ ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أي: يعتقدون أَنَّهُ مِنَ اللهِ، ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ يعني: فَتَسْكُنَ إِلَيْهِ قُلُوبُهُمْ، وَالْإِخْبَاتُ: الِاطْمِئْنَانُ وَالْخُشُوعُ. ﴿وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أَيْ: طَرِيقٍ قَوِيمٍ هُوَ الْإِسْلَامُ، وقال ابن كثير : أَيْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَيُرْشِدُهُمْ إِلَىٰ الْحَقِّ وَاتِّبَاعِهِ

وَيُوَفِّقُهُمْ لِمُخَالَفَةِ الْبَاطِلِ وَاجْتِنَابِهِ، وَفِي الْآخِرَةِ يَهْدِيهِمْ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الْمُوصِلِ إِلَىٰ دَرَجَاتِ الْجَنَّاتِ، وَيُزَحْزِحُهُمْ عَنِ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ وَالدَّرَكَاتِ.

[٥٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ يعني فِي شَكٍّ مِمَّا أَلْقَىٰ الشَّيْطَانُ، وَالْمِرْيَةُ: الشَّكُّ، وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: مِنْهُ أَيْ مِنَ الْقُرْآنِ، وَقِيلَ: مِنَ الدِّينِ وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ يَعْنِي: الْقِيَامَةَ، وَقِيلَ: الْمَوْتُ ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ وَعِكْرِمَةُ: عَذَابُ يَوْمٍ لَا لَيْلَةَ لَهُ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَالْأَكْثَرُونَ عَلَىٰ أَنَّ الْيَوْمَ الْعَقِيمَ يَوْمُ بَدْرٍ؛ لِأَنَّهُ ذَكَرَ السَّاعَةَ مِنْ قَبْلُ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ. وَسُمِّيَ يَوْمَ بَدْرٍ عَقِيمًا لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لِلْكُفَّارِ خير، وَالْعُقْمُ فِي اللُّغَةِ: الْمَنْعُ، وَالْعَقِيمُ: الْمَرْأَةُ الَّتِي لَا تَلِدُ استعير الْعَقِيم للمشؤوم لِأَنَّهُمْ يَعُدُّونَ الْمَرْأَةَ الَّتِي لَا تَلد مشؤومة، وَقِيلَ: لِأَنَّهُ لَا مِثْلَ لَهُ فِي عِظَمِ أَمْرِهِ لِقِتَالِ الْمَلَائِكَةِ فِيهِ، وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: لأنهما لَمْ يُنظروا فِيهِ إِلَىٰ اللَّيْلِ حتىٰ قتلوا قبل المساء، وقال النَّحَّاسُ: سُمِّيَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ عَقِيمًا لِأَنَّهُ لَيْسَ يَعْقُبُ بَعْدَهُ يَوْمًا مِثْلَهُ.

[٥٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي السلطان والحكم لله يوم يحشر الناس، ويوضع الميزان، ويكون القصاص، يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ هُوَ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا مُنَازِعَ لَهُ فِيهِ وَلَا مُدَافِعَ. وَالْمُلْكُ هُوَ اتِّسَاعُ المقدر ولمن لَهُ تَدْبِيرُ الْأُمُورِ. قال القرطبي: وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْإِشَارَةُ بِـ (يَوْمَئِذٍ) لِيَوْمِ بَدْرٍ، وَقَدْ حَكَمَ فِيهِ بِإِهْلَاكِ الْكَافِرِ وَسَعَادَةِ الْمُؤْمِنِ، وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِعُمَرَ: ﴿وَمَا

يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهُ اطَّلَعَ عَلَىٰ أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لكم﴾ ، ثُمَّ بَيَّنَ حُكْمَهُ ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسله، وما جاءوا به ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ليصدقوا بذلك إيمانهم ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ نعيم القلب والروح والبدن، مما لا يصفه الواصفون، ولا تدركه العقول.

[٥٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا﴾ أَيْ كَفَرَتْ قُلُوبُهُمْ بالحق وجحدته، وَكَذَّبُوا بِهِ وَخَالَفُوا الرُّسُلَ، وَاسْتَكْبَرُوا عَنِ اتِّبَاعِهِمْ، ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ مُقَابَلَةَ اسْتِكْبَارِهِمْ وَإِبَائِهِمْ عَنِ الْحَقِّ، وَهَذِهِ صِفَةٌ لِمُسْتَحِقِّي الْجَحِيمِ وَالْعَذَابِ الْمُهِينِ، إِنَّهُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْوَحْيِ وَكَذَّبُوا النُّبُوَّةَ، فَإِنَّ جَزَاءَ الِاسْتِكْبَارِ عَنِ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَحْدَهُ وَمُتَابَعَةِ الرُّسُلِ هُوَ نَارُ جَهَنَّمَ.

[٥٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ فَارَقُوا أَوْطَانَهُمْ وَعَشَائِرَهُمْ فِي طَاعَةِ اللهِ وَطَلَبِ رِضَاهُ، ﴿ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا﴾ وَهُمْ كَذَلِكَ، ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ وَالرِّزْقُ الْحَسَنُ الَّذِي لَا يَنْقَطِعُ أبداً وهو رِزْقُ الْجَنَّةِ، ﴿وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ قِيلَ: هُوَ قَوْلُهُ: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ قال القرطبي: وأَفْرَدَ ذِكْرَ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ مَاتُوا وَقُتِلُوا تَفْضِيلًا لَهُمْ وَتَشْرِيفًا عَلَىٰ سَائِرِ الْمَوْتَىٰ، وَسَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ لَمَّا مَاتَ بِالْمَدِينَةِ عُثْمَانُ ابنُ مَظْعُونٍ وَأَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الْأَسَدِ قَالَ بَعْضُ النَّاسِ: مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ أَفْضَلُ مِمَّنْ مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مُسَوِّيَةً بَيْنَهُمْ، وَأَنَّ اللهَ يَرْزُقُ جَمِيعَهُمْ رِزْقًا حَسَنًا، قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَامِرٍ: كَانَ فَضَالَةُ بِرُودِسَ أَمِيرًا عَلَىٰ

الْأَرْبَاعِ فَخَرَجَ بِجِنَازَتَيْ رَجُلَيْنِ: أَحَدُهُمَا قَتِيلٌ وَالْآخَرُ مُتَوَفًّى، فَرَأَىٰ مَيْلَ النَّاسِ مَعَ جِنَازَةِ الْقَتِيلِ إِلَىٰ حُفْرَتِهِ، فَقَالَ: أَرَاكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ تَمِيلُونَ مَعَ الْقَتِيلِ! فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أُبَالِي مِنْ أَيِّ حُفْرَتَيْهِمَا بُعِثْتُ، اقْرَءُوا قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا﴾، قال شُرَحْبِيلُ بْنُ السِّمْطِ: طَالَ رِبَاطُنَا وَإِقَامَتُنَا عَلَىٰ حِصْنٍ بِأَرْضِ الرُّومِ، فَمَرَّ بِي سَلْمَانُ يَعْنِي الْفَارِسِيَّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسلم يقول: «مَنْ مَاتَ مُرَابِطًا أَجْرَىٰ اللهُ عَلَيْهِ مِثْلَ ذَلِكَ الْأَجْرِ، وَأَجْرَىٰ عَلَيْهِ الرِّزْقَ وَأَمِنَ مِنَ الفتَّانين».

[٥٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ﴾ لِأَنَّ لَهُمْ فِيهِ مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ، قَالَ السَّعْدِيُّ: إِمَّا مَا يَفْتَحُهُ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبُلْدَانِ، خُصُوصًا فَتْحَ مَكَّةَ الْمُشَرَّفَةِ، فَإِنَّهُمْ دَخَلُوهَا فِي حَالَةِ الرِّضَا وَالسُّرُورِ، وَإِمَّا الْمُرَادُ بِهِ رِزْقُ الْآخِرَةِ، وَأَنَّ ذَلِكَ دُخُولُ الْجَنَّةِ، فَتَكُونُ الْآيَةُ جَمَعَتْ بَيْنَ الرِّزْقَيْنِ، رِزْقِ الدُّنْيَا، وَرِزْقِ الْآخِرَةِ، وَاللَّفْظُ صَالِحٌ لِذَلِكَ كُلِّهِ، وَالْمَعْنَىٰ صَحِيحٌ، فَلَا مَانِعَ مِنْ إِرَادَةِ الْجَمِيعِ ﴿وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ﴾ بِالْأُمُورِ، ظَاهِرِهَا، وَبَاطِنِهَا، مُتَقَدِّمِهَا، وَمُتَأَخِّرِهَا، ﴿حَلِيمٌ﴾ يَعْصِيهِ الْخَلَائِقُ، وَيُبَارِزُونَهُ بِالْعَظَائِمِ، وَهُوَ لَا يُعَاجِلُهُمْ بِالْعُقُوبَةِ مَعَ كَمَالِ اقْتِدَارِهِ، بَلْ يُوَاصِلُ لَهُمْ رِزْقَهُ، وَيُسْدِي إِلَيْهِمْ فَضْلَهُ.

[٦٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذَلِكَ﴾ يعني: الْأَمْرُ ذَلِكَ الَّذِي قَصَصْنَا عَلَيْكُمْ، ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ جَازَىٰ الظَّالِمَ بِمِثْلِ ظُلْمِهِ. قَالَ الْحَسَنُ البصري:

يَعْنِي قَاتَلَ الْمُشْرِكِينَ كَمَا قاتلوه، ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾ يعني ظُلِمَ بِإِخْرَاجِهِ مِنْ مَنْزِلِهِ يَعْنِي مَا أَتَاهُ الْمُشْرِكُونَ مِنَ الْبَغْيِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ حَتَّىٰ أَحْوَجُوهُمْ إِلَىٰ مُفَارَقَةِ أَوْطَانِهِمْ، نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَتَوْا قَوْمًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ لِلَيْلَتَيْنِ بَقِيَتَا مِنَ الْمُحَرَّمِ فَكَرِهَ الْمُسْلِمُونَ قِتَالَهُمْ وَسَأَلُوهُمْ أَنْ يَكُفُّوا عَنِ الْقِتَالِ مِنْ أَجْلِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ فَأَبَىٰ الْمُشْرِكُونَ وَقَاتَلُوهُمْ فَذَلِكَ بَغْيُهُمْ عَلَيْهِمْ، وَثَبَتَ الْمُسْلِمُونَ لهم فنصروا عليهم، قال تعالىٰ: ﴿لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ﴾ وَالْعِقَابُ الْأَوَّلُ بِمَعْنَىٰ الْجَزَاءِ ﴿إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ عَفَا عَنْ مَسَاوِئِ الْمُؤْمِنِينَ وَغَفَرَ ذنوبهم.

[٦١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذَلِكَ﴾ يعني ذلك النصر ﴿بِأَنَّ اللهَ﴾ الْقَادِرُ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ فَمِنْ قُدْرَتِهِ أَنَّهُ ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ الْإِيلَاجُ: الْإِدْخَالُ، مُثِّلَ بِهِ اخْتِفَاءُ ظَلَامِ اللَّيْلِ عِنْدَ ظُهُورِ نُورِ النَّهَارِ وَعَكْسِهِ تَشْبِيهًا لِذَلِكَ التَّصْيِيرِ بِإِدْخَالِ جِسْمٍ فِي جِسْمٍ آخَرَ، فَإِيلَاجُ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ: غَشَيَانُ ضَوْءِ النَّهَارِ عَلَىٰ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وَإِيلَاجُ النَّهَارِ فِي اللَّيْلِ: غَشَيَانُ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنْ ضَوْءِ النَّهَارِ ﴿وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع ضجيج الأصوات، باختلاف، اللغات، علىٰ تفنن الحاجات، ﴿بَصِيرٌ﴾ يرىٰ دبيب النملة السوداء، تحت الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠].

[٦٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي: الإله الحق الذي لا تصلح العبادة إلا له، ولا ينبغي التعظيم إلا إليه، فهو الخالق الواحد الأحد

المهيمن القهار ، ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾ يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ ﴿مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ أي: إنَّ كل ما عُبِدَ مِنْ غير الله باطل، من الأصنام والأوثان والطواغيت والشياطين ﴿وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ﴾ الْعَالِي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، ﴿الْكَبِيرُ﴾ الْعَظِيمُ الَّذِي كَلُّ شَيْءٍ دُونَهُ ، قال الطبري: ﴿الْعَلِيُّ﴾ ذُو الْعُلُوِّ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، هُوَ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، وَكُلُّ شَيْءٍ دُونَهُ، ﴿الْكَبِيرُ﴾ يَعْنِي الْعَظِيمَ، الَّذِي كُلُّ شَيْءٍ دُونَهُ، وَلَا شَيْءَ أَعْظَمُ مِنْهُ.

[٦٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ بالنبات، وَالْمُخْضَرَّةُ: الَّتِي صَارَ لَوْنُهَا الْخُضْرَةَ ، يُقَالُ: اخْضَرَّ الشَّيْءُ، كَمَا يُقَالُ: اصْفَرَّ الثَّمَرُ وَاحْمَرَّ، وهذا دَلِيلٌ عَلَىٰ كَمَالِ قُدْرَتِهِ، أَيْ مَنْ قَدَرَ عَلَىٰ هَذَا قَدَرَ عَلَىٰ إِعَادَةِ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ، ﴿إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ﴾ بِأَرْزَاقِ عِبَادِهِ وَاسْتِخْرَاجِ النَّبَاتِ مِنَ الأرض، ﴿خَبِيرٌ﴾ بما في قلوب العباد إِذَا تَأَخَّرَ الْمَطَرُ عَنْهُمْ. وَقَالَ السَّعْدِيُّ: اللَّطِيفُ الَّذِي يُدْرِكُ بَوَاطِنَ الْأَشْيَاءِ، وَخَفِيَّاتِهَا، وَسَرائِرَهَا، الَّذِي يَسُوقُ إِلَىٰ عَبْدِهِ الْخَيْرَ، وَيَدْفَعُ عَنْهُ الشَّرَّ، بِطُرُقٍ لَطِيفَةٍ تَخْفَىٰ عَلَىٰ الْعِبَادِ، وَمِنْ لُطْفِهِ، أَنَّهُ يُرِي عَبْدَهُ عِزَّتَهُ فِي انْتِقَامِهِ وَكَمَالِ اقْتِدَارِهِ، ثُمَّ يُظْهِرُ لُطْفَهُ بَعْدَ أَنْ أَشْرَفَ الْعَبْدُ عَلَىٰ الْهَلَاكِ، وَمِنْ لُطْفِهِ، أَنَّهُ يَعْلَمُ مَوَاقِعَ الْقَطْرِ مِنَ الْأَرْضِ، وَبُذُورَ الْأَرْضِ فِي بَاطِنِهَا، فَيَسُوقُ ذَلِكَ الْمَاءَ إِلَىٰ ذَلِكَ الْبَذْرِ، الَّذِي خَفِيَ عَلَىٰ عِلْمِ الْخَلَائِقِ فَيُنْبِتُ مِنْهُ أَنْوَاعَ النَّبَاتِ، ﴿خَبِيرٌ﴾ بسرائر الأمور، وخبايا الصدور، وخفايا الأمور.

[٦٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَهُ مَا فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ﴾ خَلْقًا وَمُلْكًا، وَكُلٌّ مُحْتَاجٌ إِلَىٰ تَدْبِيرِهِ وَإِتْقَانِهِ، ﴿وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ فَلَا يَحْتَاجُ إِلىٰ شيء، وهو المحمود في كل حال ، وقال السعدي : ﴿وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ﴾ بِذَاتِهِ الَّذِي لَهُ الْغِنَىٰ الْمُطْلَقُ التَّامُّ، مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، وَمِنْ غِنَاهُ، أَنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَلَا يُوَالِيهِمْ مِنْ ذِلَّةٍ، وَلَا يَتَكَثَّرُ بِهِمْ مِنْ قِلَّةٍ، وَمِنْ غِنَاهُ، أَنَّهُ مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا، وَمِنْ غِنَاهُ، أَنَّهُ صَمَدٌ، لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْخَلْقُ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، فَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ، وَمِنْ غِنَاهُ، أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ مُفْتَقِرُونَ إِلَيْهِ، فِي إِيجَادِهِمْ، وَإِعْدَادِهِمْ وَإِمْدَادِهِمْ، وَفِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَمِنْ غِنَاهُ، أَنَّهُ لَوْ اجْتَمَعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، الْأَحْيَاءُ مِنْهُمْ وَالْأَمْوَاتُ، فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلَ كُلٌّ مِنْهُمْ مَا بَلَغَتْ أُمْنِيَّتُهُ، فَأَعْطَاهُمْ فَوْقَ أَمَانِيهِمْ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِهِ شَيْءٌ، وَمِنْ غِنَاهُ، أَنَّ يَدَهُ سَحَّاءُ بِالْخَيْرِ وَالْبَرَكَاتِ، اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، لَمْ يَزَلْ إِفْضَالُهُ عَلَىٰ الْأَنْفَاسِ، وَمِنْ غِنَاهُ وَكَرَمِهِ، مَا أَوْدَعَهُ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ، مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ. ﴿الْحَمِيدِ﴾ أَيْ: الْمَحْمُودُ فِي ذَاتِهِ، وَفِي أَسْمَائِهِ، لِكَوْنِهَا حُسْنَىٰ، وَفِي صِفَاتِهِ، لِكَوْنِهَا كُلَّهَا صِفَاتِ كَمَالٍ، وَفِي أَفْعَالِهِ، لِكَوْنِهَا دَائِرَةً بَيْنَ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَالرَّحْمَةِ وَالْحِكْمَةِ، وَفِي شَرْعِهِ، لِكَوْنِهِ لَا يَأْمُرُ إِلَّا بِمَا فِيهِ مَصْلَحَةٌ خَالِصَةٌ أَوْ رَاجِحَةٌ، وَلَا يَنْهَىٰ إِلَّا عَمَّا فِيهِ مَفْسَدَةٌ خَالِصَةٌ أَوْ رَاجِحَةٌ، الَّذِي لَهُ الْحَمْدُ، الَّذِي يَمْلأُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَا بَيْنَهُمَا، وَمَا شَاءَ بَعْدَهَا،

الَّذِي لَا يُحْصِي الْعِبَادُ ثَنَاءً عَلَىٰ حَمْدِهِ، بَلْ هُوَ كَمَا أَثْنَىٰ عَلَىٰ نَفْسِهِ، وَفَوْقَ مَا يُثْنِي عَلَيْهِ عِبَادُهُ، وَهُوَ الْمَحْمُودُ عَلَىٰ تَوْفِيقِ مَنْ يُوَفِّقُهُ، وَخِذْلَانِ مَنْ يَخْذُلُهُ، وَهُوَ الْغَنِيُّ فِي حَمْدِهِ، الْحَمِيدُ فِي غِنَاهُ.

[٦٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ﴾ يعني وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلْكَ، وَالتَّسْخِيرُ: تَسْهِيلُ الِانْتِفَاعِ بِدُونِ مَانِعٍ وَهُوَ يُؤْذِنُ بِصُعُوبَةِ الِانْتِفَاعِ لَوْلَا ذَلِكَ التَّسْخِيرُ، وَأَصْلُهُ تَسْهِيلُ الِانْتِفَاعِ بِمَا فِيهِ إِرَادَةُ التَّمَنُّعِ مِثْلُ تَسْخِيرِ الْخَادِمِ وَتَسْهِيلِ اسْتِخْدَامِ الْحَيَوَانِ الدَّاجِنِ مِنَ الْخَيْلِ، وَالْإِبِلِ، وَالْبَقَرِ، وَالْغَنَمِ وَنَحْوِهَا بِأَنْ جَعَلَ اللهُ فِيهَا طَبْعَ الْخَوْفِ مِنَ الْإِنْسَانِ مَعَ تَهْيِئَتِهَا لِلْإِلْفِ بِالْإِنْسَانِ،وَسُمِّيَتِ السَّفِينَةُ فُلْكًا لِأَنَّهَا تَدُورُ بِالْمَاءِ أَسْهَلَ دَوْرٍ، ﴿تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ وَقِيلَ: مَا فِي الْأَرْضِ الدَّوَابُّ التي تركب في البر، والفلك التي تُرْكَبُ فِي الْبَحْرِ، قال ابن كثير: أَيْ بِتَسْخِيرِهِ وَتَسْيِيرِهِ، أَيْ فِي الْبَحْرِ الْعَجَاجِ وَتَلَاطُمِ الْأَمْوَاجِ، تَجْرِي الْفُلْكُ بأهلها بريح طيبة فيحملون فيها ما شاءوا من بضائع وَمَنَافِعَ، مِنْ بَلَدٍ إِلَىٰ بَلَدٍ وَقُطْرٍ إلىٰ قطر ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَىٰ الْأَرْضِ﴾ لِكَيْلَا تَسْقُطَ عَلَىٰ الْأَرْضِ، قال السعدي: فلولا رحمته وقدرته، لسقطت السماء علىٰ الأرض، فتلف ما عليها، وهلك من فيها ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

[٦٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ يعني: أَنْشَأَكُمْ وَلَمْ تَكُونُوا شَيْئًا، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عِنْدَ انْقِضَاءِ آجَالِكُمْ، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ يَوْمَ الْبَعْثِ لِلثَّوَابِ

وَالْعِقَابِ، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ لنعم الله ، وَقِيلَ: إِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ لِأَنَّ الْغَالِبَ عَلَىٰ الْإِنْسَانِ كُفْرُ النِّعَمِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ ﴾[سبأ : ١٣].

[٦٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي شَرِيعَةً هُمْ عَامِلُونَ بِهَا. قَالَ قَتَادَةُ وَمُجَاهِدٌ: مَوْضِعَ قُرْبَانٍ يَذْبَحُونَ فِيهِ. وقيل: موضع عبادة مَألفًا يَأْلَفُونَهُ، وَالْمَنْسَكُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الْمَوْضِعُ الْمُعْتَادُ لِعَمَلِ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، وَمِنْهُ مَنَاسِكُ الْحَجِّ لِتَرَدُّدِ النَّاسِ إِلَىٰ أَمَاكِنِ أَعْمَالِ الْحَجِّ. ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾ يَعْنِي فِي أَمْرِ الذَّبَائِحِ ، نَزَلَتْ فِي بُدَيْلِ بْنِ وَرْقَاءَ وَبِشْرِ ابنِ سُفْيَانَ وَيَزِيدَ بْنِ خُنَيْسٍ قَالُوا لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا لَكُمْ تَأْكُلُونَ مِمَّا تَقْتُلُونَ بِأَيْدِيكُمْ وَلَا تَأْكُلُونَ مِمَّا قَتَلَهُ اللهُ؟ قَالَ الزَّجَّاجُ: معنىٰ قوله ﴿لا يُنَازِعُنَّكَ﴾ أَيْ: لَا تُنَازِعْهُمْ أَنْتَ، كَمَا يُقَالُ: لَا يُخَاصِمُكَ فُلَانٌ، أَيْ: لَا تُخَاصِمْهُ، وَهَذَا جَائِزٌ فِيمَا يَكُونُ بَيْنَ الاثْنَيْنِ، وَلَا يَجُوزُ لَا يَضْرِبَنَّكَ فُلَانٌ وَأَنْتَ تُرِيدُ لَا تَضْرِبْهُ وَذَلِكَ أَنَّ الْمُنَازَعَةَ وَالْمُخَاصَمَةَ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِاثْنَيْنِ، فَإِذَا تَرَكَ أَحَدُهُمَا فَلَا مُخَاصَمَةَ هُنَاكَ ، ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إِلَىٰ الْإِيمَانِ بِرَبِّكَ، (إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًىٰ) أَيْ دِينٍ ، ﴿مُسْتَقِيمٍ﴾ أَيْ قويم لا اعوجاج فيه.

[٦٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ جادَلُوكَ﴾ أَيْ خَاصَمُوكَ يَا مُحَمَّدُ، يُرِيدُ مُشْرِكِي مَكَّةَ، ﴿فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ﴾ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ، يُرِيدُ مِنْ تَكْذِيبِهِمْ

مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَمَرَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِالْإِعْرَاضِ عَنْ مُمَارَاتِهِمْ صِيَانَةً لَهُ عَنْ الِاشْتِغَالِ بِتَعَنُّتِهِمْ، وَلَا جَوَابَ لِصَاحِبِ الْعِنَادِ.

[٦٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ يُرِيدُ بَيْنَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَوْمِهِ ، ﴿فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فَتَعْرِفُونَ حِينَئِذٍ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ، وَالِاخْتِلَافُ ذَهَابُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْخَصْمَيْنِ إِلَىٰ خِلَافِ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْآخَرُ، قال القرطبي : فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَدَبٌ حَسَنٌ عَلَّمَهُ اللهُ عِبَادَهُ فِي الرَّدِّ عَلَىٰ مَنْ جَادَلَ تَعَنُّتًا وَمِرَاءً أَلَّا يُجَابَ وَلَا يُنَاظَرَ وَيُدْفَعَ بِهَذَا الْقَوْلِ الَّذِي عَلَّمَهُ اللهُ لِنَبِيِّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَنْسُوخَةٌ بِالسَّيْفِ، يَعْنِي السُّكُوتَ عَنْ مُخَالِفِهِ وَالِاكْتِفَاءَ بِقَوْلِهِ: ﴿ اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾.

[٧٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ وَإِذْ قَدْ عَلِمْتَ يَا مُحَمَّدُ هَذَا وَأَيْقَنْتَ فَاعْلَمْ أَنَّهُ يَعْلَمُ أَيْضًا مَا أَنْتُمْ مُخْتَلِفُونَ فِيهِ فَهُوَ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ اسْتِفْهَامُ تَقْرِيرٍ لِلْغَيْرِ، ﴿إِنَّ ذلِكَ فِي كِتابٍ﴾ أي مَا يَجْرِي فِي الْعَالَمِ فَهُوَ مَكْتُوبٌ عِنْدَ اللهِ فِي أُمِّ الْكِتَابِ، ﴿إِنَّ ذلِكَ عَلَىٰ اللهِ يَسِيرٌ﴾ أَيْ إِنَّ الْفَصْلَ بَيْنَ الْمُخْتَلِفِينَ عَلَىٰ اللهِ يَسِيرٌ، وَقِيلَ: الْمَعْنَىٰ إِنَّ كِتَابَ الْقَلَمِ الَّذِي أَمَرَهُ أَنْ يَكْتُبَ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ اللهِ يَسِيرٌ، وَفِي السُّنَنِ مِنْ حَدِيثِ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ الله عليه وسلم قَالَ : « **أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ**

الْقَلَمَ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ، قَالَ: وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ، فَجَرَىٰ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كائن إلىٰ يوم القيامة»[1].

[٧١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ يُرِيدُ كُفَّارَ قُرَيْشٍ، ﴿مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطانًا﴾ أَيْ حُجَّةً وَبُرْهَانًا، وَالسُّلْطَانُ: الْحُجَّةُ، وَالْحُجَّةُ الْمُنَزَّلَةُ: هِيَ الْأَمْرُ الْإِلَهِيُّ الْوَارِدُ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ وَفِي شَرَائِعِهِ، أَيْ يَعْبُدُونَ مَا لَا يَجِدُونَ عُذْرًا لِعِبَادَتِهِ مِنَ الشَّرَائِعِ السَّالِفَةِ: وَقُصَارَىٰ أَمْرِهِمْ أَنَّهُمُ اعْتَذَرُوا بِتَقَدُّمِ آبَائِهِمْ بِعِبَادَةِ أَصْنَامِهِمْ، وَلَمْ يَدَّعُوا أَنَّ نَبِيًّا أَمَرَ قَوْمَهُ بِعِبَادَةِ صَنَمٍ وَلَا أَنَّ دِينًا إِلَهِيًّا رَخَّصَ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ يَعْنِي أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا فَعَلُوا عَنْ جَهْلٍ لَا عَنْ عِلْمٍ، قال ابن عاشور: أَيْ لَيْسَ لَهُمْ بِهِ اعْتِقَادٌ جَازِمٌ لِأَنَّ الِاعْتِقَادَ الْجَازِمَ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ دَلِيلٍ، وَالْبَاطِلُ لَا يُمْكِنُ حُصُولُ دَلِيلٍ عَلَيْهِ، ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ للمشركين، ﴿مِنْ نَصِيرٍ﴾ أَيْ مِنْ نَاصِرٍ يَنْصُرُهُمْ مِنَ اللهِ فِيمَا يَحِلُّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ.

[٧٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أَيْ وَإِذَا ذُكِرَتْ لَهُمْ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَالْحُجَجُ وَالدَّلَائِلُ الواضحات علىٰ توحيد الله المستلزمة لبيان الحق من الباطل، لم يلتفتوا إليها، ولم يرفعوا بها رأسا، بل ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ﴾ يَعْنِي الْإِنْكَارَ يَتَبَيَّنُ ذَلِكَ فِي وُجُوهِهِمْ مِنَ الْكَرَاهِيَةِ

---

(١) أبو داود (٤٧٠٠) والترمذي (٢١٥٥).

وَالْعُبُوسِ، وَالْمُنْكَرُ: إِمَّا الشَّيْءُ الَّذِي تُنْكِرُهُ الْأَنْظَارُ وَالنُّفُوسُ فَيَكُونُ هُنَا اسْمًا، أَيْ دَلَائِلُ كَرَاهِيَتِهِمْ وَغَضَبِهِمْ وَعَزْمِهِمْ عَلَىٰ السُّوءِ، ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾ يعني: يَقَعُونَ وَيَبْسُطُونَ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ بِالسُّوءِ، وَقِيلَ: يَبْطِشُونَ، وَالسَّطْوَةُ شِدَّةُ الْبَطْشِ، يُقَالُ: سَطَا عَلَيْهِ وَسَطَا بِهِ إذا تناوشه بِالْبَطْشِ وَالْعُنْفِ، وَأَصَّلُ السَّطْوِ الْقَهْرُ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَسْطُونَ يَبْسُطُونَ إِلَيْهِمْ أَيْدِيَهُمْ ، قال مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: أَيْ يَقَعُونَ بِهِمْ، ﴿بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ يعني: بِمُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ مِنْ شِدَّةِ الْغَيْظِ ، ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ، ﴿ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ﴾ أَيْ أَكْرَهُ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ الَّذِي تَسْمَعُونَ هُوَ النَّارُ. فَكَأَنَّهُمْ قَالُوا: مَا الَّذِي هُوَ شَرٌّ، فَقِيلَ هُوَ النَّارُ، وَقِيلَ: أَيْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِمَّا يَلْحَقُ تَالِيَ الْقُرْآنِ مِنْكُمْ هُوَ النَّارُ، فَيَكُونُ هَذَا وَعِيدًا لَهُمْ عَلَىٰ سَطَوَاتِهِمْ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ الْقُرْآنَ، ﴿وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فِي الْقِيَامَةِ، ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أَيِ الْمَوْضِعُ الَّذِي يَصِيرُونَ إِلَيْهِ وَهُوَ النَّارُ.

[٧٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ مَعْنَىٰ: ضُرِبَ جُعِلَ كَقَوْلِهِمْ: ضَرَبَ السُّلْطَانُ الْجِزْيَةَ عَلَىٰ أَهْلِ الذِّمَّةِ أَيْ جَعَلَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ، وَمَعْنَىٰ الْآيَةِ: جُعِلَ لِي شَبَهٌ وَشَبَّهَ بِيَ الْأَوْثَانَ، أَيْ: جَعَلَ الْمُشْرِكُونَ الْأَصْنَامَ شُرَكَائِي فَعَبَدُوهَا ، قال السعدي : هذا مثل ضربه الله لقبح عبادة الأوثان، وبيان نقصان عقول من عبدها، وضعف الجميع ، وَمَعْنَىٰ ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ يعني: فَاسْتَمِعُوا حَالَهَا وَصِفَتَهَا، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ يَعْنِي: الْأَصْنَامَ، قَرَأَ يَعْقُوبُ بِالْيَاءِ وَالْبَاقُونَ بِالتَّاءِ ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾ وَاحِدًا فِي صِغَرِهِ

وَقِلَّتِهِ لِأَنَّهَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ وَالذُّبَابُ وَاحِدٌ وجمعه القليل أذبة والكثير ذباب مِثْلُ غُرَابٍ وَأَغْرِبَةٍ وَغِرْبَانٍ، ﴿وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ يعني خلقه، كَمَا في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: « **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ يَخْلُقُ كَخَلْقِي فَلْيَخْلُقُوا بَعُوضَةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا ذَرَّةً** »[1] ، قوله: ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانُوا يَطْلُونَ الْأَصْنَامَ بِالزَّعْفَرَانِ، فَإِذَا جَفَّ جَاءَ الذُّبَابُ فَاسْتَلَبَ مِنْهُ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: كَانُوا يَضَعُونَ الطَّعَامَ بَيْنَ يَدَيِ الْأَصْنَامِ فَتَقَعُ الذُّبَابُ عَلَيْهِ فَيَأْكُلْنَ مِنْهُ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: كَانُوا يُحَلُّونَ الْأَصْنَامَ بِالْيَوَاقِيتِ وَاللَّآلِئِ وَأَنْوَاعِ الْجَوَاهِرِ، وَيُطَيِّبُونَهَا بِأَلْوَانِ الطِّيبِ فَرُبَّمَا تَسْقُطُ مِنْهَا وَاحِدَةٌ فَيَأْخُذُهَا طَائِرٌ أَوْ ذُبَابٌ فَلَا تَقْدِرُ الْآلِهَةُ عَلَىٰ اسْتِرْدَادِهَا فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا﴾ أَيْ: وَإِنْ يَسْلُبِ الذُّبَابُ الْأَصْنَامَ شَيْئًا مِمَّا عَلَيْهَا لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ، ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ أَيْ ضَعُفَ الدَّاعِي وَالْمَدْعُوُّ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الطَّالِبُ الذُّبَابُ يَطْلُبُ مَا يَسْلُبُ مِنَ الطِّيبِ من الصنم، والمطلوب الصَّنَمُ يَطْلُبُ الذُّبَابَ مِنْهُ السَّلْبَ، وَقِيلَ: عَلَىٰ الْعَكْسِ: الطَّالِبُ الصَّنَمُ والمطلوب الذُّبَابُ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: الطَّالِبُ الْعَابِدُ والمطلوب الْمَعْبُودُ.

---

(١) البخاري (٧٥٥٩) ومسلم (٢١٠٨) .

[٧٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ مَا عَظَّمُوهُ حَقَّ عَظَمَتِهِ وَمَا عَرَفُوهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ، وَلَا وَصَفُوهُ حَقَّ صِفَتِهِ إِنْ أَشْرَكُوا بِهِ مَا لَا يَمْتَنِعُ مِنَ الذُّبَابِ وَلَا يَنْتَصِفُ مِنْهُ، ﴿إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: كَامِلُ الْقُوَّةِ، كَامِلُ الْعِزَّةِ، مِنْ كَمَالِ قُوَّتِهِ وَعِزَّتِهِ، أَنَّ نَوَاصِيَ الْخَلْقِ بِيَدَيْهِ، وَأَنَّهُ لَا يَتَحَرَّكُ مُتَحَرِّكٌ، وَلَا يَسْكُنُ سَاكِنٌ، إِلَّا بِإِرَادَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ، فَمَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ وقَوْلُهُ ﴿عَزِيزٌ﴾ أَيْ قَدْ عَزَّ كُلَّ شَيْءٍ وَغَلَبَهُ، فَلَا يُمَانَعُ وَلَا يُغَالَبُ، لِعَظْمَتِهِ وَسُلْطَانِهِ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ.

[٧٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿اللهُ يَصْطَفِي﴾ يَعْنِي يَخْتَارُ ﴿مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ وَهُمْ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَإِسْرَافِيلُ وَعِزْرَائِيلُ وغيرهم، ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ يعني يَخْتَارُ مِنَ النَّاسِ رُسُلًا مِثْلَ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، نَزَلَتْ حِينَ قال المشركون أأنزل الله عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا، فَأَخْبَرَ أَنَّ الِاخْتِيَارَ إِلَيْهِ يَخْتَارُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلقِهِ ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ يعني سَمِيعٌ لِقَوْلِهِمْ بَصِيرٌ بِمَنْ يَخْتَارُهُ لِرِسَالَتِهِ.

[٧٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا قَدَّمُوا ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مَا خَلَّفُوا. وَقَالَ الْحَسَنُ البصري : مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مَا عَمِلُوا وَمَا خَلْفَهُمْ مَا هُمْ عَامِلُونَ مِنْ بَعْدُ ، وَقِيلَ: مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مَلَائِكَتُهُ وَكُتُبُهُ وَرُسُلُهُ قَبْلَ أَنْ خلقهم وما خلفهم أي ويعلم مَا هُوَ كَائِنٌ بَعَدَ فَنَائِهِمْ. ﴿وَإِلَىٰ اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾

أَيْ يَعْلَمُ مَا يَفْعَلُ بِرُسُلِهِ فِيمَا أَرْسَلَهُمْ بِهِ، فَلَا يَخْفَىٰ عليه شيء من أمورهم، فَهُوَ سُبْحَانَهُ رَقِيبٌ عَلَيْهِمْ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يُقَالُ لَهُمْ، حَافِظٌ لَهُمْ، نَاصِرٌ لِجَنَابِهِمْ.

[٧٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ يعني صَلُّوا لِأَنَّ الصَّلَاةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ أي: وحدوه، ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: صِلَةُ الرَّحِمِ ومكارم الأخلاق، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لِكَيْ تَسْعَدُوا وَتَفُوزُوا بِالْجَنَّةِ. وَهَذِهِ السَّجْدَةُ الثَّانِيَةُ لَمْ يَرَهَا مَالِكٌ وَأَبُو حَنِيفَةَ مِنَ الْعَزَائِمِ، لِأَنَّهُ قَرَنَ الرُّكُوعَ بِالسُّجُودِ، وَأَنَّ الْمُرَادَ بِهَا الصَّلَاةُ الْمَفْرُوضَةُ، وَخَصَّ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ تَشْرِيفًا لِلصَّلَاةِ.

[٧٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ قِيلَ: جَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَعْدَاءَ اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اسْتِفْرَاغُ الطَّاقَةِ فِيهِ، وقَالَ ابن عباس: لَا تَخَافُوا فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ فَهُوَ حَقُّ الْجِهَادِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ وَمُقَاتِلٌ: اعْمَلُوا لِلَّهِ حَقَّ عَمَلِهِ وَاعْبُدُوهُ حَقَّ عِبَادَتِهِ، وَقَالَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ: حَقُّ الْجِهَادِ أَنْ تَكُونَ نِيَّتُهُ خَالِصَةً صَادِقَةً لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: هُوَ أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَىٰ، وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ: هُوَ مُجَاهَدَةُ النَّفْسِ وَهُوَ الْجِهَادُ الْأَكْبَرُ وَهُوَ حَقُّ الجهاد، ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ يعني: اخْتَارَكُمْ لِدِينِهِ، قال الطبري: هو اختاركم لدينه، واصطفاكم لحرب أعدائه، والجهاد في سبيله، وقال ابن عاشور: وَالِاجْتِبَاءُ: الِاصْطِفَاءُ وَالِاخْتِيَارُ، أَيْ هُوَ اخْتَارَكُمْ لِتَلَقِّي دِينِهِ وَنَشْرِهِ وَنَصْرِهِ عَلَىٰ مُعَانِدِيهِ، فَيَظْهَرُ أَنَّ هَذَا مُوَجَّهٌ

لِأَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصَالَةً وَيَشْرِكُهُمْ فِيهِ كُلُّ مَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ بِحُكْمِ اتِّحَادِ الْوَصْفِ فِي الْأَجْيَالِ كَمَا هُوَ الشَّأْنُ فِي مُخَاطِبَاتِ التَّشْرِيعِ.

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ضِيقٍ، مَعْنَاهُ أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يبتلىٰ بشيء، الذُّنُوبِ إِلَّا جَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْهُ مَخْرَجًا بَعْضُهَا بِالتَّوْبَةِ وَبَعْضُهَا بِرَدِّ الْمَظَالِمِ وَالْقِصَاصِ، وَبَعْضُهَا بِأَنْوَاعِ الْكَفَّارَاتِ، فَلَيْسَ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ ما لَا يَجِدُ الْعَبْدُ سَبِيلًا إِلَىٰ الْخَلَاصِ مِنَ الْعِقَابِ فِيهِ، وَقِيلَ: مِنْ ضِيقٍ فِي أَوْقَاتِ فُرُوضِكُمْ مِثْلَ هِلَالِ شَهْرِ رَمَضَانَ وَالْفِطْرِ وَوَقْتِ الْحَجِّ إِذَا الْتَبَسَ ذَلِكَ عليكم وسع الله عَلَيْكُمْ حَتَّىٰ تَتَيَقَّنُوا. وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: الْحَرَجُ مَا كَانَ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ من الأعمال الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ وَضَعَهَا اللهُ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، ولهذا قال عليه السلام: «**بعثت بالحنيفة السَّمْحَةِ**» وَقَالَ لِمُعَاذٍ وَأَبِي مُوسَىٰ حِينَ بَعَثَهُمَا أَمِيرَيْنِ إِلَىٰ الْيَمَنِ: «**بَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا وَيَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا**»، وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ، ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ يعني كَلِمَةَ أَبِيكُمْ وَقِيلَ: اتَّبِعُوا مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ، وَإِنَّمَا أَمَرَنَا بِاتِّبَاعِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ لِأَنَّهَا دَاخِلَةٌ فِي مِلَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنْ قِيلَ فَمَا وَجْهُ قَوْلِهِ: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ﴾ وَلَيْسَ كُلُّ الْمُسْلِمِينَ يَرْجِعُ نَسَبُهُمْ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ؟ قِيلَ: خَاطَبَ بِهِ الْعَرَبَ وَهُمْ كَانُوا مِنْ نَسْلِ إِبْرَاهِيمَ، وَقِيلَ: خَاطَبَ بِهِ جَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ وَإِبْرَاهِيمُ أَبٌ لَهُمْ عَلَىٰ مَعْنَىٰ وُجُوبِ احْتِرَامِهِ وَحِفْظِ حَقِّهِ كَمَا يَجِبُ احْتِرَامُ الْأَبِ، ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ﴾ يعني أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ سَمَّاكُمُ ﴿الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ يَعْنِي مِنْ قَبْلِ نُزُولِ الْقُرْآنِ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ، ﴿وَفِي هَذَا﴾ يعني: وفي

الْكِتَابِ، هَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: هُوَ يَرْجِعُ إِلىٰ إِبْرَاهِيمَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ فِي أَيَّامِهِ، مِنْ قَبْلِ هَذَا الْوَقْتِ وَفِي هَذَا الْوَقْتِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ ، قوله تعالىٰ : ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بأعمالكم خيرها وشرها أَنْ قَدْ بَلَّغَكُمْ، ﴿وَتَكُونُوا﴾ أنتم، ﴿شُهَدَاءَ عَلَىٰ النَّاسِ﴾ أَنَّ رُسُلَهُمْ قَدْ بَلَّغَتْهُمْ، ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ﴾ ثِقُوا بِاللهِ وَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ ، قَالَ الْحَسَنُ: تَمَسَّكُوا بِدِينِ اللهِ ، وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: سَلُوا رَبَّكُمْ أَنْ يَعْصِمَكُمْ مِنْ كُلِّ مَا يَكْرَهُ، وَقِيلَ مَعْنَاهُ : ادْعُوهُ لِيُثَبِّتَكُمْ عَلَىٰ دِينِهِ ، وَقِيلَ: الِاعْتِصَامُ بِاللهِ هُوَ التَّمَسُّكُ بِالْكِتَابِ وَالسَّنَةِ، ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ وَلِيُّكُمْ وَنَاصِرُكُمْ وَحَافِظُكُمْ، الذي يتولىٰ أموركم، فيدبركم بحسن تدبيره، ويصرفكم علىٰ أحسن تقديره، ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ أَيْ: نِعْمَ الْمَوْلَىٰ لِمَنْ تَوَلَّاهُ، فَحَصَلَ لَهُ مَطْلُوبُهُ ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ لِمَنْ اسْتَنْصَرَهُ فَدَفَعَ عَنْهُ الْمَكْرُوهَ .

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحَجِّ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

وهي مكية بالاتفاق ، وَهِيَ السُّورَةُ السَّادِسَةُ وَالسَّبْعُونَ فِي عِدَادِ نُزُولِ سُوَرِ الْقُرْآنِ نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ الطُّورِ وَقَبْلَ سُورَةِ تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ قَدْ حَرْفُ تَأْكِيدٍ، وَقَالَ المحققون: قد يقرب الْمَاضِيَ مِنَ الْحَالِ، يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْفَلَاحَ قَدْ حَصَلَ لَهُمْ وَأَنَّهُمْ عَلَيْهِ فِي الْحَالِ وَهُوَ أَبْلَغُ مِنْ تَجْرِيدِ ذِكْرِ الْفِعْلِ، وَالْفَلَاحُ : النَّجَاةُ وَالْبَقَاءُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَدْ سَعِدَ الْمُصَدِّقُونَ بِالتَّوْحِيدِ وَبَقُوا فِي الْجَنَّةِ ، وفي الحديث عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قال: كَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْوَحْيُ يُسْمَعُ عِنْدَ وَجْهِهِ كدوي النحل، فلبثنا ساعة، فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال: « **اللَّهُمَّ زِدْنَا وَلَا تَنْقُصْنَا، وَأَكْرِمْنَا وَلَا تُهِنَّا، وَأَعْطِنَا وَلَا تَحْرِمْنَا، وَآثِرْنَا وَلَا تُؤْثِرْ عَلَيْنَا، وارض علينا وأرضِنا**، ثم قال: **لقد أنزل عليَّ عَشْرُ آيَاتٍ مَنْ أَقَامَهُنَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ** ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ »[١].

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَىٰ الْخُشُوعِ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مُخْبِتُونَ أَذِلَّاءُ، وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: خَائِفُونَ، وَقَالَ

---

(١) الترمذي (٣١٧٣) وأحمد (٢٢٣) .

مُقَاتِلٌ: مُتَوَاضِعُونَ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ غَضُّ الْبَصَرِ وَخَفْضُ الصَّوْتِ، وَالْخُشُوعُ قَرِيبٌ مِنَ الْخُضُوعِ إِلَّا أَنَّ الْخُضُوعَ فِي الْبَدَنِ وَالْخُشُوعُ فِي الْقَلْبِ وَالْبَصَرِ وَالصَّوْتِ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ [طه : ١٠٨] ، وعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: هُوَ أَنْ لَا يَلْتَفِتَ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: هُوَ أَنْ لَا يَعْرِفَ مَنْ عَلَىٰ يَمِينِهِ وَلَا مَنْ علىٰ شماله، وَلَا يَلْتَفِتَ مِنَ الْخُشُوعِ لِلَّهِ عز وجل، وَقَالَ عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ: هُوَ السُّكُونُ وَحُسْنُ الْهَيْئَةِ، وَقَالَ ابْنُ سيرين وغيره: هو ألا تَرْفَعَ بَصَرَكَ عَنْ مَوْضِعِ سُجُودِكَ، وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَىٰ السَّمَاءِ فِي الصَّلَاةِ ، فَلَمَّا نَزَلَ: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ رَمَوْا بِأَبْصَارِهِمْ إِلَىٰ مَوَاضِعِ السُّجُودِ، وقال عطاء: هو ألا تَعْبَثَ بِشَيْءٍ مِنْ جَسَدِكَ فِي الصلاة ، وَقِيلَ: الْخُشُوعُ فِي الصَّلَاةِ هُوَ جَمْعُ الْهِمَّةِ وَالْإِعْرَاضُ عَمَّا سِوَاهَا، وَالتَّدَبُّرُ فِيمَا يَجْرِي عَلَىٰ لِسَانِهِ من القراءة والذكر.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ قَالَ ابْنِ عَبَّاسٍ: عَنِ الشِّرْكِ ، وَقَالَ الْحَسَنُ: عَنِ الْمَعَاصِي، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: عَنْ كُلِّ باطل ولهو ومالا يجمل مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، وَقِيلَ: هُوَ مُعَارَضَةُ الْكُفَّارِ بِالشَّتْمِ وَالسَّبِّ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ أَيْ: إِذَا سَمِعُوا الْكَلَامَ الْقَبِيحَ أَكْرَمُوا أَنْفُسَهُمْ عَنِ الدُّخُولِ فِيهِ. واللغو في اللغة : إِذَا أَتَىٰ بِمَا لَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي الْكَلَامِ،

أَوْ بِمَا لَا خَيْرَ فِيهِ، أَوْ بِمَا يُلْغِي إِثْمُهُ، وَفِي الْحَدِيثِ: «**إِذَا قُلْتَ لِصَاحِبِكَ وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَنْصِتْ فَقَدْ لَغَوْتَ**»(١).

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ أَيْ: لِلزَّكَاةِ الْوَاجِبَةِ مُؤَدُّونَ، فَعَبَّرَ عَنِ التَّأْدِيَةِ بِالْفِعْلِ لِأَنَّهَا فِعْلٌ. وأَصْلُ الزَّكَاةِ أَنَّهَا اسْمُ مَصْدَرِ (زَكَّىٰ) الْمُشَدَّدِ، إِذَا طَهَّرَ النَّفْسَ مِنَ الْمَذَمَّاتِ، ثُمَّ أُطْلِقَتْ عَلَىٰ إِنْفَاقِ الْمَالِ لِوَجْهِ اللهِ مَجَازًا لِأَنَّ الْقَصْدَ مِنْ ذَلِكَ الْمَالِ تَزْكِيَةُ النَّفْسِ أَوْ لِأَنَّ ذَلِكَ يُزِيدُ فِي مَالِ الْمُعْطِي، وقيل: الزكاة ههنا هُوَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ، أَيْ: وَالَّذِينَ هُمْ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ فَاعِلُونَ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ الْفَرْجُ اسْمٌ يَجْمَعُ سَوْأَةَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ، وَحِفْظُ الْفَرْجِ التَّعَفُّفُ عَنِ الحرام، وعن بَهْز بْن حَكِيمٍ عن أبيه عَنْ جَدِّي، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ عَوْرَاتُنَا مَا نَأْتِي مِنْهَا وَمَا نَذَرُ؟ قَالَ: «**احْفَظْ عَوْرَتَكَ إِلَّا مِنْ زَوْجَتِكَ أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ**»، فَقَالَ: الرَّجُلُ يَكُونُ مَعَ الرَّجُلِ؟ قَالَ: «**إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا يَرَاهَا أَحَدٌ فَافْعَلْ**»، قُلْتُ: وَالرَّجُلُ يَكُونُ خَالِيًا، قَالَ: «**فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ**»(٢).

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾ أي: من أزواجهم، وعلىٰ بِمَعْنَىٰ مِنْ ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ (مَا) فِي مَحَلِّ الْخَفْضِ يَعْنِي أو مما مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ،

---

(١) البخاري (٩٣١) ومسلم (٨٥١).

(٢) أبو داود (٤٠١٧) والترمذي (٢٧٦٩).

وَالْآيَةُ فِي الرِّجَالِ خَاصَّةً بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ وَالْمَرْأَةُ لَا يَجُوزُ أَنْ تَسْتَمْتِعَ بِفَرْجِ مَمْلُوكِهَا ، ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ يَعْنِي يَحْفَظُ فَرْجَهُ إِلَّا مِنَ امْرَأَتِهِ أَوْ أَمَتِهِ فَإِنَّهُ لَا يُلَامُ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا لَا يُلَامُ فِيهِمَا إِذَا كَانَ عَلَىٰ وَجْهٍ أُذِنَ فِيهِ الشَّرْعُ دُونَ الْإِتْيَانِ فِي غَيْرِ الْمَأْتَىٰ، وَفِي حَالِ الْحَيْضِ وَالنِّفَاسِ، فَإِنَّهُ مَحْظُورٌ وَهُوَ عَلَىٰ فِعْلِهِ مَلُومٌ ، وَفِي الْحَدِيثِ: «**مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ**»(١) .

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ أَيْ: الْتَمَسَ وَطَلَبَ سِوَىٰ الْأَزْوَاجِ وَالْوَلَائِدِ المملوكة، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ الظَّالِمُونَ الْمُتَجَاوِزُونَ مِنَ الْحَلَالِ إِلَىٰ الحرام.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ﴾ أَيْ إِذَا اؤْتُمِنُوا لَمْ يَخُونُوا بَلْ يُؤَدُّونَهَا إِلَىٰ أَهْلِهَا، ﴿وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ حَافِظُونَ، أَيْ يَحْفَظُونَ مَا ائْتُمِنُوا عَلَيْهِ، وَالْعُقُودُ الَّتِي عَاقَدُوا النَّاسَ عَلَيْهَا، يَقُومُونَ بِالْوَفَاءِ بِهَا، وَالْأَمَانَاتُ تَخْتَلِفُ فَتَكُونُ بَيْنَ اللهِ تَعَالَىٰ وبين العباد كَالصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالْعِبَادَاتِ الَّتِي أَوْجَبَهَا الله عليه، ويكون من الْعَبِيدِ كَالْوَدَائِعِ وَالصَّنَائِعِ فَعَلَىٰ الْعَبْدِ الْوَفَاءُ بِجَمِيعِهَا ، قال القرطبي : وَالْأَمَانَةُ وَالْعَهْدُ يَجْمَعُ كُلَّ مَا يَحْمِلُهُ الإنسان من أمر دينه ودنياه قولا فعلاً، وَهَذَا يَعُمُّ مُعَاشَرَةَ النَّاسِ وَالْمَوَاعِيدَ وَغَيْرَ ذَلِكَ، وَغَايَةُ ذَلِكَ حِفْظُهُ وَالْقِيَامُ

---

(١) البخاري (٦٤٧٤) .

بِهِ ، وَالْأَمَانَةُ أَعَمُّ مِنَ الْعَهْدِ، وَكُلُّ عَهْدٍ فَهُوَ أَمَانَةٌ فِيمَا تَقَدَّمَ فِيهِ قَوْلٌ أَوْ فِعْلٌ أَوْ مُعْتَقَدٌ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أَيْ يُدَاوِمُونَ، عَلَىٰ حِفْظِهَا وَيُرَاعُونَ أَوْقَاتَهَا، كَرَّرَ ذِكْرَ الصَّلَاةِ لِيُبَيِّنَ أَنَّ الْمُحَافَظَةَ عَلَيْهَا وَاجِبَةٌ كَمَا أَنَّ الْخُشُوعَ فِيهَا وَاجِبٌ، قَالَ ابن مسعود: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَلَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ؟ قَالَ: «**الصَّلَاةُ عَلَىٰ وَقْتِهَا**» قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «**بِرُّ الْوَالِدَيْنِ**»، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «**الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ**»[١].

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أُولَئِكَ﴾ أَهْلُ هَذِهِ الصِّفَات ، ﴿هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ يَرِثُونَ مَنَازِلَ أَهْلِ النَّارِ مِنَ الجنة، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَىٰ الْوِرَاثَةِ هُوَ أنه يؤول أَمْرُهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ وَيَنَالُونَهَا كَمَا يؤول أمر الميراث إلىٰ الوارث، اخرج ابن ماجه بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: « **ما مِنكم مِنْ أَحَدٍ إلا له مَنْزِلان، مَنْزِلٌ في الجنة، ومَنْزِلٌ في النار، فإذا مات، فدخلَ النار، ورِثَ أهلُ الجنة مَنْزِله ، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَىٰ:** ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾»[٢] .

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ وَهُوَ أَعْلَىٰ الْجَنَّةِ قَدْ ذَكَرْنَاهُ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ، وَالْفِرْدَوْسُ: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ الْجَنَّةِ فِي مُصْطَلَحِ الْقُرْآنِ، أَوْ

---

(١) البخاري (٥٢٧) ومسلم (٨٥) .

(٢) ابن ماجه (٤٣٤٢) .

مِنْ أَسْمَاءِ أَشْرَفِ جِهَاتِ الْجَنَّاتِ، وَأَصْلُ الْفِرْدَوْسِ: الْبُسْتَانُ الْوَاسِعُ الْجَامِعُ لِأَصْنَافِ الثَّمَرِ.وَفِي الْحَدِيثِ أَن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِأُمِّ حَارِثَةَ بْنِ سُرَاقَةَ لَمَّا أَصَابَهُ سَهْمٌ غَرْبٌ يَوْمَ بَدْرٍ فَقَتَلَهُ، وَقَالَتْ أُمُّهُ: إِنْ كَانَ فِي الْجَنَّةِ أَصْبِرْ وَأَحْتَسِبْ فَقَالَ لَهَا: «**وَيحك أهبلت أَو جنّة وَاحِدَةٌ هِيَ، إِنَّهَا لَجِنَانٍ كَثِيرَةٍ وَإِنَّهُ لَفِي الْفِرْدَوْسِ**»(١) ، ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا يموتون ولا يخرجون.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ: تَقْرِيرُ اللهِ تَعَالَىٰ خَلْقَ الْإِنْسَانِ الْأَوَّلِ مِنْ قَبْضَةٍ جَمَعَهَا مِنْ تُرَابِ الْأَرْضِ، ثُمَّ تَتَابُعُ النَّسْلِ مِنْ نُطْفَةٍ فَعَلَقَةٍ فَمُضْغَةٍ، ثُمَّ كَانَ تَشْكِيلُ الْعِظَامِ وَكِسْوَتُهَا بِاللَّحْمِ: ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ ثُمَّ يَكُونُ الْمَوْتُ بَعْدَ اكْتِمَالِ السَّعْيِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ثُمَّ الْقِيَامُ لِلْحِسَابِ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ يعني: ولد آدم، والإنسان اسْمُ الْجِنْسِ يَقَعُ عَلَىٰ، الْوَاحِدِ والجمع، ﴿مِنْ سُلَالَةٍ﴾ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: السُّلَالَةُ صَفْوَةُ الْمَاءِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مِنْ بَنِي آدَمَ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: هُوَ يُسِيلُ مِنَ الظَّهْرِ، وَالسُّلَالَةُ: الشَّيْءُ الْمَسْلُولُ، أَيِ الْمُنْتَزَعُ مِنْ شَيْءٍ آخَرَ، يُقَالُ: سَلَلْتُ السَّيْفَ، إِذَا أَخْرَجْتُهُ مِنْ غِمْدِهِ، وَالْعَرَبُ تُسَمِّي النُّطْفَةَ سُلَالَةً وَالْوَلَدَ سَلِيلًا وَسُلَالَةً لِأَنَّهُمَا مَسْلُولَانِ مِنْهُ، قوله: ﴿مِنْ طِينٍ﴾ يَعْنِي: طِينَ آدَمَ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ مِنَ

---

(١) البخاري (٢٨٠٩) .

الْإِنْسَانُ هُوَ آدَمُ ، وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ خَلْقَ آدَمَ كَانَ مِنْ سُلَالَةٍ -وَهِيَ الْمُسْتَلَّةُ- مِنْ كُلِّ تُرْبَةٍ مِنْ تُرَبِ الْأَرْضِ الْمُخْتَلِفَةِ، قَبَضَهَا اللهُ تَعَالَىٰ وَأَوْجَدَ مِنْهَا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَىٰ قَدْرِ الْأَرْضِ، جَاءَ منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك**»(١).

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً﴾ يَعْنِي الَّذِي هُوَ الْإِنْسَانُ جَعَلْنَاهُ نطفة، ﴿فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ حريز وهو الرحم مكن وهيئ لِاسْتِقْرَارِهَا فِيهِ إِلَىٰ بُلُوغِ أَمَدِهَا، وَالْقَرَارُ فِي الْأَصْلِ: مَصْدَرُ قَرَّ إِذَا ثَبَتَ فِي مَكَانِهِ، وَقَدْ سُمِّيَ بِهِ هُنَا الْمَكَانُ نَفْسُهُ، وَالْمَكِينُ: الثَّابِتُ فِي الْمَكَانِ بِحَيْثُ لَا يُقْلَعُ مِنْ مَكَانِهِ.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾ إِخْبَارٌ عَنِ انْتِقَالٍ مِنْ حَالٍ إِلَىٰ حَالٍ، حَتَّىٰ يَتَشَكَّلَ الْإِنْسَانُ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، فَالنُّطْفَةُ - وَهِيَ الْمَاءُ الدَّافِقُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ صُلْبِ الرَّجُلِ، وَهُوَ ظَهْرُهُ، وَتَرَائِبِ الْمَرْأَةِ، وَهِيَ عِظَامُ صَدْرِهَا مَا بَيْنَ التَّرْقُوَةِ إِلَىٰ السُّرَّةِ- تَصِيرُ عَلَقَةً حَمْرَاءَ ، قَالَ عِكْرِمَةُ: وَهِيَ دَمٌ ، أَيْ: قِطْعَةٌ مِنْ دَمٍ، ثُمَّ تَصِيرُ مُضْغَةً، أَيْ: قِطْعَةٌ مِنْ لَحْمٍ، لَا شَكْلَ فِيهَا وَلَا تَخْطِيطَ، ثُمَّ تَصِيرُ بِإِذْنِ اللهِ عِظَامًا، ثُمَّ يُلْبِسُ اللهُ تَعَالَىٰ الْعِظَامَ لَحْمًا، وَأَوَّلُ عَظْمٍ يَتَشَكَّلُ مِنَ الْإِنْسَانِ هُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، قَالَ

(١) أبو داود (٤٦٩٣) والترمذي (٢٩٥٥) .

ابْنُ عَبَّاسٍ: وَهُوَ عَظْمُ الصُّلْبِ ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **لَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَىٰ، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** »(١) ، قَوْلُهُ ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ أَيْ أَلْبَسْنَا، أي: جعلنا اللحم، كسوة للعظام، كما جعلنا العظام، عمادا للحم، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ**» ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِيهِ، فَقَالَ ابْنُ عباس وغيره: هُوَ نَفْخُ الرُّوحِ فِيهِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: نَبَاتُ الْأَسْنَانِ وَالشَّعَرِ، وَرَوَىٰ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: أَنَّهُ اسْتِوَاءُ الشَّبَابِ، وَعَنِ الْحَسَنِ قَالَ: ذَكَرًا أَوْ أُنْثَىٰ ، وَرَوَي عن ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ ذَلِكَ تَصْرِيفُ أَحْوَالِهِ بَعْدَ الْوِلَادَةِ مِنَ الاستهلال إلىٰ الاتضاع، إِلَىٰ الْقُعُودِ إِلَىٰ الْقِيَامِ، إِلَىٰ الْمَشْيِ إِلَىٰ الْفِطَامِ إِلَىٰ أَنْ يَأْكُلَ وَيَشْرَبَ، إِلَىٰ أَنْ يَبْلُغَ الْحُلُمَ، وَيَتَقَلَّبَ فِي الْبِلَادِ إِلَىٰ ما بعدها. قال القرطبي : وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ عَامٌّ فِي هَذَا وَفِي غَيْرِهِ مِنَ النُّطْقِ وَالْإِدْرَاكِ وَحُسْنِ الْمُحَاوَلَةِ وَتَحْصِيلِ الْمَعْقُولَاتِ إِلَىٰ أَنْ يَمُوتَ، ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ﴾ أَيْ: اسْتَحَقَّ التَّعْظِيمَ وَالثَّنَاءَ بِأَنَّهُ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ. ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ المصورين والمقدرين، والخلق فِي اللُّغَةِ التَّقْدِيرُ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يَصْنَعُونَ وَيَصْنَعُ اللهُ وَاللهُ

---

(١) البخاري (٤٨١٤) ومسلم (٢٩٥٥) .

خَيْرُ الصَّانِعِينَ، يُقَالُ: رَجُلٌ خَالِقٌ أَيْ: صَانِعٌ، وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: إِنَّمَا جَمَعَ الْخَالِقِينَ لِأَنَّ عِيسَىٰ كَانَ يَخْلُقُ كَمَا قَالَ: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٤٩] فَأَخْبَرَ اللهُ عَنْ نَفْسِهِ بِأَنَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ أَيْ بَعْدَ الْخَلْقِ وَالْحَيَاةِ، أي: ثم إنكم بعد ما ذُكر من مراحل إنشائكم لمفارقون لهذه الحياة الدنيا، وذلك عند انقضاء آجالكم، وَفِي «شَرْحِ الْمُوَطَّأِ»: «تَنَاجَىٰ رَجُلَانِ فِي مَجْلِسِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَعَلِيٌّ حَاضِرٌ فَقَالَ لَهُمَا عُمَرُ: مَا هَذِهِ الْمُنَاجَاةُ؟ فَقَالَ أَحَدُهُمَا: إِنَّ الْيَهُودَ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْعَزْلَ هُوَ الْمَوْءُودَةُ الصُّغْرَىٰ، فَقَالَ عَلِيٌّ: لَا تَكُونُ مَوْءُودَةً حَتَّىٰ تَمُرَّ عَلَيْهَا التَّارَاتُ السَّبْعُ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ الْآيَةَ، فَقَالَ عُمَرُ لِعَلِيٍّ: صَدَقْتَ أَطَالَ اللهُ بَقَاءَكَ»، فَقِيلَ: إِنَّ عُمَرَ أَوَّلُ مَنْ دَعَا بِكَلِمَةِ «أَطَالَ اللهُ بَقَاءَكَ».

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾. أي: من قبوركم للحساب والمجازاة. قال النسفي: تحيون للجزاء، ثم يُوَفّىٰ كل عامل عمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، قال تعالىٰ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، وَفِي مُسْتَدْرَكِ الْحَاكِمِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ مِنْ حَدِيثِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ مَرْفُوعًا: « **تَعْلَمُونَ الْمَعَادَ إِلَىٰ اللهِ، ثُمَّ إِلَىٰ الْجَنَّةِ أَوْ إِلَىٰ النَّارِ، وَإِقَامَةٌ لَا ظَعْنَ فِيهِ، وَخُلُودٌ لَا مَوْتَ فِي أَجْسَادٍ لَا تَمُوتُ**

»[1]، وَفِي الصَّحِيحِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صلىٰ الله علعيه وسلم قَالَ: « **أَسْرَفَ رَجُلٌ عَلَىٰ نَفْسِهِ، فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ أَوْصَىٰ بَنِيهِ فَقَالَ: إِذَا أَنَا مِتُّ فَأَحْرِقُونِي، ثُمَّ اسْحَقُونِي، ثُمَّ ذَرُّونِي فِي الرِّيحِ، فِي الْبَحْرِ، فَوَاللهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبُنِي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا، قَالَ: فَفَعَلُوا بِهِ ذَلِكَ، فَقَالَ لِلْأَرْضِ: أَدِّي مَا أَخَذْتِ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ، فَقَالَ لَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَىٰ مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: خَشْيَتُكَ - أَوْ مَخَافَتُكَ - يَا رَبِّ، فَغَفَرَ لَهُ بِذَلِكَ** »[2] ، وقد روي عن عمر بن عبد العزيز من وجوه متعدّدة أنّه قال في آخر خطبة خطبها رحمه الله عليه: «أَلَا تَرَوْنَ أَنَّكُمْ فِي أَسْلَابِ الْهَالِكِينَ، ثُمَّ يَرِثُهَا بَعْدَكُمُ الْبَاقُونَ كَذَلِكَ حَتَّىٰ يُرَدَّ إِلَىٰ خَيْرِ الْوَارِثِينَ، وَفِي كُلِّ يَوْمٍ تُشَيِّعُونَ غَادِيًا وَرَائِحًا قَدْ قَضَىٰ نَحْبَهُ، فَتُوَدِّعُونَهُ وَتَدَعُونَهُ فِي صَدْعٍ مِنَ الْأَرْضِ غَيْرِ مُمَهَّدٍ وَلَا مُوَسَّدٍ، قَدْ فَارَقَ الْأَحْبَابَ، وَخَلَعَ الْأَسْبَابَ، وَسَكَنَ التُّرَابَ، وَوَاجَهَ الْحِسَابَ، غَنِيًّا عَمَّا خَلَّفَ، فَقِيرًا إِلَىٰ مَا قَدَّمَ» .

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ أي: سبع سماوات، سُمِّيَتْ طَرَائِقَ لِتَطَارُقِهَا وَهُوَ أَنَّ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ، يُقَالُ: طَارَقْتُ النَّعْلَ إِذَا جَعَلْتُ بَعْضَهُ فَوْقَ بَعْضٍ، وَقِيلَ: سُمِّيَتْ طَرَائِقَ لِأَنَّهَا طَرَائِقُ الْمَلَائِكَةِ، قال ابن عاشور: وَالطَّرَائِقُ: جَمْعُ طَرِيقَةٍ وَهِيَ اسْمٌ لِلطَّرِيقِ تُذَكَّرُ وَتُؤَنَّثُ، وَالْمُرَادُ بِهَا هُنَا طَرَائِقُ سَيْرِ الْكَوَاكِبِ السَّبْعَةِ وَهِيَ أَفْلَاكُهَا، أَيِ الْخُطُوطُ الْفَرْضِيَّةُ الَّتِي ضَبَطَ

---

(١) المستدرك (٨٧٢١) .

(٢) البخاري (٣٤٨١) ومسلم (٢٧٥٦) .

النَّاسُ بِهَا سُمُوتَ سَيْرِ الْكَوَاكِبِ، وَقَدْ أطلق علىٰ الْكَوَاكِب اسْمُ الطَّارِقِ فِي قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: وَالسَّماءِ وَالطَّارِقِ [الطارق: ١] مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ يَنْتَقِلُ فِي سَمْتٍ يُسَمَّىٰ طَرِيقَة فَإِن السائر فِي طَرِيقٍ يُقَالُ لَهُ: طَارِقٌ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الطَّرَائِقَ تَسْتَلْزِمُ سَائِرَاتٍ فِيهَا، فَكَانَ الْمَعْنَىٰ: خَلَقْنَا سَيَّارَاتٍ وَطَرَائِقَهَا ، ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ أَيْ كُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ مِنْ أَنْ تَسْقُطَ السَّمَاءُ عَلَيْهِمْ فَتُهْلِكُهُمْ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَىٰ الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحَجِّ: ٦٥] وَقِيلَ: مَا تَرَكْنَاهُمْ سُدًىٰ بِغَيْرِ أَمْرٍ وَنَهْيٍ. وَقَالَ السَّعْدِيُّ: فَكَمَا أَنَّ خَلْقَنَا عَامٌّ لِكُلِّ مَخْلُوقٍ، فَعِلْمُنَا أَيْضًا مُحِيطٌ بِمَا خَلَقْنَا، فَلَا نَغْفُلُ مَخْلُوقًا وَلَا نَنْسَاهُ، وَلَا نَخْلُقُ خَلْقًا فَنُضَيِّعَهُ، وَلَا نَغْفُلُ عَنِ السَّمَاءِ فَتَقَعَ عَلَىٰ الْأَرْضِ، وَلَا نَنْسَىٰ ذَرَّةً فِي لُجَجِ الْبِحَارِ وَجَوَانِبِ الْفَلَوَاتِ، وَلَا دَابَّةً إِلَّا سُقْنَا إِلَيْهَا رِزْقَهَا، وَقِيلَ: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ أَيْ بَنَيْنَا فَوْقَهُمْ سَمَاءً أَطْلَعْنَا فِيهَا الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْكَوَاكِبَ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: وَمَا كُنَّا فِي خَلْقِنَا السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ فَوْقَكُمْ عَنْ خَلْقِنَا الَّذِي تَحْتَهَا غَافِلِينَ، بَلْ كُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ مِنْ أَنْ تَسْقُطَ عَلَيْهِمْ فَتُهْلِكَهُمْ ، وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ : قَالَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ: أَيْ عَنِ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ مِنْ أَنْ تَسْقُطَ عَلَيْهِمْ فَتُهْلِكَهُمْ. قُلْتُ: وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَىٰ ﴿وَما كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غافِلِينَ﴾ أَيْ فِي الْقِيَامِ بمصالحهم وحفظهم ، وَهُوَ مَعْنَىٰ الْحَيُّ الْقَيُّومُ.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ يَعْلَمُهُ اللهُ ، قَالَ مُقَاتِلٌ: بِقَدْرِ مَا يَكْفِيهِمْ لِلْمَعِيشَةِ، ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ يُرِيدُ مَا يَبْقَىٰ فِي الآبار

وَالْمُسْتَنْقَعَاتِ يَنْتَفِعُ بِهِ النَّاسُ فِي الصَّيْفِ عِنْدَ انْقِطَاعِ الْمَطَرِ، وَالْإِسْكَانُ: جَعْلُ الشَّيْءِ فِي مَسْكَنٍ، وَقِيلَ: فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَخْرَجْنَا مِنْهَا يَنَابِيعَ، فَمَاءُ الْأَرْضِ كُلُّهُ مِنَ السَّمَاءِ، ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ إما بأن لا ننزله، أو ننزله، فيذهب نازلا لا يوصل إليه، أو لا يوجد منه المقصود منه، وهذا تنبيه منه لعباده أن يشكروه علىٰ نعمته، ويقدروا عدمها، ماذا يحصل به من الضرر، قال القرطبي : هَذِهِ الْآيَةُ مِنْ نِعَمِ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ خَلْقِهِ وَمِمَّا امْتَنَّ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَمِنْ أَعْظَمِ الْمِنَنِ الْمَاءُ الَّذِي هُوَ حَيَاةُ الْأَبْدَانِ وَنَمَاءُ الْحَيَوَانِ. وَالْمَاءُ الْمُنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ عَلَىٰ قِسْمَيْنِ: هَذَا الَّذِي ذَكَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَأَخْبَرَ بِأَنَّهُ اسْتَوْدَعَهُ فِي الْأَرْضِ، وَجَعَلَهُ فِيهَا مُخْتَزَنًا لِسَقْيِ النَّاسِ يَجِدُونَهُ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ، وَهُوَ مَاءُ الْأَنْهَارِ وَالْعُيُونِ وَمَا يُسْتَخْرَجُ مِنَ الْآبَارِ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ إِشَارَةٌ إِلَىٰ الْمَاءِ الْعَذْبِ، وَأَنَّ أَصْلَهُ مِنَ الْبَحْرِ، رَفَعَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِلُطْفِهِ وَحُسْنِ تَقْدِيرِهِ مِنَ الْبَحْرِ إِلَىٰ السَّمَاءِ، حَتَّىٰ طَابَ بِذَلِكَ الرَّفْعِ وَالتَّصْعِيدِ، ثُمَّ أَنْزَلَهُ إِلَىٰ الْأَرْضِ لِيُنْتَفَعَ بِهِ، وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ إِلَىٰ مَاءِ الْبَحْرِ لَمَا انْتُفِعَ بِهِ مِنْ مُلُوحَتِهِ.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ﴾ أَيْ جَعَلْنَا ذَلِكَ سَبَبَ النَّبَاتِ، وَأَوْجَدْنَاهُ بِهِ وَخَلَقْنَاهُ. يعني فأخرجنا لكم بما أنزلنا من السماء ، ﴿جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ فِي الْجَنَّاتِ، ﴿فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ شِتَاءً وَصَيْفًا، وَخُصَّ النَّخِيلُ وَالْأَعْنَابُ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهَا أَكْثَرُ فَوَاكِهِ الْعَرَبِ.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَشَجَرَةً﴾ أي: أنشأ لَكُمْ شَجَرَةً ﴿تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾ وَهِيَ الزَّيْتُونُ، وَطُورُ سَيْنَاءَ: جَبَلٌ فِي صَحْرَاءِ سَيْنَاءَ الْوَاقِعَةِ بَيْنَ عَقَبَةِ أَيْلَةَ وَبَيْنَ مِصْرِ، وَهِيَ مِنْ بِلَادِ فِلَسْطِينَ فِي الْقَدِيمِ، وَفِيهِ نَاجَىٰ مُوسَىٰ رَبَّهُ تَعَالَىٰ، وَاخْتَلَفُوا فِي معناه وفي قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التِّين: ٢] قَالَ مُجَاهِدٌ: مَعْنَاهُ الْبَرَكَةُ، أَيْ: مِنْ جَبَلٍ مُبَارَكٍ، وَقَالَ قَتَادَةُ: مَعْنَاهُ الْحُسْنُ، أَيْ مِنَ الْجَبَلِ الْحَسَنِ، وَقِيلَ: هُوَ بِالسُّرْيَانِيَّةِ الْمُلْتَفَّةُ بِالْأَشْجَارِ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: كُلُّ جَبَلٍ فِيهِ أَشْجَارٌ مُثْمِرَةٌ فَهُوَ سِينًا، وَسِينِينَ بِلُغَةِ النَّبَطِ، وَقِيلَ: هُوَ فَيْعَالُ مِنَ السَّنَاءِ وَهُوَ الِارْتِفَاعُ. قال ابن زيد: هو الحمل الَّذِي نُودِيَ مِنْهُ مُوسَىٰ بَيْنَ مِصْرَ وَأَيْلَةَ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: سَيْنَا اسْمُ حِجَارَةٍ بِعَيْنِهَا أُضِيفَ الْجَبَلُ إِلَيْهَا لِوُجُودِهَا عِنْدَهُ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: هُوَ اسْمُ الْمَكَانِ الَّذِي فِيهِ هذا الجبل، ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ أي تَنْبُتُ الدُّهْنَ، كَمَا فِي قَوْلِ الْعَرَبِ: أَلْقَىٰ فلان بيده أي يده، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَصِبْغٍ﴾ أَيْ أُدْمٍ قَالَهُ قَتَادَةُ ﴿لِّلآكِلِينَ﴾ أَيْ فِيهَا مَا يَنْتَفِعُ بِهِ مِنَ الدهن والاصطباغ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كُلُوا الزَّيْتَ وَادَّهِنُوا بِهِ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرَةٍ مباركة**»(١)، وَالْإِدَامُ كُلُّ مَا يُؤْكَلُ مَعَ الْخُبْزِ سَوَاءٌ ينصبغ به الخبز ولا يصبغ، قَالَ مُقَاتِلٌ: جَعَلَ اللهُ فِي هَذِهِ الشَّجَرَةِ أُدْمًا وَدُهْنًا، فَالْأُدُمُ: الزَّيْتُونُ، وَالدُّهْنُ الزَّيْتُ، وَقَالَ:

---

(١) الترمذي (١٨٥١) وابن ماجه (٣٣١٩).

خَصَّ الطَّوْرُ بِالزَّيْتُونِ لِأَنَّ أَوَّلَ الزَّيْتُونِ نبت بها، ويقال: لأن الزَّيْتُونَ أَوَّلُ شَجَرَةٍ نَبَتَتْ فِي الدنيا بعد الطوفان.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ يعني: آية تعتبرون بها ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ، يَذْكُرُ تَعَالَىٰ مَا جَعَلَ لِخَلْقِهِ فِي الْأَنْعَامِ مِنَ الْمَنَافِعِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَشْرَبُونَ مِنْ أَلْبَانِهَا الْخَارِجَةِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ وَيَأْكُلُونَ مِنْ حُمْلَانِهَا، وَيَلْبَسُونَ مِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ، وَيَرْكَبُونَ ظُهُورَهَا، وُيُحَمِّلُونَهَا الْأَحْمَالَ الثِّقَالَ إِلَىٰ الْبِلَادِ النَّائِيَةِ عَنْهُمْ.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَىٰ الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ يعني: عَلَىٰ الْإِبلِ فِي الْبَرِّ وَعَلَىٰ السفن فِي البحر، قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: جَعَلَهَا سُفُنًا لَكُمْ فِي الْبَرِّ، تَحْمِلُونَ عَلَيْهَا أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُس، كَمَا جَعَلَ لَكُمُ السُّفُنَ فِي الْبَحْرِ تَحْمِلُكُمْ، وَتَحْمِلُ مَتَاعَكُمْ، قَلِيلًا كَانَ أَوْ كَثِيرًا، فَالَّذِي أَنْعَمَ بِهَذِهِ النِّعَمِ، وَصَنَّفَ أَنْوَاعَ الْإِحْسَانِ، وَأَدَرَّ عَلَيْنَا مِنْ خَيْرِهِ الْمِدْرَارَ، هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ كَمَالُ الشُّكْرِ، وَكَمَالُ الثَّنَاءِ، وَالِاجْتِهَادُ فِي عُبُودِيَّتِهِ، وَأَنْ لَا يُسْتَعَانَ بِنِعَمِهِ عَلَىٰ مَعَاصِيهِ.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ وَحِّدُوهُ، ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ معبود سواه، وفيه إبطال ألوهية غير الله، وإثبات الإلهية لله تعالىٰ، لأنه الخالق الرازق، الذي له الكمال كله، وغيره

بخلاف ذلك. ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أَفَلَا تَخَافُونَ عُقُوبَتَهُ إِذَا عَبَدْتُمْ غَيْرَهُ، قال ابن كثير : يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ بَعَثَهُ إِلَىٰ قَوْمِهِ، لِيُنْذِرَهُمْ عَذَابَ اللهِ وَبَأْسَهُ الشَّدِيدَ، وَانتِقَامَهُ مِمَّنْ أَشْرَكَ بِهِ وَخَالَفَ أَمْرَهُ وكذَّب رُسُلَهُ.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ﴾ يعني السادة والأشراف والأكابر منهم. ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ قَالَ النَّسَفِيُّ: أَيْ يَطْلُبُ الْفَضْلَ عَلَيْكُمْ وَيَتَرَأَّسُ، وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: أَيْ يَسُودُكُمْ وَيَشْرُفُ عَلَيْكُمْ بِأَنْ يَكُونَ مَتْبُوعًا وَنَحْنُ لَهُ تَبَعٌ، وقيل: يَتَشَرَّفَ بِأَنْ يَكُونَ لَهُ الْفَضْلُ عَلَيْكُمْ فَيَصِيرَ مَتْبُوعًا وَأَنْتُمْ لَهُ تبع، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ ألا يعبد سواه، ﴿لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ يَعْنِي بِإِبْلَاغِ الْوَحْيِ ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ الَّذِي يَدْعُونَا إِلَيْهِ نُوحٌ ﴿فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ وَقِيلَ: مَا سَمِعْنَا بِهَذَا أَيْ: بِإِرْسَالِ بَشَرٍ رَسُولًا، وَقِيلَ: بِإِرْسَالِ بَشَرٍ رَسُولًا، أَوْ بِمَا يَأْمُرُنَا بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَسَبِّ آلِهَتِنَا، وَالْعَجَبُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ رَضُوا بِالْأُلُوهِيَّةِ لِلْحَجَرِ.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أَيْ مَجْنُونٌ فِيمَا يَزْعُمُهُ مِنْ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ إِلَيْكُمْ، وَاخْتَصَّهُ مِنْ بَيْنِكُمْ بِالْوَحْيِ، قال ابن عاشور : وَالتَّنْوِينُ فِي جِنَّةٌ لِلنَّوْعِيَّةِ، أَيْ هُوَ مُتَلَبِّسٌ بِشَيْءٍ مِنَ الْجُنُونِ، وَهَذَا اقْتِصَادٌ مِنْهُمْ فِي حَالِهِ حَيْثُ احْتَرَزُوا مِنْ أَنْ يُوَرِّطُوا أَنْفُسَهُمْ فِي وَصْفِهِ بِالْخَبَالِ مَعَ أَنَّ الْمُشَاهَدَ مِنْ حَالِهِ يُنَافِي ذَلِكَ فَأَوْهَمُوا قَوْمَهُمْ أَنَّ بِهِ جُنُونًا خَفِيفا لَا يَبْدُو آثَارُهُ وَاضِحَةً، ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ يعني إِلَىٰ أَنْ يَمُوتَ فَتَسْتَرِيحُوا مِنْهُ، وَالتَّرَبُّصُ: التَّوَقُّفُ عَنْ عَمَلٍ يُرَادُ عَمَلُهُ وَالتَّرَيُّثُ فِيهِ انْتِظَارًا لِمَا قَدْ يُغْنِي عَنِ الْعَمَلِ أَوِ

انْتِظَارًا لِفُرْصَةٍ تُمَكِّنُ مِنْ إِيقَاعِهِ عَلَىٰ أَتْقَنِ كَيْفِيَّةٍ لِنَجَاحِهِ، وَقَالَ الْفَرَّاءُ: لَيْسَ يُرَادُ بِالْحِينِ ها هنا وَقْتٌ بِعَيْنِهِ، إِنَّمَا هُوَ كَقَوْلِهِ: دَعْهُ إِلَىٰ يَوْمٍ مَا.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ يعني: أَعِنِّي بِإِهْلَاكِهِمْ لِتَكْذِيبِهِمْ إِيَّايَ، وَفِيهِ إِعْلَامٌ بِانْسِدَادِ الطَّرِيقِ بَيْنَ نُوحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَقَوْمِهِ الَّذِينَ أَصَرُّوا عَلَىٰ التَّكْذِيبِ وَالْعِنَادِ، وَعَدَمِ الِانْتِفَاعِ بِأَيِّ بَلَاغٍ ، فَهُنَالِكَ اسْتَنْصَرَ نُوحٌ رَبَّهُ عَلَيْهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ الْقَمَرِ: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [١٠].

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ عِنْدَ اسْتِجَابَتِنَا لَهُ، سَبَبًا وَوَسِيلَةً لِلنَّجَاةِ، قَبْلَ وُقُوعِ أَسْبَابِهِ، ﴿أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ أي: السفينة ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ أَيْ: بِأَمْرِنَا لَكَ وَمَعُونَتِنَا، وَأَنْتَ فِي حِفْظِنَا وَكَلَاءَتِنَا بِحَيْثُ نَرَاكَ وَنَسْمَعُكَ ، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بإرسال الطوفان الذي عذبوا به ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ أَيْ: فَارَتِ الْأَرْضُ، وَتَفَجَّرَتْ عُيُونًا، حَتَّىٰ مَحَلُّ النَّارِ، الَّذِي لَمْ تَجْرِ الْعَادَةُ إِلَّا بِبُعْدِهِ عَنِ الْمَاءِ، ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أَدْخِلْ فِيهَا، يُقَالُ: سَلَكْتُهُ فِي كَذَا وَأَسْلَكْتُهُ فِيهِ، ﴿مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ يعني مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْحُكْمُ بِالْهَلَاكِ كابنه ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ أَيْ: لَا تَدْعُونِي أَنْ أُنْجِيَهُمْ، فَإِنَّ الْقَضَاءَ وَالْقَدَرَ، قَدْ حَتَمَ أَنَّهُمْ مُغْرَقُونَ.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ﴾ اعْتَدَلْتَ أي: علوتم عليها، واستقلت بكم في تيار الأمواج، ولجج اليم، فاحمدوا الله على النجاة والسلامة ، ﴿أَنْتَ

وَمَنْ مَعَكَ عَلَىٰ الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يعني الْكَافِرِينَ.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ أَيْ يُرِيدُ مَوْضِعَ النُّزُولِ، قِيلَ: هذا هُوَ السَّفِينَةُ بَعْدَ الرُّكُوبِ، وَقِيلَ: هُوَ الْأَرْضُ بَعْدَ النُّزُولِ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ أَرَادَ فِي السَّفِينَةِ، وَيُحْتَمَلُ بَعْدَ الْخُرُوجِ ، فَالْبَرَكَةُ فِي السَّفِينَةِ النَّجَاةُ وَفِي النُّزُولِ بَعْدَ الْخُرُوجِ كَثْرَةُ النَّسْلِ مِنْ أَوْلَادِهِ الثَّلَاثَةِ، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ: هَذَا حِينَ خَرَجَ مِنَ السَّفِينَةِ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ [هود: ٤٨] ، وَقِيلَ: حِينَ دَخَلَهَا، فَعَلَىٰ هَذَا يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿مُبَارَكًا﴾ يَعْنِي بِالسَّلَامَةِ وَالنَّجَاةِ ، قال القرطبي : وَبِالْجُمْلَةِ فَالْآيَةُ تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِعِبَادِهِ إِذَا رَكِبُوا وَإِذَا نَزَلُوا أَنْ يَقُولُوا هَذَا، بَلْ وَإِذَا دَخَلُوا بُيُوتَهُمْ وَسَلَّمُوا قَالُوا، وَرُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : أَنَّهُ كَانَ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ قَالَ: اللَّهُمَّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وأنت خير المنزلين.

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ يعني الَّذِي ذَكَرْتُ مِنْ أَمْرِ نُوحٍ وَالسَّفِينَةِ وَإِهْلَاكِ أَعْدَاءِ اللهِ ﴿لَآيَاتٍ﴾ لَدَلَالَاتٍ عَلَىٰ كَمَالِ قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَأَنَّهُ يَنْصُرُ أَنْبِيَاءَهُ وَيُهْلِكُ أَعْدَاءَهُمْ. ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ يعني: وَقَدْ كُنَّا وَقِيلَ: وَمَا كُنَّا إِلَّا مُبْتَلِينَ أَيْ: مُخْتَبِرِينَ إِيَّاهُمْ بِإِرْسَالِ نُوحٍ وَوَعْظِهِ وَتَذْكِيرِهِ لِنَنْظُرَ مَا هُمْ عَامِلُونَ قَبْلَ نُزُولِ الْعَذَابِ بِهِمْ، وَقِيلَ: أَيْ نُعَامِلُهُمْ مُعَامَلَةَ الْمُخْتَبِرِينَ، وإنما قضىٰ الله

تعالىٰ ابتلاء القوم بعضهم ببعض ليميز الخبيث من الطيب، ثم يحق الحق ويزهق الباطل.

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أَيْ مِنْ بَعْدِ هَلَاكِ قَوْمِ نُوحٍ، ﴿قَرْنًا آخَرِينَ﴾ قِيلَ: هُمْ قَوْمُ عَادٍ ، وقيل: المراد بهؤلاء ثمود، وتَعْقِيبُ قِصَّةِ نُوحٍ وَقَوْمِهِ بِقِصَّةِ رَسُولٍ آخَرَ، أَيْ أُخْرَىٰ، وَمَا بَعْدَهَا مِنَ الْقَصَصِ يُرَادُ مِنْهُ أَنَّ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ عَلَىٰ تَكْذِيبِهِمْ لَهُ لَمْ يَكُنْ صُدْفَةً وَلَكِنَّهُ سُنَّةُ اللهِ فِي الْمُكَذِّبِينَ لِرُسُلِهِ وَلِذَلِكَ لَمْ يُعَيِّنِ الْقَرْنَ وَلَا الْقُرُونَ بِأَسْمَائِهِمْ، وَالْقَرْنُ: الْأُمَّةُ.

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ يَعْنِي هُودًا وَقَوْمَهُ. وَقِيلَ: صَالِحًا وَقَوْمَهُ، وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ، ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أَيْ: فَبَعَثَ اللهُ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ بَيْنِهِمْ يُحَذِّرُهُمْ مَغَبَّةَ الشِّرْكِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَيَحُثُّهُمْ عَلَىٰ إِفْرَادِ اللهِ تَعَالَىٰ بِالْعِبَادَةِ وَالتَّعْظِيمِ، وَيُنْذِرُهُمْ بَأْسَهُ تَعَالَىٰ وَبَطْشَهُ إِنْ أَصَرُّوا عَلَىٰ الْكُفْرِ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الِانْحِرَافِ وَالْجُحُودِ.

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ أَيِ الْمَصِيرِ إِلَىٰ الْآخِرَةِ، وَالْمُرَادُ لِقَاءُ اللهِ تَعَالَىٰ لِلْحِسَابِ ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ نَعَّمْنَاهُمْ وَوَسَّعْنَا عَلَيْهِمْ، وَالْإِتْرَافُ: جَعْلُهُمْ أَصْحَابَ تَرَفٍ ، وَالتَّرَفُ: النِّعْمَةُ الْوَاسِعَةُ ، ﴿مَا هَذَا إِلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أي: من جنسكم ، ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ فما الذي يفضله عليكم؟ فهلا كان ملكا لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب.

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ لَمَغْبُونُونَ، بِتَرْكِكُمْ آلِهَتَكُمْ وَاتِّبَاعِكُمْ إياه مِنْ غَيْرِ فَضِيلَةٍ لَهُ عَلَيْكُمْ.

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ الِاسْتِفْهَامُ فِي قَوْلِهِ أَيَعِدُكُمْ لِلتَّعَجُّبِ، وَهُوَ انْتِقَالٌ مِنْ تَكْذِيبِهِ فِي دَعْوَىٰ الرِّسَالَةِ إِلَىٰ تَكْذِيبِهِ فِي الْمُرْسَلِ بِهِ ، وَالْمَعْنَىٰ: يَعِدُكُمْ إِخْرَاجَكُمْ مِنَ الْقُبُورِ بَعْدَ مَوْتِكُمْ وَفَنَاءِ أَجْسَامِكُمْ. ﴿أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ أَيْ مَبْعُوثُونَ مِنْ قُبُورِكُمْ أَحْيَاءً وَأَعَادَ أَنَّكُمْ لَمَّا طَالَ الْكَلَامُ، وَمَعْنَىٰ الْكَلَامِ: أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا مُخْرَجُونَ؟ وَكَذَلِكَ هُوَ فِي قراءة عبد الله.

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هِيَ كَلِمَةُ بُعْدٍ، أَيْ: بَعِيدٌ مَا تُوعِدُونَ، عَن قَتَادَة قَالَ: تباعد ذَلِك فِي أنفسهم يَعْنِي الْبَعْث بعد الْمَوْت ، وَقَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ بَعِيدٌ بَعِيدٌ مَا يُوعَدُكُمْ بِهِ مِنَ الْبَعْثِ بَعْدَ أَنْ تَمَزَّقْتُمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا، فَنَظَرُوا نَظَرًا قَاصِرًا، وَرَأَوْا هَذَا بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ قُدَرِهِمْ غَيْرَ مُمْكِنٍ، فَقَاسُوا قُدْرَةَ الْخَالِقِ بِقُدَرِهِمْ، تَعَالَىٰ اللهُ! فَأَنْكَرُوا قُدْرَتَهُ عَلَىٰ إِحْيَاءِ الْمَوْتَىٰ، وَعَجَّزُوهُ غَايَةَ التَّعْجِيزِ، وَنَسُوا خَلْقَهُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَأَنَّ الَّذِي أَنْشَأَهُمْ مِنَ الْعَدَمِ فَإِعَادَتُهُ لَهُمْ بَعْدَ الْبِلَىٰ أَهْوَنُ عَلَيْهِ، وَكِلَاهُمَا هَيِّنٌ لَدَيْهِ، فَلِمَ لَا يُنْكِرُونَ أَوَّلَ خَلْقِهِمْ وَيُكَابِرُونَ الْمَحْسُوسَاتِ، وَيَقُولُونَ إِنَّنَا لَمْ نَزَلْ مَوْجُودِينَ؛ حَتَّىٰ يَسْلَمَ لَهُمْ إِنْكَارُهُمْ لِلْبَعْثِ، وَيَنْتَقِلُوا مَعَهُمْ إِلَىٰ الِاحْتِجَاجِ عَلَىٰ إِثْبَاتِ وُجُودِ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ؟.

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا﴾ (هِيَ) كِنَايَةٌ عَنِ الدُّنْيَا، أَيْ مَا الْحَيَاةُ إِلَّا مَا نَحْنُ فِيهِ لَا الْحَيَاةُ الْآخِرَةُ الَّتِي تَعِدُنَا بَعْدَ الْبَعْثِ، ﴿نَمُوتُ وَنَحْيا﴾ يُقَالُ: كَيْفَ قَالُوا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَهُمْ لَا يُقِرُّونَ بِالْبَعْثِ؟ فَفِي هَذَا أَجْوِبَةٌ، مِنْهَا أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَىٰ: نَكُونُ مَوَاتًا، أَيْ نُطَفًا ثُمَّ نَحْيَا فِي الدُّنْيَا، وَقِيلَ: فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، أَيْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَحْيَا فِيهَا ونموت، كما قال: ﴿ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي﴾ [آل عمران: ٤٣] ، وَقِيلَ: (نَمُوتُ) يَعْنِي الْآبَاءَ، (وَنَحْيا) يَعْنِي الْأَوْلَادَ، ﴿وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أي بعد الموت.

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنْ هُوَ﴾ يَعْنِي الرَّسُولَ، ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَىٰ اللهِ كَذِبًا﴾ أَيْ فِيمَا جَاءَكُمْ بِهِ مِنَ الرسالة وَالْإِخْبَارِ بِالْمَعَادِ، وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ.

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أَيِ اسْتَفْتَحَ عَلَيْهِمُ الرَّسُولُ وَاسْتَنْصَرَ رَبَّهُ عَلَيْهِمْ فَأَجَابَ دُعَاءَهُ.

[٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ أَيْ بِمُخَالَفَتِكَ وَعِنَادِكَ فيما جئتهم به.

[٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ يعني صيحة العذاب، ﴿بِالْحَقِّ﴾ قِيلَ: أَرَادَ بِالصَّيْحَةِ الْهَلَاكَ ، وَقِيلَ: صَاحَ بِهِمْ جِبْرِيلُ صَيْحَةً فَتَصَدَّعَتْ قلوبهم، ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ وَهُوَ مَا يَحْمِلُهُ السَّيْلُ مِنْ حَشِيشٍ وَعِيدَانِ شَجَرٍ، أَيْ صَرْعَىٰ

هَلْكَىٰ كَغُثَاءِ السَّيْلِ وَهُوَ الشَّيْءُ الْحَقِيرُ التَّافِهُ الْهَالِكُ الَّذِي لَا يُنْتَفَعُ بِشَيْءٍ مِنْهُ، ﴿فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ .

[٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أَيْ مِنْ بَعْدِ هَلَاكِ هَؤُلَاءِ، ﴿قُرُونًا﴾ أَيْ أُمَمًا ، ﴿آخَرِينَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَفِي الْكَلَامِ حَذْفٌ: فَكَذَّبُوا أَنْبِيَاءَهُمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ.

[٤٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ أَيْ مَا تَسْبِقُ أُمَّةٌ الْوَقْتَ الْمُؤَقَّتَ لَهَا وَلَا تَتَأَخَّرُهُ، ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ يعني بل يؤخذون علىٰ حَسْبَ مَا قَدَّرَ لَهُمْ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ الْمَحْفُوظِ وَعَلِمَهُ، قَبْلَ كَوْنِهِمْ أُمَّةً بَعْدَ أُمَّةٍ، وجيلاً بعد جيل.

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ يعني: مُتَرَادِفِينَ يَتْبَعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا غَيْرَ مُتَوَاصِلِينَ ؛ لِأَنَّ بَيْنَ كُلِّ نَبِيَّيْنِ زَمَانًا طَوِيلًا وَهِيَ فَعَلَىٰ مِنَ الْمُوَاتَرَةِ، قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: يُقَالُ وَاتَرْتُ الخبر إذا أَتْبَعْتُ بَعْضَهُ بَعْضًا وَبَيْنَ الْخَبَرَيْنِ مهملة. وَأَمَّا التَّعَاقُبُ بِدُونِ فَتْرَةٍ فَهُوَ التَّدَارُكُ. يُقَالُ: جَاءُوا مُتَدَارِكِينَ، أَيْ مُتَتَابِعِينَ. ﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا﴾ بِالْهَلَاكِ، أَيْ: أَهْلَكْنَا بَعْضَهُمْ فِي إثر بعض، وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ عِنْدَ مُسْلِمٍ أَنَّ رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ فَرَأَيْتُ النَّبِيءَ وَمَعَهُ الرَّهْطُ وَالنَّبِيءَ وَمَعَهُ**

الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ وَالنَّبِيءَ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ ... »[1] ، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يعني سَمَرًا وَقَصَصًا يَتَحَدَّثُ مَنْ بَعْدَهُمْ بِأَمْرِهِمْ وَشَأْنِهِمْ، وَهِيَ جَمْعُ أُحْدُوثَةٍ، وَقِيلَ: جَمْعُ حَدِيثٍ ، قَالَ الْأَخْفَشُ: إِنَّمَا هُوَ فِي الشَّرِّ وَأَمَّا فِي الْخَيْرِ ، فَلَا يُقَالُ جَعَلْتُهُمْ أَحَادِيث وَأُحْدُوثَةً إِنَّمَا يُقَالُ صَارَ فُلَانٌ حَدِيثًا، قَالَ الْأَخْفَشُ: إِنَّمَا يُقَالُ هَذَا فِي الشَّرِّ ﴿ جَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ﴾ ، وَلَا يُقَالُ فِي الْخَيْرِ، ﴿فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَيْ هَلَاكًا لَهُمْ. وَقِيلَ بُعْدًا لَهُمْ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ.

[٤٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ بْنَ عِمْرَانَ كَلِيمَ الرَّحْمَنِ ﴿وَأَخَاهُ هَارُونَ﴾ حِينَ سَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يُشْرِكَهُ فِي أَمْرِهِ فَأَجَابَ سُؤْلَهُ ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدَّالَّةِ عَلَىٰ صِدْقِهِمَا وَصِحَّةِ مَا جَاءَا بِهِ ﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أَيْ حُجَّةٍ بَيِّنَةٍ مِنْ قُوَّتِهَا أَنْ تَقْهَرَ الْقُلُوبَ وَتَتَسَلَّطَ عَلَيْهَا لِقُوَّتِهَا فَتَنْقَادَ لَهَا قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ وَتَقُومَ الْحُجَّةُ الْبَيِّنَةُ عَلَىٰ الْمُعَانِدِينَ الْآيَاتُ: الْمُعْجِزَاتُ، وَإِضَافَتُهَا إِلَىٰ ضَمِيرِ الْجَلَالَةِ لِلتَّنْوِيهِ بِهَا وَتَعْظِيمِهَا. وَالسُّلْطَانُ الْمُبِينُ: الْحُجَّةُ الْوَاضِحَةُ الَّتِي لَقَّنَهَا اللهُ مُوسَىٰ فَانْتَهَضَتْ عَلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، وَالْبَاءُ لِلْمُلَابَسَةِ، أَيْ بَعَثْنَاهُ مُلَابِسًا لِلْمُعْجِزَاتِ وَالْحُجَّةِ.

[٤٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا﴾ تَعَظَّمُوا عَنِ الْإِيمَانِ، وَمَلَأُ فِرْعَوْنَ: أَهْلُ مَجْلِسِهِ وَعُلَمَاءُ دِينِهِ وَهُمُ السَّحَرَةُ ، ﴿وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ متكبرين قاهرين بالظلم.

---

(١) البخاري (٥٧٠٥) ومسلم (٢٢٠) .

[٤٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَقَالُوا﴾ يَعْنِي فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ، ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ يَعْنِي: مُوسَىٰ وَهَارُونَ، ﴿وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ مُطِيعُونَ مُتَذَلِّلُونَ وَالْعَرَبُ تُسَمِّي كُلَّ مَنْ دَانَ لِلْمَلِكِ عَابِدًا لَهُ.

[٤٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ﴾ التوراة، ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أَيْ لِكَيْ يَهْتَدِيَ بِهِ قَوْمُهُ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وَأَنْزَلَ عَلَىٰ مُوسَىٰ الْكِتَابَ - وَهُوَ التَّوْرَاةُ - فِيهَا أَحْكَامُهُ وَأَوَامِرُهُ وَنَوَاهِيهِ، وَذَلِكَ بَعْدَمَا قَصَمَ اللهُ فِرْعَوْنَ وَالْقِبْطَ، وَأَخَذَهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ، وَبَعْدَ أَنْ أَنْزَلَ اللهُ التَّوْرَاةَ لَمْ يُهْلِكْ أُمَّةً بِعَامَّةٍ، بَلْ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِقِتَالِ الْكَافِرِينَ.

[٥٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ دَلَالَةً عَلَىٰ قُدْرَتِنَا، وَلَمْ يَقُلْ آيَتَيْنِ، قِيلَ: مَعْنَاهُ شَأْنُهُمَا آيَةٌ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ جَعَلْنَا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا آيَةً، قال قتادة: وَلَدَتْهُ مِنْ غَيْرِ أَبٍ هُوَ لَهُ، وَلِذَلِكَ وُحِّدَتِ الْآيَةُ، ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ الرَّبْوَةُ الْمَكَانُ الْمُرْتَفِعُ مِنَ الْأَرْضِ، وهو أحسن ما يكون فيه النبات، قال ابْنِ عَبَّاسٍ: هِيَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ، ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ أَيْ: مُسْتَوِيَةٍ مُنْبَسِطَةٍ وَاسِعَةٍ يَسْتَقِرُّ عليها ساكنوها. ﴿وَمَعِينٍ﴾ فَالْمَعِينُ الْمَاءُ الْجَارِي الظَّاهِرُ الَّذِي تَرَاهُ الْعُيُونُ، مَنْ عَانَهُ يعنيه إذا أدركه البصر، قَالَ عَلِيُّ بْنُ سُلَيْمَانَ: يُقَالُ مَعَنَ الْمَاءُ إِذَا جَرَىٰ فَهُوَ مَعِينٌ وَمَعْيُونٌ.

[٥١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يا أَيُّهَا الرُّسُلُ﴾ قَالَ الْحَسَنُ البصري وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وجماعة: أراد بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحْدَهُ عَلَىٰ مَذْهَبِ الْعَرَبِ فِي

مُخَاطَبَةِ الْوَاحِدِ بِلَفْظِ الْجَمَاعَةِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَرَادَ بِهِ عِيسَىٰ ، وَقِيلَ: أَرَادَ بِهِ جَمِيعَ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي الحلالات، وقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: أَمَا والله ما أمركم بِأَصْفَرِكُمْ وَلَا أَحْمَرِكُمْ وَلَا حُلْوِكُمْ وَلَا حَامِضِكُمْ، وَلَكِنْ قَالَ: انتَهُوا إِلَىٰ الْحَلَالِ مِنْهُ ، ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ الصَّلَاحُ هُوَ الِاسْتِقَامَةُ عَلَىٰ مَا تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ، ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ ، وقد ثبت من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللهَ طيِّب لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا﴾ ، **وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ،** فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾، وَقَالَ: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، **ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ، ومطعَمُه حرامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِّيَ بالحرام فأنىٰ يستجابه لذلك** »(١).

[٥٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ﴾ أَيْ مِلَّةً وَاحِدَةً وَهِيَ الْإِسْلَامُ؟ ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ أَيْ: اتَّقُونِي لِهَذَا، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ دِينُكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْبِيَاءِ دِينٌ وَاحِدٌ، وَمِلَّةٌ وَاحِدَةٌ، وَهُوَ الدَّعْوَةُ إِلَىٰ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ فاحذروني وَقِيلَ: هُوَ نَصْبٌ بِإِضْمَارِ فِعْلٍ، أَيِ: اعْلَمُوا أَنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أَيْ مِلَّتُكُمْ ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾.

(١) مسلم (١٠١٥) .

[٥٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ﴾ دينهم، وَالتَّقَطُّعُ أَصْلُهُ قَطَّعَ. قال ابن عاشور : وَاسْتُعْمِلَ فِعْلًا مُتَعَدِّيًا بِمَعْنَىٰ قَطَّعَ بِقَصْدِ إِفَادَةِ الشِّدَّةِ فِي حُصُولِ الْفِعْلِ، وَنَظِيرُهُ تَخَوَّفَهُ السَّيْرُ، أَيْ تَنَقَّصَهُ، وَتَجَهَّمَهُ اللَّيْلُ وَتَعَرَّفَهُ الزَّمَنُ، فَالْمَعْنَىٰ: قَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ قِطَعًا كَثِيرَةً، ﴿بَيْنَهُمْ﴾ تفَرَّقُوا فَصَارُوا فِرَقًا يَهُودًا وَنَصَارَىٰ ومجوسًا، ﴿زُبُرًا﴾ أَيْ: فِرَقًا وَقِطَعًا مُخْتَلِفَةً، وَاحِدُهَا زَبُورٌ وَهُوَ الْفِرْقَةُ وَالطَّائِفَةُ، وَمِثْلُهُ الزُّبْرَةُ وَجَمْعُهَا زُبَرٌ، وَمِنْهُ، ﴿زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ [الكهف : ٩٦] أَيْ: صَارُوا فِرَقًا كَزُبَرِ الْحَدِيدِ، وَقِيلَ: جَعَلُوا كُتُبَهُمْ قِطَعًا مُخْتَلِفَةً آمَنُوا بِالْبَعْضِ وَكَفَرُوا بِالْبَعْضِ، وَحَرَّفُوا الْبَعْضَ ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أي: بما عندهم منهم الذين، ﴿فَرِحُونَ﴾ مُعْجَبُونَ وَمَسْرُورُونَ.

[٥٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فِي كُفْرِهِمْ وَضَلَالَتِهِمْ، وَقِيلَ: عَمَايَتِهِمْ، وَقِيلَ: غَفْلَتِهِمْ ، وَالْغَمْرَةُ حَقِيقَتُهَا: الْمَاءُ الَّذِي يَغْمُرُ قَامَةَ الْإِنْسَانِ بِحَيْثُ يُغْرِقُهُ، ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إِلَىٰ أَنْ يَمُوتُوا ، وَذَلِكَ تَمْثِيلٌ لِحَالِ اشْتِغَالِهِمْ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الِازْدِهَارِ وَتَرَفِ الْعَيْشِ عَنِ التَّدَبُّرِ فِيمَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ الرَّسُولُ لِيُنَجِّيهِمْ مِنَ الْعِقَابِ بِحَالِ قَوْمٍ غَمَرَهُمُ الْمَاءُ ، فَأَوْشَكُوا عَلَىٰ الْغَرَقِ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنهم يسبحون.

[٥٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ﴾ مَا نُعْطِيهِمْ وَنَجْعَلُهُ مَدَدًا لَهُمْ مِنَ الْمَالِ وَالْبَنِينَ فِي الدُّنْيَا.

[٥٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي: نجعل لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ وَنُقَدِّمُهَا ثَوَابًا لِأَعْمَالِهِمْ لِمَرْضَاتِنَا عَنْهُمْ، ﴿بَل لَا يَشْعُرُونَ﴾ أَنَّ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجٌ لَهُمْ. ثُمَّ ذَكَرَ الْمُسَارِعِينَ فِي الْخَيْرَاتِ فَقَالَ:

[٥٧] : ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ أَيْ: خَائِفُونَ، وَالْإِشْفَاقُ: الْخَوْفُ وَالْمَعْنَىٰ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ خَائِفُونَ مِنْ عِقَابِهِ، قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: الْمُؤْمِنُ مَنْ جَمَعَ إِحْسَانًا وَخَشْيَةً وَالْمُنَافِقُ مَنْ جَمَعَ إِسَاءَةً وَأَمْنًا.

[٥٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ يُصَدِّقُونَ أَيْ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِهِ الْكَوْنِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ.

[٥٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ أَيْ لَا يعبدون معه غيره بل يوحدنه ويعلمون أنه لا إله إلا الله، وحده لا شريك له.

[٦٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ أَيْ: يُعْطُونَ مَا أُعْطُوا مِنَ الزَّكَاةِ وَالصَّدَقَاتِ، وَرُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ أنها كانت تقرأ ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ أَيْ: يَعْمَلُونَ مَا عَمِلُوا مِنْ أعمال البر، ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أَنَّ ذَلِكَ لَا يُنْجِيهِمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ وَأَنَّ أَعْمَالَهُمْ لَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ، وَالْوَجَلُ خَوْفٌ مَعَ فَزَعٍ فَيَكُونُ لِاسْتِعْظَامِ الْمَوْجُولِ مِنْهُ. ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ لِأَنَّهُمْ يُوقِنُونَ أَنَّهُمْ يَرْجِعُونَ إِلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ الْحَسَنُ البصري: عَمِلُوا لِلَّهِ بِالطَّاعَاتِ وَاجْتَهَدُوا فِيهَا، وخافوا أن ترد عليهم ، وفي الحديث عَنْ أم المؤمنين عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ:

«قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أَهْوَ الَّذِي يَزْنِي وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُ؟ قَالَ: **لا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ! وَلَكِنَّهُ الَّذِي يُصَلِّي وَيَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ وَهُمْ يخافون ألا يتقبل منهم**»[1] .

[٦١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ يُبَادِرُونَ إِلَىٰ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ، ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ أَيْ: إِلَيْهَا سَابِقُونَ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللهِ السَّعَادَةُ ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: سبقوا الأمم في الخيرات، قال القرطبي : أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِيهِ: أَنَّهُمْ يَسْبِقُونَ إِلَىٰ أَوْقَاتِهَا. وَدَلَّ بِهَذَا أَنَّ الصَّلَاةَ فِي أَوَّلِ الْوَقْتِ أَفْضَلُ.

[٦٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أَيْ: طَاقَتَهَا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعِ الْقِيَامَ فَلْيُصَلِّ قَاعِدًا وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعِ الصَّوْمَ فَلْيُفْطِرْ، قال السعدي : أَيْ: بِقَدْرِ مَا تَسَعُهُ، وَيَفْضُلُ مِنْ قُوَّتِهَا عَنْهُ، لَيْسَ مِمَّا يَسْتَوْعِبُ قُوَّتَهَا، رَحْمَةً مِنْهُ وَحِكْمَةً، لِتَيْسِيرِ طَرِيقِ الْوُصُولِ إِلَيْهِ، وَلِتُعْمَرَ جَادَّةُ السَّالِكِينَ فِي كُلِّ وَقْتٍ إِلَيْهِ ، ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ وَهُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ يُبَيِّنُ بِالصِّدْقِ، وَمَعْنَىٰ الْآيَةِ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا إِلَّا مَا أَطَاقَتْ مِنَ الْعَمَلِ، وَقَدْ أَثْبَتْنَا عَمَلَهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، فَهُوَ يَنْطِقُ بِهِ وَيُبَيِّنُهُ ، وَقِيلَ: هُوَ كَتْبُ أَعْمَالِ

---

(١) الترمذي (٣١٧٥) وابن ماجه (٤١٩٨) .

الْعِبَادِ الَّتِي تَكْتُبُهَا الْحَفَظَةُ، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ وَلَا يُزَادُ عَلَىٰ سَيِّئَاتِهِمْ ، ثُمَّ ذَكَرَ الْكُفَّارَ فَقَالَ:

[٦٣] : ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ أَيْ: فِي غَفْلَةٍ وَجَهَالَةٍ، وَيُقَالُ: غَمَرَهُ الْمَاءُ إِذَا غَطَّاهُ ، وَنَهْرٌ غَمْرٌ يُغَطِّي مَنْ دَخَلَهُ ، ﴿مِنْ هَذَا﴾ أَيْ: مِنَ الْقُرْآنِ ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ أَيْ: لِلْكُفَّارِ أَعْمَالٌ خَبِيثَةٌ مِنَ المعاصي، والخطايا محكومة عليهما مِنْ دُونِ ذَلِكَ، يَعْنِي مِنْ دُونِ أَعْمَالِ الْمُؤْمِنِينَ الَّتِي ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَىٰ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ ، قوله : ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ أَنْ يَعْمَلُوهَا فَيَدْخُلُوا بِهَا النَّارَ لِمَا سَبَقَ لَهُمْ مِنَ الشَّقَاوَةِ، هَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ ، وَقَالَ قَتَادَةُ: هَذَا يَنْصَرِفُ إِلَىٰ الْمُسْلِمِينَ وَأَنَّ لَهُمْ أَعْمَالًا سِوَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَ الْخَيْرَاتِ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ، وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ.

[٦٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ﴾ أَيْ: أَخَذْنَا أَغْنِيَاءَهُمْ وَرُؤَسَاءَهُمْ، ﴿بِالْعَذَابِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ السَّيْفُ يَوْمَ بَدْرٍ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: يَعْنِي الْجُوعَ حِينَ دَعَا عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَىٰ مُضَرَ، وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِيِّ يُوسُفَ**» فَابْتَلَاهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْقَحْطِ حَتَّىٰ أَكَلُوا الْكِلَابَ وَالْجِيَفَ ، ﴿إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ يجزعون وَيَسْتَغِيثُونَ وَأَصْلُ الْجُؤَارِ رَفْعُ الصَّوْتِ بِالتَّضَرُّعِ كَمَا يَفْعَلُ الثَّوْرُ، قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: الْجُؤَارُ مِثْلُ الْخُوَارِ، يُقَالُ: جَأَرَ الثَّوْرُ يَجْأَرُ أَيْ صَاحَ.

[٦٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ﴾ أَيْ لَا تَضِجُّوا، ﴿إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ﴾ لَا تُمْنَعُونَ مَنَّا وَلَا يَنْفَعُكُمْ تَضَرُّعُكُمْ.

[٦٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ، ﴿فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ﴾ تَرْجِعُونَ وَرَاءَكُمْ ، قال مُجَاهِدٌ: تَسْتَأْخِرُونَ، وَأَصْلُهُ أَنْ تَرْجِعَ الْقَهْقَرَىٰ.

[٦٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ أَيْ: مُسْتَكْبِرِينَ مُتَعَظِّمِينَ بِالْبَيْتِ الْحَرَامِ وَتَعَظُّمُهُمْ بِهِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ: نَحْنُ أَهْلُ حَرَمِ اللهِ وَجِيرَانُ بَيْتِهِ فَلَا يَظْهَرُ عَلَيْنَا أَحَدٌ وَلَا نَخَافُ أَحَدًا فَيَأْمَنُونَ فِيهِ وَسَائِرُ النَّاسِ فِي الْخَوْفِ، وَقِيلَ: مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ أَيْ بِالْقُرْآنِ فَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ ، وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ، الْمُرَادُ مِنْهُ الحرم، ﴿سَامِرًا﴾ أَيْ أَنَّهُمْ يسهرون بِاللَّيْلِ فِي مَجَالِسِهِمْ حَوْلَ الْبَيْتِ، وَوَحَّدَ سَامِرًا وَهُوَ بِمَعْنَىٰ السُّمَّارِ لِأَنَّهُ وُضِعَ مَوْضِعَ الْوَقْتِ، أَرَادَ تهجرون ليلاً ، ﴿تَهْجُرُونَ﴾ أَيْ: تُعْرِضُونَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَنِ الْإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ، وَتَرْفُضُونَهَا، وَقِيلَ: هُوَ مِنَ الْهَجْرِ وَهُوَ الْقَوْلُ الْقَبِيحُ، يُقَالُ: هَجَرَ يَهْجُرُ هَجْرًا إِذَا قَالَ غَيْرَ الْحَقِّ، وقيل: تهزؤون وَتَقُولُونَ مَا لَا تَعْلَمُونَ، مِنْ قَوْلِهِمْ هَجَرَ الرَّجُلُ فِي مَنَامِهِ إذا هذىٰ.

[٦٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا﴾ يعني يتدبروا **وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ:" أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ** ﴿الْقَوْلَ﴾ يَعْنِي مَا جَاءَهُمْ مِنَ الْقَوْلِ وَهُوَ الْقُرْآنُ، فَيَعْرِفُوا مَا فِيهِ مِنَ الدَّلَالَاتِ عَلَىٰ صِدْقِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ

آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ فَأَنْكَرُوا، يُرِيدُ إِنَّا قَدْ بَعَثْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ كَذَلِكَ بَعَثْنَا مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ، وَقِيلَ: (أَمْ) بِمَعْنَىٰ بَلْ يَعْنِي جَاءَهُمْ مَا لم يأت أبائهم الْأَوَّلِينَ فَلِذَلِكَ أَنْكَرُوا.

[٦٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَلَيْسَ قَدْ عَرَفُوا مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَغِيرًا وَكَبِيرًا وَعَرَفُوا نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَوَفَاءَهُ بِالْعُهُودِ، وَهَذَا علىٰ سبيل التوبيخ عَلَىٰ الْإِعْرَاضِ عَنْهُ بَعْدَمَا عَرَفُوهُ بِالصِّدْقِ وَالْأَمَانَةِ.

[٧٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ جُنُونٌ وَلَيْسَ كَذَلِكَ ﴿بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ يَعْنِي بِالصِّدْقِ وَالْقَوْلِ الَّذِي لَا تَخْفَىٰ صِحَّتُهُ وَحُسْنُهُ عَلَىٰ عَاقِلٍ، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾.

[٧١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾ قَالَ جماعة: الْحَقُّ هُوَ اللهُ أَيْ لَوِ اتَّبَعَ اللهُ مُرَادَهُمْ فِيمَا يَفْعَلُ، وَقِيلَ: لَوِ اتَّبَعَ مُرَادَهُمْ، فَسَمَّىٰ لِنَفْسِهِ شَرِيكًا وَوَلَدًا كَمَا يقولون: ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾، وَقَالَ الْفَرَّاءُ وَالزَّجَّاجُ: وَالْمُرَادُ بِالْحَقِّ الْقُرْآنُ، أَيْ لَوْ نَزَلَ الْقُرْآنُ بِمَا يُحِبُّونَ مِنْ جَعْلِ الشَّرِيكِ وَالْوَلَدِ عَلَىٰ مَا يَعْتَقِدُونَهُ ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ أي لفساد أهوائهم واختلافهم، ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾ بِمَا يُذَكِّرُهُمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ بِمَا فِيهِ فَخْرُهُمْ وَشَرَفُهُمْ يَعْنِي الْقُرْآنَ، فَهُوَ كَقَوْلِهِ تعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠] أَيْ: شَرَفُكُمْ ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾

[الزُّخْرُفِ: ٤٤] أَيْ شَرَفٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ، ﴿فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ﴾ يعني عن شرفهم ﴿مُعْرِضُونَ﴾ .

[٧٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾ عَلَىٰ مَا جِئْتَهُمْ بِهِ، ﴿خَرْجًا﴾ أَجْرًا وراتبًا، وَالْخَرْجُ: الْعَطَاءُ الْمُعَيَّنُ عَلَى الذَّوَاتِ أَوْ عَلَىٰ الْأَرَضِينَ كَالْإِتَاوَةِ ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ يعني مَا يُعْطِيكَ اللهُ مِنْ رِزْقِهِ وَثَوَابِهِ خَيْرٌ، وَالْخَرْجُ وَالْخَرَاجُ وَاحِدٌ، إِلَّا أَنَّ اخْتِلَافَ الْكَلَامِ أَحْسَنُ، قَالَهُ الْأَخْفَشُ ، وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ: الْخَرْجُ الْجُعْلُ، وَالْخَرَاجُ الْعَطَاءُ ، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أَيْ لَيْسَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَرْزُقَ مِثْلَ رِزْقِهِ، وَلَا يُنْعِمَ مِثْلَ إِنْعَامِهِ. وَقِيلَ: أَيْ مَا يُؤْتِيكَ اللهُ مِنَ الْأَجْرِ عَلَىٰ طَاعَتِكَ لَهُ وَالدُّعَاءِ إِلَيْهِ خَيْرٌ مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا، وَقَدْ عَرَضُوا عَلَيْكَ أَمْوَالَهُمْ حَتَّىٰ تَكُونَ كَأَغْنَىٰ رَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ فَلَمْ تُجِبْهُمْ إِلَىٰ ذَلِكَ.

[٧٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وَهُوَ الْإِسْلَامُ، وَالصِّرَاطُ فِي اللُّغَةِ الطَّرِيقُ، فَسُمِّيَ الدِّينُ طَرِيقًا لِأَنَّهُ يُؤَدِّي إِلَىٰ الْجَنَّةِ فَهُوَ طَرِيقٌ إِلَيْهَا.

[٧٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ﴾ أَيْ عَنْ دِينِ الْحَقِّ، ﴿لَنَاكِبُونَ﴾ لعادلون مائلون، وَقِيلَ: إِنَّهُمْ عَنْ طَرِيقِ الْجَنَّةِ لَنَاكِبُونَ حَتَّىٰ يَصِيرُوا إِلَىٰ النَّارِ ، نَكَبَ عَنِ الطَّرِيقِ يَنْكُبُ نُكُوبًا إِذَا عَدَلَ عَنْهُ وَمَالَ إِلَىٰ غَيْرِهِ، وَمِنْهُ نَكَبَتِ الرِّيحُ إِذَا لَمْ تَسْتَقِمْ عَلَىٰ مَجْرَىٰ ، وَشَرُّ الرِّيحِ النَّكْبَاءُ.

[٧٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ﴾ قحط وجدوبة أَيْ لَوْ رَدَدْنَاهُمْ إِلَىٰ الدُّنْيَا وَلَمْ نُدْخِلْهُمُ النَّارَ وَامْتَحَنَّاهُمْ ﴿لَلَجُّوا﴾ تمادوا، والانسان اللَّجَاجُ: هو المستمر عَلَىٰ الْخِصَامِ وَعَدَمُ الْإِقْلَاعِ عَنْه ، ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وَلَمْ يُنْزَعُوا عَنْهُ، وَالْعَمَهُ: التَّرَدُّدُ فِي الضَّلَالَةِ، وقال ابْنُ جُرَيْجٍ: ﴿وَلَوْ رَحِمْناهُمْ﴾ يَعْنِي فِي الدُّنْيَا، ﴿وَكَشَفْنا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ﴾ أَيْ مِنْ قَحْطٍ وَجُوعٍ ﴿لَلَجُّوا﴾ أَيْ لَتَمَادَوْا ﴿فِي طُغْيانِهِمْ﴾ وضلالتهم وتجاوزهم الحد ﴿يَعْمَهُونَ﴾ لتمادوا في ضلالتهم.

[٧٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ: بِالْجُوعِ. وَقِيلَ: بِالْأَمْرَاضِ وَالْحَاجَةِ وَالْجُوعِ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَا عَلَىٰ قُرَيْشٍ أَنْ يَجْعَلَ عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِيِّ ، يُوسُفَ فَأَصَابَهُمُ الْقَحْطُ، فَجَاءَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: أَنْشُدُكَ اللهَ وَالرَّحِمَ، أَلَسْتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ بُعِثْتَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ؟ فَقَالَ: بَلَىٰ، فَقَالَ: قَدْ قَتَلْتَ الْآبَاءَ بِالسَّيْفِ وَالْأَبْنَاءَ بِالْجُوعِ فَادْعُ اللهَ أَنَّ يَكْشِفَ عَنَّا هَذَا الْقَحْطَ، فَدَعَا فَكَشَفَ عَنْهُمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ فِي قِصَّةِ ثُمَامَةَ بْنِ أَثَالٍ لَمَّا أَسَرَتْهُ السَّرِيَّةُ وَأَسْلَمَ وَخَلَّىٰ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبِيلَهُ، حَالَ بَيْنَ مَكَّةَ وَبَيْنَ الْمِيرَةِ ، وَقَالَ: وَاللهِ لَا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ حَتَّىٰ يَأْذَنَ فِيهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَخَذَ اللهُ قُرَيْشًا بِالْقَحْطِ وَالْجُوعِ حَتَّىٰ أَكَلُوا الْمَيْتَةَ وَالْكِلَابَ وَالْعِلْهِزَ، قِيلَ: وَمَا الْعِلْهِزُ؟ قَالَ: كَانُوا يَأْخُذُونَ الصُّوفَ وَالْوَبَرَ فَيَبُلُّونَهُ بِالدَّمِ ثُمَّ يَشْوُونَهُ

وَيَأْكُلُونَهُ، ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أَيْ: مَا خَضَعُوا وَمَا ذَلُّوا لِرَبِّهِمْ، وَأَصْلُهُ طَلَبُ السُّكُونِ، ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أَيْ: لَمْ يَتَضَرَّعُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ بَلْ مَضَوْا عَلَىٰ تَمَرُّدِهِمْ.

[٧٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي الْقَتْلَ يَوْمَ بَدْرٍ وَهُوَ قَوْلُ مُجَاهِدٍ، وَقِيلَ: هُوَ الْمَوْتُ، وَقِيلَ: هُوَ قِيَامُ السَّاعَةِ؟ ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي يأيسون متحيرون لا يدرون ما يصنعون آيِسُونَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ.

[٧٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ﴾ أَيْ: أَنْشَأَ لَكُمُ الْأَسْمَاعَ ﴿وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ لِتَسْمَعُوا وَتُبْصِرُوا وَتَعْقِلُوا، ﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ أَيْ: لَمْ تَشْكُرُوا هَذِهِ النِّعَمَ.

[٧٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ﴾ خَلَقَكُمْ، قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: بَثَّكُمْ فِي أَقْطَارِهَا، وَجِهَاتِهَا، وَسَلَّطَكُمْ عَلَىٰ اسْتِخْرَاجِ مَصَالِحِهَا وَمَنَافِعِهَا، وَجَعَلَهَا كَافِيَةً لِمَعَايِشِكُمْ وَمَسَاكِنِكُمْ ﴿فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ تُبْعَثُونَ.

[٨٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أَيْ: تَدْبِيرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فِي الزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ، قَالَ الْفَرَّاءُ: جَعَلَهُمَا مُخْتَلِفَيْنِ يَتَعَاقَبَانِ وَيَخْتَلِفَانِ فِي السَّوَادِ والبياض، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ مَا تَرَوْنَ مِنْ صَنْعَةٍ فَتَعْتَبِرُونَ، وَأَنَّهُ تعالىٰ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ الْبَعْثِ.

[٨١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ أَيْ: كَذَّبُوا كَمَا كَذَّبَ الْأَوَّلُونَ.

[٨٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ لَمَحْشُورُونَ، قَالُوا ذَلِكَ عَلَىٰ طَرِيقِ الإنكار في التعجب.

[٨٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا﴾ الوعد، ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي: وعد أباءنا قوم زعموا أنهم رسل اللهِ فَلَمْ نَرَ لَهُ حَقِيقَةً، وقيل: مِنْ قَبْلِ مَجِيءِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمْ نَرَلَهُ حَقِيقَةً، ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أَكَاذِيبُ الْأَوَّلِينَ، أَيْ: قَصَصُهُمْ وَأَسْمَارُهُمْ، الَّتِي يُتَحَدَّثُ بِهَا وَتُلَهَّىٰ، وَإِلَّا فَلَيْسَ لَهَا حَقِيقَةٌ.

[٨٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ مُجِيبًا لَهُمْ يَعْنِي أَهْلَ مَكَّةَ، ﴿لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾ مِنَ الْخَلْقِ، ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ خالقها ومالكها. يُخْبِرُ بِرُبُوبِيَّتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَمُلْكِهِ الَّذِي لَا يَزُولُ، وَقُدْرَتِهِ الَّتِي لَا تُحَوَّلُ.

[٨٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ وَلَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يُقِرُّونَ أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ، ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ إِذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ، وَلَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فَتَعْلَمُونَ أَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَىٰ خَلْقِ الْأَرْضِ وَمَنْ فِيهَا ابْتِدَاءً يَقْدِرُ عَلَىٰ إِحْيَائِهِمْ بَعْدَ الْمَوْتِ.

[٨٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ﴾ وَمَا فِيهَا مِنَ النَّيِّرَاتِ، وَالْكَوَاكِبِ السَّيَّارَاتِ، وَالثَّوَابِتِ ﴿وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الَّذِي هُوَ أَعْلَىٰ

الْمَخْلُوقَاتِ وَأَوْسَعُهَا وَأَعْظَمُهَا، فَمَنْ الَّذِي خَلَقَ ذَلِكَ وَدَبَّرَهُ، وَصَرَّفَهُ بِأَنْوَاعِ التَّدْبِيرِ؟:

[٨٧] : ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أَيْ: سَيُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ رَبُّ ذَلِكَ كُلِّهِ. قُلْ لَهُمْ حِينَ يُقِرُّونَ بِذَلِكَ: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عِبَادَةَ الْمَخْلُوقَاتِ الْعَاجِزَةِ، وَتَتَّقُونَ الرَّبَّ الْعَظِيمَ، كَامِلَ الْقُدْرَةِ، عَظِيمَ السُّلْطَانِ .

[٨٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الْمَلَكُوتُ الْمُلْكُ وَالتَّاءُ فِيهِ لِلْمُبَالَغَةِ، ما نبصره، وما لا نبصره؟ و(الملكوت) بصيغة مبالغة بمعنىٰ الملك. ﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ أَيْ: يُؤَمِّنُ مَنْ يَشَاءُ من عباده من الشر، ويدفع عنهم المكاره، ويحفظهم مما يضرهم، ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أَيْ: لَا يُؤَمَّنُ مَنْ أَخَافَهُ اللهُ أَوْ يَمْنَعُ هُوَ مِنَ السُّوءِ مَنْ يَشَاءُ وَلَا يَمْنَعُ مِنْهُ مَنْ أَرَادَهُ بِسُوءٍ ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ أَجِيبُوا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

[٨٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ أَيْ: تُخْدَعُونَ وَتُصْرَفُونَ عَنْ تَوْحِيدِهِ وَطَاعَتِهِ، وَالْمَعْنَىٰ: فَأَيْنَ تَذْهَبُ عُقُولُكُمْ، حَيْثُ عَبَدْتُمْ مَنْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُمْ لَا مُلْكَ لَهُمْ، وَلَا قِسْطَ مِنَ الْمُلْكِ، وَأَنَّهُمْ عَاجِزُونَ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، وَتَرَكْتُمُ الْإِخْلَاصَ لِلْمَالِكِ الْعَظِيمِ الْقَادِرِ الْمُدَبِّرِ لِجَمِيعِ الْأُمُورِ.

[٩٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ﴾ أَيْ بِالْقَوْلِ الصِّدْقِ، لَا مَا تَقُولُهُ الْكُفَّارُ مِنْ إِثْبَاتِ الشَّرِيكِ وَنَفْيِ الْبَعْثِ ، وَهُوَ الْإِعْلَامُ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَقَمْنَا

الْأَدِلَّةَ الصَّحِيحَةَ الْوَاضِحَةَ الْقَاطِعَةَ عَلَىٰ ذَلِكَ، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما يدعون من الشريك والولد ، وفِي عِبَادَتِهِمْ مَعَ اللهِ غَيْرَهُ وَلَا دَلِيلَ لَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ.

[٩١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ أَيْ: مِنْ شَرِيكٍ، ﴿إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ أَيْ: تَفَرَّدَ بِمَا خَلَقَهُ فَلَمْ يَرْضَ أَنْ يُضَافَ خَلْقُهُ وَإِنْعَامُهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ، وَمَنَعَ الْإِلَهَ الْآخَرَ عن الِاسْتِيلَاءِ عَلَىٰ مَا خَلَقَ ، ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أَيْ وَلَغَالَبَ وَطَلَبَ الْقَوِيُّ الضَّعِيفَ كَالْعَادَةِ بَيْنَ الْمُلُوكِ، وَكَانَ الضَّعِيفُ الْمَغْلُوبُ لَا يَسْتَحِقُّ الْإِلَهِيَّةَ، وَهَذَا الَّذِي يَدُلُّ عَلَىٰ نَفْيِ الشَّرِيكِ يَدُلُّ عَلَىٰ نَفْيِ الْوَلَدِ أَيْضًا، لِأَنَّ الْوَلَدَ يُنَازِعُ الأب في الملك منازعة الشريك. ثُمَّ نَزَّهَ نَفْسَهُ فَقَالَ: ﴿سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أَيْ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ الْمُعْتَدُونَ فِي دَعْوَاهُمُ الْوَلَدَ أَوِ الشَّرِيكَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

[٩٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ أَيْ: الَّذِي غَابَ عَنْ أَبْصَارِنَا وَعِلْمِنَا، مِنَ الْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحِيلَاتِ وَالْمُمْكِنَاتِ، ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ وَهُوَ مَا نُشَاهِدُ مِنْ ذَلِكَ، ﴿فَتَعَالَىٰ﴾ أَيْ: ارْتَفَعَ وَتَنَزَّهَ ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بِهِ، مَنْ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ، إِلَّا مَا عَلَّمَهُ اللهُ

[٩٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي﴾ أَيْ: إِنْ أَرَيْتَنِي، ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ أَيْ: مَا أَوْعَدْتَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ، قال القرطبي : عَلَّمَهُ مَا يَدْعُو بِهِ عليه الصلاة والسلام، أَيْ قُلْ رَبِّ، أَيْ يَا رَبِّ إِنْ أَرَيْتَنِي مَا يُوعَدُونَ مِنَ الْعَذَابِ.

[٩٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿رَبِّ﴾ أَيْ: يَا رَبِّ، ﴿فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أَيْ: لَا تُهْلِكْنِي بِهَلَاكِهِمْ. وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَعْلَمُ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَا يَجْعَلُهُ فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ إِذَا نَزَلَ بِهِمُ الْعَذَابُ، وَمَعَ هَذَا أَمَرَهُ الرَّبُّ بِهَذَا الدُّعَاءِ وَالسُّؤَالِ لِيُعْظِمَ أَجْرَهُ وَلِيَكُونَ فِي كل الأوقات ذاكرا لربه تعالىٰ.

[٩٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب لهم، ﴿لَقَادِرُونَ﴾ أَيْ لَوْ شِئْنَا لَأَرَيْنَاكَ مَا نُحِلُّ بِهِمْ من النقم والبلاء والمحن.

[٩٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أَيْ: ادْفَعْ بِالْخَلَّةِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ هِيَ الصَّفْحُ وَالْإِعْرَاضُ وَالصَّبْرُ، ﴿السَّيِّئَةَ﴾ يَعْنِي أَذَاهُمْ، أَمَرَهُمْ بِالصَّبْرِ عَلَىٰ أَذَىٰ الْمُشْرِكِينَ وَالْكَفِّ عَنِ الْمُقَاتَلَةِ، نَسَخَتْهَا آيَةُ السَّيْفِ، ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ يَكْذِبُونَ وَيَقُولُونَ مِنَ الشِّرْكِ.

[٩٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ﴾ أَيْ: أَمْتَنِعُ وَأَعْتَصِمُ بِكَ، ﴿مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَزَعَاتُهُمْ ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: وَسَاوِسُهُمْ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: نَفْخُهُمْ وَنَفْثُهُمْ ، وفي الحديث الصحيح: «**أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ من همزة ونفخه ونفثه**»[1] ، وَقَالَ أَهْلُ الْمَعَانِي: دَفْعُهُمْ بِالْإِغْوَاءِ إِلَىٰ الْمَعَاصِي، وَأَصْلُ الْهَمْزِ شِدَّةُ الدَّفْعِ.

---

(١) أبو داود (٧٧٥).

[٩٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ فِي شَيْءٍ مِنْ أُمُورِي، وَإِنَّمَا ذَكَرَ الْحُضُورَ لِأَنَّ الشَّيْطَانَ إِذَا حَضَرَهُ يُوَسْوِسُهُ ، لِهَذَا أَمَرَ بِذِكْرِ اللهِ فِي ابتداء الأمور، وذلك لطرد الشيطان عِنْدَ الْأَكْلِ وَالْجِمَاعِ وَالذَّبْحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأمور، ولهذا رُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسلم كَانَ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَرَمِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَدْمِ، وَمِنَ الْغَرَقِ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ يَتَخَبَّطَنِي الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَوْتِ**»(١)، عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَلِّمُنَا كَلِمَاتٍ يَقُولُهُنَّ عِنْدَ النَّوْمِ من الفزع: «**باسم اللهِ، أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ وَمِنْ شَرِّ عِبَادِهِ وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ**»(٢) ، قَالَ: فَكَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو يُعَلِّمُهَا مَنْ بَلَغَ مِنْ وَلَدِهِ أَنْ يَقُولَهَا عِنْدَ نَوْمِهِ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ صَغِيرًا لَا يَعْقِلُ أَنْ يَحْفَظَهَا كَتَبَهَا لَهُ فَعَلَّقَهَا فِي عُنُقِهِ. ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارَ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ الْبَعْثَ يَسْأَلُونَ الرَّجْعَةَ إِلَىٰ الدُّنْيَا عِنْدَ مُعَايَنَةِ الْمَوْتِ.

[٩٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ وَلَمْ يَقِلِ ارْجِعْنِي وَهُوَ يَسْأَلُ اللهَ وَحْدَهُ الرَّجْعَةَ عَلَىٰ عَادَةِ الْعَرَبِ فَإِنَّهُمْ يُخَاطِبُونَ الْوَاحِدَ بِلَفْظِ الْجَمْعِ عَلَىٰ وَجهِ التَّعْظِيمِ كَمَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْ نَفْسِهِ فَقَالَ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ وَمِثْلُهُ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ ، وَقِيلَ: هَذَا الْخِطَابُ

---

(١) أبو داود (١٥٥٢) .

(٢) أحمد (٦٦٩٦) والترمذي (٣٥٢٨) .

مَعَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ يَقْبِضُونَ رَوْحَهُ ابْتِدَاءً بِخِطَابِ اللهِ لِأَنَّهُمُ اسْتَغَاثُوا بِاللهِ أَوَّلًا ثُمَّ رَجَعُوا إِلَىٰ مَسْأَلَةِ الْمَلَائِكَةِ الرُّجُوعَ إِلَىٰ الدُّنْيَا.

[١٠٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ أَيْ: ضَيَّعْتُ أَنْ أَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَقِيلَ: أَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللهِ، قَالَ قَتَادَةُ: مَا تَمَنَّىٰ أَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَعَشِيرَتِهِ وَلَا لِيَجْمَعَ الدُّنْيَا وَيَقْضِيَ الشَّهَوَاتِ، وَلَكِنْ تَمَنَّىٰ أَنْ يَرْجِعَ فَيَعْمَلَ بِطَاعَةِ اللهِ، فَرَحِمَ اللهُ امرءًا أعمل فِيمَا يَتَمَنَّاهُ الْكَافِرُ إِذَا رَأَىٰ العذاب ﴿كَلَّا﴾ كَلِمَةُ رَدْعٍ وَزَجْرٍ، أَيْ: لَا يرجع إليها، ﴿إِنَّهَا﴾ يَعْنِي: سُؤَالَهُ الرَّجْعَةَ، ﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ وَلَا يَنَالُهَا، وكان العلاء بن زياد يقول: لينزلن أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ أَنَّهُ قَدْ حَضَرَهُ الْمَوْتُ فَاسْتَقَالَ ربه فأقاله فليعمل بطاعة الله تعالىٰ ، ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ﴾ أَيْ أَمَامَهُمْ وَبَيْنَ أَيْدِيهِمْ حَاجِزٌ، وَالْبَرْزَخُ الْحَاجِزُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ، وَاخْتَلَفُوا فِي معناه ههنا، فَقَالَ مُجَاهِدٌ: حِجَابٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الرُّجُوعِ إِلَىٰ الدُّنْيَا، وَقَالَ قَتَادَةُ: بَقِيَّةُ الدُّنْيَا، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: الْبَرْزَخُ مَا بَيْنَ الْمَوْتِ إِلَىٰ الْبَعْثِ، وَقَالَ أَبُو صَخْرٍ: الْبَرْزَخُ الْمَقَابِرُ لَا هُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَا هُمْ فِي الْآخِرَةِ فَهُمْ مقيمون إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ، وَقِيلَ: هُوَ الْقَبْرُ وَهُمْ فِيهِ إِلَىٰ يَوْمِ القيامة قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أَيْ يَسْتَمِرُّ بِهِ الْعَذَابُ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «**فَلَا يَزَالُ مُعَذَّبًا فِيهَا**» أَيْ فِي الْأَرْضِ.

[١٠١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ اخْتَلَفُوا فِي هَذِهِ النَّفْخَةِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهَا النَّفْخَةُ الْأُولَىٰ ، وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: أَنَّهَا النَّفْخَةُ

الثَّانِيَةُ، قَالَ: يُؤْخَذُ بِيَدِ الْعَبْدِ وَالْأَمَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُنْصَبُ عَلَىٰ رؤوس الْأَوَّلِينَ وَالْآخَرِينَ ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ: هذا فلان بن فُلَانٍ فَمَنْ كَانَ لَهُ قَبْلَهُ حَقٌّ فَلْيَأْتِ إِلَىٰ حَقِّهِ فَيَفْرَحُ الْمَرْءُ أَنْ يَكُونُ لَهُ الْحَقُّ علىٰ والده وولده وزوجته أَوْ أَخِيهِ فَيَأْخُذُ مِنْهُ، ثُمَّ قَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ وَفِي رِوَايَةٍ أخرىٰ عن ابْنِ مسعود: أَنَّهَا الثَّانِيَةُ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ أَيْ: لَا يَتَفَاخَرُونَ بِالْأَنْسَابِ يَوْمَئِذٍ كَمَا كَانُوا يَتَفَاخَرُونَ فِي الدُّنْيَا وَلَا يَتَسَاءَلُونَ سُؤَالَ تَوَاصُلٍ كَمَا كَانُوا يَتَسَاءَلُونَ فِي الدُّنْيَا، مَنْ أَنْتَ وَمِنْ أَيِّ قَبِيلَةٍ أَنْتَ؟ وَلَمْ يرِدْ أَنَّ الْأَنْسَابَ تَنْقَطِعُ. فإن قيل: قد قال ههنا ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي لا تنفع الإنسان يومئذٍ قرابة وَلَا يَرْثِي وَالِدٌ لِوَلَدِهِ وَلَا يَلْوِي عَلَيْهِ، قال ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: إِنَّ لِلْقِيَامَةِ أَحْوَالًا وَمُوَاطِنَ فَفِي مَوْطِنٍ يَشْتَدُّ عَلَيْهِمُ الْخَوْفُ فَيَشْغَلُهُمْ عِظَمُ الْأَمْرِ عَنِ التَّسَاؤُلِ فَلَا يَتَسَاءَلُونَ، وَفِي مَوْطِنٍ يفيقون إفاقة فيتساءلون.

[١٠٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ أَيْ مَنْ رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَىٰ سَيِّئَاتِهِ وَلَوْ بِوَاحِدَةٍ، قال ابْنُ عَبَّاسٍ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أَيِ الَّذِينَ فازوا فنجوا من النار وأدخلوا الجنة.

[١٠٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾: أَيْ ثَقُلَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَىٰ حَسَنَاتِهِ ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أَيْ خَابُوا وهلكوا وباءوا بالصفقة الخاسرة.

[١٠٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ أَيْ:تحرق ، وَاللَّفْحُ: شِدَّةُ إِصَابَةِ النَّارِ يُقَالُ: لَفَحَتْهُ النَّارُ وَالسَّمُومُ بِحَرِّهَا أَحْرَقَتْهُ. وَلَفَحْتُهُ بِالسَّيْفِ لَفْحَةً

إذا ضربته به ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عَابِسُونَ، وَقَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: الْكُلُوحُ تَكَشُّرٌ فِي عُبُوسٍ، وَالْكَالِحُ: الَّذِي قَدْ تَشَمَّرَتْ شَفَتَاهُ وَبَدَتْ أسنانه.

[١٠٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ تُخَوَّفُونَ بِهَا، ﴿فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أَيْ قَدْ أَرْسَلْتُ إِلَيْكُمُ الرُّسُلَ وَأَنْزَلْتُ إليكم الْكُتُبَ وَأَزَلْتُ شُبَهَكُمْ وَلَمْ يَبْقَ لَكُمْ حُجَّةٌ.

[١٠٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ أَيْ: غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا الَّتِي كُتِبَتْ عَلَيْنَا فَلَمْ نَهْتَدِ، والشقوة: مِنَ الشَّقَاءِ، قال القرطبي: وَأَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي مَعْنَاهُ: غَلَبَتْ عَلَيْنَا لَذَّاتُنَا وَأَهْوَاؤُنَا، فَسَمَّىٰ اللَّذَّاتِ وَالْأَهْوَاءَ شِقْوَةً، لِأَنَّهُمَا يُؤَدِّيَانِ إِلَيْهَا، وَقِيلَ: مَا سَبَقَ فِي عِلْمِكَ وَكُتِبَ عَلَيْنَا فِي أُمِّ الْكِتَابِ مِنَ الشَّقَاوَةِ، وَقِيلَ: حُسْنُ الظَّنِّ بِالنَّفْسِ وَسُوءُ الظَّنِّ بِالْخَلْقِ، ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ أَيْ كُنَّا فِي فِعْلِنَا ضَالِّينَ عَنِ الْهُدَىٰ، وَلَيْسَ هَذَا اعْتِذَارٌ مِنْهُمْ إِنَّمَا هُوَ إِقْرَارٌ.

[١٠٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ أَيْ: مِنَ النَّارِ، ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ لما تكره ﴿فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ طَلَبُوا الرَّجْعَةَ إِلَىٰ الدُّنْيَا كَمَا طَلَبُوهَا عِنْدَ الْمَوْتِ.

[١٠٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ اخْسَئُوا﴾ أبعدوا، ﴿فِيهَا﴾ كَمَا يُقَالُ لِلْكَلْبِ إِذَا طُرِدَ اخسأ، أَيِ ابْعُدْ، خَسَأْتُ الْكَلْبَ خَسْئًا طَرَدْتُهُ، ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ فِي رَفْعِ الْعَذَابِ فَإِنِّي لَا أَرْفَعُهُ عَنْكُمْ فَعِنْدَ ذَلِكَ أَيِسَ الْمَسَاكِينُ مِنَ الْفَرَجِ، وعن عبد الله ابن عمرو ابن العاص قَالَ: إِنَّ أَهْلَ جَهَنَّمَ يَدْعُونَ مَالِكًا فَلَا يُجِيبُهُمْ أَرْبَعِينَ عَامًا، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ: إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ، قَالَ: هَانَتْ وَاللهِ دَعْوَتُهُمْ عَلَىٰ مَالِكٍ وَرَبِّ مَالِكٍ،

قَالَ: ثُمَّ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ فَيَقُولُونَ: ﴿ رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا وَكُنَّا قَوْمًا ضالِّينَ. رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ﴾ قَالَ: فَيَسْكُتُ عَنْهُمْ قَدْرَ الدُّنْيَا مَرَّتَيْنِ، قَالَ: ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ اخْسَئُوا فِيهَا ، قَالَ الْحَسَنُ البصري: هُوَ آخِرُ كَلَامٍ يَتَكَلَّمُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ ثُمَّ لَا يَتَكَلَّمُونَ بَعْدَهَا إِلَّا الشَّهِيقَ وَالزَّفِيرَ، وَيَصِيرُ لَهُمْ عُوَاءٌ كَعُوَاءِ الْكِلَابِ لَا يُفهمون ولا يفهمون.

[١٠٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي﴾ وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ قَالَ مُجَاهِدٌ: هُمْ بِلَالٌ وَخَبَّابٌ وَصُهَيْبٌ، وَفُلَانٌ وَفُلَانٌ مِنْ ضُعَفَاءِ الْمُسْلِمِينَ، كَانَ أَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابُهُ يَهْزَءُونَ بِهِمْ. ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ فَجَمَعُوا بَيْنَ الْإِيمَانِ الْمُقْتَضِي لِأَعْمَالِهِ الصَّالِحَةِ، وَالدُّعَاءِ لِرَبِّهِمْ بِالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ، وَالتَّوَسُّلِ إِلَيْهِ بِرُبُوبِيَّتِهِ، وَمِنَّتِهِ عَلَيْهِمْ بِالْإِيمَانِ، وَالْإِخْبَارِ بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ، وَعُمُومِ إِحْسَانِهِ، وَفِي ضِمْنِهِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ خُضُوعِهِمْ وَخُشُوعِهِمْ، وَانْكِسَارِهِمْ لِرَبِّهِمْ، وَخَوْفِهِمْ وَرَجَائِهِمْ .

[١١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ أَيْ فَسَخِرْتُمْ مِنْهُمْ فِي دُعَائِهِمْ إِيَّايَ وَتَضَرُّعِهِمْ إِلَيَّ ﴿حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي ﴾ أَيْ: أَنْسَاكُمُ اشْتِغَالُكُمْ بِالِاسْتِهْزَاءِ بِهِمْ والسخرية منهم ﴿ وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ أَيْ مِنْ صَنِيعِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ.

[١١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ عَلَىٰ أَذَاكُمْ وَاسْتِهْزَائِكُمْ فِي الدُّنْيَا، ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بشارة للمؤمنين، قَالَ الطَّبَرِيُّ:

قَوْلُ تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ: إِنِّي أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ بِاللهِ، الْمُخَلَّدُونَ فِي النَّارِ، جَزَيْتُ الَّذِينَ اتَّخَذْتُمُوهُمْ فِي الدُّنْيَا سُخْرِيًّا مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ بِي، وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ. ﴿الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ عَلَىٰ مَا كَانُوا يَلْقَوْنَ بَيْنَكُمْ مِنْ أَذَىٰ سُخْرِيَتِكُمْ وَضَحِكِكُمْ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا، أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُون.

[١١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ أَيْ قال الله تعالىٰ لِلْكُفَّارِ يَوْمَ الْبَعْثِ كَمْ لَبِثْتُمْ، قِيلَ: يَعْنِي فِي الْقُبُورِ، وَقِيلَ: هُوَ سُؤَالٌ لَهُمْ عَنْ مُدَّةِ حَيَاتِهِمْ فِي الدُّنْيَا. وَهَذَا السُّؤَالُ لِلْمُشْرِكِينَ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ أَوْ فِي النَّارِ، ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أَيْ: فِي الدُّنْيَا وَفِي الْقُبُورِ ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾ أَيْ كَمْ كَانَتْ إِقَامَتُكُمْ فِي الدُّنْيَا.

[١١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ نَسُوا مُدَّةَ لَبْثِهِمْ فِي الدُّنْيَا لِعِظَمِ مَا هُمْ بِصَدَدِهِ مِنَ العذاب، وَقِيلَ: اسْتَقْصَرُوا مُدَّةَ لُبْثِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَفِي القبور وراؤه يسيرا بالنسبة إلىٰ ما هم بصدده ، ﴿فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ أَيْ سَلِ الْحُسَّابَ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ فَإِنَّا قَدْ نَسِينَاهُ، أَوْ فَاسْأَلِ الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ كَانُوا مَعَنَا فِي الدُّنْيَا.

[١١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ﴾ أَيْ: مَا لَبِثْتُمْ فِي الدُّنْيَا، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ سَمَّاهُ قَلِيلًا لِأَنَّ الْوَاحِدَ وَإِنْ طَالَ مُكْثُهُ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُ يَكُونُ قَلِيلًا فِي جَنْبِ مَا يَلْبَثُ فِي الْآخِرَةِ لِأَنَّ لبثه في الدنيا والقبر مُتَنَاهٍ ﴿لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قدر لبثكم في الدنيا.

[١١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ لَعِبًا وَبَاطِلًا لَا لِحِكْمَةٍ، وَهُوَ نَصْبٌ عَلَىٰ الْحَالِ، أَيْ: عَابِثِينَ، وَقِيلَ: لِلْعَبَثِ، أَيْ: لِتَلْعَبُوا وَتَعْبَثُوا كَمَا خَلَقْتُ الْبَهَائِمَ لَا ثَوَابَ لَهَا وَلَا عِقَابَ، وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًىٰ﴾ [القيامة : ٣٦] وَإِنَّمَا خُلِقْتُمْ لِلْعِبَادَةِ وإقامة أوامر الله تعالىٰ، ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ أَيْ: أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ فِي الْآخِرَةِ لِلْجَزَاءِ، قَالَ الحكيم التِّرْمِذِيُّ: إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ خَلَقَ الْخَلْقَ عَبِيدًا لِيَعْبُدُوهُ، فَيُثِيبُهُمْ عَلَىٰ الْعِبَادَةِ وَيُعَاقِبُهُمْ عَلَىٰ تَرْكِهَا، فَإِنْ عَبَدُوهُ فَهُمُ الْيَوْمَ لَهُ عَبِيدٌ أَحْرَارٌ كِرَامٌ مِنْ رِقِّ الدُّنْيَا، مُلُوكٌ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ، وَإِنْ رَفَضُوا الْعُبُودِيَّةَ فَهُمُ الْيَوْمَ عَبِيدٌ أُبَّاقٌ سُقَّاطٌ لِئَامٌ، وَغَدًا أَعْدَاءٌ فِي السُّجُونِ بَيْنَ أَطْبَاقِ النِّيرَانِ.

[١١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَتَعَالَىٰ اللهُ﴾ أَيْ: تَعَاظَمَ وَتَرَفَّعَ عَنْ هَذَا الظَّنِّ الْبَاطِلِ، الَّذِي يَرْجِعُ إِلَىٰ الْقَدْحِ فِي حِكْمَتِهِ، ﴿الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ فَكَوْنُهُ مَلِكًا لِلْخَلْقِ كُلِّهِمْ حَقًّا، فِي صِدْقِهِ، وَوَعْدِهِ، وَوَعِيدِهِ، مَأْلُوهًا مَعْبُودًا، لِمَا لَهُ مِنَ الْكَمَالِ ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ فَمَا دُونَهُ مِنْ بَابِ أَوْلَىٰ، يَمْنَعُ أَنْ يَخْلُقَكُمْ عَبَثًا. وَكَانَ آخِرَ خُطْبَةٍ خَطَبَهَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ : أَنْ حَمِدَ اللهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا الناس إنكم لَمْ تُخْلَقُوا عَبَثًا، وَلَنْ تُتْرَكُوا سُدًىٰ، وَإِنَّ لَكُمْ مَعَادًا يَنْزِلُ اللهُ فِيهِ لِلْحُكْمِ بَيْنَكُمْ والفصل بينكم، فخاب وخسر وشقي عبد أخرجه الله من رحمته، وَحُرِمَ جَنَّةً عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، أَلَمْ تَعْلَمُوا أنه لا يؤمن عذاب الله غَدًا إِلَّا مَنْ حَذِرَ هَذَا الْيَوْمَ وَخَافَهُ، وباع نافذاً بِبَاقٍ، وَقَلِيلًا

بِكَثِيرٍ، وَخَوْفًا بِأَمَانٍ، أَلَا تَرَوْنَ أَنَّكُمْ مِنْ أَصْلَابِ الْهَالِكِينَ وَسَيَكُونُ مِنْ بَعْدِكُمُ الْبَاقِينَ، حَتَّىٰ تُرَدُّونَ إِلَىٰ خَيْرِ الْوَارِثِينَ؟ ثُمَّ إِنَّكُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ تُشَيِّعُونَ غَادِيًا وَرَائِحًا إِلَىٰ اللهِ عزَّ وجلَّ قَدْ قَضَىٰ نَحْبَهُ، وَانقَضَىٰ أَجْلُهُ، حَتَّىٰ تُغَيِّبُوهُ فِي صَدْعٍ مِنَ الْأَرْضِ، فِي بَطْنِ صَدْعٍ غَيْرِ مُمَهَّدٍ وَلَا مُوَسَّدٍ، قَدْ فَارَقَ الْأَحْبَابَ وَبَاشَرَ التُّرَابَ، وَوَاجَهَ الْحِسَابَ، مُرْتَهَنٌ بِعَمَلِهِ، غَنِيٌّ عَمَّا تَرَكَ، فَقِيرٌ إِلَىٰ مَا قَدَّمَ، فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ قَبْلَ انقِضَاءِ مَوَاثِيقِهِ وَنُزُولِ الْمَوْتِ بِكُمْ؛ ثُمَّ جَعَلَ طَرَفَ رِدَائِهِ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَبَكَىٰ.

[١١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ أَيْ: لَا حُجَّةَ لَهُ بِهِ وَلَا بَيِّنَةَ لِأَنَّهُ لَا حُجَّةَ فِي دَعْوَىٰ الشِّرْكِ، وعَن ابْن مَسْعُود قَالَ: سُئِلَ النَّبِي ﷺ أَي الذَّنب أكبر قَالَ أَن تجْعَل لله ندا وَهُوَ خلقك ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ﴾ جزاؤه، ﴿عِنْدَ رَبِّهِ﴾ يجازيه بعلمه كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغَاشَيَةِ: ٢٦]، ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ لَا يَسْعَدُ مَنْ جَحَدَ وَكَذَّبَ.

[١١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ قال ابن كثير: هذا إرشاد من الله تعالىٰ إِلَىٰ هَذَا الدُّعَاءِ، فَالْغَفْرُ إِذَا أُطْلِقَ، مَعْنَاهُ مَحْوُ الذَّنْبِ وَسَتْرُهُ عَنِ النَّاسِ، وَالرَّحْمَةُ مَعْنَاهَا أن يسدده ويوفقه في الأقوال والأفعال.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ النُّورِ

سُورَةُ النُّورِ مَدَنِيَّةٌ بِالْإِجْمَاعِ ، مَقْصُودُ هَذِهِ السُّورَةِ ذِكْرُ أَحْكَامِ الْعَفَافِ وَالسِّتْرِ، وَقد كَتَبَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِلَىٰ أَهْلِ الْكُوفَةِ: عَلِّمُوا نِسَاءَكُمْ سُورَةَ النُّورِ، وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: لَا تُنْزِلُوا النِّسَاءَ الْغُرَفَ وَلَا تُعَلِّمُوهُنَّ الْكِتَابَةَ وَعَلِّمُوهُنَّ سُورَةَ النُّورِ وَالْغَزْلَ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿سُورَةٌ﴾ أَيْ: هَذِهِ سُورَةٌ، ﴿أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ أَيْ: أَوْجَبْنَا مَا فِيهَا مِنَ الْأَحْكَامِ وَأَلْزَمْنَاكُمُ الْعَمَلَ بِهَا، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ قَدَّرْنَا مَا فِيهَا مِنَ الْحُدُودِ، وَالْفَرْضُ: التَّقْدِيرُ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٣٧] أَيْ: قَدَّرْتُمْ، وَقِيلَ: هُوَ بِمَعْنَىٰ الْفَرْضِ الَّذِي هُوَ بِمَعْنَىٰ الْإِيجَابِ أَيْضًا ، قال مجاهد: أَيْ بَيَّنَّا الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ وَالْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَالْحُدُودَ، ﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تَتَّعِظُونَ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ أَرَادَ إِذَا كَانَا حُرَّيْنِ بَالِغَيْنِ عَاقِلَيْنِ بِكْرَيْنِ غَيْرَ مُحْصَنَيْنِ، فَاجْلِدُوا فَاضْرِبُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جِلْدَةٍ، يُقَالُ جَلَدَهُ إِذَا ضَرَبَ جِلْدَهُ، كَمَا يُقَالُ رَأَسَهُ وَبَطَنَهُ، إِذَا

ضَرَبَ رَأْسَهُ وَبَطْنَهُ، وَذُكِرَ بِلَفْظِ الْجَلْدِ لِئَلَّا يُبَرِّحَ وَلَا يُضْرَبُ بِحَيْثُ يَبْلُغُ اللَّحْمَ، وَقَدْ وَرَدَتِ السُّنَّةُ أَنَّهُ يُجْلَدُ مِائَةً ويغرب عاما وهو قَوْلُ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَإِنْ كَانَ الزَّانِي مُحْصَنًا فَعَلَيْهِ الرَّجْمُ، ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ أي: رَحْمَةٌ وَرِقَّةٌ، والرأفة معنىً يكون فِي الْقَلْبِ، لَا يُنْهَىٰ عَنْهُ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ بِاخْتِيَارِ الْإِنْسَانِ، وَاخْتَلَفُوا فِي مَعْنَىٰ الْآيَةِ، فَقَالَ قَوْمٌ: لَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فَتُعَطِّلُوا الْحُدُودَ وَلَا تُقِيمُوهَا وَهَذَا قَوْلُ مُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ وَعَطَاءٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالنَّخَعِيِّ وَالشَّعْبِيِّ، وَقَالَ جَمَاعَةٌ: مَعْنَاهَا وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فَتُخَفِّفُوا الضَّرْبَ وَلَكِنْ أَوْجِعُوهُمَا ضَرْبًا، وَهُوَ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَالْحَسَنِ، قَالَ الزُّهْرِيُّ: يُجْتَهَدُ فِي حَدِّ الزِّنَا وَالْفِرْيَةِ وَيُخَفَّفُ فِي حَدِّ الشُّرْبِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: يُجْتَهَدُ فِي حَدِّ الزِّنَا وَيُخَفَّفُ فِي الشُّرْبِ وَالْفِرْيَةِ، ﴿فِي دِينِ اللهِ﴾ أَيْ: فِي حُكْمِ اللهِ، ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ مَعْنَاهُ أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا تَأْخُذُهُ الرَّأْفَةُ إِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ تعالىٰ، ﴿وَلْيَشْهَدْ﴾ وليحضر ﴿عَذَابَهُمَا﴾ حَدَّهُمَا إِذَا أُقِيمَ عَلَيْهِمَا ﴿طَائِفَةٌ﴾ نفر، ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَالنَّخَعِيُّ: أَقَلُّهُ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَمَا فَوْقَهُ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ وَعَطَاءٌ: رَجُلَانِ فَصَاعِدًا. وَقَالَ الزُّهْرِيُّ وَقَتَادَةُ: ثَلَاثَةٌ فَصَاعِدًا، وفِي الحديث عن عبادة ابن الصَّامِتِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خُذُوا عَنِّي خُذُوا عَنِّي، قَدْ**

جَعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا، الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ، وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدُ مِائَةٍ والرجم»(1).

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ﴾ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي مَعْنَىٰ الْآيَةِ وَحُكْمِهَا، فَقَالَ قَوْمٌ: قَدِمَ الْمُهَاجِرُونَ الْمَدِينَةَ ، وَفِيهِمْ فُقَرَاءُ لَا مَالَ لَهُمْ وَلَا عَشَائِرَ، وَبِالْمَدِينَةِ نِسَاءٌ بَغَايَا يُكْرِينَ أَنْفُسَهُنَّ وَهُنَّ يَوْمَئِذٍ أَخْصَبُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ فَرَغِبَ أُنَاسٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي نِكَاحِهِنَّ لِيُنْفِقْنَ عَلَيْهِمْ، فَاسْتَأْذَنُوا رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَنْ يَتَزَوَّجُوا تِلْكَ الْبَغَايَا لِأَنَّهُنَّ كُنَّ مُشْرِكَاتٍ، وَهَذَا قَوْلُ مُجَاهِدٌ وَعَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ وَقَتَادَةَ وَالزُّهْرِيِّ وَالشَّعْبِيِّ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: نَزَلَتْ فِي نِسَاءٍ بِمَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، مِنْهُنَّ تِسْعٌ لَهُنَّ رَايَاتٌ كَرَايَاتِ الْبِيطَارِ يُعْرَفْنَ بِهَا مِنْهُنَّ أُمُّ مَهْزُولٍ جَارِيَةُ السَّائِبِ ابنِ أَبِي السائب المخزومي، فكان الرَّجُلُ يَنْكِحُ الزَّانِيَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يتخذها مالكة فَأَرَادَ نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ نِكَاحَهُنَّ عَلَىٰ تِلْكَ الْجِهَةِ، فَاسْتَأْذَنَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي نِكَاحِ أُمِّ مَهْزُولٍ وَاشْتَرَطَتْ لَهُ أَنْ تُنْفِقَ عَلَيْهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآية، وَقَالَ قَوْمٌ: الْمُرَادُ مِنَ النِّكَاحِ هو الجماع، ومعناه أن الزَّانِي لَا يَزْنِي إِلَّا بِزَانِيَةٍ أَوْ مُشْرِكَةٍ وَالزَّانِيَةُ لَا تَزْنِي إِلَّا بِزَانٍ أَوْ مُشْرِكٍ،

---

(١) مسلم (١٦٩٠).

وَهُوَ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وقَالَ يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ. إِنْ جَامَعَهَا وَهُوَ مُسْتَحِلٌّ فَهُوَ مُشْرِكٌ، وَإِنْ جَامَعَهَا وَهُوَ مُحَرِّمٌ فَهُوَ زَانٍ، وَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ يُحَرِّمُ نِكَاحَ الزَّانِيَةِ وَيَقُولُ: إِذَا تَزَوَّجَ الزَّانِي بِالزَّانِيَةِ فَهُمَا زَانِيَانِ أَبَدًا ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري : الزَّانِي الْمَجْلُودُ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً مَجْلُودَةً وَالزَّانِيَةُ الْمَجْلُودَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ مَجْلُودٌ. قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَجَمَاعَةٌ: إِنَّ حُكْمَ الْآيَةِ مَنْسُوخٌ، فَكَانَ نِكَاحُ الزَّانِيَةِ حَرَامًا بِهَذِهِ الْآيَةِ فنسخها قوله: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ﴾ فَدَخَلَتِ الزَّانِيَةُ فِي أَيَامَىٰ الْمُسْلِمِينَ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ أَرَادَ بِالرَّمْيِ الْقَذْفَ بِالزِّنَا وَكُلُّ مَنْ رَمَىٰ مُحْصَنًا أَوْ مُحْصَنَةً بِالزِّنَا، فَقَالَ لَهُ: زَنَيْتَ أَوْ يَا زَانِي فَيَجِبُ عَلَيْهِ جَلْدُ ثَمَانِينَ جَلْدَةً، إِنْ كَانَ حُرًّا وَإِنْ كَانَ عَبْدًا فَيُجْلَدُ أَرْبَعِينَ وَإِنْ كَانَ الْمَقْذُوفُ غَيْرَ مُحْصَنٍ، فَعَلَىٰ الْقَاذِفِ التَّعْزِيرُ وَشَرَائِطُ الْإِحْصَانِ خَمْسَةٌ: الْإِسْلَامُ وَالْعَقْلُ وَالْبُلُوغُ وَالْحُرِّيَّةُ والعفة من الزاني حَتَّىٰ أَنَّ مَنْ زَنَىٰ مَرَّةً فِي أَوَّلِ بُلُوغِهِ ثُمَّ تَابَ وَحَسُنَتْ حَالَتُهُ وَامْتَدَّ عُمْرُهُ فَقَذَفَهُ قَاذِفٌ فَلَا حَدَّ عَلَيْهِ. فَإِنْ أَقَرَّ الْمَقْذُوفُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بِالزِّنَا أَوْ أَقَامَ الْقَاذِفُ أَرْبَعَةً مِنَ الشُّهُودِ عَلَىٰ زِنَاهُ سَقَطَ الْحَدُّ عَنِ الْقَاذِفِ لِأَنَّ الْحَدَّ الَّذِي وَجَبَ عَلَيْهِ حَدُّ الْفِرْيَةِ وَقَدْ ثَبَتَ صِدْقُهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ هُنَّ ذَوَاتُ الْأَزْوَاجِ ، قَالَتْ طَائِفَةٌ: الْمُحْصَنَاتُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ يُرَادُ بِهِ الْعَفَائِفُ، أَيْ كُلُّ النِّسَاءِ حَرَامٌ ، وَأَلْبَسَهُنَّ اسْمَ الْإِحْصَانِ مَنْ كَانَ مِنْهُنَّ ذَاتُ زَوْجٍ أَوْ غَيْرُ ذَاتِ

زَوْجٍ، إِذِ الشَّرَائِعُ فِي أَنْفُسِهَا تَقْتَضِي ذَلِكَ. أَيْ: يَقْذِفُونَ بِالزِّنَا الْمُحْصَنَاتِ يَعْنِي الْمُسْلِمَاتِ الْحَرَائِرَ الْعَفَائِفَ ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ يَشْهَدُونَ عَلَىٰ زِنَاهُنَّ ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ أَيْ: اضْرِبُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً، ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ .

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي قُبُولِ شَهَادَةِ الْقَاذِفِ بَعْدَ التَّوْبَةِ وَفِي حُكْمِ هَذَا الِاسْتِثْنَاءِ فَذَهَبَ قَوْمٌ إِلَىٰ أَنَّ الْقَاذِفَ تُرَدُّ شَهَادَتُهُ بِنَفْسِ الْقَذْفِ وَإِذَا تَابَ وَنَدِمَ عَلَىٰ مَا قَالَ وَحَسُنَتْ حَالَتُهُ قُبِلَتْ شَهَادَتُهُ، سَوَاءً تَابَ بَعْدَ إِقَامَةِ الحد عليه أو قبلها، لِقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ وقالوا: الاستثناء يرجع إلىٰ رد الشَّهَادَةِ وَإِلَىٰ الْفِسْقِ فَبَعْدَ التَّوْبَةِ تُقْبَلُ شَهَادَتُهُ وَيَزُولُ عَنْهُ اسْمُ الفسق وَذَهَبَ قَوْمٌ إِلَىٰ أَنَّ شَهَادَةَ الْمَحْدُودِ فِي الْقَذْفِ لَا تُقْبَلُ أَبَدًا وَإِنْ تَابَ، وَقَالُوا: الِاسْتِثْنَاءُ يَرْجِعُ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ وَذَهَبَ الشَّعْبِيُّ إِلَىٰ أَنَّ حَدَّ الْقَذْفِ يَسْقُطُ بِالتَّوْبَةِ، وَقَالَ: الِاسْتِثْنَاءُ يَرْجِعُ إِلَىٰ الْكُلِّ وَعَامَّةُ الْعُلَمَاءِ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا يَسْقُطُ بِالتَّوْبَةِ إِلَّا أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُ الْمَقْذُوفُ فَيَسْقُطَ كَالْقِصَاصِ يَسْقُطُ بِالْعَفْوِ، وَلَا يَسْقُطُ بِالتَّوْبَةِ. فَإِنْ قِيلَ: إِذَا قَبِلْتُمْ شَهَادَتَهُ بَعْدَ التَّوْبَةِ فَمَا معنىٰ قوله ﴿أَبَدًا﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ لَا تُقْبَلُ شَهَادَتُهُ أبدا ما دام هو مُصِرًّا عَلَىٰ قَذْفِهِ لِأَنَّ أَبَدَ كُلِّ إِنْسَانٍ مُدَّتُهُ عَلَىٰ مَا يَلِيقُ بِحَالِهِ، كَمَا يُقَالُ: لَا تُقْبَلُ شَهَادَةُ الْكَافِرِ أَبَدًا: يُرَادُ ما دام كافراً.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ يَقْذِفُونَ نِسَاءَهُمْ، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ﴾ يَشْهَدُونَ عَلَىٰ صِحَّةِ مَا قَالُوا، ﴿إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ غَيْرَ أَنْفُسِهِمْ، ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أَيْ: فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمُ الَّتِي تَدْرَأُ الْحَدَّ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ، قال ابن كثير : هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ فِيهَا فَرَجٌ لِلْأَزْوَاجِ وَزِيَادَةُ مَخْرَجٍ إِذَا قَذَفَ أَحَدُهُمْ زَوْجَتَهُ، وَتَعَسَّرَ عَلَيْهِ إِقَامَةُ الْبَيِّنَةِ أَنْ يُلَاعِنَهَا كَمَا أَمَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ، وَهُوَ أَنْ يُحْضِرَهَا إِلَىٰ الْإِمَامِ فَيَدَّعِيَ عَلَيْهَا بِمَا رَمَاهَا بِهِ، فَيُحَلِّفُهُ الْحَاكِمُ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ فِي مُقَابَلَةِ أَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ: أَيْ فِيمَا رَمَاهَا بِهِ مِنَ الزنا .

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ هِلَالَ بْنَ أُمَيَّةَ قَذَفَ امْرَأَتَهُ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشَرِيكِ بْنِ سَحْمَاءَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **الْبَيِّنَةُ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ** ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِذَا رَأَىٰ أَحَدُنَا رَجُلًا عَلَىٰ امْرَأَتِهِ يَلْتَمِسُ الْبَيِّنَةَ! فَجَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: **الْبَيِّنَةُ وَإِلَّا حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ**، فَقَالَ هِلَالٌ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنِّي لَصَادِقٌ، وَلَيُنْزِلَنَّ اللهُ فِي أَمْرِي مَا يُبَرِّئُ ظَهْرِي مِنَ الْحَدِّ، فَنَزَلَتْ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْواجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَداءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ فَقَرَأَ حَتَّىٰ بَلَغَ: ﴿مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ، قال القرطبي : وَجَاءَ أَيْضًا عُوَيْمِرٌ الْعَجْلَانِيُّ فَرَمَىٰ امْرَأَتَهُ

وَلَاعَنَ، وَالْمَشْهُورُ أَنَّ نَازِلَةَ هِلَالٍ كَانَتْ قَبْلُ، وَأَنَّهَا سَبَبُ الْآيَةِ، وَقِيلَ: نَازِلَةُ عُوَيْمِرِ بْنِ أَشْقَرَ كَانَتْ قَبْلُ، وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ مَشْهُورٌ خَرَّجَهُ الأئمة(١).

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ يَدْفَعُ عنها الحد، ﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فيما رماني به.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وَأَرَادَ بِالْعَذَابِ الْحَدَّ كَمَا قَالَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أحدهما ومعنىٰ الآية أن الزوج إذ لَاعَنَ وَجَبَ عَلَىٰ الْمَرْأَةِ حَدُّ الزِّنَا، وَإِذَا وَجَبَ عَلَيْهَا حَدُّ الزِّنَا بِلِعَانِهِ، فَأَرَادَتْ إِسْقَاطَهُ عَنْ نَفْسِهَا، فَإِنَّهَا تُلَاعِنَ فَتَقُومُ وَتَشْهَدُ بَعْدَ تَلْقِينِ الْحَاكِمِ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ فِيمَا رَمَانِي بِهِ، وَتَقُولُ فِي الْخَامِسَةِ عَلَيَّ غَضَبُ اللهِ إِنْ كَانَ زَوْجِي مِنَ الصَّادِقِينَ فِيمَا رَمَانِي به، وفي حديث ابن عباس الذي مرَّ قبل قليل: فأرسل إليهما فشهد هلال والنبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ يعلم أن أحدكم كَاذِبٌ فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ**»(٢)، ثُمَّ قَامَتْ فَشَهِدَتْ، فلما كان فِي الْخَامِسَةِ وَقَفُوهَا، وَقَالُوا: إِنَّهَا مُوجِبَةٌ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَتَلَكَّأَتْ وَنَكَصَتْ حَتَّىٰ ظَنَنَّا أَنَّهَا تَرْجِعُ، ثُمَّ قَالَتْ: لَا أَفْضَحُ قَوْمِي سَائِرَ الْيَوْمِ فَمَضَتْ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَبْصِرُوهَا فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَكْحَلَ الْعَيْنَيْنِ سَابِغَ الْأَلْيَتَيْنِ خَدَلَّجَ السَّاقَيْنِ فَهُوَ لِشَرِيكِ بْنِ**

---

(١) البخاري (٤٧٤٧).

(٢) البخاري (٥٣١٢).

سَحْمَاءَ» فجاءت به كذلك، فقا النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَوْلَا مَا مَضَىٰ مِنْ كِتَابِ اللهِ لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ**»، قَالَ ابن كثير : فخصها بالعضب، كَمَا أَنَّ الْغَالِبَ أَنَّ الرَّجُلَ لَا يَتَجَشَّمُ فضحية أهله ورميها بالزنا إِلَّا وَهُوَ صَادِقٌ مَعْذُورٌ وَهِيَ تَعْلَمُ صِدْقَهُ فِيمَا رَمَاهَا بِهِ، وَلِهَذَا كَانَتِ الْخَامِسَةُ فِي حَقِّهَا أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا، وَالْمَغْضُوبُ عَلَيْهِ هُوَ الَّذِي يَعْلَمُ الْحَقَّ ثُمَّ يَحِيدُ عَنْهُ؛ ثم ذكر تعالىٰ رأفته بخلقه ولطفه بهم فيما شرع لهم من الفرج والمخرج من شدة ما يكون بهم من الضيق.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ جَوَابُ لَوْلَا مَحْذُوفٌ يَعْنِي لَعَاجَلَكُمْ بالعقوبة ولكنه ستر عليكم ورفع عَنْكُمُ الْحَدَّ بِاللِّعَانِ، ﴿وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ﴾ يَعُودُ عَلَىٰ مَنْ يَرْجِعُ عَنِ المعاصي بالرحمة ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما فرض من الحدود.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ بالكذب وهو أَسْوَأُ الْكَذِبِ سُمِّيَ إِفْكًا لِكَوْنِهِ مصروفا عن الحق، هُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الْأَفْكِ بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَهُوَ قَلْبُ الشَّيْءِ، وَمِنْهُ سُمِّيَ أَهْلُ سَدُومَ وَعَمُّورَةَ وَأُدَمَةَ وَصَبُويِيمَ قُرَىٰ قَوْمِ لُوطٍ أَصْحَابَ الْمُؤْتَفِكَةِ لِأَنَّ قُرَاهُمُ ائْتَفَكَتْ، أَيْ قُلِبَتْ وَخُسِفَ بِهَا فَصَارَ أَعْلَاهَا أَسْفَلَهَا فَكَانَ الْإِخْبَارُ عَنِ الشَّيْءِ بِخِلَافِ حَالَتِهِ الْوَاقِعِيَّةِ قَلْبًا لَهُ عَنْ حَقِيقَتِهِ فَسُمِّيَ إِفْكًا، وهو ما ورد في حديث عائشة رضي الله عنها الطويل عند تخلفها عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عليه وسلم في أحد غزواته بعد أن أحضرها صفوان السلمي ، ﴿عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ أَيْ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ وَمِسْطَحُ

بْنُ أُثَاثَةَ وَحَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ وَحَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ زَوْجَةُ طَلْحَةَ ابن عُبَيْدِ اللهِ وَغَيْرُهُمْ، وحَكَىٰ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ أَنَّ عَائِشَةَ بَرَّأَتْ حَسَّانَ مِنَ الْفِرْيَةِ، وَقَالَتْ: إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ شَيْئًا، وَالْعُصْبَةُ: ثَلَاثَةُ رِجَالٍ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَأَصْلُهَا فِي اللُّغَةِ وَكَلَامِ الْعَرَبِ الْجَمَاعَةُ الَّذِينَ يَتَعَصَّبُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ، قوله : ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ﴾ يَا عَائِشَةُ وَيَا صَفْوَانُ، وَقِيلَ: هُوَ خِطَابٌ لِعَائِشَةَ وَلِأَبَوَيْهَا وَلِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلِصَفْوَانَ، يَعْنِي لَا تَحْسَبُوا الْإِفْكَ شَرًّا لَكُمْ، ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ لِأَنَّ اللهَ يَأْجُرُكُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ ويظهر براءتكم، قال القرطبي : وَالْخَيْرُ حَقِيقَتُهُ: مَا زَادَ نَفْعُهُ عَلَىٰ ضَرِّهُ. وَالشَّرُّ: مَا زَادَ ضَرُّهُ عَلَىٰ نَفْعِهِ. وَإِنَّ خَيْرًا لَا شَرَّ فِيهِ هُوَ الْجَنَّةُ. وَشَرًّا لَا خَيْرَ فِيهِ هُوَ جَهَنَّمُ، فَأَمَّا الْبَلَاءُ النَّازِلُ عَلَىٰ الْأَوْلِيَاءِ فَهُوَ خَيْرٌ، لِأَنَّ ضَرَرَهُ مِنَ الْأَلَمِ قَلِيلٌ فِي الدُّنْيَا، وَخَيْرُهُ هُوَ الثَّوَابُ الْكَثِيرُ فِي الْأُخْرَىٰ. فَنَبَّهَ اللهُ تَعَالَىٰ عَائِشَةَ وَأَهْلَهَا وَصَفْوَانَ، إِذِ الْخِطَابُ لَهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ ، لِرُجْحَانِ النَّفْعِ وَالْخَيْرِ عَلَىٰ جَانِبِ الشَّرِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ﴾ يَعْنِي مِنَ الْعُصْبَةِ الْكَاذِبَةِ ، مِمَّنْ تَكَلَّمَ بِالْإِفْكِ. وَلَمْ يُسَمَّ مِنْ أَهْلِ الْإِفْكِ ، ﴿مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ أَيْ: جَزَاءُ مَا اجْتَرَحَ مِنَ الذَّنْبِ عَلَىٰ قَدْرِ مَا خَاضَ فيه، ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أَيْ: تَحَمَّلَ مُعْظَمَهُ فَبَدَأَ بِالْخَوْضِ فِيهِ، قَالَ الضَّحَّاكُ: قَامَ بِإِشَاعَةِ الْحَدِيثِ، وَهُوَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ ، وَعَنْ عَائِشَةَ ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ﴾ قَالَتْ: عَبْدُ

اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ، وَالْعَذَابُ الْأَلِيمُ هُوَ النار في الآخرة، وعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَ عُذْرِي قَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فذكر ذَلِكَ وَتَلَا الْقُرْآنَ، فَلَمَّا نَزَلَ أَمَرَ بِرَجُلَيْنِ وامرأة فضربوا حدَّهم.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَوْلَا﴾ يعني هَلَّا ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أي ذلك الكلام الذي رميت به أم المؤمنين رضي الله عنها ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً﴾ أَيْ قَاسُوا ذَلِكَ الْكَلَامَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، فَإِنْ كَانَ لَا يَلِيقُ بِهِمْ فَأُمُّ الْمُؤْمِنِينَ أَوْلَىٰ بِالْبَرَاءَةِ مِنْهُ بطريق الأولىٰ والأحرىٰ، روي أن أبا أيوب - خالد بن زيد الأنصاري - قَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ أُمُّ أَيُّوبَ: يَا أَبَا أيوب أتسمع مَا يَقُولُ النَّاسُ فِي عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؟ قَالَ: نَعَمْ، وَذَلِكَ الْكَذِبُ، أَكُنْتِ فَاعِلَةً ذَلِكَ يَا أُمَّ أَيُّوبَ؟ قَالَتْ: لَا وَاللهِ مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَهُ، قَالَ: فَعَائِشَةُ وَاللهِ خَيْرٌ مِنْكِ، ﴿وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ أَيْ: كَذِبٌ بَيِّنٌ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَّوْلاَ﴾ أي هلا ﴿جاؤوا عَلَيْهِ﴾ أَيْ عَلَىٰ مَا قَالُوهُ ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ يَشْهَدُونَ عَلَىٰ صِحَّةِ مَا جَاءُوا بِهِ ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِالشُّهَدَآءِ فأولئك عند اللهم الكاذبون﴾ أي في حكم الله كاذبون فاجرون، فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يَصِيرُونَ عِنْدَ اللهِ كَاذِبِينَ إِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ وَمَنْ كَذَبَ فَهُوَ عِنْدَ اللهِ كَاذِبٌ سَوَاءٌ أَتَىٰ بِالشُّهَدَاءِ أَوْ لَمْ يَأْتِ ؟ قِيلَ: عِنْدَ اللهِ أَيْ فِي حُكْمِ اللهِ وَقِيلَ: مَعْنَاهُ كَذِّبُوهُمْ بِأَمْرِ اللهِ. وَقِيلَ: هَذَا فِي حَقِّ عَائِشَةَ وَمَعْنَاهُ أُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ فِي غَيْبِي وَعِلْمِي.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أَيُّهَا الْخَائِضُونَ فِي شَأْنِ عَائِشَةَ، بِأَنْ قَبِلَ تَوْبَتَكُمْ وَإِنَابَتَكُمْ إِلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، وَعَفَا عَنْكُمْ لِإِيمَانِكُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿لَمَسَّكُمْ فيما أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ مِنْ قَضِيَّةِ الْإِفْكِ ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهذا فيمن عند إيمان يقبل الله بسببه التوبة، كمسطح و (حسان) و (حمة بِنْتِ جَحْشٍ) ، فَأَمَّا مَنْ خَاضَ فِيهِ مِنَ المنافقين كعبد الله بن أبي ابن سَلُولٍ وَأَضْرَابِهِ، فَلَيْسَ أُولَئِكَ مُرَادِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَهُمْ مِنَ الإيمانُ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مَا يُعَادِلُ هَذَا وَلَا مَا يُعَارِضُهُ،عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ حَدَّ أَرْبَعَةَ نَفَرٍ: عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ وَحَسَّانَ ابنَ ثَابِتٍ وَمِسْطَحَ بْنَ أثاثة وحمنة بنت جحش.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ﴾ تقولونه،وَأَصْلُ تَلَقَّوْنَهُ تَتَلَقَّوْنَهُ بِتَاءَيْنِ حُذِفَتْ إِحْدَاهُمَا. وَأَصْلُ التَّلَقِّي أَنَّهُ التَّكَلُّفُ لِلِقَاءِ الْغَيْرِ، كما في قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ﴾ [الْبَقَرَة: ٣٧] أَيْ عَلِمَهَا وَلَقَّنَهَا، ثُمَّ يُطْلَقُ التَّلَقِّي عَلَىٰ أَخْذِ شَيْءٍ بِالْيَدِ مِنْ يَدِ الْغَيْرِوَفِي الْحَدِيثِ: «**مَنْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا طَيِّبًا تَلَقَّاهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ**»(١)، قوله : ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَمُقَاتِلٌ: يَرْوِيهِ بَعْضُكُمْ عَنْ بَعْضٍ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: وَذَلِكَ أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ يَلْقَىٰ الرَّجُلَ فَيَقُولُ: بَلَغَنِي كَذَا وَكَذَا يَتَلَقَّوْنَهُ تلقيا، وَقَالَ الزُّجَاجُ: يُلْقِيهِ بَعْضُكُمْ

---

(١) مسلم (٢٨٥٨) .

إِلَىٰ بَعْضٍ، ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا﴾ تَظُنُّونَ أَنَّهُ سَهْلٌ لَا إِثْمَ فِيهِ، ﴿وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ﴾ فِي الْوِزْرِ والأثم .

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ﴾ هذا اللفظ هاهنا بمعنىٰ التعجب، ﴿هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ يعني كَذِبٌ عَظِيمٌ يَبْهَتُ وَيَتَحَيَّرُ مِنْ عَظَمَتِهِ، قال القرطبي : عِتَابٌ لِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْ كَانَ يَنْبَغِي عَلَيْكُمْ أَنْ تُنْكِرُوهُ وَلَا يَتَعَاطَاهُ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ عَلَىٰ جِهَةِ الْحِكَايَةِ وَالنَّقْلِ، وَأَنْ تُنَزِّهُوا اللهَ تَعَالَىٰ عَنْ أَنْ يَقَعَ هَذَا مِنْ زَوْجِ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَأَنْ تَحْكُمُوا عَلَىٰ هَذِهِ الْمَقَالَةِ بِأَنَّهَا بُهْتَانٌ، وَحَقِيقَةُ الْبُهْتَانِ أَنْ يُقَالَ فِي الْإِنْسَانِ مَا لَيْسَ فِيهِ، وَالْغِيبَةُ أَنْ يُقَالَ فِي الْإِنْسَانِ مَا فِيهِ.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَعِظُكُمُ اللهُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: يُحَرِّمُ اللهُ عَلَيْكُمُ وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يَنْهَاكُمُ اللهُ، ﴿أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ أذائه رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي عِرْضِهِ وَأَهْلِهِ، وَذَلِكَ كُفْرٌ مِنْ فَاعِلِهِ.قال الإمام مالك: مَنْ سَبَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ أُدِّبَ، وَمَنْ سَبَّ عَائِشَةَ قُتِلَ، لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، فَمَنْ سَبَّ عَائِشَةَ فَقَدْ خَالَفَ الْقُرْآنَ، وَمَنْ خَالَفَ الْقُرْآنَ قُتِلَ.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ أَيْ يُوَضِّحُ لَكُمُ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ وَالْحِكَمَ الْقَدَرِيَّةَ، ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أَيْ عَلِيمٌ بِمَا يُصْلِحُ عِبَادَهُ، حَكِيمٌ فِي شرعه وقدره.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾ يعني يظهر وَيَذِيعَ الزِّنَا، ﴿فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ يَعْنِي عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ وَأَصْحَابَهُ الْمُنَافِقِينَ، وَالْعَذَابُ فِي الدُّنْيَا الْحَدُّ وَفِي الْآخِرَةِ النَّارُ، ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ﴾ كَذِبَهُمْ وَبَرَاءَةَ عَائِشَةَ وَمَا خَاضُوا فِيهِ مِنْ سُخْطِ اللهِ، ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَيْ فَرُدُّوا الأمر إليه ترشدوا، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تُؤْذُوا عِبَادَ اللهِ وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ وَلَا تَطْلُبُوا عَوَرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ طَلَبَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ طَلَبَ اللهُ عَوْرَتَهُ حَتَّىٰ يَفْضَحَهُ فِي بيته**»(١) .

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ هَذِهِ ثَالِثُ مَرَّةٍ كَرَّرَ فِيهَا وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ، وجَوَابُ (لَوْلَا) مَحْذُوفٌ يَعْنِي: لَعَاجَلَكُمْ بِالْعُقُوبَةِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ مسطحا وحسان بن ثابت وحمنة ، وَهَذِهِ الْآيَةُ هِيَ مُنْتَهَىٰ الْآيَاتِ الْعَشْرِ الَّتِي نَزَلَتْ فِي أَصْحَابِ الْإِفْكِ عَلَىٰ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، نَزَلَتْ مُتَتَابِعَةً علىٰ النبيء صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَلَاهَا حِينَ نُزُولِهَا وَهُوَ فِي بَيْته.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ يَعْنِي طَرَائِقَهُ وَمَسَالِكَهُ وَمَا يَأْمُرُ بِهِ، ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، هَذَا تَنْفِيرٌ وَتَحْذِيرٌ مِنْ ذلك بأفصح عبارة وأبلغها وأوجزها

---

(١) أحمد (١٩٧٧٦) وأبو داود (٤٨٨٠) .

وأحسنها، قال ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾: عَمَلَهُ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: نَزَغَاتِهِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: كُلُّ مَعْصِيَةٍ فَهِيَ مِنْ خطوات الشيطان، وسأل رَجُلٌ ابْنَ مَسْعُودٍ فَقَالَ: إِنِّي حَرَّمْتُ أَنْ آكل طعاماً وسماه، فقال: هذا من نزغات الشَّيْطَانِ، كَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ وَكُلْ ، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ﴾ قال ابن عباس: قَالَ: مَا اهْتَدَىٰ أحد من الْخَلَائق لشَيْء من الْخَيْر وقَالَ مُقَاتِلٌ: مَا صَلَحَ. وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: مَا طَهُرَ، ﴿مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ وَالْآيَةُ عَلَىٰ الْعُمُومِ عِنْدَ بَعْضِ الْمُفَسِّرِينَ، قَالُوا: أَخْبَرَ اللهُ أَنَّهُ لَوْلَا فَضْلُهُ وَرَحْمَتُهُ بِالْعِصْمَةِ مَا صَلَحَ مِنْكُمْ أَحَدٌ. وَقَالَ قَوْمٌ: هَذَا الْخِطَابُ لِلَّذِينِ خَاضُوا فِي الْإِفْكِ، وَمَعْنَاهُ: مَا طَهُرَ مِنْ هَذَا الذَّنْبِ وَلَا صَلُحَ أَمْرُهُ بَعْدَ الَّذِي فَعَلَ، وَهَذَا قَوْلُ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي رِوَايَةِ عَطَاءٍ، قَالَ: مَا قَبِلَ تَوْبَةَ أَحَدٍ مِنْكُمْ، ﴿أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي﴾ يطهر ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ مِنَ الذَّنْبِ بِالرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ، ﴿وَاللهُ سَمِيعٌ﴾ أَيْ سَمِيعٌ لأقوال عباده، ﴿عليم﴾ بمن يستحق منهم الهدىٰ والضلال.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ يعني ولا يحلف، وهو يفعل مِنَ الْأَلْيَةِ وَهِيَ الحلف، ﴿أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ يعني أولو الغنىٰ وَالسَّعَةِ يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ الصَّدِيقَ ﴿أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ أيْ لَا تَحْلِفُوا أن لا تصلوا قراباتكم المساكين والمهاجرين، وهذا فِي غَايَةِ التَّرَفُّقِ وَالْعَطْفِ عَلَىٰ صِلَةِ الْأَرْحَامِ يَعْنِي مِسْطَحًا وَكَانَ مِسْكِينًا مُهَاجِرًا بَدْرِيًّا ابْنَ خَالَةِ أَبِي بَكْرٍ، حَلِفَ أَبُو بَكْرٍ أَنْ لَا ينفق عليه، ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ عَنْهُمْ خَوْضَهُمْ

فِي أَمْرِ عَائِشَةَ، ﴿أَلَا تُحِبُّونَ﴾ يُخَاطِبُ أَبَا بَكْرٍ، ﴿أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فَلَمَّا قَرَأَهَا النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ أَبِي بَكْرٍ قَالَ: بَلَىٰ أَنَا أُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي وَرَجَّعَ إِلَىٰ مسطح نفقته التي كانت ينفقها عَلَيْهِ، وَقَالَ: وَاللهِ لَا أَنْزَعُهَا مِنْهُ أَبَدًا، فَلِهَذَا كَانَ الصِّدِّيقُ هُوَ الصَّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَعَنْ بِنْتِهِ.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ العفائف، **عن الفجور** ﴿الْغَافِلَاتِ﴾ عن الفواحش، التي لم يخطر ذلك بقلوبهن ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ والغافلة عن الفاحشة التي لَا يَقَعُ فِي قَلْبِهَا فِعْلُ الْفَاحِشَةِ وَكَانَتْ عَائِشَةُ كَذَلِكَ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لُعِنُوا﴾ عذبوا، واللعنة لا تكون إلا علىٰ ذنب كبير، وأكد اللعنة بأنها متواصلة عليهم في الدارين ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بالحد، ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ بالنار، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، وهذا زيادة علىٰ اللعنة، أبعدهم عن رحمته، وأحل بهم شدة نقمته. قال مقاتل: هذا خاص فِي عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ المنافق، وروي عَنْ خَصِيفٍ قَالَ: قُلْتُ لِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: مَنْ قَذَفَ مُؤْمِنَةً يَلْعَنُهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَقَالَ ذَلِكَ لِعَائِشَةَ خَاصَّةً، وَقَالَ قَوْمٌ: هِيَ لِعَائِشَةَ وَأَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاصَّةً دون سائر المؤمنات، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: رُمِيتُ بِمَا رُمِيتُ بِهِ وَأَنَا غَافِلَةٌ فَبَلَغَنِي بَعْدَ ذَلِكَ، قَالَتْ: فَبَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ عِنْدِي، إِذْ أُوحِيَ إليه، قالت: إِذَا أُوحِيَ إِلَيْهِ أَخَذَهُ كَهَيْئَةِ السُّبَاتِ، وَإِنَّهُ أُوحِيَ إِلَيْهِ وَهُوَ جَالِسٌ عِنْدِي ثُمَّ اسْتَوَىٰ جَالِسًا يَمْسَحُ عَلَىٰ وَجْهِهِ وَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ أبشري»، وَقَدِ اخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ عُمُومَهَا، وَهُوَ الصَّحِيحُ وَيُعَضِّدُ

الْعُمُومَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ**» قيل: وما هن يا رسول الله؟ قَالَ: «**الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الغافلات المؤمنات**»(١) .

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾ وَهَذَا قَبْلَ أَنْ يَخْتِمَ عَلَىٰ أفواههم، ﴿وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ﴾ يروىٰ أنه يختم علىٰ الْأَفْوَاهُ فَتَتَكَلَّمُ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلُ بِمَا عَمِلَتْ فِي الدُّنْيَا، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ تَشْهَدُ أَلْسِنَةُ بَعْضِهِمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ، ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ جَزَاءَهُمُ الْوَاجِبَ. وَقِيلَ: حِسَابَهُمُ الْعَدْلَ. ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ يُبَيِّنُ لَهُمْ حَقِيقَةَ مَا كَانَ يَعِدُهُمْ فِي الدُّنْيَا. قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: وَذَلِكَ أَنْ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ كَانَ يَشُكُّ فِي الدِّينِ فَيَعْلَمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّ الله هو الحق المبين.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ قَالَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ: الْمَعْنَىٰ الْكَلِمَاتُ الْخَبِيثَاتُ مِنَ الْقَوْلِ لِلْخَبِيثِينَ مِنَ الرِّجَالِ، وَكَذَا الْخَبِيثُونَ مِنَ النَّاسِ لِلْخَبِيثَاتِ مِنَ الْقَوْلِ، وَكَذَا الْكَلِمَاتُ الطَّيِّبَاتُ مِنَ الْقَوْلِ لِلطَّيِّبِينَ مِنَ النَّاسِ، وَالطَّيِّبُونَ مِنَ النَّاسِ

---

(١) البخاري (٢٧٦٦) ومسلم (٨٩) .

لِلطَّيِّبَاتِ مِنَ الْقَوْلِ. قَالَ النَّحَّاسُ فِي كتاب معاني القرآن: وهذا من أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّ الْخَبِيثَ مِنَ الْقَوْلِ لَا يَلِيقُ إِلَّا بِالْخَبِيثِ مِنَ النَّاسِ وَالطِّيبَ لَا يليق إلا بالطيب، فعائشة لا تليق بها الخبيثات من القول لأمها طيبة فتضاف إليها طيبات الكلام من المدح والثناء الحسن وما يليق بها. قال الزُّجَاجُ: مَعْنَاهُ لَا يَتكَلَّمُ بِالْخَبِيثَاتِ إِلَّا الْخَبِيثَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَلَا يَتكَلَّمُ بِالطَّيِّبَاتِ إِلَّا الطَّيِّبَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، وَهَذَا ذَمٌّ لِلَّذِينِ قَذَفُوا عَائِشَةَ، وَمَدْحٌ لِلَّذِينَ بَرَّؤُوهَا بِالطَّهَارَةِ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: مَعْنَاهُ الْخَبِيثَاتُ مِنَ النِّسَاءِ لِلْخَبِيثِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالْخَبِيثُونَ مِنَ الرِّجَالِ لِلْخَبِيثَاتِ مِنَ النِّسَاءِ أَمْثَالِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ وَالشَّاكِّينَ فِي الدِّينِ، وَالطَّيِّبَاتُ مِنَ النِّسَاءِ لِلطَّيِّبِينَ مِنَ الرِّجَالِ، وَالطَّيِّبُونَ مِنَ الرِّجَالِ لِلطَّيِّبَاتِ مِنَ النِّسَاءِ. يُرِيدُ عَائِشَةَ طَيَّبَهَا اللهُ لِرَسُولِهِ الطَّيِّبِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ يَعْنِي: عَائِشَةَ وَصَفْوَانَ ذَكَرَهُمَا بِلَفْظِ الْجَمْعِ كَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾ [النِّسَاءِ: ١١] أَيْ: إِخْوَانٌ، وَقِيلَ: أُولَئِكَ مُبَرَّؤُونَ يَعْنِي الطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبَاتِ مُنَزَّهُونَ، ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فَالْمَغْفِرَةُ هِيَ الْعَفْوُ عَنِ الذُّنُوبِ وَالرِّزْقِ الْكَرِيمِ الْجَنَّةُ ، وَرُوِيَ أَنَّ عَائِشَةَ كَانَتْ تَفْتَخِرُ بِأَشْيَاءَ أُعْطِيَتْهَا لَمْ تُعْطَهَا امْرَأَةٌ غَيْرَهَا، مِنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَتَزَوَّجْ بِكْرًا غَيْرَهَا، وَقُبِضَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَأَسَهُ فِي حِجْرِهَا، وَدُفِنَ فِي بَيْتِهَا، وَكَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ وَهُوَ مَعَهَا فِي لِحَافِهِ، وَنَزَلَتْ بَرَاءَتُهَا مِنَ السَّمَاءِ، وَأَنَّهَا ابْنَةُ خَلِيفَةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَدِيقِهِ

وَخُلِقَتْ طَيِّبَةً، وَوُعِدَتْ مَغْفِرَةً وَرِزْقًا كَرِيمًا، قَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّحْقِيقِ: إِنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا رُمِيَ بِالْفَاحِشَةِ بَرَّأَهُ اللهُ عَلَىٰ لِسَانِ صَبِيٍّ فِي الْمَهْدِ، وَإِنَّ مَرْيَمَ لَمَّا رُمِيَتْ بِالْفَاحِشَةِ بَرَّأَهَا اللهُ عَلَىٰ لِسَانِ ابْنِهَا عِيسَىٰ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ، وَإِنَّ عَائِشَةَ لَمَّا رُمِيَتْ بِالْفَاحِشَةِ بَرَّأَهَا اللهُ تَعَالَىٰ بِالْقُرْآنِ، فَمَا رَضِيَ لَهَا بِبَرَاءَةِ صَبِيٍّ وَلَا نَبِيٍّ حَتَّىٰ بَرَّأَهَا اللهُ بِكَلَامِهِ مِنَ الْقَذْفِ وَالْبُهْتَانِ.

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ قِيلَ: مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا﴾ أَيْ: حَتَّىٰ تَسْتَأْذِنُوا وَكَانَ ابْنُ عباس وأبي بن كَعْبٍ يقرأ حتىٰ تستأذنوا ، وَالْقِرَاءَةُ الْمَعْرُوفَةُ تَسْتَأْنِسُوا وَهُوَ بِمَعْنَىٰ الِاسْتِئْذَانِ ، وَقِيلَ: الِاسْتِئْنَاسُ طَلَبُ الْأُنْسِ وَهُوَ أَنْ يَنْظُرَ هَلْ فِي البيت ناس فَيُؤْذِنَهُمْ إِنِّي دَاخِلٌ. وَقَالَ الْخَلِيلُ: الِاسْتِئْنَاسُ الِاسْتِبْصَارُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿آنَسْتُ ناراً﴾ [طه : ١٠] أي: أبصرتها، وَقِيلَ: هُوَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِتَسْبِيحَةٍ أَوْ تَكْبِيرَةٍ أَوْ يَتَنَحْنَحَ، يُؤْذِنُ أَهْلَ الْبَيْتِ، وَجُمْلَةُ حُكْمِ الْآيَةِ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ بَيْتَ الْغَيْرِ إِلَّا بَعْدَ السَّلَامِ وَالِاسْتِئْذَانِ. وَاخْتَلَفُوا فِي أَنَّهُ يُقَدِّمُ الِاسْتِئْذَانَ أَمِ السَّلَامَ؟ فَقَالَ قَوْمٌ: يُقَدِّمُ الِاسْتِئْذَانَ فَيَقُولُ: أَأَدْخُلُ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، لِقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ وَالْأَكْثَرُونَ عَلَىٰ أَنَّهُ يُقَدِّمُ السَّلَامَ فَيَقُولُ: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَأَدْخُلُ؟! وَفِي الْآيَةِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، تَقْدِيرُهَا: حَتَّىٰ تُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا وَتَسْتَأْذِنُوا.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾ أَيْ إِنْ لَمْ تَجِدُوا فِي الْبُيُوتِ أَحَدًا يَأْذَنُ لَكُمْ فِي دُخُولِهَا فَلَا تَدْخُلُوهَا، ﴿حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾ يَعْنِي إِذَا كَانَ فِي الْبَيْتِ قَوْمٌ فَقَالُوا: ارْجِعْ فَلْيَرْجِعْ وَلَا يقعد عَلَىٰ الْبَابِ مُلَازِمًا، ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ يَعْنِي الرُّجُوعُ أَطْهَرُ وَأَصْلَحُ لَكُمْ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ مِنَ الدُّخُولِ بِالْإِذْنِ وَغَيْرِ الْإِذْنِ، وَلَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الِاسْتِئْذَانِ قَالُوا: كَيْفَ بِالْبُيُوتِ الَّتِي بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ وَالشَّامِ وَعَلَىٰ ظَهْرِ الطَّرِيقِ، لَيْسَ فِيهَا سَاكِنٌ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

[٢٩] : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ أَيْ: بِغَيْرِ اسْتِئْذَانٍ، ﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾ يَعْنِي مَنْفَعَةً لَكُمْ وَاخْتَلَفُوا فِي هَذِهِ الْبُيُوتِ، فَقَالَ قَتَادَةُ: هِيَ الحانات وَالْبُيُوتُ وَالْمَنَازِلُ الْمَبْنِيَّةُ لِلسَّابِلَةِ لِيَأْوُوا أمتعتهم إليها فيجوز دُخُولُهَا بِغَيْرِ اسْتِئْذَانٍ وَالْمَنْفَعَةُ فِيهَا بِالنُّزُولِ وَإِيوَاءِ الْمَتَاعِ وَالِاتِّقَاءِ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: هِيَ بُيُوتُ التُّجَّارِ وَحَوَانِيتُهُمُ الَّتِي بِالْأَسْوَاقِ يَدْخُلُونَهَا لِلْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَهُوَ الْمَنْفَعَةُ. وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ: لَيْسَ علىٰ حوانيت السوق إذن، وَقِيلَ: هِيَ جَمِيعُ الْبُيُوتِ الَّتِي لَا سَاكِنَ لَهَا لِأَنَّ الِاسْتِئْذَانَ إِنَّمَا جَاءَ لِئَلَّا يُطَّلَعَ عَلَىٰ عَوْرَةٍ، فَإِنْ لَمْ يُخَفْ ذَلِكَ، فَلَهُ الدُّخُولُ بِغَيْرِ اسْتِئْذَانٍ وَقَالَ جَابِرُ بْنُ زَيْدٍ: لَيْسَ يَعْنِي بِالْمَتَاعِ الْجَهَازَ، وَلَكِنْ مَا سِوَاهُ مِنَ الْحَاجَةِ، إِمَّا مَنْزِلٌ يَنْزِلُهُ قَوْمٌ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ، أَوْ خَرِبَةٌ يَدْخُلُهَا لِقَضَاءِ حَاجَةٍ، أَوْ دَارٌ يَنْظُرُ إِلَيْهَا فَهَذَا مَتَاعٌ وَكُلُّ مَنَافِعِ الدُّنْيَا مَتَاعٌ. قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ النَّحَّاسُ: وَهَذَا شَرْحٌ حَسَنٌ مِنْ

قَوْلِ إِمَامٍ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَهُوَ مُوَافِقٌ لِلُّغَةِ ، وَالْمَتَاعُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الْمَنْفَعَةُ، وَمِنْهُ أمتع الله بك ، ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ أَيْ: مَا تُظْهِرُونَ وما تخفون، وفيه وعيد لمن يَتَأَدَّبْ بِآدَابِ اللهِ فِي دُخُولِ بُيُوتِ الْغَيْرِ.

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ أَيْ: عَنْ النَّظَرِ إِلَىٰ مَا يَحِلُّ النَّظَرُ إِلَيْهِ: وَقِيلَ: (مِنْ) صلة يعني يَغُضُّوا أَبْصَارَهُمْ. وَقِيلَ: هُوَ ثَابِتٌ لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ مَأْمُورِينَ بِغَضِّ الْبَصَرِ أَصْلًا لِأَنَّهُ لَا يَجِبُ الْغَضُّ عَمَّا يَحِلُّ النَّظَرُ إِلَيْهِ وَإِنَّمَا أُمِرُوا بِأَنْ يَغُضُّوا عَمَّا لَا يَحِلُّ النَّظَرَ إِلَيْهِ ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ عَمَّا لَا يَحِلُّ، قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: كُلُّ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ حِفْظِ الْفَرْجِ فَهُوَ عَنِ الزِّنَا وَالْحَرَامِ، إِلَّا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ فَإِنَّهُ أَرَادَ بِهِ الِاسْتِتَارَ حَتَّىٰ لَا يَقَعَ بَصَرُ الْغَيْرِ عليه، ﴿ذلك﴾ يعني غَضُّ الْبَصَرِ وَحِفْظُ الْفَرْجِ، ﴿أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ يعني خَيْرٌ لَهُمْ وَأَطْهَرُ، ﴿إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ يعني عليم بما يفعلون.

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ عَمَّا لَا يَحِلُّ، ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ عَمَّنْ لَا يَحِلُّ ، وَقِيلَ أَيْضًا: يَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ يَعْنِي يَسْتُرْنَهَا حَتَّىٰ لا يراها أحد، ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ يعني لَا يُظْهِرْنَ زِينَتَهُنَّ لِغَيْرِ مَحْرَمٍ، وَأَرَادَ بِهَا الزِّينَةَ الْخَفِيَّةَ وَهُمَا زِينَتَانِ خَفِيَّةٌ وَظَاهِرَةٌ فَالْخَفِيَّةُ مِثْلُ الْخَلْخَالِ وَالْخِضَابِ فِي الرِّجْلِ وَالسُّوَارِ فِي الْمِعْصَمِ وَالْقُرْطِ وَالْقَلَائِدِ فَلَا يَجُوزُ لَهَا إِظْهَارُهَا وَلَا لِلْأَجْنَبِيِّ النَّظَرُ إِلَيْهَا وَالْمُرَادُ مِنَ الزِّينَةِ مَوْضِعُ الزِّينَةِ ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أَرَادَ بِهِ الزِّينَةَ الظَّاهِرَةَ، وَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي هَذِهِ الزِّينَةِ

الظَّاهِرَةِ الَّتِي اسْتَثْنَاهَا اللهُ تَعَالَىٰ: قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالضَّحَّاكُ وَالْأَوْزَاعِيُّ: هُوَ الْوَجْهُ وَالْكَفَّانِ. وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: هِيَ الثِّيَابُ بِدَلِيلِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الْأَعْرَافِ: ٣١] وَأَرَادَ بِهَا الثِّيَابَ ، وَقَالَ الْحَسَنُ: الْوَجْهُ وَالثِّيَابُ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْكُحْلُ وَالْخَاتَمُ وَالْخِضَابُ فِي الْكَفِّ فَمَا كَانَ مِنَ الزِّينَةِ الظَّاهِرَةِ جَازَ لِلرَّجُلِ الْأَجْنَبِيِّ النَّظَرُ إِلَيْهِ إِذَا لَمْ يَخَفْ فِتْنَةً وَشَهْوَةً، فَإِنْ خَافَ شيئا منها غض البصر قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ﴾ يعني: ليلقين بمقانعهن وَالْخِمَارُ: ثَوْبٌ تَضَعُهُ الْمَرْأَةُ عَلَىٰ رَأْسِهَا لِسَتْرِ شَعْرِهَا وَجِيدِهَا وَأُذُنَيْهَا ﴿عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ وَالْجُيُوبُ: جَمْعُ جَيْبٍ وَهُوَ طَوْقُ الْقَمِيصِ مِمَّا يَلِي الرَّقَبَةَ. وَصُدُورِهِنَّ لِيَسْتُرْنَ بِذَلِكَ شُعُورَهُنَّ وَصُدُورَهُنَّ وَأَعْنَاقَهُنَّ وَأَقْرَاطَهُنَّ، قَالَتْ عَائِشَةُ: رَحِمَ اللهُ نِسَاءَ الْمُهَاجِرَاتِ الْأُوَلَ لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شَقَقْنَ مُرُوطَهُنَّ فَاخْتَمَرْنَ بِهَا ، وَالضَّرْبُ: تَمْكِينُ الْوَضْعِ وَتَقَدَّمَ فِي قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا ﴾ البقرة : ٢٦] ، وَالْمَعْنَىٰ: لِيَشْدُدْنَ وَضْعَ الْخُمُرِ عَلَىٰ الْجُيُوبِ، أَيْ بِحَيْثُ لَا يَظْهَرُ شَيْءٌ من بشرة الْجيد ، ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي لَا يَضَعْنَ الْجِلْبَابَ وَلَا الْخِمَارَ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ، أَيْ إِلَّا لِأَزْوَاجِهِنَّ، وَسُمِّيَ الزَّوْجُ بعلاً لِأَنَّهُ مَلَكَ أَمْرَ عِصْمَةِ زَوْجِهِ، وَلِأَنَّ الزَّوْجَ كَانَ يُعْتَبَرُ مَالِكًا لِلْمَرْأَةِ وَسَيِّدًا لَهَا ﴿أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ يشمل الأب بنفسه، والجد وإن علا ﴿أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن﴾ ويدخل فيه الأبناء وأبناء البعولة مهما نزلوا ﴿أَوْ

إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ﴾ أشقاء، أو لأب، أو لأم ، فَيَجُوزُ لِهَؤُلَاءِ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَىٰ الزِّينَةِ الْبَاطِنَةِ وَلَا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ مَا بَيْنَ السُّرَّةِ وَالرُّكْبَةِ، وَيَجُوزُ لِلزَّوْجِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ جَمِيعِ بَدَنِهَا غَيْرَ أَنَّهُ يُكْرَهُ لَهُ النَّظَرُ إِلَىٰ فَرْجِهَا. قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ أَرَادَ أَنَّهُ يَجُوزُ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَنْظُرَ إِلَىٰ بَدَنِ الْمَرْأَةِ إِلَّا مَا بَيْنَ السُّرَّةِ وَالرُّكْبَةِ كَالرَّجُلِ الْمَحْرَمِ، هَذَا إِذَا كَانَتِ الْمَرْأَةُ مُسْلِمَةً، فَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً فَهَلْ يَجُوزُ لِلْمُسْلِمَةِ أَنْ تَنْكَشِفَ لَهَا. اخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِيهِ، فَقَالَ بعضهم. يجور كَمَا يَجُوزُ أَنْ تَنْكَشِفَ لِلْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ لِأَنَّهَا مِنْ جُمْلَةِ النِّسَاءِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا يَجُوزُ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَالَ: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ وَالْكَافِرَةُ لَيْسَتْ مِنْ نِسَائِنَا وَلِأَنَّهَا أجنبية فِي الدين، وكانت أبعد من الرجل الأجنبي، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ اخْتَلَفُوا فِيهَا، فَقَالَ قَوْمٌ: عَبْدُ الْمَرْأَةِ مَحْرَمٌ لَهَا، فَيَجُوزُ لَهُ الدُّخُولُ عَلَيْهَا إِذَا كَانَ عَفِيفًا وَأَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ بَدَنِ مَوْلَاتِهِ إِلَّا مَا بَيْنَ السُّرَّةِ وَالرُّكْبَةِ، كالمحارم وهو ظاهر القرآن وَقَالَ قَوْمٌ: هُوَ كَالْأَجْنَبِيِّ مَعَهَا، وَهُوَ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، وَقَالَ: الْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ الْإِمَاءُ دون العبيد، قوله: ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ وَالْإِرْبَةُ: الْحَاجَةُ، وَالْمُرَادُ بِهَا الْحَاجَةُ إِلَىٰ قُرْبَانِ النِّسَاءِ وَالْمُرَادُ بِـ ﴿التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ﴾ هُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْقَوْمَ لِيُصِيبُوا مِنْ فَضْلِ طَعَامِهِمْ لَا هِمَّةَ لَهُمْ إِلَّا ذَلِكَ، وَلَا حَاجَةَ لَهُمْ فِي النِّسَاءِ، وَهُوَ قَوْلُ مُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةُ وَالشَّعْبِيُّ ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ الْأَحْمَقُ الْعِنِّينُ. وَقَالَ الْحَسَنُ: هُوَ الَّذِي لَا يَنْتَشِرُ وَلَا يَسْتَطِيعُ غِشْيَانَ النِّسَاءِ وَلَا يَشْتَهِيهِنَّ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: هُوَ الْمَعْتُوهُ وَقَالَ عِكْرِمَةُ:

الْمَجْبُوبُ، وَقِيلَ هُوَ الْمُخَنَّثُ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: الشيني الْهَرِمُ وَالْعِنِّينُ وَالْخَصِيُّ وَالْمَجْبُوبُ وَنَحْوُهُ، وفي الصحيحين من حديث عقبة بن عامر: « أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَىٰ النِّسَاءِ** ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَرَأَيْتَ الْحَمْوَ؟ قَالَ: **الْحَمْوُ الْمَوْتُ** »[1] ، ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ أَرَادَ بِالطِّفْلِ الْأَطْفَالَ يَكُونُ وَاحِدًا وَجَمْعًا، أَيْ: لَمْ يَكْشِفُوا عَنْ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ لِلْجِمَاعِ فَيَطَّلِعُوا عَلَيْهَا. وَقِيلَ: لَمْ يَعْرِفُوا الْعَوْرَةَ مِنْ غَيْرِهَا مِنَ الصِّغَرِ، وَهُوَ قَوْلُ مُجَاهِدٍ، وَقِيلَ: لَمْ يُطِيقُوا أَمْرَ النِّسَاءِ. وَقِيلَ: لَمْ يَبْلُغُوا حَدَّ الشَّهْوَةِ، قوله : ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ كَانَتِ الْمَرْأَةُ إِذَا مَشَتْ ضَرَبَتْ بِرِجْلِهَا لِيُسْمَعَ صَوْتُ خَلْخَالِهَا أَوْ يُتَبَيَّنَ خَلْخَالُهَا، فَنُهِيَتْ عَنْ ذَلِكَ، وعن أبي موسىٰ، عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال: « **إِذَا اسْتَعْطَرَتِ الْمَرْأَةُ فَمَرَّتْ عَلَىٰ الْقَوْمِ لِيَجِدُوا رِيحَهَا؛ فَهِيَ كَذَا وَكَذَا -قَالَ قَوْلًا شَدِيدًا**»[2] ، ﴿وَتُوبُوا إِلَىٰ اللهِ جَمِيعًا﴾ فَإِنَّكُمْ لَا تَخْلُونَ مِنْ سَهْوٍ وَتَقْصِيرٍ فِي أَدَاءِ حُقُوقِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَلَا تَتْرُكُوا التَّوْبَةَ فِي كُلِّ حَالٍ ، وَقِيلَ: رَاجِعُوا طَاعَةَ اللهِ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهَاكُمْ عَنْهُ مِنَ الْآدَابِ الْمَذْكُورَةِ فِي هَذِهِ السورة، ﴿أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ

---

(١) البخاري (٥٢٣٢) ومسلم (٢١٧٢) .

(٢) أبو داود (٤١٧٣) والترمذي (٢٧٨٦) .

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ، عَنِ أبي هريرة أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَىٰ اللهِ، فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ**»(١).

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ﴾ الْأَيَامَىٰ جَمْعُ أَيِّمٍ وَهُوَ مَنْ لَا زَوْجَ لَهُ مِنْ رَجُلٍ أَوِ امْرَأَةٍ يُقَالُ رَجُلٌ: أَيِّمٌ وَامْرَأَةٌ أَيِّمَةٌ، وَأَيِّمٌ، وَاتَّفَقَ أَهْلُ اللُّغَةِ عَلَىٰ أن الأيم في الأصل هِيَ الْمَرْأَةُ الَّتِي لَا زَوْجَ لَهَا، بِكْرًا كَانَتْ أَوْ ثَيِّبًا ، قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: يُقَالُ رَجُلٌ أَيِّمٌ وَامْرَأَةٌ أَيِّمٌ، وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي النِّسَاءِ، وَمَعْنَىٰ الْآيَةِ: زوجوا أيها المؤمنون مِنْ أَحْرَارِ رِجَالِكُمْ وَنِسَائِكُمْ ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ وَهَذَا الْأَمْرُ أَمْرُ نَدْبٍ وَاسْتِحْبَابٍ، يستحب لمن تاقت نَفْسُهُ إِلَىٰ النِّكَاحِ وَوَجَدَ أُهْبَةَ النِّكَاحِ أَنْ يَتَزَوَّجَ، وَإِنْ لَمْ يَجِدْ أُهْبَةَ النِّكَاحِ يَكْسِرُ شَهْوَتَهُ بالصوم، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغُضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ**»(٢)، ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ قِيلَ: الْغِنَىٰ هَاهُنَا الْقَنَاعَةُ ، وَقِيلَ اجْتِمَاعُ الرِّزْقَيْنِ رِزْقُ الزَّوْجِ وَرِزْقُ الزوجة، وقال عُمَرُ رضي الله عنه : عَجِبْتُ لِمَنِ ابْتَغَىٰ الْغِنَىٰ بِغَيْرِ النِّكَاحِ، وَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ .

---

(١) البخاري (٦٣٠٧) ومسلم (٢٧٠٢) .

(٢) البخاري (٥٠٦٦) ومسلم (١٤٠٠) .

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أَيْ: لِيَطْلُبِ الْعِفَّةَ عَنِ الْحَرَامِ والزنا الذين لا يجدون مالا يَنْكِحُونَ بِهِ لِلمهر وَالنَّفَقَةِ، ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أَيْ يُوَسِّعَ عَلَيْهِمْ مِنْ رِزْقِهِ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ﴾ أَيْ: يَطْلُبُونَ الْمُكَاتَبَةَ من العبيد والإماء ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ﴾ سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ مَا رُوِيَ أَنَّ غُلَامًا لِحُوَيْطِبِ بْنِ عبد العزيز سَأَلَ مَوْلَاهُ أَنْ يُكَاتِبَهُ فَأَبَىٰ عَلَيْهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ فَكَاتَبَهُ حُوَيْطِبٌ عَلَىٰ مِائَةِ دِينَارٍ، وَوَهَبَ لَهُ مِنْهَا عِشْرِينَ دِينَارًا فَأَدَّاهَا، وَقُتِلَ يَوْمَ حُنَيْنٍ فِي الْحَرْبِ، ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَىٰ الْخَيْرِ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: قُوَّةً عَلَىٰ الْكَسْبِ، وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ وَالثَّوْرِيِّ، وَقَالَ الْحَسَنُ وَمُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ: مَالًا، وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ وَابْنُ زَيْدٍ وَعُبَيْدَةُ: صِدْقًا وَأَمَانَةً، وَقَالَ طَاوُسٌ وَعَمْرُو بْنُ دِينَارٍ: مَالًا وَأَمَانَةً. وَقَالَ الشَّافِعِيُّ: وَأَظْهَرُ مَعَانِي الْخَيْرِ فِي الْعَبْدِ الِاكْتِسَابُ مَعَ الْأَمَانَةِ، فَأُحِبُّ أَنْ لَا يُمْنَعَ مِنْ كتابته إذا كان هكذا، قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ اخْتَلَفُوا فِيهِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هَذَا خِطَابٌ لِلْمَوَالِي يَجِبُ عَلَىٰ الْمَوْلَىٰ أَنْ يَحُطَّ عَنْ مُكَاتَبِهِ مِنْ مَالِ كِتَابَتِهِ شَيْئًا، وَهُوَ قَوْلُ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَالزُّبَيْرِ وَجَمَاعَةٍ، وَبِهِ قَالَ الشَّافِعِيُّ، وَقَالَ الْآخَرُونَ: لَيْسَ لَهُ حَدٌّ بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَحُطَّ عَنْهُ مَا شَاءَ، وهو قول الشافعي ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ أَمْرُ اسْتِحْبَابٍ، وَالْوُجُوبُ أَظْهَرُ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَىٰ الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ الْآيَةُ، نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ الْمُنَافِقِ كَانَتْ لَهُ جَارِيَتَانِ مُعَاذَةُ وَمُسَيْكَةُ، وَكَانَ

يُكْرِهُهُمَا عَلَىٰ الزِّنَا بِالضَّرِيبَةِ يَأْخُذُهَا مِنْهُمَا، وَكَذَلِكَ كَانُوا يَفْعَلُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يُؤَجِّرُونَ إِمَاءَهُمْ، فَلَمَّا جاء الإسلام أَتَيَا رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَشَكَتَا إِلَيْهِ، فَأَنْزَلَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ﴾ إِمَاءَكُمْ ﴿عَلَىٰ الْبِغَاءِ﴾ أَيْ الزِّنَا ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ أَيْ إِذَا أردن، وليس مَعْنَاهُ الشَّرْطُ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ إِكْرَاهُهُنَّ عَلَىٰ الزِّنَا وَإِنْ لَمْ يُرِدْنَ تَحَصُّنًا، وَالتَّحَصُّنُ التَّعَفُّفُ، وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ الْفَضْلِ: فِي الْآيَةِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ تَقْدِيرُهَا: وَأَنْكَحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَىٰ الْبِغَاءِ ، ﴿لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أَيْ: لِتَطْلُبُوا مِنْ أَمْوَالِ الدُّنْيَا يُرِيدُ مِنْ كَسْبِهِنَّ وَبَيْعِ أَوْلَادِهِنَّ، ﴿وَمَنْ يُكْرِهُّنَّ فَإِنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يَعْنِي لِلْمُكْرَهَاتِ، وَالْوِزْرُ عَلَىٰ الْمُكْرِهِ.

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، ﴿وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أَيْ شَبَهًا مِنْ حَالِكُمْ بِحَالِهِمْ أَيُّهَا الْمُكَذِّبُونَ، وَهَذَا تَخْوِيفٌ لَهُمْ أَنْ يَلْحَقَهُمْ مَا لَحِقَ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ، ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَتَّقُونَ الشِّرْكَ وَالْكَبَائِرَ، قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي صِفَةِ الْقُرْآنِ: فِيهِ حَكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وَخَبَرُ مَا قَبْلَكُمْ، وَنَبَأُ مَا بَعْدَكُمْ، وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ فقصمه الله، ومن ابتغىٰ الهدىٰ من غيره أضله الله.

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ الْحِسِّيُّ وَالْمَعْنَوِيُّ، وَذَلِكَ أَنَّهُ تَعَالَىٰ بِذَاتِهِ نُورٌ، وَحِجَابُهُ -الَّذِي لَوْلَا لُطْفُهُ، لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ

مَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ- نُورٌ، وَبِهِ اسْتَنَارَ الْعَرْشُ، وَالْكُرْسِيُّ، وَالشَّمْسُ، وَالْقَمَرُ، وَالنُّورُ، وَبِهِ اسْتَنَارَتِ الْجَنَّةُ ، وَكَذَلِكَ النُّورُ الْمَعْنَوِيُّ يَرْجِعُ إِلَىٰ اللهِ، فَكِتَابُهُ نُورٌ، وَشَرْعُهُ نُورٌ، وَالإِيمَانُ وَالْمَعْرِفَةُ فِي قُلُوبِ رُسُلِهِ وَعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ نُورٌ، فَلَوْلَا نُورُهُ تَعَالَىٰ، لَتَرَاكَمَتِ الظُّلُمَاتُ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَن فِيهِنَّ، ولك الحمد أنت قيوم السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَن فِيهِنَّ**»[1] ، ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ الذي يهدي إليه، وهو نور الإيمان والقرآن في قلوب المؤمنين، قال ابن كثير : فِي هَذَا الضَّمِيرِ قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ عَائِدٌ إِلَىٰ اللهِ عزَّ وجلَّ أَيْ مَثَلُ هُدَاهُ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾.

وَالثَّانِي: أَنَّ الضَّمِيرَ عَائِدٌ إِلَىٰ الْمُؤْمِنِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ سِيَاقُ الْكَلَامِ، تَقْدِيرُهُ: مَثَلُ نُورِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ كَمِشْكَاةٍ، فَشَبَّهَ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ وَمَا هُوَ مَفْطُورٌ عَلَيْهِ مِنَ الْهُدَىٰ وَمَا يَتَلَقَّاهُ مِنَ الْقُرْآنِ الْمُطَابِقِ لِمَا هُوَ مَفْطُورٌ عَلَيْهِ.

قوله : ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾ أي: كوة قال ابن عباس : هُوَ مَوْضِعُ الْفَتِيلَةِ مِنَ الْقِنْدِيلِ، هَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ؛ وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ وهو النور الذي في الفتيلة ، لأن الكوة تجمع نور المصباح بحيث لا يتفرق ذلك ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ

---

(١) البخاري (١١٢٠) .

الزُّجَاجَةُ﴾ من صفائها وبهائها قال ابن كثير : أَيْ هَذَا الضوء مشرق في زجاجة صافية، وَهِيَ نَظِيرُ قَلْبِ الْمُؤْمِنِ ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ أي: مضيء إضاءة الدر. قَالَ أُبي بْنُ كَعْبٍ: كَوْكَبٌ مُضِيءٌ، وَقَالَ قَتَادَةُ: مُضِيءٌ مُبِينٌ ضَخْمٌ ﴿يُوقَدُ﴾ ذلك المصباح، الذي في تلك الزجاجة الدرية ﴿مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ أي: يوقد من زيت الزيتون الذي ناره من أنور ما يكون، ﴿لا شَرْقِيَّةٍ﴾ فقط، فلا تصيبها الشمس آخر النهار، ﴿ ﴿لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ﴾ أَيْ لَيْسَتْ فِي شَرْقِيِّ بُقْعَتِهَا فَلَا تَصِلُ إِلَيْهَا الشَّمْسُ مِنْ أَوَّلِ النهار، ولا في غربيها فيقلص عَنْهَا الْفَيْءُ قَبْلَ الْغُرُوبِ، بَلْ هِيَ فِي مكان وسط تعصرها الشَّمْسُ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ إِلَىٰ آخِرِهِ، فَيَجِيءُ زيتها صافيًا معتدلاً مشرقًا، ولهذا قال: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا﴾ من صفائه ﴿يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ فإذا مسته النار، أضاء إضاءة بليغة ﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ أي: نور النار، ونور الزيت، ﴿وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أَيْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهِدَايَةَ مِمَّنْ يستحق الإضلال.

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ﴾ أَيْ ذَلِكَ الْمِصْبَاحُ فِي بُيُوتٍ ، وَقِيلَ: يُوقَدُ فِي بُيُوتٍ، وَالْبُيُوتُ: هِيَ الْمَسَاجِدُ، قَالَ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: الْمَسَاجِدُ بيوت الله في الْأَرْضِ، عَنِ ابْنِ بُرَيْدَةَ فِي قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ﴾ ، قَالَ: إِنَّمَا هِيَ أَرْبَعَةُ مَسَاجِدَ لَمْ يَبْنِهَا إِلَّا نَبِيٌّ: الْكَعْبَةُ بَنَاهَا إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ فَجَعَلَاهَا قِبْلَةً، وَبَيْتُ الْمَقْدِسِ بَنَاهُ دَاوُدُ وَسُلَيْمَانُ، وَمَسْجِدُ الْمَدِينَةِ بَنَاهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَسْجِدُ قُبَاءٍ أُسِّسَ عَلَىٰ التَّقْوَىٰ

بَنَاهُ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسلم. قوله: ﴿أَنْ تُرْفَعَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: أَنْ تُبْنَىٰ ، قَالَ الْحَسَنُ البصري : أَيْ تُعَظَّمَ أَيْ لَا يُذْكَرَ فِيهِ الْخَنَا مِنَ الْقَوْلِ ، ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: يُتْلَىٰ فِيهَا كِتَابُهُ، ﴿يُسَبِّحُ﴾ أي: يصلي، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كُلُّ تَسْبِيحٍ فِي الْقُرْآنِ صَلَاةٌ، ﴿فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أَيْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ،قَالَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ: أَرَادَ بِهِ الصَّلَوَاتِ الْمَفْرُوضَاتِ. فَالَّتِي تُؤَدَّىٰ بِالْغَدَاةِ صَلَاةُ الصُّبْحِ وَالَّتِي تُؤَدَّىٰ بِالْآصَالِ صَلَاةُ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ وَالْعِشَاءَيْنِ لِأَنَّ اسْمَ الْأَصِيلِ يَجْمَعُهُمَا ، وَقِيلَ: أَرَادَ بِهِ صَلَاةَ الصبح والعصرن وَأَخْرَّجَ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ ثُمَّ مَشَىٰ إِلَىٰ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ لِيَقْضِيَ فَرِيضَةً مِنْ فَرَائِضِ اللهِ كَانَتْ خُطْوَتَاهُ إِحْدَاهُمَا تَحُطُّ خَطِيئَةً وَالْأُخْرَىٰ تَرْفَعُ دَرَجَةً** »(١) ، قَالَ حَكِيمُ بْنُ زُرَيْقٍ: قِيلَ لِسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ أَحُضُورُ الْجِنَازَةِ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَمِ الْجُلُوسُ فِي الْمَسْجِدِ؟ فَقَالَ: مَنْ صَلَّىٰ عَلَىٰ جِنَازَةٍ فَلَهُ قِيرَاطٌ، وَمَنْ شَهِدَ دَفْنَهَا فَلَهُ قِيرَاطَانِ، وَالْجُلُوسُ فِي الْمَسْجِدِ أَحَبُّ إِلَيَّ، لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ اللَّهُمَّ تُبْ عَلَيْهِ.

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿رِجَالٌ﴾ قِيلَ: خَصَّ الرِّجَالَ بِالذِّكْرِ فِي هَذِهِ الْمَسَاجِدِ لِأَنَّهُ لَيْسَ عَلَىٰ النِّسَاءِ جُمُعَةٌ وَلَا جَمَاعَةٌ فِي الْمَسْجِدِ، ﴿لَا تُلْهِيهِمْ﴾ لا تشغلهم،

---

(١) مسلم (٦٦٦) .

﴿تِجارَةٌ﴾ قِيلَ: خَصَّ التِّجَارَةَ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهَا أَعْظَمُ مَا يَشْتَغِلُ بِهِ الْإِنْسَانُ عَنِ الصَّلَاةِ وَالطَّاعَاتِ، وَأَرَادَ بِالتِّجَارَةِ الشِّرَاءَ وَإِنْ كَانَ اسْمُ التِّجَارَةِ يَقَعُ عَلَىٰ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ جَمِيعًا لِأَنَّهُ ذَكَرَ الْبَيْعَ بَعْدَ هَذَا، وَقَالَ الْفَرَّاءُ : التِّجَارَةُ لِأَهْلِ الْجَلْبِ وَالْبَيْعِ مَا بَاعَهُ الرَّجُلُ عَلَىٰ يَدَيْهِ، قَوْلُهُ: ﴿وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾ عَنْ حُضُورِ الْمَسَاجِدِ لِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ، ﴿وَإِقَامِ﴾ أي: لإقامة، ﴿الصَّلَاةِ﴾ حَذَفَ الْهَاءَ وَأَرَادَ أَدَاءَهَا فِي وَقْتِهَا لِأَنَّ مَنْ أَخَّرَ الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا لَا يَكُونُ مِنْ مُقِيمِي الصَّلَاةِ وَأَعَادَ ذِكْرَ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ مَعَ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ ذِكْرِ اللهِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ لِأَنَّهُ أَرَادَ بِإِقَامِ الصَّلَاةِ حِفْظَ الْمَوَاقِيتِ ، وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ كَانَ فِي السُّوقِ فَأُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَقَامَ النَّاسُ وَأَغْلَقُوا حَوَانِيتَهُمْ فَدَخَلُوا الْمَسْجِدَ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ فِيهِمْ نَزَلَتْ: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ﴾ ، قوله : ﴿وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ الْمَفْرُوضَةِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: إِذَا حَضَرَ وَقْتُ أَدَاءِ الزَّكَاةِ لَمْ يَحْبِسُوهَا ، وَقِيلَ: هِيَ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ. ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ قِيلَ: تَتَقَلَّبُ الْقُلُوبُ عَمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا مِنَ الشِّرْكِ والكفر، وتنفتح أبصار مِنَ الْأَغْطِيَةِ. وَقِيلَ: تَتَقَلَّبُ الْقُلُوبُ بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ تَخْشَىٰ الْهَلَاكَ وَتَطْمَعُ فِي النَّجَاةِ، وَتَقَلُّبُ الْأَبْصَارِ مِنْ هَوْلِهِ أَيْ: نَاحِيَةَ يُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ أَمْ ذَاتَ الشِّمَالِ، وَمِنْ أَيْنَ يُؤْتُونَ الْكُتُبَ أم مِنْ قِبَلِ الْأَيْمَانِ أَمْ مِنْ قِبَلِ الشَّمَائِلِ، وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وقيل: فتقلب الْقُلُوبُ فِي الْجَوْفِ فَتَرْتَفِعُ إِلَىٰ الحنجرة فلا تزل وَلَا تَخْرُجُ، وَتَقَلُّبُ الْبَصَرِ شُخُوصُهُ مِنْ هَوْلِ الْأَمْرِ وَشِدَّتِهِ.

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ يُرِيدُ أَنَّهُمُ اشْتَغَلُوا بِذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا، أَيْ بِأَحْسَنَ مَا عَمِلُوا، يُرِيدُ يَجْزِيهِمْ بحسناتهم، وما كان من مساوي أَعْمَالِهِمْ لَا يَجْزِيهِمْ بِهَا، قال القرطبي : وذَكَرَ الْجَزَاءَ عَلَىٰ الْحَسَنَاتِ، وَلَمْ يَذْكُرِ الْجَزَاءَ عَلَىٰ السَّيِّئَاتِ وَإِنْ كَانَ يُجَازِي عَلَيْهَا لِأَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ تَرْغِيبٌ، فَاقْتَصَرَ عَلَىٰ ذِكْرِ الرَّغْبَةِ.

الثَّانِي: أَنَّهُ فِي صِفَةِ قَوْمٍ لَا تَكُونُ مِنْهُمُ الْكَبَائِرُ، فَكَانَتْ صَغَائِرُهُمْ مَغْفُورَةً.

قَوْلُهُ : ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ مَا لَمْ يَسْتَحِقُّوهُ بِأَعْمَالِهِمْ، ﴿وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ثُمَّ ضَرَبَ لِأَعْمَالِ الْكُفَّارِ مَثَلًا.

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ السَّرَابُ الشُّعَاعُ الَّذِي يُرَىٰ نِصْفَ النَّهَارِ عِنْدَ شِدَّةِ الْحَرِّ فِي الْبَرَارِيِّ، يُشْبِهُ الْمَاءَ الْجَارِيَ عَلَىٰ الْأَرْضِ يَظُنُّهُ مَنْ رَآهُ مَاءً، فَإِذَا قَرُبَ مِنْهُ انْفَشَّ فَلَمْ ير شيئا، والقيعة: جَمْعُ الْقَاعِ وَهُوَ الْمُنْبَسِطُ الْوَاسِعُ مِنَ الْأَرْضِ،وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ نَبْتٌ، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: قِيعَةٌ وَقَاعٌ وَاحِدٌ ، وَفِيهِ يَكُونُ السَّرَابُ، ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ﴾ أَيْ يَتَوَهَّمُهُ الْعَطْشَانُ، ﴿مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ﴾ أَيْ: جَاءَ مَا قَدْ رَأَىٰ أَنَّهُ مَاءٌ ، وَقِيلَ: جَاءَ مَوْضِعَ السراب، ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ عَلَىٰ مَا قَدَّرَهُ وَحَسِبَهُ، كَذَلِكَ الْكَافِرُ يَحْسَبُ أَنَّ عَمَلَهُ نَافِعُهُ فَإِذَا أَتَاهُ مَلَكُ الْمَوْتِ وَاحْتَاجَ إِلَىٰ عَمَلِهِ لَمْ يَجِدْ عَمَلَهُ أَغْنَىٰ مِنْهُ شَيْئًا وَلَا نَفَعَهُ،

﴿وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ﴾ أَيْ عِنْدَ عَمَلِهِ، أَيْ وَجَدَ اللهَ بِالْمِرْصَادِ، وَقِيلَ: قَدِمَ عَلَىٰ اللهِ، ﴿فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ أَيْ جَزَاءَ عَمَلِهِ، ﴿وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

[٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ﴾ وَهَذَا مَثَلٌ آخَرُ ضَرَبَهُ اللهُ لِأَعْمَالِ الْكُفَّارِ، يَقُولُ مَثَلُ أَعْمَالِهِمْ مِنْ فَسَادِهَا وَجَهَالَتِهِمْ فِيهَا كَظُلُمَاتٍ، قال ابن عباس: هَذَا مَثَلُ قَلْبِ الْكَافِرِ، وقَالَ الزَّجَّاجُ: إِنْ شِئْتَ مَثِّلْ بِالسَّرَابِ وَإِنْ شِئْتَ مَثِّلْ بِالظُّلُمَاتِ، ﴿فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ قِيلَ: هُوَ مَنْسُوبُ اللُّجَّةِ، وَهُوَ الَّذِي لَا يُدْرَكُ قَعْرُهُ، وَاللُّجَّةُ مُعْظَمُ الْمَاءِ، وَلَجَّجَتِ السَّفِينَةُ أَيْ خَاضَتِ اللُّجَّةَ ﴿يَغْشَاهُ﴾ أَيْ يَعْلُو ذَلِكَ الْبَحْرَ اللُّجِّيَّ مَوْجٌ، ﴿مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ متراكم، قِيلَ: الْمَعْنَىٰ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ بَعْدِهِ مَوْجٌ، فَيَكُونُ الْمَعْنَىٰ: الْمَوْجُ يَتْبَعُ بَعْضُهُ بَعْضًا حَتَّىٰ كَأَنَّ بَعْضَهُ فَوْقَ بَعْضٍ، وَهُوَ أَخْوَفُ مَا يَكُونُ إِذَا تَوَالَىٰ مَوْجُهُ وَتَقَارَبَ، وَمِنْ فَوْقِ هَذَا الْمَوْجِ سَحَابٌ، ﴿مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾ قال القرطبي: وَهُوَ أَعْظَمُ لِلْخَوْفِ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا- أَنَّهُ قَدْ غَطَّىٰ النُّجُومَ الَّتِي يُهْتَدَىٰ بِهَا.

الثَّانِي- الرِّيحُ الَّتِي تَنْشَأُ مَعَ السَّحَابِ وَالْمَطَرُ الَّذِي يَنْزِلُ مِنْهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ ظُلْمَةُ السَّحَابِ وَظُلْمَةُ الْمَوْجِ وَظُلْمَةُ الْبَحْرِ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، أَيْ: ظُلْمَةُ الْمَوْجِ عَلَىٰ ظُلْمَةِ الْبَحْرِ وَظُلْمَةُ الْمَوْجِ فَوْقَ الْمَوْجِ، وَظُلْمَةُ السَّحَابِ عَلَىٰ ظُلْمَةِ الْمَوْجِ، وَأَرَادَ بِالظُّلُمَاتِ أَعْمَالَ الْكَافِرِ وَبِالْبَحْرِ اللُّجِّيِّ قَلْبَهُ، وَبِالْمَوْجِ مَا يَغْشَىٰ قَلْبَهُ مِنَ الْجَهْلِ وَالشَّكِّ

وَالْحَيْرَةِ، وَبِالسَّحَابِ الختم والطبع علىٰ قلبه ، ﴿إِذَا أَخْرَجَ﴾ يَعْنِي النَّاظِرَ، ﴿يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ يَعْنِي لَمْ يَقْرُبْ مِنْ أَنْ يَرَاهَا مِنْ شِدَّةِ الظُّلْمَةِ. قَالَ المبرد: يعني لَمْ يرَهَا إِلَّا بَعْدَ الْجُهْدِ، كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ: مَا كِدْتُ أَرَاكَ مِنَ الظُّلْمَةِ وَقَدْ رَآهُ، وَلَكِنْ بَعْدَ يَأْسٍ وَشِدَّةٍ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ قَرُبَ مِنْ رُؤْيَتِهَا وَلَمْ يَرَهَا كَمَا يُقَالُ: كَادَ النَّعَامُ يَطِيرُ، ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ دِينًا وَإِيمَانًا فَلَا دِينَ لَهُ، وَقِيلَ: مَنْ لَمْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا إِيمَانَ لَهُ وَلَا يَهْدِيهِ أَحَدٌ. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ أُمَيَّةَ كَانَ يَلْتَمِسُ الدِّينَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَيَلْبَسُ الْمُسُوحَ فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ كَفَرَ، وَالْأَكْثَرُونَ عَلَىٰ أَنَّهُ عَامٌّ في جميع الكفار.

[٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، ﴿وَالْأَرْضِ﴾ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ بَاسِطَاتٍ أَجْنِحَتَهُنَّ بِالْهَوَاءِ، قِيلَ: خَصَّ الطَّيْرَ بِالذِّكْرِ مِنْ جُمْلَةِ الْحَيَوَانِ لِأَنَّهَا تَكُونُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَتَكُونُ خَارِجَةً عَنْ حُكْمِ مَنْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: الصَّلَاةُ لِبَنِي آدَمَ، وَالتَّسْبِيحُ لِسَائِرِ الْخَلْقِ. وَقِيلَ: إِنَّ ضَرْبَ الْأَجْنِحَةِ صَلَاةُ الطَّيْرِ وَصَوْتَهُ تَسْبِيحُهُ. قَوْلُهُ: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ﴾ أَيْ: كُلُّ مُصَلٍّ وَمُسَبِّحٍ عَلِمَ اللهُ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ كُلُّ مُصَلٍّ وَمُسَبِّحٍ مِنْهُمْ قَدْ عَلِمَ صَلَاةَ نَفْسِهِ وَتَسْبِيحَهُ، وَالصَّلَاةُ قَدْ تُسَمَّىٰ تَسْبِيحًا، قال السعدي : ﴿كلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ يعود إلىٰ الله، وأن الله تعالىٰ قد علم عباداتهم،

وإن لم تعلموا -أيها العباد- منها، إلا ما أطلعكم الله عليه. وهذه الآية كقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ .

[٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ﴾ خالقهما ورازقهما، والمتصرف فيهما، في حكمه الشرعي والقدري في هذه الدار، وفي حكمه الجزائي، بدار القرار، بدليل قوله: ﴿وَإِلَىٰ اللهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: مرجع الخلق ومآلهم، ليجازيهم بأعمالهم.

[٤٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي﴾ يعني يسوق بأمره، يقال : الْبَقَرَةُ تُزْجِي وَلَدَهَا أَيْ تَسُوقُهُ ، ﴿سَحَابًا﴾ إِلَىٰ حَيْثُ يُرِيدُ، ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ يعني يَجْمَعُ بَيْنَ قِطَعِ السَّحَابِ الْمُتَفَرِّقَةِ بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ، ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ مُتَرَاكِمًا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ، ﴿فَتَرَىٰ الْوَدْقَ﴾ يَعْنِي الْمَطَرَ، ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ وَسَطِهِ وَهُوَ جَمْعُ الْخَلَلِ، كَالْجِبَالِ جَمْعِ الْجَبَلِ، وَالرَّكْمُ جَمْعُ الشَّيْءِ، يُقَالُ مِنْهُ: رَكَمَ الشَّيْءَ يَرْكُمُهُ رَكْمًا إِذَا جَمَعَهُ وَأَلْقَىٰ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ ، ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ يَعْنِي: يُنَزِّلُ الْبَرَدَ، وَقَالَ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمَا: أَخْبَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ فِي السَّمَاءِ جِبَالًا مِنْ بَرَدٍ، ﴿فَيُصِيبُ بِهِ﴾ يعني بالبرد ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ فَيُهْلِكُ زُرُوعَهُ وَأَمْوَالَهُ ﴿وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ﴾ فَلَا يَضُرُّهُ، ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ﴾ يَعْنِي ضَوْءَ بَرْقِ السَّحَابِ، يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ أَيْ يَكَادُ ضَوْءُ بِرِقِهِ مِنْ شِدَّتِهِ يخطف الأبصار إذا اتبعته وتراءته، وقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُقَلِّبُ اللهُ

اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أَيْ يَتَصَرَّفُ فِيهِمَا فَيَأْخُذُ مِنْ طُولِ هَذَا فِي قِصَرِ هَذَا، حتىٰ يعتدلا، فهو الْمُتَصَرِّفُ فِي ذَلِكَ بِأَمْرِهِ وَقَهْرِهِ وَعِزَّتِهِ وَعِلْمِهِ، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الْأَبْصَارِ﴾ أَيْ لدليلاً علىٰ عظمته تعالىٰ.

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ يُصَرِّفُهُمَا فِي اخْتِلَافِهِمَا وَتَعَاقُبِهِمَا يَأْتِي بالليل ويذهب بالنهار ويذهب بالليل ويذهب بالنهار ويذهب بالليل، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ يَعْنِي فِي ذَلِكَ الَّذِي ذَكَرْتُ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، ﴿لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ يَعْنِي دَلَالَةً لِأَهْلِ الْعُقُولِ وَالْبَصَائِرِ عَلَىٰ قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَىٰ وَتَوْحِيدِهِ.

[٤٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾ يَعْنِي مِنْ نُطْفَةٍ ، وَالدَّابَّةُ: مَا دَبَّ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ، أَيْ مَشَىٰ. يُقَالُ: دَبَّ يَدِبُّ فَهُوَ دَابٌّ، وَالْهَاءُ لِلْمُبَالَغَةِ، وَأَرَادَ بِهِ كُلَّ حَيَوَانٍ يُشَاهَدُ فِي الدُّنْيَا وَلَا يَدْخُلُ فِيهِ الْمَلَائِكَةُ وَلَا الْجِنُّ، لِأَنَّا لَا نُشَاهِدُهُمْ، وَقِيلَ: أَصْلُ جَمِيعِ الْخَلْقِ مِنَ الْمَاءِ، قال القرطبي: أَرَادَ أَنَّ خِلْقَةَ كُلِّ حَيَوَانٍ فِيهَا مَاءٌ كَمَا خُلِقَ آدَمُ مِنَ الْمَاءِ وَالطِّينِ، ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ﴾ كَالْحَيَّاتِ وَالْحِيتَانِ وَالدِّيدَانِ، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ مِثْلُ بَنِي آدَمَ وَالطَّيْرِ، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ﴾ كَالْبَهَائِمِ وَالسِّبَاعِ، وَلَمْ يَذْكُرْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعٍ مِثْلَ حَشَرَاتِ الْأَرْضِ لِأَنَّهَا فِي الصُّورَةِ كَالَّتِي يَمْشِي عَلَىٰ الْأَرْبَعِ، وَإِنَّمَا قَالَ: (مَنْ يَمْشِي) ، وَ (مَنْ) إِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ فِيمَنْ يَعْقِلُ دُونَ مَنْ لَا يَعْقِلُ مِنَ الْحَيَّاتِ وَالْبَهَائِمِ، لِأَنَّهُ ذَكَرَ كُلَّ دَابَّةٍ،

فَدَخَلَ فِيهِ النَّاسُ وَغَيْرُهُمْ، وَإِذَا جَمَعَ اللَّفْظُ مَنْ يَعْقِلُ وَمَنْ لَا يَعْقِلُ تُجْعَلُ الْغَلَبَةُ لِمَنْ يَعْقِلُ. ﴿يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: ويُحدث الله ما يشاء من الخلق مما هو أعجب وأدق فلا حدود لقدرته وهو علىٰ كل شيء قدير.

[٤٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا﴾ إِلَيْكَ، ﴿آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ أَيْ: لَقَدْ رَحِمْنَا عِبَادَنَا، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ، أَيْ: وَاضِحَاتِ الدَّلَالَةِ، عَلَىٰ جَمِيعِ الْمَقَاصِدِ الشَّرْعِيَّةِ، وَالْآدَابِ الْمَحْمُودَةِ، وَالْمَعَارِفِ الرَّشِيدَةِ، فَاتَّضَحَتْ بِذَلِكَ السُّبُلُ، وَتَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ، وَالْهُدَىٰ مِنَ الضَّلَالِ، فَلَمْ يَبْقَ أَدْنَىٰ شُبْهَةٍ لِمُبْطِلٍ يَتَعَلَّقُ بِهَا، وَلَا أَدْنَىٰ إِشْكَالٍ لِمُرِيدِ الصَّوَابِ، لِأَنَّهَا تَنْزِيلٌ مِمَّنْ كَمَلَ عِلْمُهُ، وَكَمَلَتْ رَحْمَتُهُ، وَكَمَلَ بَيَانُهُ، فَلَيْسَ بَعْدَ بَيَانِهِ بَيَانٌ. ﴿وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أَيْ: طَرِيقٍ وَاضِحٍ مُخْتَصَرٍ، مُوصِلٍ إِلَيْهِ، وَإِلَىٰ دَارِ كَرَامَتِهِ، مُتَضَمِّنٍ الْعِلْمَ بِالْحَقِّ وَإِيثَارَهُ وَالْعَمَلَ بِهِ، عَمَّمَ الْبَيَانَ التَّامَّ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ، وَخَصَّ بِالْهِدَايَةِ مَنْ يَشَاءُ، فَهَذَا فَضْلُهُ وَإِحْسَانُهُ، وَمَا فَضْلُ الْكَرِيمِ بِمَمْنُونٍ، وَذَاكَ عَدْلُهُ، وَقَطْعُ الْحُجَّةِ لِلْمُحْتَجِّ، وَاللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ مَوَاقِعَ إِحْسَانِهِ.

[٤٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ يَعْنِي الْمُنَافِقِينَ، يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ مِنْ غَيْرِ يَقِينٍ وَلَا إِخْلَاصٍ. ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾ يُعْرِضُ عَنْ طَاعَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ، ﴿فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أَيْ مِنْ بَعْدِ قَوْلِهِمْ آمَنَّا، وَيَدْعُو إِلَىٰ غَيْرِ حُكْمِ اللهِ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ نَزَلَتْ

هَذِهِ الْآيَةُ فِي بِشْرٍ الْمُنَافِقِ كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ خُصُومَةٌ فِي أَرْضٍ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: نَتَحَاكَمُ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ الْمُنَافِقُ: نَتَحَاكَمُ إِلَىٰ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا يَحِيفُ عَلَيْنَا، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ.

[٤٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ الرسول يحكم بِحُكْمِ اللهِ، أَيْ إِذَا طُلِبُوا إِلَىٰ اتِّبَاعِ الْهُدَىٰ فِيمَا أنزل الله علىٰ رسوله أعرضوا استكبروا فِي أَنفُسِهِمْ عن اتباعه، قَالَ الماوردي: ﴿لِيَحْكُمَ﴾ وَلَمْ يَقُلْ لِيَحْكُمَا ؛ لِأَنَّ الْمَعْنِيَّ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِنَّمَا بَدَأَ بِذِكْرِ اللهِ إِعْظَامًا لِلَّهِ وَاسْتِفْتَاحَ كَلَامٍ ، ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ يعني عَنِ الْحُكْمِ ، وَقِيلَ: عَنِ الْإِجَابَةِ، قَالَ السَّعْدِيُّ: يُرِيدُونَ أَحْكَامَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَيُفَضِّلُونَ أَحْكَامَ الْقَوَانِينِ غَيْرَ الشَّرْعِيَّةِ عَلَىٰ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ؛ لِعِلْمِهِمْ أَنَّ الْحَقَّ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّ الشَّرْعَ لَا يَحْكُمُ إِلَّا بِمَا يُطَابِقُ الْوَاقِعَ.

[٤٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ مطيعين منقادين لحكمه، لِعِلْمِهِمْ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَحْكُمُ بِالْحَقِّ، يُقَالُ: أَذْعَنَ فُلَانٌ لِحُكْمِ فُلَانٍ يُذْعِنُ إذعانا. وقال النقاش: ﴿ مُذْعِنِينَ﴾ خاضعين، ومجاهد: مُسْرِعِينَ، يعني إِذَا كَانَ الْحَقُّ لَهُمْ عَلَىٰ غَيْرِهِمْ أَسْرَعُوا إِلَىٰ حُكْمِهِ لِثِقَتِهِمْ بِأَنَّهُ كَمَا يَحْكُمُ عَلَيْهِمْ بِالْحَقِّ يَحْكُمُ لَهُمْ أَيْضًا بِالْحَقِّ.

[٥٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا﴾ يعني شَكُّوا، وَالِارْتِيَابُ: الشَّكُّ. وَالْمُرَادُ: ارْتَابُوا فِي حَقِيَّةِ الْإِسْلَامِ، أَيْ حَدَثَ لَهُمُ ارْتِيَابٌ

بَعْدَ أَنْ آمَنُوا إِيمَانًا غَيْرَ رَاسِخٍ، يَعْنِي لَا يَخْرُجُ أَمْرُهُمْ أما أَنْ يَكُونَ فِي الْقُلُوبِ مَرَضٌ لَازِمٌ لَهَا، أَوْ قَدْ عَرَضَ لَهَا شَكٌّ فِي الدِّينِ، وهَذَا اسْتِفْهَامُ ذَمٍّ وَتَوْبِيخٍ، يعني هُمْ كَذَلِكَ، ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ أَيْ يَجُورُ فِي الْحُكْمِ وَالظُّلْمِ، ويقال تَحَيَّفْتُ الشيء أخذته من جوانبه ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لِأَنْفُسِهِمْ بِإِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْحَقِّ.

[٥١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ إِلَىٰ كِتَابِ اللهِ وَرَسُولِهِ، ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ هَذَا لَيْسَ عَلَىٰ طَرِيقِ الْخَبَرِ لَكِنَّهُ تَعْلِيمُ أَدَبِ الشَّرْعِ عَلَىٰ مَعْنَىٰ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ كَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونُوا، وَنَصْبُ الْقَوْلِ عَلَىٰ الْخَبَرِ وَاسْمُهُ فِي قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ يعني سَمِعْنَا الدُّعَاءَ وَأَطَعْنَا بِالْإِجَابَةِ. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، وقد كان عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كَانَ يَقُولُ: عُرْوَةُ الْإِسْلَامِ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَالطَّاعَةُ لِمَنْ وَلَّاهُ اللهُ أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ.

[٥٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: فِيمَا سَاءَهُ وَسَرَّهُ، وَيَخْشَىٰ اللهَ عَلَىٰ مَا عَمِلَ مِنَ الذُّنُوبِ. ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ بِتَرْكِ الْمَحْظُورِ، قَالَ السَّعْدِيُّ :لِأَنَّ التَّقْوَىٰ -عِنْدَ الْإِطْلَاقِ- يَدْخُلُ فِيهَا فِعْلُ الْمَأْمُورِ، وَتَرْكُ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ، وَعِنْدَ اقْتِرَانِهَا بِالْبِرِّ أَوِ الطَّاعَةِ -كَمَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ- تُفَسَّرُ بِتَوَقِّي عَذَابِ اللهِ بِتَرْكِ مَعَاصِيهِ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ النَّاجُونَ.

[٥٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أَيْ طَاقَةَ مَا قَدَرُوا أَنْ يَحْلِفُوا. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: مَنْ حَلَفَ بِاللهِ فَقَدْ أَجْهَدَ فِي الْيَمِينِ، ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ أَيْ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ أَنَّهُمْ يَخْرُجُونَ مَعَكَ فِي الْمُسْتَقبل وَيُطِيعُونَك في كل أمر ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ كَانُوا يَقُولُونَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيْنَمَا كُنْتَ نَكُنْ مَعَكَ، لَئِنْ خَرَجْتَ خَرَجْنَا ، وَإِنْ أَقَمْتَ أَقَمْنَا ، وَإِنْ أَمَرْتَنَا بِالْجِهَادِ جَاهَدْنَا، فقال تعالىٰ: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿لَا تُقْسِمُوا﴾ لَا تَحْلِفُوا، وَقَدْ تَمَّ الْكَلَامُ، ثم قال: ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ أَوْلَىٰ بِكُمْ مِنْ أَيْمَانِكُمْ، أَوْ لِيَكُنْ مِنْكُمْ طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ، وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ بِإِخْلَاصِ الْقَلْبِ، وَلَا حَاجَةَ إِلَىٰ الْيَمِينِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْمَعْنَىٰ قَدْ عَرَفْتُ طَاعَتَكُمْ وَهِيَ الْكَذِبُ وَالتَّكْذِيبُ، أَيِ الْمَعْرُوفُ مِنْكُمُ الْكَذِبُ دُونَ الْإِخْلَاصِ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ بِنِيَّةٍ خَالِصَةٍ أَفْضَلُ وَأَمْثَلُ مِنْ يَمِينٍ بِاللِّسَانِ لَا يُوَافِقُهَا الْفِعْلُ، وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ سليمان: لكن مِنْكُمْ طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ ، وقالَ مقاتل: أَمرهم أَن يكون مِنْهُم طَاعَة للنَّبِي صلىٰ الله عَلَيْهِ وَسلم من غير أَن يقسموا ﴿إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أَيْ هُوَ خَبِيرٌ بِكُمْ وَبِمَنْ يُطِيعُ ممن يعصي، فالحلف وإظهار الطاعة وَإِنْ رَاجَ عَلَىٰ الْمَخْلُوقِ فَالْخَالِقُ تَعَالَىٰ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ، لَا يَرُوجُ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ التَّدْلِيسِ، بَلْ هُوَ خَبِيرٌ بِضَمَائِرِ عِبَادِهِ وَإِنْ أَظْهَرُوا خِلَافَهَا.

[٥٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ بِإِخْلَاصِ الطَّاعَةِ وَتَرْكِ النِّفَاقِ ، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أَيْ فَإِنْ تَتَوَلَّوْا، فَحُذِفَ إِحْدَىٰ التَّاءَيْنِ. وَدَلَّ عَلَىٰ

هَذَا أَنَّ بَعْدَهُ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ ، وَلَمْ يَقُلْ وَعَلَيْهِمْ، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ يَعْنِي عَلَىٰ الرَّسُولِ مَا كُلِّفَ وَأُمِرَ بِهِ مِنْ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ، وَأَصْلُ الْكَلَامِ: فَإِنَّمَا عَلَيْكَ مَا حُمِّلْتَ وَعَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا ، ﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ مِنَ الْإِجَابَةِ وَالطَّاعَةِ، ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ جَعَلَ الِاهْتِدَاءَ مَقْرُونًا بِطَاعَتِهِ، ﴿وَما عَلَىٰ الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ﴾ أي التبليغ ﴿الْمُبِينُ﴾، وَمِمَّا يُرْوَىٰ: أَنَّ هِشَامَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ لَمَّا احْتُضِرَ أَبْصَرَ أَهْلَهُ يَبْكُونَ حَوْلَهُ، فَقَالَ: جَادَ عَلَيْكُمْ هِشَامٌ بِالدُّنْيَا وَجُدْتُمْ عَلَيْهِ بِالْبُكَاءِ، وَتَرَكَ لَكُمْ مَا جَمَعَ وَتَرَكْتُمْ عَلَيْهِ مَا حَمَلَ، مَا أَعْظَمَ مُتَقَلَّبَ هِشَامٍ إِنْ لَمْ يَغْفِرْ لَهُ!.

[٥٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَكَثَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ بَعْدَ الْوَحْيِ عَشْرَ سِنِينَ مَعَ أَصْحَابِهِ، وَأُمِرُوا بِالصَّبْرِ عَلَىٰ أَذَىٰ الْكُفَّارِ، وَكَانُوا يُصْبِحُونَ وَيُمْسُونَ خَائِفِينَ ثُمَّ أُمِرُوا بِالْهِجْرَةِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ، وَأُمِرُوا بِالْقِتَالِ وَهُمْ عَلَىٰ خَوْفِهِمْ لَا يُفَارِقُ أَحَدٌ مِنْهُمْ سِلَاحَهُ فَقَالَ رَجُلٌ منهم: أما يأتي علينا يوم نؤمن فِيهِ وَنَضَعُ السِّلَاحَ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ المعنىٰ وَاللهِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ أَيْ لَيُوَرِّثَنَّهُمْ أَرْضَ الْكُفَّارِ مِنَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ، فَيَجْعَلُهُمْ مُلُوكَهَا وَسَاسَتَهَا وَسُكَّانَهَا، قال القرطبي : وَاسْتِخْلَافِهِمْ هُوَ أَنْ يُمَلِّكَهُمُ الْبِلَادَ وَيَجْعَلَهُمْ أَهْلَهَا، كَالَّذِي جَرَىٰ فِي الشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَخُرَاسَانَ وَالْمَغْرِبِ ، وفي الحديث أنه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : « **وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الْأَمْرُ حَتَّىٰ يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ**

إِلَىٰ حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ وَالذِّئْبَ عَلَىٰ غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»[1] ، ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ﴾ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَغَيْرَهُمَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ، وَقِيلَ: كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَيْ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَيْثُ أَهْلَكَ الْجَبَابِرَةَ بِمِصْرَ وَالشَّامِ وَأَوْرَثَهُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ، ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ أَيْ اخْتَارَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُوَسِّعُ لَهُمْ فِي الْبِلَادِ حَتَّىٰ يُمَلِّكُوهَا وَيُظْهِرَ دِينَهُمْ عَلَىٰ سَائِرِ الأديان، ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ﴾ وقال بعضهم: التبديل تغير حَالٍ إِلَىٰ حَالٍ، وَالْإِبْدَالُ رَفْعُ الشَّيْءِ وَجَعْلُ غَيْرِهِ مَكَانَهُ، ﴿مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي﴾ آمِنِينَ، ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ قال النقاش : لا يعبدون إلها غيري، فَأَنْجَزَ اللهُ وَعْدَهُ وَأَظْهَرَ دِينَهُ وَنَصَرَ أَوْلِيَاءَهُ وَأَبْدَلَهُمْ بَعْدَ الْخَوْفِ أمنا وبسطا في الأرض. وفي الحديث: «**يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ**» قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: «**هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَىٰ الْعِبَادِ؟**» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أعلم، قال: «**حَقَّ اللهِ عَلَىٰ الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يشركوا به شيئًا**»[2] ، ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أَرَادَ بِهِ كُفْرَانَ النِّعْمَةِ، وَلَمْ يُرِدِ الْكُفْرَ بِاللهِ، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الْعَاصُونَ لِلَّهِ، قَالَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ: أَوَّلُ مَنْ كَفَرَ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ وَجَحَدَ حَقَّهَا الَّذِينَ قَتَلُوا أمير المؤمنين عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَلَمَّا قَتَلُوهُ غَيَّرَ اللهُ مَا بِهِمْ وَأَدْخَلَ عَلَيْهِمُ الْخَوْفَ حَتَّىٰ صَارُوا يَقْتَتِلُونَ بعد أن كانوا إخوانا.

---

(١) البخاري (٣٦١٢) .

(٢) البخاري (٢٨٥٦) ومسلم (٣٠) .

[٥٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أي أقيموا أيها الناس الصلوات التي فرضها الله عليكم بحدودها وأركانها وواجباتها وشروطها، وأدوا زكاة أموالكم علىٰ اختلاف أنواعها المفصلة في السنة المطهرة، واتبعوا هدي نبيكم عليه الصلاة والسلام ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أَيْ افْعَلُوهَا عَلَىٰ رَجَاءِ الرَّحْمَةِ .

[٥٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ ولا تَحْسَبَنَّ﴾ أي لا تظن يا محمد إن ﴿الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أَيْ خَالَفُوكَ وَكَذَّبُوكَ ﴿مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أَيْ لَا يُعْجِزُونَ اللهَ بَلِ اللهُ قَادِرٌ عَلَيْهِمْ، وَسَيُعَذِّبُهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَأْوَاهُمُ﴾ أَيْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أَيْ بِئْسَ الْمَآلُ مَآلُ الْكَافِرِينَ، وَبِئْسَ الْقَرَارُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ.

[٥٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ﴾ اللَّامُ لَامُ الْأَمْرِ ، قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَىٰ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مُحْكَمَةٌ، سُئِلَ الشَّعْبِيُّ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَمَنْسُوخَةٌ هِيَ؟ قَالَ: لَا وَاللهِ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ النَّاسَ لَا يَعْمَلُونَ بِهَا فَقَالَ: الْمُسْتَعَانُ بِاللهِ. وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، وَقِيلَ لَهُ: كَيْفَ تَرَىٰ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي أُمِرْنَا فِيهَا بِمَا أُمِرْنَا، وَلَا يَعْمَلُ بِهَا أَحَدٌ ﴿لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ ، قَالَ : إِنَّ اللهَ حَكِيمٌ رَحِيمٌ بِالْمُؤْمِنِينَ يُحِبُّ السَّتْرَ، وَكَانَ النَّاسُ لَيْسَ لِبُيُوتِهِمْ سُتُورٌ وَلَا حِجَالٌ، فَرُبَّمَا دَخَلَ الْخَادِمُ أَوْ الْوَلَدُ أَوْ يَتِيمَةُ الرَّجُلِ وَالرَّجُلُ عَلَىٰ أَهْلِهِ فَأَمَرَهُمْ اللهُ تَعَالَىٰ بِالِاسْتِئْذَانِ فِي تِلْكَ الْعَوْرَاتِ، فَجَاءَهُمْ اللهُ بِالسُّتُورِ

وَالْخَيْرِ، فَلَمْ أَرَ أَحَدًا يَعْمَلُ بِذَلِكَ بَعْدُ، ﴿الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يَعْنِي الْعَبِيدَ وَالْإِمَاءَ، ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ﴾ مِنَ الْأَحْرَارِ، لَيْسَ الْمُرَادُ مِنْهُمُ الْأَطْفَالَ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ، بَلِ الَّذِينَ عَرَفُوا أَمْرَ النِّسَاءِ وَلَكِنْ لَمْ يَبْلُغُوا، ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ أَيْ لِيَسْتَأْذِنُوا فِي ثَلَاثِ أَوْقَاتٍ، ﴿مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ﴾ يُرِيدُ الْمَقِيلَ، وسط النهار. ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ وَإِنَّمَا خَصَّ هَذِهِ الْأَوْقَاتِ لِأَنَّهَا سَاعَاتُ الْخَلْوَةِ وَوَضْعِ الثِّيَابِ فَرُبَّمَا يَبْدُو مِنَ الْإِنْسَانِ مَا لَا يُحِبُّ أَنَّ يَرَاهُ أَحَدٌ، أَمَرَ الْعَبِيدَ وَالصِّبْيَانَ بِالِاسْتِئْذَانِ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ، وَأَمَّا غَيْرُهُمْ فَلْيَسْتَأْذِنُوا فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ ، أَيْ: لِيَسْتَأْذِنُوا فِي ثَلَاثَةِ أَوْقَاتٍ مِنْ سَاعَاتِ لَيْلِكُمْ وَنَهَارِكُمْ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَقُولُ: إِذَا خَلَا الرَّجُلُ بِأَهْلِهِ بَعْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ، فَلَا يَدْخُلْ عَلَيْهِ خَادِمٌ وَلَا صَبِيٌّ إِلَّا بِإِذْنٍ، حَتَّىٰ يُصَلِّيَ الْغَدَاةَ، فَإِذَا خَلَا بِأَهْلِهِ عِنْدَ صَلَاةِ الظُّهْرِ فَمِثْلُ ذَلِكَ، وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: فَيُؤْمَرُ الْخَدَمُ وَالْأَطْفَالُ أَلَّا يَهْجُمُوا عَلَىٰ أَهْلِ الْبَيْتِ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ؛ لِمَا يُخْشَىٰ مِنْ أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ عَلَىٰ أَهْلِهِ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْمَالِ ، ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾ الْعَوْرَةُ فِي الْأَصْلِ: الْخَلَلُ وَالنَّقْصُ. وَفِيهِ قِيلَ لِمَنْ فُقِدَتْ عَيْنُهُ أَعْوَرُ ، ثُمَّ أُطْلِقَتْ عَلَىٰ مَا يُكْرَهُ انْكِشَافُهُ كَمَا هُنَا وَكَمَا سُمِّيَ مَا لَا يُحِبُّ الْإِنْسَانُ كَشْفُهُ مِنْ جَسَدِهِ عَوْرَةً. سُمِّيَتْ هَذِهِ الْأَوْقَاتُ عَوْرَاتٍ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَضَعُ فِيهَا ثِيَابَهُ فَتَبْدُو عَوْرَتُهُ، ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ جناح ﴿وَلَا عَلَيْهِمْ﴾ عَلَىٰ الْعَبِيدِ وَالْخَدَمِ وَالصِّبْيَانِ، ﴿جُنَاحٌ﴾ فِي الدُّخُولِ عَلَيْكُمْ مِنْ غَيْرِ استئذان، ﴿بَعْدَهُنَّ﴾ أَيْ بَعْدَ

هَذِهِ الْأَوْقَاتِ الثلاثة، ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ﴾ أَيْ: الْعَبِيدُ وَالْخَدَمُ يَطُوفُونَ عَلَيْكُمْ فَيَتَرَدَّدُونَ وَيَدْخُلُونَ وَيَخْرُجُونَ فِي أَشْغَالِهِمْ بِغَيْرِ إِذْنٍ، ﴿بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أَيْ يَطُوفُ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ قال القرطبي : مَعْنَىٰ ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ﴾ أَيْ يَطُوفُونَ عَلَيْكُمْ وَتَطُوفُونَ عَلَيْهِمْ، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ فِي الْهِرَّةِ ﴿إِنَّمَا هِيَ مِنَ الطَّوَّافِينَ عَلَيْكُمْ أَوِ الطَّوَّافَاتِ﴾ وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي حُكْمِ هَذِهِ الْآيَةِ، فَقَالَ قَوْمٌ: مَنْسُوخٌ. قَالَ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لَمْ يَكُنْ لِلْقَوْمِ سُتُورٌ وَلَا حِجَابٌ، فَكَانَ الْخَدَمُ وَالْوَلَائِدُ يَدْخُلُونَ فَرُبَّمَا يَرَوْنَ مِنْهُمْ مَا لَا يُحِبُّونَ، فَأُمِرُوا بِالِاسْتِئْذَانِ، وَقَدْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ وَاتَّخَذَ النَّاسُ السُّتُورَ فَرَأَىٰ أَنَّ ذَلِكَ أَغْنَىٰ عَنِ الِاسْتِئْذَانِ، وَذَهَبَ قَوْمٌ إِلَىٰ أَنَّهَا غَيْرُ مَنْسُوخَةٍ، رَوَىٰ سُفْيَانُ عَنْ مُوسَىٰ بْنِ أَبِي عَائِشَةَ قَالَ: سَأَلْتُ الشَّعْبِيَّ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أَمَنْسُوخَةٌ هِيَ؟ قَالَ: لَا وَاللهِ، قُلْتُ: إِنَّ النَّاسَ لَا يَعْمَلُونَ بِهَا، قَالَ: اللهُ الْمُسْتَعَانُ ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: إِنَّ نَاسًا يَقُولُونَ: نُسِخَتْ وَاللهِ مَا نُسِخَتْ، وَلَكِنَّهَا مِمَّا تَهَاوَنَ به الناس، ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ﴾ بَيَانًا مَقْرُونًا بِحِكْمَتِهِ، لِيَتَأَكَّدَ وَيَتَقَوَّىٰ وَيُعْرَفَ بِهِ رَحْمَةُ شَارِعِهِ وَحِكْمَتِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ لَهُ الْعِلْمُ الْمُحِيطُ بِالْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحِيلَاتِ وَالْمُمْكِنَاتِ، وَالْحِكْمَةُ الَّتِي وَضَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ، فَأَعْطَىٰ كُلَّ مَخْلُوقٍ خَلْقَهُ اللَّائِقَ بِهِ، وَأَعْطَىٰ كُلَّ حُكْمٍ شَرْعِيٍّ حُكْمَهُ اللَّائِقَ بِهِ، وَمِنْهُ هَذِهِ الْأَحْكَامُ الَّتِي بَيَّنَهَا وَبَيَّنَ مَآخِذَهَا وَحُسْنَهَا .

[٥٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ﴾ أَيْ: الِاحْتِلَامَ يُرِيدُ الْأَحْرَارَ الَّذِينَ بلغوا، ﴿فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾ أَيْ يَسْتَأْذِنُونَ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ فِي الدُّخُولِ عَلَيْكُمْ، وَقَالَ عَطَاءٌ: وَاجِبٌ عَلَىٰ النَّاسِ أَجْمَعِينَ أَنْ يَسْتَأْذِنُوا إِذَا احْتَلَمُوا، عَلَىٰ مَنْ كَانَ مِنَ النَّاسِ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: يَعْنِي إِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ الَّذِينَ إِنَّمَا كَانُوا يَسْتَأْذِنُونَ فِي الْعَوْرَاتِ الثَّلَاثِ إِذَا بَلَغُوا الْحُلُمَ، وَجَبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَسْتَأْذِنُوا عَلَىٰ كل حال، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَحْوَالِ الثَّلَاثِ. ﴿كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ مِنَ الْأَحْرَارِ وَالْكِبَارِ، وَقِيلَ: يَعْنِي الَّذِينَ كَانُوا مَعَ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ، ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ دَلَالَاتِهِ، وَقِيلَ: أَحْكَامُهُ، ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ﴾ بأمور خلقه، ﴿حَكِيمٌ﴾ بِمَا دَبَّرَ لَهُمْ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: يَسْتَأْذِنُ الرَّجُلُ عَلَىٰ أُمِّهِ فَإِنَّمَا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي ذَلِكَ، وَسُئِلَ حُذَيْفَةُ أَيَسْتَأْذِنُ الرَّجُلُ عَلَىٰ وَالِدَتِهِ؟ قَالَ: نَعَمْ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ رَأَىٰ مِنْهَا ما يكره.

[٦٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ يَعْنِي اللَّاتِي قَعَدْنَ عَنِ الْوَلَدِ وَالْحَيْضِ مِنَ الْكِبَرِ لَا يَلِدْنَ وَلَا يَحِضْنَ، وَاحِدَتُهَا قَاعِدٌ بِلَا هَاءٍ ، وَقِيلَ: قَعَدْنَ عَنِ الْأَزْوَاجِ، وَهَذَا مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: ﴿اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ أَيْ لَا يُرِدْنَ الرِّجَالَ لِكِبَرِهِنَّ، قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: سُمِّيَتِ الْمَرْأَةُ قَاعِدًا إِذَا كَبُرَتْ لِأَنَّهَا تُكْثِرُ الْقُعُودَ، وَقَالَ رَبِيعَةُ الرَّأْيُ: هُنَّ العجز اللائي إذا رأوهن الرِّجَالُ اسْتَقْذَرُوهُنَّ، فَأَمَّا مَنْ كَانَتْ فِيهَا بَقِيَّةٌ مِنْ جِمَالٍ وَهِيَ مَحَلُّ الشَّهْوَةِ فَلَا تَدْخُلُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ عِنْدَ الرِّجَالِ، يَعْنِي يَضَعْنَ بَعْضَ ثِيَابِهِنَّ، وَهِيَ

الْجِلْبَابُ وَالرِّدَاءُ الَّذِي فَوْقَ الثِّيَابِ، وَالْقِنَاعِ الَّذِي فَوْقَ الْخِمَارِ، فَأَمَّا الْخِمَارُ فَلَا يَجُوزُ وَضْعُهُ، قال القرطبي : إِنَّمَا خُصَّ الْقَوَاعِدُ بِذَلِكَ لِانْصِرَافِ الْأَنْفُسِ عَنْهُنَّ، إذ لا يذهب لِلرِّجَالِ فِيهِنَّ، فَأُبِيحَ لَهُنَّ مَا لَمْ يُبَحْ لِغَيْرِهِنَّ، وَأُزِيلَ عَنْهُمْ كُلْفَةُ التَّحَفُّظِ الْمُتْعِبِ لَهُنَّ. ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ أَيْ غَيْرَ مُظْهِرَاتٍ وَلَا مُتَعَرِّضَاتٍ بِالزِّينَةِ لِيُنْظَرَ إِلَيْهِنَّ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَقْبَحِ الْأَشْيَاءِ وَأَبْعَدِهِ عَنِ الْحَقِّ. وَالتَّبَرُّجُ: التَّكَشُّفُ وَالظُّهُورُ لِلْعُيُونِ، وَمِنْهُ: بُرُوجٌ مُشَيَّدَةٌ، وَالتَّبَرُّجُ هُوَ أَنْ تُظْهِرَ الْمَرْأَةُ مِنْ مَحَاسِنِهَا مَا يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَتَنَزَّهَ عَنْهُ، وَقَالَ قَوْمٌ: الْكَبِيرَةُ الَّتِي أَيِسَتْ مِنَ النِّكَاحِ، لَوْ بَدَا شَعْرُهَا فَلَا بَأْسَ، فَعَلَىٰ هَذَا يَجُوزُ لَهَا وَضْعُ الْخِمَارِ. وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا كَالشَّابَّةِ فِي التَّسَتُّرِ، إِلَّا أَنَّ الْكَبِيرَةَ تَضَعُ الْجِلْبَابَ الَّذِي يَكُونُ فَوْقَ الدِّرْعِ وَالْخِمَارِ، وَقِيلَ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، مَا تَقُولِينَ فِي الْخِضَابِ وَالصِّبَاغِ وَالتَّمَائِمِ وَالْقُرْطَيْنِ وَالْخَلْخَالِ وَخَاتَمِ الذَّهَبِ وَرِقَاقِ الثِّيَابِ؟ فَقَالَتْ: يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ، قِصَّتُكُنَّ قِصَّةُ امْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ، أَحَلَّ اللهُ لَكُنَّ الزِّينَةَ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ لِمَنْ لَا يَحِلُّ لَكُنَّ أَنْ يَرَوْا مِنْكُنَّ مُحَرَّمًا، وَقَالَ عَطَاءٌ: هَذَا فِي بُيُوتِهِنَّ، فَإِذَا خَرَجَتْ فَلَا يَحِلُّ لَهَا وَضْعُ الْجِلْبَابِ. ﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ ﴾ فَلَا يُلْقِينَ الْجِلْبَابَ وَالرِّدَاءَ، وَالِاسْتِعْفَافُ: التَّعَفُّفُ، فَالسِّينُ وَالتَّاءُ فِيهِ لِلْمُبَالَغَةِ مِثْلُ اسْتَجَابَ، أَيْ تَعَفُّفُهُنَّ عَنْ وَضْعِ الثِّيَابِ عَنْهُنَّ أَفْضَلُ لَهُنَّ ، قال القرطبي : وَاسْتِعْفَافُهُنَّ عَنْ وَضْعِ الثِّيَابِ وَالْتِزَامُهُنَّ مَا يَلْزَمُ الشَّبَابَ أَفْضَلُ لَهُنَّ وَخَيْرٌ ، وفي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **صِنْفَانِ**

مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ ، لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ ، وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا »(١) ، قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: وَإِنَّمَا جَعَلَهُنَّ كَاسِيَاتٍ لِأَنَّ الثِّيَابَ عَلَيْهِنَّ، وَإِنَّمَا وصفهن بأنهن عاريات لان الثواب إِذَا رَقَّ يَصِفُهُنَّ، وَيُبْدِي مَحَاسِنَهُنَّ، وَذَلِكَ حَرَامٌ ، قال القرطبي : هَذَا أَحَدُ التَّأْوِيلَيْنِ لِلْعُلَمَاءِ فِي هَذَا الْمَعْنَىٰ ، وَالثَّانِي: أَنَّهُنَّ كَاسِيَاتٌ مِنَ الثِّيَابِ عَارِيَاتٌ مِنْ لِبَاسِ التَّقْوَىٰ الَّذِي ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهِ: ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوىٰ ذلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف : ٢٦] ، ﴿ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ .

[٦١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ عَلَىٰ الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي هَذِهِ الآية فقيل: (عَلَىٰ) بِمَعْنَىٰ فِي أَيْ لَيْسَ فِي الْأَعْمَىٰ يَعْنِي لَيْسَ عَلَيْكُمْ فِي مُؤَاكَلَةِ الْأَعْمَىٰ وَالْأَعْرَجِ وَالْمَرِيضِ، وقال مجاهد: نزلت الآية ترخصا لِهَؤُلَاءِ فِي الْأَكْلِ مِنْ بُيُوتِ مَنْ سَمَّىٰ اللهُ فِي هَذِهِ الْآيَةَ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: كَانَ الْمُسْلِمُونَ إِذَا غَزَوْا خَلَّفُوا زَمْنَاهُمْ وَيَدْفَعُونَ إِلَيْهِمْ مَفَاتِيحَ أَبْوَابِهِمْ وَيَقُولُونَ: قَدْ أَحْلَلْنَا لَكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِمَّا فِي بُيُوتِنَا، فَكَانُوا يَتَحَرَّجُونَ مِنْ ذَلِكَ وَيَقُولُونَ: لَا نَدْخُلُهَا وَهُمْ غُيَّبٌ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ رُخْصَةً لَهُمْ. قَالَ الْحَسَنُ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ رُخْصَةً لِهَؤُلَاءِ فِي التَّخَلُّفِ

---

(١) مسلم (٢١٢٨) .

عَنِ الْجِهَادِ ، قَالَ: تَمَّ الْكَلَامُ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا عَلَىٰ الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ كَلَامٌ مُنْقَطِعٌ عَمَّا قَبْلَهُ، وَقِيلَ: لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ : ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ قَالُوا: لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ مِنَّا أَنْ يَأْكُلَ عِنْدَ أَحَدٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ أَيْ لَا حَرَجَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ ، قِيلَ: أَرَادَ مِنْ أَمْوَالِ عِيَالِكُمْ وَأَزْوَاجِكُمْ، وَبَيْتُ الْمَرْأَةِ كَبَيْتِ الزَّوْجِ. وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: أَرَادَ مِنْ بُيُوتِ أَوْلَادِكُمْ نسب الْأَوْلَادِ إِلَىٰ الْآبَاءِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «**أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ**»[1] ، ﴿أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: عَنَيَ بِذَلِكَ وَكِيلَ الرَّجُلِ وَقَيِّمَهُ فِي ضَيْعَتِهِ وَمَاشِيَتِهِ، لَا بَأْسَ عَلَيْهِ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ ثَمَرِ ضَيْعَتِهِ وَيَشْرَبَ مِنْ لَبَنِ مَاشِيَتِهِ، وَلَا يَحْمِلُ وَلَا يَدَّخِرُ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: يَعْنِي فِي بُيُوتِ عَبِيدِكُمْ وَمَمَالِيكِكُمْ، وَذَلِكَ أَنَّ السَّيِّدَ يَمْلِكُ مَنْزِلَ عَبْدِهِ وَالْمَفَاتِيحُ الْخَزَائِنُ، لِقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ [الْأَنْعَامِ: ٥٩] وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الَّذِي يَفْتَحُ بِهِ ، قَالَ عِكْرِمَةُ: إِذَا مَلَكَ الرَّجُلُ الْمِفْتَاحَ فَهُوَ خَازِنٌ، فَلَا بَأْسَ أَنْ يَطْعَمَ الشَّيْءَ الْيَسِيرَ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: الرَّجُلُ يُوَلِّي طَعَامَهُ غَيْرَهُ يَقُومُ عَلَيْهِ فَلَا بَأْسَ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهُ. وَقَالَ قوم: وما مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ

---

(١) أبو داود (٣٥٣٠) وابن ماجه (٢٢٩١) .

مَا خَزَنْتُمُوهُ عِنْدَكُمْ. قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: مِنْ بُيُوتِ أَنْفُسِكُمْ مِمَّا أَحْرَزْتُمْ وَمَلَكْتُمْ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ المسلمون يذهبون مع النَّفِيرِ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَدْفَعُونَ مُفَاتِحَهُمْ إِلَىٰ ضُمَنَائِهِمْ، وَيَقُولُونَ: قَدْ أَحْلَلْنَا لَكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مَا احْتَجْتُمْ إِلَيْهِ، فَكَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَنَا أَنْ نَأْكُلَ، إِنَّهُمْ أَذِنُوا لَنَا عَنْ غَيْرِ طِيبِ أَنْفُسِهِمْ، وَإِنَّمَا نَحْنُ أُمَنَاءُ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿أَوَ مَا مَلَكْتُمْ مَّفَاتِحهُ﴾، قوله: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ الصَّدِيقُ الَّذِي صَدَقَكَ فِي الْمَوَدَّةِ، وَالْمَعْنَىٰ ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا﴾ مِنْ مَنَازِلَ هَؤُلَاءِ إِذَا دَخَلْتُمُوهَا وَإِنْ لَمْ يَحْضُرُوا، مِنْ غَيْرِ أَنْ تَتَزَوَّدُوا وَتَحْمِلُوا ، قَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ قال قتادة: كان هَذَا الْحَيُّ مِنْ (بَنِي كِنَانَةَ) يَرَىٰ أَحَدُهُمْ أَنَّ مَخْزَاةً عَلَيْهِ أَنْ يَأْكُلَ وَحْدَهُ فِي الجاهلية، حتىٰ إن الرَّجُلَ لَيَسُوقُ الذَّودَ الْحُفَّلَ وَهُوَ جَائِعٌ حَتَّىٰ يَجِدَ مَنْ يُؤَاكِلُهُ وَيُشَارِبُهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعـًا أَوْ أَشْتَاتـًا﴾ فَهَذِهِ رُخْصَةٌ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ فِي أَنْ يَأْكُلَ الرَّجُلُ وَحْدَهُ وَمَعَ الْجَمَاعَةِ، وَإِنْ كَانَ الأكل مع الجماعة أبرك وأفضل، كما روي أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسلم: إنا نأكل ولا نشبع، قال: «**لعلكم تَأْكُلُونَ مُتَفَرِّقِينَ، اجْتَمِعُوا عَلَىٰ طَعَامِكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ الله يبارك لكم فيه** »(١) ، قوله : ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ أَيْ يُسَلِّمُ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ، هذا

---

(١) أبو داود (٣٧٦٤) وابن ماجه (٣٢٨٦) .

فِي دخول الرجل ببيت نَفْسِهِ يُسَلِّمُ عَلَىٰ أَهْلِهِ وَمَنْ فِي بيته، وَقَالَ قَتَادَةُ: إِذَا دَخَلْتَ بَيْتَكَ فَسَلِّمْ عَلَىٰ أَهْلِكَ فَهُوَ أَحَقُّ مَنْ سَلَّمْتَ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَخَلَتْ بَيْتًا لَا أَحَدَ فِيهِ فَقُلْ: السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَىٰ عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ. ﴿تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ نُصْبٌ عَلَىٰ الْمَصْدَرِ أَيْ تُحَيُّونَ تحية، ﴿مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ ، وَقِيلَ: ذَكَرَ الْبَرَكَةَ وَالطِّيبَةَ هَاهُنَا لِمَا فِيهِ مِنَ الثَّوَابِ وَالْأَجْرِ ، ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ .

[٦٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ﴾ أَيْ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال القرطبي : الْمَعْنَىٰ: لَا يَتِمُّ وَلَا يَكْمُلُ إِيمَانُ مَنْ آمَنَ بالله ورسول إِلَّا بِأَنْ يَكُونَ مِنَ الرَّسُولِ سَامِعًا غَيْرَ مُعَنِّتٍ فِي أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ يُرِيدُ إِكْمَالَ أَمْرٍ فَيُرِيدُ هُوَ إِفْسَادَهُ بِزَوَالِهِ فِي وَقْتِ الْجَمْعِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَبَيَّنَ تَعَالَىٰ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ أَنَّهُ أَنْزَلَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ، وَإِنَّمَا النُّزُولُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَخَتَمَ السُّورَةَ بِتَأْكِيدِ الْأَمْرِ فِي مُتَابَعَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لِيُعْلِمَ أَنَّ أَوَامِرَهُ كَأَوَامِرِ الْقُرْآنِ، ﴿عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ يَجْمَعُهُمْ مِنْ حَرْبٍ حَضَرَتْ أَوْ صَلَاةٍ أَوْ جُمُعَةٍ أَوْ عِيدٍ أَوْ جَمَاعَةٍ أَوْ تَشَاوُرٍ فِي أمر نزل، وَالْأَمْرُ: الشَّأْنُ وَالْحَالُ الْمُهِمُّ، وَالْجَامِعُ: الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَجْتَمِعَ النَّاسُ لِأَجْلِهِ لِلتَّشَاوُرِ أَوِ التَّعَلُّمِ. وَالْمُرَادُ: مَا يَجْتَمِعُ الْمُسْلِمُونَ لِأَجْلِهِ حَوْلَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي مَجْلِسِهِ أَوْ فِي صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ، وَاخْتُلِفَ فِي الْأَمْرِ الْجَامِعِ مَا هُوَ، فَقِيلَ: الْمُرَادُ بِهِ مَا لِلْإِمَامِ مِنْ حَاجَةٍ إِلَىٰ تَجَمُّعِ النَّاسِ فِيهِ لِإِذَاعَةِ مَصْلَحَةٍ، مِنْ

إِقَامَةِ سُنَّةٍ فِي الدِّينِ، أَوْ لِتَرْهِيبِ عَدُوٍّ بِاجْتِمَاعِهِمْ وَلِلْحُرُوبِ، ﴿لَمْ يَذْهَبُوا﴾ لم يَتَفَرَّقُوا عَنْهُ لَمْ يَنْصَرِفُوا عَمَّا اجْتَمَعُوا لَهُ مِنَ الْأَمْرِ، ﴿حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ وَظَاهِرُ الْآيَةِ يَقْتَضِي أَنْ يُسْتَأْذَنَ أَمِيرُ الْإِمْرَةِ الَّذِي هُوَ فِي مَقْعَدِ النُّبُوَّةِ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا كَانَ لَهُ رَأْيٌ فِي حَبْسِ ذَلِكَ الرَّجُلِ لِأَمْرٍ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ، وَرُوِيَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي حَفْرِ الْخَنْدَقِ حِينَ جَاءَتْ قُرَيْشٌ وَقَائِدُهَا أَبُو سُفْيَانَ، وَغَطَفَانُ وَقَائِدُهَا عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ، فَضَرَبَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْخَنْدَقَ عَلَىٰ الْمَدِينَةِ، وَذَلِكَ فِي شَوَّالٍ سَنَةَ خَمْسٍ مِنَ الْهِجْرَةِ، فَكَانَ الْمُنَافِقُونَ يَتَسَلَّلُونَ لِوَاذًا مِنَ الْعَمَلِ وَيَعْتَذِرُونَ بِأَعْذَارٍ كَاذِبَةٍ، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ أَيْ أَمَرَهُمْ، إذا كان له عذر واستأذن، فإن كان في قعوده وعدم ذهابه مصلحة برأيه، أو شجاعته، ونحو ذلك، لم يأذن له، ومع هذا إذا استأذن، وأذن له بشرطيه، أمر الله رسوله أن يستغفر له، لما عسىٰ أن يكون مقصرا في الاستئذان، ﴿فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ فِي الِانْصِرَافِ، مَعْنَاهُ إِنْ شِئْتَ فَأْذَنْ وَإِنْ شِئْتَ فَلَا تَأْذَنْ، وقد قال صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا انْتَهَىٰ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ الْمَجْلِسِ فَلْيُسَلِّمْ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ فليسلم، فليست الأولىٰ بأحق من الآخرة**»[1]، ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر لهم الذنوب ويرحمهم، بأن جوز لهم الاستئذان مع العذر.

---

(١) أبو داود (٥٢٠٨) والترمذي (٢٧٠٦).

[٦٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: يَقُولُ احْذَرُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ عَلَيْكُمْ إِذَا أَسْخَطْتُمُوهُ فَإِنَّ دُعَاءَهُ مُوجَبٌ لِنُزُولِ الْبَلَاءِ بِكُمْ لَيْسَ كَدُعَاءِ غَيْرِهِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: لَا تَدْعُوهُ بِاسْمِهِ كَمَا يَدْعُو بَعْضُكُمْ بَعْضًا يَا مُحَمَّدُ يَا عَبْدَ اللهِ، وَلَكِنْ فَخِّمُوهُ وَشَرِّفُوهُ، فَقُولُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ يَا رَسُولَ اللهِ فِي لِينٍ وَتَوَاضُعٍ، وقال مقاتل: لَا تُسَمُّوهُ إِذَا دعوتموه يا محمد، ولا تقولوا: يا ابن عَبْدِ اللهِ، وَلَكِنْ شرِّفوه فَقُولُوا: يَا نَبِيَّ الله، يا رسول الله؛ وهذا كقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ، وَلاَ تَجْهَرُواْ لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تشعرون﴾، وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: أَيْ لَا تَعْتَقِدُوا أَنَّ دُعَاءَهُ عَلَىٰ غَيْرِهِ كَدُعَاءِ غَيْرِهِ؛ فَإِنَّ دُعَاءَهُ مُسْتَجَابٌ، فَاحْذَرُوا أَنْ يَدْعُوَ عَلَيْكُمْ فَتَهْلِكُوا، فَهَذَا كُلُّهُ مِنْ بَابِ الْأَدَبِ فِي مُخَاطَبَةِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْكَلَامِ مَعَهُ وَعِنْدَهُ، ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ﴾ أي: يخرجون ، التَّسَلُّلُ وَالِانْسِلَالُ: الْخُرُوجُ ، ويعني الْخُرُوجِ بِخُفْيَةٍ خُرُوجًا كَأَنَّهُ سَلُّ شَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ، قوله : ﴿مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ أَيْ يَسْتُرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَيَرُوغُ فِي خِيفَةٍ، فَيَذْهَبُ، وَاللِّوَاذُ مَصْدَرُ لَاوَذَ يُلَاوِذُ مُلَاوَذَةً، وَلِوَاذًا، قِيلَ: كَانَ هَذَا فِي حَفْرِ الْخَنْدَقِ فَكَانَ الْمُنَافِقُونَ يَنْصَرِفُونَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُخْتَفِينَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: لِوَاذًا أَيْ يَلُوذُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ كَانَ يَثْقُلُ عَلَيْهِمُ الْمَقَامُ فِي الْمَسْجِدِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَاسْتِمَاعُ خُطْبَةِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ فكَانُوا يَلُوذُونَ بِبَعْضِ أَصْحَابِهِ فَيَخْرُجُونَ مِنَ الْمَسْجِدِ فِي اسْتِتَارٍ، وَمَعْنَىٰ قَوْلِهِ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ﴾ لِلتَّهْدِيدِ بِالْمُجَازَاةِ، ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ أَيْ أَمْرَهُ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ يُعْرِضُونَ عَنْ أَمْرِهِ وَيَنْصَرِفُونَ عَنْهُ بِغَيْرِ إِذْنِهِ. وفي حديث أَبِي هريرةَ رضي الله عنه أَن رَسُولَ الله صَلّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم قالَ: "كُلُّ أُمَّتِي يدْخُلُونَ الْجنَّةَ إلاَّ مَنْ أَبِي. قِيلَ وَمَنْ يَأَبىٰ يَا رَسُول الله؟ قالَ: منْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجنَّةَ، ومنْ عصَانِي فقَدْ أَبِي ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أَيْ لِئَلَّا تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ، قَالَ مُجَاهِدٌ: بَلَاءٌ فِي الدُّنْيَا، قال جعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ: سُلْطَانٌ جَائِرٌ يُسَلَّطُ عَلَيْهِمْ. وَقِيلَ: الطَّبْعُ عَلَىٰ الْقُلُوبِ بِشُؤْمِ مُخَالَفَةِ الرَّسُولِ. ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وَجِيعٌ فِي الْآخِرَةِ، وَقِيلَ: عَذَابٌ أَلِيمٌ عَاجِلٌ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ عَظَّمَ نَفْسَهُ، عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ بَكَّارٍ قَالَ: سَمِعْتُ مَالِكًا بْنَ أَنَسٍ -وَأَتَاهُ رَجُلٌ- فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، مِنْ أَيْنَ أُحْرِمُ؟ قَالَ: مِنْ ذِي الْحُلَيْفَةِ؛ حَيْثُ أَحْرَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُحْرِمَ مِنَ الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: لَا تَفْعَلْ، قَالَ: فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُحْرِمَ مِنَ الْمَسْجِدِ مِنْ عِنْدِ الْقَبْرِ، قَالَ: لَا تَفْعَلْ؛ فَإِنِّي أَخْشَىٰ عَلَيْكَ الْفِتْنَةَ. فَقَالَ: وَأَيُّ فِتْنَةٍ هَذِهِ؟ إِنَّمَا هِيَ أَمْيَالٌ أَزِيدُهَا. قَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ: وَأَيُّ فِتْنَةٍ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ تَرَىٰ أَنَّكَ سَبَقْتَ إِلَىٰ فَضِيلَةٍ قَصَّرَ عَنْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ؟! إِنِّي سَمِعْتُ اللهَ يَقُولُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ اللائي يعقن فِي النَّارِ يَقَعْنَ**

فِيهَا، وَجَعَلَ يَحْجِزُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فيقتحمن فِيهَا، قَالَ: فَذَلِكَ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ، أَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، فَتَغْلِبُونِي وتتقحمون فيها »[1].

[٦٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مَلِكًا وَعَبِيدًا، ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ مِنَ الْإِيمَانِ وَالنِّفَاقِ أَيْ يَعْلَمُ، قَالَ قتادة : مَا كَانَ قوم قطّ علىٰ أَمر وَلَا علىٰ حَال إِلَّا كانوا بِعَين الله وَإِلَّا كَانَ عَلَيْهِم شَاهد من الله ، قال القرطبي: و ﴿قد يَعْلَمُ﴾ هُنَا بِمَعْنَىٰ: عَلِمَ ، وَقَالَ النَّسَفِيُّ: أَدْخَلَ (قَدْ) لِيُؤَكِّدَ عِلْمَهُ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْمُخَالَفَةِ عَنِ الدِّينِ، وَيَرْجِعُ تَوْكِيدُ الْعِلْمِ إِلَىٰ تَوْكِيدِ الْوَعِيدِ، وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّ جَمِيعَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مُخْتَصٌّ بِهِ خَلْقًا وَمِلْكًا وَعِلْمًا، فَكَيْفَ تَخْفَىٰ عَلَيْهِ أَحْوَالُ الْمُنَافِقِينَ وَإِنْ كَانُوا يَجْهَدُونَ فِي سَتْرِهَا؟!، ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يَعْنِي يَوْمَ القيامة ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، فِي الدنيا، ثم يجازيهم علىٰ ما أسلفوا فيها، من خلافهم علىٰ ربهم ﴿وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ النُّورِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

---

(١) مسلم (٢٢٨٥).

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

وهي مَكِّيَّةٌ كُلُّهَا فِي قَوْلِ الْجُمْهُورِ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ: إِلَّا ثَلَاثَ آيَاتٍ مِنْهَا نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ، وَهِيَ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلهـًا آخَرَ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيمـًا﴾ وسميت هذه السورة بـ(سُورَةُ الْفُرْقَانِ) لِوُقُوعِ لَفْظِ الْفُرْقَانِ فِيهَا ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي أَوَّلِهَا وَوَسَطِهَا وَآخِرِهَا.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَبَارَكَ﴾ تَفَاعَلَ، مِنَ الْبَرَكَةِ، قال ابْنِ عَبَّاسٍ: مَعْنَاهُ جَاءَ بِكُلِّ بَرَكَةٍ، قال الطبري : تبارك الذي نَزَّلَ الفصل بين الحق والباطل، فصلًا بعد فصل، وسورة بعد سُورة، ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ أَيْ الْقُرْآنَ، وَقِيلَ: إِنَّهُ اسْمٌ لِكُلِّ مُنَزَّلٍ، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسىٰ وَهارُونَ الْفُرْقانَ﴾ وَفِي تَسْمِيَتِهِ فُرْقَانًا وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا- لِأَنَّهُ فَرَقَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ.

الثَّانِي- لِأَنَّ فِيهِ بَيَانَ مَا شَرَعَ مِنْ حَلَالٍ وَحَرَامٍ، ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ أَيْ: لِلْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، قِيلَ: النَّذِيرُ هُوَ الْقُرْآنُ ، وَقِيلَ: مُحَمَّدٌ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ عَظَّمَ تَعَالَىٰ نَفْسَهُ، ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ نَزَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نَفْسَهُ عَمَّا قَالَهُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ أَوْلَادُ اللهِ، يَعْنِي بَنَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وَعَمَّا قَالَتِ الْيَهُودُ: عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ، جَلَّ اللهُ تَعَالَىٰ ، وَعَمَّا قَالَتِ النَّصَارَىٰ: الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ، تَعَالَىٰ اللهُ عَنْ ذَلِكَ، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الملك﴾ كما قال عبدة الأوثان ، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ مِمَّا يُطْلَقُ عَلَيْهِ صِفَةُ الْمَخْلُوقِ، ﴿فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ أي: أعطىٰ كل مخلوق منها ما يليق به ويناسبه من الخلق وما تقتضيه حكمته من ذلك، وَقِيلَ: قَدَّرَ لِكُلِّ شَيْءٍ تَقْدِيرًا مِنَ الْأَجَلِ وَالرِّزْقِ، فَجَرَتِ الْمَقَادِيرُ علىٰ ما خلق.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاتَّخَذُوا﴾ يَعْنِي عَبَدَةَ الْأَوْثَانِ، ﴿مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ يَعْنِي: الْأَصْنَامَ، ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أَيْ دَفْعَ ضُرٍّ وَلَا جَلْبَ نَفْعٍ، ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً﴾ أي إماتة ولا إحياء، ﴿وَلَا نُشُورًا﴾ أَيْ بَعْثًا بَعْدَ الْمَوْتِ. وَالنُّشُورُ: الْإِحْيَاءُ بَعْدَ الْمَوْتِ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ، من أمثال: النَّضْرَ ابنَ الحارث وأصحابه، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَ مُؤْذِيًا لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ﴿إِنْ هَذَا﴾ مَا هَذَا الْقُرْآنُ، ﴿إِلَّا إِفْكٌ﴾ كذب، ﴿افْتَرَاهُ﴾ اخْتَلَقَهُ مُحَمَّدٌ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي الْيَهُودَ ،

وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: هُوَ عُبَيْدُ بْنُ الْخِضْرِ الْحَبَشِيُّ الْكَاهِنُ ، وَقِيلَ: جَبْرٌ وَيَسَارٌ وَعَدَّاسُ بْنُ عُبَيْدٍ، كَانُوا بِمَكَّةَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَزَعَمَ الْمُشْرِكُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْخُذُ مِنْهُمْ، قَالَ اللهُ تعالىٰ: ﴿فَقَدْ جَاءُوا﴾ يَعْنِي قَائِلِي هَذِهِ الْمَقَالَةِ، ﴿ظُلْمًا وَزُورًا﴾ أَيْ بِظُلْمٍ وَزُورٍ. فَلَمَّا حَذَفَ الْبَاءَ انْتُصِبَ، يَعْنِي جَاؤُوا شِرْكًا وَكَذِبًا بِنِسْبَتِهِمْ كَلَامَ اللهِ تَعَالَىٰ إِلَىٰ الْإِفْكِ وَالِافْتِرَاءِ ، وَالزُّورُ: الْكَذِبُ، وَأَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي الزُّورِ: إِنَّهُ الْكَذِبُ الْمُحَسَّنُ الْمُمَوَّهُ بِحَيْثُ يَشْتَبِهُ بِالصِّدْقِ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا﴾ يَعْنِي النَّضْرَ بْنَ الْحَارِثِ كَانَ يَقُولُ: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ لَيْسَ مِنَ اللهِ وَإِنَّمَا هُوَ مِمَّا سَطَّرَهُ الْأَوَّلُونَ مِثْلَ حَدِيثِ رُسْتُمَ وَإِسْفِنْدِيَارَ، اكْتَتَبَهَا انْتَسَخَهَا مُحَمَّدٌ مِنْ جَبْرٍ وَيَسَارٍ وَعَدَّاسٍ، وَمَعْنَىٰ اكْتَتَبَ يَعْنِي طَلَبَ أَنْ يُكْتَبَ لَهُ لِأَنَّهُ كَانَ لَا يَكْتُبُ، ﴿فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ يَعْنِي تُقْرَأُ عَلَيْهِ لِيَحْفَظَهَا لَا ليكتبها، ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ غُدْوَةً وَعَشِيًّا، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَدًّا عَلَيْهِمْ:

[٦] : ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ، ﴿الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ﴾ أَيْ قُلْ يَا مُحَمَّدُ أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ، فَهُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ، فَلَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ مُعَلِّمٍ، وَذَكَرَ (السِّرَّ) دُونَ الْجَهْرِ، لِأَنَّهُ مَنْ عَلِمَ السِّرَّ فَهُوَ فِي الْجَهْرِ أَعْلَمُ، ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ يُرِيدُ غَفُورًا لِأَوْلِيَائِهِ رحيماً بهم.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ﴾ يَعْنُونَ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسلم، ﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ كَمَا نَأْكُلُ نَحْنُ، ﴿وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ يَلْتَمِسُ الْمَعَاشَ كَمَا نَمْشِي فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَمْتَازَ عَنَّا بِالنُّبُوَّةِ، وَكَانُوا يَقُولُونَ لَهُ لَسْتَ أَنْتَ بِمَلَكٍ وَلَا بِمَلِكٍ، لِأَنَّكَ تَأْكُلُ وَالْمَلَكِ لَا يَأْكُلُ، وَلَسْتَ بِمَلِكٍ لِأَنَّ الْمَلِكَ لَا يَتَسَوَّقُ، وَأَنْتَ تَتَسَوَّقُ وَتَتَبَذَّلُ ، وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُخَالِطُهُمْ فِي أَسْوَاقِهِمْ، وَيَأْمُرُهُمْ وَيَنْهَاهُمْ، فَقَالُوا: هَذَا يطلب أن يتملك علينا، فماله يُخَالِفُ سِيرَةَ الْمُلُوكِ، فَأَجَابَهُمُ اللهُ تعالىٰ : ﴿وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ﴾ فَلَا تَغْتَمَّ وَلَا تَحْزَنْ، فَإِنَّهَا شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكَ عَارُهَا. وَفِي الْبُخَارِيِّ فِي صِفَتِهِ عَلَيْهِ الصلاة والسَّلَامُ: « **لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ وَلَا سَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ** »[١] ، ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ فيصدقه، ﴿فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ دَاعِيًا.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ﴾ أَيْ: يُنْزَلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ مِنَ السَّمَاءِ يُنْفِقُهُ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ التَّرَدُّدِ وَالتَّصَرُّفِ فِي طَلَبِ الْمَعَاشِ، ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ﴾ بستان، ﴿يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ أَيْ تَسِيرُ مَعَهُ حَيْثُ سَارَ، وَهَذَا كُلُّهُ سَهْلٌ يَسِيرٌ عَلَىٰ اللهِ وَلَكِنَّ لَهُ الْحِكْمَةَ فِي تَرْكِ ذَلِكَ، وَلَهُ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ، ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا

---

(١) البخاري (٢١٢٥) .

مَسْحُورًا﴾ مَخْدُوعًا. وَقِيلَ: مَصْرُوفًا عَنِ الْحَقِّ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: ﴿مَسْحُوراً﴾ مَعْنَاهُ أَنَّ لَهُ سَحْرًا.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿انْظُرْ﴾ يَا مُحَمَّدُ، ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ يعني الأشباه، فقال: مسحور محتاج وغيره، قال القرطبي : ضَرَبُوا لَكَ هَذِهِ الْأَمْثَالَ لِيَتَوَصَّلُوا إِلَىٰ تَكْذِيبِكَ ، ﴿فَضَلُّوا﴾ سَبِيلِ الْحَقِّ وَعَنْ بُلُوغِ مَا أَرَادُوا، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ إِلَىٰ الْهُدَىٰ وَمَخْرَجًا عَنِ الضَّلَالَةِ، قال ابن كثير : وَذَلِكَ أن كل من خرج عن الحق وطريق الهدىٰ فَإِنَّهُ ضَالٌّ حَيْثُمَا تَوَجَّهَ، لِأَنَّ الْحَقَّ وَاحِدٌ ومنهجه مُتَّحِدٌ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا؛ ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ مخبراً نبيه أنه إن شَاءَ لَآتَاهُ خَيْرًا مِمَّا يَقُولُونَ فِي الدُّنْيَا وأفضل وأحسن، فقال:

[١٠] : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ﴾ الَّذِي قَالُوا أَوْ أَفْضَلَ مِنَ الْكَنْزِ وَالْبُسْتَانِ الَّذِي قال ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي خَيْرًا مِنَ الْمَشْيِ فِي الْأَسْوَاقِ وَالتَّمَاسِ الْمَعَاشِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ الْخَيْرَ فَقَالَ: ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا﴾ بُيُوتًا مُشَيَّدَةً، قَالَ مُجَاهِدٌ: كَانَتْ قُرَيْشٌ تَرَىٰ الْبَيْتَ مِنْ حِجَارَةٍ قَصْرًا كَائِنًا مَا كَانَ ، وَالْقَصْرُ فِي اللُّغَةِ الْحَبْسُ، وَسُمِّيَ الْقَصْرُ قَصْرًا لِأَنَّ مَنْ فِيهِ مَقْصُورٌ عَنْ أَنْ يُوصَلَ إِلَيْهِ، وَقِيلَ: الْعَرَبُ تُسَمِّي بُيُوتَ الطِّينِ الْقَصْرَ. وَمَا يُتَّخَذُ مِنَ الصُّوفِ وَالشَّعْرِ الْبَيْتَ، وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: جَلَسَ جِبْرِيلُ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَظَرَ فِي السَّمَاءِ فَإِذَا مَلَكٌ يَنْزِلُ، فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: إِنَّ هَذَا الْمَلَكَ مَا نَزَلَ مُذْ خُلِقَ قَبْلَ السَّاعَةِ، فَلَمَّا نَزَلَ قَالَ: يَا

مُحَمَّدُ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ رَبُّكَ أَمَلِكًا أَجْعَلُكَ أَمْ عَبْدًا رَسُولًا؟ قَالَ لَهُ جِبْرِيلُ تَوَاضَعْ لِرَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ - قَالَ: «**لَا بَلْ عَبْدًا رَسُولًا**»(١).

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ يُرِيدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ﴿وَأَعْتَدْنا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً﴾ أي: نارا عظيمة قد اشتد سعيرها، وتغيظت علىٰ أهلها واشتد زفيرها.يُقَالُ: سُعِرَتِ النَّارُ فَهِيَ مَسْعُورَةٌ وَسَعِيرٌ، مِثْلَ مَقْتُولَةٍ وَقَتِيلٍ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ ثبت عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ بَيْنَ عَيْنَيْ جَهَنَّمَ مَقْعَدًا**»، قَالُوا: وَهَلْ لَهَا مِنْ عَيْنَيْنِ؟ قَالَ: «**نَعَمْ أَلَمْ تَسْتَمِعُوا قَوْلَ اللهِ تَعَالَىٰ**: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ » ، وَقِيلَ: إِذَا رَأَتْهُمْ زَبَانِيَتُهَا ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا﴾ غَلَيَانًا كَالْغَضْبَانِ إِذَا غَلَىٰ صَدْرُهُ من الغضب، وَالْغَيْظُ: غَضَبٌ شَدِيدٌ يُلَازِمُهُ إِرَادَةُ الِانْتِقَامِ. ﴿وَزَفِيرًا﴾ صَوْتًا، قال القرطبي : قِيلَ: الْمَعْنَىٰ إِذَا رَأَتْهُمْ جَهَنَّمُ سَمِعُوا لَهَا صَوْتَ التَّغَيُّظِ عَلَيْهِمْ. فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يَسْمَعُ التَّغَيُّظَ؟ قِيلَ: مَعْنَاهُ رَأَوْا وَعَلِمُوا أَنَّ لَهَا تَغَيُّظًا وَسَمِعُوا لَهَا زفيرا، وَقِيلَ: سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا أَيْ: صوت التغيظ مع التلهب والتوقد، عَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ عَبْدِ الله بن مسعود ومعنا الربيع بن خيثم، فَمَرُّوا عَلَىٰ حَدَّادٍ، فَقَامَ عَبْدُ اللهِ يَنْظُرُ إلىٰ حديدة في النار، وينظر الربيع بن خيثم إليها، فتمايل الربيع لِيَسْقُطَ، فَمَرَّ عَبْدُ اللهِ عَلَىٰ أَتُونٍ عَلَىٰ شَاطِئِ

---

(١) أحمد (٧١٦٠).

الْفُرَاتِ، فِلَمَّا رَآهُ عَبْدُ اللهِ وَالنَّارُ تَلْتَهِبُ فِي جَوْفِهِ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيراً﴾ فصعق، يعني الربيع، وحملوه إلىٰ أهل بيته، فرابطة عَبْدُ اللهِ إِلَىٰ الظُّهْرِ، فَلَمْ يَفِقْ رَضِيَ الله عنه.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ قال ابن عباس: يضيق عَلَيْهِمْ كَمَا يَضِيقُ الزُّجُّ فِي الرمح، والزج حديدة توضع في آخر الرمح وَالْإِلْقَاءُ: الرَّمْيُ، وَهُوَ هُنَا كِنَايَةٌ عَنِ الْإِهَانَةِ، ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ مكتفين مقيدين قَدْ قُرِنَتْ أَيْدِيهِمْ إِلَىٰ أَعْنَاقِهِمْ فِي الْأَغْلَالِ، وَقِيلَ: مُقَرَّنِينَ مَعَ الشَّيَاطِينِ فِي السَّلَاسِلِ، ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَيْلًا، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: هَلَاكًا، وَالثُّبُورُ: الْهَلَاكُ، أَيْ نَادَوْا: يَا ثبورنا.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾، قِيلَ: أَيْ هَلَاكُكُمْ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ تَدْعُوا مَرَّةً وَاحِدَةً فَادْعُوا أَدْعِيَةً كَثِيرَةً، قال ابن كثير: والأظهر أن الثُّبور يجمع الهلاك والويل والخسارَ والدَّمار، كما قال موسىٰ لفرعون: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَافِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ أي: هالكًا.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَذَلِكَ﴾ يَعْنِي الَّذِي ذَكَرْتُهُ مِنْ صِفَةِ النَّارِ وَأَهْلِهَا، ﴿خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً﴾ ثوابًا ﴿وَمَصِيرًا﴾ مَرْجِعًا.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ مِنَ الْمَلَاذِّ مِنْ مَآكِلَ وَمَشَارِبَ، وَمَلَابِسَ وَمَسَاكِنَ، وَمَرَاكِبَ وَمَنَاظِرَ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أذن

سمعت ولا خطر علىٰ قَلْبِ أَحَدٍ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ خَالِدُونَ أَبَدًا دَائِمًا سَرْمَدًا، بِلَا انْقِطَاعٍ وَلَا زَوَالٍ وَلَا انقضاء، ولا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا، وَهَذَا مِنْ وَعْدِ اللهِ الَّذِي تَفَضَّلَ بِهِ عَلَيْهِمْ وَأَحْسَنَ بِهِ إِلَيْهِمْ، ولهذا قال: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾ أَيْ لَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ وَأَنْ يَكُونَ أي وعداً واجباً، وَقَالَ أَبُو حَازِمٍ: إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ قَالَ الْمُؤْمِنُونَ: رَبَّنَا عَمِلْنَا لَكَ بِالَّذِي أَمَرْتَنَا فَأَنْجِزْ لَنَا مَا وَعَدْتَنَا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ الْحَشْرُ الْجَمْعُ ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَعِيسَىٰ وَعُزَيْرٍ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ وَالضَّحَّاكُ وَالْكَلْبِيُّ: يَعْنِي الْأَصْنَامَ ثُمَّ يخاطبهم، ﴿فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ أي فيقول تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لِلْمَعْبُودِينَ: أَأَنْتُمْ دَعَوْتُمْ هَؤُلَاءِ إِلَىٰ عِبَادَتِكُمْ مِنْ دُونِي، أَمْ هُمْ عَبَدُوكُمْ مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ غَيْرِ دَعْوَةٍ مِنْكُمْ لَهُمْ..؟! كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذِ قَالَ اللهُ يَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ؟ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بحق﴾ [المائدة: ١١٦] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَمَّا يُجِيبُ بِهِ الْمَعْبُودُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ:

[١٨]: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ نَزَّهُوا اللهَ مِنْ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ إِلَهٌ ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ يَعْنِي مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نُوَالِيَ أَعْدَاءَكَ، بَلْ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ، وَقِيلَ: مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْمُرَهُمْ بِعِبَادَتِنَا وَنَحْنُ نَعْبُدُكَ،

﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ﴾ أَيْ فِي الدُّنْيَا بِالصِّحَّةِ وَالْغِنَىٰ وَطُولِ الْعُمُرِ بَعْدَ مَوْتِ الرُّسُلِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ ، ﴿حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ﴾ أَيْ تَرَكُوا ذِكْرَكَ ، فَأَشْرَكُوا بِكَ بَطَرًا وَجَهْلًا فَعَبَدُونَا مِنْ غَيْرِ أَنْ أَمَرْنَاهُمْ بِذَلِكَ ، وَفِي معنىٰ الذِّكْرِ قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا: الْقُرْآنُ الْمُنَزَّلُ عَلَىٰ الرُّسُلِ، تَرَكُوا الْعَمَلَ بِهِ، قَالَهُ ابْنُ زَيْدٍ.

الثَّانِي: الشُّكْرُ عَلَىٰ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ وَالْإِنْعَامِ عَلَيْهِمْ.

قوله : ﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ يَعْنِي هَلْكَىٰ غَلَبَ عَلَيْهِمُ الشَّقَاءُ وَالْخِذْلَانُ، رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ بَائِرٌ، وَقَوْمٌ بُورٌ، وَأَصْلُهُ مِنَ الْبَوَارِ وَهُوَ الْكَسَادُ وَالْفَسَادُ، وَمِنْهُ بَوَارُ السِّلْعَةِ وَهُوَ كَسَادُهَا، وقَالَ الْحَسَنُ البصري: (بُوراً) لَا خَيْرَ فِيهِمْ، مَأْخُوذٌ مِنْ بَوَارِ الْأَرْضِ، وَهُوَ تَعْطِيلُهَا مِنَ الزَّرْعِ فَلَا يَكُونُ فِيهَا خَيْرٌ.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ﴾ هذا الخطاب مَعَ الْمُشْرِكِينَ، أَيْ كَذَّبَكُمُ الْمَعْبُودُونَ ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ إنهم آلهة، ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ يَعْنِي: الْآلِهَةُ. ﴿صَرْفًا﴾ يعني صرف الْعَذَابِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ يعني ولا نصر أنفسهم. قيل: وَلَا نَصْرَكُمْ أَيُّهَا الْعَابِدُونَ مِنْ عَذَابِ اللهِ بِدَفْعِ الْعَذَابِ عَنْكُمْ وَقِيلَ: الصَّرْفُ الْحِيلَةُ، وَمِنْهُ قَوْلُ الْعَرَبِ: إِنَّهُ لَيَصْرِفَ أَيْ يَحْتَالُ، ﴿وَمَنْ يَظْلِمْ﴾ يُشْرِكْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَنْ يُشْرِكْ مِنْكُمْ ثُمَّ مَاتَ عَلَيْهِ ، ﴿مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ أَيْ شَدِيدًا، كَقَوْلِهِ تعالىٰ: ﴿ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤] أي شديداً.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ يا مُحَمَّدُ، ﴿إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ قال ابْنِ عَبَّاسٍ: لَمَّا عَيَّرَ الْمُشْرِكُونَ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالُوا: مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ، أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْآيَةَ، يَعْنِي مَا أَنَا إِلَّا رَسُولٌ وَمَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ، وَهُمْ كَانُوا بَشَرًا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ، ﴿وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ وَقِيلَ: مَعْنَاهُ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا قِيلَ لَهُمْ مِثْلَ هَذَا أَنَّهُمْ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ كَمَا قَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ للرسل من قبلك، ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ أَيْ بَلِيَّةً فَالْغَنِيُّ فِتْنَةً لِلْفَقِيرِ، يَقُولُ الْفَقِيرُ: مَا لِي لَمْ أَكُنْ مَثْلَهُ، وَالصَّحِيحُ فِتْنَةً لِلْمَرِيضِ، وَالشَّرِيفُ فِتْنَةً لِلْوَضِيعِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ جَعَلْتُ بَعْضَكُمْ بَلَاءً لِبَعْضٍ لِتَصْبِرُوا عَلَىٰ مَا تَسْمَعُونَ منهم، وترون من خلاقهم، وَتَتْبَعُوا الْهُدَىٰ. وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي ابْتِلَاءِ الشَّرِيفِ بِالْوَضِيعِ، وَذَلِكَ أَنَّ الشَّرِيفَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُسْلِمَ فَرَأَىٰ الْوَضِيعَ قَدْ أَسْلَمَ قَبْلَهُ أَنِفَ، وَقَالَ: أُسْلِمُ بَعْدَهُ فَيَكُونُ لَهُ عَلَيَّ السَّابِقَةُ وَالْفَضْلَ، فَيُقِيمُ عَلَىٰ كُفْرِهِ وَيَمْتَنِعُ مِنَ الْإِسْلَامِ، فَذَلِكَ افتتان بعضهم ببعض ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ يَعْنِي عَلَىٰ هَذِهِ الْحَالَةِ مِنَ الْفَقْرِ وَالشِّدَّةِ وَالْأَذَىٰ، ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ بمن صبر وبمن جزع، قال ابن كثير: قَالَ: يَقُولُ اللهُ: لَوْ شِئْتُ أَنْ أَجْعَلَ الدُّنْيَا مَعَ رُسُلِي فَلَا يُخَالِفُونَ لَفَعَلْتُ، وَلَكِنِّي قَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَبْتَلِيَ الْعِبَادَ بِهِمْ وأبتليكم بهم، وفي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: إِنَّمَا**

بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ»[1] ، وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ خيَّرَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا مَلِكًا أَوْ عَبْدًا رَسُولًا، فَاخْتَارَ أَن يَكُونَ عَبْداً رَسُولًا، وفي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **إِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَقَالَ : إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ** »[2] .

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ يُرِيدُ لَا يَخَافُونَ الْبَعْثَ وَلِقَاءَ الله، أي لا يؤمنون بذلك ، قَالَ الْفَرَّاءُ: الرَّجَاءُ بِمَعْنَىٰ الْخَوْفِ لُغَةُ تِهَامَةَ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نُوحٍ: ١٣] أَيْ: لَا تَخَافُونَ لِلَّهِ عَظَمَةً. ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾ فَتُخْبِرُنَا أَنَّ مُحَمَّدًا صَادِقٌ، ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ عِيَانًا فَيُخْبِرُنَا بِرِسَالَتِهِ ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي تعظموا ، ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ بِهَذِهِ الْمَقَالَةِ، حَيْثُ سَأَلُوا اللهَ الشَّطَطَ، لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا تُرَىٰ إِلَّا عِنْدَ الْمَوْتِ أَوْ عِنْدَ نُزُولِ الْعَذَابِ، وَاللهُ تَعَالَىٰ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ، ﴿وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: عَتَوْا طَغَوْا فِي القول والعتو أَشَدُّ الْكُفْرِ وَأَفْحَشُ الظُّلْمِ. وَعُتُوُّهُمْ طَلَبُهُمْ رُؤْيَةَ اللهِ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا به.

(١) مسلم (٢٨٦٥) .

(٢) مسلم (٢٨٦٥) .

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ عِنْدَ الْمَوْتِ، وَقِيلَ: فِي الْقِيَامَةِ، ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ لِلْكَافِرِينَ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يُبَشِّرُونَ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَقُولُونَ لِلْكُفَّارِ: لَا بُشْرَىٰ لَكُمْ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْمُجْرِمِينَ، أَيْ لَا بِشَارَةَ لَهُمْ بِالْجَنَّةِ، كَمَا يُبَشَّرُ الْمُؤْمِنُونَ ، ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾ قَالَ عَطَاءٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: تَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: حَرَامًا مُحَرَّمًا أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ، إِلَّا مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: إِذَا خَرَجَ الْكُفَّارُ مِنْ قُبُورِهِمْ قَالَتْ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ: حَرَامًا مُحَرَّمًا عَلَيْكُمْ أَنْ يَكُونَ لَكُمُ الْبُشْرَىٰ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هَذَا قَوْلُ الْكُفَّارِ لِلْمَلَائِكَةِ ، قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: كَانَتِ الْعَرَبُ إِذَا نَزَلَتْ بِهِمْ شِدَّةٌ رَأَوْا مَا يَكْرَهُونَ، قَالُوا: حِجْرًا مَحْجُورًا، فَهُمْ يَقُولُونَهُ إِذَا عَايَنُوا الْمَلَائِكَةَ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي عَوْذًا مُعَاذًا يَسْتَعِيذُونَ بِهِ مِنَ الملائكة ، وقال ابن كثير : أَيْ وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ لِلْكَافِرِينَ: حَرَامٌ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمُ الْفَلَّاحُ الْيَوْمَ، وَأَصْلُ الْحِجْرِ الْمَنْعُ، وَمِنْهُ يُقَالُ: حَجَرَ الْقَاضِي عَلَىٰ فُلَانٍ إِذَا مَنَعَهُ التصرف، إما لسفهٍ أو صغرٍ أو نحو ذلك؛ وَمِنْهُ يُقَالُ لِلْعَقْلِ (حِجْر) لِأَنَّهُ يَمْنَعُ صَاحِبَهُ عَنْ تَعَاطِي مَا لَا يَلِيقُ.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَدِمْنَا﴾ وَعَمَدْنَا، هذا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يُحَاسِبُ اللهُ الْعِبَادَ عَلَىٰ ما عملوه من الخير والشر، ﴿إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ أَيْ بَاطِلًا لَا ثَوَابَ لَهُ، فَهُمْ لَمْ يَعْمَلُوهُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَاخْتَلَفُوا فِي الْهَبَاءِ قَالَ أمير المؤمنين عَلِيٌّ: هُوَ مَا يُرَىٰ فِي الْكُوَّةِ إِذَا وَقَعَ ضَوْءُ الشَّمْسِ فيها كالغبار

يَمَسُّ بِالْأَيْدِي، وَلَا يُرَىٰ فِي الظِّلِّ، وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ وَعِكْرِمَةَ ومجاهد، والمنثور: المفرق، قال القرطبي: تَأْوِيلُهُ: إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أحبط أعمالهم حتىٰ صَارَتْ بِمَنْزِلَةِ الْهَبَاءِ الْمَنْثُورِ، فَأَمَّا الْهَبَاءُ الْمُنْبَثُّ فَهُوَ مَا تُثِيرُهُ الْخَيْلُ بِسَنَابِكِهَا مِنَ الْغُبَارِ، وَالْمُنْبَثُّ الْمُتَفَرِّقُ، وَقَالَ ابْنُ عَرَفَةَ: الْهَبْوَةُ وَالْهَبَاءُ التُّرَابُ الدَّقِيقُ، وقال الْجَوْهَرِيُّ: وَيُقَالُ لَهُ إِذَا ارْتَفَعَ هَبَا يَهْبُو هَبْوًا وَأَهْبَيْتُهُ أَنَا، وَالْهَبْوَةُ الْغَبَرَةُ.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾ أَيْ: مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْمُتَكَبِّرِينَ، ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ مَوْضِعَ قَائِلَةٍ يَعْنِي أَهْلَ الْجَنَّةِ لَا يَمُرُّ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا قَدْرَ النَّهَارِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَىٰ وَقْتِ الْقَائِلَةِ حَتَّىٰ يَسْكُنُوا مَسَاكِنَهُمْ فِي الْجَنَّةِ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: لَا يَنْتَصِفُ النَّهَارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّىٰ يُقِيلَ أَهْلَ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ وَأَهْلَ النَّارِ فِي النار، قال الأزهري: القيلولة والمقيل الِاسْتِرَاحَةُ نِصْفَ النَّهَارِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَ ذَلِكَ نَوْمٌ، لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَالَ: ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ والجنة لا نوم فيها، وقال قتادة : مَنْزِلًا وَمَأْوًىٰ، وَقِيلَ هُوَ عَلَىٰ مَا تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ مِنْ مَقِيلِ نِصْفِ النَّهَارِ.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ أَيْ عَنِ الْغَمَامِ الْبَاءُ وَعَنْ يَتَعَاقَبَانِ كَمَا يُقَالُ: رَمَيْتُ عَنِ الْقَوْسِ وَبِالْقَوْسِ وَتَشَقَّقُ بِمَعْنَىٰ تَتَشَقَّقُ، أدغموا إحدىٰ التاءين في الأخرىٰ أي تنشق بِالْغَمَامِ وَهُوَ غَمَامٌ أَبْيَضُ رَقِيقٌ مِثْلُ الضَّبَابَةِ، وَلَمْ يَكُنْ إِلَّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي تِيهِهِمْ ، ﴿وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ فيحيطون بالخلائق في المحشر.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ أَيْ الْمُلْكُ الَّذِي هُوَ الْمُلْكُ الْحَقُّ حَقًّا مُلْكُ الرَّحْمَنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَبَطَلَتْ يَوْمَئِذٍ أَمْلَاكُ الْمَالِكِينَ وَانْقَطَعَتْ دَعَاوِيهِمْ، وَزَالَ كُلُّ مَلِكٍ وَمُلْكُهُ، وَبَقِيَ الْمُلْكُ الْحَقُّ لِلَّهِ وَحْدَهُ. ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَىٰ الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ أَيْ لِمَا يَنَالُهُمْ مِنَ الْأَهْوَالِ وَيَلْحَقُهُمْ مِنَ الْخِزْيِ وَالْهَوَانِ، وهَذَا الْخِطَابُ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا يَكُونُ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِ عَسِيرًا.

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ أَرَادَ بِالظَّالِمِ عُقْبَةَ بْنَ أَبِي معيط تَحَسُّرًا عَلَىٰ مَا فَعَلَ ﴿يَقُولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ﴾ فِي الدُّنْيَا، ﴿مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ لَيْتَنِي اتَّبَعْتُ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاتَّخَذْتُ مَعَهُ سَبِيلًا إلىٰ الهدىٰ.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ أَيْ: حَبِيبًا مُصَافِيًا؛ عَادَيْتُ أَنْصَحَ النَّاسِ لِي، وَأَبَرَّهُمْ بِي، وَأَرْفَقَهُمْ بِي، وَوَالَيْتُ أَعْدَىٰ عَدُوٍّ لِي؛ الَّذِي لَمْ تُفِدْنِي وِلَايَتُهُ إِلَّا الشَّقَاءَ وَالْخَسَارَ وَالْخِزْيَ وَالْبَوَارَ. يَعْنِي أُبَيَّ بْنَ خَلَفٍ؛ رُوِيَ أَنَّ أُبَيَّ بْنَ خَلَفٍ كَانَ يَحْضُرُ النَّبِيَّ صلىٰ الله عليه وسلم، فَيَزْجُرُهُ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ﴾ عَنِ الْإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ يَعْنِي الذِّكْرَ مَعَ الرَّسُولِ ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ﴾ وَهُوَ كُلُّ مُتَمَرِّدٍ عَاتٍ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَكُلُّ مَنْ صَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَهُوَ شَيْطَانٌ، ﴿لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ أَيْ يَخْذُلُهُ عَنِ الْحَقِّ وَيَصْرِفُهُ عَنْهُ وَيَسْتَعْمِلُهُ فِي الْبَاطِلِ وَيَدْعُوهُ إليه، قال البغوي:

وَحُكْمُ هَذِهِ الْآيَةِ عَامٌّ فِي حَقِّ كُلِّ مُتَحَابِّينَ اجْتَمَعَا عَلَىٰ مَعْصِيَةِ الله ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْمَرْءُ عَلَىٰ دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ من يخالل**»(١) .

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ﴾ يَعْنِي: وَيَقُولُ الرَّسُولُ فِي ذَلِكَ اليوم: ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ يعني مَتْرُوكًا فَأَعْرَضُوا عَنْهُ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا لَا يُصْغُونَ لِلْقُرْآنِ وَلَا يستمعونه، وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَلَمْ يَعْمَلُوا بِمَا فِيهِ ، وَقِيلَ: جَعَلُوهُ بِمَنْزِلَةِ الْهَجْرِ وَهُوَ الهذيان والقول السيئ فَزَعَمُوا أَنَّهُ شِعْرٌ وَسِحْرٌ، وَقِيلَ: قَالَ الرَّسُولُ يَعْنِي مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسلم يشكو قَوْمَهُ إِلَىٰ اللهِ يَا رَبِّ: إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا فَعَزَّاهُ اللهُ تَعَالَىٰ فَقَالَ:

[٣١] : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا﴾ يَعْنِي كَمَا جَعَلْنَا لَكَ أَعْدَاءً مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِكَ كَذَلِكَ جَعَلْنَا، ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ ، قَالَ مُقَاتِلٌ: يَقُولُ: لَا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ قبلك قد لقوا هَذَا مِنْ قَوْمِهِمْ فَاصْبِرْ لِأَمْرِي كَمَا صَبَرُوا فَإِنِّي نَاصِرُكَ وَهَادِيكَ، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ ، وَكَفَاكَ يَا مُحَمَّدُ بِرَبِّكَ هَادِيًا يَهْدِيكَ إِلَىٰ الْحَقِّ، وَيُبَصِّرُكَ الرُّشْدَ، وَنَصِيرًا: يَقُولُ: نَاصِرًا لَكَ عَلَىٰ أَعْدَائِكَ، يَقُولُ: فَلَا يُهَوِّلَنَّكَ أَعْدَاؤُكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَإِنِّي نَاصِرُكَ عَلَيْهِمْ، فَاصْبِرْ لِأَمْرِي، وَامْضِ لِتَبْلِيغِ رِسَالَتِي إِلَيْهِمْ .

---

(١) أبو داود (٤٨٣٣) والترمذي (٢٣٧٨) .

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ كَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَالْإِنْجِيلُ عَلَىٰ عِيسَىٰ وَالزَّبُورُ عَلَىٰ داود، قال الله سبحانه وتعالىٰ : ﴿كَذَٰلِكَ﴾ فعلنا، ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ يعني أَنْزَلْنَاهُ مُتَفَرِّقًا لِيَقْوَىٰ بِهِ قَلْبُكَ فَتَعِيهِ وَتَحْفَظَهُ فَإِنَّ الْكُتُبَ أُنْزِلَتْ على الأنبياء يكتبون ويقرؤون، وَأَنْزَلَ اللهُ الْقُرْآنَ عَلَىٰ نَبِيٍّ أُمِّيٍّ لَا يَكْتُبُ وَلَا يَقْرَأُ، وَلِأَنَّ مِنَ الْقُرْآنِ النَّاسِخَ وَالْمَنْسُوخَ، وَمِنْهُ مَا هُوَ جَوَابٌ لِمَنْ سَأَلَ عَنْ أُمُورٍ فَفَرَّقْنَاهُ لِيَكُونَ أَوْعَىٰ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَيْسَرَ عَلَىٰ الْعَامِلِ به، ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بَيَّنَّاهُ بَيَانًا، والترتيل التبيين في ترتل وَتَثَبُّتٍ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: بَعْضُهُ فِي إِثْرِ بعض ، وقال الحسن البصري: فَرَّقْنَاهُ تَفْرِيقًا آيَةً بَعْدَ آيَةٍ.

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ يَعْنِي هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ، ﴿بِمَثَلٍ﴾ يَضْرِبُونَهُ فِي إِبْطَالِ أَمْرِكَ ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ يَعْنِي بِمَا تَرُدُّ بِهِ مَا جاؤوا بِهِ مِنَ الْمَثَلِ وَتُبْطِلُهُ، فَسُمِّيَ ما يردون مِنَ الشُّبَهِ مَثَلًا، وَسُمِّي مَا يَدْفَعُ بِهِ الشُّبَهَ حَقًّا، ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ يعني بيانا وتفصيلا، والتفسير تَفْعِيلٌ مِنَ الْفَسْرِ وَهُوَ كَشْفُ مَا قَدْ غُطِّيَ،وَالْمَعْنَىٰ: أَحْسَنُ مِنْ مَثَلِهِمْ تَفْصِيلًا، فَحُذِفَ لِعِلْمِ السَّامِعِ. وَقِيلَ: كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَسْتَمِدُّونَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَكَانَ قَدْ غَلَبَ عَلَىٰ أهل الكتاب التحريف وَالتَّبْدِيلُ، فَكَانَ مَا يَأْتِي بِهِ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

أَحْسَنَ تَفْسِيرًا مِمَّا عِنْدَهُمْ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَخْلِطُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وَالْحَقُّ الْمَحْضُ أَحْسَنُ مِنْ حَقٍّ مُخْتَلِطٍ بِبَاطِلٍ، ثُمَّ ذَكَرَ ما لهؤلاء المشركين فقال:

[٣٤] : ﴿الَّذِينَ﴾ أَيْ: هُمُ الَّذِينَ، ﴿يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ فَيُسَاقُونَ وَيُجَرُّونَ، وجاء في حديث أنسِ بنِ مالكٍ رضي اللهُ عنهُ أنَّ رجُلًا قالَ: يا نبيَّ اللهِ! يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَىٰ وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: « **أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَىٰ الرِّجْلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَىٰ أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟** »[1] ، ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ يعني مَكَانَةً وَمَنْزِلَةً، وَيُقَالُ: مَنْزِلًا وَمَصِيرًا قَالَ مُقَاتِلٌ: قَالَ الْكُفَّارُ لِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ شَرُّ الْخَلْقِ. فَنَزَلَتِ الْآيَةُ. ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أَخْطَأُ طَرِيقًا، قال القرطبي: وَنَظْمُ الْآيَةِ: وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ، وَأَنْتَ مَنْصُورٌ عَلَيْهِمْ بِالْحُجَجِ الْوَاضِحَةِ، وَهُمْ مَحْشُورُونَ علىٰ وجوههم.

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ﴾ يُرِيدُ التَّوْرَاةَ ، ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾ مُعِينًا وَظَهِيرًا، وَالْوَزِيرُ: الْمُؤَازِرُ وَهُوَ الْمُعَاوِنُ الْمُظَاهِرُ، مُشْتَقٌّ مِنَ الْأَزْرِ وَهُوَ الْقُوَّةُ ، وَأَصْلُ الْأَزْرِ: شَدُّ الظَّهْرِ بِإِزَارٍ عِنْدَ الْإِقْبَالِ عَلَىٰ عَمَلٍ ذِي تَعَبٍ، وَكَانَ هَارُونُ رَسُولًا ثَانِيًا وَمُوسَىٰ هُوَ الْأَصْلُ. وَالْقَوْمُ هُمْ قِبْطُ مِصْرَ قَوْمُ فِرْعَوْنَ.

---

(١) البخاري (٤٧٦٠) ومسلم (٢٨٠٦) .

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يُرِيدُ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ اتباعهم الْقِبْطَ ﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ﴾ فِيهِ إِضْمَارٌ، أَيْ: فَكَذَّبُوهُمَا فَدَمَّرْنَاهُمْ، ﴿تَدْمِيرًا﴾ أَهْلَكْنَاهُمْ إِهْلَاكًا.

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾ أَيْ: الرَّسُولَ، وَمَنْ كَذَّبَ رَسُولًا وَاحِدًا فَقَدْ كَذَّبَ جَمِيعَ الرُّسُلِ، فَلِذَلِكَ ذُكِرَ بِلَفْظِ الْجَمْعِ ، ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ يَعْنِي لِمَنْ بَعْدَهُمْ عِبْرَةٌ، ﴿وَأَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ﴾ أي المشركين مِنْ قَوْمِ نُوحٍ ﴿عَذاباً أَلِيماً﴾ أَيْ فِي الْآخِرَةِ، وَقِيلَ: أَيْ هَذِهِ سَبِيلِي فِي كُلِّ ظالم.

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ﴾ يعني وَأَهْلَكْنَا عَادًا وَثَمُودَ، ﴿وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾ اخْتَلَفُوا فِيهِمْ، قَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: كَانُوا أَهْلَ بِئْرٍ قُعُودًا عَلَيْهَا وَأَصْحَابَ مَوَاشِي يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ فَوَجَّهَ اللهُ إِلَيْهِمْ شُعَيْبًا يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ فَتَمَادَوْا فِي طُغْيَانِهِمْ، وَفِي أَذَىٰ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فبينما هم حوالي البئر في منازلهم انهارت بهم البئر فخسف الله بِهِمْ وَبِدِيَارِهِمْ وَرِبَاعِهِمْ، فَهَلَكُوا جَمِيعًا، والرس: الْبِئْرُ وَكُلُّ رَكِيَّةٍ لَمْ تُطْوَ بِالْحِجَارَةِ وَالْآجُرِّ فَهُوَ رَسٌّ، وَقَالَ قتادة والكلبي: الرس بئر بأرض الْيَمَامَةِ قَتَلُوا نَبِيَّهُمْ فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُمْ بقية ثمود وقوم صَالِحٍ، وَهُمْ أَصْحَابُ الْبِئْرِ الَّتِي ذَكَرَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ [الْحَجِّ: ٤٥] ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: كَانَ لَهُمْ نَبِيٌّ يُقَالُ لَهُ حَنْظَلَةُ بْنُ صَفْوَانَ فَقَتَلُوهُ فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ، وَقَالَ كَعْبٌ

وَمُقَاتِلٌ وَالسُّدِّيُّ: الرَّسُّ بِئْرٌ بأنطاكية قتلوا فيها حبيب النَّجَّارَ، وَهُمُ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللهُ فِي سُورَةِ يس، وَقِيلَ: هُمْ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ، وَالرَّسُّ هُوَ الْأُخْدُودُ الَّذِي حَفَرُوهُ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ، هُمْ قَوْمٌ رَسُّوا نَبِيَّهُمْ فِي بِئْرٍ، وَقِيلَ: الرَّسُّ الْمَعْدِنُ وَجَمْعُهُ رِسَاسٌ، قال ابن عاشور : وَالْأَكْثَرُ عَلَىٰ أَنَّهُ مِنْ بِلَادِ الْيَمَامَةِ وَيُسَمَّىٰ «فَلْجًا» ، قوله : ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ يعني وَأَهْلَكْنَا قُرُونًا كَثِيرًا بَيْنَ عَادٍ وَأَصْحَابِ الرَّسِّ، وَالْقُرُونُ: الْأُمَمُ فَإِنَّ الْقَرْنَ يُطْلَقُ عَلَىٰ الْأُمَّةِ.

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾ يعني الْأَشْبَاهُ فِي إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، فَلَمْ نُهْلِكْهُمْ إِلَّا بَعْدَ الْإِنْذَارِ، ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ يعني أَهْلَكْنَا إِهْلَاكًا. وَقَالَ الْأَخْفَشُ: كَسَّرْنَا تَكْسِيرًا. قَالَ الزَّجَّاجُ: كُلُّ شَيْءٍ كَسَّرْتُهُ وَفَتَّتُّهُ فَقَدْ تَبَّرْتُهُ. وقيل : التَّتْبِيرُ: التَّفْتِيتُ ولا يكون إلا لِلْأَجْسَامِ الصُّلْبَةِ كَالزُّجَاجِ وَالْحَدِيد.

[٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَىٰ الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ يَعْنِي الْحِجَارَةَ وَهِيَ قَرْيَاتُ قَوْمِ لُوطٍ : وَكَانَتْ خَمْسُ قُرًىٰ فَأَهْلَكَ الله أربعا منها وبقيت واحدة، هي أَصْغَرُهَا وَكَانَ أَهْلُهَا لَا يَعْمَلُونَ الْعَمَلَ الْخَبِيثَ ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ إذا مَرُّوا بِهِمْ فِي أَسْفَارِهِمْ فَيَعْتَبِرُوا ويتفكروا ؛ لِأَنَّ مَدَائِنَ قَوْمِ لُوطٍ كَانَتْ عَلَىٰ طَرِيقِهِمْ عِنْدَ مَمَرِّهِمْ إِلَىٰ الشَّامِ، ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ﴾ لا يخافون، ﴿نُشُورًا﴾ بَعْثًا، قال النسفي: بل كانوا قومًا كفرة بالبعث لا يخافون بعثًا فلا يؤمنون، أو لا يأملون نشورًا كما يأمله المؤمنون لطمعهم في الوصول إلىٰ ثواب أعمالهم.

[٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ﴾ يَعْنِي مَا يَتَّخِذُونَكَ، ﴿إِلَّا هُزُوًا﴾ يعني مَهْزُوءًا بِهِ، نَزَلَتْ فِي أَبِي جهل كان إذا مَرَّ بِأَصْحَابِهِ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مُسْتَهْزِئًا: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولًا﴾ أَيْ عَلَىٰ سَبِيلِ التنقص والإزدراء، (رَسُولًا) نُصِبَ عَلَىٰ الْحَالِ ، وَالتَّقْدِيرُ: أَهَذَا الَّذِي بَعَثَهُ اللهُ مُرْسَلًا؟!.

[٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ يعني قَدْ قَارَبَ أَنْ يُضِلَّنَا ﴿عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ أَيْ حَبَسْنَا أَنْفُسَنَا عَلَىٰ عبادتها، ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ مَنْ أَخْطَأُ طَرِيقًا. وقيل : يُرِيدُ مَنْ أَضَلُّ دِينًا أَهُمْ أَمْ محمد، وقد رأوه في يوم بدر.

[٤٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ قَالَ الْكَلْبِيُّ وَغَيْرُهُ: كَانَتِ الْعَرَبُ إِذَا هَوِيَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ شَيْئًا عَبَدَهُ مِنْ دُونِ اللهِ، فَإِذَا رَأَىٰ أَحْسَنَ مِنْهُ تَرَكَ الْأَوَّلَ وَعَبَدَ الْأَحْسَنَ، فَعَلَىٰ هَذَا يَعْنِي: أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ بِهَوَاهُ، فَحُذِفَ الْجَارُّ.وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَرَأَيْتَ مَنْ تَرَكَ عِبَادَةَ اللهِ وَخَالِقَهُ ثُمَّ هَوِيَ حَجَرًا فَعَبَدَهُ مَا حَالُهُ عِنْدِي،وَقِيلَ: ﴿ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ أَيْ أَطَاعَ هَوَاهُ، وَعَنِ الْحَسَنِ : لَا يَهْوَىٰ شَيْئًا إِلَّا اتَّبَعَهُ، وَالْمَعْنَىٰ وَاحِدٌ، وعن عبد الله ابن عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « **لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا**

جِئْتُ بِهِ»[1]، وَقَالَ شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْفَاجِرُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّىٰ عَلَىٰ اللهِ**»[2]، قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إِذَا أَصْبَحَ الرَّجُلُ اجْتَمَعَ هَوَاهُ وَعَمَلُهُ وَعِلْمُهُ، فَإِنْ كان عمله تَبَعًا لِهَوَاهُ فَيَوْمُهُ يَوْمُ سُوءٍ، وَإِنْ كَانَ عَمَلُهُ تَبَعًا لِعِلْمِهِ فَيَوْمُهُ يَوْمٌ صَالِحٌ. وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ التُّسْتَرِيُّ: هَوَاكَ دَاؤُكَ، فَإِنْ خَالَفْتَهُ فَدَوَاؤُكَ. قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ يعني حَافِظًا، يَقُولُ: أَفَأَنْتَ عَلَيْهِ كَفِيلٌ حَتَّىٰ تَرُدَّهُ إِلَىٰ الْإِيمَانِ وَتُخْرِجَهُ مِنْ هَذَا الْفَسَادِ. وتَحْفَظُهُ مِنِ اتِّبَاعِ هَوَاهُ وَعِبَادَةِ مَنْ يَهْوَىٰ مِنْ دُونِ اللهِ، أي لست كذلك.

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ أَيْ أهم بِمَنْزِلَةِ مَنْ لَا يَعْقِلُ وَلَا يَسْمَعُ. وَقِيلَ: الْمَعْنَىٰ أَنَّهُمْ لَمَّا لَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا يَسْمَعُونَ فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا، وَالْمُرَادُ أَهْلُ مَكَّةَ، ﴿أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ ما يعاينون من الحجة والإعلام، ﴿إِنْ هُمْ﴾ مَا هُمْ، ﴿إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ لِأَنَّ الْبَهَائِمَ تَهْتَدِي لِمَرَاعِيهَا وَمَشَارِبِهَا وَتَنْقَادُ لِأَرْبَابِهَا الَّذِينَ يَتَعَهَّدُونَهَا، وَهَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ لَا يَعْرِفُونَ طَرِيقَ الْحَقِّ وَلَا يُطِيعُونَ رَبَّهُمُ الَّذِي خَلَقَهُمْ، وَرَزَقَهُمْ، وَلِأَنَّ الْأَنْعَامَ تَسْجُدُ وَتُسَبِّحُ لِلَّهِ وَهَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ لَا يَفْعَلُونَ.

---

(١) السنة لابن أبي عاصم (١٥).

(٢) الترمذي (٢٤٥٩) وابن ماجه (٤٢٦٠).

[٤٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ مَعْنَاهُ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ مَدِّ رَبِّكَ الظِّلَّ وَهُوَ مَا بَيْنَ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَىٰ طُلُوعِ الشَّمْسِ، جَعَلَهُ مَمْدُودًا لِأَنَّهُ ظِلٌّ لَا شَمْسَ مَعَهُ، كَمَا قَالَ فِي ظِلِّ الْجَنَّةِ: ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾ [الْوَاقِعَة: ٣٠] لَمْ يَكُنْ مَعَهُ شَمْسٌ ، ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أي: دَائِمًا ثَابِتًا لَا يَزُولُ، وَلَا تُذْهِبُهُ الشَّمْسُ، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: الظِّلُّ مَا نَسَخَتْهُ الشَّمْسُ، وَهُوَ بالغداوة والفيء مَا نَسَخَ الشَّمْسَ، وَهُوَ بَعْدُ الزَّوَالِ، سُمِّيَ فَيْئًا لِأَنَّهُ فَاءَ مِنْ جَانِبِ الْمَشْرِقِ إِلَىٰ جَانِبِ الْمَغْرِبِ، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ يعني عَلَىٰ الظِّلِّ ، وَمَعْنَىٰ دَلَالَتِهَا عَلَيْهِ أَنَّهُ لَوْ لَمْ تَكُنِ الشَّمْسُ لَمَا عُرِفَ الظِّلُّ وَلَوْلَا النُّورُ لَمَا عُرِفَتِ الظُّلْمَةُ، وَالْأَشْيَاءُ تُعَرَفُ بأضدادها.

[٤٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ﴾ يَعْنِي الظِّلَّ، ﴿إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ بالشمس التي تأتي عليه، والقبض جَمْعُ الْمُنْبَسِطِ مِنَ الشَّيْءِ مَعْنَاهُ أَنَّ الظِّلَّ يَعُمُّ جَمِيعَ الْأَرْضِ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، فَإِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ قَبَضَ اللهُ الظِّلَّ جُزْءًا فَجُزْءًا قَبْضًا يَسِيرًا أَيْ خَفِيًّا، وَقِيلَ: إِنَّ هَذَا الْقَبْضَ وَقَعَ بِالشَّمْسِ، لِأَنَّهَا إِذَا طَلَعَتْ أَخَذَ الظِّلُّ فِي الذَّهَابِ شَيْئًا فَشَيْئًا.

[٤٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أَيْ سِتْرًا تَسْتَتِرُونَ بِهِ، يُرِيدُ أَنَّ ظُلْمَتَهُ تَغْشَىٰ كُلَّ شَيْءٍ، كَاللِّبَاسِ الَّذِي يَشْتَمِلُ عَلَىٰ لَابِسِهُ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: وُصِفَ اللَّيْلُ بِاللِّبَاسِ تَشْبِيهًا مِنْ حَيْثُ يَسْتُرُ الْأَشْيَاءَ وَيَغْشَاهَا، ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ رَاحَةً لِأَبْدَانِكُمْ وَقَطْعًا لِعَمَلِكُمْ، وَأَصْلُ السُّبَاتِ مِنَ التَّمَدُّدِ.

يُقَالُ: سَبَتَتِ الْمَرْأَةُ شَعْرَهَا أَيْ نَقَضَتْهُ وَأَرْسَلَتْهُ. وَقِيلَ: لِلنَّوْمِ سُبَاتٌ لِأَنَّهُ بِالتَّمَدُّدِ يَكُونُ، وَفِي التَّمَدُّدِ مَعْنَىٰ الراحة، وقيل: السَّبْتُ الْقَطْعُ، فَالنَّوْمُ انْقِطَاعٌ عَنِ الِاشْتِغَالِ، وَمِنْهُ سَبْتُ الْيَهُودِ لِانْقِطَاعِهِمْ عَنِ الْأَعْمَالِ فِيهِ، ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ مِنْ الِانْتِشَارِ لِلْمَعَاشِ، أَيِ النَّهَارُ سَبَبُ الْإِحْيَاءِ لِلِانْتِشَارِ، أَيْ يَقِظَةً وَزَمَانًا تَنْتَشِرُونَ فِيهِ لِابْتِغَاءِ الرِّزْقِ وَتَنْتَشِرُونَ لِأَشْغَالِكُمْ، وفي حديث حُذيفة، قال: كان النبي صلىٰ الله عليه وسلم إذا نام قال: « **اللهُمَّ باسمِكَ أحيا وأموتُ،** وإذا استيقَظَ قال: **الحمدُ لله الذي أحيانـا بعدَ ما أماتَنا، وإليه النُّشورُ**»[1].

[٤٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: مطرًا بليغًا في الطهارة والتطهير، قال ابن عاشور: وَالْمُرَادُ بِ رَحْمَتِهِ الْمَطَرُ لِأَنَّهُ رَحْمَةٌ لِلنَّاسِ وَالْحَيَوَانِ بِمَا يُنْبِتُهُ مِنَ الشَّجَرِ وَالْمَرْعَىٰ، ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ والطهور هو الطَّاهِرُ فِي نَفْسِهِ الْمُطَهِّرُ لِغَيْرِهِ، فَهُوَ اسْمٌ لِمَا يُتَطَهَّرُ بِهِ كَالسَّحُورِ اسْمٌ لِمَا يُتَسَحَّرُ بِهِ وَالْفَطُورُ اسْمٌ لِمَا يُفْطَرُ بِهِ، وفي الحديث أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي الْبَحْرِ: «**هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ**» وَأَرَادَ بِهِ الْمُطَهِّرَ ، فَالْمَاءُ مُطَهِّرٌ لِأَنَّهُ يُطَهِّرُ الْإِنْسَانَ مِنَ الْحَدَثِ وَالنَّجَاسَةِ.

[٤٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ﴾ أي: بالمطر، قَالَ كَعْبٌ: الْمَطَرُ رُوحُ الْأَرْضِ يُحْيِيهَا اللهُ بِهِ ، ﴿بَلْدَةً مَيْتًا﴾ وَلَمْ يَقُلْ مَيِّتَةً لِأَنَّهُ رَجَعَ بِهِ إِلَىٰ الْمَوْضِعِ

---

(١) الترمذي (٢٤٥٩) وابن ماجه (٤٢٦٠) .

وَالْمَكَانِ، أي: أرضًا هامدة طال انتظارها للغيث، فلما لامسها تلألأت بنسائم الحياة وأخرجت في رُباها ألوان الزهور والنباتات والثمار، ﴿وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا﴾ نُسْقِي مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ البهائم ﴿وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ أَيْ بَشَرًا كَثِيرًا، وَالْأَنَاسِيُّ جَمْعُ أُنْسِيٍّ، وَقِيلَ: جَمْعُ إِنْسَانٍ، وَأَصْلُهُ أَنَاسِينُ مِثْلُ بُسْتَانٍ وَبَسَاتِينٍ، فَجَعَلَ الْيَاءَ عِوَضًا عَنِ النُّونِ، قَالَ النَّسَفِيُّ: وَقَدَّمَ إِحْيَاءَ الْأَرْضِ عَلَىٰ سَقْيِ الْأَنْعَامِ وَالْأَنَاسِيِّ؛ لِأَنَّ حَيَاتَهَا سَبَبٌ لِحَيَاتِهِمَا، وَتَخْصِيصُ الْأَنْعَامِ مِنَ الْحَيَوَانِ الشَّارِبِ؛ لِأَنَّ عَامَّةَ مَنَافِعِ الْأَنَاسِيِّ مُتَعَلِّقَةٌ بِهَا.

[٥٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ﴾ يعني المطر مرة ببلد وَمَرَّةً بِبَلَدٍ آخَرٍ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا مِنْ عَامٍ بِأَمْطَرَ مِنْ عَامٍ وَلَكِنَّ اللهَ يُصَرِّفُهُ فِي الْأَرْضِ، وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ مِنْ تَصْرِيفِ الْمَطَرِ تَصْرِيفُهُ وَابِلًا وَطَلًّا وَرَذَاذًا وَنَحْوَهَا، يعني بختص بكمية المطر من مكان لآخر وَقِيلَ: التَّصْرِيفُ رَاجِعٌ إِلَىٰ الرِّيحِ، ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ أَيْ لِيَتَذَكَّرُوا وَيَتَفَكَّرُوا فِي قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَىٰ، ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ وَكُفْرَانُهُمْ هُوَ أَنَّهُمْ إِذَا مُطِرُوا قالوا مطرنا بنوء كذا وكذا. عن زيد بن خالد الْجُهَنِيِّ أَنَّهُ قَالَ: صَلَّىٰ بِنَا رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ فِي أَثَرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَىٰ النَّاسِ فَقَالَ: «**هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ**؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ: قَالَ: **أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي،**

وَكَافِرٌ بِالْكَوَاكِبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بالكواكب»[(١)].

[٥١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ رسولا ينذرهم، كَمَا قَسَمْنَا المطر ليخف عَلَيْكَ أَعْبَاءُ النُّبُوَّةِ، لكن بَعَثْنَاكَ إِلَىٰ الْقُرَىٰ كُلِّهَا وَحَمَّلْنَاكَ ثِقَلَ الرسالة جَمِيعِهَا لِتَسْتَوْجِبَ بِصَبْرِكَ علىٰ مَا أَعْدَدْنَا لَكَ مِنَ الْكَرَامَةِ وَالدَّرَجَةِ الرَّفِيعَةِ، قَالَ الطِّيبِيُّ: «وَمَدَارُ السُّورَةِ عَلَىٰ كَوْنِهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَبْعُوثًا إِلَىٰ النَّاسِ كَافَّةً وَلِذَلِكَ افْتُتِحَتْ بِمَا يُثْبِتُ عُمُومَ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ جَمِيعِ النَّاسِ بِقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً﴾ [الفرقان:١].

[٥٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ فيما يدعونك فيه مِنْ مُوَافَقَتِهِمْ وَمُدَاهَنَتِهِمْ. ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾ أي: بالقرآن، وقال ابْنُ زَيْدٍ: بِالْإِسْلَامِ، ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ شَدِيدًا. لا يخالطه فتور.

[٥٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي: خَلَطَهُمَا وَأَفَاضَ أَحَدُهُمَا فِي الْآخَرِ، وَقِيلَ: أَرْسَلَهُمَا فِي مَجَارِيهِمَا وَخَلَّاهُمَا كَمَا يُرْسَلُ الْخَيْلُ فِي الْمَرَجِ، وَأَصْلُ الْمَرَجِ الْخَلْطُ وَالْإِرْسَالُ، يُقَالُ: مَرَجْتُ الدَّابَّةَ وَأَمْرَجْتُهَا إِذَا أَرْسَلْتُهَا فِي الْمَرْعَىٰ وَخَلَّيْتُهَا تَذْهَبُ حَيْثُ تشاء، قَالَ مُجَاهِدٌ: أَرْسَلَهُمَا وَأَفَاضَ

---

(١) البخاري (٨٤٦).

أَحَدَهُمَا فِي الْآخَرِ، وعن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ حَوْلَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذْ ذَكَرَ الْفِتْنَةَ، فَقَالَ: «**إِذَا رَأَيْتُمُ النَّاسَ قَدْ مَرِجَتْ عُهُودُهُمْ، وَخَفَّتْ أَمَانَاتُهُمْ، وَكَانُوا هَكَذَا**» وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، قَالَ: فَقُمْتُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: كَيْفَ أَفْعَلُ عِنْدَ ذَلِكَ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ؟ قَالَ: «**الْزَمْ بَيْتَكَ، وَامْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَخُذْ بِمَا تَعْرِفُ، وَدَعْ مَا تُنْكِرُ، وَعَلَيْكَ بِأَمْرِ خَاصَّةِ نَفْسِكَ، وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَامَّةِ**»(١) ، ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ شديد العذوبة والفرات أَعْذَبُ الْمِيَاهِ، ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ شَدِيدُ الْمُلُوحَةِ، وَقِيلَ: أُجَاجٌ أَيْ مر، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ أَيْ حَاجِزًا وَهُوَ الأرض اليابسة ، لِئَلَّا يَخْتَلِطُ الْعَذْبُ بِالْمِلْحِ وَلَا الْمِلْحُ بِالْعَذْبِ، ﴿وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾ أَيْ: سِتْرًا مَمْنُوعًا فَلَا يَبْغِيَانِ، فلا يُفْسِدُ الماء المالح الماء الْعَذْبَ.

[٥٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ﴾ مِنَ النُّطْفَةِ، ﴿بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ أي: جعله ذا نسب وذا صهر، قِيلَ: النَّسَبُ مَا لَا يَحِلُّ نكاحه والصهر مَا يَحِلُّ نِكَاحُهُ، فَالنَّسَبُ مَا يُوجِبُ الْحُرْمَةَ وَالصِّهْرُ مَا لَا يُوجِبُهَا، وَقِيلَ- وَهُوَ الصَّحِيحُ- النَّسَبُ مِنَ الْقَرَابَةِ وَالصِّهْرُ الْخُلْطَةُ الَّتِي تُشْبِهُ الْقَرَابَةَ، وَهُوَ السَّبَبُ الْمُحَرِّمُ للنكاح، ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ ذُو قُدْرَةٍ عَلَىٰ خَلْقِ مَا يَشَاءُ مِنَ الْخَلْقِ، وَتَصْرِيفِهِمْ فِيمَا شَاءَ وَأَرَادَ.

---

(١) أبو داود (٤٣٤٣) والترمذي (٣٠٥٨) .

[٥٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ يَعْنِي هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ، ﴿مَا لَا يَنْفَعُهُمْ﴾ إن عبدوه، ﴿وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ إِنْ تَرَكُوهُ، ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ أَيْ: مُعِينًا لِلشَّيْطَانِ عَلَىٰ رَبِّهِ بالمعاصي، وقال الزَّجَّاجُ: أَيْ يُعَاوِنُ الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مَعْصِيَةِ اللهِ لِأَنَّ عِبَادَتَهُمُ الْأَصْنَامَ مُعَاوَنَةٌ لِلشَّيْطَانِ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا أَيْ هَيِّنًا ذَلِيلًا كَمَا يُقَالُ: الرَّجُلُ جَعَلَنِي بِظَهِيرٍ أَيْ جَعَلَنِي هَيِّنًا. ويقال: ظهر بِهِ إِذَا جَعَلَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ فلم يلتفت إليه.

[٥٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أَيْ بَشِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ وَنَذِيرًا لِلْكَافِرِينَ، مُبَشِّرًا بِالْجَنَّةِ لمن أطاع الله، ونذيراً بيد يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ لِمَنْ خَالَفَ أَمْرَ اللهِ، وَقَالَ الطَّبَرِيُّ: مُبَشِّرًا مَنِ اتَّبَعَكَ فَأَطَاعَكَ وَقَبِلَ مِنْكَ مَا دَعَوْتَهُ إِلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ بِالنَّصْرِ فِي الدُّنْيَا وَالظَّفَرِ بِالثَّوَابِ فِي الْآخِرَةِ وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ فِيهَا، وَمُنْذِرًا مَنْ عَصَاكَ فَخَالَفَكَ وَرَدَّ عَلَيْكَ مَا دَعَوْتَهُ إِلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ بِالْخِزْيِ فِي الدُّنْيَا وَالذُّلِّ فِيهَا وَالْعَذَابِ الْمُهِينِ فِي الْآخِرَةِ.

[٥٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي عَلَىٰ تَبْلِيغِ الْوَحْيِ، ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ فَتَقُولُوا إِنَّمَا يَطْلُبُ مُحَمَّدٌ أَمْوَالَنَا بِمَا يَدْعُونَا إِلَيْهِ فَلَا نَتَّبِعُهُ، ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ هَذَا مِنَ الِاسْتِثْنَاءِ الْمُنْقَطِعِ، مَجَازُهُ: لَكِنْ مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا بِالْإِنْفَاقِ مِنْ مَالِهِ فِي سَبِيلِهِ فَعَلَ ذَلِكَ، وَالْمَعْنَىٰ: لَا أَسْأَلُكُمْ لِنَفْسِي أَجْرًا وَلَكِنْ لَا أَمْنَعُ مِنْ إِنْفَاقِ الْمَالِ فِي طَلَبِ مَرْضَاةِ اللهِ وَاتِّخَاذِ السَّبِيلِ إِلَىٰ جَنَّتِهِ.

[٥٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ التوكل : اعْتِمَادُ الْقَلْبِ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ فِي كُلِّ الْأُمُورِ، وَأَنَّ الْأَسْبَابَ وَسَائِطُ أَمَرَ بِهَا مِنْ غَيْرِ اعْتِمَادٍ عَلَيْهَا، والحي : هو الذي له الحياة الكاملة المطلقة ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ أَيْ نَزِّهِ اللهَ تَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُهُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ بِهِ مِنَ الشُّرَكَاءِ، وَالتَّسْبِيحُ التَّنْزِيهُ، وَقِيلَ: قُلْ سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، قال ابن كثير : أَيْ اقْرِنْ بَيْنَ حَمْدِهِ وَتَسْبِيحِهِ؛ وَلِهَذَا كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ**»، ﴿وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ عالما بصغيرها وكبيرها فَيُجَازِيهِمْ بِهَا.

[٥٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ أَيْ بِالرَّحْمَنِ، قال ابن كثير : أَيِ اسْتَعْلِمْ عَنْهُ مَنْ هُوَ خَبِيرٌ بِهِ عَالِمٌ بِهِ، فَاتَّبِعْهُ وَاقْتَدِ بِهِ، وَقَدْ عُلِمَ أَنَّهُ لَا أَحَدَ أَعْلَمُ بِاللهِ وَلَا أَخْبَرُ بِهِ، مِنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ سَيِّدِ وَلَدِ آدم علىٰ الإطلاق، الذِي لَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يوحىٰ، فما قاله فهو الحق، ما أخبره به فهو الصدق وَقِيلَ: الْبَاءُ بِمَعْنَىٰ عَنْ أَيْ: فَاسْأَلْ عَنْهُ خبير وَهُوَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ. وَقِيلَ: جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وقال مجاهد: مَا أَخْبَرْتُكَ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ كَمَا أَخْبَرْتُكَ، وقال شمر بن عطية: هَذَا الْقُرْآنُ خَبِيرٌ بِهِ.

[٦٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ مَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ إِلَّا رَحِمَنَ الْيَمَامَةِ، يَعْنُونَ مُسَيْلَمَةَ الْكَذَّابَ، كَانُوا يُسَمُّونَهُ

رَحْمَنَ الْيَمَامَةِ، ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أي: لمجرد أمرك إيانا. وهذا مبني منهم علىٰ التكذيب بالرسول واستكبارهم عن طاعته، ﴿وَزَادَهُمْ﴾ يَعْنِي زَادَهُمْ قَوْلُ الْقَائِلِ لَهُمْ: ﴿اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ﴾ أَيْ لَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ، وَكَانُوا يُنْكِرُونَ أَنْ يُسَمَّىٰ اللهُ بِاسْمِهِ الرَّحْمَنِ، كَمَا أَنْكَرُوا ذَلِكَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ حِينَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْكَاتِبِ: «**اكْتُبْ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**»، فَقَالُوا: لَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ وَلَا الرَّحِيمَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ[1]، ﴿نُفُورًا﴾ عَنِ الدِّينِ وَالْإِيمَانِ، وَكَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ يَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: إِلَهِي زَادَنِي لَكَ خُضُوعًا مَا زَادَ عداك نفوراً.

[٦١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ هذا الثناء في حقه تعالىٰ إنما هو لوصف رجع إليه، كتعالىٰ وفي دعاء القنوت: تباركت ربنا وتعاليت، وَالْبُرُوجُ: مَنَازِلُ مُرُورِ الشَّمْسِ فِيمَا يَرَىٰ الرَّاصِدُونَ، قَالَ الْحَسَنُ البصري: (الْبُرُوجُ) هِيَ النُّجُومُ الْكِبَارُ سُمِّيَتْ بُرُوجًا لِظُهُورِهَا، ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا﴾ يَعْنِي الشَّمْسَ كَمَا قَالَ: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ قال ابن عاشور: وَالْمَقْصُودُ: أَنَّهُ جَعَلَ الشَّمْسَ مُزِيلَةً لِلظُّلْمَةِ كَالسِّرَاجِ، أَوْ خَلَقَ النُّجُومَ كَالسِّرَاجِ فِي التَّلَأْلُؤِ وَحُسْنِ الْمَنْظَرِ، وَالسِّرَاجُ: الْمِصْبَاحُ الزَّاهِرُ نُورُهُ الَّذِي يُوقَدُ بِفَتِيلَةٍ فِي الزَّيْتِ يُضِيءُ الْتِهَابُهَا الْمُعَدَّلُ بِمِقْدَارِ بَقَاءِ مَادَّةِ الزَّيْتِ تغمرها: ﴿وَقَمَراً

---

(١) البخاري (٢٧٣١).

مُنيراً﴾ يُنِيرُ الْأَرْضَ إِذَا طَلَعَ ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الذي جَعَلَ الشمس ضِيَآءً والقمر نُوراً﴾ [يونس: ٥] .

[٦٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ قَوْلُهُ: ﴿خِلْفَةً﴾ قَالَ أبو عبيدة: الخلفة كل شي بعد شي ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ يُخْلِفُ صَاحِبَهُ ، واخْتَلَفُوا فِيهَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي خَلَفًا وَعِوَضًا يَقُومُ أَحَدُهُمَا مَقَامَ صَاحِبِهِ، فَمَنْ فَاتَهُ عَمَلُهُ فِي أَحَدِهِمَا قَضَاهُ فِي الآخر، قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي جَعْلَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُخَالِفًا لِصَاحِبِهِ فَجَعَلَ هَذَا أَسْوَدُ وَهَذَا أَبْيَضُ، وقَالَ الحسن البصري: مَنْ عَجَزَ بِاللَّيْلِ ، فَإِنَّ لَهُ فِي النَّهَارِ مُسْتَعْتَبٌ ، وَمَنْ عَجَزَ فِي النَّهَارِ كَانَ لَهُ فِي اللَّيْلِ مُسْتَعْتَبٌ ، قَالَ: وَلَا يَزَالُ الْعَبْدُ بِخَيْرٍ مَا إِذَا قَالَ ، قَالَ لِلَّهِ وَإِذَا عَمِلَ عَمِلَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، قوله : ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ﴾ أَيْ يَتَذَكَّرَ وَيَتَّعِظَ ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: أَيْ شُكْرَ نِعْمَةِ ربه عليه فيهم. قال ابن كثير : فَمَنْ فَاتَهُ عَمَلٌ فِي اللَّيْلِ اسْتَدْرَكَهُ فِي النَّهَارِ، وَمَنْ فَاتَهُ عَمَلٌ فِي النَّهَارِ اسْتَدْرَكَهُ فِي اللَّيْلِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**أن الله عزَّ وجلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يده بالنهار ليتوب مسيء الليل**»(١).

[٦٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ يعني أَفَاضِلُ الْعِبَادِ ، هنا سيذكر صِفَاتُ عِبَادِ اللهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَىٰ الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ يعني بِالسَّكِينَةِ

---

(١) مسلم (٢٧٥٩) .

وَالْوَقَارِ مُتَوَاضِعِينَ غَيْرَ أَشِرِينَ وَلَا مَرِحِينَ، وَلَا مُتَكَبِّرِينَ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري : عُلَمَاءٌ وَحُكَمَاءٌ، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ: أَصْحَابُ وَقَارٍ وَعِفَّةٍ لَا يُسَفِّهُونَ، وَإِنْ سُفِّهَ عَلَيْهِمْ حلموا، والهون فِي اللُّغَةِ الرِّفْقُ وَاللِّينُ، ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾ يَعْنِي السُّفَهَاءُ بِمَا يَكْرَهُونَ ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: سَدَادًا مِنَ الْقَوْلِ. وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: قَوْلًا يَسْلَمُونَ فِيهِ مِنَ الْإِثْمِ ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: إِنْ جَهَلَ عَلَيْهِمْ جَاهِلٌ حَلُمُوا وَلَمْ يَجْهَلُوا، وَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنْهُ السَّلَامُ الْمَعْرُوفُ. وَرُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ البصري: مَعْنَاهُ سَلَّمُوا عَلَيْهِمْ، دَلِيلُهُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [القصص : ٥٥] قَالَ الْكَلْبِيُّ وَأَبُو الْعَالِيَةِ: هَذَا قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرَ بِالْقِتَالِ، ثُمَّ نَسَخَتْهَا آيَةُ الْقِتَالِ: وَرُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ قَالَ: هَذَا وَصْفُ نَهَارِهِمْ، ثُمَّ قَرَأَ و ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ قال: هذا وصف ليلهم.

[٦٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ﴾ يُقَالُ لِمَنْ أَدْرَكَ اللَّيْلَ: بَاتَ نَامَ أَوْ لَمْ يَنَمْ، يُقَالُ: بَاتَ فُلَانٌ قَلِقًا وَالْمَعْنَىٰ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ بِاللَّيْلِ فِي الصَّلَاةِ، ﴿سُجَّدًا﴾ علىٰ وجوههم، ﴿وَقِيَامًا﴾ عَلَىٰ أَقْدَامِهِمْ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَنْ صَلَّىٰ بَعْدَ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ رَكْعَتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ فَقَدْ بَاتَ لله ساجدا وقائماً .

[٦٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ يعني مُلِحًّا دَائِمًا لَازِمًا غَيْرَ مُفَارِقٍ مَنْ عُذِّبَ بِهِ مِنَ الْكُفَّارِ، وَمِنْهُ

سُمِّي الْغَرِيمُ لِطَلَبِهِ حَقَّهُ والحاجة علىٰ صاحبه وملازمته إياه، وقيل: غراما هلاكًا.

[٦٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهَا﴾ يعني جهنم، ﴿سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ يعني بِئْسَ مَوْضِعُ قَرَارٍ وَإِقَامَةٍ.

[٦٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ وَاخْتَلَفُوا فِي مَعْنَىٰ الْإِسْرَافِ وَالْإِقْتَارِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْإِسْرَافُ النَّفَقَةُ فِي معصية الله وإن قلت، والإقتار مَنَعُ حَقِّ اللهِ تَعَالَىٰ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ وَابْنِ جُرَيْجٍ ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري فِي هَذِهِ الْآيَةِ لَمْ يُنْفِقُوا فِي مَعَاصِي اللهِ وَلَمْ يُمْسِكُوا عَنْ فَرَائِضِ اللهِ. وَقَالَ قَوْمٌ: الْإِسْرَافُ مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ فِي الْإِنْفَاقِ، حَتَّىٰ يدخل فِي حد التبذير، والإقتار التَّقْصِيرُ عَمَّا لَا بُدَّ مِنْهُ، وَهَذَا مَعْنَىٰ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ لَا يُجِيعُهُمْ وَلَا يُعَرِّيهِمْ وَلَا يُنْفِقُ نَفَقَةً يَقُولُ النَّاسُ قَدْ أَسْرَفَ، ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ قَصْدًا وَسَطًا بَيْنَ الْإِسْرَافِ وَالْإِقْتَارِ، حسنة بين السيئتين.

[٦٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ عن عبد الله بن مَسْعُودٍ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الذَّنْبِ أَكْبَرُ؟ قَالَ: «**أَنْ تجعل لله أنداداً وَهُوَ خَلَقَكَ**»، قَالَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «**أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ**»، قَالَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «**أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ**»، قَالَ عَبْدُ اللهِ: وَأَنْزَلَ اللهُ تَصْدِيقَ ذَلِكَ ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ (وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ) ، أَيْ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الأفعال، ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ ، يَوْمِ الْقِيَامَةِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ

رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: إِنَّمَا يُرِيدُ جَزَاءَ الإِثْمِ ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: الْآثَامُ الْعُقُوبَةُ، وَالْأَثَامُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الْعِقَابُ.

[٦٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُضَاعَفْ لَهُ العذاب يوم القيامة﴾ أي يقرر عَلَيْهِ وَيُغْلَّظُ ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانـًا﴾ أَيْ حَقِيرًا ذَلِيلًا؛ جَامِعًا لِعَذَابَي الْجِسْمِ وَالرُّوحِ. قَالَ النَّسَفِيُّ: أَيْ يُعَذَّبُ عَلَىٰ مُرُورِ الْأَيَّامِ فِي الْآخِرَةِ عَذَابًا عَلَىٰ عَذَابٍ. وَقِيلَ: إِذَا ارْتَكَبَ الْمُشْرِكُ مَعَاصِيَ مَعَ الشِّرْكِ؛ عُذِّبَ عَلَىٰ الشِّرْكِ وَعَلَىٰ الْمَعَاصِي جَمِيعًا، فَتُضَاعَفُ الْعُقُوبَةُ لِمُضَاعَفَةِ الْمُعَاقَبِ عَلَيْهِ.

[٧٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ قَالَ قَتَادَةُ: إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ بِرَبِّهِ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فيما بينه وبين ربه ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ فَذَهَبَ جَمَاعَةٌ إِلَىٰ أَنَّ هَذَا التَّبْدِيلَ فِي الدُّنْيَا، فقالوا: يُبَدِّلُهُمُ اللهُ بِقَبَائِحِ أَعْمَالِهِمْ فِي الشِّرْكِ مَحَاسِنَ الْأَعْمَالِ فِي الْإِسْلَامِ، فَيُبَدِّلُهُمْ بِالشِّرْكِ إيمانهم وَبِقَتْلِ الْمُؤْمِنِينَ قَتْلَ الْمُشْرِكِينَ، وَبِالزِّنَا عِفَّةً وَإِحْصَانًا، قَالَ الْحَسَنُ البصري: أبدلهم الله بالعمل السيء الْعَمَلَ الصَّالِحَ، وَأَبْدَلَهُمْ بِالشِّرْكِ إِخْلَاصًا، وَأَبْدَلَهُمْ بِالْفُجُورِ إحصانـًا، وبالكفر إسلامـًا، وَقَالَ قَوْمٌ: يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمُ الَّتِي عَمِلُوهَا فِي الْإِسْلَامِ حَسَنَاتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَمْحُو بِالنَّدَمِ جَمِيعَ السَّيِّئَاتِ، ثُمَّ يُثْبِتُ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حسنة. وفي الحديث عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: لَيَأْتِينَّ اللهُ عزَّ وجلَّ بِأُنَاسٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدِ اسْتَكْثَرُوا مِنَ السَّيِّئَاتِ، قِيلَ: مَنْ هُمْ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ قَالَ: الَّذِينَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ.

[٧١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ هَذَا فِي التَّوْبَةِ عَنْ غَيْرِ مَا سَبَقَ ذِكْرُهُ فِي الْآيَةِ الْأُولَىٰ مِنَ الْقَتْلِ وَالزِّنَا، يَعْنِي مَنْ تَابَ مِنَ الشِّرْكِ وَعَمِلَ صَالِحًا أَيْ: أَدَّىٰ الْفَرَائِضَ مِمَّنْ لَمْ يَقْتُلْ وَلَمْ يَزْنِ، ﴿فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَىٰ اللهِ﴾ أي يعود إليه بالموت ﴿مَتَابًا﴾ حَسَنًا يُفَضَّلُ بِهِ عَلَىٰ غَيْرِهِ ممن قتل وزنا فَالتَّوْبَةُ الْأُولَىٰ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ تَابَ﴾ رُجُوعٌ عَنِ الشِّرْكِ وَالثَّانِي رُجُوعٌ إِلَىٰ اللهِ لِلْجَزَاءِ وَالْمُكَافَأَةِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هَذِهِ الْآيَةُ أَيْضًا فِي التَّوْبَةِ عَنْ جَمِيعِ السَّيِّئَاتِ، وَمَعْنَاهُ: وَمَنْ أَرَادَ التَّوْبَةَ وَعَزَمَ عَلَيْهَا فَلْيَتُبْ لِوَجْهِ اللهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿يَتُوبُ إِلَىٰ اللهِ﴾ خَبَرٌ بِمَعْنَىٰ الْأَمْرِ، أَيْ: لِيَتُبْ إِلَىٰ اللهِ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ فَلْيَعْلَمْ أَنَّ تَوْبَتَهُ وَمَصِيرَهُ إِلَىٰ اللهِ.

[٧٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ وَأَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ: يَعْنِي الشِّرْكَ، وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ طَلْحَةَ: يعني شهادة الزور، وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: يَعْنِي الْكَذِبَ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي أَعْيَادَ الْمُشْرِكِينَ، قَالَ قَتَادَةُ: لَا يُسَاعِدُونَ أَهْلَ الْبَاطِلِ عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ ، وقال محمد ابن الْحَنَفِيَّةِ: لَا يَشْهَدُونَ اللَّهْوَ وَالْغِنَاءَ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: الْغِنَاءُ يُنْبِتُ النِّفَاقَ فِي الْقَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الزَّرْعَ. وَأَصْلُ الزُّورِ تَحْسِينُ الشَّيْءِ وَوَصْفُهُ بِخِلَافِ صِفَتِهِ، فَهُوَ تَمْوِيهُ الْبَاطِلِ بِمَا يُوهِمُ أَنَّهُ حَقٌّ، ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ: إِذَا سَمِعُوا مِنَ

الْكُفَّارِ الشَّتْمَ وَالْأَذَىٰ أَعْرَضُوا وَصَفَحُوا، نَظِيرُهُ قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ قال القرطبي : وَالزُّورُ كُلُّ بَاطِلٍ زُوِّرَ وَزُخْرِفَ، وَأَعْظَمُهُ الشِّرْكُ وَتَعْظِيمُ الْأَنْدَادِ. وقَالَ الْحَسَنُ البصري: اللَّغْوُ الْمَعَاصِي كُلُّهَا يَعْنِي إِذَا مَرُّوا بِمَجْلِسِ اللَّهْوِ وَالْبَاطِلِ مَرُّوا كِرَامًا مُسْرِعِينَ مُعْرِضِينَ. يُقَالُ: تَكَرَّمَ فَلَانٌ عما يشينه إذا تنزه وأكره نَفْسَهُ عَنْهُ.

[٧٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا﴾ قال السعدي: أي لم يقابلوها بالإعراض عنها والصمم عن سماعها وصرف النظر والقلوب عنها كما يفعله من لم يؤمن بها ولم يصدق ﴿عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ كَأَنَّهُمْ صُمٌّ عُمْيٌ بَلْ يَسْمَعُونَ مَا يُذَكَّرُونَ بِهِ فَيَفْهَمُونَهُ وَيَرَوْنَ الْحَقَّ فِيهِ فَيَتَّبِعُونَهُ، وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: كَمْ مِنْ رَجُلٍ يَقْرَؤُهَا ويخر عليها أصم أعمىٰ، وقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: لَمْ يَتَغَافَلُوا عَنْهَا كَأَنَّهُمْ صُمٌّ لَمْ يَسْمَعُوهَا وَعُمْيٌ لَمْ يَرَوْهَا.

[٧٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ يعني أَوْلَادًا أَبْرَارًا أَتْقِيَاءَ، يَقُولُونَ: اجْعَلْهُمْ صَالِحِينَ فَتَقَرَّ أَعْيُنُنَا بِذَلِكَ، قَالَ الْقُرَظِيُّ: لَيْسَ شَيْءٌ أَقَرَّ لِعَيْنِ الْمُؤْمِنِ مِنْ أَنْ يَرَىٰ زَوْجَتَهُ وَأَوْلَادَهُ مُطِيعِينَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: وَوَحَّدَ الْقُرَّةَ لِأَنَّهَا مصدر وأصلها من القر لِأَنَّ الْعَرَبَ تَتَأَذَّىٰ مِنَ الْحَرِّ وَتَسْتَرْوِحُ إِلَىٰ الْبَرْدِ وَتُذْكَرُ قُرَّةُ الْعَيْنِ عِنْدَ السُّرُورِ وَسُخْنَةُ الْعَيْنِ عِنْدَ الْحُزْنِ، وَيُقَالُ: دَمْعُ الْعَيْنِ عِنْدَ السُّرُورِ بَارِدٌ، وَعِنْدَ الْحُزْنِ حَارٌّ. وَقَالَ الْأَزْهَرِيُّ: مَعْنَىٰ قُرَّةِ الْأَعْيُنِ أَنْ يُصَادِفَ قَلْبُهُ مَنْ يَرْضَاهُ فَتَقَرُّ عَيْنُهُ بِهِ

عَنِ النَّظَرِ إِلَىٰ غَيْرِهِ ، ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ يعني أَئِمَّةً يَقْتَدُونَ فِي الْخَيْرِ بِنَا. قَالَ الْحَسَنُ البصري: نَقْتَدِي بِالْمُتَّقِينَ وَيَقْتَدِي بِنَا الْمُتَّقُونَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: اجْعَلْنَا أَئِمَّةً يُقْتَدَىٰ بِنَا فِي الْخَيْرِ.

[٧٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ﴾ يعني ينالون، ﴿الْغُرْفَةَ﴾ يعني الدرجة الرفيعة في الجنة والغرفة كُلُّ بِنَاءٍ مُرْتَفِعٍ عَالٍ وَقَالَ ابن كثير : وهي الجنة سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِارْتِفَاعِهَا، ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ عَلَىٰ أَمْرِ اللهِ تَعَالَىٰ وَطَاعَتِهِ ، وَقِيلَ: عَلَىٰ أَذَىٰ الْمُشْرِكِينَ ، وَقِيلَ: عن الشهوات ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً﴾ أَيْ مُلْكًا وَقِيلَ: بَقَاءً دَائِمًا، ﴿وَسَلَامًا﴾ أَيْ: يُسَلِّمُ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ، ويلقون التَّوْقِيرَ وَالِاحْتِرَامَ، فَلَهُمُ السَّلَامُ وَعَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَىٰ الدَّارِ﴾.

[٧٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي مقيمين فيها لا يظعنون ولا يموتون، حسنت منظراً، وطابت مقيلاً ومنزلاً.

[٧٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: أَيْ مَا يَصْنَعُ وَمَا يَفْعَلُ بِكُمْ؟ قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ يُقَالُ: مَا عَبَأْتُ بِهِ شَيْئًا أَيْ لَمْ أَعُدَّهُ، فَوُجُودُهُ وَعَدَمُهُ سَوَاءٌ، مَجَازُهُ: أَيُّ وَزْنٍ وَأَيُّ مِقْدَارٍ لَكُمْ عنده، قال ابن كثير : أَيْ لَا يُبَالِي وَلَا يَكْتَرِثُ بِكُمْ إِذَا لَمْ تَعْبُدُوهُ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا خلق الخلق ليعبدوه ويوحده ويسبحوه بكرة وأصيلاً ، ﴿لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ إِيَّاهُ، قال ابن عباس: لَوْلَا إِيمَانُكُمْ، وأخبر الله الكفار أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين، ولو كان له حاجة بهم لحبب

إليهم الإيمان كما حببه إلىٰ المؤمنين ، وَقِيلَ: لَوْلَا عِبَادَتُكُمْ، وَقَالَ قَوْمٌ: مَعْنَاهَا قُلْ مَا يَعْبَأُ بِخَلْقِكُمْ رَبِّي لَوْلَا عِبَادَتُكُمْ وَطَاعَتُكُمْ إِيَّاهُ يَعْنِي إِنَّهُ خَلَقَكُمْ لِعِبَادَتِهِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ، قوله تعالىٰ : ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ أَيُّهَا الْكَافِرُونَ يُخَاطِبُ أَهْلَ مَكَّةَ يَعْنِي إِنِ اللهَ دَعَاكُمْ بِالرَّسُولِ إِلَىٰ تَوْحِيدِهِ وَعِبَادَتِهِ فَقَدْ كَذَّبْتُمُ الرَّسُولَ وَلَمْ تُجِيبُوهُ ، ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ هذا تهذيبه لهم أي يكون تكذيبهم لِزَامًا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَوْتًا، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: هَلَاكًا، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: قِتَالًا، وَالْمَعْنَىٰ يَكُونُ التَّكْذِيبُ لَازِمًا لِمَنْ كَذَّبَ فَلَا يُعْطَىٰ التَّوْبَةَ حَتَّىٰ يُجَازَىٰ بِعَمَلِهِ، وَقَالَ الطبري: عَذَابًا دَائِمًا وَهَلَاكًا مُقِيمًا يُلْحِقُ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَاخْتَلَفُوا فِيهِ فَقَالَ قَوْمٌ: هُوَ يَوْمُ بَدْرٍ قُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ وأسر سبعون، وَقِيلَ: اللِّزَامُ هُوَ عَذَابُ الْآخِرَةِ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفُرْقَانِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

هِيَ مَكِّيَّةٌ فِي قَوْلِ الْجُمْهُورِ.

[١] قَوْلُهُ تعَالَىٰ: ﴿طسم﴾ تَقَدَّمَ الْقَوْلُ فِي مَفْهُومِ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّورِ، وَأَنَّ غَايَةَ مَا يُقَالُ: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ مِنْ جِنْسِ هَذِهِ الْأَحْرُفِ، وَهَذِهِ السُّورَةُ الْجَامِعَةُ لِتَارِيخِ الْأُمَمِ مَعَ رُسُلِهَا وَمَفْهُومِ الْخَلْقِ مِنْ مَبْدَئِهِ إِلَىٰ مُنْتَهَاهُ قَدْ صِيغَتْ فِي بَيَانٍ رَائِعٍ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ الْحُرُوفِ الَّتِي يَتَكَلَّمُ الْعَرَبُ وَيَتَخَاطَبُونَ بِهَا، وَمَعَ ذَلِكَ هُمْ عَاجِزُونَ عَنْ مُعَارَضَةِ هَذَا الْقُرْآنِ بِمِثْلِهِ أَوْ بِسُورَةٍ نَحْوِهِ، أَضِفْ إِلَىٰ ذَلِكَ ذِكْرَ الِانْتِصَارِ لِهَذَا الْكِتَابِ الْمُعْجِزِ بَعْدَ ذِكْرِ هَذِهِ الْأَحْرُفِ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تِلْكَ﴾ أي هذه، وَالْمَعْنَىٰ: هَذِهِ آيَاتُ الْقُرْآنِ تُقْرَأُ عَلَيْكُمْ وَهِيَ بِلُغَتِكُمْ وَحُرُوفِ هِجَائِهَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهَا ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أي البيِّن الواضح الجلي، الَّذِي يَفْصِلُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالْغَيِّ وَالرَّشَادِ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ﴾ قَاتِلٌ، قَالَ قَتَادَةُ: قاتلٌ نَفْسَكَ غَضَبًا وَحُزْنًا عَلَيْهِمْ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: جَزَعًا، وَالْمَعْنَىٰ مُتَقَارِبٌ أَيْ: لَا تَأْسَفْ عَلَيْهِمْ بَلْ أَبْلِغْهُمْ رِسَالَةَ اللهِ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ، وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عليها، ولا تَذْهَبْ نَفْسُكَ

عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ وَحَقِيقَةُ الْبَخْعِ إِعْمَاقُ الذَّبْحِ، يُقَالُ: بَخَعَ الشَّاةَ،إِذَا بَلَغَ بِالسِّكِّينِ الْبِخَاعَ وَهُوَ الشريان الرئيس في العنق ﴿نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ إن لم يؤمنوا ذلك حِينَ كَذَّبَهُ أَهْلُ مَكَّةَ فَشَقَّ عليه وَكَانَ يَحْرِصُ عَلَىٰ إِيمَانِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: لَوْ شَاءَ اللهُ لَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ آيَةً يَذِلُّونَ بِهَا فَلَا يَلْوِي أَحَدٌ مِنْهُمْ عُنُقَهُ إِلَىٰ مَعْصِيَةِ اللهِ ، وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: مَعْنَاهُ لَوْ شَاءَ اللهُ لِأَرَاهُمْ أَمْرًا مِنْ أَمْرِهِ لَا يَعْمَلُ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَعْدَهُ مَعْصِيَةً، وقوله عز وجل: ﴿خَاضِعِينَ﴾ وَلَمْ يَقُلْ خَاضِعَةً وَهِيَ صِفَةُ الأعناق، ففيه أَقَاوِيلُ: أَحُدُهَا: أَرَادَ أَصْحَابَ الْأَعْنَاقِ فَحَذَفَ الْأَصْحَابَ وَأَقَامَ الْأَعْنَاقَ مَقَامَهُمْ، لِأَنَّ الْأَعْنَاقَ إِذَا خَضَعَتْ فَأَرْبَابُهَا خاضعون، جعل الْفِعْلَ أَوَّلًا لِلْأَعْنَاقِ ثُمَّ جَعَلَ خَاضِعِينَ لِلرِّجَالِ،وَقَالَ النَّحَّاسُ: وَمَعْرُوفٌ فِي اللُّغَةِ، يُقَالُ: جَاءَنِي عُنُقٌ مِنَ النَّاسِ أَيْ رُؤَسَاءُ منهم، وَقَالَ قَوْمٌ: ذَكَرَ الصِّفَةَ لِمُجَاوَرَتِهَا الْمُذَكَّرَ، وَهُوَ قَوْلُهُ عَلَىٰ عَادَةِ الْعَرَبِ فِي تَذْكِيرِ الْمُؤَنَّثِ إِذَا أَضَافُوهُ إِلَىٰ مُذَكَّرٍ، وَتَأْنِيثِ الْمُذَكَّرِ إِذَا أَضَافُوهُ إِلَىٰ المؤنث، وقيل: أراد فظلوا خاضعين فعبروا بِالْعُنُقِ عَنْ جَمِيعِ الْبَدَنِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَرَادَ بِالْأَعْنَاقِ الرُّؤَسَاءَ وَالْكُبَرَاءَ، أَيْ فَظَلَّتْ كُبَرَاؤُهُمْ خَاضِعِينَ، وَقِيلَ: أَرَادَ بِالْأَعْنَاقِ الْجَمَاعَاتِ، يُقَالُ: جَاءَ الْقَوْمُ عُنُقًا عُنُقًا أَيْ جَمَاعَاتٍ وَطَوَائِفَ، وَقِيلَ: إِنَّمَا قال خاضعين علىٰ وفاق رؤوس الْآيِ لِيَكُونَ عَلَىٰ نَسَقٍ وَاحِدٍ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ﴾ وَعْظٍ وَتَذْكِيرٍ، ﴿مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ﴾ أَيْ مُحْدَثٍ إِنْزَالُهُ، فَهُوَ مُحْدَثٌ فِي التَّنْزِيلِ ، قَالَ الْكَلْبِيُّ: كُلَّمَا نَزَلَ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ بَعْدَ شَيْءٍ فَهُوَ أَحْدَثُ مِنَ الْأَوَّلِ ، قال ابن عاشور : وَالْمُحْدَثُ: الْجَدِيدُ، أَيْ مَنْ ذِكْرٍ بَعْدَ ذِكْرٍ يُذَكِّرُهُمْ بِمَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِهِ ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ أَيْ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ محمدًا صلىٰ الله عليه وسلم فيما أتاهم به ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ فسيعلمون ﴿أَنْبَاءُ﴾ أخبار ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وَهَذَا وَعِيدٌ لَهُمْ وَإِنْذَارٌ بِأَنَّهُمْ سَيَعْلَمُونَ إِذَا مَسَّهُمْ عَذَابُ اللهِ يَوْمَ بَدْرٍ أَوْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا الشَّيْءُ الَّذِي كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ بِهِ وَهُوَ الْقُرْآنُ، وَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاؤُهُ وَأَحْوَالُهُ الَّتِي كَانَتْ خَافِيَةً عَلَيْهِمْ .

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنف وضرب، ﴿كَرِيمٍ﴾ حَسَنٍ مِنَ النَّبَاتِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ، يُقَالُ: نَخْلَةٌ كَرِيمَةٌ إِذَا طَابَ حَمْلُهَا، وَنَاقَةٌ كَرِيمَةٌ إِذَا كَثُرَ لَبَنُهَا، قَالَ الشَّعْبِيُّ: النَّاسُ مِنْ نَبَاتِ الْأَرْضِ فَمَنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ فَهُوَ كَرِيمٌ، وَمَنْ دَخَلَ النَّارَ فَهُوَ لَئِيمٌ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الذي ذكرت، ﴿لَآيَةً﴾ دَلَالَةً عَلَىٰ وُجُودِي وَتَوْحِيدِي وَكَمَالِ قُدْرَتِي، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ مُصَدِّقِينَ أَيْ سَبَقَ عِلْمِي فِيهِمْ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، وَقَالَ سِيبَوَيْهِ: كَانَ هَاهُنَا صِلَةٌ مَجَازُهُ: وَمَا أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الْعَزِيزُ بِالنِّقْمَةِ مِنْ أَعْدَائِهِ، الذي قد قهر كل مخلوق، ﴿الرَّحِيمُ﴾ ذُو الرَّحْمَةِ بِأَوْلِيَائِهِ، الذي وسعت رحمته كل شيء.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾ وَاذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ إِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ حِينَ رَأَىٰ الشَّجَرَةَ وَالنَّارَ، وَالنِّدَاءُ الدعاء بيا فُلَانُ، أَيْ قَالَ رَبُّكَ يَا مُوسَىٰ ﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يَعْنِي الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْكُفْرِ وَالْمَعْصِيَةِ، وَظَلَمُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ بِاسْتِعْبَادِهِمْ وَسَوْمِهِمْ سُوءَ الْعَذَابِ.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ أَلَا يَخَافُونَ عِقَابَ اللهِ عزوجل؟.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ يَعْنِي مُوسَىٰ، ﴿رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ أَيْ فِي الرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ بتكذيبهم إياي، و ﴿وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ قَالَ: هَذَا لِلْعُقْدَةِ الَّتِي كَانَتْ عَلَىٰ لِسَانِهِ، ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ﴾ لِيُؤَازِرَنِي وَيُظَاهِرَنِي عَلَىٰ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾ أَيْ دَعْوَىٰ ذَنْبٍ، وَهُوَ قَتْلُهُ القبطي، ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ أي يقتلونني به.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ ﴿كَلَّا﴾ أَيْ لَنْ يَقْتُلُوكَ ﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ سَامِعُونَ مَا يَقُولُونَ، ذَكَرَ مَعَكُمْ بِلَفْظِ الْجَمْعِ، وَهُمَا اثْنَانِ

أَجْرَاهُمَا مَجْرَىٰ الْجَمَاعَةِ ، وَقِيلَ: أَرَادَ مَعَكُمَا وَمَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ نَسْمَعُ مَا يُجِيبُكُمْ فِرْعَوْنُ.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وَلَمْ يَقُلْ رَسُولَا رَبِّ الْعَالَمِينَ لأنه أراد الرسالة أَنَا ذُو رِسَالَةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ بِمَعْنَىٰ الاِثْنَيْنِ وَالْجَمْعِ، تَقُولُ الْعَرَبُ: هَذَا رَسُولِي وَوَكِيلِي وَهَذَانِ وَهَؤُلَاءِ رَسُولِي وَوَكِيلِي، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [الْكَهْفِ: ٥٠] وَقِيلَ: مَعْنَاهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَنْ أَرْسِلْ﴾ أَيْ بِأَنْ أَرْسِلْ، ﴿مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي إِلَىٰ فِلَسْطِينَ، وَلَا تَسْتَعْبِدْهُمْ، وَكَانَ فِرْعَوْنُ اسْتَعْبَدَهُمْ أَرْبَعَمِائَةِ سَنَةٍ، وَكَانُوا في ذلك الوقت ستمائة ألف وَثَلَاثِينَ أَلْفًا، فَانْطَلَقَ مُوسَىٰ إِلَىٰ مِصْرَ وَهَارُونُ بِهَا فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ صَبِيًّا، ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ وَهُوَ ثَلَاثُونَ سَنَةً.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ يَعْنِي قَتْلَ الْقِبْطِيِّ، ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ قَالَ الْحَسَنُ البصري: يَعْنِي وَأَنْتَ من الكافرين بإلهك الذي تدعيه، ومعناه: عَلَىٰ دِينِنَا هَذَا الَّذِي تَعِيبُهُ ، وَقَالَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ: مَعْنَىٰ قَوْلِهِ وأنت من الكافرين يعني مِنَ الْجَاحِدِينَ لِنِعْمَتِي وَحَقِّ تَرْبِيَتِي، يَقُولُ رَبَّيْنَاكَ

فِينَا فَكَافَأْتَنَا أَنْ قَتَلْتَ مِنَّا نَفْسًا وَكَفَرْتَ بِنِعْمَتِنَا ، قال ابْنِ عباس: إِنَّ فِرْعَوْنَ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ ما الكفر بالربوبية.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ موسىٰ ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا﴾ أَيْ فَعَلْتُ مَا فَعَلْتُ حِينَئِذٍ، ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي من الجاهلين فَنَفَىٰ عَنْ نَفْسِهِ الْكُفْرَ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ عَلَىٰ الْجَهْلِ، وَقِيلَ: مِنَ الضَّالِّينَ عَنْ طَرِيقِ الصَّوَابِ مِنْ غَيْرِ تَعَمُّدٍ. وَقِيلَ. مِنَ الْمُخْطِئِينَ.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ أَيْ خَرَجْتُ مِنْ بَيْنِكُمْ إِلَىٰ مَدْيَنَ ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ يَعْنِي النُّبُوَّةَ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: يَعْنِي الْعِلْمَ وَالْفَهْمَ، وقال الزَّجَّاجُ: تَعْلِيمُ التَّوْرَاةِ الَّتِي فِيهَا حُكْمُ اللهِ. ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ .

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ اخْتَلَفُوا فِي تَأْوِيلِهَا فَحَمَلَهَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ الْإِقْرَارِ وَبَعْضُهُمْ عَلَىٰ الْإِنْكَارِ، فَمَنْ قَالَ هُوَ إِقْرَارٌ قَالَ عَدَّهَا مُوسَىٰ نِعْمَةً مِنْهُ عَلَيْهِ حَيْثُ رَبَّاهُ، وَلَمْ يَقْتُلْهُ كَمَا قَتَلَ سَائِرَ غِلْمَانِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَمْ يَسْتَعْبِدْهُ كَمَا اسْتَعْبَدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، مَجَازُهُ: بلىٰ وتلك نعمة لك عَلَيَّ أَنْ استعبدنت بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَتَرَكْتَنِي فَلَمْ تَسْتَعْبِدْنِي. وَمَنْ قَالَ: هُوَ إِنْكَارٌ قَالَ قَوْلُهُ: وَتِلْكَ نِعْمَةٌ هُوَ عَلَىٰ طَرِيقِ الِاسْتِفْهَامِ أي: أو تلك نِعْمَةٌ؟ حُذِفَ أَلِفُ الِاسْتِفْهَامِ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] ؟ يَقُولُ: تَمُنُّ عَلَيَّ أَنْ رَبَّيْتَنِي وَتَنْسَىٰ جِنَايَتَكَ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالِاسْتِعْبَادِ وَالْمُعَامَلَاتِ الْقَبِيحَةِ؟ أَوْ يُرِيدُ: كَيْفَ تَمُنُّ عَلَيَّ بِالتَّرْبِيَةِ وَقَدِ اسْتَعْبَدْتَ قَوْمِي، وَمَنْ أُهِينَ قَوْمُهُ

ذُلَّ، فَتَعْبِيدُكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَحْبَطَ إِحْسَانَكَ إِلَيَّ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ تَمُنُّ عَلَيَّ بِالتَّرْبِيَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أَيْ بِاسْتِعْبَادِكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقَتْلِكَ أَوْلَادَهُمْ، دُفِعْتُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ رَبَّيْتَنِي وَكَفَلْتَنِي وَلَوْ لَمْ تَسْتَعْبِدْهُمْ وَتَقْتُلْهُمْ كان لي من أهل مَنْ يُرَبِّينِي وَلَمْ يُلْقُونِي فِي الْيَمِّ، فَأَيُّ نِعْمَةٍ لَكَ عَلَيَّ؟ قوله: ﴿عَبَّدْتَ﴾ أَيْ اتَّخَذْتَهُمْ عَبِيدًا، يُقَالُ: عَبَّدْتُ فُلَانًا وَأَعْبَدْتُهُ وَتَعَبَّدْتُهُ وَاسْتَعْبَدْتُهُ، أَيْ اتَّخَذْتُهُ عَبْدًا.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ يَقُولُ: أَيُّ شَيْءٍ رَبُّ الْعَالَمِينَ الَّذِي تَزْعُمُ أَنَّكَ رَسُولُهُ إِلَيَّ يَسْتَوْصِفُهُ إِلَهَهُ الَّذِي أَرْسَلَهُ إِلَيْهِ مما هو سُؤَالٌ عَنْ جِنْسِ الشَّيْءِ، وَاللهُ مُنَزَّهٌ عَنِ الْجِنْسِيَّةِ، فَأَجَابَهُ مُوسَىٰ عليه السلام يذكر أَفْعَالِهِ الَّتِي يَعْجِزُ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهَا.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ إِنَّهُ خَالِقُهُمَا ، قَالَ أَهْلُ الْمَعَانِي: أَيْ كَمَا تُوقِنُونَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ الَّتِي تُعَايِنُونَهَا فَأَيْقِنُوا أَنَّ إِلَهَ الْخَلْقِ هُوَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَلَمَّا قَالَ مُوسَىٰ ذَلِكَ تَحَيَّرَ فِرْعَوْنُ فِي جَوَابِ مُوسَىٰ.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ﴾ من أشراف قومه اسْتِبْعَادًا لِقَوْلِ مُوسَىٰ، ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ آلِهَتَهُمْ مُلُوكُهُمْ، فَزَادَهُمْ مُوسَىٰ فِي الْبَيَانِ.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ فَجاءَ بِدَلِيلٍ يفْهَمُونَهُ عَنْهُ، لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ قَدْ كَانَ لَهُمْ آبَاءٌ وَأَنَّهُمْ قَدْ فَنُوا وَأَنَّهُ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ مُغيِّرٍ، وَأَنَّهُمْ قَدْ كَانُوا بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُونُوا، وَأَنَّهُمْ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ مُكَوِّنٍ.

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ يَعْنِي فِرْعَوْنَ، ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ لَا نَعْقِلُهُ وَلَا نَعْرِفُ صِحَّتَهُ، ويُجِيبُنِي عَمَّا أَسْأَلُ، وَكَانَ عِنْدَهُمْ أَنَّ مَنْ لَا يَعْتَقِدُ مَا يَعْتَقِدُونَ لَيْسَ بِعَاقِلٍ، فَزَادَ مُوسَىٰ فِي الْبَيَانِ:

[٢٨] : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أَيْ لَيْسَ مُلْكُهُ كَمُلْكِكَ، لِأَنَّكَ إِنَّمَا تملك بلد وَاحِدًا لَا يَجُوزُ أَمْرُكَ فِي غَيْرِهِ، وَيَمُوتُ مَنْ لَا تُحِبُّ أَنْ يَمُوتَ، وَالَّذِي أَرْسَلَنِي يَمْلِكُ الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبَ ﴿وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ فِرْعَوْنُ حِينَ لَزِمَتْهُ الْحُجَّةُ وَانْقَطَعَ عَنِ الْجَوَابِ تَكَبُّرًا عَنِ الْحَقِّ: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ من المحبوسين.

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ لَهُ مُوسَىٰ حِينَ تَوَعَّدَهُ بِالسِّجْنِ ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ﴾ أَيْ: وَإِنْ جِئْتُكَ، ﴿بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ بِآيَةٍ مُبِينَةٍ، وَمَعْنَىٰ الْآيَةِ أَتَفْعَلُ ذَلِكَ وَإِنْ أَتَيْتُكَ بِحُجَّةٍ بَيِّنَةٍ؟ وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ مُوسَىٰ لِأَنَّ مِنْ أَخْلَاقِ النَّاسِ السُّكُونَ إِلَىٰ الْإِنْصَافِ وَالْإِجَابَةَ إِلَىٰ الحق بعد البيان.

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ له فرعون، ﴿فَأْتِ بِهِ﴾ فَإِنَّا لَنْ نَسْجُنَكَ حِينَئِذٍ، ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ .

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ أَيْ ظَاهِرٌ وَاضِحٌ فِي غاية الجلاء والوضوح، ذَاتُ قَوَائِمَ وَفَمٍ كَبِيرٍ وَشَكْلٍ هَائِلٍ مُزْعِجٍ.

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ أَيْ مِنْ جَيْبِهِ ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ أَيْ تَتَلَأْلَأُ كَقِطْعَةٍ مِنَ الْقَمَرِ، فبادر فرعون بشقاوته إِلَىٰ التَّكْذِيبِ وَالْعِنَادِ، فَقَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ:

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ فِرْعَوْنُ ﴿لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي بارع في السحر، فروّج عليهم أَنَّ هَذَا مِنْ قَبِيلِ السِّحْرِ لَا مِنْ قَبِيلِ الْمُعْجِزَةِ، ثُمَّ هَيَّجَهُمْ وَحَرَّضَهُمْ عَلَىٰ مُخَالَفَتِهِ وَالْكُفْرِ بِهِ.

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أَيْ أَرَادَ أَنْ يَذْهَبَ بِقُلُوبِ النَّاسِ مَعَهُ بِسَبَبِ هَذَا، فَيُكْثِرَ أَعْوَانَهُ وَأَنْصَارَهُ وَأَتْبَاعَهُ وَيَغْلِبَكُمْ علىٰ دولتكم، فَيَأْخُذَ الْبِلَادَ مِنْكُمْ، فَأَشِيرُوا عليَّ فِيهِ مَاذَا أَصْنَعُ بِهِ؟.

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ أَيْ أَخِّرْهُ وَأَخَاهُ حَتَّىٰ تَجمَعَ لَهُ مِنْ مَدَائِنِ مَمْلَكَتِكَ، وَأَقَالِيمِ دَوْلَتِكَ كُلَّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ يُقَابِلُونَهُ، وَيَأْتُونَ بِنَظِيرِ مَا جَاءَ بِهِ، فَتَغْلِبُهُ أَنْتَ وَتَكُونُ لَكَ النُّصْرَةُ وَالتَّأْيِيدُ فَأَجَابَهُمْ إِلَىٰ ذَلِكَ.

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ السَّحَّارُ مُرَادِفٌ لِلسَّاحِرِ فِي الِاسْتِعْمَالِلِأَنَّ صِيغَةَ فَعَّالٍ هُنَا لِلنَّسَبِ دَلَالَةً عَلَىٰ الصِّنَاعَةِ مثل النجّار، قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيِ: ابْعَثْ فِي جَمِيعِ مُدُنِكَ، الَّتِي هِيَ مَقَرُّ الْعِلْمِ، وَمَعْدَنُ السِّحْرِ، مَنْ

يَجْمَعُ لَكَ كُلَّ سَاحِرٍ مَاهِرٍ، عَلِيمٍ فِي سِحْرِهِ؛ فَإِنَّ السَّاحِرَ يُقَابَلُ بِسِحْرٍ مِنْ جِنْسِ سِحْرِهِ، وَهَذَا مِنْ لُطْفِ اللهِ أَنْ يُرِيَ الْعِبَادَ بُطْلَانَ مَا مَوَّهَ بِهِ فِرْعَوْنُ الْجَاهِلُ الضَّالُّ الْمُضِلُّ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ سِحْرٌ، قَيَّضَهُمْ أَنْ جَمَعُوا أَهْلَ الْمَهَارَةِ بِالسِّحْرِ، لِيَنْعَقِدَ الْمَجْلِسُ عَنْ حَضْرَةِ الْخَلْقِ الْعَظِيمِ، فَيَظْهَرَ الْحَقُّ عَلَىٰ الْبَاطِلِ، وَيُقِرَّ أَهْلُ الْعِلْمِ وَأَهْلُ الصِّنَاعَةِ بِصِحَّةِ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ، وَأَنَّهُ لَيْسَ بِسِحْرٍ، فَعَمِلَ فِرْعَوْنُ بِرَأْيِهِمْ، فَأَرْسَلَ فِي الْمَدَائِنِ مَنْ يَجْمَعُ السَّحَرَةَ، وَاجْتَهَدَ فِي ذَلِكَ وَجَدَّ.

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ وَهُوَ يَوْمُ الزِّينَةِ، وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: وَافَقَ ذَلِكَ الْيَوْمُ يَوْمَ السَّبْتِ فِي أَوَّلِ يَوْمٍ مِنَ السَّنَةِ وَهُوَ يَوْمُ النَّيْرُوزِ.

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ لِتَنْظُرُوا إِلَىٰ مَا يَفْعَلُ الْفَرِيقَانِ وَلِمَنْ تَكُونُ الْغَلَبَةُ. قَالَ الْقَاسِمِيُّ: أَيْ: لِرُؤْيَةِ مَا يُعَارِضُ مُعْجِزَةَ مُوسَىٰ. وَكَانَ خَامَرَ فُؤَادَهُمْ عَجَبٌ مِنْهَا وَانْدِهَاشٌ. وَالِاسْتِفْهَامُ مَجَازٌ عَنِ الْحَثِّ وَالِاسْتِعْجَالِ.

[٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ لِمُوسَىٰ، وَقِيلَ: إِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ عَلَىٰ طَرِيقِ الِاسْتِهْزَاءِ، وَأَرَادُوا بِالسَّحَرَةِ مُوسَىٰ وَهَارُونَ وَقَوْمَهُمَا، ولم يقولوا: نَتَّبِعُ الْحَقَّ سَوَاءٌ كَانَ مِنَ السَّحَرَةِ أَوْ مِنْ مُوسَىٰ، بَلِ الرَّعِيَّةُ عَلَىٰ دِينِ مُلُوكِهِمْ، قَالَ السَّعْدِيُّ وَالْمَعْنَىٰ: اجْتَمِعُوا لِتَنْظُرُوا غَلَبَةَ السَّحَرَةِ لِمُوسَىٰ، وَأَنَّهُمْ مَاهِرُونَ فِي صِنَاعَتِهِمْ، فَنَتَّبِعَهُمْ، وَنُعَظِّمَهُمْ، وَنَعْرِفَ

فَضِيلَةَ عِلْمِ السِّحْرِ، فَلَوْ وُفِّقُوا لِلْحَقِّ، لَقَالُوا: لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ الْمُحِقَّ مِنْهُمْ، وَلِنَعْرِفَ الصَّوَابَ، فَلِذَلِكَ مَا أَفَادَ فِيهِمْ ذَلِكَ، إِلَّا قِيَامَ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ. وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ؛ وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ** »[1].

[٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ﴾ ووصلوا لفرعون قالوا له: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ أَيْ: فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ لِلْمَكَانِ الْمُخَصَّصِ لَهُمْ وَقَدْ حَشَدَ فِرْعَوْنُ حَشَمَهُ وَخَدَمَهُ وَوُزَرَاءَهُ وَرُؤَسَاءَ دَوْلَتِهِ وَجُنُودَ مَمْلَكَتِهِ، كَلَّمَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَبْلَ الشُّرُوعِ فِي مُهِمَّتِهِمْ يُذَكِّرُونَهُ بِمَا يَأْمُلُونَ مِنَ الْإِحْسَانِ مِنْهُ إِلَيْهِمْ وَالرَّفْعِ لِمَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَهُ إِذَا هُمْ أَفْلَحُوا فِي وَظِيفَتِهِمْ وَرَبِحُوا الْجَوْلَةَ عَلَىٰ مُوسَىٰ. فَأَجَابَهُمْ: نَعَمْ وَبِكُلِّ تَأْكِيدٍ إِنَّكُمْ سَتَكُونُونَ مِنْ أَخَصِّ الْمُقَرَّبِينَ، وَمِنْ أَقْرَبِ الْجُلَسَاءِ وَالْمَعْنِيِّينَ.

[٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ نَعَمْ﴾ لكم أجر وثواب ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ عِنْدِي، وَعَدَهُمُ الْأَجْرَ وَالْقُرْبَةَ مِنْهُ، لِيَزْدَادَ نَشَاطُهُمْ، وَيَأْتُوا بِكُلِّ مَقْدُورِهِمْ فِي مُعَارَضَةِ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ.

---

(١) النسائي (٤٠٧٩).

[٤٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ أَيْ: أَلْقُوا كُلَّ مَا فِي خَوَاطِرِكُمْ إِلْقَاؤُهُ، وَلَمْ يُقَيِّدْهُ بِشَيْءٍ دُونَ شَيْءٍ، لِجَزْمِهِ بِبُطْلَانِ مَا جَاءُوا بِهِ مِنْ مُعَارَضَةِ الْحَقِّ.

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾ فَإِذَا هِيَ حَيَّاتٌ تَسْعَىٰ، وَسَحَرُوا بِذَلِكَ أَعْيُنَ النَّاسِ، ﴿وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ فَاسْتَعَانُوا بِعِزَّةِ عَبْدٍ ضَعِيفٍ، عَاجِزٍ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ تَجَبَّرَ، وَحَصَلَ لَهُ صُورَةُ مُلْكٍ وَجُنُودٍ، فَغَرَّتْهُمْ تِلْكَ الْأُبَّهَةُ، وَلَمْ تَنْفُذْ بَصَائِرُهُمْ إِلَىٰ حَقِيقَةِ الْأَمْرِ، أَوْ أَنَّ هَذَا قَسَمٌ مِنْهُمْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ، وَالْمُقْسَمُ عَلَيْهِ: ﴿أَنَّهُمْ غَالِبُونَ﴾.

[٤٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ تبتلع وتأخذ ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ فَالْتَقَفَتْ جَمِيعَ مَا أَلْقَوْا مِنَ الْحِبَالِ وَالْعِصِيِّ، لِأَنَّهَا إِفْكٌ، وَكَذِبٌ، وَزُورٌ؛ وَذَلِكَ كُلُّهُ بَاطِلٌ لَا يَقُومُ لِلْحَقِّ، وَلَا يُقَاوِمُهُ، فَلَمَّا رَأَىٰ السَّحَرَةُ هَذِهِ الْآيَةَ الْعَظِيمَةَ، تَيَقَّنُوا - لِعِلْمِهِمْ - أَنَّ هَذَا لَيْسَ بِسِحْرٍ، وَإِنَّمَا هُوَ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ، وَمُعْجِزَةٌ تُنْبِئُ بِصِدْقِ مُوسَىٰ، وَصِحَّةِ مَا جَاءَ بِهِ :

[٤٦] : ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ فَلَمَّا تَبَيَّنَ السَّحَرَةُ أَنَّ الَّذِيَ جَاءَهُمْ بِهِ مُوسَىٰ حَقٌّ لَا سِحْرٌ، وَأَنَّهُ مِمَّا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ غَيْرُ اللهِ الَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْ غَيْرِ أَصْلٍ، خَرُّوا لِوُجُوهِهِمْ سُجَّدًا لِلَّهِ.

[٤٧] : ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الَّذِي دَعَانَا مُوسَىٰ إِلَىٰ عِبَادَتِهِ دُونَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ .

[٤٨] : ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ وَفِيهِ تَبْكِيتٌ لِفِرْعَوْنَ بِأَنَّهُ لَيْسَ بِرَبٍّ، وَأَنَّ الرَّبَّ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ هذين .

[٤٩] : ﴿آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾؟ أَيْ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَسْتَأْذِنُونِي فِيمَا فَعَلْتُمْ وَلَا تُفْتَاتُوا عليَّ فِي ذَلِكَ، فَإِنْ أَذِنْتُ لَكُمْ فَعَلْتُمْ وَإِنْ مَنَعْتُكُمُ امْتَنَعْتُمْ، فَإِنِّي أَنَا الْحَاكِمُ الْمُطَاعُ ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ ، وَهَذِهِ مُكَابَرَةٌ يَعْلَمُ كُلُّ أَحَدٍ بُطْلَانَهَا، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَجْتَمِعُوا بِمُوسَىٰ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَكَيْفَ يَكُونُ كَبِيرَهُمُ الَّذِي أَفَادَهُمْ صِنَاعَةَ السِّحْرِ؟ هَذَا لَا يَقُولُهُ عَاقِلٌ، ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ فِرْعَوْنُ بِقَطْعِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ وَالصَّلْبِ، وَالصَّلْبُ: وَضْعُ الْجَانِي الَّذِي يُرَادُ قَتْلُهُ مَشْدُودًا عَلَىٰ خَشَبَةٍ ثُمَّ قَتْلُهُ عَلَيْهَا طَعْنًا بِالرُّمْحِ فِي مَوْضِعِ الْقَتْلِ.

[٥٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا لاَ ضَيْرَ﴾ أَيْ لَا حَرَجَ وَلَا يَضُرُّنَا ذَلِكَ وَلَا نُبَالِي بِهِ، ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أَيِ الْمَرْجِعُ إِلَىٰ اللهِ عزَّ وجلَّ، وَهُوَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا، وَلَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مَا فَعَلْتَ بِنَا وَسَيَجْزِينَا عَلَىٰ ذَلِكَ أَتَمَّ الْجَزَاءَ، وَلِهَذَا قَالُوا:

[٥١] : ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا﴾ أَيْ ما فارقنا مِنَ الذُّنُوبِ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ، ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ بِسَبَبِ أَنَّا بَادَرْنَا قَوْمَنَا مِنَ الْقِبْطِ إِلَىٰ الْإِيمَانِ، فَقَتَلَهُمْ كلهم.

[٥٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ فأمر الله تعالىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَخْرُجَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ لَيْلًا مِنْ مِصْرَ، وَأَنْ يَمْضِيَ بِهِمْ حَيْثُ

يؤُمَر، فَفَعَلَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا أَمَرَهُ بِهِ رَبُّهُ عزَّ وجلَّ ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ يَتْبَعُكُمْ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ لِيَحُولُوا بَيْنَكُمْ وبين الخروج من مصر.

[٥٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ يَحْشُرُونَ النَّاسَ يَعْنِي الشُّرَطَ لِيَجْمَعُوا السَّحَرَةَ. وَقِيلَ: حَتَّىٰ يَجْمَعُوا لَهُ الجيش.

[٥٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ يَعْنِي بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ أَيْ لِطَائِفَةٌ قَلِيلَةٌ، وَالشِّرْذِمَةُ الْقِطْعَةُ مِنَ النَّاسِ غَيْرِ الكثير، وجمعها شراذم.

[٥٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ أَيْ كُلَّ وقت يصل منهم إلينا مَا يَغِيظُنَا، وَالْغَيْظُ وَالْغَضَبُ وَاحِدٌ، يَقُولُ: أغضبونا لمخالفتهم ديننا.

[٥٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ أَيْ نَحْنُ كُلَّ وَقْتٍ نَحْذَرُ مِنْ غَائِلَتِهِمْ، وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْتَأْصِلَ شَأْفَتَهُمْ وَأُبِيدَ خَضْرَاءَهُمْ، فَجُوزِيَ فِي نَفْسِهِ وَجُنْدِهِ بِمَا أَرَادَ لَهُمْ، قال أَهْلُ التَّفْسِيرِ: حَاذِرُونَ أَيْ مُؤْدُونَ وَمُقْوُونَ، أَيْ: ذَوُو أَدَاةٍ وَقُوَّةٍ مُسْتَعِدُّونَ شَاكُونَ فِي السِّلَاحِ، وَمَعْنَىٰ حذرون أَيْ خَائِفُونَ شَرَّهُمْ. وَقَالَ الزَّجَّاجُ: الحاذر المستعد، والحذر المستيقظ، وَقَالَ الْفَرَّاءُ: الْحَاذِرُ الَّذِي يَحْذَرُكَ الآن، والحذر الْمُخَوِّفُ. وَكَذَلِكَ لَا تَلْقَاهُ إِلَّا حَذِرًا، وَالْحَذَرُ اجْتِنَابُ الشَّيْءِ خَوْفًا منه.

[٥٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ﴾ وَفِي الْقِصَّةِ الْبَسَاتِينُ كَانَتْ مُمْتَدَّةً علىٰ حافتي النيل، ﴿وَعُيُونٍ﴾ أنهار جارية، قال ابن كثير : أَيْ فَخَرَجُوا

مِنْ هَذَا النَّعِيمِ إِلَىٰ الْجَحِيمِ، وَتَرَكُوا تِلْكَ الْمَنَازِلَ الْعَالِيَةَ وَالْبَسَاتِينَ وَالْأَنْهَارَ وَالْأَمْوَالَ وَالْأَرْزَاقَ وَالْمُلْكَ وَالْجَاهَ الْوَافِرَ فِي الدُّنْيَا.

[٥٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكُنُوزٍ﴾ يَعْنِي الْأَمْوَالَ الظَّاهِرَةَ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، قَالَ مُجَاهِدٌ: سَمَّاهَا كُنُوزًا لِأَنَّهُ لَمْ يُعْطِ حَقَّ اللهِ مِنْهَا وَمَا لَمْ يُعْطَ حَقُّ الله منها فَهُوَ كَنْزٌ وَإِنْ كَانَ ظَاهِرًا ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ أَيْ مَجْلِسٍ حَسَنٍ، قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: أَرَادَ مَجَالِسَ الْأُمَرَاءِ وَالرُّؤَسَاءِ الَّتِي كَانَتْ تَحُفُّهَا الْأَتْبَاعُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: هِيَ الْمَنَابِرُ.

[٥٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَذَلِكَ﴾ كما وصفنا، ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا﴾ بهلاكهم، ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ رَدَّ بني إسرائيل إلىٰ مصر بعدما أَغْرَقَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ فَأَعْطَاهُمْ جَمِيعَ مَا كَانَ لِفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ مِنَ الأموال والمساكن.

[٦٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ يعني لَحِقُوهُمْ فِي وَقْتِ إِشْرَاقِ الشَّمْسِ، وَهُوَ إِضَاءَتُهَا أَيْ أَدْرَكَ قَوْمُ فِرْعَوْنَ مُوسَىٰ وَأَصْحَابَهُ وَقْتَ شُرُوقِ الشمس، وقد ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ من المفسرين: أن فرعون خرج إليهم في محفل عظيم وجمع كبير، من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود.

[٦١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَىٰ الْجَمْعَانِ﴾ يعني تَقَابَلَا بِحَيْثُ يَرَىٰ كُلُّ فَرِيقٍ صاحبه ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ يعني سَيُدْرِكُنَا قَوْمُ فِرْعَوْنَ وَلَا طَاقَةَ لنا بهم، قَالَ ابن كثير : وذلك أنهم انْتَهَىٰ بِهِمُ السَّيْرُ إِلَىٰ ساحل الْبَحْرِ، وَهُوَ البحر الأحمر فصار أمامهم البحر .

[٦٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ مُوسَىٰ عليه السلام ثِقَةً بِوَعْدِ اللهِ إِيَّاهُ ﴿كَلَّا﴾ لَنْ يُدْرِكُونَا، ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ يَدُلُّنِي عَلَىٰ طَرِيقِ النَّجَاةِ.روىٰ ابن العربي عن بعض مشايخه : قَالَ مُوسَىٰ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] وَقَالَ فِي مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ لَا جَرَمَ لَمَّا كَانَ اللهُ مَعَ مُوسَىٰ وَحْدَهُ ارْتَدَّ أصحابه بعده، فرجع من عند ربه ووجد هم يَعْبُدُونَ الْعِجْلَ ، وَلَمَّا قَالَ فِي مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ بَقِيَ أَبُو بَكْرٍ مُهْتَدِيًا مُوَحِّدًا عَالِمًا جَازِمًا قَائِمًا بِالْأَمْرِ وَلَمْ يَتَطَرَّقْ إِلَيْهِ اخْتِلَالٌ.

[٦٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَوْحَيْنَا﴾ وأوحىٰ الله إلىٰ إِلَىٰ مُوسَىٰ ﴿أَنْ اضْرِبْ بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ فَضَرَبَهُ بها، ففيها سلطان الله الذي أعطاه ﴿فَانْفَلَقَ﴾ فَانْشَقَّ، ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍقِطْعَةٌ مِنَ الْمَاءِ، ﴿كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ كالجبل الضخم ، وَقَالَ عَطَاءٌ الْخُرَاسَانِيُّ: هُوَ الْفَجُّ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: صَارَ الْبَحْرُ اثْنَيْ عَشَرَ طَرِيقًا لِكُلِّ سِبْطٍ طَرِيقٌ؛ وَزَادَ السُّدِّيُّ: وَصَارَ فِيهِ طَاقَاتٌ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ، وَقَامَ الْمَاءُ عَلَىٰ حَيْلِهِ كَالْحِيطَانِ.

[٦٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾ يعني وقربنا، ﴿ثَمَّ الْآخَرِينَ﴾ يَعْنِي قَوْمَ فِرْعَوْنَ، يَقُولُ: قَدَّمْنَاهُمْ إِلَىٰ الْبَحْرِ وَقَرَّبْنَاهُمْ إِلَىٰ الْهَلَاكِ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: وَأَزْلَفْنَا: جَمَعْنَا، وَمِنْهُ لَيْلَةُ الْمُزْدَلِفَةِ أَيْ لَيْلَةُ الجمع .

[٦٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ أَنْجَيْنَا مُوسَىٰ مِمَّا أَتْبَعْنَا بِهِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ مِنَ الْغَرَقِ فِي الْبَحْرِ وَمَنْ مَعَ مُوسَىٰ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَجْمَعِينَ.

[٦٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: كَانَ الْبَحْرُ سَاكِنًا قَبْلَ ذَلِكَ فَلَمَّا ضَرَبَهُ مُوسَىٰ بِالْعَصَا اضْطَرَبَ فَجَعَلَ يَمُدُّ وَيَجْزُرُ.

[٦٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أَيْ عَلَامَةً عَلَىٰ قُدْرَةِ اللهِ تعالىٰ، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ لِأَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِلَّا مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ وَاسْمُهُ حَزْقِيلُ وَابْنَتُهُ آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ ذَا مُوسَىٰ الْعَجُوزُ الَّتِي دَلَّتْ عَلَىٰ قَبْرِ يُوسُفَ الصِّدِّيقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا خَرَجَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ أَظْلَمَ عَلَيْهِمُ الْقَمَرُ فَقَالَ لِقَوْمِهِ: مَا هَذَا؟ فَقَالَ عُلَمَاؤُهُمْ: إِنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ أَخَذَ عَلَيْنَا مَوْثِقًا مِنَ اللهِ أَلَّا نَخْرُجَ مِنْ مِصْرَ حَتَّىٰ نَنْقُلَ عِظَامَهُ مَعَنَا، قَالَ مُوسَىٰ: فَأَيُّكُمْ يَدْرِي قَبْرَهُ؟ قَالَ: مَا يَعْلَمُهُ إِلَّا عَجُوزٌ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا، فقَالَ: دُلِّينِي عَلَىٰ قَبْرِ يُوسُفَ، قَالَتْ: لَا وَاللهِ لَا أَفْعَلُ حَتَّىٰ تُعْطِيَنِي حُكْمِي، قَالَ: وَمَا حُكْمُكِ؟ قَالَتْ: حُكْمِي أَنْ أَكُونَ مَعَكَ فِي الْجَنَّةِ، فَثَقُلَ عَلَيْهِ، فَقِيلَ لَهُ: أَعْطِهَا حُكْمَهَا، فَدَلَّتْهُمْ عَلَيْهِ، فَاحْتَفَرُوهُ وَاسْتَخْرَجُوا عِظَامَهُ، فَلَمَّا أَقَلُّوهَا، فَإِذَا الطَّرِيقُ مِثْلُ ضَوْءِ النَّهَارِ فِي رِوَايَةٍ: فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ أَنْ أَعْطِهَا فَفَعَلَ، فَأَتَتْ بِهِمْ إِلَىٰ بُحَيْرَةٍ، فَقَالَتْ لَهُمْ:

أَنْضِبُوا هَذَا الْمَاءَ فَأَنْضَبُوهُ وَاسْتَخْرَجُوا عِظَامَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَتَبَيَّنَتْ لَهُمُ الطَّرِيقُ مِثْلَ ضَوْءِ النَّهَارِ.

[٦٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ الْعَزِيزُ فِي الِانْتِقَامِ مِنْ أَعْدَائِهِ، الرَّحِيمُ بِالْمُؤْمِنِينَ حِينَ أَنْجَاهُمْ.

[٦٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ نَبَّهَ الْمُشْرِكِينَ عَلَىٰ فَرْطِ جَهْلِهِمْ ، إِذْ رَغِبُوا عَنِ اعْتِقَادِ إِبْرَاهِيمَ وَدِينِهِ وَهُوَ أَبُوهُمْ، وَالنَّبَأُ الْخَبَرُ، أَيِ اقْصُصْ عَلَيْهِمْ يَا مُحَمَّدُ خَبَرَهُ وَحَدِيثَهُ وَعَيْبَهُ عَلَىٰ قَوْمِهِ مَا يَعْبُدُونَ.

[٧٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أَيُّ شَيْءٍ تَعْبُدُونَ.

[٧١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ يعني نُقِيمُ عَلَىٰ عِبَادَتِهَا. قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: إِنَّمَا قَالَ: ﴿فَنَظَلُّ﴾ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَهَا بِالنَّهَارِ، دُونَ اللَّيْلِ، يُقَالُ: ظَلَّ يَفْعَلُ كَذَا إِذَا فَعَلَ بِالنَّهَارِ.

[٧٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ أَيْ هَلْ يَسْمَعُونَ دعاءكم، ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَسْمَعُونَ لَكُمْ؟ .

[٧٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ﴾ قيل: بالرزق، ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ إِنْ تَرَكْتُمْ عِبَادَتَهَا، أَيْ هَلْ تَنْفَعُكُمْ هَذِهِ الْأَصْنَامُ وَتَرْزُقُكُمْ، أَوْ تَمْلِكُ لَكُمْ خَيْرًا أَوْ ضَرًّا إِنْ عَصَيْتُمْ؟! وَهَذَا اسْتِفْهَامٌ لِتَقْرِيرِ الْحُجَّةِ، فَإِذَا لَمْ يَنْفَعُوكُمْ وَلَمْ يَضُرُّوا فَمَا مَعْنَىٰ عِبَادَتِكُمْ لَهَا.

[٧٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ مَعْنَاهُ إِنَّهَا لَا تَسْمَعُ قَوْلًا وَلَا تَجْلِبُ نَفْعًا وَلَا تَدْفَعُ ضَرًّا، لَكِنِ اقْتَدَيْنَا بِآبَائِنَا فِيهِ إِبْطَالُ التَّقْلِيدِ فِي الدِّينِ، تمسكوا بالتقليد مِنْ غَيْرِ حُجَّةٍ وَلَا دَلِيلٍ.

[٧٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ إِبْرَاهِيمُ ﴿أَفَرَأَيْتُم مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَامِ.

[٧٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ﴾ الأولون.

[٧٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي﴾ يعني أعدائي وَوَحَّدَهُ عَلَىٰ مَعْنَىٰ أَنَّ كُلَّ مَعْبُودٍ لَكُمْ عَدُوٌّ لِي، فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ وَصَفَ الْأَصْنَامَ بِالْعَدَاوَةِ وَهِيَ جَمَادَاتٌ؟ قِيلَ: مَعْنَاهُ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي لَوْ عَبَدْتُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مَرْيَمَ: ٨٢] وَقَالَ الْفَرَّاءُ هُوَ مِنَ الْمَقْلُوبِ أراد فإنهم عَدُوٌّ لَهُمْ لِأَنَّ مَنْ عَادَيْتَهُ فَقَدْ عَادَاكَ. وَقِيلَ: فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي عَلَىٰ مَعْنَىٰ إِنِّي لَا أتوهم وَلَا أَطْلُبُ مِنْ جِهَتِهِمْ نَفْعًا كَمَا لَا يُتَوَلَّىٰ الْعَدُوُّ وَلَا يُطْلَبُ مِنْ جِهَتِهِ النَّفْعُ، قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ اخْتَلَفُوا فِي هَذَا الِاسْتِثْنَاءِ، قِيلَ: هُوَ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ، كَأَنَّهُ قَالَ: فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي لَكِنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ وَلِيِّي، وَقِيلَ: إِنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ مَعَ اللهِ، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: كُلُّ مَنْ تَعْبُدُونَ أَعْدَائِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ. وَقِيلَ: إِنَّهُمْ غَيْرُ مَعْبُودٍ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ، فَإِنِّي أَعْبُدُهُ. وَقَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ: مَعْنَاهُ إِلَّا مَنْ عند رَبَّ الْعَالَمِينَ، ثُمَّ وَصَفَ مَعْبُودَهُ فَقَالَ:

[٧٨] : ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ أَيْ يُرْشِدُنِي إِلَىٰ طَرِيقِ النَّجَاةِ.

[٧٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ أي يرزقني ويغذيني بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، فَهُوَ رَازِقِي وَمِنْ عنده رزقي، عن أمير المؤمنين عَن عَليّ رَضِي الله عَنهُ أَنه قَالَ: حق الطَّعَام أَن يَقُول العَبْد: بِسم الله اللَّهُمَّ بَارك لنا فِيمَا رزقتنا وشكره أَن يَقُول: الْحَمد لله الَّذِي أطعمنَا وَسَقَانَا .

[٨٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ أَضَافَ الْمَرَضَ إِلَىٰ نَفْسِهِ وَإِنْ كان المرض والشفا كُلُّهُ مِنَ اللهِ، اسْتِعْمَالًا لِحُسْنِ الْأَدَبِ ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ أَيْ يُبْرِئُنِي مِنَ الْمَرَضِ ، عن عَائِشَةَ، قَالَتْ: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَعَوَّذُ بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ: **أَذْهِبْ الْبَاسْ، رَبَّ النَّاسْ، وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا**»(١) .

[٨١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ أَدْخَلَ (ثُمَّ) هَاهُنَا لِلتَّرَاخِي أَيْ يُمِيتُنِي فِي الدُّنْيَا وَيُحْيِينِي فِي الآخرة.

[٨٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ﴾ أَرْجُو، ﴿أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ أَيْ خَطَايَايَ يَوْمَ الْحِسَابِ ، حَيْثُ يُجَازَىٰ الْعِبَادُ بِأَعْمَالِهِمْ ، وَهَذَا مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِظْهَارٌ لِلْعُبُودِيَّةِ وَإِنْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ، قُلْتُ : « يَا رَسُولَ اللهِ: ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ،

---

(١) البخاري (٥٦٧٥) .

وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فَهَلْ ذَلِكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: **لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ** »[1] ، قَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ وَقَوْلُهُ لِسَارَّةَ: هَذِهِ أُخْتِي، وَزَادَ الْحَسَنُ وَقَوْلُهُ لِلْكَوَاكِبِ: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ وَهَذَا كُلُّهُ احْتِجَاجٌ مَنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ وَإِخْبَارٌ أَنَّهُ لَا تصلح الإلهية إلا لمن يَفْعَلُ هَذِهِ الْأَفْعَالَ.

[٨٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَعْرِفَةُ حُدُودِ اللهِ وَأَحْكَامِهِ ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: الْفَهْمُ وَالْعِلْمُ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: النُّبُوَّةُ، ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ بِمَنْ قَبْلِي مِنَ النَّبِيِّينَ فِي الْمَنْزِلَةِ وَالدَّرَجَةِ ، قَالَ الْقَاسِمِيُّ: أَيْ: وَفِّقْنِي لِأَنْتَظِمَ فِي سِلْكِهِمْ، لِأَكُونَ مِنَ الَّذِينَ جَعَلْتَهُمْ سَبَبًا لِصَلَاحِ الْعَالَمِ وَكَمَالِ الْخَلْقِ. وَفِي الْمُسْنَدِ وَسُنَنِ النَّسَائِيِّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ رِفَاعَةَ الزُّرَقِيِّ عَنْ أَبِيهِ – فِي دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ غَزْوَةِ أُحُدٍ –: « **اللَّهُمَّ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ، وَأَحْيِنَا مُسْلِمِينَ، وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ، غَيْرَ خَزَايَا وَلَا مَفْتُونِينَ** »[2].

[٨٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ أَيْ ثَنَاءً حَسَنًا وَذِكْرًا جَمِيلًا وَقَبُولًا عَامًّا فِي الْأُمَمِ الَّتِي تَجِيءُ بَعْدِي، فَأَعْطَاهُ اللهُ ذَلِكَ فَجُعِلَ كُلُّ أَهْلِ الْأَدْيَانِ يَتَوَلَّوْنَهُ وَيُثْنُونَ عَلَيْهِ، وَقَالَ الْقُشَيْرِيُّ: أَرَادَ الدُّعَاءَ الْحَسَنَ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ، فَإِنَّ زِيَادَةَ الثَّوَابِ مَطْلُوبَةٌ فِي حَقِّ كُلِّ أَحَدٍ ، وَقَالَ مَكِّيٌّ: وَقِيلَ مَعْنَاهُ

---

(١) مسلم (٢١٤) .

(٢) أحمد (١٥٤٩٢) .

سُؤَالُهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ مَنْ يَقُومُ بِالْحَقِّ، فَأُجِيبَتِ الدَّعْوَةُ فِي مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي حديث أَبِي أُمَامَةَ، قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا كَانَ بَدْءُ أَمْرِكَ؟ قَالَ: «**دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَبُشْرَىٰ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِمَا، وَرَأَتِ أُمِّي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ**»[1].

[٨٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ أَيْ مِمَّنْ تُعْطِيهِ جَنَّةَ النَّعِيمِ.

[٨٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ وَقَالَ هَذَا قَبْلَ أَنْ يَتَبَيَّنَ له أنه عدو الله، فَلَمَّا بَانَ أَنَّهُ لَا يَفِي بِمَا قَالَ تَبَرَّأَ مِنْهُ .

[٨٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تُخْزِنِي﴾ لا تفضحنيعَلَىٰ رُءُوسِ الْأَشْهَادِ، أَوْ لَا تُعَذِّبْنِي ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال: « **يَلْقَىٰ إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَلَىٰ وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: ألم أقل لَكَ لَا تَعْصِنِي، فَيَقُولُ أَبُوهُ فَالْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أن لا تُخزني يَوْمَ يُبْعَثُونَ فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَىٰ مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ؟ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: إِنِّي حَرَّمْتُ الْجَنَّةَ علىٰ الكافرين**»[2].

[٨٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ لِأَنَّ الِابْنَ إِذَا لَمْ يَنْفَعْ فَغَيْرُهُ مَتَىٰ يَنْفَعُ؟ .

---

(١) أحمد (١٧١٥٠) .

(٢) البخاري (٣٣٥٠) .

[٨٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أَيْ خَالِصٌ مِنَ الشِّرْكِ وَالشَّكِّ ، فَأَمَّا الذُّنُوبُ فَلَيْسَ يَسْلَمُ مِنْهَا أَحَدٌ، هَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: الْقَلْبُ السَّلِيمُ هُوَ الصَّحِيحُ، وَهُوَ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ لِأَنَّ قَلْبَ الْكَافِرِ وَالْمُنَافِقِ مَرِيضٌ ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ قَالَ ابْنُ عُثْمَانَ النَّيْسَابُورِيُّ: هُوَ الْقَلْبُ الْخَالِي مِنَ الْبِدْعَةِ الْمُطْمَئِنُّ عَلَىٰ السُّنَّةِ، وَقَالَ الْحَسَنُ: سَلِيمٌ مِنْ آفَةِ الْمَالِ وَالْبَنِينَ. وَقَالَ الْجُنَيْدُ: السَّلِيمُ فِي اللُّغَةِ اللَّدِيغُ، فَمَعْنَاهُ أَنَّهُ قَلْبٌ كَاللَّدِيغِ مِنْ خَوْفِ اللهِ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: السَّلِيمُ الْخَالِصُ.

[٩٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأُزْلِفَتِ﴾ قربت لِيَدْخُلُوهَا ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: قَرُبَ دُخُولُهُمْ إياها . ﴿الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾

[٩١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَبُرِّزَتِ﴾ أظهرت، ﴿الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ للكافرين، الَّذِينَ ضَلُّوا عَنِ الْهُدَىٰ ، أَيْ تَظْهَرُ جَهَنَّمُ لِأَهْلِهَا قَبْلَ أَنْ يَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يَسْتَشْعِرُوا الرَّوْعَ وَالْحُزْنَ، كَمَا يَسْتَشْعِرُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْفَرَحَ لِعِلْمِهِمْ أَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ.

[٩٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾.

[٩٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ﴿هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ) مِنْ عَذَابِ اللهِ ﴿أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ لِأَنْفُسِهِمْ، وَهَذَا كُلُّهُ تَوْبِيخٌ.

[٩٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا﴾ أي قلبوا علىٰ رؤوسهم، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: جُمِعُوا، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: قُذِفُوا، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: طُرِحَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ.

قال ابن عاشور: فَكُبْكِبُوا فِيها، أَيْ كُبْكِبَتِ الْأَصْنَامُ فِي جَهَنَّم. وَمعنىٰ فَكُبْكِبُوا كُبُّوا فِيهَا كَبًّا بَعْدَ كَبٍّ فَإِنَّ كُبْكِبُوا مُضَاعَفُ كُبُّوا بِالتَّكْرِيرِ وَتَكْرِيرُ اللَّفْظِ مُفِيدٌ تَكْرِيرَ الْمَعْنَىٰ مِثْلُ: كَفْكَفَ الدَّمْعَ، ﴿هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ يعني الشياطين، قاله قَتَادَةُ وَمُقَاتِلٌ. وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: كَفَرَةُ الجن.

[٩٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ وَهُمْ أَتْبَاعُهُ وَمَنْ أَطَاعَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، وَيُقَالُ: ذُرِّيَّتُهُ، وَقِيلَ: كُلُّ مَنْ دَعَاهُ إِلَىٰ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ فَاتَّبَعَهُ.

[٩٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا﴾ أَيْ: قَالَ الْغَاوُونَ لِلشَّيَاطِينِ وَالْمَعْبُودِينَ، ﴿وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ يَعْنِي الْإِنْسَ وَالشَّيَاطِينَ وَالْغَاوِينَ وَالْمَعْبُودِينَ اخْتَصَمُوا حِينَئِذٍ.

[٩٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَاللهِ﴾ حَلَفُوا بِاللهِ ﴿إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ أَيْ فِي خَسَارٍ وَتَبَارٍ وَحَيْرَةٍ عَنِ الحق بينة إذا اتَّخَذْنَا مَعَ اللهِ آلِهَةً فَعَبَدْنَاهَا كَمَا يُعْبَدُ.

[٩٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ﴾ أَيْ فِي الْعِبَادَةِ وَأَنْتُمْ لَا تَسْتَطِيعُونَ الْآنَ نَصْرَنَا وَلَا نَصْرَ أَنْفُسِكُمْ.

[٩٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَضَلَّنَا﴾ أَيْ: مَا دَعَانَا إِلَىٰ الضَّلَالِ، ﴿إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ: يَعْنِي الشَّيَاطِينَ، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَعِكْرِمَةُ: يَعْنِي إِبْلِيسَ وَابْنَ آدَمَ الْأَوَّلَ وَهُوَ قَابِيلُ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ، وَأَنْوَاعَ الْمَعَاصِي.

[١٠٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ أَيْ: مَنْ يَشْفَعُ لَنَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ وَالْمُؤْمِنِينَ.

[١٠١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ أَيْ قَرِيبٍ يَشْفَعُ لَنَا يَقُولُهُ الْكُفَّارُ حِينَ تُشَفَّعُ الْمَلَائِكَةُ وَالنَّبِيُّونَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالصَّدِيقُ هُوَ الصَّادِقُ فِي المودة بشرط الدين، وَكَانَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِالْإِخْوَانِ فَإِنَّهُمْ عُدَّةُ الدُّنْيَا وَعُدَّةُ الآخرة، أَلَا تَسْمَعُ إِلَىٰ قَوْلِ أَهْلِ النَّارِ: ﴿فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾، وَالْحَمِيمِ الْقَرِيبَ وَالْخَاصَّ، وَمِنْهُ حَامَّةُ الرَّجُلِ أَيْ أَقْرِبَاؤُهُ. قَالَ عَلِيُّ بْنُ عِيسَىٰ: إِنَّمَا سُمِّيَ الْقَرِيبُ حَمِيمًا، لِأَنَّهُ يُحْمَىٰ لِغَضَبِ صَاحِبِهِ، فَجَعَلَهُ مَأْخُوذًا مِنَ الْحَمِيَّةِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ: يُذْهِبُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَوَدَّةَ الصَّدِيقِ وَرِقَّةَ الْحَمِيمِ.

[١٠٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ أَيْ: رَجْعَةً إِلَىٰ الدُّنْيَا ﴿فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تَمَنَّوْا حِينَ لَا يَنْفَعُهُمُ التَّمَنِّي.

[١٠٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ أي فِي محاجة إبراهيم لقومه وإقامة الحجج عليهم في التوحيد لدلالة واضحة جلية علىٰ أن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ مع نزول الآيات .

[١٠٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾الْعَزِيزُ الَّذِي لَا يُغَالَبُ فَاللهُ عزير وَهُوَ فِي وَصْفِ عِزَّتِهِ رَحِيمٌ.

[١٠٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ قِيلَ لِلْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ: يَا أَبَا سَعِيدٍ أَرَأَيْتَ قَوْلَهُ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ و ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ

الْمُرْسَلِينَ﴾ و ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ وَإِنَّمَا أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ رَسُولٌ وَاحِدٌ؟ قَالَ: إِنِ الْآخَرَ جَاءَ بِمَا جاء به الْأَوَّلُ، فَإِذَا كَذَّبُوا وَاحِدًا فَقَدْ كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَجْمَعِينَ.

[١٠٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ فِي النَّسَبِ لَا فِي الدِّينِ. وَقِيلَ: هِيَ أُخُوَّةُ الْمُجَانَسَةِ ، وَقِيلَ: هُوَ مِنْ قَوْلِ الْعَرَبِ يَا أَخَا بَنِي تَمِيمٍ، يُرِيدُونَ يَا وَاحِدًا مِنْهُمْ ، ﴿نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أَيْ أَلَا تَتَّقُونَ اللهَ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ.

[١٠٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ علىٰ الوحي. وَقِيلَ: ﴿أَمِينٌ﴾ فِيمَا بَيْنَكُمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَرَفُوا أَمَانَتَهُ وَصِدْقَهُ مِنْ قَبْلُ كَمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قُرَيْشٍ.

[١٠٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بطاعته وعبادته، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فِيمَا آمُرُكُمْ بِهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ.

[١٠٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أَيْ لَا أَطْلُبُ مِنْكُمْ جَزَاءً عَلَىٰ نُصْحِي لَكُمْ بَلْ أَدَّخِرُ ثَوَابَ ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ، ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ ثَوَابِي ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

[١١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بطاعته وعبادته ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فَقَدْ وَضَحَ لَكُمْ وَبَانَ صدقي ونصحي وأمانتي فيما بعثني الله به وائتمني عليه.

[١١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ السَّفَلَةُ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: الصَّاغَةُ ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: الْحَاكَةُ وَالْأَسَاكِفَةُ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: قَالُوا: أَنُؤْمِنُ لَكَ يَا نُوحُ، وَنُقِرُّ بِتَصْدِيقِكَ فِيمَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ، وَإِنَّمَا اتَّبَعَكَ مِنَّا الْأَرْذَلُونَ

دُونَ ذَوِي الشَّرَفِ وَأَهْلِ الْبُيُوتَاتِ، فَإِذَا رَأَىٰ الشَّرِيفُ الرَّئِيسُ الْمِسْكِينَ الذَّلِيلَ قَدْ سَبَقَهُ إِلَىٰ الْإِيمَانِ وَمُتَابَعَةِ الرَّسُولِ حَمِيَ وَأَنِفَ أَنْ يُسْلِمَ فَيَكُونَ مِثْلَهُ، وَقَالَ: أُسْلِمُ فَأَكُونُ أَنَا وَهَذَا الْوَضِيعُ عَلَىٰ حَدٍّ سَوَاءٍ، قَالَ الزَّجَّاجُ: كَانَ الرَّجُلُ الشَّرِيفُ رُبَّمَا أَرَادَ الْإِسْلَامَ، فَيَمْتَنِعُ مِنْهُ لِئَلَّا يُقَالَ: أَسْلَمَ قَبْلَهُ مَنْ هُوَ دُونَهُ، فَيُقِيمُ عَلَىٰ كُفْرِهِ، لِئَلَّا يَكُونَ لِلْمُسْلِمِ السَّابِقَةُ عَلَيْهِ فِي الْفَضْلِ، وَلَمَّا سَأَلَ هِرَقْلُ أَبَا سُفْيَانَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ لَهُ: فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فَقَالَ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ، فَقَالَ: هُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ(1) .

[١١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾هذا جواب نوح عليه السلام لما قال له قومه: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ ، فقال لهم ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَيْ مَا أَعْلَمُ أَعْمَالَهُمْ وَصَنَائِعَهُمْ، وَلَيْسَ عَلَيَّ مِنْ دَنَاءَةِ مَكَاسِبِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ شَيْءٌ إِنَّمَا كُلِّفْتُ أَنْ أَدْعُوَهُمْ إِلَىٰ اللهِ وَلِي مِنْهُمْ ظاهر أمرهم، قال القرطبي : وَكَأَنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّمَا اتَّبَعَكَ هَؤُلَاءِ الضُّعَفَاءُ طَمَعًا فِي الْعِزَّةِ وَالْمَالِ ، فَقَالَ: إِنِّي لَمْ أَقِفْ عَلَىٰ بَاطِنِ أَمْرِهِمْ وَإِنَّمَا إِلَيَّ ظاهرهم .

[١١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ﴾ مَا حِسَابُهُمْ، ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ لَوْ تَعْلَمُونَ ذَلِكَ مَا عِبْتُمُوهُمْ بِصَنَائِعِهِمْ. قَالَ الزَّجَّاجُ: الصِّنَاعَاتُ لَا تَضُرُّ فِي الدِّيَانَاتِ ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَيْ لَمْ أَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَهْدِيهِمْ وَيُضِلُّكُمْ وَيُوَفِّقُهُمْ

(١) البخاري (١٧٧٣) .

وَيَخْذُلُكُمْ، وَرُوِيَ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ سُفْيَانَ عَنِ امْرَأَةٍ زَنَتْ وَقَتَلَتْ وَلَدَهَا وَهِيَ مُسْلِمَةٌ هَلْ يُقْطَعُ لَهَا بِالنَّارِ؟ فَقَالَ: ﴿إِنْ حِسابُهُمْ إِلَّا عَلىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ .

[١١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَما أَنَا بِطارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ لِخَسَاسَةِ أَحْوَالِهِمْ وَأَشْغَالِهِمْ ، وَكَأَنَّهُمْ طَلَبُوا مِنْهُ طَرْدَ الضُّعَفَاءِ كَمَا طَلَبَتْهُ قُرَيْشٌ.

[١١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ يَعْنِي: إِنَّ اللهَ مَا أَرْسَلَنِي أَخُصُّ ذَوِي الْغِنَىٰ دُونَ الْفُقَرَاءِ، إِنَّمَا أَنَا رَسُولٌ أُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ، فَمَنْ أَطَاعَنِي فَذَلِكَ السَّعِيدُ عِنْدَ اللهِ وَإِنْ كَانَ فَقِيرًا.

[١١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ﴾ أَيْ عَنْ سَبِّ آلِهَتِنَا وَعَيْبِ دِينِنَا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ أَيْ بِالْحِجَارَةِ، قَالَهُ قَتَادَةُ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُقَاتِلٌ: مِنَ الْمَقْتُولِينَ. فَعِنْدَ ذَلِكَ دَعَا عَلَيْهِمْ دَعْوَةً اسْتَجَابَ اللهُ مِنْهُ فَقَالَ:

[١١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ .

[١١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَافْتَحْ﴾ فاحكم، ﴿بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ حُكْمًا أَيْ: احْكُمْ بَيْنَنَا بِمَا يَنْبَغِي لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا، وَنَجِّنِي وَمَنْ اتَّبَعَنِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَهُوَ لُجُوءٌ مِنْ نُوحٍ عليه السلام إِلَىٰ رَبِّهِ تَعَالَىٰ حِينَ اسْتَعْصَىٰ الْقَوْمُ وَأَصَرُّوا عَلَىٰ الْكُفْرِ. قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: الْفَتَّاحَةُ: الْحُكُومَةُ ، وَالْفَتَّاحُ: الْحَاكِمُ؛ لِأَنَّهُ يَفْتَحُ الْمُسْتَغْلَقَ، كَمَا سُمِّيَ فَيْصَلًا ؛ لِأَنَّهُ يَفْصِلُ بَيْنَ الْخُصُومَاتِ ، وَفِي (التَّهْذِيبِ): الْفَتْحُ أَنْ تَحْكُمَ بَيْنَ قَوْمٍ يَخْتَصِمُونَ إِلَيْكَ، قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ: ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ

﴿الْعَلِيمُ﴾ أَيْ: الْحَاكِمُ الْعَادِلُ الْعَالِمُ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ ﴿وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

[١١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ الْمَمْلُوءِ مِنَ النَّاسِ وَالطَّيْرِ وَالْحَيَوَانِ كُلِّهَا.

[١٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾ أَيْ أَغْرَقْنَا بَعْدَ إِنْجَاءِ نُوحٍ، وَأَهْلِهِ: مَنْ بَقِيَ مِنْ قَوْمِهِ.

[١٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي نجاة نوح وأتباعه وإهلاك من كذبه ﴿لَآيَةً﴾ دَالَّةٌ عَلَىٰ صِدْقِ رُسُلِنَا وَصِحَّةِ مَا جَاءُوا بِهِ وَبُطْلَانِ مَا عَلَيْهِ أَعْدَاؤُهُمُ الْمُكَذِّبُونَ بِهِمْ ، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ .

[١٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر بعزه أعداءه فأغرقهم بالطوفان ﴿الرَّحِيمُ﴾ بأوليائه حيث نجىٰ نوحا ومن معه من أهل الإيمان

[١٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ أَيْ: كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ هُودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَهُمْ بِذَلِكَ يُكَذِّبُونَ جَمِيعَ الْمُرْسَلِينَ ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: التَّأْنِيثُ بِمَعْنَىٰ الْقَبِيلَةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَقَالَ النَّسَفِيُّ: هِيَ قَبِيلَةٌ، وَفِي الْأَصْلِ اسْمُ رَجُلٍ هُوَ أَبُو الْقَبِيلَةِ.

[١٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ يَعْنِي فِي النَّسَبِ لَا فِي الدين، ﴿هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ .

[١٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ عَلَىٰ الرِّسَالَةِ، قَالَ الْكَلْبِيُّ: أَمِينٌ فيكم قبل الرسالة فكيف تتهموني اليوم ، قال ابن عاشور : فَإِنَّ الرَّسُولَ لَا يُبْعَثُ إِلَّا وَقَدْ كَانَ مَعْرُوفًا بِالْأَمَانَةِ وَحُسْنِ الْخُلُقِ قَبْلَ الرِّسَالَةِ.

[١٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ﴾ أَيْ فَاسْتَتِرُوا بِطَاعَةِ اللهِ تَعَالَىٰ مِنْ عِقَابِهِ. (وَأَطِيعُونِ) فِيمَا آمُرُكُمْ بِهِ من الإيمان.

[١٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: وما لي طمع في أموالكم وإنما أرجو جزاء دعوتي إليكم عند الله رب العالمين.

[١٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ الرِّيعُ مَا ارْتَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ جَمْعُ رِيعَةٍ. وَكَمْ رِيعُ أَرْضِكَ أَيْ كَمِ ارْتِفَاعُهَا. قَالَ ابْنِ عباس: بِكُلِّ شَرَفٍ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَمُقَاتِلٌ وَالْكَلْبِيُّ: بِكُلِّ طَرِيقٍ، وَعَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: هُوَ الْفَجُّ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ، وَالْمَقْصُودُ أَنَّ هُودًا قَالَ لِقَوْمِهِ: أَتَبْنُونَ عَلَىٰ كُلِّ مُرْتَفَعٍ وَشَرَفٍ مِنَ الْأَرْضِ بِنَاءً مُحْكَمًا بَاهِرًا هَائِلًا لِيَكُونَ مَعْلَمًا مَشْهُورًا، تَفْعَلُونَ ذَلِكَ عَبَثًا وَلَهْوًا وَكِبْرًا لَا لِحَاجَةٍ لَكُمْ، وَإِنَّمَا بِقَصْدِ الزِّينَةِ وَالتَّفَاخُرِ وَإِظْهَارِ الْقُوَّةِ وَتَضْيِيعِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْقَاتِ فِيمَا لَا جَدْوَىٰ مِنْهُ، قوله : ﴿آيَةً﴾ علامة ﴿تَعْبَثُونَ﴾ بِمَنْ مَرَّ بِالطَّرِيقِ، وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَبْنُونَ الْمَوَاضِعَ الْمُرْتَفِعَةَ لِيُشْرِفُوا عَلَىٰ الْمَارَّةِ وَالسَّابِلَةِ فَيَسْخَرُوا مِنْهُمْ ويعبثوا بهم.

[١٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَبْنِيَةً. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: قُصُورًا مُشَيَّدَةً. وَعَنِ الْكَلْبِيِّ: أَنَّهَا الْحُصُونُ ، وَقَالَ قَتَادَةُ: مَآخِذُ الْمَاءِ يَعْنِي الْحِيَاضَ، وَاحِدَتُهَا مَصْنَعَةٌ، قال الْجَوْهَرِيُّ: الْمُصْنَعَةُ كَالْحَوْضِ يَجْتَمِعُ فِيهَا مَاءُ الْمَطَرِ ، وقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: الْمَصَانِعُ عِنْدَنَا بِلُغَةِ الْيَمَنِ الْقُصُورُ الْعَادِيَّةُ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أَيْ كَأَنَّكُمْ تَبْقُونَ فِيهَا خَالِدِينَ، وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَوْثِقُونَ الْمَصَانِعَ كَأَنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ ، روي أَنَّ أَبَا الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَمَّا رَأَىٰ مَا أَحْدَثَ الْمُسْلِمُونَ فِي الْغُوطَةِ مِنَ البنيان ونصب الحجر، قَامَ فِي مَسْجِدِهِمْ فَنَادَىٰ يَا أَهْلَ دِمَشْقَ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: أَلَا تَسْتَحْيُونَ، أَلَا تَسْتَحْيُونَ، تَجْمَعُونَ مَا لَا تَأْكُلُونَ، وَتَبْنُونَ مَا لَا تَسْكُنُونَ، وَتَأْمُلُونَ ما لا تدركون، إنه قد كانت قبلكم قرون يجمعون فيوعون، ويبنون فَيُوثِقُونَ، وَيَأْمُلُونَ فَيُطِيلُونَ، فَأَصْبَحَ أَمَلُهُمْ غُرُورًا، وَأَصْبَحَ جَمْعُهُمْ بُورًا، وَأَصْبَحَتْ مَسَاكِنُهُمْ قُبُورًا، أَلَا إِنَّ عَادًا مَلَكَتْ مَا بَيْنَ عَدَنَ وَعُمَانَ خَيْلًا، وَرِكَابًا فَمَنْ يَشْتَرِي مِنِّي مِيرَاثَ عَادٍ بِدِرْهَمَيْنِ.

[١٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ﴾ أخذتم وسطوتم، ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ الْبَطْشُ: الضَّرْبُ عِنْدَ الْغَضَبِ بِسَوْطٍ أَوْ سَيْفٍ،وَالْجَبَّارُ الَّذِي يَقْتُلُ وَيَضْرِبُ عَلَىٰ الْغَضَبِ ، وَالْجَبَّارُ: الشَّدِيدُ فِي غَيْرِ الْحَقِّ، فَالْمَعْنَىٰ: إِذَا بَطَشْتُمْ كَانَ بَطْشُكُمْ فِي حَالَةِ التَّجَبُّرِ، أَيِ الْإِفْرَاطُ فِي الْأَذَىٰ وَهُوَ ظُلْمٌ، قَالَ تَعَالَىٰ: إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ وفي الحيث

عن أبي مسعودٍ الأنصاريّ، قال: بَيْنَا أَنَا أَضْرِبُ غُلَامًا بِالسَّوْطِ إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي: «**اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ**» ، فَجَعَلْتُ لَا أَعْقِلُ مِنَ الْغَضَبِ حَتَّىٰ دَنَا مِنِّي رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا رَأَيْتُهُ وَقَعَ السَّوْطُ مِنْ يَدِي، فَقَالَ: «**اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَىٰ هَذَا**»، فَقُلْتُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا أَضْرِبُ عَبْدًا أَبَدًا»[1] .

[١٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أَيْ فَاسْتَتِرُوا بِطَاعَةِ اللهِ تَعَالَىٰ مِنْ عِقَابِهِ، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فِيمَا آمُرُكُمْ بِهِ من الايمان.

[١٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ أَيْ أَعْطَاكُمْ مِنَ الْخَيْرِ مَا تَعْلَمُونَ ثُمَّ ذَكَرَ مَا أَعْطَاهُمْ فَقَالَ:

[١٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴾ ، قال ابن عاشور : ابْتَدَأَ فِي تِعْدَادِ النِّعَمِ بِذِكْرِ الْأَنْعَامِ لِأَنَّهَا أَجَلُّ نِعْمَةٍ عَلَىٰ أَهْلِ ذَلِكَ الْبَلَدِ، لِأَنَّ مِنْهَا أَقْوَاتَهُمْ وَلِبَاسَهُمْ وَعَلَيْهَا أَسْفَارُهُمْ وَكَانُوا أَهْلَ نُجْعَةٍ فَهِيَ سَبَبُ بَقَائِهِمْ، وَعَطَفَ عَلَيْهَا الْبَنِينَ لِأَنَّهُمْ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ بِأَنَّهَا أُنْسُهُمْ وَعَوْنُهُمْ عَلَىٰ أَسْبَابِ الْحَيَاةِ وَبَقَاءِ ذِكْرِهِمْ بَعْدَهُمْ وَكَثْرَةِ أُمَّتِهِمْ.

[١٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ يعني بَسَاتِينَ وَأَنْهَارٍ.

---

(١) مسلم (١٦٥٩) .

[١٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنْ عَصَيْتُمُونِي، ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ، قال الطبري : :يَقُولُ تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ مُخْبِرًا عَنْ قَوْلِ هُودٍ لِقَوْمِهِ مِنْ عَادٍ: اتَّقُوا عِقَابَ اللهِ أَيُّهَا الْقَوْمُ بِطَاعَتِكُمْ إِيَّاهُ فِيمَا أَمَرَكُمْ وَنَهَاكُمْ، وَانْتَهُوا عَنِ اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ، وَظُلْمِ النَّاسِ وَقَهْرِهِمْ بِالْغَلَبَةِ وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَاحْذَرُوا سَخَطَ الَّذِي أَعْطَاكُمْ مِنْ عِنْدِهِ مَا تَعْلَمُونَ، وَأَعَانَكُمْ بِهِ مِنْ بَيْنِ الْمَوَاشِي وَالْبَنِينَ وَالْبَسَاتِينِ وَالْأَنْهَارِ، ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا﴾ يعني مُسْتَوٍ عِنْدَنَا، ﴿أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ الْوَعْظُ كَلَامٌ يُلِينُ الْقَلْبَ بِذِكْرِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ. قَالَ الْكَلْبِيُّ: نَهَيْتَنَا أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ النَّاهِينَ لنا. وقال السعدي : أَيْ: الْجَمِيعُ عَلَىٰ حَدٍّ سَوَاءٍ، وَهَذَا غَايَةُ الْعُتُوِّ، فَإِنَّ قَوْمًا بَلَغَتْ بِهِمُ الْحَالُ إِلَىٰ أَنْ صَارَتْ مَوَاعِظُ اللهِ، الَّتِي تُذِيبُ الْجِبَالَ الصُّمَّ الصِّلَابَ، وَتَتَصَدَّعُ لَهَا أَفْئِدَةُ أُولِي الْأَلْبَابِ، وَجُودُهَا وَعَدَمُهَا عِنْدَهُمْ عَلَىٰ حَدٍّ سَوَاءٍ، لِقَوْمٍ انْتَهَىٰ ظُلْمُهُمْ، وَاشْتَدَّ شَقَاؤُهُمْ، وَانْقَطَعَ الرَّجَاءُ مِنْ هِدَايَتِهِمْ.

[١٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ والمعنىٰ: عادتهم وشأنهم. قال قتادة: قالوا له: هكذا كان الناس يعيشون ما عاشوا ثم يموتون، ولا بعث لهم ولا حساب.

[١٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ هذا كلام قوم عاد لنبيهم هود عليه السلام ، جاء بعد قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ فقالوا له: ﴿إِنْ هَذَا﴾ مَا هَذَا، ﴿إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ أَيْ عَادَةُ الْأَوَّلِينَ مِنْ قَبْلِنَا، وَالْعَرَبُ

تَقُولُ: حَدَّثَنَا فُلَانٌ بِأَحَادِيثِ الْخُلُقِ، أَيْ بالخرافات والأحاديث المفتعلة، وَقِيلَ: مَا هَذَا الَّذِي أَنْكَرْتَ عَلَيْنَا مِنَ الْبُنْيَانِ وَالْبَطْشِ إِلَّا عَادَةُ مَنْ قَبْلَنَا فَنَحْنُ نَقْتَدِي بِهِمْ، الْمَقْصُودُ: طَرِيقَةُ الْأَوَّلِينَ وَعَادَتُهُمْ وَأَخْلَاقُهُمْ فِي التَّعَامُلِ مَعَ الْوَحْيِ وَالْمُرْسَلِينَ، فَهُمْ سَائِرُونَ عَلَىٰ نَهْجِهِمْ، يَعِيشُونَ كَمَا عَاشُوا، وَيَمُوتُونَ كَمَا مَاتُوا، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِبَعْثٍ وَلَا نُشُورٍ وَلَا حِسَابٍ.

[١٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أي: لا يقرّونَ بالعذاب الذي كتبه الله علىٰ مخالفة الرسل سواء في الدنيا أو الآخرة.

[١٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ أي استمروا عَلَىٰ تَكْذِيبِ نَبِيِّ اللهِ هُودٍ وَمُخَالَفَتِهِ وَعِنَادِهِ فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ، وَقَدْ بيَّن سَبَبَ إِهْلَاكِهِ إِيَّاهُمْ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنَ الْقُرْآنِ، بِأَنَّهُ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا عَاتِيَةً، أَيْ رِيحًا شَدِيدَةَ الهبوب ذات برد شديد جداً، فكان سبب إِهْلَاكُهُمْ مِنْ جِنْسِهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَعْتَىٰ شَيْءٍ وَأَجْبَرَهُ، فَسَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَا هُوَ أَعْتَىٰ منهم وأشد قوة.

[١٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ مع وجود الآيات المقتضية للإيمان ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي أهلك بقوته قوم هود علىٰ قوتهم وبطشهم ﴿الرَّحِيمُ﴾ بنبيه هود حيث نجاه ومن معه من المؤمنين.

[١٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ القبيلة المعروفة في مدائن الحجر ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ كذبوا صالحا عليه السلام، الذي جاء بالتوحيد، الذي دعت إليه المرسلون، فكان تكذيبهم له تكذيبا للجميع.

[١٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ قال القرطبي: ذكر قصة صالح وقومه وهم ثمود، وكانوا يسكنون الحِجْر: وهي ذوات نخل وزروع ومياه، وقال ابن كثير: وَكَانُوا عَرَبًا يَسْكُنُونَ مَدِينَةَ الْحِجْرِ الَّتِي بَيْنَ وَادِي الْقُرَىٰ وَبِلَادِ الشَّامِ، وَمَسَاكِنُهُمْ مَعْرُوفَةٌ مشهورة، وكانوا بَعْدَ عَادٍ وَقَبْلَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَدَعَاهُمْ نَبِيُّهُمْ صَالِحٌ إِلَىٰ اللهِ عزَّ وجلَّ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنْ يُطِيعُوهُ فِيمَا بَلَّغَهُمْ مِنَ الرِّسَالَةِ، فَأَبَوْا عَلَيْهِ وَكَذَّبُوهُ وخالفوه، ولقد دعاهم نبيّهم صالح عليه السلام فقال: ألا تتقون عقاب الله يا قوم علىٰ خلافكم أمره، ولزومكم معصيته، والإفساد في الأرض.

[١٤٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي: إني أرسلت إليكم وأنا أمين علىٰ رسالة الله لكم.

[١٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ﴾ فاتقوا الله أيها القوم واستمعوا نصيحتي لكم، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ في تحذيري إياكم، فإني لا أبتغي من وراء بلاغي لكم أجرًا ولا منزلة، وإنما أرجو بذلك الثواب الجزيل عند الله تعالىٰ.

[١٤٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي لا يطلب منهم أَجْرًا مِنْهُمْ، وَإِنَّمَا يَطْلُبُ ثَوَابَ ذَلِكَ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ، ثُمَّ ذَكَّرَهُمْ آلَاءَ اللهِ عَلَيْهِمْ، فقال:

[١٤٦] : ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا﴾ يَعْنِي فِي الدُّنْيَا آمِنِينَ مِنَ الْمَوْتِ وَالْعَذَابِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانُوا مُعَمِّرِينَ لَا يَبْقَىٰ الْبُنْيَانُ مَعَ أَعْمَارِهِمْ ، ﴿آمِنِينَ﴾ من العذاب.

[١٤٧-١٤٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ ﴾ ثَمَرُهَا يُرِيدُ مَا يَطْلُعُ مِنْهَا من الثمر، قال الزَّمَخْشَرِيُّ: فَإِنْ قُلْتَ لِمَ قَالَ: (وَنَخْلٍ) بَعْدَ قَوْلِهِ: وَ (جَنَّاتٍ) ، وَالْجَنَّاتُ تَتَنَاوَلُ النَّخْلَ أَوَّلَ شي كَمَا يَتَنَاوَلُ النَّعَمُ الْإِبِلَ كَذَلِكَ مِنْ بَيْنِ الْأَزْوَاجِ حَتَّىٰ إِنَّهُمْ لَيَذْكُرُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يَقْصِدُونَ إِلَّا النَّخْلَ، كَمَا يَذْكُرُونَ النَّعَمَ وَلَا يُرِيدُونَ إِلَّا الْإِبِلَ ﴿ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَطِيفٌ، وَمِنْهُ هَضِيمُ الْكَشْحِ إِذَا كَانَ لَطِيفًا، وروىٰ عطية عنه: يا نع نَضِيجٌ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: هُوَ اللَّيِّنُ. وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: هُوَ الرَّخْوُ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مُتَهَشِّمٌ مُتَفَتِّتٌ إِذَا مُسَّ، وَذَلِكَ أَنَّهُ مَا دَامَ رَطْبًا فَهُوَ هَضِيمٌ، فَإِذَا يَبِسَ فَهُوَ هَشِيمٌ، وَقَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: هُوَ الْمُنْضَمُّ بَعْضُهُ إِلَىٰ بَعْضٍ فِي وِعَائِهِ قَبْلَ أَنْ يَظْهَرَ، وَقَالَ الْأَزْهَرِيُّ: الْهَضِيمُ هُوَ الدَّاخِلُ بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ مِنَ النُّضْجِ وَالنُّعُومَةِ، وَقِيلَ: هَضِيمٌ أَيْ هَاضِمٌ يَهْضِمُ الطَّعَامَ. وَكُلُّ هَذَا لِلَطَافَتِهِ.

[١٤٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ وَقُرِئَ: (فَرِهِينَ)، قِيلَ: مَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ، وَقِيلَ: فَارِهِينَ أَيْ حَاذِقِينَ بِنَحْتِهَا، مِنْ قَوْلِهِمْ: فَرِهَ الرَّجُلُ فَرَاهَةً فَهُوَ فَارِهٌ، وَمَنْ قَرَأَ (فَرِهِينَ) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَشِرِينَ بَطِرِينَ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: نَاعِمِينَ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: شَرِهِينَ، قَالَ قَتَادَةُ: مُعْجَبِينَ بِصَنِيعِكُمْ،

قَالَ السُّدِّيُّ: مُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: مَرِحِينَ، وَقَالَ الْأَخْفَشُ: فَرِحِينَ، وَالْعَرَبُ تُعَاقِبُ بَيْنَ الْهَاءِ وَالْحَاءِ مِثْلَ مَدَحْتُهُ وَمَدَهْتُهُ، قَالَ الضَّحَّاكُ: كَيِّسِينَ.

[١٥٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي أقبلوا علىٰ مَا يَعُودُ نَفْعُهُ عَلَيْكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم، لتعبدوه وتوحده وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا .

[١٥١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْمُشْرِكِينَ. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: هُمُ التِّسْعَةُ الَّذِينَ عَقَرُوا الناقة وهم.

[١٥٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالمعاصي، ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ لَا يُطِيعُونَ اللهَ فِيمَا أَمَرَهُمْ بِهِ، قال ابن عاشور: وَالْمُرَادُ بِـ الْمُسْرِفِينَ أَيِمَّةُ الْقَوْمِ وَكُبَرَاؤُهُمُ الَّذِينَ يُغْرُونَهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَيُبْقُونَهُمْ فِي الضَّلَالَةِ اسْتِغْلَالًا لِجَهْلِهِمْ وَلِيُسَخِّرُوهُمْ لِفَائِدَتِهِمْ، وَالْإِسْرَافُ: الْإِفْرَاطُ فِي شَيْءٍ، وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا الْإِسْرَافُ الْمَذْمُومُ كُلُّهُ فِي الْمَالِ وَفِي الْكُفْرِ، وَوَصْفُهُمْ بِأَنَّهُمْ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ، فَالْإِسْرَافُ مَنُوطٌ بِالْفَسَادِ.

[١٥٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: مِنَ الْمَسْحُورِينَ المخدوعين، أي ممن يسحر مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ، قال القرطبي: أي: أصبت بالسحر فبطل عقلك، لأنك بشر مثلنا فلِمَ تدّع الرسالة دوننا.

[١٥٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ يَعْنِي فَكَيْفَ أُوحِيَ إِلَيْكَ دوننا، كما قالوا في الآية الأخرىٰ : ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذكر مِن بَيْنِنَا؟ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ

أَشِرٌ﴾ [القمر : ٢٥] ثُمَّ إِنَّهُمُ اقْتَرَحُوا عَلَيْهِ آيَةً يَأْتِيهِمْ بِهَا لِيَعْلَمُوا صِدْقَهُ بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ رَبِّهِمْ، وقد اجتمع ملؤهم وطلبوا منه أَنْ يُخْرِجَ لَهُمُ الْآنَ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ ناقة عشراء، وأشاروا إلىٰ صخرة عندهم، مِنْ صِفَتِهَا كَذَا وَكَذَا، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَذَ عَلَيْهِمْ نَبِيُّ اللهِ صَالِحٌ الْعُهُودَ وَالْمَوَاثِيقَ لَئِنْ أجابهم إلىٰ ما سألوا ليؤمنن به وليتبعنه، فأعطوه ذلك، فَقَامَ نَبِيُّ اللهِ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَصَلَّىٰ ثُمَّ دَعَا اللهَ عزَّ وجلَّ أَنْ يُجِيبَهُمْ إِلَىٰ سُؤَالِهِمْ، فَانْفَطَرَتْ تِلْكَ الصَّخْرَةُ الَّتِي أَشَارُوا إِلَيْهَا عَنْ نَاقَةٍ عُشَرَاءَ (يعني في شهرها العاشر من الحمل) عَلَىٰ الصِّفَةِ الَّتِي وَصَفُوهَا، فَآمَنَ بَعْضُهُمْ وَكَفَرَ أَكْثَرُهُمْ.

[١٥٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ﴾ حَظٌّ وَنَصِيبٌ مِنَ الْمَاءِ، ﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ أَيْ لَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ وَلَهَا شِرْبُ يَوْمٍ، فَكَانَتْ إِذَا كَانَ يَوْمُ شِرْبِهَا شَرِبَتْ مَاءَهُمْ كُلَّهُ أَوَّلَ النَّهَارِ وَتَسْقِيهِمُ اللَّبَنَ آخِرَ النَّهَارِ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ شِرْبِهِمْ كَانَ لِأَنْفُسِهِمْ وَمَوَاشِيهِمْ وَأَرْضِهِمْ، لَيْسَ لَهُمْ فِي يَوْمِ وُرُودِهَا أَنْ يَشْرَبُوا مِنْ شِرْبِهَا شَيْئًا، وَلَا لَهَا أَنْ تَشْرَبَ فِي يَوْمِهِمْ مِنْ مَائِهِمْ شَيْئًا. قَالَ الْفَرَّاءُ: الشِّرْبُ الْحَظُّ مِنَ الْمَاءِ.

[١٥٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ بأذىٰ أو عقر ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فَحَذَّرَهُمْ نِقْمَةَ اللهِ إِنْ أَصَابُوهَا بِسُوءٍ، فَمَكَثَتِ النَّاقَةُ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ حِينًا مِنَ الدَّهْرِ تَرِدُ الماء، وتأكل الورق والمرعىٰ وينتفعون بلبنها يحلبون مِنْهَا

مَا يَكْفِيهِمْ شُرْبًا وَرِيًّا؛ فَلَمَّا طَالَ عليهم الأمد وحضر أشقاهم تمالأوا عَلَىٰ قَتْلِهَا وَعَقْرِهَا.

[١٥٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ عَلَىٰ عَقْرِهَا لَمَّا رَأَوْا أَشْرَاطَ الْعَذَابِ الَّذِي تَوَعَّدَهُمْ بِهِ صَالِحٌ وَلِذَلِكَ لَمْ يَنْفَعْهُمُ النَّدَمُ لِأَنَّ الْعَذَابَ قَدْ حَلَّ بِهِمْ سَرِيعًا ، وَالْعُقْرُ: حَقِيقَتُهُ الْجَرْحُ الْبَلِيغُ يُطْلَقُ الْعَقْرُ عَلَىٰ قَطْعِ عُضْوِ الْحَيَوَانِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ، عَقَرَ حِمَارَ وَحْشٍ، أَيْ ضَرَبَهُ بِالرُّمْحِ ، وكَانُوا يَعْقِرُونَ الْبَعِيرَ الْمُرَادَ نَحْرُهُ بِقَطْعِ عُضْوٍ مِنْهُ حَتَّىٰ لَا يَسْتَطِيعَ الْهُرُوبَ عِنْدَ النَّحْرِ، ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ وَهُوَ أَنَّ أَرْضَهُمْ زُلْزِلَتْ زِلْزَالًا شَدِيدًا، وجاءتهم صحية عظيمة اقتلعت القلوب من مَحَالِّهَا، وَأَتَاهُمْ مِنَ الْأَمْرِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يحتسبون، وأصبحوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ .

[١٥٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ .

[١٥٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ .

[١٦٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ ، يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ لوط عليه السلام، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليه السلام، وَكَانَ اللهُ تَعَالَىٰ قَدْ بَعَثَهُ إِلَىٰ أُمَّةٍ عظيمة في حياة إبراهيم عليهما السلام، وكانوا يسكنون (سدوم) وأعمالها التي أهلكهم اللهُ بِهَا، وَجَعَلَ مَكَانَهَا بُحَيْرَةً مُنْتِنَةً خَبِيثَةً، وَهِيَ مَشْهُورَةٌ بِبِلَادِ الْغَوْرِ مُتَاخِمَةٌ لِجِبَالِ الْبَيْتِ المقدس، فَدَعَاهُمْ إِلَىٰ اللهِ عزَّ وجلَّ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنْ يُطِيعُوا رَسُولَهُمُ الَّذِي بَعَثَهُ اللهُ

إِلَيْهِمْ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَةِ الله، وارتكاب ما كانوا قد ابتدعوه مما لم يسبقهم أحد من الخلائق إلىٰ فعله من إتيان الذكور دُونَ الْإِنَاثِ،

[١٦١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ وَجعل لوط أَخًا لِقَوْمِهِ وَلَمْ يَكُنْ مِنْ نَسَبِهِمْ وَإِنَّمَا كَانَ نَزِيلًا فِيهِمْ، إِذْ كَانَ قَوْمُ لُوطٍ مَنْ أَهْلِ فِلَسْطِينَ مِنَ الْكَنْعَانِيِّينَ، وَكَانَ لُوطٌ عِبْرَانِيًّا وَهُوَ ابْنُ أَخِي إِبْرَاهِيمَ وَلَكِنَّهُ لَمَّا اسْتَوْطَنَ بِلَادَهُمْ وَعَاشَرَ فِيهِمْ وَحَالَفَهُمْ وَظَاهَرَهُمْ جُعِلَ أَخًا لَهُمْ

[١٦٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي: أرسلني الله إليكم، رحمة بكم، واعتناء بكم، وأنا أمين، تعرفون ذلك مني، رتب علىٰ ذلك قوله:

[١٦٣] : ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾أي: أدوا حق الله تعالىٰ، وهو التقوىٰ، وأدوا حقي، بطاعتي فيما آمركم به، وأنهاكم عنه .

[١٦٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيْ لَا أَطْلُبُ مِنْكُمْ جَزَاءً عَلَىٰ نُصْحِي لَكُمْ بَلْ أَدَّخِرُ ثَوَابَ ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ.

[١٦٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ: يَعْنِي جِمَاعَ الرِّجَالِ. وَالذُّكْرَانَ: جَمْعُ ذَكَرٍ وَهُوَ ضِدُّ الْأُنْثَىٰ ، ﴿مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ يَعْنِي مِنْ بَنِي آدَمَ، وَالْمَعْنَىٰ: أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مُخَالِفِينَ جَمِيعَ الْعَالَمِينَ مِنَ الْأَنْوَاعِ الَّتِي فِيهَا ذُكُورٌ وَإِنَاثٌ فَإِنَّهَا لَا يُوجَدُ فِيهَا مَا يَأْتِي الذُّكُورَ ، وَفِي الْحَدِيث عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ

قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي عَمَلُ قَوْمِ لُوطٍ**»(١).

[١٦٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: تَرَكْتُمْ أَقْبَالَ النِّسَاءِ إِلَىٰ أَدْبَارِ الرِّجَالِ، ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ مُعْتَدُونَ مُجَاوِزُونَ الْحَلَالَ إِلَىٰ الْحَرَامِ. ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ مِنْ قَرْيَتِنَا، فأجابوه: لئن لم تنته يا لوط عن نهينا عن الاستمتاع بالذكران لننفينك من بين أظهرنا وبلدنا.

[١٦٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ الْمُبْغِضِينَ، وَالْقَلْيُ الْبُغْضُ، يقال: قلاه يقليه ويقلوه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾، قَالَ الطَّبَرِيُّ: يَقُولُ لَهُمْ لُوطٌ: إِنِّي لِعَمَلِكُمُ الَّذِي تَعْمَلُونَهُ مِنْ إِتْيَانِ الذُّكْرَانِ فِي أَدْبَارِهِمْ مِنَ الْقَالِينَ، يَعْنِي مِنَ الْمُبْغِضِينَ، الْمُنْكِرِينَ فِعْلَهُ ثُمَّ دَعَا فَقَالَ:

[١٦٩]: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ مِنَ الْعَمَلِ الْخَبِيثِ، أي من عذاب عملهم، دعا الله لما أيس من إيمانهم ألا يصيبه من عذابهم، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ:

[١٧٠]: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ ولم يكن إلا ابنتاه علىٰ ما تقدم.

---

(١) الترمذي (١٤٥٧) وابن ماجه (٢٥٦٣).

[١٧١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ وَهِيَ امْرَأَةُ لُوطٍ بَقِيَتْ فِي الْعَذَابِ وَالْهَلَاكِ، عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: غَبَرَتْ فِي عَذَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَيْ بَقِيَتْ.

[١٧٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ أي: أهلكناهم. بِالْخَسْفِ وَالْحَصْبِ، قَالَ مُقَاتِلٌ: خَسَفَ اللهُ بِقَوْمِ لُوطٍ وَأَرْسَلَ الْحِجَارَةَ عَلَىٰ مَنْ كَانَ خَارِجًا مِنَ الْقَرْيَةِ.

[١٧٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ قَالَ وَهْبُ ابنُ مُنَبِّهٍ: الْكِبْرِيتُ وَالنَّارُ، قال القرطبي: سَرَىٰ لُوطٌ بِأَهْلِهِ كَمَا وَصَفَ اللهُ ﴿بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ [هود: ٨١]، ثُمَّ أُمِرَ جِبْرِيلُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَدْخَلَ جَنَاحَهُ تَحْتَ مَدَائِنِهِمْ فَاقْتَلَعَهَا وَرَفَعَهَا حَتَّىٰ سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ صِيَاحَ الدِّيَكَةِ وَنُبَاحَ الْكِلَابِ، ثُمَّ جَعَلَ عَالِيَهَا سَافِلَهَا، وَأُمْطِرَتْ عَلَيْهِمْ حِجَارَةٌ مِنْ سِجِّيلٍ، قِيلَ: عَلَىٰ مَنْ غَابَ مِنْهُمْ، وَأَدْرَكَ امْرَأَةَ لُوطٍ، وَكَانَتْ مَعَهُ حَجَرٌ فَقَتَلَهَا.

[١٧٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ لَمْ يَكُنْ فِيهَا مؤمن إلا بيت لوط وابنتاه.

[١٧٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

[١٧٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ وَهُمْ قَوْمُ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، هي اسم البلدة، وَالْأَيْكَةُ: الْغَيْضَةُ مِنَ الشَّجَرِ الْمُلْتَفِّ، قال قَتَادَة: كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أَهْلَ غَيْضَةٍ وَشَجَرٍ، قال ابن كثير: هُمْ «أَهْلُ مَدْيَنَ» عَلَىٰ الصَّحِيحِ، وكان نبي الله من أنفسهم، وإنما لم يقل ههنا أَخُوهُمْ شُعَيْبٌ، لِأَنَّهُمْ

نُسِبُوا إِلَىٰ عِبَادَةِ الْأَيْكَةِ، وَهِيَ شَجَرَةٌ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ ظَنَّ أَنَّ أَصْحَابَ الْأَيْكَةِ غَيْرُ أهل مدين، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وُصِفُوا فِي كُلِّ مَقَامٍ بِشَيْءٍ، وَلِهَذَا وَعَظَ هَؤُلَاءِ، وَأَمَرَهُمْ بِوَفَاءِ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ كَمَا فِي قِصَّةِ مَدْيَنَ سَوَاءً بسواء، فدل ذلك علىٰ أنهما أمة واحدة.

[١٧٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ وَلَمْ يَقُلْ أَخُوهُمْ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَصْحَابِ الْأَيْكَةِ فِي النَّسَبِ، فَلَمَّا ذَكَرَ مَدْيَنَ قَالَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا لِأَنَّهُ كَانَ مِنْهُمْ، وَكَانَ اللهُ تَعَالَىٰ بَعَثَهُ إِلَىٰ قَوْمِهِ أَهْلِ مَدْيَنَ وَإِلَىٰ أَصْحَابِ الأيكة.

[١٧٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ألا تَخَافُونَ اللهَ.

[١٧٩-١٨٠]: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وَإِنَّمَا كَانَتْ دَعْوَةُ هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ فِيمَا حَكَىٰ اللهُ عَنْهُمْ عَلَىٰ صِيغَةٍ وَاحِدَةٍ لِاتِّفَاقِهِمْ عَلَىٰ الْأَمْرِ بِالتَّقْوَىٰ وَالطَّاعَةِ وَالْإِخْلَاصِ فِي الْعِبَادَةِ وَالِامْتِنَاعِ مِنْ أَخْذِ الْأَجْرِ عَلَىٰ الدَّعْوَةِ وَتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ.

[١٨١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ النَّاقِصِينَ لِحُقُوقِ النَّاسِ بِالْكَيْلِ وَالْوَزْنِ، وكَانُوا مَعَ شِرْكِهِمْ بِاللهِ يُطَفِّفُونَ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ وَيَبْخَسُونَ أَشْيَاءَ النَّاسِ إِذَا ابْتَاعُوهَا مِنْهُمْ، وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ.

[١٨٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ القسطاس: هو الميزان، وقيل: القَبَّان.

[١٨٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ الْبَخْسُ النَّقْصُ. وَهُوَ يَكُونُ فِي السِّلْعَةِ بِالتَّعْيِيبِ وَالتَّزْهِيدِ فِيهَا، أَوِ الْمُخَادَعَةِ عَنِ الْقِيمَةِ، وَالِاحْتِيَالِ فِي التَّزَيُّدِ فِي الْكَيْلِ وَالنُّقْصَانِ مِنْهُ. وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ أَكْلِ الْمَالِ بِالْبَاطِلِ، وَذَلِكَ مَنْهِيٌّ عَنْهُ فِي الْأُمَمِ الْمُتَقَدِّمَةِ وَالسَّالِفَةِ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ولا تبالغوا فيها في الإفساد، نحو قطع الطريق والغارة وإهلاك الزروع، وكانوا يفعلون ذلك فنهوا عنه، والعثيان : هُوَ أَشَدُّ الْفَسَادِ وَقِيلَ: هُوَ الْفَسَادُ مُطْلَقًا وَعَلَىٰ الْوَجْهَيْنِ يَكُونُ مُفْسِدِينَ حَالًا مُؤَكِّدَةً لِعَامِلِهَا ، وَفِي «الْكَشَّافِ» جَعَلَ مَعْنَىٰ لَا تَعْثَوْا لَا تَتَمَادَوْا فِي فَسَادِكُمْ ، وَرُوِيَ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ قَالَ لِأَصْحَابِ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ فِي السُّوقِ: إِنَّكُمْ قَدْ وُلِّيتُمْ أَمْرَيْنِ هَلَكَتْ فِيهِمَا الْأُمَمُ السَّالِفَةُ قَبْلَكُمْ: الْكَيْلَ، وَالْمِيزَانَ، وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَمُرُّ بِالْبَائِعِ فَيَقُولُ: اتَّقِ اللهَ، وَأَوْفِ الْكَيْلَ وَالْوَزْنَ بِالْقِسْطِ، فَإِنَّ الْمُطَفِّفِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُوقَفُونَ حَتَّىٰ إِنَّ الْعَرَقَ لَيُلْجِمُهُمْ إِلَىٰ أَنْصَافِ آذَانِهِمْ ، وقال صلىٰ الله عليه وسلم :« **إِنَّ التُّجَّارَ هُمُ الْفُجَّارُ** ، قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَلَيْسَ قَدْ أَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ؟ قَالَ: **بَلَىٰ، وَلَكِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ فَيَكْذِبُونَ، وَيَحْلِفُونَ، وَيَأْثَمُونَ** »[١].

---

(١) أحمد (١٥٥٣٠) .

[١٨٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ الْخِطَابُ مِنْ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَصْحَابِ مَدْيَنَ، وَيَدْخُلُ فِي بَابِ دَعْوَتِهِمْ إِلَىٰ عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَىٰ كَمَا مَرَّ مَعَنَا قَبْلَ قَلِيلٍ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ:

[١٨٤]: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ يَعْنِي الْأُمَمَ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَالْجِبِلَّةُ: الْخَلْقُ، قَالَ مُجَاهِدٌ: الْجِبِلَّةُ هِيَ الْخَلِيقَةُ. وَجُبِلَ فُلَانٌ عَلَىٰ كَذَا أَيْ خُلِقَ، وَهُوَ الْجَمْعُ ذُو الْعَدَدِ الْكَثِيرِ مِنَ النَّاسِ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس: ٦٢].

[١٨٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ يُقَالُ: الْمُسَحَّرُ الَّذِي خُلِقَ ذَا سَحَرٍ، قِيلَ: أَصْلُهُ الصَّرْفُ، يُقَالُ: مَا سَحَرَكَ عَنْ كَذَا، أَيْ مَا صَرَفَكَ عَنْهُ، فَالسِّحْرُ مَصْرُوفٌ عَنْ جِهَتِهِ.

[١٨٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ يْ مَا نَظُنُّكَ إِلَّا مِنَ الْكَاذِبِينَ فِي أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ تَعَالَىٰ.

[١٨٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أَيْ جَانِبًا مِنَ السَّمَاءِ وَقِطْعَةً مِنْهُ، فَنَنْظُرُ إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤]، وَقِيلَ: أَرَادُوا أَنْزِلْ عَلَيْنَا الْعَذَابَ، وَهُوَ مُبَالَغَةٌ فِي التَّكْذِيبِ، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: الْكِسْفُ جَمْعُ كِسْفَةٍ مِثْلَ سِدْرٍ وَسِدْرَةٍ. قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: الْكِسْفَةُ الْقِطْعَةُ مِنَ الشَّيْءِ، ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ يعني قد

خاصمتنا فأكثرت خصومتنا ومحاجّتنا، فإن كنت صادقًا في دعواك أنك رسول الله فأت بالعذاب واستعجل الوعيد.

[١٨٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أَيْ مِنْ نُقْصَانِ الْكَيْلِ وَالْوَزْنِ، وَهُوَ مُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ، وَلَيْسَ الْعَذَابُ إِلَيَّ وَمَا عَلَيَّ إِلَّا الدَّعْوَةُ.

[١٨٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ قال ابن كثير: بعث الله عليهم رعدة وحراً شديداً، فأخذ بأنفاسهم، فخرجوا من البيوت هرباً إلىٰ البرية، فبعث الله عليهم سَحَابَةً فَأَظَلَّتْهُمْ مِنَ الشَّمْسِ، فَوَجَدُوا لَهَا بَرْدًا وَلَذَّةً، فَنَادَىٰ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، حَتَّىٰ إِذَا اجْتَمَعُوا تحتها أرسل اللهُ عَلَيْهِمْ نَارًا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَذَلِكَ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ، وقال ابن زيد: بعث الله إليهم ظُلة من سحاب، وبعث إلىٰ الشمس فأحرقت ما علىٰ وجه الأرض، فخرجوا كلهم إلىٰ تلك الظلة، حتىٰ إذا اجتمعوا كلهم، كشف الله عنهم الظلة، وأحمىٰ عليهم الشمس، فاحترقوا كما يحترق الجراد في المِقلىٰ ، ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

[١٩٠] : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ .

[١٩١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أَيِ الْعَزِيزُ فِي انْتِقَامِهِ مِنَ الْكَافِرِينَ، الرَّحِيمُ بعباده المؤمنين.

[١٩٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يعني القرآن، وَالتَّنْبِيهِ عَلَىٰ أَنَّهُ أَعْظَمُ آيَةٍ اخْتَارَهَا اللهُ أَنْ تَكُونَ مُعْجِزَةَ أَفْضَلِ الْمُرْسَلِينَ، وجُمْلَةُ: وَإِنَّهُ

لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ مَعْطُوفَةٌ عَلَىٰ الْجُمَلِ الَّتِي قَبْلَهَا الْمَحْكِيَّةِ فِيهَا أَخْبَارُ الرُّسُلِ الْمُمَاثِلَةِ أَحْوَالُ أَقْوَامِهِمْ لِحَالِ قَوْمِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا أَيَّدَهُمُ اللهُ بِهِ مِنَ الْآيَاتِ لِيُعْلَمَ أَنَّ الْقُرْآنَ هُوَ آيَةُ اللهِ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ.

[١٩٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ المعنىٰ نَزَلَ جِبْرِيلُ بِالْقُرْآنِ، وفي حديث خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ، أنه جاءَ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَشَكَا إِلَيْهِ وَحْشَةً يجِدُهَا، فَقَالَ لَهُ: «**أَلَا أُعَلِّمُكَ مَا عَلَّمَنِي الرُّوحُ الْأَمِينُ جِبْرِيلُ قَالَ لِي: إِنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الْجِنِّ يَكِيدُكَ، فَإِذَا أَوَيْتَ إِلَىٰ فِرَاشِكَ فَقُلْ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ، مِنْ شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَمِنْ شَرِّ مَا ذَرَأَ فِي الْأَرْضِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمِنْ شَرِّ طَوَارِقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ طَارِقٍ يَطْرُقُ إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمَانُ**»(١) .

[١٩٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ حَتَّىٰ وَعَيْتَهُ، سَالِمًا مِنَ الدَّنَسِ وَالزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ، ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ أَيْ لِتُنْذِرَ بِهِ بَأْسَ اللهِ وَنِقْمَتِهِ عَلَىٰ مَنْ خَالَفَهُ وَكَذَّبَهُ، وَتُبَشِّرَ به المؤمنين المتبعين له .

[١٩٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بِلِسَانِ قُرَيْشٍ ليفهموا ما فيه، قال ابن عاشور : وَالْمُبِينُ: الْمُوَضِّحُ الدَّلَالَةَ عَلَىٰ الْمَعَانِي الَّتِي

---

(١) أحمد (١٥٤٦١) .

يَعْنِيهَا الْمُتَكَلِّمُ، فَإِنَّ لُغَةَ الْعَرَبِ أَفْصَحُ اللُّغَاتِ وَأَوْسَعُهَا لِاحْتِمَالِ الْمَعَانِي الدَّقِيقَةِ الشَّرِيفَةِ مَعَ الِاخْتِصَارِ، فَقَدَّرَ اللهُ تَعَالَىٰ هَذِهِ اللُّغَةَ أَنْ تَكُونَ هِيَ لُغَةُ كِتَابِهِ الَّذِي خَاطَبَ بِهِ كَافَّةَ النَّاس.

[١٩٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُ﴾ أَيْ ذِكْرُ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ، قَالَهُ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: ذِكْرُ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونعته، ﴿لَفِي زُبُرِ﴾ كتب والزبر الْكُتُبُ الْوَاحِدُ زَبُورٌ كَرَسُولٍ وَرُسُلٍ ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ قال النسفي: يعني ذكره مثبت في سائر الكتب السماوية، وقيل إن معانيه فيها.

[١٩٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً﴾ مَعْنَاهُ: أولم يكن لهؤلاء المتكبرين عِلْمُ بَنِي إِسْرَائِيلَ آيَةً، أَيْ عَلَامَةً وَدَلَالَةً عَلَىٰ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانُوا يُخْبِرُونَ بِوُجُودِ ذِكْرِهِ فِي كُتُبِهِمْ، وَهُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ وَأَصْحَابُهُ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بَعَثَ أَهْلُ مَكَّةَ إِلَىٰ الْيَهُودِ وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ فَسَأَلُوهُمْ عَنْ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا لَزَمَانُهُ وَإِنَّا نَجِدُ فِي التَّوْرَاةِ نَعْتَهُ وَصِفَتَهُ، فَكَانَ ذَلِكَ آيَةً عَلَىٰ صِدْقِهِ. قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ﴾ يعني يعلم مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال ابن كثير : أَيْ أَوَلَيْسَ يَكْفِيهِمْ مِنَ الشَّاهِدِ الصَّادِقِ عَلَىٰ ذَلِكَ أَنَّ الْعُلَمَاءَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، يَجِدُونَ ذِكْرَ هَذَا الْقُرْآنِ فِي كُتُبِهِمُ الَّتِي يَدْرُسُونَهَا، وَالْمُرَادُ الْعُدُولُ مِنْهُمُ الَّذِينَ يَعْتَرِفُونَ بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ صِفَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَبْعَثِهِ وَأُمَّتِهِ، كَمَا أَخْبَرَ بذلك مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ كـ (عبد الله بن سلام)

و (سلمان الفارسي) ومن شاكلهم ، عَن عبد الله بن سَلام رَضِي الله عَنهُ قَالَ: لما قدم رَسُول الله صلىٰ الله عَلَيْهِ وَسلم الْمَدِينَة انجفل النَّاس إِلَيْهِ فَجِئْته لأنظر فِي وَجهه فَلَمَّا رَأَيْت وَجهه عرفت أَن وَجهه لَيْسَ بِوَجْه كَذَّاب فَكَانَ أول شَيْء سَمِعت مِنْهُ أَن قَالَ: يَا أَيهَا النَّاس أطعموا الطَّعَام وأفشوا السَّلَام وصلوا الْأَرْحَام وصلوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاس نيام تدْخلُوا الْجنَّة بِسَلام

[١٩٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ، ﴿عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ جَمْعُ الْأَعْجَمِيِّ، وَهُوَ الَّذِي لَا يُفْصِحُ وَلَا يُحْسِنُ الْعَرَبِيَّةَ وَإِنْ كَانَ عَرَبِيًّا فِي النَّسَبِ، وَالْعَجَمِيُّ: مَنْسُوبٌ إِلَىٰ الْعَجَمِ وَإِنْ كَانَ فَصِيحًا ، وَمَعْنَىٰ الْآيَةِ: وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ رَجُلٍ لَيْسَ بِعَرَبِيِّ اللِّسَانِ.

[١٩٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ﴾ بِغَيْرِ لُغَةِ الْعَرَبِ، ﴿مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ وَقَالُوا: مَا نَفْقَهُ قَوْلَكَ، نَظِيرُهُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ وَقِيلَ: مَعْنَاهُ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ رَجُلٍ لَيْسَ مِنَ الْعَرَبِ لَمَا آمَنُوا بِهِ أَنَفَةً من اتباعه.

[٢٠٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ : أَدْخَلْنَا الشِّرْكَ وَالتَّكْذِيبَ ، وَقِيلَ: سَلَكْنَا التَّكْذِيبَ فِي قُلُوبِهِمْ، فَذَلِكَ الَّذِي مَنَعَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ، ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ .

[٢٠١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أَيْ بِالْقُرْآنِ، ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ يعني عند الموت، ويكون ذلك إيمان يأس فلا ينفعهم.

[٢٠٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَيَأْتِيَهُمْ﴾ يعني العذاب، ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بِهِ فِي الدُّنْيَا ، ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ أَيْ لِنُؤْمِنَ وَنُصَدِّقَ، يَتَمَنَّوْنَ الرَّجْعَةَ والنظرة ، قال مقاتل: لما أوعد النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْعَذَابِ، قَالُوا: إِلَىٰ مَتَىٰ تُوعِدُنَا بِالْعَذَابِ مَتَىٰ هَذَا الْعَذَابُ؟ قال ابن كثير : أَيْ يَتَمَنَّوْنَ حِينَ يُشَاهِدُونَ الْعَذَابَ أَنْ لَوْ أنظروا قليلاً ليعملوا في زعمهم بطاعة الله، فَكُلُّ ظَالِمٍ وَفَاجِرٍ وَكَافِرٍ إِذَا شَاهَدَ عُقُوبَتَهُ نَدِمَ نَدَمًا شَدِيدًا .

[٢٠٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ إِنْكَارٌ عَلَيْهِمْ وَتَهْدِيدٌ لَهُمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ لِلرَّسُولِ تَكْذِيبًا واستبعاداً: ائتنا بِعَذَابِ الله كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب﴾ [الحج : ٤٧] .

[٢٠٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ كَثِيرَةً فِي الدُّنْيَا يَعْنِي كُفَّارَ مَكَّةَ وَلَمْ نُهْلِكْهُمْ.

[٢٠٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ يَعْنِي بِالْعَذَابِ، تَلَا بَعْضُ الصَّالِحِينَ هَذِهِ الْآيَةَ وَبَكَىٰ وَقَالَ: إِذَا جَاءَ الْمَوْتُ لَمْ يُغْنِ عَنِ الْمَرْءِ مَا كَانَ فِيهِ مِنَ اللَّذَّةِ وَالنَّعِيمِ، وَفِي هَذَا الْمَعْنَىٰ مَا أَنْشَدَهُ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ لِلرَّشِيدِ حِينَ بَنَىٰ قَصْرَهُ وَاسْتَدْعَىٰ إِلَيْهِ نُدَمَاءَهُ ، وَفِي الْحَدِيثِ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

«**أَعْذَرَ اللهُ إِلَىٰ امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ حَتَّىٰ بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً**»(١)، قَالَ العلماء: معناه لَمْ يَتْرُكْ لَهُ عُذرًا إِذْ أَمْهَلَهُ هذِهِ المُدَّةَ، يقال: أَعْذَرَ الرجُلُ إِذَا بَلَغَ الغايَةَ فِي العُذْرِ.

[٢٠٧] قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ بِهِ فِي تِلْكَ السِّنِينَ. وَالْمَعْنَىٰ أَنَّهُمْ وَإِنْ طَالَ تَمَتُّعُهُمْ بِنَعِيمِ الدُّنْيَا فَإِذَا أَتَاهُمُ الْعَذَابُ لَمْ يُغْنِ عَنْهُمْ طُولُ التَّمَتُّعِ شَيْئًا، وَيَكُونُ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا فِي نَعِيمٍ قَطُّ، وفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**يُؤْتَىٰ بِالْكَافِرِ فَيُغْمَسُ فِي النَّارِ غَمْسَةً، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ رَأَيْتَ نَعِيمًا قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ، وَيُؤْتَىٰ بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا كَانَ فِي الدُّنْيَا، فَيُصْبَغُ فِي الْجَنَّةِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ فيقول: لا والله يا رب**»(٢)، وَعَنِ الزُّهْرِيِّ: أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ كَانَ إِذَا أَصْبَحَ أَمْسَكَ بِلِحْيَتِهِ ثُمَّ قَرَأَ ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ. ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ. مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ ثُمَّ يَبْكِي.

[٢٠٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾، (مِنْ) صِلَةٌ، الْمَعْنَىٰ: وَمَا أَهْلَكْنَا قَرْيَةً، ﴿إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ أَيْ رُسُلٌ.

[٢٠٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذِكْرَىٰ﴾ قَالَ الْفَرَّاءُ: أَيْ يَذْكُرُونَ ذِكْرَىٰ، ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ فِي تَعْذِيبِهِمْ حَيْثُ قَدَّمْنَا الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَعْذَرْنَا إِلَيْهِمْ.

---

(١) البخاري (٦٤١٩).

(٢) مسلم (٢٨٠٧).

[٢١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّ الشَّيَاطِينَ يُلْقُونَ الْقُرْآنَ عَلَىٰ لِسَانِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ﴾ أَيْ بِالْقُرْآنِ، الشَّيَاطِينُ، بَلْ يَنْزِلُ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ.

[٢١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾ أَنْ يُنَزِّلُوا بِالْقُرْآنِ قال السعدي : أي: لا يليق بحالهم ولا يناسبهم ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ذلك.

[٢١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ﴾ أَيْ عَنِ اسْتِرَاقِ السَّمْعِ مِنَ السماء، ﴿لَمَعْزُولُونَ﴾ أَيْ مَحْجُوبُونَ بِالشُّهُبِ مَرْجُومُونَ، وَالْمَعْزُولُ: الْمُبْعَدُ عَنْ أَمْرٍ فَهُوَ فِي عُزْلَةٍ عَنْهُ، وَفِي هَذَا إِبْطَالٌ لِلْكَهَانَةِ مَنْ أَصْلِهَا ، قال ابن كثير : لأن السماء مائت حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً فِي مُدَّةِ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ علىٰ رسول الله، فَلَمْ يَخْلُصْ أَحَدٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ إِلَىٰ اسْتِمَاعِ حَرْفٍ وَاحِدٍ مِنْهُ لِئَلَّا يَشْتَبِهُ الْأَمْرُ، وَهَذَا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ بِعِبَادِهِ، وَحِفْظِهِ لِشَرْعِهِ، وَتَأْيِيدِهِ لكتابه ولرسوله.

[٢١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يُحَذِّرُ بِهِ غَيْرَهُ، يَقُولُ: أَنْتَ أَكْرَمُ الْخَلْقِ عَلَيَّ وَلَوِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَعَذَّبْتُكَ ، قَالَ السَّعْدِيُّ: يَنْهَىٰ تَعَالَىٰ رَسُولَهُ أَصْلًا وَأُمَّتَهُ أُسْوَةً لَهُ فِي ذَلِكَ، عَنْ دُعَاءِ غَيْرِ اللهِ، مِنْ جَمِيعِ الْمَخْلُوقِينَ، وَأَنَّ ذَلِكَ مُوجِبٌ لِلْعَذَابِ الدَّائِمِ، وَالْعِقَابِ السَّرْمَدِيِّ، لِكَوْنِهِ شِرْكًا .

[٢١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ أَتَىٰ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّفَا فَصَعِدَ عَلَيْهِ ثُمَّ نَادَىٰ: «**يَا صَبَاحَاهُ**»، فَاجْتَمَعَ النَّاسُ إِلَيْهِ بَيْنَ رَجُلٍ يَجِيءُ إِلَيْهِ، وَبَيْنَ رَجُلٍ يَبْعَثُ رَسُولِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي لُؤَيٍّ، أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ صَدَّقْتُمُونِي؟**» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «**فَإِنِّي نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**» فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ أَمَا دَعَوْتَنَا إِلَّا لِهَذَا؟ وَأَنْزَلَ الله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ »[1]، قال ابن عاشور: وَالْعَشِيرَةُ: الْأَدْنُونَ مِنَ الْقَبِيلَةِ، فَوَصْفُ الْأَقْرَبِينَ تَأْكِيدٌ لِمَعْنَىٰ الْعَشِيرَةِ وَاجْتِلَابٌ لِقُلُوبِهِمْ إِلَىٰ إِجَابَةِ مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ وَتَعْرِيضٌ بِأَهْلِ الْإِدَانَةِ مِنْهُمْ.

[٢١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ يعني ألن جانبك لِمَنْ آمَنَ بِكَ وَتَوَاضَعْ لَهُمْ. وَأَصْلُهُ أَنَّ الطَّائِرَ إِذَا ضَمَّ فَرْخَهُ إِلَىٰ نَفْسِهِ بَسَطَ جَنَاحَهُ ثُمَّ قَبَضَهُ عَلَىٰ الْفَرْخِ، فَجُعِلَ ذَلِكَ وَصْفًا لِتَقْرِيبِ الْإِنْسَانِ أَتْبَاعَهُ.

[٢١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ أي خالفوا أمرك ، ﴿فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي برئ مِنْ مَعْصِيَتِكُمْ إِيَّايَ، لِأَنَّ عِصْيَانَهُمْ إِيَّاهُ عِصْيَانٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يَأْمُرُ إِلَّا بِمَا يَرْضَاهُ، وَمَنْ تَبَرَّأَ مِنْهُ فَقَدْ تَبَرَّأَ اللهُ مِنْهُ.

---

(١) البخاري (٤٧٧٠) ومسلم (٢٠٨) .

[٢١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ أَيْ فَوِّضْ أَمْرَكَ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ الْعَزِيزُ الَّذِي لَا يُغَالَبُ، الرَّحِيمُ الَّذِي لَا يَخْذُلُ أَوْلِيَاءَهُ.

[٢١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أَيْ حِينَ تَقُومُ إِلَى الصَّلَاةِ فِي قَوْلِ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ وَقَالَ مُجَاهِدٌ: حِينَ تَقُومُ لِدُعَائِهِمْ.

[٢١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ يعني يَرَىٰ تَقَلُّبَكَ فِي صَلَاتِكَ فِي حَالِ قِيَامِكَ وَرُكُوعِكَ وَسُجُودِكَ وَقُعُودِكَ، قَالَ عِكْرِمَةُ وَعَطِيَّةُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: فِي السَّاجِدِينَ أَيْ فِي الْمُصَلِّينَ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ وَالْكَلْبِيُّ: أَيْ مَعَ الْمُصَلِّينَ فِي الْجَمَاعَةِ، يَقُولُ: يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَحْدَكَ لِلصَّلَاةِ وَيَرَاكَ إِذَا صَلَّيْتَ مَعَ الْمُصَلِّينَ في الجماعة. وَقَالَ الْحَسَنُ: وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ أَيْ تَصَرُّفَكَ وَذَهَابَكَ وَمَجِيئَكَ فِي أَصْحَابِكَ الْمُؤْمِنِينَ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: يَعْنِي وَتَصَرُّفَكَ فِي أَحْوَالِكَ كَمَا كَانَتِ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ قَبْلِكَ وَالسَّاجِدُونَ. هُمُ الْأَنْبِيَاءُ. وَقَالَ عَطَاءٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. أَرَادَ تَقَلُّبَكَ فِي أَصْلَابِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَىٰ نَبِيٍّ حَتَّىٰ أَخْرَجَكَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ.

[٢٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أَيِ السَّمِيعُ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ، الْعَلِيمُ بِحَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمْ.

[٢٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ أُخْبِرُكُمْ، ﴿عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ هذا جواب قولهم: ﴿عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾، ثم بين فقال: ﴿تَنَزَّلُ﴾ أَيْ

تَنَزَّلُ، ﴿عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كذاب ﴿أَثِيمٍ﴾ فَاجِرٍ، قَالَ قَتَادَةُ: هُمُ الْكَهَنَةُ يَسْتَرِقُ الْجِنُّ السَّمْعَ ثُمَّ يُلْقُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ. وَهُوَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ.

[٢٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ أَيْ يَسْتَرِقُونَ السَّمْعَ مِنَ السَّمَاءِ فَيَسْمَعُونَ الْكَلِمَةَ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ، فَيَزِيدُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ ثُمَّ يلقونها إلىٰ أوليائهم من الإنس، فيحدثون بِهَا فَيُصَدِّقُهُمُ النَّاسُ فِي كُلِّ مَا قَالُوهُ بسبب صِدْقِهِمْ فِي تِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السماء، كما روىٰ البخاري عن عروة بن الزبير قال، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: سَأَلَ نَاسٌ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْكُهَّانِ فَقَالَ: «**إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِشَيْءٍ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله فإنه يحدثون بالشيء يكون، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الْحَقِّ، يَخْطَفُهَا الْجِنِّيُّ، فَيَقُرُّهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ كَقَرِّ الدَّجَاجَةِ، فَيَخْلِطُونَ مَعَهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذْبَةٍ**»(١).

[٢٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ لِأَنَّهُمْ يَخْلِطُونَ بِهِ كَذِبًا كَثِيرًا.

[٢٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ قَالَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ: أَرَادَ شُعَرَاءَ الْكُفَّارِ الَّذِينَ كَانُوا يَهْجُونَ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ و (الْغَاوُونَ)، هم الرواة الذين يروون هجاء النبي صلىٰ الله عليه وسلم والمسلمين ، وقال قتادة ومجاهد: الغاوون هم الشياطين، وَالْغَاوِي: الْمُتَّصِفُ بِالْغَيِّ وَالْغَوَايَةِ،

---

(١) البخاري (٣٢١٠) ومسلم (٢٢٢٨) .

وَهِيَ الضَّلَالَةُ الشَّدِيدَةُ، أَيْ يَتَّبِعُهُمْ أَهْلُ الضَّلَالَةِ وَالْبِطَالَةِ الرَّاغِبُونَ فِي الْفِسْقِ وَالْأَذَىٰ.

[٢٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ﴾ من أودية الكلام، ﴿يَهِيمُونَ﴾ حائرون وعن طريق الحق جائرون، وَالْهَائِمُ: الذَّاهِبُ عَلَىٰ وَجْهِهِ لَا مَقْصِدَ لَهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ: فِي كُلِّ لَغْوٍ يَخُوضُونَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: فِي كُلِّ فَنٍّ يَفْتِنُونَ، وَقَالَ قَتَادَةُ: يَمْدَحُونَ بِالْبَاطِلِ وَيَسْتَمِعُونَ وَيَهْجُونَ بِالْبَاطِلِ، فَالْوَادِي مَثَلٌ لِفُنُونِ الْكَلَامِ، كَمَا يُقَالُ: أَنَا فِي وَادٍ وَأَنْتَ فِي وَادٍ، وَقِيلَ: فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ أَيْ عَلَىٰ كُلِّ حَرْفٍ مِنْ حُرُوفِ الْهِجَاءِ يَصُوغُونَ الْقَوَافِيَ.

[٢٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ أَيْ: يَكْذِبُونَ فِي شِعْرِهِمْ يَقُولُونَ فَعَلْنَا وفعلنا وهم كذبة، ثُمَّ اسْتَثْنَىٰ شُعَرَاءَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ كَانُوا يُجِيبُونَ شُعَرَاءَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَيَهْجُونَ شُعَرَاءَ الْكُفَّارِ، وَيُنَافِحُونَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ، مِنْهُمْ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ وَكَعْبُ بْنُ مَالِكٍ، فَقَالَ:

[٢٢٧]: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ ذَكَرُوا اللهَ كَثِيرًا فِي كَلَامِهِمْ، وَقِيلَ: فِي شِعْرِهِمْ، وكلاهما صحيح مكفر لما سبق، وقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَرُدُّونَ عَلَىٰ الْكُفَّارِ الَّذِينَ كَانُوا يَهْجُونَ به المؤمنين؛ وَهَذَا كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ قَالَ لِحَسَّانَ: «**اهْجُهُمْ** - أَوْ قَالَ - **هَاجِهِمْ وَجِبْرِيلُ مَعَكَ**»(١)، قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنْ اللهَ عزَّ وجلَّ قَدْ أنزل فِي الشعراء ما أنزل، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُجَاهِدُ بِسَيْفِهِ وَلِسَانِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَكَأَنَّ مَا تَرْمُونَهُمْ بِهِ نَضْحُ النَّبْلِ**»(٢) ، ثُمَّ أَوْعَدَ شُعَرَاءَ الْمُشْرِكِينَ فقال: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أَشْرَكُوا وَهَجَوْا رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ أَيَّ مَرْجِعٍ يُرْجَعُونَ بَعْدَ الْمَوْتِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَالسَّعِيرِ، وَاللهُ أعلم.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الشُّعَرَاءِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

---

(١) البخاري (٤١٢٣) ومسلم (٢٤٨٦) .

(٢) أحمد (١٥٨١٨) .

سُورَةُ النَّمْلِ

وهي مَكِّيَّةٌ كُلُّهَا فِي قَوْلِ الْجَمِيعِ، وَهِيَ ثَلَاثٌ وتسعون آية.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿طس﴾ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ الَّتِي ابْتُدِئَتْ بِمِثْلِ هَذِهِ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ، وَأَنَّهَا تَحْمِلُ مَعْنَىٰ التَّحَدِّي وَالْإِعْجَازِ لِهَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُوَ مِنْ جِنْسِ هَذِهِ الْأَحْرُفِ ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ﴾ أَيْ هَذِهِ آيَاتُ الْقُرْآنِ، ﴿وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ يعني وَآيَاتُ كِتَابٍ مُبِينٍ، وَالْكِتَابُ هُوَ الْقُرْآنُ، فَجَمَعَ لَهُ بَيْنَ الصِّفَتَيْنِ: بِأَنَّهُ قُرْآنٌ وَأَنَّهُ كِتَابٌ، لِأَنَّهُ مَا يَظْهَرُ بِالْكِتَابَةِ، وَيَظْهَرُ بِالْقِرَاءَةِ. وَصَفَهُ بِالْمُبِينِ لِأَنَّهُ بَيَّنَ فِيهِ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ وَحَلَالَهُ وَحَرَامَهُ وَوَعْدَهُ وَوَعِيدَهُ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هُدًىٰ وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يَعْنِي هُوَ هُدًىٰ مِنَ الضَّلَالَةِ وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُصَدِّقِينَ بِهِ بِالْجَنَّةِ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أَيْ يُؤَدُّونَ الصَّلَاةَ بِأَرْكَانِهَا وَشُرُوطِهَا، ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ يُعْطُونَ مَا وَجَبَ عَلَيْهِمْ مِنْ زَكَاةِ أَمْوَالِهِمْ لِأَصْحَابِهَا، ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ قال الشوكاني: أَيْ: لَا يُوقِنُ بِالْآخِرَةِ حَقَّ الْإِيقَانِ إِلَّا هَؤُلَاءِ الْجَامِعُونَ بَيْنَ الْإِيمَانِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أَيْ يُكَذِّبُونَ بِهَا وَيَسْتَبْعِدُونَ وُقُوعَهَا، ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أَيْ حَسَّنَّا لَهُمْ مَا هُمْ فِيهِ، وَمَدَدْنَا لَهُمْ فِي غَيِّهِمْ، فَهُمْ يَتِيهُونَ فِي ضلالهم ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ أَيْ يَتَرَدَّدُونَ فِي أَعْمَالِهِمُ الْخَبِيثَةِ، وَالْعَمَهُ: الضَّلَالُ عَنِ الطَّرِيقِ بِدُونِ اهْتِدَاءٍ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ شِدَّةُ الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ بِبَدْرٍ، ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ لِأَنَّهُمْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ وَصَارُوا إِلَىٰ النَّارِ.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّىٰ الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ ﴾ أي تؤتىٰ الْقُرْآنَ، و لَدُنْ" بِمَعْنَىٰ عِنْدَ قال ابن عاشور: وَ (عِنْدَ) وَ (لَدُنْ) كِلَاهُمَا حَقِيقَتُهُ اسْمُ مَكَانٍ قَرِيبٍ. ﴿حَكِيمٍ﴾ يَضَعُ الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا، وَيُنْزِلُهَا مَنَازِلَهَا. ﴿عَلِيمٍ﴾ بِأَسْرَارِ الْأُمُورِ وَبَوَاطِنِهَا، كَظَوَاهِرِهَا، فَالْمَعْنَىٰ: وَإِنَّكَ يَا مُحَمَّدُ لَيُلْقَىٰ عَلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنُ فَتَلَقَّاهُ وَتَعَلَّمُهُ مِنْ عِنْدِ حَكِيمٍ بِتَدْبِيرِ خَلْقِهِ، عَلِيمٍ بِمَصَالِحِ عِبَادِهِ وَجَمِيعِ أَحْوَالِ مَا فِي مُلْكِهِ.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ﴾ أي واذكر يا محمد إذا قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ فِي مَسِيرِهِ مِنْ مَدْيَنَ إِلَىٰ مِصْرَ، وَالْأَهْلُ: مُرَادٌ بِهِ زَوْجُته، وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ إِلَّا زَوْجُهُ وَابْنَانِ صَغِيرَانِ. وَالْمُخَاطَبُ بِالْقَوْلِ زَوْجُته، وَيُكَنَّىٰ عَنِ الزَّوْجَةِ بِالْأَهْلِ. وَفِي الْحَدِيثِ الأفك قال عليه الصلاة والسلام: «**وَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَىٰ أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا** »، يعني زوجته عائشة ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ أَيْ أَبْصَرْتُ نَارًا من بعيد

وَالْإِينَاسُ: الْإِبْصَارُ الواضح الَّذِي لَا شُبْهَةَ فِيهِ. ﴿سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أَيْ امْكُثُوا مَكَانَكُمْ سَآتِيكُمْ بِخَبَرٍ عن الطريق أو النار، وَكَانَ قَدْ تَرَكَ الطَّرِيقَ، ﴿أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ هُوَ إِضَافَةُ الشَّيْءِ إِلَىٰ نَفْسِهِ، لِأَنَّ الشِّهَابَ وَالْقَبَسَ مُتَقَارِبَانِ فِي الْمَعْنَىٰ، وَهُوَ الْعُودُ الَّذِي فِي أحد طرفيه فيه نَارٌ، وَلَيْسَ فِي الطَّرَفِ الْآخَرِ نَارٌ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الشِّهَابُ هُوَ شَيْءٌ ذُو نُورٍ، مِثْلَ الْعَمُودِ، وَالْعَرَبُ تُسَمِّي كُلَّ أَبيضَ ذِي نور شهابا، وَالْقَبَسُ: مَا يُؤْخَذُ اشْتِعَالُهُ مِنِ اشْتِعَالِ شَيْءٍ وَيُقْبَسُ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ تَسْتَدْفِئُونَ مِنَ الْبَرْدِ وَكَانَ ذَلِكَ فِي شِدَّةِ الشِّتَاءِ. وعَن عَائِشَة رَضِي الله عَنْهَا قَالَت: كن لما لَا ترجو أَرْجَىٰ مِنْك لما ترجو فَإِن مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام خرج يقتبس نَارا فَرجع بالنبوّة.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا جاءَها﴾ أَيْ فَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ الَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَارٌ وَهِيَ نُورٌ، ﴿نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أَيْ بُورِكَ عَلَىٰ مَنْ فِي النَّارِ أَوْ مَنْ فِي النَّارِ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: بَارَكَهُ اللهُ وَبَارَكَ فِيهِ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، بِمَعْنًىٰ وَاحِدٍ، وَقَالَ قَوْمٌ: الْبَرَكَةُ رَاجِعَةٌ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَالْمَلَائِكَةِ، مَعْنَاهُ: بُورِكَ فِي مَنْ طَلَبَ النَّارَ، وَهُوَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَنْ حَوْلَهَا وَهُمُ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ حَوْلَ النَّارِ، وَمَعْنَاهُ: بُورِكَ فِيكَ يَا مُوسَىٰ وَفِي الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ حَوْلَ النَّارِ، وَهَذَا تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِمُوسَىٰ بِالْبَرَكَةِ، كَمَا حَيَّا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ الْمَلَائِكَةِ حِينَ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ، قال البغوي : وَمَذْهَبُ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالنَّارِ النور، وذكر بِلَفْظِ النَّارِ لِأَنَّ مُوسَىٰ حَسِبَهُ نارا، ومن

فِي النَّارِ هُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَلِكَ أَنَّ النُّورَ الَّذِي رَآهُ مُوسَىٰ كَانَ فِيهِ مَلَائِكَةٌ لَهُمْ زَجَلٌ بالتقديس والتسبيح، ومن حولها مُوسَىٰ لِأَنَّهُ كَانَ بِالْقُرْبِ مِنْهَا، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا. وَقِيلَ: مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا جَمِيعًا الْمَلَائِكَةُ وَقِيلَ: مَنْ فِي النَّارِ موسىٰ ومن حَوْلَهَا الْمَلَائِكَةُ، وَمُوسَىٰ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي النَّارِ كَانَ قَرِيبًا مِنْهَا كَمَا يُقَالُ: بَلَغَ فُلَانٌ الْمَنْزِلَ إِذَا قَرُبَ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَبْلُغْهُ بَعْدُ، وَسَمَّىٰ النَّارَ مُبَارَكَةً كَمَا سَمَّىٰ الْبُقْعَةَ مُبَارَكَةً فَقَالَ: ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾ [القصص: ٣٠]، وفي الحديث عَنْ أَبِي مُوسَىٰ قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، فَقَالَ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ حِجَابُهُ النُّورُ**»[١]، ﴿وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تَنْزِيهًا وَتَقْدِيسًا لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. ثُمَّ تَعَرَّفَ إِلَىٰ مُوسَىٰ بِصِفَاتِهِ، فَقَالَ:

[٩]: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللهُ﴾ أي: أخبره الله أنه الله المستحق للعبادة وحده لا شريك له كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]، قوله: ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر جميع الأشياء وأذعنت له كل المخلوقات، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أمره وخلقه ثُمَّ أَرَىٰ مُوسَىٰ آيَةً عَلَىٰ قُدْرَتِهِ، فَقَالَ:

---

(١) مسلم (١٧٩).

[١٠] : ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ﴾ تتحرك، ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ وَهِيَ الْحَيَّةُ الصَّغِيرَةُ الَّتِي يَكْثُرُ اضْطِرَابُهَا، ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ وهرب من الخوف، ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ ولم يَرْجِعْ، يُقَالُ: عَقِبَ فُلَانٌ إِذَا رَجَعَ، وَكُلُّ رَاجِعٍ مُعَقِّبٌ ، وَقَالَ قَتَادَةُ: وَلَمْ يَلْتَفِتْ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ يريد إذا آمنهم لَا يَخَافُونَ أَمَّا الْخَوْفُ الَّذِي هُوَ شَرْطُ الْإِيمَانِ فَلَا يُفَارِقُهُمْ، قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «أَنَا أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ» .

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وَاخْتُلِفَ فِي هَذَا الِاسْتِثْنَاءِ، قِيلَ: هَذَا إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّ مُوسَىٰ حِينَ قَتَلَ الْقِبْطِيَّ خَافَ مِنْ ذَلِكَ، ثُمَّ تَابَ فَقَالَ: رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي، فَغَفَرَ لَهُ، قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ لِمُوسَىٰ: إِنَّمَا أَخَفْتُكَ لِقَتْلِكَ النَّفْسَ. وَقَالَ: مَعْنَىٰ الْآيَةِ لَا يُخِيفُ اللهُ الْأَنْبِيَاءَ إِلَّا بِذَنْبٍ يُصِيبُهُ أَحَدُهُمْ، فَإِنْ أَصَابَهُ أَخَافَهُ حَتَّىٰ يَتُوبَ، قال البغوي : وَفِي الْآيَةِ مَتْرُوكٌ اسْتُغْنِيَ عَنْ ذِكْرِهِ بِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ، تَقْدِيرُهُ: فَمَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ، قال بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: لَيْسَ هَذَا بِاسْتِثْنَاءٍ مِنَ الْمُرْسَلِينَ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِمُ الظُّلْمُ، بَلْ هُوَ اسْتِثْنَاءٌ مِنَ الْمَتْرُوكِ فِي الْكَلَامِ، مَعْنَاهُ لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ، إِنَّمَا الْخَوْفُ عَلَىٰ غَيْرِهِمْ مِنَ الظَّالِمِينَ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ تَابَ، وَهَذَا مِنَ الِاسْتِثْنَاءِ الْمُنْقَطِعِ، مَعْنَاهُ: لَكِنْ مَنْ ظَلَمَ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ فَإِنَّهُ يَخَافُ، فَإِنْ تَابَ وَبَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، يَعْنِي يَغْفِرُ اللهُ لَهُ وَيُزِيلُ الْخَوْفَ عَنْهُ. ثُمَّ أَرَاهُ اللهُ آيَةً أُخْرَىٰ فَقَالَ:

[١٢] : ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ والجيب حيث جبب مِنَ الْقَمِيصِ، أَيْ قُطِعَ، قَالَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ: كَانَتْ عَلَيْهِ مُدَرَّعَةٌ مِنْ صُوفٍ لَا كُمَّ لَهَا ولا أزرار فأدخل يد، فِي جَيْبِهِ وَأَخْرَجَهَا، فَإِذَا هِيَ تَبْرُقُ مِثْلَ الْبَرْقِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ، ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ يَقُولُ هَذِهِ آيَةٌ مَعَ تِسْعِ آيَاتٍ أَنْتَ مُرْسَلٌ بِهِنَّ، قَالَ النَّحَّاسُ أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِيهِ أَنَّ الْمَعْنَىٰ: هَذِهِ الْآيَةُ دَاخِلَةٌ فِي تِسْعِ آيَاتٍ. وَقِيلَ: فِي بِمَعْنَىٰ مَعَ، فَالْآيَاتُ عَشَرَةٌ مِنْهَا الْيَدُ، وَالتِّسْعُ: الْفَلْقُ وَالْعَصَا وَالْجَرَادُ وَالْقُمَّلُ وَالطُّوفَانُ وَالدَّمُ وَالضَّفَادِعُ وَالسِّنِينَ وَالطَّمْسُ ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أَيْ خَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ،

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾ بَيِّنَةً وَاضِحَةً يُبْصَرُ بِهَا، ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ظاهر جَرَوْا عَلَىٰ عَادَتِهِمْ فِي التَّكْذِيبِ فَلِهَذَا.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ أَيْ تَيَقَّنُوا أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ وَأَنَّهَا لَيْسَتْ سِحْرًا، وَلَكِنَّهُمْ كَفَرُوا بِهَا وَتَكَبَّرُوا أَنْ يُؤْمِنُوا بِمُوسَىٰ. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُمْ كَانُوا مُعَانِدِينَ وَالْجُحُودُ: الْإِنْكَارُ بِاللِّسَانِ ، ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ يعني عَلِمُوا أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ، واسْتَيْقَنَتْها بِمَعْنَىٰ أَيْقَنَتْ بِهَا ، والسين والتاء للمبالغة ، قوله: ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ يعني شِرْكًا وَتَكَبُّرًا عَنْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِمَا جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ، قال ابن زيد: استيقنوا أن الآيات من الله حق، فلِمَ جحدوا بها؟ قال: ظلمًا وعلوًا، ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أَيْ مآل أَمْرِ الْكَافِرِينَ الطَّاغِينَ، انْظُرْ ذَلِكَ بِعَيْنِ قَلْبِكَ وَتَدَبَّرْ فِيهِ .

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ يعني عِلْمَ الْقَضَاءِ وَمَنْطِقَ الطَّيْرِ وَالدَّوَابِّ وَتَسْخِيرَ الشَّيَاطِينِ وَتَسْبِيحَ الْجِبَالِ، قال القرطبي: وَإِنَّمَا الَّذِي آتَاهُمَا اللهُ النُّبُوَّةَ وَالْخِلَافَةَ فِي الْأَرْضِ وَالزَّبُورَ، ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا﴾ بِالنُّبُوَّةِ وَالْكِتَابِ وَتَسْخِيرِ الشَّيَاطِينِ وَالْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ نُبُوَّتَهُ وَعِلْمَهُ وَمُلْكَهُ دُونَ سَائِرِ أَوْلَادِهِ، وَكَانَ لِدَاوُدَ تِسْعَةَ عَشَرَ ابْنًا، وَأُعْطِيَ سُلَيْمَانُ مَا أُعْطِيَ دَاوُدُ مِنَ الْمُلْكِ، وَزِيدَ لَهُ تسخير الريح وتسخير الشياطين. وقال مُقَاتِلٌ: كَانَ سُلَيْمَانُ أَعْظَمَ مُلْكًا مِنْ دَاوُدَ وَأَقْضَىٰ مِنْهُ، وَكَانَ دَاوُدُ أَشَدَّ تَعَبُّدًا مِنْ سُلَيْمَانَ، وَكَانَ سُلَيْمَانُ شَاكِرًا لِنِعَمِ اللهِ تَعَالَىٰ، ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ سَمَّىٰ صَوْتَ الطَّيْرِ مَنْطِقًا لِحُصُولِ الْفَهْمِ مِنْهُ، كَمَا يُفْهَمُ مِنْ كلام الناس ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يُؤْتَىٰ الْأَنْبِيَاءُ وَالْمُلُوكُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: يَعْنِي النُّبُوَّةَ وَالْمُلْكَ وَتَسْخِيرَ الْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ وَالرِّيَاحِ، ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ الزِّيَادَةُ الظَّاهِرَةُ عَلَىٰ مَا أَعْطَىٰ غيرنا، وفي الحديث عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَىٰ شَيْطَانًا وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ، فَأَخَذَهُ فَخَنَقَهُ حَتَّىٰ وَجَدَ بَرْدَ

لِسَانِهِ عَلَىٰ يَدِهِ، ثُمَّ قَالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَوْلَا دَعْوَةُ أَخِي سُلَيْمَانَ لَأَصْبَحَ مُوثَقًا حَتَّىٰ يَرَاهُ النَّاسُ**»(١).

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ﴾ وجمع لِسُلَيْمَانَ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَحَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحداً﴾ [الكهف : ٤٧] ، قوله : ﴿ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ﴾ في مسيره، قال ابن عاشور : وَقَوْلُهُ: مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ بَيَانٌ لِلْجُنُودِ فَهِيَ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ: صِنْفُ الْجِنِّ وَهُوَ لِتَوْجِيهِ الْقُوَىٰ الْخَفِيَّةِ، وَالتَّأْثِيرِ فِي الْأُمُور الروحية. وَصِنْفُ الْإِنْسِ وَهُوَ جُنُودُ تَنْفِيذِ أَوَامِرِهِ وَمُحَارَبَةِ الْعَدُوِّ وَحِرَاسَةِ الْمَمْلَكَةِ، وَصِنْفُ الطَّيْرِ وَهُوَ مِنْ تَمَامِ الْجُنْدِ لِتَوْجِيهِ الْأَخْبَارِ وَتَلَقِّيهَا وَتَوْجِيهِ الرَّسَائِلِ إِلَىٰ قُوَّادِهِ وَأُمَرَائِهِ، وَاقْتَصَرَ عَلَىٰ الْجِنِّ وَالطَّيْرِ لِغَرَابَةِ كَوْنِهِمَا مِنَ الْجُنُودِ فَلِذَلِكَ لَمْ يَذْكُرِ الْخَيْلَ وَهِيَ مِنَ الْجَيْشِ ، ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ فهم يكفون ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: يُوزَعُونَ يُسَاقُونَ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: يُوقَفُونَ ، وَقِيلَ: يُجْمَعُونَ ، وَأَصْلُ الوزع الكف والمنع، وَالْوَازِعُ فِي الْحَرْبِ الْمُوَكَّلُ بِالصُّفُوفِ يَزَعُ مَنْ تَقَدَّمَ مِنْهُمْ. قَالَ الْحَسَنُ البصري: لأبد لِلنَّاسِ مِنْ وَازِعٍ، أَيْ مِنْ سُلْطَانٍ يَكُفُّهُمْ.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ﴾ وَقَالَ قَتَادَةُ وَمُقَاتِلٌ: هُوَ أَرْضٌ بالشام، ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ وَلَمْ تَقُلْ: ادْخُلْنَ

---

(١) البخاري (٤٨٠٨) .

لِأَنَّهُ لَمَّا جَعَلَ لَهُمْ قَوْلًا كَالْآدَمِيِّينَ خُوطِبُوا بخطاب الآدميين، وَسُمِّيَتِ النَّمْلَةُ نَمْلَةً لِتَنَمُّلِهَا وَهُوَ كَثْرَةُ حَرَكَتِهَا وَقِلَّةُ قَرَارِهَا ، ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾ لا يكسرنكم، وَالْحَطْمُ: حَقِيقَتُهُ الْكَسْرُ لِشَيْءٍ صُلْبٍ ، والتَّقْدِيرُ: إِنْ تَدْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ، أَيْ يَنْتَفِ حَطْمُ سُلَيْمَانَ إِيَّاكُنَّ، وَإِلَّا حَطَّمَكُمْ، ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي لو شعروا لم يفعلوا، قالت ذلك علىٰ وجه العذر واصفة سليمان وجنوده بالعدل ، وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ نَبِيِّ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **إِنَّ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَرَصَتْهُ نَمْلَةٌ، فَأَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّمْلِ، فَأُحْرِقَتْ، فَأَوْحَىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ: أَفِي أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ، أَهْلَكْتَ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ، تُسَبِّحُ لله**»(١) .

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا﴾ قَالَ الزَّجَاجُ: أَكْثَرُ ضَحِكِ الْأَنْبِيَاءِ التبسم ، وقوله: ﴿ضَاحِكًا﴾ أَيْ مُتَبَسِّمًا، قِيلَ: كَانَ أَوَّلَهُ التبسم وآخره الضحك وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ وَقِيلَ لَهُ: أَكُنْتَ تُجَالِسُ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: نِعْمَ كَثِيرًا، كَانَ لَا يَقُومُ مِنْ مُصَلَّاهُ الَّذِي يُصَلِّي فِيهِ الصُّبْحَ- أَوِ الْغَدَاةَ- حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ فَإِذَا طَلَعَتْ قَامَ، وَكَانُوا يَتَحَدَّثُونَ وَيَأْخُذُونَ فِي أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم ، وَقَدْ كَرِهَ الْعُلَمَاءُ الكثرة من الضحك ، كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ إِيَّاكَ وَكَثْرَةَ الضَّحِكِ فَإِنَّهُ يُمِيتُ الْقَلْبَ،

---

(١) البخاري (٣٣٠٥) ومسلم (٢٢٤١) .

﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ أَلْهِمْنِي، حَمِدَ سُلَيْمَانُ رَبَّهُ عَلَىٰ مَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ، قال القرطبي: وَأَصْلُهُ مِنْ وَزَعَ فَكَأَنَّهُ قَالَ: كُفَّنِي عَمَّا يُسْخِطُ ، ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ أَيْ أَدْخِلْنِي فِي جُمْلَتِهِمْ، وَأَثْبِتِ اسْمِيَ مَعَ أَسْمَائِهِمْ وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَتِهِمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ مَعَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ، مِنَ النَّبِيِّينَ. وَقِيلَ: أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِكَ مِنْ عِبَادِكَ الصالحين.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ أَيْ: طَلَبَهَا وَبَحَثَ عَنْهَا، وَالتَّفَقُّدُ تَطَلُّبُ مَا غَابَ عنك من شي. ، وَمَعْنَىٰ الْآيَةِ. طَلَبَ مَا فَقَدَ مِنَ الطَّيْرِ، ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَىٰ الْهُدْهُدَ﴾ أَيْ مَا لِلْهُدْهُدِ لَا أَرَاهُ، ثُمَّ أَدْرَكَهُ الشَّكُّ فِي غَيْبَتِهِ، فَقَالَ: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ يَعْنِي أَكَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ، وَالْمِيمُ صِلَةٌ، وَقِيلَ: أَمْ بِمَعْنَىٰ بَلْ، ثُمَّ أَوْعَدَهُ عَلَىٰ غَيْبَتِهِ، قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ: إِنَّمَا طَلَبَ الْهُدْهُدَ لِأَنَّهُ احْتَاجَ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ الْمَاءِ عَلَىٰ كَمْ هُوَ مِنْ وَجْهِ الْأَرْضِ، لِأَنَّهُ كَانَ نَزَلَ فِي مَفَازَةٍ عَدِمَ فِيهَا الْمَاءَ، وَأَنَّ الْهُدْهُدَ كَانَ يَرَىٰ بَاطِنَ الْأَرْضِ وَظَاهِرَهَا، فَكَانَ يُخْبِرُ سُلَيْمَانَ بِمَوْضِعِ الْمَاءِ ، قال القرطبي : هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَىٰ تَفَقُّدِ الْإِمَامِ أَحْوَالَ رَعِيَّتِهِ، وَالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِمْ ، فَانْظُرْ إِلَىٰ الْهُدْهُدِ مَعَ صِغَرِهِ كَيْفَ لَمْ يَخْف عَلَىٰ سُلَيْمَانَ حَالُهُ، فَكَيْفَ بِعِظَامِ الْمُلْكِ. وَيَرْحَمُ اللهُ عُمَرَ فَإِنَّهُ كَانَ عَلَىٰ سِيرَتِهِ، قَالَ: لَوْ أَنَّ

سَخْلَةً عَلَىٰ شَاطِئِ الْفُرَاتِ أَخَذَهَا الذِّئْبُ لَيُسْأَلُ عَنْهَا عُمَرُ، فَمَا ظَنُّكَ بِوَالٍ تَذْهَبُ عَلَىٰ يَدَيْهِ الْبُلْدَانُ، وَتَضِيعُ الرَّعِيَّةُ وَيَضِيعُ الرُّعْيَانُ.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾ لَأَقْطَعَنَّ حَلْقَهُ، ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ بِحُجَّةٍ بَيِّنَةٍ فِي غَيْبَتِهِ، وَعُذْرٍ ظاهر، عَنْ عِكْرِمَةَ، قَالَ: إِنَّمَا صَرَفَ اللهُ شَرَّ سُلَيْمَانَ عَنِ الْهُدْهُدِ لِأَنَّهُ كَانَ بَارًّا بِوَالِدَيْهِ.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أَيْ غَيْرَ طَوِيلٍ، قَالَ سِيبَوَيْهِ: مَكَثَ يَمْكُثُ مُكُوثًا كَمَا قَالُوا قَعَدَ يَقْعُدُ قُعُودًا ، ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ وَالْإِحَاطَةُ الْعِلْمُ بِالشَّيْءِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ، يَقُولُ: عَلِمْتُ مَا لَمْ تَعْلَمْ وَبَلَغْتُ مَا لَمْ تَبْلُغْهُ أَنْتَ وَلَا جُنُودُكَ، ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ﴾ اسم البلد أو اسم رجل، ﴿بِنَبَإٍ﴾ بخبر ﴿يَقِينٍ﴾ بعذر بين واضح، وقال سفيان بن عيينة: لما أقدم الهدهد قالت لَهُ الطَّيْرُ: مَا خَلَّفَكَ فَقَدْ نَذَرَ سُلَيْمَانُ دمك، فقال: هل استثنىٰ؟ قالوا: نَعَمْ، قَالَ: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ قال: نجوت إذاً.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ وَكَانَ اسْمُهَا بِلْقِيسَ بِنْتَ شَرَاحِيلَ مِنْ نَسْلِ يَعْرِبَ بْنِ قَحْطَانَ، وَكَانَ أَبُوهَا مَلِكًا عَظِيمَ الشَّأْنِ، قال ابن عاشور : وَالْمَوْثُوقُ بِهِ أَنَّهَا كَانَتْ مُعَاصِرَةً سُلَيْمَانَ فِي أَوَائِلِ الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ وَكَانَتِ امْرَأَةً عَاقِلَةً ، وَيُقَالُ: هِيَ الَّتِي بَنَتْ سَدَّ مَأْرِبَ، وَكَانَتْ حَاضِرَةُ مُلْكِهَا مَأْرِبَ مَدِينَةً عَظِيمَةً بِالْيَمَنِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ صَنْعَاءَ مَسِيرَةَ ثَلَاثِ مَرَاحِلَ وَسَيَأْتِي ذِكْرُهَا فِي سُورَةِ سَبَأٍ ، ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ

الْمُلُوكُ مِنَ الْآلَةِ والعدة،مِنْ ذَخَائِرِهِمْ وَعَدَدِهِمْ وَجُيُوشِهِمْ وَثَرَاءِ مَمْلَكَتِهِمْ وَزُخْرُفِهَا وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْمَحَامِدِ وَالْمَحَاسِنِ ، ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ سَرِيرٌ ضَخْمٌ وَوَصَفَهُ بِالْعِظَمِ فِي الْهَيْئَةِ وَرُتْبَةِ السُّلْطَانِ. وَقِيلَ: الْعَرْشُ هُنَا الْمُلْكُ، قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: وَاللَّازِمُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّهَا امْرَأَةٌ مُلِّكَتْ عَلَىٰ مَدَائِنِ الْيَمَنِ، ذَاتُ مُلْكٍ عَظِيمٍ، وَسَرِيرٍ عَظِيمٍ، وَكَانَتْ كَافِرَةً مِنْ قَوْمٍ كُفَّارٍ.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ قِيلَ: كَانَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ مِمَّنْ يَعْبُدُ الشَّمْسَ، وَقِيلَ: كَانُوا مَجُوسًا يَعْبُدُونَ الْأَنْوَارَ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ:

[٢٥] : ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ والمعنىٰ : وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ لِئَلَّا يَسْجُدُوا، أَيْ لَا يَعْرِفُونَ سَبِيلَ الْحَقِّ الَّتِي هِيَ إِخْلَاصُ السُّجُودِ لِلَّهِ وَحْدَهُ دُونَ ما خلق مِنَ الْكَوَاكِبِ وَغَيْرِهَا، ﴿لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أَيِ الْخَفِيَّ الْمُخَبَّأَ، أَيْ مَا خَبَّأَتْ، وَإِخْرَاجُ الْخَبْءِ: إِبْرَازُهُ لِلنَّاسِ، أَيْ إِعْطَاؤُهُ، أَيْ إِعْطَاءُ مَا هُوَ غَيْرُ مَعْلُومٍ لَهُمْ مِنَ الْمَطَرِ وَإِخْرَاجِ النَّبَاتِ وَإِعْطَاءِ الْأَرْزَاقِ وهذا كله من إنعام الخالق عزوجل ، قَالَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ. خَبْءُ السَّمَاءِ: الْمَطَرُ، وَخَبْءُ الْأَرْضِ: النَّبَاتُ ، وَقِيلَ: مَعْنَىٰ الْخَبْءَ الْغَيْبُ، يُرِيدُ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، قال ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْلَمُ كُلَّ خَبِيئَةٍ فِي السَّمَاءِ والأرض ، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ قِرَاءَةُ العامة فيهما بياء، وَهَذِهِ الْقِرَاءَةُ تُعْطِي أَنَّ الْآيَةَ مِنْ كَلَامِ الْهُدْهُدِ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ خَصَّهُ مِنَ الْمَعْرِفَةِ

بِتَوْحِيدِهِ وَوُجُوبِ السُّجُودِ لَهُ، وَإِنْكَارِ سُجُودِهِمْ لِلشَّمْسِ، وَإِضَافَتِهِ لِلشَّيْطَانِ، وَتَزْيِينِهِ لَهُمْ، مَا خَصَّ بِهِ غَيْرَهُ مِنَ الطُّيُورِ وَسَائِرِ الْحَيَوَانِ، مِنَ الْمَعَارِفِ اللَّطِيفَةِ الَّتِي لَا تَكَادُ الْعُقُولُ الرَّاجِحَةُ تَهْتَدِي لَهَا، وقرأ حفص والكسائي بالتاء وهذه القراءة تعطىٰ أن الآية مِنْ خِطَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿اللهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ﴾ أَيْ: لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ وَالْإِنَابَةُ وَالذُّلُّ وَالْحُبُّ إِلَّا لَهُ؛ لِأَنَّهُ الْمَأْلُوهُ لِمَا لَهُ مِنَ الصِّفَاتِ الْكَامِلَةِ وَالنِّعَمِ الْمُوجِبَةِ لِذَلِكَ. ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الَّذِي هُوَ سَقْفُ الْمَخْلُوقَاتِ وَوَسِعَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ، فَهَذَا الْمَلِكُ عَظِيمُ السُّلْطَانِ كَبِيرُ الشَّأْنِ هُوَ الَّذِي يُذَلُّ لَهُ وَيُخْضَعُ وَيُسْجَدُ لَهُ وَيُرْكَعُ، فَسَلِمَ الْهُدْهُدُ حِينَ أَلْقَىٰ إِلَيْهِ هَذَا النَّبَأَ الْعَظِيمَ وَتَعَجَّبَ سُلَيْمَانُ كَيْفَ خَفِيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا فَرَغَ الْهُدْهُدُ مِنْ كَلَامِهِ.

[٢٧] : ﴿قَالَ﴾ سليمان للهدهد ﴿سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ﴾ فِيمَا أَخْبَرْتَ ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ثُمَّ كَتَبَ سُلَيْمَانُ كِتَابًا مِنْ عَبْدِ اللهِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ إِلَىٰ بِلْقِيسَ مَلِكَةِ سَبَأٍ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، السَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ : أَمَّا بَعْدُ فَلَا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ، قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: لَمْ يَزِدْ سُلَيْمَانُ عَلَىٰ مَا قَصَّ اللهُ فِي كِتَابِهِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ: وَكَذَلِكَ كل الْأَنْبِيَاءُ كَانَتْ تَكْتُبُ جُمَلًا لَا يُطِيلُونَ وَلَا يُكْثِرُونَ، فَلَمَّا كَتَبَ الْكِتَابَ طَبَعَهُ بِالْمِسْكِ وَخَتَمَهُ بِخَاتَمِهِ ، فَقَالَ لِلْهُدْهُدِ:

[٢٨] : ﴿اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ تَنَحَّ عَنْهُمْ فَكُنْ قَرِيبًا مِنْهُمْ، ﴿فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ يَرُدُّونَ مِنَ الْجَوَابِ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: فِي الْآيَةِ

تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ مَجَازُهَا: اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ، ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ، أَيْ انْصَرِفْ إِلَيَّ فَأَخَذَ الْهُدْهُدُ الْكِتَابَ فَأَتَىٰ بِهِ إِلىٰ بلقيس، فَقَرَأَتِ الْكِتَابَ وَتَأَخَّرَ الْهُدْهُدُ غَيْرَ بَعِيدٍ فَجَاءَتْ حَتَّىٰ قَعَدَتْ عَلَىٰ سرير ملكها وجمعت الملأ من قومها.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَتْ﴾ لَهُمْ بِلْقِيسُ، ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ﴾ وَهُمْ أَشْرَافُ النَّاسِ وَكُبَرَاؤُهُمْ ، قال ابن عاشور : وَالْمَلَأُ: الْجَمَاعَةُ الَّذِينَ أَمْرُهُمْ وَاحِدٌ، وَهُوَ اسْمُ جَمْعٍ كَالْقَوْمِ وَالرَّهْطِ، وَكَأَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْمِلْءِ وَهُوَ تَعْمِيرُ الْوِعَاءِ بِالْمَاءِ وَنَحْوِهِ، ﴿إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ قَالَ عَطَاءٌ وَالضَّحَّاكُ: سَمَّتْهُ كَرِيمًا لأنه كان مختوما، وَقَالَ قَتَادَةُ وَمُقَاتِلٌ: كِتَابٌ كَرِيمٌ أي حسن، قال ابْنِ عَبَّاسٍ: كَرِيمٌ أَيْ شَرِيفٌ لِشَرَفِ صَاحِبِهِ، وَقِيلَ: سَمَّتْهُ كَرِيمًا لِأَنَّهُ كَانَ مُصَدَّرًا بِبِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، ثُمَّ بينت الْكِتَابُ. فَقَالَتْ: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ﴾ وَبَيَّنَتِ الْمَكْتُوبَ فَقَالَتْ:

[٣٠] : ﴿وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قال ابن كثير : وهذا الكتاب في غاية البلاغة والوَجازَةِ والفصاحة، فإنَّه حَصَّل المعنىٰ بأيسر عبارة وأحسنها، قال العلماء: ولم يكتب أحد ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قبل سليمان عليه السلام :

[٣١] : ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ لَا تَتَكَبَّرُوا عَلَيَّ. وَقِيلَ: لَا تَتَعَظَّمُوا ولا ترفعوا عليَّ ، وقيل: معناه لا تمتنعوا علي مِنَ الْإِجَابَةِ، فَإِنَّ تَرْكَ

الْإِجَابَةِ مِنَ الْعُلُوِّ وَالتَّكَبُّرِ، ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ مُؤْمِنِينَ طَائِعِينَ. وقال ابن أَسْلَمَ: لَا تَمْتَنِعُوا وَلَا تَتَكَبَّرُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مُوَحِّدِينَ، وَقِيلَ: هُوَ مِنَ الِاسْتِسْلَامِ ، وما أشد حكمة هذه المرأة مقارنة بملك الفرس عندما بَعَثَ له النبي صلىٰ الله عليه وسلم : عَبْدَ اللهِ بْنَ حُذَافَةَ السَّهْمِيَّ ، واسمه أبرويز بن هرمز فَمَزَّقَ كِتَابَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « **اللَّهُمَّ مَزِّقْ مُلْكَهُ**» فَمَزَّقَ اللهُ مُلْكَهُ وَمُلْكَ قَوْمِهِ[1].

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ أَشِيرُوا عَلَيَّ فِيمَا عَرَضَ لِي وَأَجِيبُونِي فِيمَا أُشَاوِرُكُمْ فِيهِ، ﴿مَا كُنْتُ قَاطِعَةً﴾ قَاضِيَةً وَفَاصِلَةً، ﴿أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ أي تحضرون. ﴿قَالُوا﴾ مُجِيبِينَ لَهَا، ﴿نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ﴾ فِي الْقِتَالِ ﴿وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ عِنْدَ الْحَرْبِ، قَالَ مُقَاتِلٌ: أَرَادُوا بِالْقُوَّةِ كَثْرَةَ الْعَدَدِ وَبِالْبَأْسِ الشَّدِيدِ الشَّجَاعَةَ، وَهَذَا تَعْرِيضٌ مِنْهُمْ بِالْقِتَالِ إِنْ أَمَرَتْهُمْ بِذَلِكَ ثُمَّ قَالُوا، ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ أَيَّتُهَا الْمَلِكَةُ فِي الْقِتَالِ وَتَرْكِهِ، ﴿فَانْظُرِي﴾ من الرأي، ﴿مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ تجدين لأمرك مطيعين.

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَتْ﴾ بِلْقِيسُ مُجِيبَةً لَهُمْ عَنِ التَّعْرِيضِ لِلْقِتَالِ، ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً﴾ بالقوة ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ خَرَّبُوهَا، ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ أَيْ أَهَانُوا أَشْرَافَهَا وَكُبَرَاءَهَا، كَيْ يَسْتَقِيمَ لَهُمُ الْأَمْرُ تُحَذِّرُهُمْ مَسِيرَ

---

(١) البخاري (٢٩٣٩) .

سُلَيْمَانَ إِلَيْهِمْ وَدُخُولَهُ بِلَادَهُمْ، وَتَنَاهَىٰ الْخَبَرُ عَنْهَا هَاهُنَا، فَصَدَّقَ اللهُ قولها فقال: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أَيْ كَمَا قَالَتْ هِيَ يَفْعَلُونَ. قال قتادة: رَحِمَها الله ورَضِيَ عنها، ما كان أعقَلَها في إسلامها وفي شِرْكِها! عَلِمَت أن الهدية تقع مَوقعًا من الناس ثُمَّ قَالَتْ:

[٣٥] : ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ﴾ وَالْهَدِيَّةُ هِيَ الْعَطِيَّةُ عَلَىٰ طَرِيقِ الْمُلَاطَفَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ بِلْقِيسَ كَانَتِ امْرَأَةً لَبِيبَةً قَدْ سِيسَتْ وَسَاسَتْ، فَقَالَتْ لِلْمَلَأِ مِنْ قَوْمِهَا: إِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ أَيْ إِلَىٰ سُلَيْمَانَ وَقَوْمِهِ بِهَدِيَّةٍ أُصَانِعُهُ بِهَا عَنْ مُلْكِي وَأَخْتَبِرُهُ بِهَا أَمَلِكٌ هُوَ أَمْ نَبِيٌّ؟ فَإِنْ يَكُنْ مَلِكًا قَبِلَ الْهَدِيَّةَ وَانْصَرَفَ، وَإِنْ كَانَ نَبِيًا لَمْ يَقْبَلِ الْهَدِيَّةَ وَلَمْ يُرْضِهِ مِنَّا إِلَّا أَنْ نَتَّبِعَهُ عَلَىٰ دِينِهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ فأهدت إليه، فَانْطَلَقَ الرَّسُولُ بِالْهَدَايَا، وَأَقْبَلَ الْهُدْهُدُ مُسْرِعًا إِلَىٰ سُلَيْمَانَ فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ كله، ثم رد سليمان الهدية، قال ابن عاشور : والتَّقْدِيرُ: مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ كِتَابًا وَوَفْدًا مَصْحُوبًا بِهَدِيَّةٍ إِذْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الْوَفْدُ مَصْحُوبًا بِكِتَابٍ تُجِيبُ بِهِ كِتَابَ سُلَيْمَانَ فَإِنَّ الْجَوَابَ عَنِ الْكِتَابِ عَادَةٌ قَدِيمَةٌ، وَهُوَ مَنْ سُنَنِ الْمُسْلِمِينَ، وَعُدَّ مِنْ حَقِّ الْمُسْلِمُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ.

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِ اللهُ﴾ أَعْطَانِيَ اللهُ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالدِّينِ والحكمة والملك، ﴿خَيْرٌ﴾ أَفْضَلُ، ﴿مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ لِأَنَّكُمْ أَهْلُ مُفَاخَرَةٍ فِي الدُّنْيَا وَمُكَاثَرَةٍ بِهَا تَفْرَحُونَ بِإِهْدَاءِ بَعْضِكُمْ إِلىٰ بعض، فَأَمَّا أَنَا فَلَا أَفْرَحُ بِهَا وَلَيْسَتِ الدُّنْيَا مِنْ حَاجَتِي لِأَنَّ

اللهَ تَعَالَىٰ قَدْ مَكَّنَنِي فِيهَا وَأَعْطَانِي مِنْهَا مَا لَمْ يُعْطِ أَحَدًا، وَمَعَ ذَلِكَ أَكْرَمَنِي بِالدِّينِ وَالنُّبُوَّةِ، ثُمَّ قَالَ لِلْمُنْذِرِ بْنِ عَمْرٍو وَأَمِيرِ الْوَفْدِ.

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ بِالْهَدِيَّةِ ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ﴾ أَيْ لَا طَاقَةَ لَهُمْ بقتالهم ﴿بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا﴾ أَيْ مِنْ أَرْضِهِمْ وَبِلَادِهِمْ وَهِيَ سبأ، ﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ ذَلِيلُونَ إِنْ لَمْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ، وَالصَّاغِرُ: الذَّلِيلُ، وَالْمُرَادُ: ذُلُّ الْهَزِيمَة والأسر، قَالَ وَهْبُ بن منبه: فَلَمَّا رَجَعَتْ رُسُلُ بِلْقِيسَ إِلَيْهَا مِنْ عِنْدِ سُلَيْمَانَ قَالَتْ: قَدْ عَرَفْتُ وَاللهِ مَا هَذَا بِمَلِكٍ وَمَا لَنَا بِهِ طَاقَةٌ، فَبَعَثَتْ إِلَىٰ سُلَيْمَانَ: إِنِّي قَادِمَةٌ عَلَيْكَ بِمُلُوكِ قَوْمِي حَتَّىٰ أَنْظُرَ مَا أَمْرُكَ وَمَا تدعو إليه من دينك فَأَقْبَلَ سُلَيْمَانُ حِينَئِذٍ عَلَىٰ جُنُودِهِ.

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أَيْ مُؤْمِنِينَ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: طَائِعِينَ، وَاخْتَلَفُوا فِي السَّبَبِ الَّذِي لِأَجْلِهِ أَمَرَ سُلَيْمَانُ بِإِحْضَارِ عَرْشِهَا، فَقَالَ أَكْثَرُهُمْ: لِأَنَّ سُلَيْمَانَ عَلِمَ أَنَّهَا إِنْ أَسْلَمَتْ يَحْرُمُ عَلَيْهِ مالها فأراد يَأْخُذَ سَرِيرَهَا قَبْلَ أَنْ يَحْرُمَ عَلَيْهِ أَخْذُهُ بِإِسْلَامِهَا، وَقِيلَ: لِيُرِيَهَا قدرة الله وَعِظَمَ سُلْطَانِهِ فِي مُعْجِزَةٍ يَأْتِي بِهَا فِي عَرْشِهَا .

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ وهو المارد القوي، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْعِفْرِيتُ الدَّاهِيَةُ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ : هُوَ الْخَبِيثُ، وَقَالَ الرَّبِيعُ: الْغَلِيظُ، قَالَ الْفَرَّاءُ: الْقَوِيُّ الشَّدِيدُ ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ أَيْ مِنْ مَجْلِسِكَ الَّذِي تَقْضِي فِيهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَكَانَ لَهُ كُلَّ صباح مَجْلِسٌ يَقْضِي

فيه إلىٰ منتصف النهار، ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ﴾ أَيْ عَلَىٰ حَمْلِهِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أي قوي علىٰ حمله ﴿أمين﴾ علىٰ مافيه مِنَ الْجَوْهَرِ، فَقَالَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أُرِيدُ أعجل من ذلك.

[٤٠] : ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾ وَقَالَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ: هُوَ آصَفُ ابن برخيا، وَكَانَ صَدِيقًا يَعْلَمُ اسْمَ اللهِ الْأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَىٰ، ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ قَالَ سُلَيْمَانُ: هَاتِ، قَالَ أَنْتَ النَّبِيُّ ابْنُ النَّبِيِّ، وَلَيْسَ أَحَدٌ أَوْجَهَ عِنْدَ اللهِ مِنْكَ فَإِنْ دَعَوْتَ اللهَ وَطَلَبْتَ إِلَيْهِ كَانَ عِنْدَكَ، فَقَالَ: صَدَقْتَ فَفَعَلَ ذَلِكَ فَجِيءَ بِالْعَرْشِ فِي الْوَقْتِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ. يَعْنِي مِنْ قَبْلِ أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْكَ أَقْصَىٰ مَنْ تَرَىٰ، وَهُوَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ مَنْ كَانَ مِنْكَ عَلَىٰ مَدِّ بَصَرِكَ. قَالَ قَتَادَةُ: قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكَ الشَّخْصُ مِنْ مَدِّ الْبَصَرِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي إِدَامَةَ النَّظَرِ حَتَّىٰ يَرْتَدَّ الطَّرْفُ خاسئا. قال وَهَبٌ: تَمُدُّ عَيْنَيْكَ فَلَا يَنْتَهِي طَرْفُكَ إِلَىٰ مَدَاهُ، حَتَّىٰ أُمَثِّلَهُ بين يديك ، ﴿فَلَمَّا رَآهُ﴾ يَعْنِي رَأَىٰ سُلَيْمَانُ الْعَرْشَ، ﴿مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ﴾ مَحْمُولًا إِلَيْهِ مِنْ مَأْرِبَ إِلَىٰ الشَّامِ فِي قَدْرِ ارْتِدَادِ الطَّرْفِ، ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ﴾ نعمه، ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ فَلَا أَشْكُرُهَا، ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ أَيْ يَعُودُ نَفْعُ شُكْرِهِ إِلَيْهِ وَهُوَ أَنْ يَسْتَوْجِبَ بِهِ تَمَامَ النِّعْمَةِ وَدَوَامَهَا، لِأَنَّ الشُّكْرَ قَيْدُ النِّعْمَةِ الْمَوْجُودَةِ وَصَيْدُ النِّعْمَةِ الْمَفْقُودَةِ، ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ عن شكره ﴿كَرِيمٌ﴾ بأفضال علىٰ من يكفر نعمه.

[٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ يَقُولُ: غَيِّرُوا سَرِيرَهَا إِلَىٰ حَالٍ تُنْكِرُهُ إِذَا رَأَتْهُ، قَالَ قَتَادَةُ وَمُقَاتِلٌ: هُوَ أَنْ يُزَادَ فِيهِ وينقص منه، وَرُوِيَ أَنَّهُ جَعَلَ أَسْفَلَهُ أَعْلَاهُ وَأَعْلَاهُ أَسْفَلَهُ، وَجَعَلَ مَكَانَ الْجَوْهَرِ الْأَحْمَرِ أَخْضَرَ وَمَكَانَ الْأَخْضَرِ أَحْمَرَ، ﴿نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي﴾ إِلَىٰ عَرْشِهَا فَتَعْرِفُهُ، ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ﴾ الجاهلين، ﴿الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إليه، قال وهب: أي أتعقل، أم تكون من الذين لا يعقلون. ففعل ذلك لينظر أتعرفه، أو لا تعرفه.

[٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ﴾ لها ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ: عَرَفَتْهُ لَكِنَّهَا شَبَّهَتْ عَلَيْهِمْ كَمَا شَبَّهُوا عَلَيْهَا. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: كَانَتْ حَكِيمَةً لَمْ تَقُلْ نَعَمْ خَوْفًا مِنْ أَنْ تَكْذِبَ، وَلَمْ تَقُلْ لَا خَوْفًا مِنَ التَّكْذِيبِ، قَالَتْ: كَأَنَّهُ هُوَ فَعَرَفَ سُلَيْمَانُ كَمَالَ عَقْلِهَا حَيْثُ لَمْ تُقِرَّ وَلَمْ تُنْكِرْ وَقِيلَ: اشْتَبَهَ عَلَيْهَا أَمْرُ الْعَرْشِ لِأَنَّهَا تَرَكَتْهُ فِي بَيْتٍ خَلْفَ سَبْعَةِ أَبْوَابٍ مغلقة والمفاتيح معها، قيل لَهَا فَإِنَّهُ عَرْشُكِ فَمَا أَغْنَىٰ عنك إغلاق الأبواب، فقالت: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ﴾ بِصِحَّةِ نُبُوَّةِ سُلَيْمَانَ بِالْآيَاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ مِنْ أَمْرِ الْهَدِيَّةِ وَالرُّسُلِ، ﴿مِنْ قَبْلِهَا﴾ مِنْ قَبْلِ الْآيَةِ فِي الْعَرْشِ ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ مُنْقَادِينَ طَائِعِينَ لِأَمْرِ سُلَيْمَانَ، وَقِيلَ: قَوْلُهُ: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا﴾ قَالَهُ سُلَيْمَانُ، يَقُولُ: وَأُوتِينَا الْعِلْمَ بِاللهِ وَبِقُدْرَتِهِ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ الْمَرْأَةِ، وَكُنَّا مُسْلِمِينَ، هَذَا قَوْلُ مُجَاهِدٍ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ بِإِسْلَامِهَا وَمَجِيئِهَا طَائِعَةً مِنْ قَبْلِ مَجِيئِهَا وَكُنَّا مسلمين طائعين لله.

[٤٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أَيْ مَنَعَهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ وَهُوَ الشَّمْسُ أَنْ تُعْبَدَ اللهَ، أَيْ صَدَّهَا عِبَادَةُ الشَّمْسِ عَنِ التَّوْحِيدِ وَعِبَادَةِ اللهِ، وَقِيلَ: معناه ما صدها عن عبادة الله نُقْصَانُ عَقْلِهَا كَمَا قَالَتِ الْجِنُّ: إِنَّ فِي عَقْلِهَا شَيْئًا بَلْ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ. ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ هَذَا اسْتِئْنَافٌ أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَىٰ أَنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ يَعْبُدُونَ الشَّمْسَ، فَنَشَأَتْ بَيْنَهُمْ وَلَمْ تَعْرِفْ إلا عبادة الشمس.

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ أي القصر أو صحن الدار، ليريها مُلْكًا هو أعزّ من مُلكها، وسلطانًا هو أعظم من سلطانها، فأَمَرَ الشَّيَاطِينَ فَبَنَوْا لَهُ صَرْحًا أَيْ قَصْرًا مِنْ زُجَاجٍ، وَقِيلَ: بَيْتًا مِنْ زُجَاجٍ كَأَنَّهُ الْمَاءُ بَيَاضًا وَقِيلَ: الصَّرْحُ صَحْنُ الدَّارِ وأجرىٰ تحته الماء فَكَانَ الْوَاحِدُ إِذَا رَآهُ ظَنَّهُ مَاءً. وَقِيلَ: إِنَّمَا بَنَىٰ الصَّرْحَ ليختبر عقلها وفهمها، فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الصَّرْحَ، ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ أي ماء عظيمًا ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ لِتَخُوضَهُ إِلَىٰ سُلَيْمَانَ فَنَظَرَ سُلَيْمَانُ فَإِذَا هِيَ أَحْسَنُ النَّاسِ قَدَمًا وَسَاقًا إِلَّا أَنَّهَا كَانَتْ شَعْرَاءَ السَّاقَيْنِ، فَلَمَّا رَأَىٰ سُلَيْمَانُ ذَلِكَ ﴿قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ [النمل: ٤٤] مملس مستو ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ أي من الزجاج. وَلَيْسَ بِمَاءٍ، ولهذا قال النبي - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لأنجشة حاديه (الذي يقود الأبل): «**يا أنجشة، رويدك، رفقًا**

بالقوارير»(١) فشبه النساء بِالْقَوَارِيرِ لضعفهن ، ثُمَّ إِنَّ سُلَيْمَانَ دَعَاهَا إِلَىٰ الْإِسْلَامِ وَكَانَتْ قَدْ رَأَتْ حَالَ الْعَرْشِ وَالصَّرْحِ فَأَجَابَتْ، ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بِالْكُفْرِ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: لَمَّا رَأَتِ السَّرِيرَ وَالصَّرْحَ عَلِمَتْ أَنَّ مُلْكَ سُلَيْمَانَ مِنَ اللهِ فَقَالَتْ: رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي بِعِبَادَةِ غَيْرِكَ، وَقَالَ سُفْيَانُ: أَيْ بِالظَّنِّ الَّذِي تَوَهَّمَتْهُ فِي سُلَيْمَانَ، لِأَنَّهَا لَمَّا أُمِرَتْ بِدُخُولِ الصَّرْحِ حَسِبَتْهُ لُجَّةً، وَأَنَّ سُلَيْمَانَ يُرِيدُ تَغْرِيقَهَا فِيهِ. فَلَمَّا بَانَ لَهَا أَنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ عَلِمَتْ أَنَّهَا ظَلَمَتْ نَفْسَهَا بِذَلِكَ الظَّنِّ. ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيْ أَخْلَصْتُ لَهُ التَّوْحِيدَ، وَقِيلَ: إنها لما بلغت الصرح فظنته لُجَّةً، قَالَتْ فِي نَفْسِهَا إِنَّ سُلَيْمَانَ يُرِيدُ أَنْ يُغْرِقَنِي، وَكَانَ الْقَتْلُ عَلَيَّ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا فقولها: ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ تعني بذلك الظن.

[٤٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ ثَمُودَ وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهَا مَعَ نَبِيِّهَا (صَالِحٍ) عَلَيْهِ السَّلَامُ، حِينَ بَعَثَهُ اللهُ إِلَيْهِمْ فَدَعَاهُمْ فقال ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ قال السعدي : أمرهم أن يعبدوا الله وحده ويتركوا الأنداد والأوثان ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ﴾ مؤمن وكافر، وَالْفَرِيقَانِ هُمَا: فَرِيقُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا، وَفَرِيقُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا وَفِيهِمْ صَالِحٌ ، ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ فِي الدِّينِ، قَالَ مُقَاتِلٌ وَاخْتِصَامُهُمْ مَا ذُكِرَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ

---

(١) البخاري (٦١٤٩) ومسلم (٢٣٢٣) .

اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: ٧٥] إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وَقِيلَ: تَخَاصُمُهُمْ أَنَّ كُلَّ فِرْقَةٍ قَالَتْ: نَحْنُ عَلَىٰ الْحَقِّ دُونَكُمْ.

[٤٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ صَالِحٌ، ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ بالبلاء والعقوبة، ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ العافية والرحمة، ﴿لَوْلَا﴾ هلا ﴿تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾ بِالتَّوْبَةِ مِنْ كُفْرِكُمْ، قال الطبري: هلا تتوبون إلىٰ الله من كفركم، فيغفر لكم ربكم عظيم جرمكم، يصفح لكم عن عقوبته إياكم علىٰ ما قد أتيتم من عظيم الخطيئة) ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لِكَيْ تُرْحَمُوا.

[٤٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا﴾ أَيْ تَشَاءَمْنَا، وَأَصْلُهُ تَطَيَّرْنَا، ﴿بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ قيل: وإنما قَالُوا ذَلِكَ لِتَفَرُّقِ كَلِمَتِهِمْ. وَقِيلَ: لِأَنَّهُ أَمْسَكَ عَنْهُمُ الْمَطَرَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ وَقُحِطُوا فَقَالُوا: أَصَابَنَا هَذَا الضُّرُّ وَالشِّدَّةُ مِنْ شُؤْمِكَ وَشُؤْمِ أَصْحَابِكَ، وَمَعْنَىٰ التَّطَيُّرِ: التَّشَاؤُمُ ، أُطْلِقَ عَلَيْهِ التَّطَيُّرُ لِأَنَّ أَكْثَرَهُ يَنْشَأُ مِنَ الِاسْتِدْلَالِ بِحَرَكَاتِ الطَّيْرِ مِنْ سَانِحٍ وَبَارِحٍ، وَقَدْ كَانَتِ الْعَرَبُ أَكْثَرَ النَّاسِ طِيَرَةً، وَكَانَتْ إِذَا أَرَادَتْ سَفَرًا نَفَّرَتْ طَائِرًا، فَإِذَا طَارَ يَمْنَةً سَارَتْ وَتَيَمَّنَتْ، وَإِنْ طَارَ شِمَالًا رَجَعَتْ وَتَشَاءَمَتْ، فَنَهَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ ، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ مِنْ حَاجَةٍ، فَقَدْ أَشْرَكَ** ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: **أَنْ يَقُولَ**

أَحَدُهُمْ: اللهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ»[1]، قوله: ﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ﴾ أَيْ مَا يُصِيبُكُمْ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ عِنْدَ اللهِ بِأَمْرِهِ وَهُوَ مَكْتُوبٌ عَلَيْكُمْ، سُمِّيَ طَائِرًا لِسُرْعَةِ نُزُولِهِ بِالْإِنْسَانِ فَإِنَّهُ لَا شَيْءَ أَسْرَعُ مِنْ قَضَاءٍ مَحْتُومٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الشُّؤْمُ أَتَاكُمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ لِكُفْرِكُمْ. وَقِيلَ: طَائِرُكُمْ أَيْ عَمَلُكُمْ عِنْدَ اللهِ، سُمِّيَ طَائِرًا لِسُرْعَةِ صُعُودِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ. ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تُخْتَبَرُونَ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ، مثل قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ: تُعَذَّبُونَ، وقيل: تعذبون بذنوبكم.

[٤٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ يَعْنِي مَدِينَةَ ثَمُودَ وَهِيَ الْحِجْرُ، وَهِيَ بَيْنَ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ وَتَبُوكَ فِي طَرِيقِ الشَّامِ وَقَدْ مَرَّ بِهَا النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُسْلِمُونَ فِي مَسِيرِهِمْ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ وَرَأَوْا فِيهَا آبَارًا نَهَاهُمُ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الشُّرْبِ وَالْوُضُوءِ مِنْهَا إِلَّا بِئْرًا وَاحِدَةً أَمَرَهُمْ بِالشُّرْبِ وَالْوُضُوءِ بِهَا وَقَالَ: «**إِنَّهَا الْبِئْرُ الَّتِي كَانَتْ تَشْرَبُ مِنْهَا نَاقَةُ صَالِحٍ**»[2]، قوله: ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ مِنْ أَبْنَاءِ أَشْرَافِهِمْ، وَالرَّهْطُ: الْعَدَدُ مِنَ النَّاسِ حَوَالَيِ الْعَشَرَةِ وَهُوَ مِثْلُ النَّفَرِ، ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ وَهُمُ الَّذِينَ اتَّفَقُوا عَلَىٰ عَقْرِ النَّاقَةِ وَهُمْ غُوَاةُ قَوْمِ صَالِحٍ كَانُوا يَعْمَلُونَ بالمعاصي، وَقِيلَ: فَسَادُهُمْ أَنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ عَوْرَاتِ النَّاسِ وَلَا يَسْتُرُونَ عَلَيْهِمْ. ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ﴾

---

(١) أحمد (٧٠٤٥).

(٢) مسلم (٢٩٨١).

تحالفوا، وَتَبَايَعُوا عَلَىٰ قَتْلِ نَبِيِّ اللهِ (صَالِحٍ) عَلَيْهِ السَّلَامُ مَنْ لَقِيَهُ لَيْلًا غدراً ، يقول بعضهم لبعض: احْلِفُوا بِاللهِ أَيُّهَا الْقَوْمُ، وَمَوْضِعُ تَقَاسَمُوا جُزِمَ عَلَىٰ الْأَمْرِ، وَقَالَ قَوْمٌ: مَحَلُّهُ نَصْبٌ عَلَىٰ الْفِعْلِ الْمَاضِي، يَعْنِي أَنَّهُمْ تَحَالَفُوا وَتَوَاثَقُوا، تَقْدِيرُهُ: قَالُوا مُتَقَاسِمِينَ بِاللهِ، قال القاسمي : أي ليحلف كل واحد منكم علىٰ موافقة الآخرين، بالله الذي هو أعظم المعبودين ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾ أَيْ: لِنَقْتُلَنَّهُ بَيَاتًا أَيْ لَيْلًا، ﴿وَأَهْلَهُ﴾ أي قومه الَّذِينَ أَسْلَمُوا مَعَهُ، ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ﴾ أَيْ لِوَلِيِّ دَمِهِ، ﴿مَا شَهِدْنَا﴾ ما حضرنا، ﴿مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ أَيْ إِهْلَاكَهُمْ، وَلَا نَدْرِي مَنْ قَتَلَهُ، وَمَنْ فَتَحَ الْمِيمَ فَمَعْنَاهُ هلاك أهله، ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فِي قَوْلِنَا مَا شَهِدْنَا ذَلِكَ. قال ابن كثير: فَكَادَهُمُ اللهُ وَجَعَلَ الدَّائِرَةَ عَلَيْهِمْ، قَالَ مُجَاهِدٌ: تَقَاسَمُوا وَتَحَالَفُوا عَلَىٰ هَلَاكِهِ فَلَمْ يَصِلُوا إِلَيْهِ حَتَّىٰ هَلَكُوا وقومهم أَجْمَعِينَ، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: قَالَ هَؤُلَاءِ التِّسْعَةُ، بَعْدَمَا عَقَرُوا النَّاقَةَ هَلُمَّ فَلْنَقْتُلْ صَالِحًا، فَإِنْ كَانَ صَادِقًا عَجَّلْنَاهُ قَبْلَنَا، وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا كُنَّا قَدْ أَلْحَقْنَاهُ بِنَاقَتِهِ، فَأَتَوْهُ لَيْلًا لِيُبَيِّتُوهُ فِي أَهْلِهِ فَدَمَغَتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ بِالْحِجَارَةِ، فَلَمَّا أبطأوا عَلَىٰ أَصْحَابِهِمْ أَتَوْا مَنْزِلَ صَالِحٍ فَوَجَدُوهُمْ مُنْشَدِخِينَ وقد رُضِخُوا بِالْحِجَارَةِ، فَقَالُوا لِصَالِحٍ أَنْتَ قَتَلْتَهُمْ ثُمَّ هَمُّوا بِهِ، فَقَامَتْ عَشِيرَتُهُ دُونَهُ وَلَبِسُوا السِّلَاحَ، وَقَالُوا لَهُمْ: وَاللهِ لَا تَقْتُلُونَهُ أَبَدًا وَقَدْ وَعَدَكُمْ أَنَّ الْعَذَابَ نَازِلٌ بِكُمْ فِي ثَلَاثٍ، فَإِنْ كَانَ صَادِقًا فَلَا تَزِيدُوا رَبَّكُمْ عَلَيْكُمْ غَضَبًا، وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَأَنْتُمْ مِنْ وَرَاءِ مَا تُرِيدُونَ، فَانْصَرَفُوا عَنْهُمْ لَيْلَتَهُمْ تِلْكَ. وَقَالَ ابن أبي حاتم: لما عقروا الناقة قال لَهُمْ صَالِحٌ: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ

ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مكذوب﴾ قَالُوا: زَعَمَ صَالِحٌ أَنَّهُ يُفْرُغُ مِنَّا إِلَىٰ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فَنَحْنُ نَفْرُغُ مِنْهُ وَأَهْلِهِ قَبْلَ ثَلَاثٍ، وَكَانَ لِصَالِحٍ مَسْجِدٌ فِي الْحِجْرِ عِنْدَ شِعْبٍ هُنَاكَ يُصَلِّي فِيهِ، فَخَرَجُوا إِلَىٰ كَهْفٍ أَيْ غَارٍ هُنَاكَ لَيْلًا فَقَالُوا: إِذَا جَاءَ يُصَلِّي قَتَلْنَاهُ ثُمَّ رَجَعْنَا إِذَا فَرَغْنَا مِنْهُ إِلىٰ أهله، ففرغنا منهم، فبعث الله عليهم صَخْرَةً مِنَ الْهَضَبِ حِيَالَهُمْ، فَخَشُوا أَنْ تَشْدَخَهُمْ فتَبَادَرُوا فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمُ الصَّخْرَةُ وَهُمْ فِي ذَلِكَ الْغَارِ، فَلَا يَدْرِي قَوْمُهُمْ أَيْنَ هُمْ، وَلَا يَدْرُونَ مَا فُعِلَ بِقَوْمِهِمْ: فَعَذَّبَ اللهُ هَؤُلَاءِ ههنا وهؤلاء ههنا وَأَنْجَىٰ اللهُ صَالِحًا وَمَنْ مَعَهُ ثم قرأ :

[٥٠] : ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا﴾ غَدَرُوا غَدْرًا حِينَ قَصَدُوا تَبْيِيتَ صَالِحٍ وَالْفَتْكَ بِهِ، ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ جَزَيْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكْرِهِمْ بِتَعْجِيلِ عُقُوبَتِهِمْ، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بمكرنا وشَعَرْنا بمكرهم .

[٥١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ الخطاب للنبي صلىٰ الله عليه وسلم ﴿ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ أَيْ أَهْلَكْنَاهُمُ التِّسْعَةَ ، وَالتَّدْمِيرُ: الْإِهْلَاكُ الشَّدِيدُ، وَاخْتَلَفُوا فِي كَيْفِيَّةِ هَلَاكِهِمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَرْسَلَ اللهُ الْمَلَائِكَةَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ إِلَىٰ دَارِ صَالِحٍ يَحْرُسُونَهُ فَأَتَىٰ التِّسْعَةُ دَارَ صَالِحٍ شَاهِرِينَ سُيُوفَهُمْ فَرَمَتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ بالحجارة من حيث يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ، فَقَتَلَهُمْ. قَالَ مُقَاتِلٌ: نزل فِي سَفْحِ جَبَلٍ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا لِيَأْتُوا دَارَ صَالِحٍ، فَجَثَمَ عَلَيْهِمُ الْجَبَلُ فَأَهْلَكَهُمْ، ﴿وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أَهْلَكَهُمُ اللهُ بِالصَّيْحَةِ، قال

القرطبي : وَالْأَظْهَرُ أَنَّ التِّسْعَةَ هَلَكُوا بِعَذَابٍ مُفْرَدٍ، ثُمَّ هَلَكَ الْبَاقُونَ بِالصَّيْحَةِ وَالدَّمْدَمَةِ.

[٥٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾ أَيْ خَالِيَةً، عَنْ أَهْلِهَا خَرَابًا لَيْسَ بِهَا سَاكِنٌ، قَدْ أَبَادَهُمُ اللهُ فَلَا أَثَرَ لَهُمْ، وَكَانَ ذَلِكَ بِظُلْمِهِمْ أَنْفُسَهُمْ: بِشِرْكِهِمْ بِاللهِ وَتَكْذِيبِ الرُّسُلِ، قَالَ النَّسَفِيُّ: سَاقِطَةٌ مُنْهَدِمَةٌ، مِنْ (خَوَىٰ النَّجْمُ) إِذَا سَقَطَ، أَوْ خَالِيَةٌ مِنَ الْخَوَاءِ، وَهِيَ حَالٌ عَمِلَ فِيهَا مَا دَلَّ عَلَيْهِ (تِلْكَ) ، قوله : ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ أَيْ بِظُلْمِهِمْ وَكُفْرِهِمْ، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ لعبرة، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قُدْرَتَنَا. أي: إن بفعلنا ذلك بثمود لآية لقوم يعلمون قدرتنا فيتَّعِظون وينزجرون.

[٥١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ والمقصود هنا: وأنجينا صالحًا والذين آمنوا معه وكانوا من المتقين.

[٥٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ وَهِيَ الْفِعْلَةُ الْقَبِيحَةُ، ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أَيْ تَعْلَمُونَ أَنَّهَا فَاحِشَةٌ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ يَرَىٰ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَكَانُوا لَا يَسْتَتِرُونَ عُتُوًّا مِنْهُمْ.

[٥٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ أعاد ذكرها لفرط قبحها وشنعتها ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ متجاوزون لحدود الله متجرئون علىٰ محارمه، وقد جاءت هذه الآية الكريمة بعد قوله تعالىٰ : ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ :

[٥٦] : ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ: مِنْ إِتْيَانِ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ فِي أَدْبَارِهِنَّ. وَقَالَ قَتَادَةُ: عَابُوهُمْ وَاللهِ بِغَيْرِ عَيْبٍ بِأَنَّهُمْ يَتَطَهَّرُونَ مِنْ أَعْمَالِ السُّوءِ، وَالْمَعْنَىٰ: فَلَمْ يَكُنْ مِنْ قَوْمِ لُوطٍ حِينَ دُعُوا إِلَىٰ التَّطَهُّرِ مِنْ تِلْكَ الْقَذَارَةِ إِلَّا أَنْ حَمَلُوا عَلَىٰ لُوطٍ وَالْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ وَطَلَبُوا إِخْرَاجَهُمْ مِنَ الْقَرْيَةِ لِمُخَالَفَتِهِمْ لَهُمْ فَعْلَتَهُمُ الدَّنِيئَةَ وَتَرَفُّعِهِمْ عَنْ رِجْسِ مَا هُمْ عَلَيْهِ.

[٥٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا﴾ قَضَيْنَا عَلَيْهَا وَجَعَلْنَاهَا بِتَقْدِيرِنَا، ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أَيِ الْبَاقِينَ فِي الْعَذَابِ، غَبَرَ الشَّيْءُ إِذَا مَضَىٰ، وَغَبَرَ إِذَا بَقِيَ. وَهُوَ مِنَ الْأَضْدَادِ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: ﴿مِنَ الْغابِرِينَ﴾ أَيْ مِنَ الْغَائِبِينَ عَنِ النَّجَاةِ وَقِيلَ: لِطُولِ عُمْرِهَا، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيْ: مِنَ الْهَالِكِينَ مَعَ قَوْمِهَا، لِأَنَّهَا كَانَتْ رِدْءًا لَهُمْ عَلَىٰ دِينِهِمْ، وَعَلَىٰ طَرِيقَتِهِمْ فِي رِضَاهَا بِأَفْعَالِهِمُ الْقَبِيحَةِ، فَكَانَتْ تَدُلُّ قَوْمَهَا عَلَىٰ ضِيفَانِ لُوطٍ، لِيَأْتُوا إِلَيْهِمْ، لَا أَنَّهَا كَانَتْ تَفْعَلُ الْفَاحِشَةَ، تَكْرِمَةً لِنَبِيِّ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا كَرَامَةَ لَهَا.

[٥٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ أي: حجارة من سجيل ﴿فَسَاءَ﴾ فبئس، ﴿مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أي: فساء مطر من أُنذر فلم يقبل الإنذار، وأصرّ علىٰ ركوب الفواحش والآثام ، قال القرطبي : سَرَىٰ لُوطٌ بِأَهْلِهِ كَمَا وَصَفَ اللهُ ﴿بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ ثُمَّ أُمِرَ جِبْرِيلُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَأَدْخَلَ جَنَاحَهُ تَحْتَ مَدَائِنِهِمْ فَاقْتَلَعَهَا وَرَفَعَهَا حَتَّىٰ سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ صِيَاحَ الدِّيَكَةِ وَنُبَاحَ

الْكِلَابِ، ثُمَّ جَعَلَ عَالِيَهَا سَافِلَهَا، وَأُمْطِرَتْ عَلَيْهِمْ حِجَارَةٌ مِنْ سِجِّيلٍ، قِيلَ: عَلَىٰ مَنْ غَابَ مِنْهُمْ، وَأَدْرَكَ امْرَأَةَ لُوطٍ، وَكَانَتْ مَعَهُ حَجَرٌ فَقَتَلَهَا.

[٥٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هَذَا خِطَابٌ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمِرَ أَنْ يَحْمَدَ اللهَ عَلَىٰ هَلَاكِ كُفَّارِ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ، وَقِيلَ: عَلَىٰ جَمِيعِ نِعَمِهِ، ﴿وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ: هُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالْمُرْسَلُونَ، دَلِيلُهُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَسَلَامٌ عَلَىٰ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨١] وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ هُمْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَقِيلَ: هُمُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ السَّابِقِينَ واللاحقين، قال ابن كثير: وَلَا مُنَافَاةَ فَإِنَّهُمْ إِذَا كَانُوا مِنْ عِبَادِ اللهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ فَالْأَنْبِيَاءُ بِطَرِيقِ الْأَوْلَىٰ وَالْأَحْرَىٰ، وَالْقَصْدُ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَمَرَ رَسُولَهُ وَمَنِ اتبعه أَنْ يَحْمَدُوهُ عَلَىٰ جَمِيعِ أَفْعَالِهِ، وَأَنْ يُسَلِّمُوا علىٰ عباده المصطفين الأخيار، ﴿آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يَقُولُ: آللهُ خَيْرٌ لِمَنْ عَبَدَهُ أم الأصنام خير لِمَنْ عَبَدَهَا وَالْمَعْنَىٰ: آللهُ خَيْرٌ أَمْ مَا تُشْرِكُونَ، أَيْ أَثَوَابُهُ خَيْرٌ أَمْ عِقَابُ مَا تُشْرِكُونَ. وَقِيلَ: قَالَ لَهُمْ ذَلِكَ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ فِي عِبَادَةِ الأصنام خير فَخَاطَبَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ اعْتِقَادِهِمْ.

[٦٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ مَعْنَاهُ آلِهَتُكُمْ خَيْرٌ أَمِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَفِيهِ مَعْنَىٰ التَّوْبِيخِ لَهُمْ، وَالتَّنْبِيهِ عَلَىٰ قُدْرَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَجْزِ آلِهَتِهِمْ، ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يَعْنِي الْمَطَرَ، ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ﴾ بَسَاتِينَ جَمْعُ حَدِيقَةٍ، قَالَ الْفَرَّاءُ: الْحَدِيقَةُ الْبُسْتَانُ الْمُحَاطُ عَلَيْهِ، فَإِنْ

لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ حَائِطٌ فَلَيْسَ بحديقة، ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أَيْ مَنْظَرٍ حَسَنٍ وَالْبَهْجَةُ: الْحُسْنُ يَبْتَهِجُ بِهِ مَنْ يَرَاهُ، قَالَ الْفَرَّاءُ: الْحَدِيقَةُ الْبُسْتَانُ الْمُحْظَرُ عَلَيْهِ حَائِطٌ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ حَائِطٌ فَهُوَ الْبُسْتَانُ وَلَيْسَ بِحَدِيقَةٍ، وَقَالَ قَتَادَةُ وَعِكْرِمَةُ: الْحَدَائِقُ النَّخْلُ ذَاتُ بَهْجَةٍ، وَالْبَهْجَةُ الزِّينَةُ وَالْحُسْنُ، يُبْهَجُ بِهِ مَنْ رَآهُ. ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ أَيْ مَا كَانَ لِلْبَشَرِ، وَلَا يتهيأ لهم تَحْتَ قُدْرَتِهِمْ، أَنْ يُنْبِتُوا شَجَرَهَا، لِأَنَّهم لَا يقْدِرُونَ عَلَيْهَا، وَيُعَضِّدُهُ قَوْلُهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَمَنْ أَظْلَمَ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ خَلْقًا كَخَلْقِي فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً** »(١) ، ﴿أَإِلَٰهٌ مَعَ اللهِ﴾ اسْتِفْهَامٌ عَلَىٰ طَرِيقِ الْإِنْكَارِ أَيْ هل معه معبود سواه يعينه عَلَىٰ صُنْعِهِ بَلْ لَيْسَ مَعَهُ إله، ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ﴾ يعني كفار مكة، ﴿يَعْدِلُونَ﴾ يُشْرِكُونَ، وَقِيلَ: ﴿ يَعْدِلُونَ﴾ عَنِ الْحَقِّ وَالْقَصْدِ إِلىٰ الكفر والضلال.

[٦١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ لَا تَمِيدُ بِأَهْلِهَا، وَالْقَرَارُ: مَصْدَرُ قَرَّ، إِذَا ثَبَتَ وَسَكَنَ ، وَوَصَفَ الْأَرْض بِهِ لِلْمُبَالَغَة، أَيْ ذَاتُ قَرَارٍ، ﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا﴾ وسطها ﴿أَنْهَارًا﴾ تَطْرُدُ بِالْمِيَاهِ، ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ جِبَالًا ثَوَابِتَ، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ﴾ العذب والمالح، ﴿حَاجِزًا﴾ مَانِعًا لِئَلَّا يَخْتَلِطَ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ، وَالْحَجْزُ الْمَنْعُ، ﴿أَإِلَٰهٌ مَعَ اللهِ﴾ أَيْ إِذَا ثَبَتَ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ

---

(١) البخاري (٧٥٥٩) ومسلم (٢١١١) .

هَذَا غَيْرُهُ فَلِمَ يَعْبُدُونَ مَا لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يَعْنِي كَأَنَّهُمْ يَجْهَلُونَ اللهَ فَلَا يَعْلَمُونَ مَا يجب له من الوحدانية.

[٦٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ﴾ الْمَكْرُوبَ الْمَجْهُودَ، ﴿إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ الضُّرَّ، قَالَ الرَّاغِبُ الْأَصْفَهَانِيُّ: الضُّرُّ: سُوءُ الْحَالِ، إِمَّا فِي نَفْسٍ؛ لِقِلَّةِ الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ وَالْعِفَّةِ، وَإِمَّا فِي بَدَنِهِ؛ لِعَدَمِ جَارِحَةٍ وَنَقْصٍ، وَإِمَّا فِي حَالَةٍ ظَاهِرَةٍ مِنْ قِلَّةِ مَالٍ وَجَاهٍ، قال سهل ابن عَبْدِ اللهِ: هُوَ الَّذِي إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَىٰ اللهِ دَاعِيًا لَمْ يَكُنْ لَهُ وَسِيلَةٌ مِنْ طَاعَةٍ قَدَّمَهَا، وَجَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ مَالِكِ بن دينار فقال: أنا أسألك با لله أَنْ تَدْعُوَ لِي فَأَنَا مُضْطَرٌّ، قَالَ: إِذًا فَاسْأَلْهُ فَإِنَّهُ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ. وفي الحديث قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي دُعَاءِ الْمُضْطَرِ: «**اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلَا تَكِلْنِي إِلَىٰ نَفْسِي طَرَفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»(١)، ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ أَيْ سُكَّانَهَا يُهْلِكُ قَوْمًا وَيُنْشِئُ آخَرِينَ. وَفِي كِتَابِ النَّقَّاشِ: أَيْ وَيَجْعَلُ أَوْلَادَكُمْ خَلَفًا مِنْكُمْ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: خَلَفًا مِنَ الْكُفَّارِ يَنْزِلُونَ أَرْضَهُمْ، وَطَاعَةَ اللهِ بَعْدَ كُفْرِهِمْ. ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ﴾ عَلَىٰ جِهَةِ التَّوْبِيخِ، كَأَنَّهُ قَالَ أَمَعَ اللهِ وَيْلَكُمْ إِلَهٌ، قال ابن كثير: أَيْ يَقْدِرُ علىٰ ذلك، أو أإله مَّعَ الله بعد هذا! وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْمُتَفَرِّدُ بِفِعْلِ ذلك وحده لا

---

(١) أبو داود (٥٠٩٠) وأحمد (٢٠٤٣٠).

شريك له؟ ﴿قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أَيْ مَا أَقَلَّ تَذَكُّرَهُمْ فِيمَا يُرْشِدُهُمْ إِلَىٰ الْحَقِّ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ الصِّرَاطِ المستقيم.

[٦٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ إِذَا سَافَرْتُمْ، ﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أَيْ قُدَّامَ الْمَطَرِ، قال القاسمي: والرياح أنواع: نوع يثير السحاب، ونوع يحمله، ونوع يسوقه، ونوع يبشر بين يديه، ونوع يقمّ الأرض قبل ذلك، ونوع يلقح السحاب ليمطر بإذن الله. قال ابن عاشور: فَاللهُ الْهَادِي لِلسَّيْرِ فِي تِلْكَ الظُّلُمَاتِ بِأَنْ خَلَقَ النُّجُومَ عَلَىٰ نِظَامٍ صَالِحٍ لِلْهِدَايَةِ فِي ذَلِكَ، وَبِأَنْ رَكَّبَ فِي النَّاسِ مَدَارِكَ لِلْمَعْرِفَةِ بِإِرْصَادِ سَيْرِهَا وَصُعُودِهَا وَهُبُوطِهَا، وَهَدَاهُمْ أَيْضًا بِمَهَابِّ الرِّيَاحِ، وَخَوَّلَهُمْ مَعْرِفَةَ اخْتِلَافِهَا بِإِحْسَاسِ جَفَافِهَا وَرُطُوبَتِهَا، وَحَرَارَتِهَا وَبَرْدِهَا، ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ﴾ فعل ذلك؟ أم هو وحده الذي انفرد به؟ فلم أشركتم معه غيره وعبدتم سواه؟ ﴿تَعَالَىٰ اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تعاظم وتنزه وتقدس عن شركهم وتسويتهم به غيره.

[٦٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ بَعْدَ الْمَوْتِ، قال القرطبي: كَانُوا يُقِرُّونَ أَنَّهُ الْخَالِقُ الرازق فألزمهم الإعادة، أي إذا قدر الِابْتِدَاءِ فَمِنْ ضَرُورَتِهِ الْقُدْرَةُ عَلَىٰ الْإِعَادَةِ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ، ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ مِنَ السَّمَاءِ الْمَطَرَ وَمِنَ الْأَرْضِ النَّبَاتَ، ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ حُجَّتَكُمْ عَلَىٰ قَوْلِكُمْ أَنَّ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ، وَالْبُرْهَانُ: الْحُجَّةُ، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم وزعمكم، وهو تحدّ للمشركين، وقد عُلِمَ أنهم

فارغون من الدليل والحجة، وما لهم إلا اتباع سبيل الآباء وتعظيم أعراف الجاهلية.

[٦٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ﴾ نَزَلَتْ فِي الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ سَأَلُوا النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ وَقْتِ قِيَامِ السَّاعَةِ، وقيل إن الله تعالىٰ: أَخْفَىٰ غَيْبَهُ عَلَىٰ الْخَلْقِ، وَلَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ أَحَدٌ لِئَلَّا يَأْمَنَ أَحَدٌ مِنْ عَبِيدِهِ مَكْرَهُ، وَقَالَتْ عَائِشَةُ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَىٰ اللهِ الْفِرْيَةَ، وَاللهُ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ﴾، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ﴾ أي: وما يدرون ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: متىٰ البعث والنشور والقيام من القبور أي: فلذلك لم يستعدوا.

[٦٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ﴾ يعني تَدَارَكَ وَتَتَابَعَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَتَلَاحَقَ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ اجْتَمَعَ عِلْمُهُمْ حين عاينوها فِي الْآخِرَةِ أَنَّهَا كَائِنَةٌ، وَهُمْ فِي شك منها فِي وَقْتِهِمْ، أَيِ انْتَهَىٰ عِلْمُهُمْ وَعَجَزَ عن معرفة وقتها، وقال ابن عباس: غاب ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ وَيَعْلَمُونَهَا إِذَا عَايَنُوهَا حِينَ لَا يَنْفَعُهُمْ عِلْمُهُمْ. قَالَ مُقَاتِلٌ: بَلْ عَلِمُوا فِي الْآخِرَةِ حِينَ عَايَنُوهَا مَا شَكُّوا وَعَمُوا عَنْهُ فِي الدُّنْيَا وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا﴾ يَعْنِي هُمُ الْيَوْمَ فِي شَكٍّ مِنَ السَّاعَةِ، قال البغوي: وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ فِيهِ أَنَّ اللهَ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ إِذَا بُعِثُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَسْتَوِي عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَمَا وُعِدُوا فِيهَا مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَإِنْ كَانَتْ عُلُومُهُمْ مُخْتَلِفَةً فِي الدُّنْيَا، وَذَكَرَ عَلِيُّ بْنُ عِيسَىٰ أَنَّ مَعْنَىٰ (بَلْ) هَاهُنَا لَوْ

وَمَعْنَاهُ لَوْ أَدْرَكُوا فِي الدُّنْيَا مَا أَدْرَكُوا فِي الْآخِرَةِ لم يشكوا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا، بَلْ هُمُ الْيَوْمَ فِي الدُّنْيَا فِي شَكٍّ مِنَ السَّاعَةِ، ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ قَالَ الْكَلْبِيُّ: يَقُولُ هُمْ جَهَلَةٌ بِهَا، قال ابن عاشور: وعمون: جَمْعُ عَمٍ بِالتَّنْوِينِ وَهُوَ فَعِلٌ مِنَ الْعَمَىٰ، صَاغُوا لَهُ مِثَالَ الْمُبَالَغَةِ لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ شِدَّةِ الْعَمَىٰ، وَهُوَ تَشْبِيهُ عَدَمِ الْعِلْمِ بِالْعَمَىٰ، وَعَادِمُ الْعِلْمِ بِالْأَعْمَىٰ. قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: وَهُوَ الْعَمَىٰ، وَأَنْ يَكُونَ مِثْلَ الْبَهِيمَةِ قَدْ عَكَفَ هَمُّهُ عَلَىٰ بَطْنِهِ وَفَرْجِهِ، لَا يُخْطِرُ بِبَالِهِ حَقًّا وَلَا بَاطِلًا، وَلَا يُفَكِّرُ فِي عَاقِبَةٍ، وَقَدْ جَعَلَ الْآخِرَةَ مَبْدَأَ عَمَاهُمْ وَمَنْشَأَهُ، فَلِذَلِكَ عَدَّاهُ بِـ (مِنْ) دُونَ (عَنْ)؛ لِأَنَّ الْكُفْرَ بِالْعَاقِبَةِ وَالْجَزَاءِ، هُوَ الَّذِي جَعَلَهُمْ كَالْبَهَائِمِ لَا يَتَدَبَّرُونَ وَلَا يَتَبَصَّرُونَ.

[٦٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يَعْنِي مُشْرِكِي مَكَّةَ، ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ مِنْ قُبُورِنَا أَحْيَاءً.

[٦٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا﴾ أَيْ هَذَا الْبَعْثَ، ﴿نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أَيْ مِنْ قَبْلِ مُحَمَّدٍ وَلَيْسَ ذلك بشيء ﴿إِنْ هَذَا﴾ مَا هَذَا، ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أَحَادِيثُهُمْ وَأَكَاذِيبُهُمُ الَّتِي كَتَبُوهَا، وكانت الأنبياء يؤكدون علىٰ أمر البعث مبالغة فِي التَّحْذِيرِ، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ فَقَرِيبٌ.

[٦٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾، قال ابن كثير: أَيْ فَكِّرُوا فِي أَنْفُسِكُمْ، وَانْظُرُوا مَا أَحَلَّ اللهُ بِالْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَهُ وَعَانَدُوهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ، وَالْعُقُوبَةِ

فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا ادُّخِرَ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ فِي الْآخِرَةِ وَكَيْفَ نجَّىٰ رُسُلَهُ وعباده المؤمنين .

[٧٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أَيْ عَلَىٰ كُفَّارِ مَكَّةَ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا وعَلَىٰ تَكْذِيبِهِمْ إِيَّاكَ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْكَ، ﴿وَلا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ نَزَلَتْ فِي الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ اقْتَسَمُوا أَعْقَابَ مَكَّةَ، أَيْ: وَلَا تَحْزَنْ -يَا مُحَمَّدُ- عَلَىٰ إِدْبَارِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ عَنْكَ وَتَكْذِيبِهِمْ لِمَا جِئْتَ بِهِ، وَلَا يَضِيقْ صَدْرُكَ مِنْ مَكْرِهِمْ، فَإِنَّ اللهَ سَيَنْصُرُكَ عَلَيْهِمْ وَسَيَخْذُلُهُمْ.

[٧١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فِيمَا تَعِدُونَنَا بِهِ، قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ.

[٧٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ ﴾ أي دنا وقرب، وَهُوَ مِنْ رَدِفَهُ إِذَا تَبِعَهُ وَجَاءَ فِي أَثَرِهِ، وَقَالَ ابْنُ شَجَرَةَ: تَبِعَكُمْ، وَمِنْهُ رِدْفُ الْمَرْأَةِ، لِأَنَّهُ تَبَعٌ لَهَا مِنْ خَلْفِهَا، ﴿بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ مِنَ الْعَذَابِ فَحَلَّ بِهِمْ ذَلِكَ يَوْمَ بَدْرٍ، وَقِيلَ: عَذَابُ الْقَبْرِ.

[٧٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَىٰ النَّاسِ﴾ فِي تَأْخِيرِ الْعُقُوبَةِ وَإِدْرَارِ الرِّزْقِ ، قَالَ مُقَاتِلٌ: عَلَىٰ أَهْلِ مَكَّةَ حَيْثُ لَمْ يُعَجِّلْ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فَضْلَهُ وَنِعَمَهُ.

[٧٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ﴾ تخفي ﴿صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يظهرون في الأمور.

[٧٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ﴾ أَيْ جُمْلَةٍ غَائِبَةٍ مِنْ مَكْتُومِ سِرٍّ وَخُفِيِّ أَمْرٍ وَشَيْءٍ غَائِبٍ، قَالَ الْحَسَنُ: الْغَائِبَةُ هُنَا الْقِيَامَةُ ، وَقِيلَ: مَا غَابَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَقَالَ ابْنُ شَجَرَةَ: الْغَائِبَةُ هُنَا جَمِيعُ مَا أَخْفَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْ خَلْقِهِ وَغَيَّبَهُ عَنْهُمْ، وَهَذَا عَامٌّ، قَوْلُهُ : ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أَيْ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ ، قَالَ القرطبي : أَيْ مَا مِنْ خَصْلَةٍ غَائِبَةٍ عَنِ الْخَلْقِ إِلَّا وَاللهُ عَالِمٌ بِهَا قَدْ أَثْبَتَهَا فِي أُمِّ الْكِتَابِ عِنْدَهُ، فَكَيْفَ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مَا يُسِرُّ هَؤُلَاءِ وَمَا يُعْلِنُونَهُ. وَقِيلَ: أي كل شي هُوَ مُثْبَتٌ فِي أُمِّ الْكِتَابِ يُخْرِجُهُ لِلْأَجَلِ الْمُؤَجَّلِ لَهُ، فَالَّذِي يَسْتَعْجِلُونَهُ مِنَ الْعَذَابِ لَهُ أَجَلٌ مَضْرُوبٌ لَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ وَلَا يَتَقَدَّمُ عَلَيْهِ. وَالْكِتَابُ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ أَثْبَتَ اللهُ فِيهِ مَا أَرَادَ لِيُعْلِمَ بِذَلِكَ مَنْ يَشَاءُ مِنْ ملائكته.

[٧٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أَيْ يُبَيِّنُ لَهُمْ، وَالْمَعْنَىٰ: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يُبَيِّنُ لَهُمْ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ لَوْ أَخَذُوا بِهِ، وَذَلِكَ مَا حَرَّفُوهُ مِنَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَمَا سَقَطَ مِنْ كُتُبِهِمْ مِنَ الْأَحْكَامِ، ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ، قال ابن كثير : كَاخْتِلَافِهِمْ فِي عِيسَىٰ وَتَبَايُنِهِمْ فِيهِ، فَالْيَهُودُ افتروا والنصارىٰ غلوا، فجاء الْقُرْآنُ بِالْقَوْلِ الْوَسَطِ الْحَقِّ الْعَدْلِ أَنَّهُ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللهِ وَأَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ الْكِرَامِ، عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ، قَالَ الْكَلْبِيُّ:

إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ اخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ فَصَارُوا أَحْزَابًا يَطْعَنُ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ، فَنَزَلَ الْقُرْآنُ بِبَيَانِ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ، وَقَالَ النَّسَفِيُّ: أَيْ يُبَيِّنُ لَهُمْ. قَالَ: فَإِنَّهُمْ اخْتَلَفُوا فِي الْمَسِيحِ فَتَحَزَّبُوا فِيهِ أَحْزَابًا وَوَقَعَ بَيْنَهُمُ التَّنَاكُرُ فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ حَتَّىٰ لَعَنَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَقَدْ نَزَلَ الْقُرْآنُ بِبَيَانِ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ لَوْ أَنْصَفُوا وَأَخَذُوا بِهِ وَأَسْلَمُوا، يُرِيدُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ ، وَعِنْدَ الْإِمَامِ أَحْمَدَ فِي مُسْنَدِهِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ، جَاءَ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يا رسول الله إني أمرت بأخ لي يهودي مِنْ قُرَيْظَةَ فَكَتَبَ لِي جَوَامِعَ مِنَ التَّوْرَاةِ أَلَا أَعْرِضُهَا عَلَيْكَ؟ قَالَ: فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ ثَابِتٍ قُلْتُ لَهُ: أَلَا تَرَىٰ مَا بِوَجْهِ رَسُولِ اللهِ! فقال عمر: رضيت بِاللهِ رِبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، قَالَ: فَسُرِّيَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ: «**والذي نفسي بِيَدِهِ لَوْ أَصْبَحَ فِيكُمْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ، إِنَّكُمْ حَظِّي مِنَ الأمم، وأنا حظكم من النبيين**»[(١)] .

[٧٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ ﴿لَهُدًىٰ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ خَصَّ الْمُؤْمِنِينَ لِأَنَّهُمُ الْمُنْتَفِعُونَ بِهِ.

[٧٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي﴾ يفصل، ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أَيْ يَقْضِي بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ فِي الْآخِرَةِ، فَيُجَازِي الْمُحِقَّ وَالْمُبْطِلَ، وَقِيلَ: يَقْضِي

(١) أحمد (١٥٨٦٤) والدارمي (٤٤١) .

بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا فَيُظْهِرُ مَا حَرَّفُوهُ ، كَاخْتِلَافِهِمْ فِي عِيسَىٰ وَتَبَايُنِهِمْ فِيهِ، فَالْيَهُودُ افتروا والنصارىٰ غلوا، فجاء الْقُرْآنُ بِالْقَوْلِ الْوَسَطِ الْحَقِّ الْعَدْلِ أَنَّهُ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللهِ وَأَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ الْكِرَام، عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ، ﴿بِحُكْمِهِ﴾ الحق، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الْمَنِيعُ فَلَا يُرَدُّ لَهُ أَمْرٌ ﴿الْعَلِيمُ﴾ بِأَحْوَالِهِمْ فَلَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ.

[٧٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللهِ﴾ أَيْ فَوِّضْ إِلَيْهِ أَمْرَكَ وَاعْتَمِدْ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ نَاصِرُكَ، ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ أَيِ الظَّاهِرُ، وَقِيلَ: الْمُظْهِرُ لمن تدبر وَجْهَ الصَّوَابِ ، قال ابن عاشور : فُرِّعَتِ الْفَاءُ عَلَىٰ الْإِخْبَارِ بِأَنَّ رَبَّ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقْضِي بَيْنَ الْمُخْتَلِفِينَ فِي شَأْنِ الْقُرْآنِ أَمْرًا لِلرَّسُولِ بِأَنْ يَطْمَئِنَّ بَالًا وَيَتَوَكَّلَ عَلَىٰ رَبِّهِ فِيمَا يَقْضِي بِهِ فَإِنَّهُ يَقْضِي لَهُ بِحَقِّهِ، وَعَلَىٰ مُعَانِدِهِ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ ، وَأَنَّ إِعْرَاضَ الْمُعْرِضِينَ عَنْ أَمْرِ اللهِ لَيْسَ تَقْصِيرًا مِنَ الرَّسُولِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَهُوَ مَعْنًىٰ تَكَرَّرَ فِي الْقُرْآن كَقَوْلِه : ﴿فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ وَالتَّوَكُّلُ: تَفَعُّلٌ مِنْ وَكَّلَ إِلَيْهِ الْأَمْرَ، إِذَا أَسْنَدَ إِلَيْهِ تَدْبِيرَهُ وَمُبَاشَرَتَهُ، فَالتَّفَعُّلُ لِلْمُبَالَغَةِ.

[٨٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ يَعْنِي الْكُفَّارَ، فَهُمْ كَالْمَوْتَىٰ لَا حِسَّ لَهُمْ وَلَا عَقْلَ ، وَقِيلَ: هَذَا فِيمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ، ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ مُعْرِضِيْنَ، فَإِنْ قِيلَ مَا مَعْنَىٰ قوله: ﴿وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ وَإِذَا كَانُوا صُمًّا لَا يَسْمَعُونَ سَوَاءٌ وَلَّوْا أَوْ لَمْ يُوَلُّوا؟ قِيلَ: ذَكَرَهُ عَلَىٰ سَبِيلِ التَّأْكِيدِ وَالْمُبَالَغَةِ. وَقِيلَ: الْأَصَمُّ إِذَا كَانَ حَاضِرًا فَقَدْ يَسْمَعُ بِرَفْعِ الصَّوْتِ وَيَفْهَمُ

بِالْإِشَارَةِ، فَإِذَا وَلَّىٰ لَمْ يَسْمَعْ وَلَمْ يَفْهَمْ ، قَالَ قَتَادَةُ: الْأَصَمُّ إِذَا وَلَّىٰ مُدْبِرًا ثُمَّ نَادَيْتَهُ لَمْ يَسْمَعْ، كَذَلِكَ الْكَافِرُ لَا يَسْمَعُ مَا يُدْعَىٰ إِلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ، وَمَعْنَىٰ الْآيَةِ أَنَّهُمْ لِفَرْطِ إِعْرَاضِهِمْ عَمَّا يُدْعَوْنَ إِلَيْهِ كَالْمَيِّتِ الَّذِي لَا سَبِيلَ إِلَىٰ إِسْمَاعِهِ، وَالْأَصَمِّ الَّذِي لَا يَسْمَعُ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: وَقَفَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ قَلِيبِ بَدْرٍ فَقَالَ: ﴿هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿ إِنَّهُمُ الْآنَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّ الَّذِي كُنْتُ أَقُولُ لَهُمْ هُوَ الْحَقُّ﴾ ثُمَّ قَرَأَتْ : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ حَتَّىٰ قَرَأَتِ الْآيَةَ ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: وَقَفَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ قَلِيبِ بَدْرٍ فَقَالَ: ﴿ هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿ إِنَّهُمُ الْآنَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّ الَّذِي كُنْتُ أَقُولُ لَهُمْ هُوَ الْحَقُّ﴾ ثُمَّ قَرَأَتْ : ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ ، حَتَّىٰ قَرَأَتِ الْآيَةَ ﴿عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ أَيْ مَا أَنْتَ بِمُرْشِدٍ مَنْ أَعْمَاهُ اللهُ عَنِ الْهُدَىٰ وَأَعْمَىٰ قَلْبَهُ عَنِ الْإِيمَانِ، ﴿إِنْ تُسْمِعُ﴾ أَيْ مَا تُسْمِعُ: ﴿إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ إِلَّا مَنْ خلقته للسعادة فهم مخلصون في التوحيد ، وقيل: إِلَّا مَنْ يُصَدِّقُ بِالْقُرْآنِ أَنَّهُ من الله، ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ مخلصون.

[٨١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ﴾ وَالْعَمَىٰ: افْتِقَادُ الْبَصَرِ، فَشَبَّهَ مَنِ افْتَقَدَ الْبَصِيرَةَ بِمَنِ افْتَقَدَ الْبَصَرَ فِي عَدَمِ الْهِدَايَةِ ﴿عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ أَيْ: مَا أَنْتَ بِمُرْشِدٍ مَنْ أَعْمَاهُ اللهُ عَنِ الهدىٰ وأعمىٰ قلب عَنِ الْإِيمَانِ، ﴿إِنْ تُسْمِعُ﴾ مَا تُسْمِعُ، ﴿إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ إِلَّا مَنْ يُصَدِّقُ بِالْقُرْآنِ أَنَّهُ مِنَ اللهِ، ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ مُخْلِصُونَ.

[٨٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ وَجَبَ الْعَذَابُ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ قَتَادَةُ: إِذَا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ، ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ وَاخْتَلَفُوا فِي كَلَامِهَا، فَقَالَ السُّدِّيُّ: تُكَلِّمُهُمْ بِبُطْلَانِ الْأَدْيَانِ سِوَىٰ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَلَامُهَا أَنْ تَقُولَ لِوَاحِدٍ هَذَا مُؤْمِنٌ، وَتَقُولَ لِآخَرَ: هَذَا كَافِرٌ. وَقِيلَ: كَلَامُهَا مَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عُمَرَ: وَذَلِكَ حِينَ لَا يُؤْمَرُ بِمَعْرُوفٍ وَلَا يُنْهَىٰ عَنْ مُنْكَرٍ، قَالَ السَّعْدِيُّ: تُكَلِّمُ الْعِبَادَ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ، أَيْ: لِأَجْلِ أَنَّ النَّاسَ ضَعُفَ عِلْمُهُمْ وَيَقِينُهُمْ بِآيَاتِ اللهِ، فَإِظْهَارُ اللهِ هَذِهِ الدَّابَّةَ مِنْ آيَاتِ اللهِ الْعَجِيبَةِ لِيُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ. وَهَذِهِ الدَّابَّةُ هِيَ الدَّابَّةُ الْمَشْهُورَةُ الَّتِي تَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ وَتَكُونُ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ كَمَا تَكَاثَرَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ.

[٨٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ أَيْ مِنْ كُلِّ قَرْنٍ جَمَاعَةً، وَالْفَوْجُ: الْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ ، ﴿مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا﴾ وَلَيْسَ مِنْ هَاهُنَا لِلتَّبْعِيضِ لِأَنَّ جَمِيعَ الْمُكَذِّبِينَ يُحْشَرُونَ، ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يُحْبَسُ أَوَّلُهُمْ عَلَىٰ آخِرِهِمْ حَتَّىٰ يجتمعوا ثم يساقوا إِلَىٰ النَّارِ، قال قتادة: يرد أَوَّلَهُمْ عَلَىٰ آخِرِهِمْ، وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زيد: يساقون.

[٨٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا﴾ يوم القيامة، ﴿قَالَ﴾ اللهُ لَهُمْ، ﴿أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا﴾ ولم تعرفوها حق معرفتها، ﴿أَمَّاذَا كُنْتُمْ

تَعْمَلُونَ﴾ حِينَ لَمَّ تُفَكِّرُوا فِيهَا وَمَعْنَىٰ الْآيَةِ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي غَيْرَ عَالِمَيْنِ بِهَا وَلَمْ تُفَكِّرُوا فِي صِحَّتِهَا بَلْ كَذَبْتُمْ بِهَا جَاهِلِينَ.

[٨٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ﴾ وَجَبَ الْعَذَابُ، ﴿عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا﴾ بِمَا أَشْرَكُوا، ﴿فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: كَيْفَ يَنْطِقُونَ وَلَا حُجَّةَ لَهُمْ، وَقِيلَ: لَا يَنْطِقُونَ لِأَنَّ أَفْوَاهَهُمْ مَخْتُومَةٌ. قال ابن كثير: أَيْ بُهِتُوا فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَوَابٌ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ظَلَمَةً لِأَنْفُسِهِمْ، وقد ردوا إلىٰ علام الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الَّذِي لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ خَافِيَةٌ.

[٨٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا﴾ خَلَقْنَا، ﴿اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي: فيه ظلام تسكُنُ بسببه حركاتُهم وتهدأُ أنفاسهم، ويستريحون من نَصَبِ التَّعب في نهارهم ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ مُضِيئًا يُبْصَرُ فِيهِ، فبسبب ذلك يتصرَّفون في المعايش والمكاسب، والأسفار والتِّجارات، وغير ذلك من شؤونهم التي يحتاجون إليها، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يُصَدِّقُونَ فَيَعْتَبِرُونَ.

[٨٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ وَالصُّورُ قَرْنٌ يَنْفُخُ فِيهِ إِسْرَافِيلُ وقال الحسن البصري: الصور هي الْقَرْنُ، وَأَوَّلَ بَعْضُهُمْ كَلَامَهُ أَنَّ الْأَرْوَاحَ تُجْمَعُ فِي الْقَرْنِ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ فَتَذْهَبُ الْأَرْوَاحُ إِلَىٰ الأجساد فتحيا بالأجساد، قوله: ﴿فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أَيْ فَصَعِقَ كَمَا قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَىٰ: ﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي ماتوا، والمعنىٰ أنه يُلْقَىٰ عَلَيْهِمُ الْفَزَعُ إِلَىٰ أَنْ يَمُوتُوا وَقِيلَ: يَنْفُخُ إِسْرَافِيلُ فِي الصُّورِ ثَلَاثَ نَفَخَاتٍ

نَفْخَةَ الْفَزَعِ وَنَفْخَةَ الصَّعْقِ وَنَفْخَةَ الْقِيَامِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ هم الشهداء المقلدون أَسْيَافَهُمْ حَوْلَ الْعَرْشِ ، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُمُ الشُّهَدَاءُ لِأَنَّهُمْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَا يَصِلُ الْفَزَعُ إِلَيْهِمْ، وفي حديث مسلم الطويل قَالَ: « **فَيَبْقَىٰ شِرَارُ النَّاسِ فِي خِفَّةِ الطَّيْرِ وَأَحْلَامِ السِّبَاعِ لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا، فَيَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ: أَلَا تَسْتَجِيبُونَ؟ فَيَقُولُونَ: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَهُمْ فِي ذَلِكَ دارٌّ رِزْقُهُمْ حسنٌ عَيْشُهُمْ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَىٰ لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا. قَالَ - وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ قَالَ: فَيَصْعَقُ وَيَصْعَقُ النَّاسُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ - أَوْ قَالَ يُنْزِلُ اللهُ - مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ - أَوْ قَالَ الظل، فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ نفخة أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمُّوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ** ، قوله : ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مسؤولون﴾ **ثُمَّ يُقَالُ: أَخْرِجُوا بَعْثَ النَّارِ** »[1] ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكُلٌّ﴾ أي كل الَّذِينَ أُحْيُوا بَعْدَ الْمَوْتِ، ﴿أَتَوْهُ﴾ أَيْ جَاءُوهُ، ﴿دَاخِرِينَ﴾ صاغرين ، أَيِ الْأَذِلَّاءُ، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: الدَّاخِرُ: الصَّاغِرُ الرَّاغِمُ، قَالَ: لِأَنَّ الْمَرْءَ الَّذِي يَفْزَعُ إِذَا فَزِعَ إِنَّمَا هِمَّتُهُ الْهَرَبُ مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي فَزِعَ مِنْهُ، قَالَ: فَلَمَّا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَزِعُوا، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنَ اللهِ مَنْجَىٰ .

---

(١) مسلم (٢٩٤٠) .

[٨٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ قَائِمَةً وَاقِفَةً، ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ أي تسير سير السحاب، أَيْ تَزُولُ عَنْ أَمَاكِنِهَا، ﴿صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ يَعْنِي: أَحْكَمَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَأَوْثَقَهُ ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّ اللهَ ذُو عِلْمٍ وَخِبْرَةٍ بِمَا يَفْعَلُ عِبَادُهُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ وَطَاعَةٍ لَهُ وَمَعْصِيَةٍ، وَهُوَ مُجَازِي جَمِيعِهِمْ عَلَىٰ جَمِيعِ ذَلِكَ؛ عَلَىٰ الْخَيْرِ الْخَيْرَ، وَعَلَىٰ الشَّرِّ الشَّرَّ نَظِيرَهُ.

[٨٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ بكلمة الإخلاص وهي الشهادة أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ أَبُو مَعْشَرٍ: كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَحْلِفُ وَلَا يَسْتَثْنِي أَنَّ الْحَسَنَةَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: بِالْإِخْلَاصِ، وَقِيلَ: هِيَ كُلُّ الطاعة، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ: غَزَا رَجُلٌ فَكَانَ إِذَا خَلَا بِمَكَانٍ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَبَيْنَمَا هُوَ فِي أَرْضِ الرُّومِ فِي أَرْضِ جُلْفَاءَ وَبَرْدَىٰ رَفَعَ صَوْتَهُ فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فَخَرَجَ عَلَيْهِ رَجُلٌ عَلَىٰ فَرَسٍ عَلَيْهِ ثِيَابٌ بِيضٌ فَقَالَ لَهُ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا الْكَلِمَةُ الَّتِي قَالَ اللهُ تعالىٰ: ﴿ومن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ ، وجاء في الحديث الصحيح عن أَبِي ذَرٍّ قَالَ: « قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَوْصِنِي قَالَ: **اتَّقِ اللهَ وَإِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَأَتْبِعْهَا حَسَنَةً تَمْحُهَا**، قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَمِنَ الْحَسَنَاتِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟ قَالَ: **مِنْ**

أَفْضَلِ الْحَسَنَاتِ »[1] ، ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنهَا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَمِنْهَا يَصِلُ الْخَيْرُ إِلَيْهِ يَعْنِي لَهُ مِنْ تِلْكَ الْحَسَنَةِ خَيْرٌ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ الثَّوَابُ وَالْأَمْنُ مِنَ الْعَذَابِ أَمَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ شَيْءٌ خَيْرٌ مِنَ الْإِيمَانِ فَلَا لِأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ خَيْرًا مِنْ قَوْلِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. وَقِيلَ: ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ يَعْنِي رِضْوَانَ اللهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾ وقال محمد بن كعب: قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ: ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ يَعْنِي الْأَضْعَافَ أَعْطَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِالْوَاحِدَةِ عَشْرًا فَصَاعِدًا، قال البغوي : وَهَذَا حَسَنٌ لِأَنَّ لِلْأَضْعَافِ خَصَائِصُ مِنْهَا أَنَّ الْعَبْدَ يُسْأَلُ عَنْ عَمَلِهِ وَلَا يُسْأَلُ عَنِ الْأَضْعَافِ وَمِنْهَا أَنَّ لِلشَّيْطَانِ سَبِيلًا إِلَىٰ عَمَلِهِ وَلَيْسَ لَهُ سَبِيلٌ إِلَىٰ الْأَضْعَافِ وَلَا مطمع لِلْخُصُومِ فِي الْأَضْعَافِ وَلِأَنَّ الْحَسَنَةَ عَلَىٰ اسْتِحْقَاقِ الْعَبْدِ وَالتَّضْعِيفَ كَمَا يَلِيقُ بِكَرَمِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وقال القرطبي : وَقِيلَ: أَدَاءُ الْفَرَائِضِ كُلِّهَا ، قُلْتُ: إِذَا أَتَىٰ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ عَلَىٰ حَقِيقَتِهَا وَمَا يَجِبُ لَهَا فَقَدْ أَتَىٰ بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ وَالْفَرَائِضِ، ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ ، قوله : ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ قَرَأَ أَهْلُ الْكُوفَةِ مِنْ فَزَعٍ بِالتَّنْوِينِ يَوْمَئِذٍ بِفَتْحِ الْمِيمِ، وَقَرَأَ الْآخَرُونَ بِالْإِضَافَةِ لِأَنَّهُ أَعَمُّ فَإِنَّهُ يَقْتَضِي الْأَمْنَ مِنْ جَمِيعِ فَزَعِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَبِالتَّنْوِينِ كَأَنَّهُ فَزَعٌ دُونَ فَزَعٍ، وَيَفْتَحُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ الْمِيمَ مِنْ يَوْمَئِذٍ.

---

(١) مسلم (٢٨٥٨) .

[٩٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ يَعْنِي الشِّرْكَ، قال القرطبي : وَهُوَ إِجْمَاعٌ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ فِي أَنَّ الْحَسَنَةَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ السَّيِّئَةَ الشِّرْكُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ. ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ يَعْنِي أُلْقُوا عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ، وَيُقَالُ كَبَبْتُ الْإِنَاءَ أَيْ قَلَبْتُهُ علىٰ وجهه، واللازم من أَكَبَّ، فَانْكَبَّ وَأَكَبَّ، وَتَقُولُ لَهُمْ خَزَنَةُ جَهَنَّمَ: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فِي الدُّنْيَا مِنَ الشِّرْكِ.

[٩١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ﴾ يَقُولُ اللهُ لِرَسُولِهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ، ﴿أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ﴾ يعني مكة، ﴿الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ يعني جَعَلَهَا اللهُ حَرَمًا آمِنًا لَا يُسْفَكُ فِيهَا دَمٌ وَلَا يُظْلَمُ فِيهَا أَحَدٌ وَلَا يُصَادُ صَيْدُهَا وَلَا يُخْتَلَىٰ خَلَاهَا، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ: «**إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلَىٰ يَوْمِ القيامة، ولا يُعْضَدُ شَوْكُهُ وَلَا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ، وَلَا يَلْتَقِطُ لقطته إلاّ من عرفها، ولا تختلىٰ خلاه**»(١) قال ابن عاشور : وَتَبْيِينُ اسْمِ الْإِشَارَةِ بِالْبَلْدَةِ لِأَنَّ الْبَلْدَةَ بَهَاءِ التَّأْنِيثِ اسْمٌ لِطَائِفَةٍ مِنَ الْأَرْضِ مُعَيَّنَةٍ مَعْرُوفَةٍ مَحُوزَةٍ فَيَشْمَلُ مَكَّةَ وَمَا حَوْلَهَا إِلَىٰ نِهَايَةِ حُدُودِ الْحَرَمِ، وَمَعْنَىٰ حَرَّمَهَا جَعَلَهَا حَرَامًا، وَالْحَرَامُ الْمَمْنُوعُ، وَالتَّحْرِيمُ الْمَنْعُ. ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ خَلْقًا وَمِلْكًا، قال ابن كثير : مِنْ بَابِ عَطْفِ الْعَامِّ عَلَىٰ الْخَاصِّ أَيْ هُوَ رَبُّ هَذِهِ

---

(١) البخاري (١٨٣٤) ومسلم (١٣٥٣) .

الْبَلْدَةِ ورب كل شيء ومليكه لا إله إلا هو، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أَيْ مِنَ المنقادين لأمره، الموحدين له.

[٩٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ يَعْنِي وَأُمِرْتُ أن أَتْلُوَ الْقُرْآنَ، ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ أَيْ نَفْعُ اهْتِدَائِهِ يَرْجِعُ إِلَيْهِ، قال النسفي : قال النسفي: ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ بِاتِّبَاعِهِ إِيَّايَ فِيمَا أَنَا بِصَدَدِهِ مِنْ تَوْحِيدِ اللهِ وَنَفْيِ الشُّرَكَاءِ عَنْهُ وَالدُّخُولِ فِي الْمِلَّةِ الْحَنِيفِيَّةِ وَاتِّبَاعِ مَا أُنْزِلَ عَلَيَّ مِنَ الْوَحْيِ ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ فَمَنْفَعَةُ اهْتِدَائِهِ رَاجِعَةٌ إِلَيْهِ لَا إِلَيَّ ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ أَيْ: وَمَنْ ضَلَّ وَلَمْ يَتَّبِعْنِي فَلَا عَلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا رَسُولٌ مُنْذِرٌ وَمَا عَلَىٰ الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ عَنِ الْإِيمَانِ وَأَخْطَأَ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَىٰ، ﴿فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ مِنَ الْمُخَوِّفِينَ فَلَيْسَ عَلَيَّ إِلَّا الْبَلَاغُ، نَسَخَتْهَا آيَةُ الْقِتَالِ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ علىٰ نعمه، ﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ يَعْنِي يَوْمَ بَدْرٍ مِنَ الْقَتْلِ وَالسَّبْيِ وَضَرْبِ الْمَلَائِكَةِ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ، نَظِيرُهُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ وَقَالَ مُجَاهِدٌ: سَيُرِيْكُمْ آيَاتِهِ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَفِي أَنْفُسِكُمْ، ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أَيْ دَلَائِلَ قُدْرَتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ فِي أَنْفُسِكُمْ وَفِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ، نَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ. وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١]، وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أَيْ: وَمَا رَبُّكَ -يَا مُحَمَّدُ- بِغَافِلٍ عَنْ شَيْءٍ مِنْ أَعْمَالِ عِبَادِهِ، بَلْ هُوَ شَهِيدٌ عَلَىٰ كُلِّ مَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ، جَلَّ جَلَالُهُ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ،

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ مَرْفُوعًا إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ: « **قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: يَا عِبَادِي: إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ**»[١] .

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّمْلِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

(١) مسلم (٢٥٧٧) .

سُورَةُ الْقَصَصِ

مَكِّيَّةٌ كُلُّهَا سُمِّيَتْ سُورَةَ الْقَصَصِ ،وسميت بِذَلِكَ وُقُوعُ لَفْظِ الْقَصَصَ فِيهَا عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ فَلَمَّا جاءَهُ وَقصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ:

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿طسم﴾ شَأْنُ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ أَوَائِلَ جَمِيعِ السُّوَرِ تُفِيدُ الْإِعْجَازَ وَتَحَدِّيَ الثَّقَلَيْنِ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ أَوْ سُورَةٍ مِنْهُ، مَعَ أَنَّهُ مُرَكَّبٌ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ الْأَحْرُفِ الَّتِي يَتَخَاطَبُ الْعَرَبُ بِهَا.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿تِلْكَ﴾ أَيْ هَذِهِ ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أَيْ الْوَاضِحِ الْجَلِيِّ الْكَاشِفِ عَنْ حَقَائِقِ الْأُمُورِ وَعِلْمِ مَا قَدْ كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ بالصدق، أَيْ نَذْكُرُ لَكَ الْأَمْرَ عَلَىٰ مَا كَانَ عَلَيْهِ كَأَنَّكَ تُشَاهِدُ وَكَأَنَّكَ حَاضِرٌ، ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يُصَدِّقُونَ بِالْقُرْآنِ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ﴾ أَيْ تَكَبَّرَ وَتَجَبَّرَ وَطَغَىٰ، ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أَرْضِ مِصْرَ، ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أَيْ أَصْنَافًا قَدْ صَرَّفَ كُلَّ صِنْفٍ فِيمَا يُرِيدُ مِنْ أمور دولته، ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾ أراد الطائفة بَنِي إِسْرَائِيلَ، ثُمَّ فَسَّرَ الِاسْتِضْعَافَ فَقَالَ، ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ سَمَّىٰ هَذَا

اسْتِضْعَافًا لِأَنَّهُمْ عَجَزُوا أو ضعفوا عَنْ دَفْعِهِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾، قال ابن كثير: وَكَانُوا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ خِيَارَ أَهْلِ زَمَانِهِمْ، هَذَا وَقَدْ سُلِّطَ عَلَيْهِمْ هَذَا الْمَلِكُ الْجَبَّارُ الْعَنِيدُ يستعملهم في أخس الأعمال، وَيَقْتُلُ مَعَ هَذَا أَبْنَاءَهُمْ، وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ، إِهَانَةً لَهُمْ وَاحْتِقَارًا وَخَوْفًا مِنْ أَنْ يُوجَدَ مِنْهُمُ غُلَامٌ يَكُونُ سَبَبُ هَلَاكِهِ وَذَهَابُ دَوْلَتِهِ عَلَىٰ يديه، فَاحْتَرَزَ فِرْعَوْنُ مِنْ ذَلِكَ، وَأَمَرَ بِقَتْلِ ذُكُورِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَنْ يَنْفَعَ حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ لِأَنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَآءَ لاَ يُؤَخَّرُ ولكل أجل كتاب.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَىٰ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يَعْنِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، أَيْ نَتَفَضَّلَ عَلَيْهِمْ وَنُنْعِمَ. وَهَذِهِ حِكَايَةٌ مَضَتْ. ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ قَادَةً فِي الْخَيْرِ يُقْتَدَىٰ بِهِمْ. وَقَالَ قَتَادَةُ: وُلَاةً وَمُلُوكًا دَلِيلُهُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ [الْمَائِدَة: ٢٠] وَقَالَ مُجَاهِدٌ: دُعَاةً إِلَىٰ الخير. ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ يَعْنِي أَمْلَاكَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ يَخْلُفُونَهُمْ في مساكنهم.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أَيْ نَجْعَلُهُمْ مُقْتَدِرِينَ عَلَىٰ الْأَرْضِ وَأَهْلِهَا حَتَّىٰ يُسْتَوْلَىٰ عَلَيْهَا، يَعْنِي أَرْضَ الشَّامِ وَمِصْرَ، ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ﴾ أَيْ وَنُرِيدُ أَنْ نُرِيَ فِرْعَوْنَ ﴿فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا﴾ قال ابن عاشور: الظَّاهِرُ أَنْ هَامَانَ لَقَبُ وَزِيرِ الْمَلِكِ فِي مِصْرَ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ، وَالْجُنْدُ اسْمُ جَمْعٍ لَا وَاحِدَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ: هُوَ الْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ الَّتِي تَجْتَمِعُ عَلَىٰ أَمْرٍ تَتَّبِعُهُ، فَلِذَلِكَ يُطْلَقُ عَلَىٰ الْعَسْكَرِ لِأَنَّ عَمَلَهُمْ وَاحِدٌ وَهُوَ خِدْمَةُ أَمِيرِهِمْ وطاعته،

﴿مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ ذَلِكَ أَنَّهُمْ أُخْبِرُوا أَنَّ هَلَاكَهُمْ عَلَىٰ يَدَيْ رَجُلٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَكَانُوا عَلَىٰ وَجَلٍ مِنْهُمْ فَأَرَاهُمُ اللهُ ﴿مَا كانُوا يَحْذَرُونَ﴾ .

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ وهو وحي إلهام ولا وَحْيَ نُبُوَّةٍ، قَالَ قَتَادَةُ: قَذَفْنَا فِي قلبها، ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ وَاخْتَلَفُوا فِي مُدَّةِ الرَّضَاعِ، قِيلَ: ثَمَانِيَةُ أَشْهُرٍ. وَقِيلَ – أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ. وَقِيلَ: ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ كَانَتْ تُرْضِعُهُ فِي حِجْرِهَا، وَهُوَ لَا يَبْكِي وَلَا يَتَحَرَّكُ، ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ يَعْنِي مِنَ الذَّبْحِ، ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ وَالْيَمُّ الْبَحْرُ وَأَرَادَ هَاهُنَا النِّيلَ، ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ قِيلَ: لَا تَخَافِي عَلَيْهِ مِنَ الْغَرَقِ، وَقِيلَ: مِنَ الضَّيْعَةِ، ﴿وَلَا تَحْزَنِي﴾ عَلَىٰ فِرَاقِهِ، ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ. إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا كَثُرُوا بِمِصْرَ اسْتَطَالُوا عَلَىٰ النَّاسِ وَعَمِلُوا بِالْمَعَاصِي وَلَمْ يَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَلَمْ يَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ فَسَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْقِبْطَ فَاسْتَضْعَفُوهُمْ إِلَىٰ أن أنجاهم الله علىٰ يد نبيه.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ الِالْتِقَاطُ هُوَ وُجُودُ الشَّيْءِ مِنْ غَيْرِ طَلَبٍ، ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ وَهَذِهِ اللَّامُ تُسَمَّىٰ لَامَ الْعَاقِبَةِ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَلْتَقِطُوهُ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا وَلَكِنْ صَارَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِمْ إِلَىٰ ذَلِكَ، قال ابن كثير : إن الله تعالىٰ قيَّضهم لالتقاطهِ ليجعلهُ لهم عدوًا وحزنًا فيكون أبلغ في إبطال حذرهم منه ، وفي لسان العرب : الحُزْنُ والحَزَنُ: نقيضُ الفرَح، وَهُوَ خلافُ السُّرور. قال الْجَوْهَرِيُّ: حَزَنَ لغةُ قُرَيْشٍ، وَفِي الْحَدِيثِ: أَنه كَانَ إِذَا

حَزَنه أَمرٌ صلَّىٰ أَي أَوْقعه فِي الحُزْن، وَيُرْوَىٰ بِالْبَاءِ، ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ عَاصِينَ مذنبين فعاقبهم الله بأن ربىٰ عدوهم ومن هو سبب هلاكهم علىٰ أيديهم.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾ دعه يكون قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ، ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ يروىٰ أن آسية - امرأة فرعون قَالَتْ لَهُ إِنَّهُ أَتَانَا مَنْ أَرْضٍ أُخْرَىٰ لَيْسَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، ﴿عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أَنَّ هَلَاكَهُمْ عَلَىٰ يَدَيْهِ فَاسْتَحْيَاهُ فِرْعَوْنُ وَأَلْقَىٰ اللهُ عَلَيْهِ مَحَبَّتَهُ.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ أَيْ خَالِيًا مَنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ ذِكْرِ مُوسَىٰ وَهَمِّهِ، هَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: فَارِغًا أَيْ نَاسِيًا لِلْوَحْيِ الَّذِي أَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهَا حِينَ أَمَرَهَا أَنْ تُلْقِيَهُ فِي الْبَحْرِ وَلَا تَخَافُ وَلَا تَحْزَنُ، وَالْعَهْدُ الَّذِي عَهِدَ أَنْ يَرُدَّهُ إِلَيْهَا وَيَجْعَلَهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، فَجَاءَهَا الشَّيْطَانُ فقال: كرهت أن يقتله فرعون ورجاله فَيَكُونَ لَكِ أَجْرُهُ وَثَوَابُهُ وَتَوَلَّيْتِ أنت قتله فألقيتيه في البحر، وأغرقتيه، فلما أَتَاهَا الْخَبَرُ بِأَنَّ فِرْعَوْنَ أَصَابَهُ فِي النِّيلِ قَالَتْ: إِنَّهُ وَقَعَ فِي يَدِ عَدُوِّهِ الَّذِي فَرَرْتُ منه، فأنساها عظم الْبَلَاءِ مَا كَانَ مِنْ عَهْدِ اللهِ إِلَيْهَا. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: فَارِغًا أَيْ فَارِغًا مِنَ الْحُزْنِ لِعِلْمِهَا بِصِدْقِ وَعْدِ اللهِ تَعَالَىٰ. قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ قِيلَ: الْهَاءُ فِي بِهِ رَاجِعَةٌ إِلَىٰ مُوسَىٰ أَيْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ أَنَّهُ ابْنُهَا مِنْ شِدَّةِ وَجْدِهَا. وَقَالَ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَادَتْ تَقُولُ وَابْنَاهُ. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: لَمَّا رَأَتِ التَّابُوتَ يَرْفَعُهُ مَوْجٌ وَيَضَعُهُ

آخَرُ خَشِيَتْ عَلَيْهِ الْغَرَقَ فَكَادَتْ تَصِيحُ مِنْ شَفَقَتِهَا. قال ابن كثير: أَيْ إِنْ كَادَتْ من شدة وجدها وحزنها لَتُظْهِرُ أَنَّهُ ذَهَبَ لَهَا وَلَدٌ، وَتُخْبِرُ بِحَالِهَا لولا أن الله ثبتها وصبرها، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْهَاءُ عَائِدَةٌ إِلَىٰ الْوَحْيِ أَيْ كَادَتْ تُبْدِي بِالْوَحْيِ الَّذِي أَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهَا أَنْ يَرُدَّهُ إِلَيْهَا، ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ بِالصَّبْرِ وَالتَّثْبِيتِ، وَالرَّبْطُ عَلَىٰ الْقَلْبِ: إِلْهَامُ الصَّبْرِ. ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الْمُصَدِّقِينَ لِوَعْدِ اللهِ حِينَ قَالَ لها: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ .

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ﴾ أَيْ لِمَرْيَمَ أُخْتِ مُوسَىٰ ﴿قُصِّيهِ﴾ اتْبَعِي أَثَرَهُ حَتَّىٰ تَعْلَمِي خَبَرَهُ، ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ﴾ أَيْ عَنْ بُعْدٍ، وَفِي الْقِصَّةِ أَنَّهَا كَانَتْ تَمْشِي جَانِبًا وَتَنْظُرُ اختلاسا تُرِي أَنَّهَا لَا تَنْظُرُهُ، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أَنَّهَا أُخْتُهُ وَأَنَّهَا تَرْقُبُهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّ امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ كل هَمُّهَا مِنَ الدُّنْيَا أَنْ تَجِدَ له مرضعة وكلما أَتَوْا بِمُرْضِعَةٍ لَمْ يَأْخُذْ ثَدْيَهَا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ:

[١٢]: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ وَالْمُرَادُ مِنَ التَّحْرِيمِ الْمَنْعُ وَالْمَرَاضِعُ جمع المرضع، ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أَيْ مِنْ قَبْلِ مَجِيءِ أُمِّ مُوسَىٰ فَلَمَّا رَأَتْ أُخْتُ مُوسَىٰ الَّتِي أَرْسَلَتْهَا أُمُّهُ فِي طَلَبِهِ ذَلِكَ قَالَتْ لَهُمْ: هَلْ أَدُلُّكُمْ؟ وَفِي الْقِصَّةِ أَنَّ مُوسَىٰ مَكَثَ ثَمَانِ لَيَالٍ لَا يَقْبَلُ ثَدْيًا وَيَصِيحُ وَهُمْ فِي طَلَبِ مُرْضِعَةٍ له، ﴿فَقَالَتْ﴾ يَعْنِي أُخْتَ مُوسَىٰ، ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ﴾ أي يضمونه ﴿لَكُمْ﴾ وَيُرْضِعُونَهُ، وَهِيَ امْرَأَةٌ قَدْ قُتِلَ وَلَدُهَا فَأَحَبُّ شَيْءٍ إِلَيْهَا أَنْ تَجِدَ صَغِيرًا تُرْضِعُهُ، ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ وَالنُّصْحُ ضِدُّ الْغِشِّ وَهُوَ تَصْفِيَةُ الْعَمَلِ مِنْ شَوَائِبِ

الْفَسَادِ، قَالُوا: نعم فَأْتِينَا بِهَا، فَانْطَلَقَتْ إِلَىٰ أُمِّهَا وَأَخْبَرَتْهَا بِحَالِ ابْنِهَا وَجَاءَتْ بِهَا إِلَيْهِمْ، فَلَمَّا وَجَدَ الصَّبِيُّ رِيح أُمِّهُ قَبِلَ ثَدْيَهَا وَجعَلَ يَمُصُّهُ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ:

[١٣] : ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بِرَدِّ مُوسَىٰ إِلَيْهَا، ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي لئلا تَحْزَنَ، ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ بِرَدِّهِ إِلَيْهَا، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَنَّ اللهَ وَعَدَهَا رَدَّهُ إِلَيْهَا.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ قَالَ الْكَلْبِيُّ: الْأَشُدُّ مَا بَيْنَ ثماني عشر سنة إلىٰ ثلاثين سنة، وقال مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ: ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ سَنَةً، ﴿وَاسْتَوَىٰ﴾ أي بلغ أربعين سنة، وَرَوَىٰ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَقِيلَ: اسْتَوَىٰ انْتَهَىٰ شبابه ، قال ابن عاشور : وَالْحَقُّ أَنَّ الْأَشُدَّ كَمَالُ الْقُوَّةِ ، والِاسْتِوَاءَ: كَمَالُ الْبِنْيَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ فِي وَصْفِ الزَّرْعِ : ﴿فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ ﴾ [الْفَتْح: ٢٩]، وَلِهَذَا أُرِيدَ لِمُوسَىٰ الْوَصْفُ بِالِاسْتِوَاءِ وَلَمْ يُوصَفْ يُوسُفُ إِلَّا بِبُلُوغِ الْأَشُدِّ خَاصَّةً لِأَنَّ مُوسَىٰ كَانَ رَجُلًا طويلاً وَلِذَلِكَ كَانَ وَكْزُهُ الْقِبْطِيَّ قَاضِيًا عَلَىٰ الْمَوْكُوزِ. ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أَيِ الْفِقْهَ وَالْعَقْلَ وَالْعِلْمَ فِي الدِّينِ، فَعَلِمَ مُوسَىٰ وَحَكَمَ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ نَبِيًّا، وَقِيلَ: الْفِقَهُ فِي الدِّينِ ، ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أَيْ كَمَا جَزَيْنَا أُمَّ مُوسَىٰ لَمَّا اسْتَسْلَمَتْ لِأَمْرِ اللهِ، وَأَلْقَتْ وَلَدَهَا فِي الْبَحْرِ، وَصَدَّقَتْ بِوَعْدِ اللهِ، فَرَدَدْنَا وَلَدَهَا إِلَيْهَا بِالتُّحَفِ وَالطُّرَفِ وَهِيَ آمِنَةٌ، ثُمَّ وَهَبْنَا لَهُ الْعَقْلَ وَالْحِكْمَةَ وَالنُّبُوَّةَ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ محسن.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ﴾ يَعْنِي دَخَلَ مُوسَىٰ الْمَدِينَةَ، قَالَ السُّدِّيُّ: هِيَ مَدِينَةُ مَنْفَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: كَانَتْ قرية يقال لها حَابِينَ عَلَىٰ رَأْسِ فَرْسَخَيْنِ مِنْ مِصْرَ. وَقِيلَ: مَدِينَةُ عَيْنِ الشَّمْسِ، ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾ وهو وَقْتَ الْقَائِلَةِ وَاشْتِغَالِ النَّاسِ بِالْقَيْلُولَةِ. وَحِينُ الْغَفْلَةِ: هُوَ الْوَقْتُ الَّذِي يَغْفُلُ فِيهِ أَهْلُ الْمَدِينَةِ عَمَّا يَجْرِي فِيهَا وَهُوَ وَقْتُ اسْتِرَاحَةِ النَّاسِ وَتَفَرُّقِهِمْ وَخُلُوِّ الطَّرِيقِ مِنْهُمْ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ: دَخَلَهَا فِيمَا بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ. ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ يَخْتَصِمَانِ وَيَتَنَازَعَانِ، ﴿هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ﴾ من بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ من القبط وَقِيلَ: هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ أَيْ هَذَا مُؤْمِنٌ وهذا كافر، ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَىٰ الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ فَاسْتَغَاثَهُ الْإِسْرَائِيلِيُّ عَلَىٰ الْفِرْعَوْنِيِّ، وَالِاسْتِغَاثَةُ طَلَبُ الْغَوْثِ فَغَضِبَ مُوسَىٰ وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ لِأَنَّهُ تَنَاوَلَهُ وَهُوَ يَعْلَمُ مَنْزِلَةَ مُوسَىٰ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَحِفْظَهُ لَهُمْ، وَلَا يَعْلَمُ النَّاسُ إِلَّا أَنَّهُ مِنْ قِبَلِ الرَّضَاعَةِ من أم موسىٰ ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ﴾ وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ (فَلَكَزَهُ مُوسَىٰ) ومعناهما واحد وهو الضرب بجميع الْكَفِّ، وَقِيلَ: الْوَكْزُ الضَّرْبُ فِي الصَّدْرِ وَاللَّكْزُ فِي الظَّهْرِ، وَقَالَ الْفَرَّاءُ: مَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ وَهُوَ الدَّفْعُ، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: الْوَكْزُ الدَّفْعُ بأطراف الأصابع؟ ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أَيْ فَقَتَلَهُ وَفَرَغَ مِنْ أَمْرِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ فَرَغْتَ مِنْهُ فَقَدْ قَضَيْتَهُ وَقَضَيْتَ عَلَيْهِ، وقد فَعَلَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَلِكَ وَهُوَ لَا يُرِيدُ قَتْلَهُ، إِنَّمَا قَصَدَ دَفْعَهُ فَكَانَتْ فِيهِ نَفْسُهُ، وَهُوَ مَعْنَىٰ: ﴿ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ ، وكل شي أَتَيْتَ عَلَيْهِ

وَفَرَغْتَ مِنْهُ فَقَدْ قَضَيْتَ عَلَيْهِ فَنَدِمَ مُوسَىٰ عليه ولم يكن قصده القتل ﴿قالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ﴾ أَيْ مِنْ إِغْوَائِهِ قَالَ الْحَسَنُ: لَمْ يَكُنْ يَحِلُّ قَتْلُ الْكَافِرِ يَوْمَئِذٍ فِي تِلْكَ الْحَالِ، لِأَنَّهَا كَانَتْ حَالَ كَفٍّ عَنِ الْقِتَالِ ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ أَيْ بَيِّنُ الضَّلَالَةِ.

[١٥] قَوْلُهُ تعَالَىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بِقَتْلِ الْقِبْطِيِّ مِنْ غَيْرِ أَمْرٍ، ﴿فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ نَدِمَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ ذَلِكَ الْوَكْزِ الَّذِي كَانَ فِيهِ ذَهَابُ النَّفْسِ، فَحَمَلَهُ نَدَمُهُ عَلَىٰ الْخُضُوعِ لِرَبِّهِ وَالِاسْتِغْفَارِ مِنْ ذَنْبِهِ قَالَ قَتَادَةُ: عَرَفَ وَاللهِ الْمَخْرَجَ فَاسْتَغْفَرَ.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ بالمغفرة، ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا﴾ معينـًا ﴿لِلْمُجْرِمِينَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لِلْكَافِرِينَ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْإِسْرَائِيلِيَّ الَّذِي أَعَانَهُ مُوسَىٰ كَانَ كَافِرًا، وَهُوَ قَوْلُ مُقَاتِلٍ، قَالَ قَتَادَةُ: لَنْ أُعِينَ بَعْدَهَا عَلَىٰ خَطِيئَةٍ، وَقِيلَ: أَرَادَ إِنِّي وَإِنْ أَسَأْتُ فِي هَذَا الْقَتْلِ الَّذِي لَمْ أُومَرْ بِهِ فَلَا أَتْرُكُ نُصْرَةَ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ الْمُجْرِمِينَ، فَعَلَىٰ هَذَا كَانَ الْإِسْرَائِيلِيُّ مُؤْمِنًا وَنُصْرَةُ الْمُؤْمِنِ وَاجِبَةٌ فِي جَمِيعِ الشَّرَائِعِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمْ يَسْتَثْنِ فَابْتُلِيَ بِهِ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي، قَالَ سَلَمَةُ بْنُ نُبَيْطٍ: بَعَثَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُسْلِمٍ إِلَىٰ الضَّحَّاكِ بِعَطَاءِ أَهْلِ بُخَارَىٰ وَقَالَ: أَعْطِهِمْ، فَقَالَ: اعْفِنِي، فَلَمْ يَزَلْ يَسْتَعْفِيهِ حَتَّىٰ أَعْفَاهُ. فَقِيلَ لَهُ مَا عَلَيْكَ أَنْ تُعْطِيَهُمْ وأنت لا ترزؤهم شيئا؟ وقال: لا أحب أن أعين الظلمة علىٰ شي مِنْ أَمْرِهِمْ.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ أَيْ فِي الْمَدِينَةِ الَّتِي قَتَلَ فيها القبطي ﴿خَائِفًا﴾ من قتله القبطي، وَقِيلَ: خَائِفًا مِنْ قَوْمِهِ أَنْ يُسَلِّمُوهُ. وَقِيلَ: خَائِفًا مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ. ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ التَّرَقُّبُ: انْتِظَارُ الْمَكْرُوهِ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: يَتَلَفَّتُ مِنَ الْخَوْفِ وَقِيلَ: يَنْتَظِرُ الطَّلَبَ، وَيَنْتَظِرُ مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ. وَقَالَ قَتَادَةُ:" يَتَرَقَّبُ" أَيْ يَتَرَقَّبُ الطَّلَبَ. قَالَ الْكَلْبِيُّ: يَنْتَظِرُ مَتَىٰ يُؤْخَذُ بِهِ، ﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ يَسْتَغِيثُهُ وَالِاسْتِصْرَاخُ الِاسْتِغَاثَةُ، وَهُوَ مِنَ الصُّرَاخِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُسْتَغِيثَ يَصْرُخُ وَيُصَوِّتُ فِي طَلَبِ الْغَوْثِ، ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ﴾ للإسرائيلي ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ ظَاهِرُ الْغَوَايَةِ قَاتَلْتَ بِالْأَمْسِ رَجُلًا فَقَتَلْتُهُ بِسَبَبِكِ، وَتُقَاتِلُ الْيَوْمَ آخَرَ وَتَسْتَغِيثُنِي عَلَيْهِ ، وَالْغَوِيُّ: الشَّدِيدُ الْغَوَايَةِ وَهِيَ الضَّلَالُ وَسُوءُ النَّظَرِ، وَقِيلَ: إِنَّمَا قَالَ مُوسَىٰ لِلْفِرْعَوْنِيِّ: إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ بِظُلْمِكَ. وَالْأَوَّلُ أَصْوَبُ وَعَلَيْهِ الْأَكْثَرُونَ أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ لِلْإِسْرَائِيلِيِّ.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾ وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَىٰ أَدْرَكَتْهُ الرِّقَّةُ بالإسرائيلي فعد يَدَهُ لِيَبْطِشَ بِالْفِرْعَوْنِيِّ فَظَنَّ الْإِسْرَائِيلِيُّ أنه يريد أن يبطش له لما رأىٰ من غضبه ومع قَوْلَهُ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ، قال ابن كثير : ثم عزم علىٰ البطش بذلكَ القبطي، فاعتقد الإسرائيلي لِخَوَرِهِ وضَعْفِهِ وذِلَّتِهِ أن موسىٰ إنما يُرِيدُ قَصْدَهُ لَمَّا سَمِعَهُ يقولُ ذلك، فقال يدفع عن نفسه ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ﴾ مَا تُرِيدُ، ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾ بِالْقَتْلِ ظُلْمًا، قال الشَّعْبِيُّ: لَا يَكُونُ الْإِنْسَانُ جَبَّارًا حَتَّىٰ

يَقْتُلَ نَفْسَيْنِ بِغَيْرِ حَقٍّ. قِيلَ: الْجَبَّارُ الَّذِي يَفْعَلُ مَا يُرِيدُهُ مِنَ الضَّرْبِ وَالْقَتْلِ بِظُلْمٍ، لَا يَنْظُرُ فِي الْعَوَاقِبِ، وَلَا يَدْفَعُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ. وَقِيلَ: الْمُتَعَظِّمُ الَّذِي لَا يَتَوَاضَعُ لِأَمْرِ اللهِ تَعَالَىٰ، ﴿وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ أَيْ مِنَ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ بين الناس، فَلَمَّا سَمِعَ الْقِبْطِيُّ مَا قَالَ الْإِسْرَائِيلِيُّ عَلِمَ أَنَّ مُوسَىٰ هُوَ الَّذِي قَتَلَ ذَلِكَ الْفِرْعَوْنِيَّ فَانْطَلَقَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، وَأَمَرَ فِرْعَوْنُ بِقَتْلِ مُوسَىٰ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَلَمَّا أَرْسَلَ فِرْعَوْنُ الذَّبَّاحِينَ لِقَتْلِ مُوسَىٰ أَخَذُوا الطَّرِيقَ الْأَعْظَمَ.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ﴾ مِنْ اتباع مُوسَىٰ، قال ابن كثير : وَصَفَهُ بِالرُّجُولِيَّةِ لِأَنَّهُ خَالَفَ الطَّرِيقَ فسلك طريقًا أقرب من طريق الذي بُعِثُوا وَرَاءَهُ فَسَبَقَ إِلَىٰ مُوسَىٰ، ﴿مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ﴾ أي من آخرها ﴿يَسْعَىٰ﴾ أَيْ يُسْرِعُ فِي مَشْيِهِ فَأَخَذَ طَرِيقًا قَرِيبًا حَتَّىٰ سَبَقَ إِلَىٰ مُوسَىٰ فَأَخْبَرَهُ وَأَنْذَرَهُ حَتَّىٰ أَخَذَ طَرِيقًا آخَرَ، وَالسَّعْيُ: السَّيْرُ السَّرِيعُ، ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ يَعْنِي أَشْرَافَ قَوْمِ فِرْعَوْنَ يَتَشَاوَرُونَ فيك، ﴿لِيَقْتُلُوكَ﴾ قَالَ الزَّجَّاجُ: يَأْمُرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بقتلك، ﴿فَاخْرُجْ﴾ مِنَ الْمَدِينَةِ، ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ فِي الْأَمْرِ لَكَ بِالْخُرُوجِ.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ موسىٰ، ﴿خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أَيْ يَنْتَظِرُ الطَّلَبَ، ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ الكافرين، قال ابن عاشور : وَالْقَوْمُ الظَّالِمُونَ هُمْ قَوْمُ فِرْعَوْنَ، وَوَصَفَهُمْ بِالظُّلْمِ لِأَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ وَلِأَنَّهُمْ

رَامُوا قَتْلَهُ قِصَاصًا عَنْ قَتْلٍ خَطَأٍ وَذَلِكَ ظُلْمٌ لِأَنَّ الْخطَأَ فِي الْقَتْلِ لَا يَقْتَضِي الْجَزَاءَ بِالْقَتْلِ فِي نَظَرِ الْعَقْلِ وَالشَّرْعِ.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ لَمَّا خَرَجَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَارًّا بنفسه منفردا خائفا، لا شي مَعَهُ مِنْ زَادٍ وَلَا رَاحِلَةٍ وَلَا حِذَاءٍ نَحْوَ مَدْيَنَ، لِلنَّسَبِ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، لِأَنَّ مَدْيَنَ مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ، وَمُوسَىٰ مِنْ وَلَدِ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، وَرَأَىٰ حَالَهُ وَعَدَمَ مَعْرِفَتِهِ بِالطَّرِيقِ، وَخُلُوَّهُ مِنْ زَادٍ وَغَيْرِهِوَكَانَتْ مَدْيَنُ عَلَىٰ مَسِيرَةِ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ مِنْ مِصْرَ، ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أَيْ قَصْدَ الطَّرِيقِ إِلَىٰ مَدْيَنَ، قَالَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يعرف الطريق إليها. وقال الحسن البصري: الطريق المستقيم ، وأَسْنَدَ أَمْرَهُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ بِقَوْلِهِ: ﴿عَسىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ﴾ وَهَذِهِ حَالَةُ الْمُضْطَرِّ.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ وَهُوَ بِئْرٌ كَانُوا يَسْقُونَ مِنْهَا مواشيهم، ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً﴾ جماعة ، ﴿مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ مَوَاشِيَهُمْ، وَالْمَقْصُودُ: لَمَّا وَصَلَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَىٰ مَدْيَنَ وَوَرَدَ بِئْرًا فِيهَا كَانَتْ تَرِدُهُ رِعَاءُ الشَّاءُ، وَجَدَ جَمَاعَةً مِنَ النَّاسِ قَائِمِينَ عَلَىٰ ذَلِكَ الْمَاءِ يَسْقُونَ مَوَاشِيَهُمْ وَنَعَمَهُمْ، ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ﴾ يَعْنِي سِوَىٰ الْجَمَاعَةِ، ﴿امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ يَعْنِي تَحْبِسَانِ وَتَمْنَعَانِ أَغْنَامَهُمَا عَنِ الْمَاءِ حَتَّىٰ يَفْرُغَ النَّاسُ وَتَخْلُوَ لهما الْبِئْرُ، قَالَ الْحَسَنُ البصري : تَكُفَّانِ الْغَنَمَ عَنْ أَنْ تَخْتَلِطَ بِأَغْنَامِ النَّاسِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: تَكُفَّانِ النَّاسَ عَنْ أَغْنَامِهِمَا. وَقِيلَ: تَمْنَعَانِ أَغْنَامَهُمَا عَنْ أَنْ تَشِذَّ وَتَذْهَبَ ، ﴿قَالَ﴾

يَعْنِي مُوسَىٰ لِلْمَرْأَتَيْنِ، ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ مَا شَأْنُكُمَا لَا تَسْقِيَانِ مَوَاشِيَكُمَا مَعَ النَّاسِ،أي: لما رآهما موسىٰ عليه الصلاة والسلام رقَّ لهما وتوجه إليهما مستخبرًا عن شأنهما لماذا لا تِردان مع هؤلاء؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي﴾ أغنامنا، ﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ أَيْ حَتَّىٰ يَصْرِفُوا هُمْ مواشيهم عن الماء، والرعاء جَمْعُ رَاعٍ مِثْلَ تَاجِرٍ وَتُجَّارٍ، وَمَعْنَىٰ الْآيَةِ: لَا نَسْقِي مَوَاشِيَنَا حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ لِأَنَّا امْرَأَتَانِ لا نطيق أن نستسقي وَلَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُزَاحِمَ الرِّجَالَ، فَإِذَا صَدَرُوا سَقَيْنَا مَوَاشِيَنَا مَا أَفْضَلَتْ مَوَاشِيهُمْ فِي الْحَوْضِ، ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَسْقِيَ مَوَاشِيَهُ، فَلِذَلِكَ احْتَجْنَا نَحْنُ إِلَىٰ سَقْيِ الْغَنَمِ. وَاخْتَلَفُوا فِي اسْمِ أَبِيهِمَا، فَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ وَالْحَسَنُ: شُعَيْبٌ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ وَسَعِيدُ بْنُ جبير: هو بيرون بن أخي شعيب، فَلَمَّا سَمِعَ مُوسَىٰ قَوْلَهَمَا رَحِمَهُمَا فَاقْتَلَعَ صَخْرَةً مِنْ رَأْسِ بِئْرٍ لَا يُطِيقُ رَفْعَهَا إِلَّا جَمَاعَةٌ من الناس، فسقىٰ غنم المرأتين. فَذَلِكَ قَوْلُهُ:

[٢٤]: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ عن عمر بن الخطاب رضي اللهُ عَنْهُ: أنَّ موسىٰ عليه السلام لما وَرَدَ ماءَ مَدْينَ، وجَدَ عليه أمةً من الناسِ يسقون، قال: فلما فرغوا أعادُوا الصخرة علىٰ البئر، ولا يُطيقُ رفعَها إلا عَشَرةُ رجالٍ، فإذا هو بامرأتين تذودان، قال: ما خطبُكُما؟ فحَدَّثتاه، فأتىٰ الحجر فرفعه، ثم لم يَسْتَقِ إلا ذنوبًا واحدًا حتىٰ رَوِيت الغنم ، ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَىٰ الظِّلِّ﴾ ظِلِّ شَجَرَةٍ فَجَلَسَ فِي ظِلِّهَا مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ وَهُوَ جَائِعٌ، ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ﴾ من طعام،

﴿فَقِيرٌ﴾ قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: اللَّامُ بِمَعْنَىٰ إِلَىٰ يُقَالُ: هُوَ فَقِيرٌ لَهُ وَفَقِيرٌ إِلَيْهِ يَقُولُ: إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ أَيْ طَعَامٍ فَقِيرٌ مُحْتَاجٌ، كَانَ يَطْلُبُ الطعام لجوعه ، قال ابن عطاء: نظر من العبوديةِ إلىٰ الربوبية وتكلم بلسان الافتقار، لما ورد علىٰ سره من الأنوار،قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: سَارَ مُوسَىٰ مِنْ مِصْرَ إِلَىٰ مَدْيَنَ لَيْسَ لَهُ طَعَامٌ إِلَّا الْبَقْلُ وَوَرَقُ الشَّجَرِ، وَكَانَ حَافِيًا، فما وصل إلىٰ مدين حتىٰ سقطت نعل قدميه، وَجَلَسَ فِي الظِّلِّ وَهُوَ صَفْوَةُ اللهِ مِنْ خلقه، وإن بطنه للاصق بِظَهْرِهِ مِنَ الْجُوعِ، فَلَمَّا رَجَعَتَا إِلَىٰ أَبِيهِمَا سَرِيعًا قَبْلَ النَّاسِ وَأَغْنَامُهُمَا حُفَّلٌ بِطَانٌ قَالَ لَهُمَا: مَا أَعْجَلَكُمَا؟ قَالَتَا: وَجَدْنَا رَجُلًا صَالِحًا رَحِمَنَا فَسَقَىٰ لَنَا أَغْنَامَنَا، فَقَالَ لِإِحْدَاهُمَا: اذْهَبِي فَادْعِيهِ لِي.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ﴾ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لَيْسَتْ بِسَلْفَعٍ مِنَ النِّسَاءِ خَرَّاجَةً وَلَّاجَةً، وَلَكِنْ جَاءَتْ مُسْتَتِرَةً قَدْ وَضَعَتْ كُمَّ دِرْعِهَا عَلَىٰ وَجْهِهَا اسْتِحْيَاءً، قال الجوهري: السَّلْفَعُ من الرجال: الجسور. ومن النساء: الجريئة السليطة، ومن النوق: الشديدة. ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ يعني: لِيُثِيبَكَ ويُكافِئَكَ علىٰ سَقْيِكَ لغنمنا ، قال ابن كثير: وهذا تأدُّبٌ في العبارة، لم تطلبهُ طلبًا مُطلقًا لئلا يُوهِمَ ريبةً، فَمَشَتِ الْمَرْأَةُ وَمَشَىٰ مُوسَىٰ خَلْفَهَا، فَكَانَتِ الرِّيحُ تَضْرِبُ ثَوْبَهَا فَتَصِفُ رِدْفَهَا فَكَرِهُ مُوسَىٰ أَنْ يَرَىٰ ذَلِكَ مِنْهَا، فَقَالَ لَهَا امْشِي خَلْفِي وَدُلِّينِي عَلَىٰ الطَّرِيقِ إِنْ أخطأت ففعلت ذلك، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ يَعْنِي أَمْرَهُ

أَجْمَعَ، مِنْ قَتْلِهِ الْقِبْطِيَّ وَقَصْدِ فِرْعَوْنَ قَتْلَهُ، ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يَعْنِي فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ، وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِفِرْعَوْنَ سلطان علىٰ أهل مَدْيَنَ.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ اتَّخِذْهُ أَجِيرًا لِيَرْعَىٰ أَغْنَامَنَا، ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ يَعْنِي خَيْرَ مَنِ اسْتَعْمَلْتَ مَنْ قوي علىٰ العمل وأداء الْأَمَانَةَ، فَقَالَ لَهَا أَبُوهَا: وَمَا عِلْمُكِ بِقُوَّتِهِ وَأَمَانَتِهِ؟ قَالَتْ: أَمَّا قُوَّتُهُ فَإِنَّهُ رَفَعَ حَجَرًا مِنْ رأس البر لَا يَرْفَعُهُ إِلَّا عَشَرَةٌ. وَأَمَّا أَمَانَتُهُ فَإِنَّهُ قَالَ لِي: امْشِي خَلْفِي حَتَّىٰ لَا تَصِفَ الرِّيحُ بَدَنَكِ، وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ قَالَ «أَشْكُو إِلَىٰ اللهِ ضَعْفَ الْأَمِينِ وَخِيَانَةَ الْقَوِيِّ» .

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ شُعَيْبٌ عِنْدَ ذَلِكَ، ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَىٰ ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾ ذَهَبَ أَكْثَرُهُمْ إِلَىٰ أَنَّهُ زَوَّجَهُ الصُّغْرَىٰ مِنْهُمَا وَاسْمُهَا صَفُّورَةُ وَهِيَ الَّتِي ذَهَبَتْ لِطَلَبِ مُوسَىٰ، ﴿عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾ يَعْنِي أَنْ تَكُونَ أَجِيرًا لِي ثَمَانِ سِنِينَ، قَالَ الْفَرَّاءُ: يَعْنِي اجعل ثَوَابِي مِنْ تَزْوِيجِهَا أَنْ تَرْعَىٰ غنمي، تَقُولُ الْعَرَبُ: آجَرَكَ اللهُ بِأَجْرِكَ أَيْ أَثَابَكَ وَالْحِجَجُ السُّنُونَ وَاحِدَتُهَا حِجَّةٌ، مُشْتَقَّةٌ مِنِ اسْمِ الْحَجِّ لِأَنَّ الْحَجَّ يَقَعُ كُلَّ سَنَةٍ وَمَوْسِمُ الْحَجِّ يَقَعُ فِي آخِرِ شَهْرٍ مِنَ السَّنَةِ الْعَرَبِيَّةِ. ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ أَيْ إِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرَ سِنِينَ فذلك تفضل منك وتبرع، وليس بِوَاجِبٍ عَلَيْكَ، ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ أن أُلْزِمَكَ تَمَامَ الْعَشْرِ إِلَّا أَنْ تَتَبَرَّعَ،وَأَشُقَّ عَلَيْكَ مَعْنَاهُ: أَكُونَ شَاقًّا

عَلَيْكَ، أَيْ مُكَلِّفَكَ مَشَقَّةً، وَالْمَشَقَّةُ: الْعُسْرُ وَالتَّعَبُ وَالصُّعُوبَةُ فِي الْعَمَلِ ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي في حسن الصحبة والوفاء بما قلت ، قَالَ عُمَرُ: يَعْنِي فِي حُسْنِ الصُّحْبَةِ وَالْوَفَاءِ بِمَا قُلْتَ ، وَهَذَا مِنَ السَّمَاحَةِ الْوَارِدِ فِيهَا حَدِيثُ: «**رَحِمَ اللهُ امْرَأً سَمْحًا إِذَا بَاعَ، سَمَحًا إِذَا اشْتَرَىٰ**»(١).

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ موسىٰ ﴿ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ يَعْنِي هَذَا الشَّرْطُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، فَمَا شَرَطْتَ عَلَيَّ فَلَكَ وَمَا شرطت أن تَزْوِيج إِحْدَاهُمَا فَلِي، وَالْأَمْرُ بَيْنَنَا، تَمَّ الْكَلَامُ ثُمَّ قَالَ: ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ يعني أي الأجلين (وما) صلة نصب بمعنىٰ أتممت أو فرغت من الثَّمَانِ أَوِ الْعَشْرِ، ﴿فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ لا ظلم لي بأن أطالب بأكثر منهم، ﴿وَاللهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُقَاتِلٌ: شَهِيدٌ فيما بيني وبينك ، وَأَصْلُ الْوَكِيلِ: الَّذِي وُكِّلَ إِلَيْهِ الْأَمْرُ، وَأَرَادَ هُنَا أَنَّهُ وُكِّلَ عَلَىٰ الْوَفَاءِ بِمَا تَعَاقَدَا عَلَيْهِ حَتَّىٰ إِذَا أَخَلَّ أَحَدُهُمَا بِشَيْءٍ كَانَ اللهُ مُؤَاخِذَهُ، قال القرطبي : فَاكْتَفَىٰ الصَّالِحَانِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمَا فِي الْإِشْهَادِ عَلَيْهِمَا بِاللهِ وَلَمْ يُشْهِدَا أَحَدًا مِنَ الْخَلْقِ،وعن ابن عباس قال: قال رسول الله – صلىٰ الله عليه وسلم –: أسألتُ جبريل: أيَّ الأجلين قضىٰ موسىٰ عليه السلام؟ قال: أكملَهما وأتمهما.

(١) البخاري (٢٠٧٦) .

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ﴾ يَعْنِي أَتَمَّهُ وَفَرَغَ مِنْهُ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: سَأَلَنِي رَجُلٌ مِنَ النَّصَارَىٰ أَيَّ الْأَجَلَيْنِ قَضَىٰ مُوسَىٰ فَقُلْتُ: لَا أَدْرِي حَتَّىٰ أَقْدَمَ عَلَىٰ حَبْرِ الْعَرَبِ فَأَسْأَلَهُ- يَعْنِي ابْنَ عَبَّاسٍ- فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: قَضَىٰ أَكْمَلَهُمَا وَأَوْفَاهُمَا فَأَعْلَمْتُ النَّصْرَانِيَّ فَقَالَ: صَدَقَ وَاللهِ هَذَا الْعَالِمُ. ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ فَخَرَجَ بِأَهْلِهِ إِلَىٰ جَانِبِ مِصْرَ، وَالْأَهْلُ: مُرَادٌ بِهِ زَوْجُهُ، وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ إِلَّا زَوْجُهُ وَابْنَانِ صَغِيرَانِ ، وَالْمُخَاطَبُ بِالْقَوْلِ زَوْجُهُ، وَيُكَنَّىٰ عَنِ الزَّوْجَةِ بِالْأَهْلِ، ﴿آنَسَ﴾ يَعْنِي أَبْصَرَ، قال ابن عاشور : وَالْإِينَاسُ: الْإِحْسَاسُ وَالشُّعُورُ بِأَمْرٍ خَفِيٍّ، فَيَكُونُ فِي الْمَرْئِيَّاتِ وَفِي الْأَصْوَاتِ ﴿مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ وَكَانَ فِي الْبَرِّيَّةِ فِي لَيْلَةٍ مظلمة شاتية شَدِيدَةِ الْبَرْدِ وَأَخَذَ امْرَأَتَهُ الطَّلْقُ، ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ يعني عَنِ الطَّرِيقِ لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ أَخْطَأَ الطَّرِيقَ، ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ يَعْنِي قِطْعَةً وَشُعْلَةً مِنَ النَّارِ، قَالَ قَتَادَةُ وَمُقَاتِلٌ: هِيَ الْعُودُ الَّذِي قد احترق بعضه ،قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: وَالْجَذْوَةُ : الْجَمْرَةُ الْمُلْتَهِبَةُ ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: وَالْجَذْوَةُ مِثْلَ الْجِذْمَةِ وَهِيَ الْقِطْعَةُ الْغَلِيظَةُ مِنَ الْخَشَبِ كَانَ فِي طَرَفِهَا نَارٌ أَوْ لَمْ يَكُنْ ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ تَسْتَدْفِئُونَ. وكان قد أصابهم البرد، وتاهوا الطريق. وَالِاصْطِلَاءُ: مِنَ الصَّلْيِ وَهُوَ الشَّيُّ بِالنَّارِ، ثم صَارَ بِمَعْنَىٰ التَّدَفُّؤِ بوهج النَّار.

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ (فَلَمَّا أَتَاها﴾ يَعْنِي الشَّجَرَةَ ، ﴿نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ﴾ يعني مِنْ جَانِبِ الْوَادِي الَّذِي عَنْ يَمِينِ مُوسَىٰ، ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾

لِمُوسَىٰ جعَلَهَا اللهُ مُبَارَكَةً لِأَنَّ اللهَ كَلَّمَ مُوسَىٰ هُنَاكَ وَبَعَثَهُ نَبِيًّا. وَقَالَ عَطَاءٌ: يُرِيدُ الْمُقَدَّسَةَ، ﴿مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ من ناحية الشجرة ، قال ابن ابن كثير : هَذَا مِمَّا يُرْشِدُ إِلَىٰ أَنَّ مُوسَىٰ قَصَدَ النَّارَ إِلَىٰ جِهَةِ الْقِبْلَةِ، وَالْجَبَلُ الْغَرْبِيُّ عَنْ يَمِينِهِ وَالنَّارُ وَجَدَهَا تَضْطَرِمُ فِي شَجَرَةٍ خَضْرَاءَ، فِي لَحْفِ الْجَبَلِ مِمَّا يَلِي الْوَادِيَ فَوَقَفَ بَاهِتًا فِي أمرها فناداه ربه : ﴿أَنْ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيِ الَّذِي يُخَاطِبُكَ وَيُكَلِّمُكَ هُوَ ﴿رَبُّ العالمين﴾ الفعال لما يشاء، تعال وَتَقَدَّسَ وتنزَّه عَنْ مُمَاثَلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ، فِي ذَاتِهِ وصفاته وأقواله وأفعاله.

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ﴾ تتحرك، ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ وَهِيَ الْحَيَّةُ الصَّغِيرَةُ مِنْ سُرْعَةِ حركتها، ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ هاربا منها، ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ لَمْ يَرْجِعْ فَنُودِيَ، والمقصود: فألقىٰ موسىٰ عصاه فصارت حية تَسعىٰ، فلما رآها تضطرب وتتحرك كالجان من الحيات ولىٰ موسىٰ هاربًا منها ومن هول ما رأىٰ ، فقال ﴿يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ أي أمنتَ من أن ينالك مكروه من الحية.

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ﴾ أَدْخِلَ أي: أدخل يدك في جيب قميصكَ تخرج بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ وَلَا أَذًىٰ، فَخَرَجَتْ وَلَهَا شُعَاعٌ كَضَوْءِ الشَّمْسِ، قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: فَخَرَجَتْ كَأَنَّهَا الْمِصْبَاحُ، فَأَيْقَنَ مُوسَىٰ أَنَّهُ لَقِيَ رَبَّهُ، ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ وفيها لُغَاتٌ ، كلها بِمَعْنَىٰ الْخَوْفِ وَمَعْنَىٰ

الآية إذا خفت أمر يدك ما تَرَىٰ مِنْ شُعَاعِهَا فَأَدْخِلْهَا فِي جَيْبِكَ تَعُدْ إِلَىٰ حَالَتِهَا الْأُولَىٰ وَالْجَنَاحُ الْيَدُ كُلُّهَا، وَقِيلَ: هُوَ الْعَضُدُ ، وَقَالَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْا: أَمَرَهُ الله بضم يَدَهُ إِلَىٰ صَدْرِهِ فَيَذْهَبَ عَنْهُ مَا نَالَهُ مِنَ الْخَوْفِ عِنْدَ معاينة الحية. وَقِيلَ: الْمُرَادُ مِنْ ضَمِّ الْجَنَاحِ السكون يعني سكن روعك واخفض عليك جأشك لِأَنَّ مِنْ شَأْنِ الْخَائِفِ أَنْ يَضْطَرِبَ قَلْبُهُ وَيَرْتَعِدَ بَدَنُهُ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ يُرِيدُ الرِّفْقَ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ ارْفُقْ بهم وألن جانبك لهم، وقال الْفَرَّاءُ: أَرَادَ بِالْجَنَاحِ الْعَصَا، مَعْنَاهُ اضْمُمْ إِلَيْكَ عَصَاكَ، وَقِيلَ: الرَّهْبُ الْكُمُّ بِلُغَةِ حِمْيَرَ، قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: سَمِعْتُ بَعْضَ الْأَعْرَابِ يَقُولُ: أَعْطِنِي مَا فِي رَهْبِكَ أَيْ فِي كُمِّكَ، مَعْنَاهُ اضْمُمْ إِلَيْكَ يَدَكَ وَأَخْرِجْهَا مِنَ الْكُمِّ، لِأَنَّهُ تَنَاوَلَ الْعَصَا وَيَدُهُ فِي كُمِّهِ، ﴿فَذَانِكَ﴾ يَعْنِي الْعَصَا وَالْيَدُ الْبَيْضَاءُ، دَلِيلَانِ قَاطِعَانِ وَاضِحَانِ عَلَىٰ قُدْرَةِ الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ، وَصِحَّةِ نُبُوَّةِ مَنْ جَرَىٰ هَذَا الْخَارِقُ عَلَىٰ يَدَيْهِ، وَقَالَ الْفَرَّاءُ: اجْتَمَعَ القُراء عَلَىٰ تَخْفِيفِ النُّونِ مَنْ ذانِكَ وكثيرٌ مِنَ الْعَرَبِ فَيَقُولُ فذانِك قائمانِ وهذانِ قائمانِ وَاللَّذَانِ قَالَا ذَلِكَ، ﴿بُرْهَانَانِ﴾ أي: حجتان قاطعتان من الله : ﴿مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي خارجين عن طاعة ربهم.

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ يَعْنِي ذَلِكَ الْقِبْطِيَّ، ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ أَيْ إِذَا رَأَوْنِي، عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: كَانَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ

قَدْ مُلِئَ قَلْبُهُ رُعْبًا مِنْ فِرْعَوْنَ، فَكَانَ إِذَا رَآهُ قَالَ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَدْرَأُ بِكَ فِي نحره، وأعوذ بك من شره**»[1] ، فنزع اللهُ مَا كَانَ فِي قَلْبِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَجَعَلَهُ فِي قَلْبِ فِرْعَوْنَ ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ فِي لِسَانِهِ لَثْغَةٌ بِسَبَبِ مَا كَانَ تَنَاوَلَ تِلْكَ الجمرة، فَحَصَلَ فِيهِ شِدَّةٌ فِي التَّعْبِيرِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَتْ فِي لِسَانِهِ رُتَّةٌ. وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ فِي حِجْرِ فِرْعَوْنَ ذَاتَ يَوْمٍ وَهُوَ طِفْلٌ فَلَطَمَهُ لَطْمَةً، وَأَخَذَ بِلِحْيَتِهِ فَنَتَفَهَا فقَالَ فِرْعَوْنُ لِآسِيَةَ: هَذَا عَدُوِّي فَهَاتِ الذَّبَّاحِينَ ، فَقَالَتْ آسِيَةُ: عَلَىٰ رِسْلِكَ فَإِنَّهُ صَبِيٌّ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ، ثُمَّ أَتَتْ بِطَسْتَيْنِ فَجَعَلَتْ فِي أَحَدِهِمَا جَمْرًا وَفِي الْآخَرِ جَوْهَرًا فَأَخَذَ جِبْرِيلُ بِيَدِ مُوسَىٰ فَوَضَعَهَا عَلَىٰ النَّارِ حَتَّىٰ رَفَعَ جَمْرَةً وَوَضَعَهَا فِي فِيهِ عَلَىٰ لِسَانِهِ، فَكَانَتْ تِلْكَ الرُّتَّةُ ، ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ عَوْنًا، يُقَالُ: رَدَأْتُهُ أَيْ أَعَنْتُهُ، قال ابن كثير : أَيْ وَزِيرًا وَمُعِينًا وَمُقَوِّيا لِأَمْرِي، يَصَدِّقُنِي فِيمَا أَقُولُهُ وَأُخْبِرُ بِهِ عَنِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ﴿يُصَدِّقُنِي﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ: لِكَيْ يُصَدِّقَنِي فِرْعَوْنُ، ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ يَعْنِي فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ. قال بان إسحاق : أَيْ يُبَيِّنُ لهم ما أكلمهم به فإنه يفهم عني ما لا يعلمون، فلما سأل ذلك موسىٰ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ:

[٣٤]: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أَيْ نُقَوِّيكَ بِأَخِيكَ وَكَانَ هَارُونُ يَوْمَئِذٍ بِمِصْرَ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: لَيْسَ أَحَدٌ أَعْظَمَ مِنَّةً عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ

(١) أبو داود (١٥٣٧) .

(مُوسَىٰ) عَلَىٰ (هَارُونَ) عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فَإِنَّهُ شُفِّعَ فِيهِ حَتَّىٰ جَعَلَهُ الله نبيـًا ورسولاً، ومعنىٰ : سَنَشُدُّ عَضُدَكَ أَيْ نُقَوِّيكَ بِهِ، وَهَذَا تَمْثِيلٌ، لِأَنَّ قُوَّةَ الْيَدِ بِالْعَضُدِ. وَيُقَالُ فِي دُعَاءِ الْخَيْرِ: شَدَّ اللهُ عَضُدَكَ. وَفِي ضِدِّهِ: فَتَّ اللهُ فِي عَضُدِكَ. وَالشَّدُّ: الرَّبْطُ، وَشَأْنُ الْعَامِلِ بِعُضْوٍ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ عَمَلًا مُتْعِبًا لِلْعُضْوِ أَنْ يَرْبِطَ عَلَيْهِ لِئَلَّا يَتَفَكَّكَ أَوْ يَعْتَرِيَهُ كَسْرٌ، وَفِي ضِدِّ ذَلِكَ وَقَوْلُهُمْ: فَتَّ فِي عَضُدِهِ، وَجُعِلَ الْأَخُ هُنَا بِمَنْزِلَةِ الرِّبَاطِ الَّذِي يُشَدُّ بِهِ، وقَالَ الزَّجَّاجُ: أَي سَنُعِينُكَ بِأَخيك، قَالَ: وَلَفْظُ الْعَضُدِ عَلَىٰ جِهَةِ الْمَثَلِ لأَن الْيَدَ قِوامُها عَضُدُها، ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ حُجَّةً وَبُرْهَانًا، أي نجعل لكما غلبة وتسلطًا وهيبة في قلوب الأعداء ، ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا﴾ أَيْ لَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِقَتْلٍ وَلَا سُوءٍ لِمَكَانِ آيَاتِنَا، وَقِيلَ: فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، تَقْدِيرُهُ: وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا بِآيَاتِنَا بِمَا نُعْطِيكُمَا مِنَ الْمُعْجِزَاتِ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا، ﴿أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ أَيْ لَكُمَا وَلِأَتْبَاعِكُمَا الْغَلَبَةُ عَلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهُ، قَالَ السَّعْدِيُّ: وَهَذَا وَعْدٌ لِمُوسَىٰ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَهُوَ وَحْدَهُ فَرِيدٌ، وَقَدْ رَجَعَ إِلَىٰ بَلَدِهِ، بَعْدَ مَا كَانَ شَرِيدًا، فَلَمْ تَزَلِ الْأَحْوَالُ تَتَطَوَّرُ، وَالْأُمُورُ تَنْتَقِلُ، حَتَّىٰ أَنْجَزَ اللهُ لَهُ مَوْعُودَهُ، وَمَكَّنَهُ مِنَ الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ، وَصَارَ لَهُ وَلِأَتْبَاعِهِ، الْغَلَبَةُ وَالظُّهُورُ.

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أَيْ ظَاهِرَاتٍ وَاضِحَاتٍ ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًىٰ﴾ مَكْذُوبٌ مُخْتَلَقٌ، الْمَقْصُودُ: لَمَّا عَرَضَ مُوسَىٰ حُجَجَ اللهِ تَعَالَىٰ الْبَالِغَاتِ، وَالْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَاتِ بَيْنَ يَدَيْ

فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ وَحُوصِرُوا بِدَلَالَةِ الْحَقِّ، لَجَؤُوا إِلَىٰ الِاتِّهَامِ بِالسِّحْرِ وَاسْتِخْدَامِ الْمَكْرِ وَالْحِيلَةِ، ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ بِالَّذِي تَدْعُونَا إِلَيْهِ، قَالَ السَّعْدِيُّ: وَقَدْ كَذَبُوا فِي ذَلِكَ، فَإِنَّ اللهَ أَرْسَلَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَبْلَ مُوسَىٰ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [غافر : ٢٤] وقوله عز وجل : ﴿فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [القصص : ٣٦] أَيْ مُفْتَعَلٌ مصنوع، وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه، قال ابن كثير : يَعْنُونَ عبادة الله وحده لا شريك له، ويقولون مَا رَأَيْنَا أَحَدًا مِنْ آبَائِنَا عَلَىٰ هَذَا الدِّينِ، وَلَمْ نَرَ النَّاسَ إِلَّا يُشْرِكُونَ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ، فَقَالَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُجِيبًا لَهُمْ:

[٣٧] : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ﴾ بِالْمُحِقِّ مِنَ الْمُبْطِلِ، ﴿وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ يعني الْعُقْبَىٰ الْمَحْمُودَةُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَالْعَاقِبَةُ: هِيَ الْحَالَةُ الْعَاقِبَةُ، أَيِ الَّتِي تَعْقُبُ، أَيْ تَجِيءُ عَقِبَ غَيْرِهَا، ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أَيِ الْمُشْرِكُونَ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْمَعْنَىٰ: إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، لَا يُرْسِلُ الْكَاذِبِينَ، وَلَا يُنَبِّئُ السَّحَرَةَ الْمُشَعْوِذِينَ، وَقَدْ كَتَبَ الْخَسَارَةَ عَلَىٰ الظَّالِمِينَ.

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: أَنَا وَحْدِي، إِلَهُكُمْ وَمَعْبُودُكُمْ، وَلَوْ كَانَ ثَمَّ إِلَهٌ غَيْرِي، لَعَلِمْتُهُ، فَانْظُرْ إِلَىٰ هَذَا الْوَرَعِ التَّامِّ مِنْ فِرْعَوْنَ!، حَيْثُ لَمْ يَقُلْ ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ بَلْ تَوَرَّعَ ، وَقَالَ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ وَهَذَا، لِأَنَّهُ

عِنْدَهُمْ، الْعَالِمُ الْفَاضِلُ، الَّذِي مَهْمَا قَالَ فَهُوَ الْحَقُّ، وَمَهْمَا أَمَرَ أَطَاعُوهُ ، فَلَمَّا قَالَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ، الَّتِي قَدْ تَحْتَمِلُ أَنَّ ثَمَّ إِلَهًا غَيْرَهُ، أَرَادَ أَنْ يُحَقِّقَ النَّفْيَ، الَّذِي جَعَلَ فِيهِ ذَلِكَ الِاحْتِمَالَ، فَقَالَ لِـ (هَامَانَ) ، ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَىٰ الطِّينِ﴾ يعني اصنع لي طابوقـًا من طين الذي يسمىٰ (الآجر) ، وَقِيلَ: إِنَّهُ أول من اتخذ الطابوقِ الذي يطبخ بالنار وَبَنَىٰ بِهِ، وهامانُ لَقَبٌ أَوِ اسْمٌ لِوَزِيرِ فِرْعَوْنَ ﴿فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا﴾ قصراً عاليـًا، وقيل: منارة، ثال ابن كثير : عني أمر وزيره (هامان) مدير رعيته أن يوقد له علىٰ الطين يعني يتخذ لَهُ آجُرًّا لِبِنَاءِ الصَّرْحِ، وَهُوَ الْقَصْرُ الْمُنِيفُ الرفيع العالي، ﴿لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ﴾ أَنْظُرُ إِلَيْهِ وَأَقِفُ عَلَىٰ حَالِهِ، ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ﴾ يعني موسىٰ، ﴿مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فِي زَعْمِهِ أَنَّ لِلْأَرْضِ وَلِلْخَلْقِ إِلَهًا غَيْرِي، وَأَنَّهُ رَسُولُهُ. أَيْ فِي قَوْلِهِ إِنَّ ثَمَّ رَبًّا غَيْرِي، لَا أَنَّهُ كَذَّبَهُ فِي أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَرْسَلَهُ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْتَرِفُ بِوُجُودِ الْخَالِقِ جَلَّ وَعَلَا. قَالَ الْجُوَيْنِيُّ: وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ مُوسَىٰ أَخْبَرَهُ بِأَنَّ رَبَّهُ تَعَالَىٰ فَوْقَ السَّمَاءِ، وَلِهَذَا قَالَ: وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا.

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ أَيْ تعظم ﴿هُوَ وَجُنُودُهُ﴾ أي عَنِ الْإِيمَانِ بِمُوسَىٰ ، قَالَ السَّعْدِيُّ: اسْتَكْبَرُوا عَلَىٰ عِبَادِ اللهِ، وَسَامُوهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، وَاسْتَكْبَرُوا عَلَىٰ رُسُلِ اللهِ، وَمَا جَاءُوهُمْ بِهِ مِنَ الْآيَاتِ، فَكَذَّبُوهَا، وَزَعَمُوا أَنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ أَعْلَىٰ مِنْهَا وَأَفْضَلُ ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ حَنْظَلَةَ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ سَلَامٍ- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- مَرَّ فِي السُّوقِ وَعَلَيْهِ حُزْمَةٌ مِنْ حَطَبٍ فَقِيلَ لَهُ: مَا يَحْمِلُكَ عَلَىٰ هَذَا؟

وَقَدْ أَغْنَاكَ اللهُ عَنْ هَذَا ، قَالَ: أَرَدْتُ أَنْ أَدْفَعَ الْكِبْرَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ خَرْدَلَةٌ مِنْ كِبْرٍ**»(١)، وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: السُّجُودُ يُذْهِبُ بِالْكِبْرِ، وَالتَّوْحِيدُ يُذْهِبُ بِالرِّيَاءِ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أَيْ بِالْعُدْوَانِ، أَيْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حُجَّةٌ تَدْفَعُ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنا لا يُرْجَعُونَ﴾ أَيْ تَوَهَّمُوا أَنَّهُ لَا مَعَادَ وَلَا بَعْثَ.

[٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ﴾ وَكَانُوا أَلْفَيْ أَلْفٍ وَسِتَّمِائَةِ أَلْفٍ، ﴿فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ أَيْ طَرَحْنَاهُمْ فِي الْبَحْرِ الْمَالِحِ ، قَالَ قَتَادَةُ: بَحْرٌ مِنْ وَرَاءِ مِصْرَ يُقَالُ لَهُ إِسَافٌ أَغْرَقَهُمُ اللهُ فِيهِ ، وَقَالَ وَهْبٌ وَالسُّدِّيُّ: الْمَكَانُ الَّذِي أَغْرَقَهُمُ اللهُ فِيهِ بِنَاحِيَةِ الْقُلْزُمِ يُقَالُ لَهُ بَطْنُ مُرَيْرَةَ، وَهُوَ إِلَىٰ الْيَوْمِ غَضْبَانُ ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: يَعْنِي نَهْرَ النِّيلِ ، وَهَذَا ضَعِيفٌ وَالْمَشْهُورُ الْأَوَّلُ، ﴿فَانْظُرْ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ أَيْ آخِرُ أَمْرِهِمْ.

[٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً﴾ قَادَةً وَرُؤَسَاءَ، قَالَ قتادة: جعلهم الله أَئِمَّة يدعونَ إِلَىٰ المعاصِي ، وَقِيلَ: أَئِمَّةٌ يَأْتَمُّ بِهِمْ ذَوُو الْعِبَرِ وَيَتَّعِظُ بِهِمْ أَهْلُ الْبَصَائِرِ ، وَالْمَقْصُودُ: تَرَكَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي الْأَرْضِ مَثَلًا لِأَهْلِ الْعُتُوِّ وَالْبَغْيِ وَالْكُفْرِ لِيَصِيرُوا إِلَىٰ مَا صَارُوا إِلَيْهِ ، ﴿يَدْعُونَ إِلَىٰ النَّارِ﴾ أَيْ إِلَىٰ عَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ﴾ لَا يَنْجُونَ مِنَ الْعَذَابِ، أَيْ وَلَّىٰ زَمَنُ الِاسْتِعْلَاءِ

---

(١) مسلم (٩١) .

بِالنُّصْرَةِ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْجُنُودِ وَالْقَادَةِ وَالْوُزَرَاءِ وَالْأَتْبَاعِ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْخِزْيُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ؛ لِيَجْتَمِعَ عَلَيْهِمْ سُوءُ النِّهَايَةِ فِي الدُّنْيَا مَوْصُولًا بِسُوءِ الْمَصِيرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

[٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ خِزْيًا وَعَذَابًا، أَيْ أَمَرْنَا الْعِبَادَ بِلَعْنِهِمْ فَمَنْ ذَكَرَهُمْ لَعَنَهُمْ. كما أَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا مَلْعُونُونَ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَتْبَاعِهِمْ كَذَلِكَ، وَقِيلَ: أَيْ أَلْزَمْنَاهُمُ اللَّعْنَ أَيِ الْبُعْدَ عَنِ الْخَيْرِ، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ من الْمُبْعَدِينَ الْمَلْعُونِينَ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: مِنَ الْمُهْلَكِينَ ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: مِنَ الْمُشَوَّهِينَ بِسَوَادِ الْوُجُوهِ وَزُرْقَةِ الْعُيُونِ، يُقَالُ: قَبَحَهُ اللهُ وَقَبَّحَهُ إِذَا جَعَلَهُ قَبِيحًا، وَيُقَالُ: قَبَّحَهُ قبحا وقبوحا إذا أبعد من كل خير.

[٤٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَىٰ الْكِتابَ﴾ يَعْنِي التَّوْرَاةَ، قَالَهُ قَتَادَةُ. قَالَ يَحْيَىٰ بْنُ سَلَّامٍ: هُوَ أَوَّلُ كِتَابٍ- يَعْنِي التَّوْرَاةَ- نَزَلَتْ فِيهِ الْفَرَائِضُ وَالْحُدُودُ وَالْأَحْكَامُ ، وَقِيلَ: الْكِتَابُ هُنَا سِتٌّ مِنَ الْمَثَانِي السَّبْعِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾ يَعْنِي قَوْمَ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَغَيْرَهُمْ كَانُوا قَبْلَ مُوسَىٰ، وَالْقَرْنُ: الْأُمَّةُ، قَالَ تَعَالَىٰ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ ، كما ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: « **خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يكون قوم تحت الشمس- أو السماء-**

يَنْذِرُونَ وَلَا يَفُونَ، وَيَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ وَيَخُونُونَ ولا يؤتمنون»(١) ، ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ يعني لِيُبْصِرُوا بِذَلِكَ الْكِتَابَ وَيَهْتَدُوا بِهِ، وعَن ابْن زيد قَالَ: البصائر الْهدىٰ بصائر مَا فِي قُلُوبهم لذنوبهم، قال ابن عاشور : وَالْبَصَائِرُ: جَمْعُ بَصِيرَةٍ، وَهِيَ إِدْرَاكُ الْعَقْلِ. سُمِّيَ بَصِيرَةً اشْتِقَاقًا مِنْ بَصَرِ الْعَيْنِ، وَجُعِلَ الْكِتَابُ بَصَائِرَ بِاعْتِبَارِ عِدَّةِ دَلَائِلِهِ وَكَثْرَةِ بَيِّنَاتِهِ، قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: أُمُورٌ يُبْصِرُونَ بِهَا مَا يَنْفَعُهُمْ، وَمَا يَضُرُّهُمْ، فَتَقُومُ الْحُجَّةُ عَلَىٰ الْعَاصِي، وَيَنْتَفِعُ بِهَا الْمُؤْمِنُ، فَتَكُونُ رَحْمَةً فِي حَقِّهِ، وَهِدَايَةً لَهُ إِلَىٰ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿وَهُدًىٰ﴾ من الضلال لمن عمل به، ﴿وَرَحْمَةً﴾ لِمَنْ آمَنَ بِهِ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ بِمَا فِيهِ مِنَ الْمَوَاعِظِ وَالْبَصَائِرِ، ولِيَذْكُرُوا هَذِهِ النِّعْمَةَ فيقموا عَلَىٰ إِيمَانِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَيَثِقُوا بِثَوَابِهِمْ فِي الآخرة ، وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: مَا أَهْلَكَ اللهُ قَوْمًا بِعَذَابٍ مِنَ السَّمَاءِ وَلَا مِنَ الْأَرْضِ بَعْدَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ، غير أهل القرية الذين مسخوا قردة بعد مُوسَىٰ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا القرون الأولىٰ﴾ .

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كُنْتَ﴾ يا محمد عليه الصلاة والسلام ﴿بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ يَعْنِي بِجَانِبِ الْجَبَلِ الْغَرْبِيِّ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: بِجَانِبِ الْوَادِي الْغَرْبِيِّ. و قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: يُرِيدُ حَيْثُ ناجىٰ موسىٰ ﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ

---

(١) الترمذي (٢٢٢١) .

﴿الْأَمْرَ﴾ يَعْنِي عَهِدْنَا إِلَيْهِ وَأَحْكَمْنَا الْأَمْرَ مَعَهُ بِالرِّسَالَةِ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، وَقِيلَ: أَيْ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَمْرَكَ وَذَكَرْنَاكَ بِخَيْرِ ذِكْرٍ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿إِذْ قَضَيْنا﴾ أَيْ أَخْبَرْنَا أَنَّ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ خَيْرُ الْأُمَمِ ، ﴿وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ الحاضرين ذلك المنام فَتَذْكُرُهُ مِنْ ذَاتِ نَفْسِكَ. وَلَكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ ذلك، ليكون حُجَّةً وَبُرْهَانًا عَلَىٰ قُرُونٍ قَدْ تَطَاوَلَ عَهْدُهَا، وَنَسُوا حُجَجَ اللهِ عَلَيْهِمْ، وَمَا أَوْحَاهُ إِلَىٰ الأنبياء المتقدمين.

[٤٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا﴾ خلقنا أمما ،أي بين زمانك وزمان موسىٰ ، ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ أَيْ طَالَتْ عَلَيْهِمُ الْمُهْلَةُ فَنَسُوا عهد الله وميثاقه وَتَرَكُوا أَمْرَهُ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَدْ عَهِدَ إِلَىٰ مُوسَىٰ وقومه عهودا في محمد صلىٰ الله عليه وسلم وَالْإِيمَانِ بِهِ، فَلَمَّا طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَخُلِّفَتِ الْقُرُونَ بَعْدَ الْقُرُونِ نَسُوا تِلْكَ الْعُهُودَ وَتَرَكُوا الْوَفَاءَ بها، قال القرطبي : حَتَّىٰ نَسُوا ذِكْرَ اللهِ أَيْ عَهْدَهُ وَأَمْرَهُ. مثل قوله تعالىٰ: ﴿ فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، وَظَاهِرُ هَذَا يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ جَرَىٰ لِنَبِيِّنَا عَلَيْهِ السَّلَامُ ذِكْرٌ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَأَنَّ اللهَ سَيَبْعَثُهُ، وَلَكِنْ طَالَتِ الْمُدَّةُ، وَغَلَبَتِ الْقَسْوَةُ، فَنَسِيَ الْقَوْمُ ذَلِكَ وَقِيلَ: آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَأَخَذْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ الْعُهُودَ، ثُمَّ تَطَاوَلَ الْعَهْدُ فَكَفَرُوا، فَأَرْسَلْنَا مُحَمَّدًا مُجَدِّدًا لِلدِّينِ وداعيا الخلق إليه، وقال السعدي : فاندرس العلم، ونسيت آياته، فبعثناك في وقت اشتدت الحاجة إليك وإلىٰ ما علمناك وأوحينا إليك ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا﴾ مقيمـا، وَالثَّوَاءُ: الْإِقَامَةُ ، ﴿فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾

كَمَقَامِ مُوسَىٰ وَشُعَيْبٍ فِيهِمْ، ﴿تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ تُذَكِّرُهُمْ بِالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، قَالَ مُقَاتِلٌ: يَقُولُ لَمْ تَشْهَدْ أَهْلَ مَدْيَنَ فَتَقْرَأْ عَلَىٰ أَهْلِ مَكَّةَ خَبَرَهُمْ، ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أَيْ أَرْسَلْنَاكَ رَسُولًا وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِيهِ هَذِهِ الْأَخْبَارُ، فَتَتْلُوهَا عَلَيْهِمْ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَا عَلِمْتَهَا وَلَمْ تُخْبِرْهُمْ بِهَا ، وَالْمَقْصُودُ: نَحْنُ -يَا مُحَمَّدُ- أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ خَبَرَ أَهْلِ مَدْيَنَ مَعَ نَبِيِّهِمْ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلَمْ تَكُنْ أَنْتَ مُقِيمًا بَيْنَهُمْ حِينَ أَخْبَرْتَ قَوْمَكَ عَنْهُمْ، بَلْ قَصَصْتَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ خَبَرِ هَذَا الْوَحْيِ الْعَظِيمِ، فَلْيَعْتَبِرْ قَوْمُكَ بِهَذَا عَلَىٰ بُرْهَانِ نُبُوَّتِكَ.

[٤٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ﴾ بِنَاحِيَةِ الْجَبَلِ الَّذِي كَلَّمَ اللهُ عليه موسىٰ، ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ قِيلَ: إِذْ نَادَيْنَا مُوسَىٰ خُذِ الكتاب بقوة، قال القرطبي: أَيْ كَمَا لَمْ تَحْضُرْ جَانِبَ الْمَكَانِ الْغَرْبِيِّ إِذْ أَرْسَلَ اللهُ مُوسَىٰ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ، فَكَذَلِكَ لَمْ تَحْضُرْ جَانِبَ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا مُوسَىٰ لَمَّا أَتَىٰ الْمِيقَاتَ مَعَ السَّبْعِينَ. ﴿وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ أَيْ وَلَكِنْ رَحِمْنَاكَ رَحْمَةً بِإِرْسَالِكَ وبالوحي إِلَيْكَ وَإِطْلَاعِكَ عَلَىٰ الْأَخْبَارِ الْغَائِبَةِ عَنْكَ، وقال النَّحَّاسُ: أَيْ لَمْ تَشْهَدْ قَصَصَ الْأَنْبِيَاءِ، وَلَا تُلِيَتْ عَلَيْكَ، وَلَكِنَّا بَعَثْنَاكَ وَأَوْحَيْنَاهَا إِلَيْكَ لِلرَّحْمَةِ. ﴿لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يَعْنِي الْعَرَبَ، أَيْ لَمْ تُشَاهِدْ تِلْكَ الْأَخْبَارَ، وَلَكِنْ أَوْحَيْنَاهَا إِلَيْكَ رَحْمَةً بِمَنْ أُرْسِلْتَ إِلَيْهِمْ لتنذرهم بها ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أَيْ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ.

[٤٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ﴾ يُرِيدُ قُرَيْشًا، وَقِيلَ: الْيَهُودَ ، ﴿مُصِيبَةٌ﴾ أَيْ عُقُوبَةٌ وَنِقْمَةٌوَالْمُصِيبَةُ: مَا يُصِيبُ الْإِنْسَانَ، أَيْ يَحِلُّ بِهِ مِنَ الْأَحْوَالِ، وَغَلَبَ اخْتِصَاصُهَا بِمَا يَحِلُّ بِالْمَرْءِ مِنَ الْعُقُوبَةِ وَالْأَذَىٰ، ﴿بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي، وَخَصَّ الْأَيْدِي بِالذِّكْرِ، لِأَنَّ الْغَالِبَ مِنَ الْكَسْبِ إِنَّمَا يَقَعُ بِهَا، ﴿فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا﴾ هَلَّا، ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَجَوَابُ لَوْلَا مَحْذُوفٌ أَيْ لَعَاجَلْنَاهُمْ بِالْعُقُوبَةِ، يَعْنِي لَوْلَا أَنَّهُمْ يَحْتَجُّونَ بِتَرْكِ الْإِرْسَالِ إِلَيْهِمْ لَعَاجَلْنَاهُمْ بِالْعُقُوبَةِ بِكُفْرِهِمْ ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ لَمَا بَعَثْنَاكَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا وَلَكِنْ بَعَثْنَاكَ إِلَيْهِمْ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ.

[٤٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ يَعْنِي مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسلم، ﴿قَالُوا﴾ يعني كفار مكة، ﴿لَوْلَا﴾ هلا ﴿أُوتِيَ﴾ مُحَمَّدٌ، ﴿مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ مِنَ الْآيَاتِ يعنون مِثْلَ الْعَصَا، وَالْيَدِ، وَالطُّوفَانِ، وَالْجَرَادِ، والقُمّل، وَالضَّفَادِعِ، والدم، وتنقيص الزوع وَالثِّمَارِ مِمَّا يَضِيقُ عَلَىٰ أَعْدَاءِ اللهِ، وَكَفَلْقِ الْبَحْرِ، وَتَظْلِيلِ الْغَمَامِ، وَإِنْزَالِ الْمَنِّ وَالسَّلْوَىٰ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَةِ، وَالْحُجَجِ الْقَاهِرَةِ، التي أجرها الله تعالىٰ علىٰ يدي موسىٰ عليه السلام، حجة وبرهانـًا له علىٰ فرعون وملئه، وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ لَمْ يَنْجَعْ فِي فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، بَلْ كَفَرُوا بِمُوسَىٰ وَأَخِيهِ هَارُونَ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ أَيْ فَقَدْ كَفَرُوا بِآيَاتِ مُوسَىٰ كَمَا كَفَرُوا بِآيَاتِ مُحَمَّدٍ، ﴿قَالُوا سِحْرَانِ

تَظَاهَرَا﴾ قَرَأَ أَهْلُ الْكُوفَةِ: (سِحْرَانِ) أَيِ التَّوْرَاةُ وَالْقُرْآنُ تظَاهَرَا يَعْنِي كُلُّ سِحْرٍ يُقَوِّي الْآخَرَ نَسَبَ التَّظَاهُرَ إِلَىٰ السِّحْرَيْنِ عَلَىٰ الِاتِّسَاعِ، وَالتَّظَاهُرُ: التَّعَاوُنُ ، قَالَ الْكَلْبِيُّ: كَانَتْ مَقَالَتُهُمْ تِلْكَ حِينَ بعثوا في أمر رَسُولِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ رُءُوسِ الْيَهُودِ بِالْمَدِينَةِ، فَسَأَلُوهُمْ عَنْ مُحَمَّدٍ فَأَخْبَرُوهُمْ أَنَّ نَعْتَهُ فِي كِتَابِهِمِ التَّوْرَاةِ، فَرَجَعُوا فَأَخْبَرُوهُمْ بِقَوْلِ الْيَهُودِ، فَقَالُوا: ﴿سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ وَقَرَأَ الْآخَرُونَ: (سَاحِرَانِ) يَعْنُونَ مُحَمَّدًا وموسىٰ عليهما السَّلَامُ، لِأَنَّ مَعْنَىٰ التَّظَاهُرِ بِالنَّاسِ وَأَفْعَالِهِمْ أَشْبَهُ مِنْهُ بِالْكُتُبِ، وعَن مُجَاهِد قَالَ: سَأَلت ابْن عَبَّاس رَضِي الله عَنْهُمَا وَهُوَ بَين الرُّكْن وَالْبَاب والملتزم وَهُوَ متكىٰء علىٰ يَدي عِكْرِمَة فَقلت: أسحران تظاهرا أم ساحران فَقلت ذَلِك مرَارًا فَقَالَ عِكْرِمَة : ﴿سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ اذْهَبْ أَيهَا الرجل ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ أي: إنا بكل واحد منهما كافرون، قَالَ مُجَاهِدٌ: قَالَ يَهُودُ أَيْضًا: نَكْفُرُ بِمَا أُوتِيَ مُحَمَّدٌ أَيْضًا، قَالَ النَّسَفِيُّ: وَقِيلَ: إِنَّ أَهْلَ مَكَّةَ كَمَا كَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبِالْقُرْآنِ فَقَدْ كَفَرُوا بِمُوسَىٰ وَالتَّوْرَاةِ، وَقَالُوا فِي مُوسَىٰ وَمُحَمَّدٍ: سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا، أَوْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْقُرْآنِ: سِحْرَانِ تَظَاهَرَا.

[٤٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ﴾ لهم يَا مُحَمَّدُ ﴿فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا﴾ يَعْنِي مِنَ التَّوْرَاةِ وَالْقُرْآنِ، أَيْ قُلْ يا محمد إذا كَفَرْتُمْ مَعَاشِرَ الْمُشْرِكِينَ بِهَذَيْنِ الْكِتَابَيْنِ ﴿ فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدىٰ مِنْهُما أَتَّبِعْهُ﴾ لِيَكُونَ ذَلِكَ

عُذْرًا لَكُمْ فِي الْكُفْرِ ﴿أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فِي أَنَّهُمَا سِحْرَانِ ، أَوْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْ كِتَابَي مُوسَىٰ وَمُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

[٥٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ يا محمد أن يَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ : ﴿فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ﴾ أَيْ آرَاءَ قُلُوبِهِمْ وَمَا يَسْتَحْسِنُونَهُ وَيُحَبِّبُهُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ، وَإِنَّهُ لَا حُجَّةَ لَهُمْ، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللهِ﴾ أَيْ لَا أَحَدَ أَضَلُّ مِنْهُ: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ، قال الطبري : إِنَّ اللهَ لَا يُوَفِّقُ لِإِصَابَةِ الْحَقِّ وَسَبِيلِ الرُّشْدِ الْقَوْمَ الَّذِينَ خَالَفُوا أَمْرَ اللهِ وَتَرَكُوا طَاعَتَهُ، وَكَذَّبُوا رَسُولَهُ، وَبَدَّلُوا عَهْدَهُ، وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَ أَنْفُسِهِمْ إِيثَارًا مِنْهُمْ لِطَاعَةِ الشَّيْطَانِ عَلَىٰ طَاعَةِ رَبِّهِمْ.

[٥١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾أَيْ أَتْبَعْنَا بَعْضَهُ بَعْضًا، وَبَعَثْنَا رَسُولًا بَعْدَ رَسُولٍ،قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: بَيَّنَّا، قَالَ الْفَرَّاءُ: أَنْزَلْنَا آيَاتِ الْقُرْآنِ يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا قَالَ قَتَادَةُ: وَصَّلَ لَهُمُ الْقَوْلَ فِي هَذَا الْقُرْآنِ يَعْنِي كَيْفَ صَنَعَ بِمَنْ مَضَىٰ. قَالَ مُقَاتِلٌ: بَيَّنَّا لِكَفَّارِ مَكَّةَ بِمَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ أَخْبَارِ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ كَيْفَ عُذِّبُوا بِتَكْذِيبِهِمْ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: وَصَّلْنَا لَهُمْ خَبَرَ الدُّنْيَا بِخَبَرِ الْآخِرَةِ حَتَّىٰ كَأَنَّهُمْ عَايَنُوا الْآخِرَةَ فِي الدُّنْيَا، وَالتَّوْصِيلُ: مُبَالَغَةٌ فِي الْوَصْلِ، وَهُوَ ضَمُّ بَعْضِ الشَّيْءِ إِلَىٰ بَعْضٍ يُقَالُ: وَصَلَ الْحَبْلَ إِذَا ضَمَّ قِطَعَهُ بَعْضَهَا إِلَىٰ بَعْضٍ فَصَارَ حَبْلًا. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَتَذَكَّرُونَ مُحَمَّدًا فَيُؤْمِنُوا بِهِ، وَقِيلَ: يَتَذَكَّرُونَ فَيَخَافُوا أَنْ يَنْزِلَ بِهِمْ مَا نَزَلَ بِمَنْ قَبْلَهُمْ،

[٥٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ مِنْ قَبْلِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقِيلَ. مِنْ قَبْلِ القرآن، ﴿هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ نَزَلَتْ فِي مُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ عَبْدَ اللهِ بْنَ سَلَامٍ وَأَصْحَابَهُ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: بَلْ هُمْ أَهْلُ الإنجيل الذي قَدِمُوا مِنَ الْحَبَشَةِ وَآمَنُوا بِالنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: هُمْ أَرْبَعُونَ رَجُلًا قَدِمُوا مَعَ جَعْفَرٍ مِنَ الْحَبَشَةِ عَلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا رَأَوْا مَا بِالْمُسْلِمِينَ مِنَ الْخَصَاصَةِ قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ! إِنَّ لَنَا أَمْوَالًا فَإِنْ أَذِنْتَ لَنَا انْصَرَفْنَا وَجِئْنَا بِأَمْوَالِنَا فَوَاسَيْنَا الْمُسْلِمِينَ بِهَا فَأَذِنَ لَهُمْ فَانْصَرَفُوا فَأَتَوْا بِأَمْوَالِهِمْ فَوَاسَوْا بِهَا الْمُسْلِمِينَ، فَنَزَلَ فِيهِمْ ، ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ إِلَىٰ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ وَقَالَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ: نَزَلَتْ فِي النَّجَاشِيِّ وَأَصْحَابِهِ وَوَجَّهَ بِاثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا فَجَلَسُوا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ أَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابُهُ قَرِيبًا مِنْهُمْ، فَآمَنُوا بِالنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا قَامُوا مِنْ عِنْدِهِ تَبِعَهُمْ أَبُو جَهْلٍ وَمَنْ مَعَهُ، فَقَالَ لَهُمْ: خَيَّبَكُمُ اللهُ مِنْ رَكْبٍ، وقبحكم من وفد، لم تَلْبَثُوا أَنْ صَدَّقْتُمُوهُ، وَمَا رَأَيْنَا رَكْبًا أَحْمَقَ مِنْكُمْ وَلَا أَجْهَلَ، فَقَالُوا:" سَلامٌ عَلَيْكُمْ" لَمْ نَأْلُ أَنْفُسَنَا رُشْدًا" لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمَا قَالَ: نَزَلَتْ فِي ثَمَانِينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَرْبَعُونَ مِنْ نَجْرَانَ وَاثْنَانِ وَثَلَاثُونَ مِنَ الْحَبَشَةِ وَثَمَانِيَةٌ مِنَ الشَّامِ، ثُمَّ وَصَفَهُمُ اللهُ فَقَالَ:

[٥٣] : ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ، ﴿قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا﴾ وَذَلِكَ أَنَّ ذِكْرَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ

وَالْإِنْجِيلِ،قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: هَؤُلَاءِ قَوْمٌ آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ وَقَدْ أَدْرَكَهُ بَعْضُهُمْ: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ﴾ أَيْ مِنْ قَبْلِ نُزُولِهِ، أَوْ مِنْ قَبْلِ بَعْثَةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿مُسْلِمِينَ﴾ أَيْ مُوَحِّدِينَ، أَوْ مُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُ سَيُبْعَثُ مُحَمَّدٌ وَيَنْزِلُ عَلَيْهِ القرآن.

[٥٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ لِإِيمَانِهِمْ بِالْكِتَابِ الْأَوَّلِ وَبِالْكِتَابِ الْآخِرِ، ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي مُوسَىٰ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَأَدْرَكَ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ ، فَلَهُ أَجْرَانِ وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَدَّىٰ حَقَّ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحَقَّ سَيِّدِهِ فَلَهُ أَجْرَانِ وَرَجُلٌ كَانَتْ لَهُ أَمَةٌ فَغَذَّاهَا فَأَحْسَنَ غِذَاءَهَا ثُمَّ أدبها فأحسن أَدَّبَهَا ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ" قَالَ الشعبي للخراساني: خذا هذا الحديث بغير شي، فَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يَرْحَلُ فِيمَا دُونَ هَذَا إِلَىٰ الْمَدِينَةِ.

[٥٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ عَلَىٰ دِينِهِمْ، فَإِنَّ تَجَشُّمَ مِثْلِ هَذَا شَدِيدٌ عَلَىٰ النُّفُوسِ، قَالَ مُجَاهِدٌ: نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أسلموا فأوذوا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: يَدْفَعُونَ بِشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الشِّرْكَ، قَالَ مُقَاتِلٌ. يَدْفَعُونَ مَا سَمِعُوا مِنَ الْأَذَىٰ وَالشَّتْمِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِالصَّفْحِ والعفو والمغفرة، ﴿وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أَيْ يَدْفَعُونَ دَرَأْتُ إِذَا دَفَعْتُ، وَالدَّرْءُ الدَّفْعُ. قِيلَ:

يَدْفَعُونَ بِالِاحْتِمَالِ وَالْكَلَامِ الْحَسَنِ الْأَذَىٰ ، وَقِيلَ: يَدْفَعُونَ بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ الذُّنُوبَ، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ فِي الطَّاعَةِ.

[٥٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾ الْقَبِيحَ مِنَ الْقَوْلِ، أوهو كل ما حقه أن يلغىٰ ويترك، من العبث وغيره ﴿أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَسُبُّونَ مُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ: تَبًّا لَكُمْ تَرَكْتُمْ دِينَكُمْ فَيُعْرِضُونَ عَنْهُمْ وَلَا يَرُدُّونَ عَلَيْهِمْ، ﴿وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ لَنَا دِينُنَا وَلَكُمْ دِينُكُمْ، ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ لَيْسَ الْمُرَادُ مِنْهُ سَلَامُ التَّحِيَّةِ وَلَكِنَّهُ سَلَامُ الْمُتَارَكَةِ، مَعْنَاهُ سَلِمْتُمْ منا لا نعاوضكم بالشتم والقبح مِنَ الْقَوْلِ، ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ أَيْ دِينَ الْجَاهِلِينَ، يَعْنِي لَا نُحِبُّ دِينَكُمُ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ، وَقِيلَ: لَا نُرِيدُ أَنْ نَكُونَ من أهل الجهل والسعة، وَهَذَا قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرَ الْمُسْلِمُونَ بالقتال.

[٥٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أَيْ أَحْبَبْتَ هِدَايَتَهُ. وَقِيلَ: أَحْبَبْتَهُ لِقَرَابَتِهِ، إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يشاء ﴿وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ قال مجاهد ومقاتل: بمن قُدِّرَ لَهُ الْهُدَىٰ، نَزَلَتْ فِي أَبِي طَالِبٍ عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ وَفَاةُ أَبِي طَالِبٍ أَتَاهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «يَا عَمَّاهُ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ أَشْهَدُ لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» فَقَالَ: لَوْلَا أَنْ تُعَيِّرَنِي بِهَا قُرَيْشٌ يَقُولُونَ مَا حَمَلَهُ عَلَيْهِ إِلَّا جَزَعُ الْمَوْتِ لَأَقْرَرْتُ بِهَا عَيْنَكَ، لَا أَقُولُهَا إِلَّا لِأُقِرَّ بِهَا عينك، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يشآء وَهُوَ أَعْلَمُ بالمهتدين﴾.

[٥٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ وهي أرض مكة، نزلت في الحارث بْنِ عُثْمَانَ بْنِ نَوْفَلِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ وَذَلِكَ أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي تَقُولُ حَقٌّ وَلَكِنَّا إِنِ اتَّبَعْنَاكَ عَلَىٰ دِينِكَ خِفْنَا أَنْ تُخْرِجَنَا الْعَرَبُ مِنْ أَرْضِنَا مَكَّةَ، وَهُوَ مَعْنَىٰ قوله: ﴿نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ وَالِاخْتِطَافُ الِانْتِزَاعُ بِسُرْعَةٍ، وَالتَّخَطُّفُ: مُبَالَغَةٌ فِي الْخَطْفِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانَتْ تُغِيرُ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَيَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَأَهْلُ مَكَّةَ آمِنُونَ حَيْثُ كَانُوا، لِحُرْمَةِ الْحَرَمِ، وَمِنَ الْمَعْرُوفِ أَنَّهُ كَانَ يَأْمَنُ فِيهِ الظِّبَاءُ مِنَ الذِّئَابِ وَالْحَمَامُ من الحدأة، ﴿يُجْبَىٰ﴾ أي يجلب ويجمع،وَالْجَبْيُ: الْجَمْعُ وَالْجَلْبُ وَمِنْهُ جِبَايَةُ الْخَرَاجِ. ﴿إِلَيْهِ﴾ يقال: جبيت العامة فِي الْحَوْضِ أَيْ جَمَعْتُهُ، قَالَ مُقَاتِلٌ: يُحْمَلُ إِلَىٰ الْحَرَمِ، ﴿ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ما يقوله حق.

[٥٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ أَيْ مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ، ﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أَيْ فِي مَعِيشَتِهَا، أَيْ أَشَرَّتْ وَطَغَتْ، قَالَ عَطَاءٌ: عَاشُوا فِي الْبَطَرِ فَأَكَلُوا رِزْقَ اللهِ وَعَبَدُوا الْأَصْنَامَ، ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: لَمْ يَسْكُنْهَا إِلَّا الْمُسَافِرُونَ وما رأوا الطَّرِيقِ يَوْمًا أَوْ سَاعَةً، مَعْنَاهُ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا سُكُونًا قَلِيلًا. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ

لَمْ يُعَمَّرْ مِنْهَا إِلَّا أَقَلُّهَا وَأَكْثَرُهَا خراب، ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ أَيْ لِمَا تركوا بعد هلاكهم.

[٥٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ﴾ أي القرىٰ الكافرة ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا﴾ يَعْنِي فِي أَكْبَرِهَا وَأَعْظَمِهَا رَسُولًا يُنْذِرُهُمْ وَخَصَّ الْأَعْظَمَ بِبَعْثَةِ الرَّسُولِ فِيهَا لِأَنَّ الرَّسُولَ يُبْعَثُ إِلَىٰ الْأَشْرَافِ وَالْأَشْرَافُ يَسْكُنُونَ الْمَدَائِنَ، وَالْمَوَاضِعَ الَّتِي هِيَ أُمُّ مَا حَوْلَهَا، ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ: يُخْبِرُهُمُ الرَّسُولُ أَنَّ الْعَذَابَ نَازِلٌ بِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا، ويَعْنِي هنا مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عليه وسلم ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ مشركون، يريد أهلكهم بظلمهم.

[٦٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ أَيْ تَتَمَتَّعُونَ بِهَا مُدَّةَ حَيَاتِكُمْ، أَوْ مُدَّةً فِي حَيَاتِكُمْ، فَإِمَّا أَنْ تَزُولُوا عَنْهَا أَوْ تَزُولَ عَنْكُمْ، وَالْمَتَاعُ: مَا يُنْتَفَعُ بِهِ زَمَنًا ثُمَّ يَزُولُ. وَالزِّينَةُ: مَا يُحَسِّنُ الْأَجْسَامَ. فِي الحديث عنه عليه الصلاة والسلام: لا الفقرَ أخشىٰ عليكُم، ولكنْ أخشىٰ عليكُم أنْ تُبْسَطَ عليكُم الدنيا كما بُسِطَتْ علىٰ مَن كانَ قبلَكُم، فتَنَافسُوها كما تَنافَسُوها، وتُهْلِكَكُم كما أهْلَكَتْهُم ﴿وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أَيْ أَفْضَلُ وَأَدْوَمُ، يُرِيدُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَهِيَ الْجَنَّةُ، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أَنَّ الْبَاقِيَ أَفْضَلُ مِنَ الْفَانِي.

[٦١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾ أي الجنة، ﴿فَهُوَ لَاقِيهِ﴾ مُصِيبُهُ وَمُدْرِكُهُ وَصَائِرٌ إِلَيْهِ، ﴿كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وَيَزُولُ عَنْ قَرِيبٍ

﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ النَّارَ، قَالَ قَتَادَةُ: يَعْنِي الْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ، قَالَ مُجَاهِدٌ: نَزَلَتْ فِي النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي جَهْلٍ، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: نَزَلَتْ فِي حَمْزَةَ وَعَلِيٍّ وَأَبِي جَهْلٍ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: نَزَلَتْ فِي عَمَّارٍ وَالْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ. قال الثعلبي : الثَّعْلَبِيُّ: وَبِالْجُمْلَةِ فَإِنَّهَا نَزَلَتْ فِي كُلِّ كَافِرٍ مُتِّعَ فِي الدُّنْيَا بِالْعَافِيَةِ وَالْغِنَىٰ وَلَهُ فِي الْآخِرَةِ النَّارُ، وَفِي كُلِّ مُؤْمِنٍ صَبَرَ عَلَىٰ بَلَاءِ الدُّنْيَا ثِقَةً بِوَعْدِ اللهِ وَلَهُ في الآخرة الجنة.

[٦٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أَيْ يُنَادِي اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ بِزَعْمِكُمْ أَنَّهُمْ يَنْصُرُونَكُمْ وَيَشْفَعُونَ لَكُمْ ، ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ فِي الدُّنْيَا أَنَّهُمْ شُرَكَائِي.

[٦٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أوجب عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ وَهُمُ الرُّؤَسَاءُ الضَّلَالَةِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: هم الشياطين. ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ أي دعونا إِلَىٰ الْغَيِّ وَهُمُ الْأَتْبَاعُ، ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ أَضْلَلْنَاهُمْ كَمَا ضَلَلْنَا، ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ أَيْ تَبَرَّأَ بَعْضُنَا مِنْ بَعْضٍ، وَالشَّيَاطِينُ يَتَبَرَّءُونَ مِمَّنْ أَطَاعَهُمْ، وَالرُّؤَسَاءُ يَتَبَرَّءُونَ مِمَّنْ قَبِلَ مِنْهُمْ، ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ بَرِئَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وَصَارُوا أَعْدَاءً كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الزُّخْرُفِ: ٦٧].

[٦٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقِيلَ﴾ للكفار، ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ أَيِ اسْتَغِيثُوا بِالْأَصْنَامِ الَّتِي عَبَدْتُمُوهَا فِي الدُّنْيَا لِتَنْصُرَكُمْ وَتَدْفَعَ عَنْكُمْ ولِتُخَلِّصَكُمْ مِنَ

الْعَذَابِ، ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ أَيِ اسْتَغَاثُوا بِهِمْ، ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ أَيْ فَلَمْ يُجِيبُوهُمْ وَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِهِمْ ، ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ أَيْ فودُّوا حِينَ عَايَنُوا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا، وَجَوَابُ لَوْ مَحْذُوفٌ عَلَىٰ تَقْدِيرِ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ فِي الدُّنْيَا مَا رَأَوُا الْعَذَابَ، وَقِيلَ الْمَعْنَىٰ: وَدُّوا حِينَ رَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ فِي الدُّنْيَا إِذَا رَأَوُا الْعَذَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

[٦٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أَيْ يَسْأَلُ اللهُ الْكُفَّارَ، ﴿فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ أيْ يَقُولُ اللهُ لَهُمْ مَا كَانَ جَوَابُكُمْ لِمَنْ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ لَمَّا بَلَّغُوكُمْ رِسَالَاتِي .

[٦٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَعَمِيَتْ﴾ خفيت واشتبهت، ﴿عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ﴾ أَيِ الْأَخْبَارُ وَالْأَعْذَارُ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الحجج، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ فَلَا يَكُونُ لَهُمْ عُذْرٌ وَلَا حجة، أَيْ خَفِيَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَجُ، لِأَنَّ اللهَ قَدْ أَعْذَرَ إِلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا فَلَا يَكُونُ لَهُمْ عُذْرٌ وَلَا حُجَّةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ لَا يُجِيبُونَ، وَقَالَ قَتَادَةُ: لَا يَحْتَجُّونَ، وَقِيلَ: يَسْكُتُونَ لَا يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَدْحَضَ حُجَجَهُمْ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ أَيْ لَا يَنْطِقُونَ بِحُجَّةٍ، وَقِيلَ: ﴿لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ، وَلَا يَدْرُونَ مَا يُجِيبُونَ بِهِ مِنْ هَوْلِ تِلْكَ السَّاعَةِ، ثُمَّ يُجِيبُونَ بَعْدَ ذَلِكَ كَمَا أَخْبَرَ عَنْ قَوْلِهِمْ: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ، وَقَالَ

مُجَاهِدٌ: لَا يَتَسَاءَلُونَ بِالْأَنْسَابِ، وَقِيلَ: لَا يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا أَنْ يَحْمِلَ مِنْ ذنوبه شيئًا .

[٦٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ تابَ﴾ أَيْ مِنَ الشِّرْكِ ﴿وَآمَنَ﴾ أَيْ صَدَّقَ ﴿وَعَمِلَ صالِحًا﴾ أَدَّىٰ الْفَرَائِضَ وَأَكْثَرَ مِنَ النَّوَافِلِ ، ﴿فَعَسىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ أَيْ مِنَ الْفَائِزِينَ بِالسَّعَادَةِ ، وَعَسَىٰ مِنَ اللهِ وَاجِبَةٌ، أَيْ: فَأَمَّا مَنْ تَدَارَكَ نَفْسَهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَأَنَابَ إِلَىٰ اللهِ وَأَخْلَصَ لَهُ الْأُلُوهِيَّةَ وَأَفْرَدَهُ بِالْعِبَادَةِ وَالتَّعْظِيمِ، وَعَدَّلَ مَا فَاتَهُ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَهُوَ بِإِذْنِ اللهِ مِنَ النَّاجِينَ الْمُنْجِحِينَ الْمُدْرِكِينَ رَجَاءَهُمُ السَّعَادَةَ وَالْخُلُودَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

[٦٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ أَيْ مَا يَشَاءُ، فَمَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، فَالْأُمُورُ كُلُّهَا خَيْرُهَا وَشَرُّهَا بِيَدِهِ وَمَرْجِعُهَا إِلَيْهِ،نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ جَوَابًا لِلْمُشْرِكِينَ حِينَ قَالُوا: لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ يَعْنِي الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ أَوْ عُرْوَةَ بْنَ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيَّ، أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَىٰ أَنَّهُ لَا يَبْعَثُ الرُّسُلَ بِاخْتِيَارِهِمْ. قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ قِيلَ: (مَا) لِلْإِثْبَاتِ، مَعْنَاهُ: وَيَخْتَارُ اللهُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ، أَيْ يَخْتَارُ مَا هُوَ الْأَصْلَحُ وَالْخَيْرُ. وَقِيلَ: هُوَ لِلنَّفْيِ ورجحه ابن كثير أَيْ ليس إليهم الاختيار أو ليس لَهُمْ أَنْ يَخْتَارُوا عَلَىٰ اللهِ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَلِّمُنَا الِاسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا، كَمَا يُعَلِّمُنَا

السُّورَةَ فِي الْقُرْآنِ، يَقُولُ: « **إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ غَيْرَ الْفَرِيضَةِ ثُمَّ لْيَقُلْ اللَّهُمَّ إِنِي أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمَ وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي- أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ- فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ اللَّهُمَّ وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي- أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ- فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ وَاقْدُرْ لِيَ الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ" قَالَ: وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ** »(١) ، ﴿سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أَيْ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ الَّتِي لَا تَخْلُقُ ولا تختار شيئًا.

[٦٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ مِنْ كَنَنْتُ الشَّيْءَ إِذَا سَتَرْتُهُ هُنَا ، تَقْدِيرُهُ: مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ عَلَيْهِ، يُقَالُ: أَكْنَنْتُ الشَّيْءَ إِذَا أَخْفَيْتَهُ فِي نَفْسِكَ. ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: يعلم السرائر والضمائر، كما يعلم العلانية من ذلك والظواهر.

[٧٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أَيْ هُوَ الْمُنْفَرِدُ بِالْإِلَهِيَّةِ، فَلَا مَعْبُودَ سِوَاهُ، كما لا رب سِوَاهُ، ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ﴾ أَيْ فِي جَمِيعِ مَا يَفْعَلُهُ هُوَ الْمَحْمُودُ عَلَيْهِ بعدله وَحِكْمَتِهِ، ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ أَيِ الَّذِي لَا مُعَقِّبَ

---

(١) البخاري (١١٦٦) .

لَهُ لِقَهْرِهِ وَغَلَبَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَرَحِمَتِهِ، وعن هانئ بن يزيد، عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال: « **إنَّ الله هو الحَكَمُ، وإليهِ الحُكْم** »[1] ، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وإليه تردّون من بعدِ مماتكم، فيجزي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَلَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ فِي سَائِرِ الْأَعْمَالِ .

[٧١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أَخْبِرُونِي يَا أَهْلَ مَكَّةَ ،وَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ: امْتِنَانُ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ عِبَادِهِ نِعْمَةَ تَقْلِيبِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَتَعَاقُبِهِمَا، فَإِنَّهُ تَعَالَىٰ لَوْ شَاءَ اسْتِمْرَارَ اللَّيْلِ عَلَىٰ عِبَادِهِ دُونَ انْقِطَاعٍ لَوَقَعَ الضَّرَرُ بِمَصَالِحِهِمْ، وَلَسَئِمَتْ نُفُوسُهُمْ، وَلَأَظْلَمَتْ آمَالُهُمْ، وَلَوْ شَاءَ اسْتِمْرَارَ النَّهَارِ عَلَيْهِمْ دُونَ انْقِطَاعٍ لَحَصَلَ الضَّرَرُ بِأَبْدَانِهِمْ، وَلَوَقَعَ الْمَلَلُ وَالضَّجَرُ مِنْ تَتَابُعِ أَشْغَالِهِمْ، ﴿إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ دائما،وَالسَّرْمَدُ: الدَّائِمُ الَّذِي لَا يَنْقَطِعُ ، قَالَ فِي «الْكَشَّافِ» : مِنَ السَّرْدِ وَهُوَ الْمُتَابَعَةُ وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ: ثَلَاثَةٌ سَرْدٌ وَوَاحِدٌ فَرْدٌ ، قال ابن عاشور : وَالْمُرَادُ بِجَعْلِ اللَّيْلِ سَرْمَدًا أَنْ لَا يَكُونَ اللهُ خَلَقَ الشَّمْسَ وَيَكُونَ خَلَقَ الْأَرْضَ فَكَانَتِ الْأَرْضُ مُظْلِمَةً ، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ لَا نَهَارَ مَعَهُ، ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ﴾ بِنَهَارٍ تَطْلُبُونَ فِيهِ الْمَعِيشَةَ، ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ سَمَاعَ فَهْمٍ وَقَبُولٍ.

---

(١) أبو داود (٤٩٥٥) والنسائي (٥٣٨٧) .

[٧٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أَخْبِرُونِي يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ لا دليل فِيهِ، ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ أَيْ تَسْتَقِرُّونَ فِيهِ مِنَ التعب ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْخَطَأِ. قال السعدي : قال في الليل ﴿أَفَلا تَسْمَعُونَ﴾ وفي النهار ﴿أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ لِأَنَّ سُلْطَانَ السَّمْعِ أَبْلَغُ فِي اللَّيْلِ مِنْ سُلْطَانِ الْبَصَرِ، وَعَكْسُهُ النَّهَارُ. وَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ تَنْبِيهٌ إِلَىٰ أَنَّ الْعَبْدَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَدَبَّرَ نِعَمَ اللهِ عَلَيْهِ، وَيَسْتَبْصِرَ فِيهَا، وَيَقِيسَهَا بِحَالِ عَدَمِهَا؛ فَإِنَّهُ إِذَا وَازَنَ بَيْنَ حَالَةِ وُجُودِهَا وَبَيْنَ حَالَةِ عَدَمِهَا تَنَبَّهَ عَقْلُهُ لِمَوْضِعِ الْمِنَّةِ، بِخِلَافِ مَنْ جَرَىٰ مَعَ الْعَوَائِدِ، وَرَأَىٰ أَنَّ هَذَا أَمْرٌ لَمْ يَزَلْ مُسْتَمِرًّا وَلَا يَزَالُ، وَعَمِيَ قَلْبُهُ عَنِ الثَّنَاءِ عَلَىٰ اللهِ بِنِعَمِهِ، وَرُؤْيَةِ افْتِقَارِهِ إِلَيْهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ؛ فَإِنَّ هَذَا لَا يُحْدِثُ لَهُ فِكْرَةَ شُكْرٍ وَلَا ذِكْرٍ .

[٧٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أَيْ فِي اللَّيْلِ، ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أَيْ فِي النَّهَارِ بِالْأَسْفَارِ وَالتَّرْحَالِ وَالْحَرَكَاتِ وَالْأَشْغَالِ، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أيْ تَشْكُرُونَ اللهَ بِأَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمَنْ فَاتَهُ شَيْءٌ بِاللَّيْلِ اسْتَدْرَكَهُ بِالنَّهَارِ، أَوْ بِالنَّهَارِ اسْتَدْرَكَهُ بِاللَّيْلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ شكوراً﴾ [الفرقان : ٦٢] .

[٧٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ كَرَّرَ ذِكْرَ النِّدَاءِ لِلْمُشْرِكِينَ لِزِيَادَةِ التقريع والتوبيخ. وَقَالَ:" شُرَكَائِيَ" لِأَنَّهُمْ جَعَلُوا لَهُمْ نَصِيبًا مِنْ أَمْوَالِهِمْ. قال القرطبي : فَيَدْعُونَ الْأَصْنَامَ

فَلَا يَسْتَجِيبُونَ، فَتَظْهَرُ حَيْرَتُهُمْ ، ثُمَّ يُنَادَوْنَ مَرَّةً أُخْرَىٰ فَيَسْكُتُونَ. وَهُوَ تَوْبِيخُ وَزِيَادَةُ خِزْيٍ. وَالْمُنَادَاةُ هُنَا لَيْسَتْ مِنَ اللهِ؟ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَا يُكَلِّمُ الْكُفَّارَ ، قَالَ النَّسَفِيُّ: كَرَّرَ التَّوْبِيخَ لِاتِّخَاذِ الشُّرَكَاءِ لِيُؤْذِنَ أَنْ لَا شَيْءَ أَجْلَبُ لِغَضَبِ اللهِ مِنَ الْإِشْرَاكِ بِهِ، كَمَا لَا شَيْءَ أَدْخَلُ فِي مَرْضَاتِهِ مِنْ تَوْحِيدِهِ.

[٧٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَزَعْنَا﴾ أَخْرَجْنَا، وَالنَّزْعُ: جَذْبُ شَيْءٍ مِنْ بَيْنِ مَا هُوَ مُخْتَلِطٌ بِهِ ، ﴿مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يَعْنِي رَسُولَهُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ كَمَا قَالَ: فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا من كل أمة بشهيد، ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ حُجَّتَكُمْ بِأَنَّ مَعِيَ شَرِيكًا. ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ﴾ أي التَّوْحِيدَ، وقيل : أَيْ عَلِمُوا صِدْقَ مَا جَاءَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ. ﴿لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ فِي الدُّنْيَا.

[٧٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: كَانَ قَارُونُ عَمَّ مُوسَىٰ كَانَ أَخَا عِمْرَانَ، وَهُمَا ابْنَا يَصْهَرَ، وَلَمْ يَكُنْ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أَقْرَأَ لِلتَّوْرَاةِ مِنْ قَارُونَ، وَلَكِنَّهُ نَافَقَ كَمَا نافق السامري، قال ابن عاشور : ضربت قصة هارون مَثَلًا لِحَالِ بَعْضِ كُفَّارِ مَكَّةَ وَهُمْ سَادَتُهُمْ مِثْلُ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ وَأَبِي جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ ، ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ من البغي وهو الظلم، أي بالكبر والاستطالة عليهم، لما غلب عليهم الحرص ومحبة الدنيا، لغروره وتعززه برؤية زينة نفسه وقِيلَ: كَانَ عَامِلًا لِفِرْعَوْنَ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَكَانَ يَبْغِي عَلَيْهِمْ وَيَظْلِمُهُمْ، وَقَالَ قَتَادَةُ: بَغَىٰ عَلَيْهِمْ بِكَثْرَةِ الْمَالِ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: بَغَىٰ عليهم بالشرك، وَقِيلَ: بَغَىٰ عَلَيْهِمْ بِالْكِبَرِ وَالْعُلُوِّ ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ﴾

هي جمع مفتاح وَهُوَ الَّذِي يُفْتَحُ بِهِ الْبَابُ، هَذَا قَوْلُ قَتَادَةَ وَمُجَاهِدٍ وجماعة وقيل: مفاتح خَزَائِنُهُ، كَمَا قَالَ: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ أَيْ خَزَائِنُهُ ﴿لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ لتثقلهم أي وَتَمِيلُ بِهِمْ إِذَا حَمَلُوهَا لِثِقَلِهَا، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: هَذَا مِنَ الْمَقْلُوبِ تَقْدِيرُهُ: مَا إِنَّ الْعُصْبَةَ لَتَنُوءُ بِهَا، يُقَالُ: نَاءَ فَلَانٌ بِكَذَا إِذَا نَهَضَ بِهِ مُثْقَلًا،وَالْعُصْبَةُ: الْجَمَاعَةُ، وَاخْتَلَفُوا فِي عَدَدِ الْعُصْبَةِ قَالَ مُجَاهِدٌ: مَا بَيْنَ الْعَشَرَةِ إِلَىٰ خَمْسَةَ عَشَرَ، وَقَالَ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: مَا بَيْنَ الثَّلَاثَةِ إِلَىٰ الْعَشَرَةِ. ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾ أَيِ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقَالَ يَحْيَىٰ بْنُ سَلَّامٍ: الْقَوْمُ هُنَا مُوسَىٰ عليه السلام ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ لَا تَبْطَرْ وَلَا تَأْشَرُ وَلَا تَمْرَحُ،وَقَالَ الزَّجَّاجُ: الْمَعْنَىٰ لَا تَفْرَحْ بِالْمَالِ فَإِنَّ الْفَرِحَ بِالْمَالِ لَا يُؤَدِّي حَقَّهُ ، ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ الأشرين البطرين قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي الْأَشِرِينَ الْبَطِرِينَ، الَّذِينَ لَا يَشْكُرُونَ اللهَ عَلَىٰ مَا أَعْطَاهُمْ، وَقَالَ ابْنُ بَحْرٍ: لَا تَبْخَلْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْبَاخِلِينَ.

[٧٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ أَيِ اطْلُبْ فِيمَا أَعْطَاكَ اللهُ مِنَ الدُّنْيَا الدَّارَ الْآخِرَةَ وَهِيَ الْجَنَّةُ، فَإِنَّ مِنْ حَقِّ الْمُؤْمِنِ أَنْ يَصْرِفَ الدُّنْيَا فِيمَا يَنْفَعُهُ فِي الْآخِرَةِ لَا فِي التَّجَبُّرِ وَالْبَغْيِ، ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَابْنُ زَيْدٍ: لَا تَتْرُكُ أَنْ تَعْمَلَ فِي الدُّنْيَا والآخرة حَتَّىٰ تَنْجُوَ مِنَ الْعَذَابِ لِأَنَّ حَقِيقَةَ نَصِيبِ الْإِنْسَانِ مِنَ الدُّنْيَا أَنْ يَعْمَلَ لِلْآخِرَةِ ، قال ابن عباس : لَا تُضَيِّعْ عُمْرَكَ فِي أَلَّا تَعْمَلَ عَمَلًا صَالِحًا فِي دُنْيَاكَ، إِذِ الْآخِرَةُ إِنَّمَا يُعْمَلُ لَهَا،

فَنَصِيبُ الْإِنْسَانِ عُمْرُهُ وَعَمَلُهُ الصَّالِحُ فِيهَا. وَقَالَ السُّدِّيُّ: بِالصَّدَقَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَقَالَ أمير المؤمنين عَلِيٌّ رضي الله عنه : لا تنس صحتك وَشَبَابَكَ وَغِنَاكَ أَنْ تَطْلُبَ بِهَا الآخرة، وفِي الحدي أن رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لِرَجُلٍ وَهُوَ يَعِظُهُ: «**اغْتَنَمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ**»(١). وقال الحسن البصري: أمر أَنْ يُقَدِّمَ الْفَضْلَ وَيُمْسِكَ مَا يُغْنِيهِ، قَالَ مَنْصُورُ بْنُ زَاذَانَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ قَالَ: قُوتَكَ وَقُوتَ أَهْلِكَ، ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾ أَيْ أَحْسِنْ بِطَاعَةِ اللهِ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ بِنِعْمَتِهِ وَقِيلَ: أَحْسِنَ إِلَىٰ النَّاسِ كَمَا أَحْسَنَ الله إليك، قال القرطبي : أَيْ أَطِعِ اللهَ وَاعْبُدْهُ كَمَا أَنْعَمَ عَلَيْكَ ، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ: مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: « **أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**» وَقِيلَ: هُوَ أَمْرٌ بِصِلَةِ الْمَسَاكِينِ ، ﴿وَلا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ﴾ أَيْ لَا تَعْمَلْ بِالْمَعَاصِي ، وكل مَنْ عَصَىٰ اللهَ فَقَدْ طَلَبَ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ، وقال الطبري : ولا تلتمس ما حرَّم الله عليكَ من البغي علىٰ قومك. وَالْمُرَادُ بِالْأَرْضِ أَرْضُهُمُ الَّتِي هُمْ ساكنون بِهَا، وَإِذْ قَدْ كَانَتْ جُزْءًا مِنَ الْكُرَةِ الْأَرْضِيَّةِ فَالْإِفْسَادُ فِيهَا إِفْسَادٌ مَظْرُوفٌ فِي عُمُومِ الْأَرْضِ ، ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ لا يحب بُغاة البغي والمعاصي.

---

(١) الحاكم (٧٨٤٦).

[٧٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قال﴾ يَعْنِي قَارُونَ، ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ أَيْ عَلَىٰ فَضْلٍ وَخَيْرٍ عَلِمَهُ اللهُ عِنْدِي فَرَآنِي أَهْلًا لِذَلِكَ فَفَضَّلَنِي بِهَذَا الْمَالِ عَلَيْكُمْ كَمَا فَضَّلَنِي بِغَيْرِهِ قِيلَ: هُوَ عِلْمُ الْكِيمْيَاءِ قال القرطبي : وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَوْ لَمْ يُسَهِّلْ لَهُ اكْتِسَابَهَا لَمَا اجْتَمَعَتْ عِنْدَهُ، وَقِيلَ: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ بِالتَّصَرُّفِ فِي التِّجَارَاتِ وَالزِّرَاعَاتِ وَأَنْوَاعِ الْمَكَاسِبِ، قَالَ السَّعْدِيُّ: أَيْ: إِنَّمَا أَدْرَكْتُ هَذِهِ الْأَمْوَالَ بِكَسْبِي وَمَعْرِفَتِي بِوُجُوهِ الْمَكَاسِبِ، وَحِذْقِي، أَوْ عَلَىٰ عِلْمٍ مِنَ اللهِ بِحَالِي، يَعْلَمُ أَنِّي أَهْلٌ لِذَلِكَ، فَلِمَ تَنْصَحُونِي عَلَىٰ مَا أَعْطَانِي اللهُ تَعَالَىٰ؟ قَالَ تَعَالَىٰ مُبَيِّنًا أَنَّ عَطَاءَهُ لَيْسَ دَلِيلًا عَلَىٰ حُسْنِ حَالَةِ الْمُعْطَىٰ.

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أَيْ بِالْعَذَابِ، ﴿مِنَ الْقُرُونِ﴾ أَيِ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ الْكَافِرَةِ، ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ أَيْ لِلْمَالِ، وَلَوْ كَانَ الْمَالُ يَدُلُّ عَلَىٰ فَضْلٍ لَمَا أَهْلَكَهُمْ. وَقِيلَ: الْقُوَّةُ الْآلَاتُ، وَالْجَمْعُ الْأَعْوَانُ وَالْأَنْصَارُ، وَالْكَلَامُ خرج مخرج التقريع من الله تعال لِقَارُونَ، ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: يَدْخُلُونَ النَّارَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا سُؤَالٍ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي لَا يَسْأَلُ الْمَلَائِكَةُ عَنْهُمْ لِأَنَّهُمْ يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْفَإِنَّهُمْ يُحْشَرُونَ سُودَ الْوُجُوهِ زُرْقَ الْعُيُونِ. وقَالَ الْحَسَنُ البصري : لَا يُسْأَلُونَ سُؤَالَ اسْتِعْلَامٍ وَإِنَّمَا يُسْأَلُونَ سُؤَالَ تَقْرِيعٍ وَتَوْبِيخٍ.

[٧٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ أَيْ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِيمَا رَآهُ زِينَةً مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، مِنَ الثِّيَابِ وَالدَّوَابِّ وَالتَّجَمُّلِ فِي يَوْمِ عِيدٍ، وعند

مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال: « **بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ، مُرَجِّلٌ رَأْسَهُ، يَخْتَالُ فِي مِشْيَتِهِ، إِذْ خَسَفَ اللهُ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِي الْأَرْضِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»(١) ، ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أَيْ نَصِيبٍ وَافِرٍ مِنَ الدُّنْيَا. ثُمَّ قِيلَ: هَذَا مِنْ قَوْلِ مُؤْمِنِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، تَمَنَّوْا مِثْلَ مَالِهِ رَغْبَةً فِي الدُّنْيَا. وَقِيلَ: هُوَ مِنْ قَوْلِ أَقْوَامٍ لَمْ يُؤْمِنُوا بِالْآخِرَةِ وَلَا رَغِبُوا فِيهَا، وَهُمُ الْكُفَّارُ.

[٨٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: يَعْنِي الْأَحْبَارَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: أُوتُوا الْعِلْمَ بِمَا وَعَدَ اللهُ فِي الْآخِرَةِ قَالُوا لِلَّذِينِ تَمَنَّوْا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ فِي الدُّنْيَا؟ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَيْ لَمَّا عَلِمَ اللهُ تَعَالَىٰ مِنِ اسْتِحْقَاقِي لَهُ، وَلَوْلَا أَنِّي مُسْتَحِقٌّ لَمَا خَوَّلَنِي هَذَا. وَذَكَرَهُ الْقُرْطُبِيُّ فَقَالَ: أَيْ عَلَىٰ عِلْمٍ مِنَ اللهِ بِفَضْلِي، وَقَالَ الشَّوْكَانِيُّ: وَقِيلَ: قَدْ عَلِمْتُ أَنِّي إِذَا أُوتِيتُ هَذَا فِي الدُّنْيَا أَنَّ لِي عِنْدَ اللهِ مَنْزِلَةً، وَجَاءَ بِالضَّمِيرِ فِي (أُوتِيتُهُ) مُذَكَّرًا مَعَ كَوْنِهِ رَاجِعًا إِلَىٰ النِّعْمَةِ لِأَنَّهَا بِمَعْنَىٰ الْإِنْعَامِ ، ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ﴾ يَعْنِي مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الثَّوَابِ وَالْجَزَاءِ خَيْرٌ ﴿لِمَنْ آمَنَ﴾ وَصَدَّقَ بِتَوْحِيدِ اللهِ، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ مِمَّا أُوتِيَ قَارُونُ فِي الدُّنْيَا، ﴿وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ: لَا يُؤْتَاهَا يَعْنِي الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: لَا يُعْطَاهَا فِي الْآخِرَةِ.

---

(١) مسلم (٢٠٨٨) .

وَقِيلَ: لَا يُؤْتَىٰ هَذِهِ الْكَلِمَةُ وَهِيَ قَوْلُهُ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ إِلَّا الصَّابِرُونَ عَلَىٰ طَاعَةِ اللهِ وَعَنْ زِينَةِ الدُّنْيَا.

[٨١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ هو إخبار عن نهاية الكبر والخيلاء، والبطر والغرور وسبيل الأشقياء، فقد خسف الله بقارون وبداره التي فيها أمواله ومتاعه وزينته الأرض. يُقَالُ: خَسَفَ الْمَكَانُ يَخْسِفُ خُسُوفًا ذَهَبَ فِي الْأَرْضِ وَخَسَفَ اللهُ بِهِ الْأَرْضَ خَسْفًا أَيْ غَابَ بِهِ فِيهَا. قَالَ ثَعْلَبُ: كَسَفَتِ الشَّمْسُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ، هَذَا أَجْوَدُ الْكَلَامِ ، وَالْخَسْفُ النُّقْصَانُ، يُقَالُ: رَضِيَ فُلَانٌ بِالْخَسْفِ أَيْ بِالنَّقِيصَةِ. ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ﴾ من جَمَاعَةٌ، ﴿يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ قال قتادة : أي جند ينصرونه، وما عنده منعة يمتنعُ بها من الله ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ الْمُمْتَنِعِينَ مِمَّا نَزَلَ بِهِ مِنَ الْخَسْفِ والمعنىٰ: لم يكن له جند يستنجد بهم، ولا فئة يرجع إليهم، يلتمس منهم النجدة والنصر، ولا كانَ هو ممن ينتصر من الله إذ أنزل عليهِ سخطه وأحلَّ بِهِ نقمته.

[٨٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ﴾ صَارَ أُولَئِكَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَا رَزَقَهُ اللهُ مِنَ الْمَالِ وَالزِّينَةِ يتندمون علىٰ ذلك التمني ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ﴾ اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَىٰ هَذِهِ اللَّفْظَةِ، قَالَ مُجَاهِدٌ: أَلَمْ تَعْلَمْ، وَقَالَ قَتَادَةُ: أَلَمْ تَرَ. قَالَ الْفَرَّاءُ: هِيَ كَلِمَةُ تَقْرِيرٍ كَقَوْلِ الرَّجُلِ أَمَا تَرَىٰ إِلَىٰ صُنْعِ اللهِ وإحسانه. وَقَالَ الْخَلِيلُ: وَيْ مَفْصُولَةٌ مِنْ كأن ومعناها التعجب كما يقول: وَيْ لِمَ فَعَلْتَ ذَلِكَ، وَذَلِكَ أَنَّ الْقَوْمَ تَنَدَّمُوا فَقَالُوا: وَيْ مُتَنَدِّمِينَ عَلَىٰ مَا سَلَفَ مِنْهُمْ وَكَأَنَّ

مَعْنَاهُ أَظُنُّ ذَلِكَ وَأُقَدِّرُهُ، كما تقول: كأن الفرح قَدْ أَتَاكَ أَيْ أَظُنُّ ذَلِكَ وَأُقَدِّرُهُ، وَالْمُتَنَدِّمُ مِنَ الْعَرَبِ يَقُولُ فِي خِلَالِ تَنَدُّمِهِ (وَيْ)، ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ أَيْ لَيْسَ الْمَالُ بدالٍّ عَلَىٰ رِضَا اللهِ عَنْ صَاحِبِهِ، فَإِنَّ اللهَ يُعْطِي وَيَمْنَعُ، وَيُضَيِّقُ وَيُوَسِّعُ، وَيَخْفِضُ ويرفع، وَهَذَا كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: «**إِنَّ اللهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللهَ يُعْطِي الْمَالَ مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الإيمان إِلَّا مَنْ يُحِبُّ**»[1]، أَيْ لَوْلَا لُطْفُ اللهِ بِنَا وَإِحْسَانُهُ إِلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا كَمَا خَسَفَ بِهِ لِأَنَّا وَدِدْنَا أَنْ نَكُونَ مَثَلَهُ، ﴿وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ يَعْنُونَ أَنَّهُ كَانَ كَافِرًا ولا يفلح الكافرون عِنْدَ اللهِ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الآخرة، واختلف فِي (وَيْكَأَنَّهُ) قَالَ الطَّبَرِيُّ: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: يَعْنُونَ أَنَّهُ كَانَ كَافِرًا، وَلَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ عِنْدَ اللهِ، لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ.

[٨٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ يَعْنِي الْجَنَّةَ، وَقَالَ ذَلِكَ عَلَىٰ جِهَةِ التَّعْظِيمِ لَهَا وَالتَّفْخِيمِ لِشَأْنِهَا يَعْنِي تِلْكَ الَّتِي سَمِعْتَ بِذِكْرِهَا، وَبَلَغَكَ وَصْفُهَا ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ أَيْ رِفْعَةً وَتَكَبُّرًا عَلَىٰ الْإِيمَانِ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ عملاً بالمعاصي، قَالَ الْكَلْبِيُّ وَمُقَاتِلٌ: اسْتِكْبَارًا عَنِ الْإِيمَانِ، وَقَالَ عَطَاءٌ: عُلُوًّا وَاسْتِطَالَةً عَلَىٰ النَّاسِ وَتَهَاوُنًا بِهِمْ، وَقَالَ الْحَسَنُ:

---

(١) أحمد (٣٦٧٢).

لَمْ تَطْلُبُوا الشَّرَفَ وَالْعِزَّ عند ذي سلطانها، وقال سفيان الثوري: العلو في الأرض: التكبّر بغير حق، والفساد: أخذُ المال بغير حق، وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي أَهْلِ التَّوَاضُعِ مِنَ الْوُلَاةِ وَأَهْلِ الْقُدْرَةِ، ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ قَالَ الْكَلْبِيُّ: هُوَ الدُّعَاءُ إِلَىٰ عِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: أَخْذُ أَمْوَالِ النَّاسِ بِغَيْرِ حَقٍّ. قال ابْنُ جُرَيْجٍ وَمُقَاتِلٌ: الْعَمَلُ بِالْمَعَاصِي، ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أَيِ الْعَاقِبَةُ الْمَحْمُودَةُ لِمَنِ اتَّقَىٰ عقاب الله بأداء أمره واجتناب معاصيه، قال قَتَادَةُ: الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ، قالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ: الَّذِي لَا يُرِيدُ عُلُوًّا هُوَ مَنْ لَمْ يَجْزَعْ مِنْ ذُلِّهَا، وَلَمْ يُنَافِسْ فِي عِزِّهَا، وَأَرْفَعُهُمْ عِنْدَ اللهِ أَشَدُّهُمْ تَوَاضُعًا، وَأَعَزُّهُمْ غَدًا أَلْزَمُهُمْ لِذُلِّ الْيَوْمَ، و مَرَّ عَلِيُّ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَىٰ مَسَاكِينَ يَأْكُلُونَ كِسَرًا لَهُمْ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ فَدَعَوْهُ إِلَىٰ طَعَامِهِمْ، فَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَساداً﴾ ، ثُمَّ نَزَلَ وَأَكَلَ مَعَهُمْ، ثُمَّ قَالَ: قَدْ أَجَبْتُكُمْ فَأَجِيبُونِي. فَحَمَلَهُمْ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ فَأَطْعَمَهُمْ وَكَسَاهُمْ وَصَرَفَهُمْ.

[٨٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ أَيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ أَيْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ مِنْ حَسَنَةِ الْعَبْدِ فَكَيْفَ وَاللهُ يُضَاعِفُهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وهذا مَقَامُ الْفَضْلِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ ﴾هي كل ما نهىٰ الشارع عنه، نَهْيَ تحريم ﴿فَلاَ يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

[٨٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ أَيْ أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ - عَلَىٰ قَوْلِ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ - وَقَالَ عَطَاءٌ: أَوْجَبَ عَلَيْكَ الْعَمَلَ بِالْقُرْآنِ،

﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ إلىٰ مكة، وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عليه وسلم «لما خرج مُهَاجِرًا إِلَىٰ الْمَدِينَةِ سَارَ فِي غَيْرِ الطَّرِيقِ مَخَافَةَ الطَّلَبِ فَلَمَّا أَمِنَ وَرَجَعَ إِلَىٰ الطَّرِيقِ نَزَلَ الْجُحْفَةَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، وَعَرَفَ الطَّرِيقَ إِلَىٰ مَكَّةَ اشْتَاقَ إِلَيْهَا، فأتاه جبريل وَقَالَ: أَتَشْتَاقُ إِلَىٰ بَلَدِكَ وَمَوْلِدِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ » وَهَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ بِالْجُحْفَةِ لَيْسَتْ بِمَكِّيَّةٍ وَلَا مَدَنِيَّةٍ، وَرَوَىٰ عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ إِلَىٰ الْمَوْتِ، وَقَالَ الزُّهْرِيُّ وَعِكْرِمَةُ: إِلَىٰ الْقِيَامَةِ. وَقِيلَ: إِلَىٰ الْجَنَّةِ. ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ﴾ أَيْ يَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَهَذَا جَوَابٌ لِكُفَّارِ مَكَّةَ لَمَّا قَالُوا لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: قُلْ لَهُمْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ أَيْ يَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ يَعْنِي نَفْسَهُ، ﴿وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ وَمَعْنَاهُ أَعْلَمُ بِالْفَرِيقَيْنِ، قال ابن كثير : أَيْ قُلْ لِمَنْ خَالَفَكَ وَكَذَّبَكَ يَا مُحَمَّدُ مِنْ قَوْمِكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ قُلْ: رَبِّي أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِي مِنْكُمْ وَمِنِّي، وَسَتَعْلَمُونَ لِمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ وَلِمَنْ تَكُونُ الْعَاقِبَةُ وَالنُّصْرَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ مُذَكِّرًا لِنَبِيِّهِ نِعْمَتَهُ الْعَظِيمَةَ عَلَيْهِ.

[٨٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ أَيْ مَا كُنْتَ تَظُنُّ قَبْلَ إِنْزَالِ الوحي إليك أن الوحي ينزل عليك، ﴿ولكن رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي إنما أنزل الْوَحْيُ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ مِنْ رَحْمَتِهِ بِكَ وَبِالْعِبَادِ بِسَبَبِكَ، فَإِذَا مَنَحَكَ

بِهَذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ ، قَالَ السَّعْدِيُّ: رُسُلُكَ بِهَذَا الْكِتَابِ، الَّذِي رَحِمَ بِهِ الْعَالَمِينَ، وَعَلَّمَهُمْ مَا لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ، وَزَكَّاهُمْ وَعَلَّمَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، فَإِذَا عَلِمْتَ أَنَّهُ أَنْزَلَ إِلَيْكَ رَحْمَةً مِنْهُ، [عَلِمْتَ] أَنَّ جَمِيعَ مَا أَمَرَ بِهِ وَنَهَىٰ عَنْهُ، فَإِنَّهُ رَحْمَةٌ وَفَضْلٌ مِنَ اللهِ، فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْ شَيْءٍ مِنْهُ، وَتَظُنَّ أَنَّ مُخَالِفَهُ أَصْلَحُ وَأَنْفَعُ، ﴿فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيراً للكافرين﴾ أي معينًا لهم علىٰ ما هو من شعب كفرهم، وَلَكِنْ فَارِقْهُمْ وَنَابِذْهُمْ وَخَالِفْهُمْ، وقال مُقَاتِلٌ: وَذَلِكَ حِينَ دُعِيَ إِلَىٰ دِينِ آبَائِهِ فَذَكَرَ اللهُ نِعَمَهُ وَنَهَاهُ عَنْ مُظَاهَرَتِهِمْ عَلَىٰ مَا هُمْ عَلَيْهِ ، وَالظَّهِيرُ: الْمُعِينُ، وَالْمُظَاهَرَةُ: الْمُعَاوَنَةُ، وَهِيَ مَرَاتِبُ أَعْلَاهَا النُّصْرَةُ وَأَدْنَاهَا الْمُصَانَعَةُ وَالتَّسَامُحُ.

[٨٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ، ﴿ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إِلَىٰ مَعْرِفَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: الْخِطَابُ فِي الظَّاهِرِ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُرَادُ بِهِ أَهْلُ دِينِهِ أَيْ لَا تظاهروا الكفار ولا توافقهم.

[٨٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إله إلا هُوَ﴾ أي لا يليق الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ وَلَا تَنْبَغِي الْإِلَهِيَّةُ إِلَّا لعظمته، وقوله: ﴿كل شيء إِلَّا وَجْهَهُ﴾ إخبارٌ بِأَنَّهُ الدَّائِمُ الْبَاقِي الْحَيُّ الْقَيُّومُ الَّذِي تَمُوتُ الْخَلَائِقُ وَلَا يَمُوتُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [٢٦-٢٧] فعبر بالوجه عن الذات، وهكذا قوله هنهنا: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ وَجْهَهُ﴾ أَيْ إِلَّا

إِيَّاهُ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصحيح: «**أصدق كلمة قالها الشاعر لَبِيَدٍ : أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ باطل** »[1]، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالثَّوْرِيُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ أَيْ إِلَّا مَا أُرِيدَ به وجهه، وَهَذَا الْقَوْلُ لَا يُنَافِي الْقَوْلَ الْأَوَّلَ، فَإِنَّ هَذَا إِخْبَارٌ عَنْ كُلِّ الْأَعْمَالِ بِأَنَّهَا بَاطِلَةٌ، إلاّ ما أريد به وجه الله تعالىٰ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الْمُطَابِقَةِ لِلشَّرِيعَةِ، وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ مقتضاه أن كل الذوات فانية وزائلة إلاّ ذاته تعالىٰ وتقدس، فَإِنَّهُ الْأَوَّلُ الْآخِرُ الَّذِي هُوَ قَبْلَ كُلِّ شيء وبعد كل شيء، وكان ابْنُ عُمَرَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَعَاهَدَ قَلْبَهُ يَأْتِي الْخَرِبَةَ فَيَقِفُ عَلَىٰ بَابِهَا فَيُنَادِي بِصَوْتٍ حَزِينٍ: فَيَقُولُ أَيْنَ أَهْلُكِ؟ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَىٰ نَفْسِهِ فَيَقُولُ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ وعَن ثَابت رَضِي الله عَنهُ قَالَ: لما مَاتَ مُوسَىٰ بن عمرَان عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام جالت الْمَلَائِكَة عَلَيْهِم السَّلَام فِي السَّمَوَات يَقُولُونَ: مَاتَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام فَأَي نفس لَا تَمُوت قَالَ الْبَيْهَقِيُّ: تَكَرَّرَ ذِكْرُ الْوَجْهِ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ، وَهُوَ فِي بَعْضِهَا صِفَةُ ذَاتٍ؛ كَقَوْلِهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **إِلَّا رِدَاءَ الْكِبْرِيَاءِ عَلَىٰ وَجْهِهِ**»[2] ، وَفِي بَعْضِهَا بِمَعْنَىٰ: مِنْ أَجْلِ ، كقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ﴾، وفي بعضها بمعنىٰ الرضىٰ كقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، وقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴾ ، قوله ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ أَيِ الْمُلْكُ وَالتَّصَرُّفُ وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، وقال القاسمي: أي القضاء النافذ في

---

(١) البخاري (٣٨٤١) ومسلم (٢٢٥٦) .

(٢) مسلم (٢٦٢٠) .

الخلق، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أَيْ يَوْمَ مَعَادِكُمْ فيجزيكم بِأَعْمَالِكُمْ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنَّ شَرًّا فَشَرٌّ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقَصَصِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

الفهرست